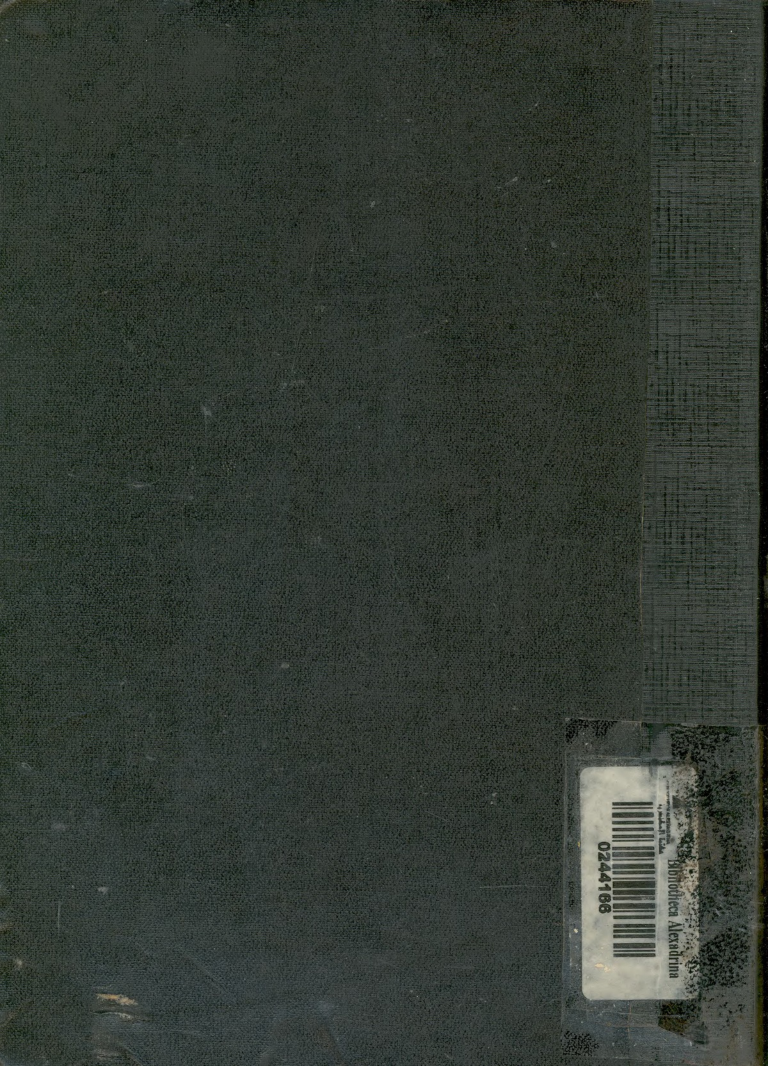

Bibliotheca Alexandrina
0244166

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ظل اصطلاح العصور الوسطى حتى زمن قريب يطلق على القرون العشرة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وظهور حركة النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر . على أن ازدياد الاهتمام بالتقدم الحضارى الذى أصابته أوربا منذ القـــرن الحادى عشر ، أدى الى الاعتراف حديثا بأن ثمة حضارة جديدة قوية شهدتها أوربا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى ، مما ساعد على ظهور اتجاه بين الباحثين يرمى الى قصر اسم العصور الوسطى على القرون الأربعة التى سبقت النهضة الايطالية مباشرة ، أو التى تمخضت عن مولد هذه النهضة ، على أن نعتبر الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والحادى عشر بمثابة دور انتقال طويل من العصور القديمة الى العصور الوسطى .

واذا كان أبناء المدرسة القديمة من المؤرخين قد أصروا دائما على اتخاذ سنة ٤٧٦ ــ وهى السنة التى سقطت فيها الامبراطورية فى الغرب ــ حدا فاصلا بين العصور القديمة والوسطى ، وسنة ١٤٥٣ ــ وهى السنة التى سقطت فيها القسطنطينية فى أيدى العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عـــام بين انجلترا وفرنسا ــ حدا فاصلا بين العصور الوسطى والحديثة ، الا أننا لا نستطيع أن نسايرهم باطمئنان فى هذا الاتجاه . ذلك أن اختيار سنة بعينها أو حـــدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر ، يبدو فى نظرنا أمرا بعيدا عن الحقيقة والواقع ، لأن التطور التاريخى يمتاز دائمـــا

بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها فى بعض ، أشبه شىء بنمـــو الكائن الحى . وكما أننا لا نستطيع اتخاذ لحظة بعينها نقول ان الفرد ينتقل فيها من مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب أو من هذه المرحلة الأخيرة الى مرحلة الشيخوخة ، فكذلك من المبالغة التاريخية أن نختار سنة محدودة نقول ان العصور القديمة انتهت فيها بجميع مظاهرها لتحل محلها العصور الوسطى ، أو أن العصور الوسطى توقفت فيها عن السير تماما لتفسح الطريق للعصور الحديثة . وبعبارة أخرى فاننا نحب أن نؤكد ظاهرة تداخل العصـــــــور التاريخية بعضها فى بعض ، بحيث لا تفصلها حدود ضيقة وسنون معينة ، وان كان من الممكن أن نتلمس العذر للمؤرخين عندما يصطلحون على اختيار بعض السنوات الهامة أو الأحداث الكبرى لتكون فواصل بين العصور التاريخية ، بأن الغرض من ذلك هو مجرد الرغبة فى تسهيل البحث على أساس أن هذه السنين وما تم فيها من أحداث كبرى هى أخطر الوقائع فى مرحلة الانتقال بين عصر وآخر .

وكل ما هنالك هو أننا نلمس فى القرن الرابع حدوث بعض التطورات العظيمة التى كان لها أثر فى تغيير وجه التاريخ القديم ، وان ظلت معالم هذا التاريخ القديم باقية فى أوربا الى ما بعد القـرن الرابع بكثير . من ذلك ما شهده ذلك القرن من اعتراف الامبراطورية بالديانة المسيحية سنة ٣١٣ ، ونقل عاصمة الامبراطورية الى القسطنطينية سنة ٣٣٠ ، وازدياد خطر الجرمان على كيان الامبراطورية الرومانية عقب موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ، واتخاذ المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية سنة ٣٩٢ ، ثم تقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى الى قسمين شرقى وغربى سنة ٣٩٥ . فالقرن الرابع اذا يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كيفت تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، وهى الكنيسة المسيحية والجرمان والامبراطورية ، فلا أقل من أن نبدأ دراستنا لتاريخ أوربا فى تلك العصور باستعراض أحوالها عند مستهل القرن الرابع دون أن نرتبط بسنة معينة فى بداية ذلك القرن أو نهايته . كذلك يلمس الباحث فى تاريخ القرن الخامس عشر أن ثمة تطورات

هامة أخذت تلم بالمجتمع الأوربى - وبخاصة فى النصف الأخير من ذلك القرن - لتغير المألوف وتنتقل بذلك المجتمع - تدريجيا - نحو أوضاع أخرى جديدة . ففى سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينيه - عاصمه الامبراطورية العتيدة - فى أيدى العثمانيين ، مما ترتب عليه حدوث انقلاب خطير فى شرق أوربا نتيجة لاتساع نفوذ العثمانيين . حقيقة ان هذه لم تكن المرة الأولى التى تسقط فيها عاصمة الامبراطورية البيزنطيه فى أيدى الأعداء ، فقد سبق أن سقطت فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعه سنة ١٢٠٤ ، وعندئذ تعرضت الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها لأشد أنواع العنت على أيدى الصليبيين . ولكن على الرغم من العداء المذهبى الشديد بين الصليبيين الكاثوليك والبيزنطيين الأرثوذكس ، الا أننا يجب أن نذكر أن هؤلاء الصليبيين كانوا مسيحيين غربيين . اما العثمانيون الذين استولوا على القسطنطينية ١٤٥٣ ، فلم يكونوا مسيحيين أو غربيين وانما كانوا مسلمين شرقيين ، مما يوضح خطورة الانقلاب الذى تعرضت له أوربا وحضارتها نتيجة لذلك الحدث . واذا كانت سنة ١٤٥٣ تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ ذلك الجزء الشرقى من أوربا ، فان هذه السنة ذاتها قد تكون عديمة الأهمية بالنسبة لكثير من بقية بلاد أوربا . حقيقة انها شهدت أيضا هزيمة الانجليز فى موقعة شاتيلون وبذلك وضعت نهاية فعلية لحرب المائة عام ، ولكننا اذا دققنا النظر فى تاريخ انجلترا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وجدنا أن سنة ١٤٨٥ - التى شهدت قيام أسرة تيودور فى الحكم - أكثر بروزا وأهمية بالنسبة للتاريخ الانجليزى بالذات .

ومثل ذلك يقال عن سنة ١٤٦٦ بالنسبة لبولندا لأن فيها خضع الفرسان التيتون وانضمت بروسيا الى بولندا ، وسنة ١٤٨٠ بالنسبة لروسيا لتحررها وفقتذ من نفوذ المغول ، وسنة (١٤٩١ - ١٤٩٢) بالنسبة لأسبانيا لسقوط دولة غرناطة الاسلامية . هذا كله عدا ما شهده النصف الأخير من القرن الخامس عشر من حركة افاقة شاملة سرت فى المجتمع الأوربى ليترتب عليها ما يعرف باسم حركة النهضة ، وهى الحركة التى كانت أهم مظاهرها احياء الآداب والعلوم والفنون وتحرير العقل البشرى من كثير من القيود القديمة ،

والتى جاءت مصحوبة باختراع الطباعة من جهة ، واستكشاف الطرق البحرية الى امريكا والهند من جهة ثانية ، ثم الثورة على الكنيسة وأوضاعها من جهة ثالثة • لذلك حاولت أن أتخذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر خاتمة لدراسة أحوال أوربا فى العصور الوسطى دون أن ارتبط بسنة معينة أو بحدث محدد لأن ما يكون خطيرا بالنسبة لبلد قد لا يكون كذلك بالنسبة لبلد آخر •

والواقع انه لابد لنا - لكى نعى تاريخ أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى وعيا صادقا - من أن نحرر عقولنا تماما من نظرتنا الحديثة الى الحياة ، ونضع دائما نصب أعيننا حقيقة هامة هى أن أهالى العصور الوسطى نظروا الى الحياة ومشاكلها الأساسية من زاوية تختلف كلية عن الزاوية التى ننظر منها نحن الى الحياة ومشاكلها • فاذا استطعنا أن ننظر الى العصور الوسطى هذه النظرة الواقعية ، فاننا سنرى تلك العصور على حقيقتها ، وسندرك عندئذ أنها ليست « مظلمة » ومليئة بالعنف والقلاقل وسفك الدماء ، كما صورها الانسانيون من رجال النهضة الايطالية - وبخاصة بترارك - وهم الذين فتنتهم الحضارة الكلاسيكية فأجحفوا بحق العصور الوسطى ونسوا أن تلك العصور اهتمت بابتكار حضارة جديدة أكثر من اهتمامها بعبادة الحضارة القديمة وتقديسها • وسيتضح لقارىء هذا الكتاب أن أوربا العصور الوسطى لم تعدم ظهور مفكرين أفذاذ أسهموا فى بناء الحضارة البشرية وقدموا خلاصة تفكيرهم لتستفيد منها العصور الحديثة • وحسبنا ما أسهمت به أوربا فى العصور الوسطى من قوانين ونظم حكومية واجتماعية مبتكرة ، فضلا عما أبدعته من طرز فنية وألحان موسيقية ونظم تعليمية واقتصادية ودينية •

وقد حاولت أن يأتى هذا الكتاب معبرا عن كافة التطورات السياسية والحضارية التى مرت بها أوربا بين القرنين الرابع والخامس عشر ، فعالجت - فى الجزء الأول هذا - تاريخ أوربا السياسى فى تلك الفترة مبتدئا بالكلام عن الامبراطورية الرومانية فى عصرها الأخير ، ثم عالجت فى الجزء الثانى

تاريخ أوربا الحضارى فى العصور الوسطى حتى قيام النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر .

وليس من حقى أن أشرح للقارىء المجهود الكبير الذى استنفده منى وضع هذا الكتاب طوال سنوات عديدة ، أو أن أعدد له الصعاب الكثيرة التى يصادفها واضع كتاب باللغة العربية فى موضوع بعيد كل البعد عن العقلية العربية فى العصور الوسطى بله الحديثة ، وحسبى أن أترك للقارىء وحده تقدير ما استهلكه هذا الكتاب من جهد ووقت . ولكن من حقى — وواجبى — أن أقدم شكرى خالصا الى كل من عاوننى بجهده وتشجيعه فى انجاز هذا المؤلف ، وأخص بالذكر السادة الذين ذكرت أسماءهم فى مقدمة الطبعة الأولى .

وسيلمس القارىء فى هذه الطبعة تغييرات كثيرة ، سواء فى تنقيح بعض الأجزاء ، أو اضافة فقرات جديدة . وقد استجبت لما طلبه منى بعض الزملاء من كتابة فصل تمهيدى عن أصول التاريخ الأوربى ، يحوى عرضا موجزا سريعا لتاريخ اليونان والرومان . أما الخرائط فقد غيرتها تغييرا شاملا ، وأكثرت من عددها حتى تكتمل الفائدة المرجوة من الكتاب .

ولا يسعنى ازاء الاقبال الذى لقيته الطبعات السابقة من هذا الكتاب ، ورسائل التقدير العديدة التى تصلنى من زملائى وتلاميذى فى مختلف الجامعات العربية ، سوى أن أرجو أن تعم الفائدة منه وأن نرى قريبا فى المكتبة العربية سلسلة من المراجع العلمية لتسهيل تدريس هذا الجانب الهام من جوانب التاريخ فى جامعاتنا العربية .

والله ولى التوفيق ؟

المؤلف

الباب الأول

أصول التاريخ الأوربي

اعتاد كثير من الجغرافيين أن يصفوا أوربا بأنها لا تتعدى واحـــدة من أشباه الجزر البارزة من قارة آسيا ، فهي امتداد للقارة الآسيوية في الاتجاه الغربي • واذا كان هذا الرأى له ما يبرره من الاعتبارات الجغرافية فانه ينبغي أن نذكر أن هناك من الاعتبارات التاريخية – وما يرتبط بهذه الاعتبارات من نواح بشرية وجنسية ـ ما يجعلنا ننظر دائما الى أوربا على أنهـــا قارة مستقلة لها كيانها الخاص •

وكان أول من فرق بين آسيا وأوربا هم أصحاب الحضارات الشرقية في غرب آسيا ، فنجد في بعض النقوش الآشورية تعريفا لآسيا بأنهـــا أرض الشروق وتعريفا لأوربا بأنها أرض الظلام أو الغروب • ومع ذلك فانه كان من الصعب دائما تحديد حدود فاصلة بين أوربا وآسيا ، حتى أن الكتاب في القرن الثالث قبل الميلاد اعتبروا السهول الشمالية في قارة آسيا جزءا من القارة الأوربية • وعلى الرغم من أن العوامل الطبيعية والمناخية تدخلت في نهاية الأمر لاختيار جبال أورال في شرق أوربا حدا فاصلا بين القارتين ، الا أننا ما زلنا نلمس أن منطقة السهول الممتدة من غرب آسيا الى شرق أوربا كانت دائما أبدا منطقة انتقال بين القارتين من النواحي الطبيعيـــة والبشرية وغيرها •

وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن مساحة أوربا تبلـــغ ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين ألف ميلا مربعا تقريبا ، وذلك اذا استبعدنا الجـــــزر الصغيرة المحيطة بشواطىء القارة ، وغيرها من الأقاليم الواقعة في الجنوب الشرقي والتي تدخل في منطقة الانتقال بين أوربا وآسيا • وتتصف شواطىء أوربا بكثرة التعاريج ووجود عدد هام من أشباه الجزر • وثمة ظروف ثمينة ساعدت على أن تحتل أوربا الحديثة مكانتها في العالم ، أهمها ملائمة

الظروف المناخية وتنوع الموارد وتشعب السواحل وكثرة الخلجان ، ووجود عدد كبير من الأنهار التي تصب اما في المحيط الأطلسي غربا أو في البحر المتوسط جنوبا أو في البحر الأسود شرقا .

على أن عظمة أوربا ودورها الحضاري لم يرتبطا بالتاريخ الحديث فحسب ، وانما نهضت هذه القارة منذ العصور القديمة بدور فعال في الحضارة البشرية . واذا كنا قد خصصنا هذا الكتاب - بجزأيه - للكلام عن تاريخ أوربا وحضارتها في العصور الوسطى ، فان فهم أوضاع أوربا في العصور الوسطى يتطلب منا الاشارة في ايجاز الى تاريخ أوربا في العصور القديمة ، والمستوى الحضاري الذي بلغته أوربا في تلك العصور ، وذلك لأن العصور الوسطى كما نعلم انما نبعت من العصور القديمة . والواقع ان الحضارة قامت في العصور القديمة على أساس دعامتين كبيرتين ، هما حضارة اليونان وحضارة الرومان .

الحضارة اليونانية :

كانت بلاد اليونان هي المهد الأول للحضارة الأوربية القديمة . وما زال الأوربيون بوجه خاص يفخرون بكبار الأعلام من العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخين والشعراء والمشرعين الذين أنجبتهم *الحضارة اليونانية* ، والذين ارتبطت أسماؤهم باسمها . ثم ان تاريخ الحضارة اليونانية لم يرتبط برقعة محدودة من الأرض التي عاش داخل حدودها شعب معين ، وانما يرتبط تاريخ هذه الحضارة بالبلاد الواسعة التي انتشر فيها اليونانيون على امتداد سواحل البحر المتوسط وفي جزره .

ذلك أن جغرافية بلاد اليونان وطبيعتها تركت أثرا عميقا في أحوال اليونانيين ومعيشتهم ، وبالتالي في حضارتهم . فهذه البلاد ضيقة الرقعة ، صعبة التضاريس ، معظمها جبلي ، تتخلل جبالها سهول ضيقة ليست على درجة كافية من الخصوبة والثروة . وقد نتج عن هذا كله صعوبة توحيد بلاد اليونان في كثير من عصور تاريخها في ظل حكومة واحدة أو حتى نظم سياسية واحدة . وانما نجد هذه البلاد في العصور القديمة مستقرا لجماعات

شبه مستقلة بعضها عن بعض ، قد تربط بينها روابط اجتماعية وجنسية ، ولكن تسودها الروح الانفصالية من الناحية السياسية • وهكذا برزت فى كل اقليم مدينة صارت لها الزعامة على السهول المحيطة بها ، وأصبحت هـذه المدينة بمثابة دولة تكفى نفسها بنفسها ، مما جعل الكتاب يطلقون اسم « المدينـة الدولة » على هذه الوحدات السياسية التى عرفتها بلاد اليونان فى العصور القديمة •

وإذا كانت طبيعة بلاد اليونان من الداخل قد فرضت عليها وعلى أهلها هذه الفرقة ، فان سواحل هذه البلاد تتصف بأنها كثيرة التعاريج والخلجان ، يقع بالقرب منها عديد من الجزر • ونتج عن ذلك أن صعوبة البيئة وفقرها وعدم استطاعتها تحمل زيادة السكان •• كل هذه العوامل طردت الناس نحو السواحل ووجهتهم نحو البحر ، فاشتغلوا ببناء السفن وركوب البحر للقرصنة والصيد أو التجارة • ولم تكف هذه الوسائل لمواجهة المصاعب التى واجهها أهل اليونان فى تلك البيئة الصعبة الطاردة ، فلجئوا الى وسيلتين : الأولى تحديد النسل وامتداح الأسرة ذات الابن الواحد ،حتى لقد كان اليونانيون يعرضون أطفالهم أحيانا للموت بتركهم عرايا فى البرد فوق الجبال للخلاص منهم ، وهذا الاجراء خولته قوانين البلاد فى العصور القديمة • على أن هذا العلاج لم يكن الحل الانسانى المعقول ، فاتجهوا الى اجراء آخر هو الهجرة ، فهاجروا الى آسيا الصغرى وقبرص وشواطىء مصر وشمال افريقية وايطاليا وغاليا ، فضلا عن جزر البحر المتوسط •• وفى جميع هذه البلاد التى هاجر اليها اليونانيون أسسوا مستعمرات خاصة بهم ، فأصبحت هذه المستعمرات بدورها مراكز للحضارة اليونانية ، كما حافظوا على صلاتهم بالبلاد الأم ، مما ترك أثرا كبيرا فى التطور الحضارى لبلاد حوض البحر المتوسط •

ويرتبط تاريخ اليونان القديم بمدينتين أو دولتين ، هما اسبرطة وأثينا • أما اسبرطة فكانت أكبر مدن اقليم لاكونيا ، واتصف تاريخها الأول بالفوضى والضعف حتى ظهر فى القرن التاسع قبل الميلاد مشرع اسبرطى مشهور ــ وان ظن البعض أنه شخصية وهمية ــ اسمه ليكرجوس ، خلص اسبرطة من متاعبها الداخلية وبث فيها القوة والعزيمة ، وبالتالى فقد خلقها جديدا • وقد

وضع ليكرجوس دستورا لاسبرطة حدد فيه العلاقة بين الأشراف والاحرار والملكين اللذين كانا يحكمان اسبرطة ، فنظم توزيع السلطات بين هذه الجهات الثلاث ، وجعل لكل من الأشراف والأحرار مجلس له دور معين فى النهوض بالحكم ، وبذلك حقق نوعا من الاستقرار السياسى .

على أن أهمية ليكرجوس فى تاريخ اسبرطة لا تنبع من تشريعاته السياسية فحسب ، بل أيضا من نظامه الاجتماعى الذى سنه لاسبرطه والذى عرف باسم نظام التربية الاسبرطيه . ذلك أن المجتمع الاسبرطى كان يعيش على الفطرة ، تسوده عادات وتقاليد نابية ، مثل السماح للرجل بخطف خطيبته بالقوة من أبويها ، والسماح للمرأة بأن تجمع أكثر من زوج واحد .. فحاول ليكرجوس تهذيب المجتمع الاسبرطى من هذه المفاسد ، وفى الوقت نفسه وضع نظاما يقوم على أساس التطرف فى الخشونة والتقشف . من ذلك أن ليكرجوس وضع نظاما يحتم على الآباء اخطار ولاة الأمور بأى مولود جديد يولد لهم ، ولولاة الأمور أن يقرروا اذا كان هذا الطفل قوى البدن سليم البنية يتحمل أعباء الحياة ، وعندئذ يسمحون له بالحياة . اما اذا قرروا أنه ضعيف لا ترجى منه فائدة ، فانه يعرض للبرد والجوع فوق الجبل حتى يموت ! ومن ناحية أخرى فانه وضع للأولاد الصغار الذين سمح لهم بالاستمرار فى الحياة نظاما قاسيا يضمن خلق رجال أشداء منهم فكان عليهم أن يمشوا حفاة الأقدام مسافات طويلة ، وأن يرتدوا ثوبا واحدا على الجسد فى الشتاء ، وينامو على أسرة خشنة من الجريد ، وأن يطعموا أنفسهم بأنفسهم ، وذلك بما يسرقونه أو يخطفونه أو يصطادونه . فاذا ضبط الولد وهو يسرق عوقب عقابا شديدا ، لا لأنه سرق وانما لأنه لم يستطع أن يسرق دون أن يشعر به أحد .

وهكذا نشأ شباب اسبرطة نشأة عسكرية صارمة ، فى حين قام بفلاحة الأرض وتوفير أسباب العيش عدد كبير من العبيد الذين عاشوا عيشه حرمان ولم يتمتعوا بأية حقوق . ولم تلبث اسبرطة أن غدت قوة حربية كبيرة ، مما مكنها من خوض عدة حروب والانتصار فى معظمها .

أما الدولة الثانية التى نافست اسبرطة وفاقتها فى تاريخ بلاد اليونان الحضارى والفكرى ، فكانت آثينا . وقد ظلت آثينا حتى القرن السادس

قبل الميلاد مدينة من مدن الدرجة الثانية فى الأهمية ، ولكنها ازدهرت فى القرن الخامس قبل الميلاد • ويرتبط ازدهار آثينا فى هذا الـــدور بمشرع فذ اسمه سولون وضع دستورا شاملا لآثينا أصلح به أوضاعها الاقتصـــادية والاجتماعية والسياسية • ويعتبر المؤرخون دستور سولون الحجر الأساسى فى الحرية الآثينية • وظهر الاتجاه الديموقراطى قويا واضحا فى مجلس العامة أو الاكلزيا ، وهو المجلس الذى صارت له من السلطات وقوة التمثيل الشعبى مما جعل منه رقيبا فعليا على أجهزة الحكومة وموظفيها • كذلك سن سولون تشريعات اجتماعية أخرى تتعلق بنظام الوراثة وعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض ، وسلطة الآباء على الأبناء •

وكان أن تمكنت آثينا بفضل هذه القوة من تزعم قوى اليونان المشتتة فى صراعهم ضد الفرس • ذلك أن ملوك الفرس أخذوا يتوسعون توسعا سريعا فى آسيا الصغرى ، فاصطدموا بالمستعمرات اليونانية فيها ، مما جعل أهل هذه المستعمرات يستجدون بالمدن اليونانية فى الوطن الأم ، وعلى رأسها اسبرطة وآثينا • بل ان الملك دارا الأول أعد قوة ضاربة عبر بها البسفور سنة ٥١٠ وغزا تراقيا ، مما اضطر ملك مقدونيا الى اعلان ولاءه للفرس •

وفى ذلك الصراع الذى نشب بين الفرس واليونان ، أبلت آثينا بلاء حسنا ، فأحرز الآثينيون انتصارا كبيرا على الفرس فى موقعة سهول ماراثون سنة ٤٩١ ـ ٤٩٠ ق • م •

وسرعان ما دبت الثقة فى قلوب اليونانيين بوجه عام والاثينيين بوجه خاص بعد الانتصار الذى أحرزوه فى ماراثون ، فتكونت جبهة يونانية ضد الخطر الفارسى فى مؤتمر كورنثه ، وقررت الولايات المشتركة فى هـــذا المؤتمر الاستمرار فى محاربة الفرس حتى النهاية وطلب المعونة من جميع اليونانيين خارج شبه الجزيرة • وفى موقعة سلاميس البحرية انتصر اليونانيون انتصارا كبيرا ، ثم اعقبوا هذا النصر بنصر آخر برى فى موقعة بلاتياى سنة ٤٨٠ ق•م• ونتيجة لهذه الانتصارات انكمش نفوذ الفرس فى آسيا الصغرى ، كما زال سلطانهم عن كثير من الجزائر اليونانية فى بحر الأرخبيل ، وأهم من هذا وذلك ازداد نفوذ آثينا وارتفع شأنها •

وقد ارتبطت عظمة آثينا في القرن الرابع قبل الميلاد بعدد من المشرعين والمصلحين ، أولهم كليستنيز وأهمهم بركليز . وكان بركليز هذا رجلا عظيما ، وجه سياسته في الداخل نحو تدعيم الديموقراطية وتقليم أظافر الارستقراطية ، وفي الخارج نحو تأليف حلف من المدن اليونانية ضد اسبرطة ، وهي التي غدت العدو اللدود لآثينا . ولم تلبث آثينا بفضل هذه الاصلاحات أن بلغت أقصى درجات عظمتها حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد . وفي سلسلة الحروب الطويلة التي خاضتها آثينا بعد ذلك ضد أسبرطة ، منيت آثينا بالفشل والخراب . وقد حاولت اسبرطة فرض سيادتها على بلاد اليونان ولكنها فشلت ، وكذلك مدينة طيبة التي تصدت لاسبرطة ، وبذلك أصبح المسرح معدا لسيادة مقدونيا وبطلها الكبير الاسكندر الأكبر .

الاسكندر الأكبر ونشر الحضارة اليونانيـة :

كانت أثينا ترجو أن تتاح لها الفرصة من جديد - بعد فشل اسبرطة ثم طيبة - وذلك حتى تعود الى تزعم بلاد اليونان ، ولكن ظهرت قوة جديدة في الشمال - أي في مقدونيا - قدر لها أن تكتسح جميع القوى المتنافسة في تلك البلاد ، وأن توحد اليونانيين جميعا للقيام بحركة توسعية ضخمة في الشرق الأوسط ، وهي الحركة التي حملت لواء الحضارة اليونانية بعيدا وراء حدود بلاد اليونان الأصلية .

ويبدو أن الشعب اليوناني نفسه كان ينظر الى المقدونيين نظرة استغراب ، وظل اليونانيون أمدا طويلا لا يعملون حسابا لمقدونيا ، اذ لم يكن أحد يتصور أن مقدونيا هي قوة المستقبل التي ستنحنى أمامها أثينا واسبرطة وطيبة .. وغيرها من كبرى مدن اليونان ذات الماضي العريق والشهرة الذائعة .

وترتبط نهضة مقدونيا الى حد كبير بالملك فيلب الأول (٣٨٢ - ٣٣٦ ق.م) ، وهو الذي بذل جهدا كبيرا في اصلاح شئون بلاده السياسية والحربية والاجتماعية ، وأنشأ جيشا قويا استطاع به أن يقضي على عوامل التفكك والتفرقة التي سادت العالم اليوناني عندئذ . وكان أن خاض فيلب غمار عدة حروب ضد المدن اليونانية التي كونت حلفا ضده ، ولكنه أنزل الهزيمة بذلك الحلف في موقعة كيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م. ثم عقد الملك فيلب

مؤتمرا عاما في كورنثه في السنة السابقة بقصد تنظيم اليونانيين جميعا على شكل حلف تتولى مقدونيا زعامته ، ولكن الملك فيلب توفي سنة ٣٣٦ قبل الميلاد ، وعندئذ خلفه ابنه العظيم الاسكندر المقدوني أو الأكبر (٣٣٦ - ٣٢٣ ق٠م)

والواقع أنه يصعب على العقل أن يتصور كيف استطاع الاسكندر الأكبر في مدى ثلاث عشرة سنة أن يقوم بالعمل الضخم الذى قام به فعلا ، ولكنه بفضل ما اتصف به من سرعة وذكاء وشجاعة نجح فعلا في تأديب الولايات والمدن اليونانية ، التى استغلت فرصة وفاة أبيه ورفعت رأسها في وجهه ٠ وبعد أن فرغ من مشاكله الداخلية ، بدأ الاسكندر يتفرغ للقيام بأضخم حركة توسع خارجية عرفها التاريخ ، وكان في الثانية والعشرين من عمره عندئذ ٠

ولا يخفى علينا أن الفرس كانوا ألد أعداء اليونانيين منذ أمد بعيد ، فاتجه الاسكندر لمحاربة دارا الثالث ملك الفرس ، ونجح في تقويض امبراطورية الفرس بعد أن أنزل بهم عدة هزائم ، في آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق ٠ بل لقد غزا الاسكندر الفرس في عقر دارهم ودخل سوسه عاصمتهم ، وبذلك محا دولتهم محوا سريعا من الوجود ٠

ومن الصعب الآن على المؤرخين أن يحددوا المدى الذى كان سيقف عنده الاسكندر الأكبر في حركته التوسعية لو امتد به العمر ، لأنه مات صغيرا وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ٠ ولكن كل الذى نستطيع أن نحدده ونؤكده هو أن سياسة الاسكندر استهدفت نشر الحضارة اليونانية في الشرق ، وتطعيم الشرق بحضارة اليونان تطعيما قويا ، يضمن نجاح فكرة قيام امبراطورية يونانية آسيوية ٠ لذلك حرص الاسكندر على تشجيع التزاوج بين اليونانيين والآسيويين ، واهتم بانشاء المدن الحرة ذات الحكومات المستقلة في مختلف أجزاء امبراطوريته الفسيحة ، لتكون هذه المدن مراكز اشعاع للحضارة اليونانية في الشرق ٠ ويقال ان الاسكندر أقام في الشرق أكثر من عشرين مدينة نسبت اليه وعرفت باسم الاسكندريات ، أشهرها اسكندرية مصر وان كانت توجد حتى اليوم في الشام والعراق وفارس مدن أخرى تحمل نفس الاسم ٠

وهكذا أدت سياسة الاسكندر الى انتشار الحضارة اليونانية فى الشرق ، وبخاصة آسيا الصغرى ومصر والشام ، اذ كانت الصبغة اليونانية قوية فى هذه البلاد الثلاثة لقربها من مركز الحضارة اليونانية ، فبقيت اللغة اليونانية لغة رسمية فيها أمدا طويلا ، كما قامت فيها المدارس والجامعات ـ مثل مدرسة الاسكندرية المشهورة ـ لتصبح مراكز ضخمة ازدهرت فيها علوم اليونانيين وفلسفتهم وحضارتهم •

والحقيقة التى لا يختلف حولها اثنان من المفكرين ، هى أن مجرى التاريخ كان حتما سيشهد تغييرات عديدة لو عاش الاسكندر عمرا أطول • ومن يدرى أن الاسكندر كان سيتحول الى الغرب بعد أن يتم برنامجه فى الشرق، وعندئذ يخضع روما وهى فى المهد ، وبذلك يجرى تاريخ حوض البحر المتوسط فى مجرى غير المجرى الذى جرى فيه فعلا • على أن هناك بعض انتقادات أخذها المفكرون على الاسكندر ، منها أنه لم يهتم بانشاء الطرق فى امبراطوريته الواسعة ، وهذه الطرق دون شك تساعد على ربط أنحاء البلاد فضلا عن تأمين خطوات المواصلات • كذلك يؤخذ على الاسكندر أنه لم يضع تخطيطا دقيقا شاملا لادارة امبراطوريته الواسعة ، وبخاصة بعد وفاته • وربما لم يتصور الاسكندر أن يدهمه الموت بتلك السرعة الخاطفة •

على أنه اذا كانت دولة الاسكندر الكبيرة لم تستطع الاحتفاظ بوحدتها السياسية بعد وفاته ، فانها نجحت الى حد كبير فى الاحتفاظ بوحدتها الحضارية وبخاصة فى النواحى الفكرية والثقافية ، فظلت اللغة اليونانية بالذات سائدة فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط ، حتى بعد أن فرضت روما سيادتها على هذا الجزء •

ظهور روما :

واذا كانت أوربا قد استمدت تاريخها وحضارتها القديمة من منهلين قديمين يرتبطان باليونان الرومان ، فان ثمة ملاحظة اساسية هى أن المفكرين والكتاب المعاصرين يربطون دائما تاريخ اليونان وحضارتهم بالشرق مثلما ربطوا تاريخ الرومان بالغرب • فعندما انقسم عالم حوض البحر المتوسط الى امبراطوريتين فى أواخر القرن الرابع صارت امبراطورية القسطنطينية هى

الامبراطورية الشرقية ، وامبراطورية روما هى الامبراطورية الغربية • وعندما انتشرت المسيحية وصارت لها السيادة فى العالم القديم ، غـدت كنيسـة القسطنطينية هى الكنيسة الشرقية وكنيسة روما هى الكنيسة الغربية • وطوال العصور الوسطى ظل أهالى غرب أوربا لا يعرفون حضارة شرق أوربا الا باسم الحضارة الشرقية تمييزا لها عن الحضارة الغربية فى غرب أوربا •

والواقع أننا لا نستطيع بأى حال الاقلال من شأن احدى الحضـارتين : الشرقية اليونانية أو الغربية الرمانية فى بناء صرح الحضـارة الأوربيـة الكبرى • واذ كانت الحضارة الرومانية أقوى أثرا فى حضارة غرب أوربا فى العصور الوسطى ، فان عصر النهضة الذى مهد للانتقال الى العصور الحديثة شهد حركة احياء تراث اليونان الحضارى والعناية بهذا التراث عناية تركت أثرا بالغا فى التاريخ الحضارى للقارة الأوربية •

ولا نريد هنا أن ندخل فى التفاصيل العديدة الخاصـة بتأسيس روما وظهورها ، ولكن تكفى الاشارة الى أن موقع روما فى سهول لا تيـوم على ضفاف نهر التيبر بايطاليا ، أتاح لهذه المدينة نموا آمنا سريعا • ذلك أنهـا كانت سهلة الاتصال بالعالم الخارجى مما مكنها من الاستفادة من الحضارات الخارجية الاكثر تقدما ، وفى الوقت نفسه كانت غير ملاصقة للبحر مما يعرضها لحياة قلقة غير آمنة •

وتجمع الروايات على أن روما بدأت تاريخها بالنظام الملكى ، وفى ذلك العصر ـ عصر الملكية ـ استطاعت روما أن تنتصر على أعدائها المجاورين وتستولى على أملاكهم ، وبذلك ازداد عدد سكانها واتسعت مساحتها وقوى نفوذها • ومن بين ملوك روما الكبار يحفظ التاريخ اسم سرفيوس تليوس ، وهو الملك الذى قام باصلاحات هامة ، منها العمل على ازالة ـ أو تقليل ـ الفوارق بين البطارقة والعامة ، وكان البطارقة يعتبرون انفسهم ارستقراطية بوصفهم من أبناء روما الحقيقيين • كذلك قام الملك سرفيوس بتوزيع الاعباء على الناس وفق ما يمتلكون من ثروة عقارية •

على أن النظام الجمهورى لم يلبث أن حل محل النظام الملكى فى روما • وقد استمر النظام الجمهورى من سنة ٥٠٨ ق•م• حتى سنة ٣٠ ق•م• أما عماد الدستور الجمهورى فكان اثنين من الموظفين يتجدد انتخابهما سـنويا

ويتوليان بالاشتراك السلطة التنفيذية التى كانت للملك من قبل • وهذان الموظفان أو القنصلان كانا مسئولين عن تصرفاتهما أمام الشعب الرومانى ممثلا فى مجلس السناتو • والى جانب القناصل وجد عدد آخر من كبار الموظفين المسئولين عن الشئون المالية وغيرها • وقد روعى فى هؤلاء الموظفين جميعا أن تكون مدد خدمتهم محددة ، ومعظمهم كان يعين فى وظيفته لمدة عام • والواقع ان الدستور الرومانى فى العصر الجمهورى نشأ نشأة تدريجية ، وظلت المجالس والوظائف العامة تتطور وفق الاحداث الداخلية والخارجية التى تعرضت لها روما •

وفى الوقت الذى كانت روما تدعم نظامها السياسى فى الداخل أخذت تتوسع تدريجيا حتى أصبحت سيدة ايطاليا ، وبعد ذلك بدأت حركة توسع خارجية ضخمة انتهت ببسط سيادتها على حوض البحر المتوسط بأكمله • وكانت أكبر عقبة فى طريق توسع روما الخارجى هى قوة قرطاجة فى شمال أفريقية ، حتى انتهى التنافس بين القوتين بقيام حرب طويلة تعرف بالحروب البونية أو البونيقية ، وهى الحروب التى مرت بأدوار عديدة وانتهت بهزيمة قرطاجة فى موقعة زاما سنة ٢٠٢ ق•م• ثم تدميرها سنة ١٤٦ • وبانتصار روما على قرطاجة ، أصبحت روما أعظم قوة فى حوض البحر المتوسط ، كما صار أسطولها هو الأسطول المتحكم فى مياه البحر ، مما مكن من قيام الأمبراطورية الرومانية الكبرى •

اتساع الدولة الرومانية :

اضطرت روما أثناء صراعها مع قرطاجة الى تأمين نفسها ، فاستولت على سردينيا وصقلية ، ثم فتحت اسبانيا ١٩٧ ق•م• ، لأن اسبانيا كانت قد مهدت السبيل أمام هانيبال لغزو ايطاليا اثناء الحروب البونية • أما من ناحية الشرق فقد بدأت روما حركتها التوسعية على الساحل الشرقى للبحر الادرياتى — أى فى اقليم الليريا — سنة ١٢٩ ق•م ، وذلك لتضمن القضاء على القرصنة فى ذلك البحر • والمعروف أن خطة هانيبال لغزو ايطاليا اعتمدت فى فكرتها على مساعدة فيلب الخامس ملك مقدونيا ، لذلك رأت روما أن تنتقم لنفسها من مقدونيا وملكها ، فأنزلت الهزيمة بملك مقدونيا سنة ١٩٧ ق•م• ولم يلبث أن حدث احتكاك بين روما والملك أنتيوخس الثالث أو الأكبر ملك

سوريا ، فأنزلت روما به الهزيمة سنة ١٩٠ق٠م٠ وبذلك امتد نفوذها بعيدا في آسيا الصغرى • وبانتصار روما على فيلب الخامس ملك مقدونيا ثم على أنتيوخس الثالث ، استطاعت روما أن تخضع مملكتين كبيرتين من الممالك التي قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر الأكبر • أما مصر ، فعلى الرغم من أنها كانت مستقلة تحت حكم ملوكها من البطالمة ، الا أنها في الواقع غدت لا تعمل الا بايحاء من روما ، وذلك منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد٠ وبازدياد ضعف البطالمة ، أخذوا يحتمون بروما ويستجدون مساعدتها ، حتى انتهى الأمر بضياع استقلال مصر في موقعة اكتيوم سنة ٣١ق ٠م٠

وهكذا اتسعت امبراطورية روما حتى شملت حوض البحر المتوسط ، وأصبحت البلاد العديدة المطلة على ذلك البحر ولايات تابعة لروما ، حظر عليها أن تكون لها جيوش قائمة وفرضت على كل ولاية منها جزية معينة ، كما وضعت كل ولاية تحت اشراف حاكم روماني تؤيده حامية رومانية • وكان السناتو في روما يضع لكل ولاية نظام خاص بها يسمى قانون الولاية ، هو بمثابة دستور لها ، يحدد حقوق كل فرد وجماعة وواجبات كل منهم ، كما يوضح الأمور المتعلقة بالقضاء وغير ذلك من النواحي • ويلاحظ أن الرومان جروا على قاعدة ألا يعدلوا القوانين القديمة السائدة في كل ولاية الا بالقدر الذي تتطلبه الضرورة ، ومن ثم فان قانون كل ولاية Lex Provincia اختلف عن قوانين غيرها من الولايات تبعا لظروف انضمام كل ولاية الى الامبراطورية الرومانية من ناحية ، والنظم التي كانت سائدة في الولاية قبل ضمها من ناحية أخرى •

ومهما يكن من أمر ، فقد ترتب على اتساع نطاق الفتوحات الرومانية ازدياد عدد الولايات زيادة كبيرة ، فازداد عدد الحكام وكبار الموظفين المسئولين عن الجهاز التنفيذي ، مما أدى الى تقسيم السلطة بينهم ، وبالتالي قوي نفوذ السناتو وازداد سلطانه •

ولا شك في أن اتساع الامبراطورية الرومانية ترتب عليه ازدياد اتصال الرومان بالحضارة اليونانية • ذلك أن الرومان أقبلوا على اقتباس الحضارة اليونانية وتأثروا الى حد كبير بآداب اليونانيين وعلومهم وفنونهم بل ودياناتهم ، مما ترك أثرا كبيرا في الحضارة الرومانية من جهة وفي وحدة

الحضارة الأوربية من جهة أخرى . وثمة ظاهرة أخرى هى أن الرومان اقتبسوا كثيرا من كماليات الحضارة اليونانية ، فأخذوا يتخلون تدريجيا عن حياتهم الأولى التى عرفت بالتقشف والرجولة ، واقبلوا على حيـــاة الترف والاسراف ، مما أدى الى انتشار روح الاستهتار والتهاون ، فضلا عن انتشار الرذائل . وقد أدى ذلك الى سخط بعض شيوخ الرومان – مثـــل كاتو Cato كما أدى الى سن بعض قوانين اجتماعية للحد من الاستهتار والبذخ مثل قانون أوبيا Lex Oppia الذى صدر سنة ٢١٥ ق.م. للحد من مغالاة النساء الرومانيات فى التحلى بالمجوهرات الثمينة والثياب الفاخرة .. ولكن مثل هذه القوانين الاجتماعية كان من الصعب أن تستمر طويلا ، فلم يلبث أن ألغى القانون السابق سنة ١٩٥ ق.م ، أى بعد عشرين عاما من صدوره ، رغم معارضة كاتو الصارخة .

ومن الواضح أن اتساع الامبراطورية الرومانية ترتب عليه ازدياد الثروة بأيدى الرومان . فالحروب الطويلة التى قامت بها روما ترتب عليها الحصول على قدر وافر من الغنائم والأسلاب ، كما أن الضرائب التى فرضت على الولايات الجديدة انعشت خزانة روما وخفضت العبء على المواطنين الرومان الذين تمتعوا ببعض اعفاءات من الضرائب المباشرة التى كانت مفروضة عليهم . ولم تلبث أن امتلأت الولايات الرومانية بعدد كبير من رجال الأعمال الرومان ، وبخاصة أولئك الذين أطلق عليهم اسم الملتزمين Publicani وهم الذين كانوا يلتزمون بجباية الضرائب من أهل الولاية ، مما عاد عليهم بربح وفير . هذا بالاضافة الى المشتغلين باقراض الأموال Negotiatores وهم الذين اتسعت دائرة نشاطهم فيما بعد ، حتى شملت التجارة على أوسع نطاق . وهكذا نشأت طبقة غنية جديدة فى المجتمع الرومانى ، مما زاد من الفوارق الاجتماعية فى ذلك المجتمع . ويبدو أن هؤلاء الأغنياء أقبلوا على شراء الأرض ، فازداد عدد الضياع الكبيرة التى استعمل أصحابها العبيد فى فلاحتها بسبب رخصهم . ولم يلبث أن أصبح هؤلاء العبيد – بعد أن ازدادت أعدادهم – مصدر قلق واضطراب كبير فى الدولة الرومانية بسبب سوء المعاملة التى كانوا يتعرضون لها .

احوال روما فى القرن الأخير من الجمهورية :

وكان أن ظهر الخلل واضحا فى كثير من أجهزة الدولة الرومانية ، وذلك فى القرن الأخير من الجمهورية . ويمكن أن نلخص مظاهر هذا الخلل فى فساد الجهاز الادارى ، وهو الفساد الذى ظهر فى صورة واضحة فى الولايات الرومانية ، كما امتد الى روما نفسها ، وهى التى كانت بمثابة مركز الجهاز العصبى فى الدولة الرومانية . ثم ان هذا الفساد جاء مصحوبا بانحطاط الأخلاق العامة وضعف الشعور بالواجب . وقد سبق أن أشرنا الى أنه نتج عن اتساع الدولة الرومانية ظهور طبقة ثرية جديدة من رجال الأعمال ، وهؤلاء كانوا يرجون أن يستبدلوا بثروتهم وأموالهم نفوذا حكوميا ، ولكن الوظائف العامة كانت مغلقة فى وجوههم لعدم انتمائهم الى طبقة النبلاء . وبذلك وجدت فى المجتمع الرومانى حالة من القلق وعدم الاستقرار لم تلبث أن أدت الى صدام بين الطبقة الغنية الجديدة من ناحية وطبقة النبلاء التى احتكرت الوظائف العامة فى الدولة من ناحية أخرى . وزاد من هذا القلق الاجتماعى أن حلفاء روما كانوا متذمرين لحرمانهم من الحقوق المدنية الرومانية ، وقصر هذه الحقوق على الذين كانوا يتمتعون بها من قبل . فاذا أضفنا الى ذلك كله اضطراب أحوال الدولة الرومانية من الناحية الاقتصادية بسبب هبوط سعر القمح وانكماش طبقة صغار المزارعين وازدياد الملكيات الزراعية الكبيرة تضخما ونفوذا ، والاكثار من العبيد للاعتماد عليهم فى شئون الزراعة وغيرها من الأعمال الشاقة .. اتضح لنا مدى الخلل الذى كانت تشكو منه الجمهورية الرومانية فى قرنها الأخير .

وكان لابد أن تحرك هذه الاوضاع بعض الغيورين على المصلحة ، فظهرت بعض الحركات الاصلاحية التى استهدف أصحابها علاج تلك الأمراض الخطيرة التى شكت منها الامبراطورية قبل أن يستفحل الداء ، وبخاصة بعد أن اندلع لهيب ثورة العبيد فى صقلية سنة ١٣٤ ق م ، فضلا عن الثورات التى نشبت فى أسبانيا وغيرها من أجزاء الدولة الرومانية .

وعلى رأس هؤلاء المصلحين يأتى تبريوس جراكوس الذى تولى أحد المناصب الكبرى - هو منصب التربيونية - سنة ١٣٤ ق.م. وانتهز الفرصة للتقدم بمشروع للاصلاح يتضمن الحد من ملكية الأراضى العامة بحيث

تسترد الدولة الأراضى الزائدة عن الحد المقرر وتوزع على المزارعين المعدمين مقابل ايجار اسمى • وكان من الطبيعى أن يلقى هذا المشروع معارضة شديدة من كبار الملاك والنبلاء ، فوقع تبريوس فى صراع مع السناتو ، وانتهى الصراع بمقتل تبريوس نفسه •

على أن مقتل تبريوس جراكوس لم يضع حدا لمحاولات الاصلاح ، وانما استأنف أخوه جايوس جراكوس - الذى انتخب تربيونا سنة ١٢٣ ق•م• - نفس السياسة الاصلاحية • وتنقسم مشروعات جايوس الاصلاحية الى قسمين كبيرين : الأول يتناول النواحى الاجتماعية ، والثانى هدفه الحد من سلطة السناتو والنبلاء • أما عن الجانب الأول فقد تقدم جايوس جراكوس بمشروع القانون الزراعى الذى يتفق فى جوهره مع مشروع القانون الذى وضعه أخوه تبريوس من قبل ، وكذلك وضع مشروع قانون القمح الذى ينص على أن تقدم الدولة قمحا لكل مواطن رومانى يعيش فى روما بسعر يعادل نصف سعر السوق تقريبا • أما قانون الجيش الذى وضعه جايوس فكان يقضى بجعل سن التجنيد للخدمة العسكرية هو السابعة عشر ، فى حين تقوم الدولة بامداد الجنود بالملابس دون استقطاع شىء من مرتباتهم • وبالاضافة الى ذلك وضع جايوس قانون تأسيس المستعمرات بقصد افساح المجال أمام الطبقة الوسطى من التجار والصناع الذين ضاقت أمامهم سبل العيش فى روما • ولما كان الانتعاش الاقتصادى يتوقف دائما على سهولة المواصلات ، فقد وضع جايوس قانون الطرق لانشاء شبكة ضخمة من الطرق تخدم أغراض التجارة ، لا سيما وأن معظم الطرق التى كانت موجودة فى الدولة فعلا عندئذ كانت طرقا حربية وليست تجارية • هذا فضلا عن أن هذا المشروع من شأنه أن يساعد على تحقيق الوحدة السياسية لأن سهولة المواصلات تمكن الناخبين فى الأقاليم من الانتقال الى روما فى سهولة ، مما يؤدى الى استقرار الحكم الشعبى • أما عن مشكلة الحلفاء والحقوق المدنية ، فقد تقدم جايوس باقتراح يقضى بمنح كافة الحقوق المدنية الرومانية للاتين ، ومنح الحقوق اللاتينية لغير اللاتين من حلفاء روما الايطاليين •

هذا عن مشروعات جايوس الاجتماعية للاصلاح سواء ما نفذ منها أو مالم يمكن تنفيذه • أما عن مشروعاته التى قصد بها الحد من سلطة السناتو ، فكان

أولها القانون الصادر ضد محاكم السناتو ، بقصد مهاجمة حق السناتو فى تشكيل محاكم خاصة تصدر أحكاما تمس حياة المواطنين وحقوقهم المدنية ، ومنها كذلك القانون الخاص بتحديد الولايات القنصلية قبل انتخب القناصل حتى لا يتحكم السناتو فى محاباة صديق باعطائه ولاية هامة أو عقاب مناوىء باعطائه ولاية فقيرة ، ثم القانون الخاص بتشكيل المحاكم ، وينص على عدم قصر اختيار القضاة الذين يفصلون فى القضايا الخاصة بأمن الدولة واختلاس الأموال العامة على أعضاء السناتو ، وانما جواز اختيار هؤلاء الأعضاء من غير النبلاء وأعضاء السناتو . هذا كله بالاضافة الى قانون جباية الضرائب من ولاية آسيا .

على أنه من الواضح ان بعض قوانين جايوس جراكوس كانت تحمل طابع الطفرة والعنف ضد السناتو ، فى وقت كان النبلاء هم أصحاب القوة الحقيقية فعلا . لذلك تعرض جايوس لمقاومة شديدة حتى انتهى الأمر بمقتله مثل أخيه تبريوس من قبل – وذلك سنة ١٢٢ ق . م . ومع ذلك فان هذه النهاية المؤلمة للأخوين تبريوس وجايوس ليس معناها فشلهما التام ، اذ يكفى أنهما كشفا النقاب عن عيوب حكومة السناتو وعن الأمراض الكامنة فى نظم روما ، وهى الأمراض التى لم تلق علاجا شافيا الا على يد أغسطس . هذا الى أن الهجمات التى شنها الجراكيان على السناتو زعزعت أركانه وانتقصت من هيبته بحيث أنه لم يفق مطلقا من أثر تلك الصدمة .

وهكذا استمر التدهور بعد أن فشل الاصلاح ، وزاد من سوء الأوضاع الحروب الطويلة التى خاضتها روما لحماية دولتها من خطر الشعوب المجاورة ، ومن هذه الحروب حرب جوجورثة فى شمال أفريقية (١١٦ – ١٠٥ ق.م.) وحرب الكمبرى فى جبهة الراين والدانوب (١١٣ – ١٠١) .

وقد أكدت هذه الحروب أهمية قادة الجيش ، حتى أن الجنود المحاربين صاروا لا يقسمون يمين الولاء للدولة وانما للقائد الذى خرجوا للحرب تحت لوائه . ومعنى ذلك أن الجنود صاروا لا يتطلعون الى السناتو وانما الى القائد بوصفه القوة القادرة على رعايتهم ومكافأتهم . ولعلاج هذا الخطر اقترح ماركوس ليفيوس دروسوس فى بداية القرن الأول قبل الميلاد القيام باصلاح يستهدف تدعيم السناتو وتقويته على أساس اجابة أهم مطالب العامة .

والحلفاء ، ولكن أنانية النبلاء وقفت مرة أخرى فى وجه الاصلاح • وبذلك استمرت مشاكل روما الداخلية والخارجية تتفاقم دون حل ، فثار الحلفاء فى أوائل سنة ٩١ ق•م• ، ولم تستطع روما القضاء على هذه الثورة الا سنة ٨٨ ق•م• الأمر الذى أدى الى اضطرابات اقتصادية واجتماعية خطيرة • وكان ذلك فى الوقت الذى نشبت الحرب فى آسيا ، مما جعل الموقف معقدا فى الداخل والخارج • وفى وسط تلك الاحداث المتلاحقة المتداخلة ظهر قنصل قوى اسمه سلا استطاع على رأس جيشه أن يقتحم روما ويقر الأمور فيها ، وبذلك كان سلا هو اول من استعمل الجيش فى تحقيق أغراض سياسية فضلا عن سحق خصومه السياسيين • وبعبارة أخرى فقد أصبح السيف هو الذى يقرر لون حكومة روما • وبعد أن قام سلا بقيادة الحرب فى آسيا وأحرز فيها انتصارات مرموقة عاد ليضع دستورا لروما استهدف اعادة الحياة الدستورية فى البلاد الى ما كانت عليه قبل الجرا كيان ـ تبريوس وجايوس • على أن دستور سلا لم يعش أكثر من تسع سنوات ، وكان السبب فى فشله هو المغالاة فى مجاملة النبلاء وتدعيم السناتو على حساب العامة ، مع اغفال مطالب الحلفاء والايطاليين •

والواقع أن أخطر نتيجة لحكم سلا هى أنه أكد فى محيط السياسة الرومانية نجاح فكرة الحكم الفردى المطلق الذى يعتمد على قوة الجيش ، وهى الفكرة التى لم تفارق خيال كل طموح من الساسة الرومان مثل لبدوس وبمبى وقيصر •••• فكل واحد من هؤلاء أخذ يتمنى فى قرارة نفسه أن يجعل من شخصه سلا آخر ، بل ان بمبى كان كلما واجهته صعوبة يردد عبارة شهيرة « لقد استطاع سلا أن يعمل هذا العمل • ألا أستطيع أنا عمله ! » وهكذا غدا السيف هو مصدر السلطة فى روما ، وطالما كان قادة الجيش على وفاق مع السناتو ، احتفظ السناتو بنفوذه وسلطانه ، لأن الجنود صاروا يدينون بالطاعة لقائدهم لا للسناتو • وهذا هو التطور الخطير الذى أدى الى سقوط الجمهورية وقيام الامبراطورية على يد أوغسطس •

سقوط الجمهورية الرومانية وقيام الامبراطورية :

ونستطيع أن نصور الموقف فى روما منذ سنة ٧٠ ق•م بأن زمام الأمور صار بيد كل قائد منتصر يعود من ميدان القتال على رأس جنده ليسيطر على أداة

الحكم . وقد حدث سنة ٧١ ق.م أن عاد الى روما أربعة قواد منتصرين هم ميتلس وبمبى من أسبانيا ولوكولس من مقدونيا وكراسوس من حرب العبيد . وفى معركة التنافس للوصول الى السلطان كان النصر على هؤلاء القادة لبمبى الذى يعتبر مثلا واضحا يعبر عن روح التهاون المتزايد بالتقاليد الجمهورية الرومانية . ذلك أن بمبى اعتمد على قوة جيشه وتوصل الى منصب القنصلية رغم أنف السناتو . وفى تلك الأثناء كان قيصر يتقدم الصفوف بخطى سريعة بفضل ما كان له من شعبية . وازاء الانتصارات الكبيرة التى أحرزها كل من بمبى وقيصر أخذت مكانة كل منهما تزداد فى روما وصار لكل واحد عدد كبير من الأنصار يؤيدونه ، مما جعل المعركة المقبلة تتأكد بين بمبى وقيصر . وقد مر التنافس والصراع بين الرجلين بأدوار طويلة ، انتهى بأن زحف قيصر على روما سنة ٥٠ ق.م وعندئذ فر من وجهه بمبى وعدد كبير من النبلاء وأعضاء السناتو واتجهوا الى بلاد اليونان . وفى مارس سنة ٤٩ ق.م. دخل قيصر روما وأصبح سيد ايطاليا .

وبعد أن أخضع قيصر لسلطانه ولايات الغرب - وبخاصة أسبانيا - اتجه الى الشرق لخوض المعركة الفاصلة مع بمبى الذى كان يقوى مركزه فى ابيروس . وعندما حلت الهزيمة بجيوش بمبى فر الى مصر مؤملا أن يجد مساعدة من ملكها الصغير ، ولكنه قتل ، ورغم ذلك فقد تبعه قيصر الى الاسكندرية سنة ٤٨ ق.م .

وهكذا ظل قيصر ينتقل من نصر الى آخر حتى غدت سلطته مطلقة ، الأمر الذى أثار حقد السناتو ، فقتل فى المجلس سنة ٤٤ ق.م. ولا شك فى أن مقتل قيصر ترك فراغا كبيرا مفاجئا فى الحياة السياسية فى روما ، ولكن قريبه اكتافيوس كان قادرا على سد ذلك الفراغ فعاد فورا الى روما . على أن الأمر لم يتم لأوكتافيوس بهذه السهولة ، اذ كان عليه أن يواجه منافسة قوية ، وبخاصة من جانب أنطونيوس ولبدوس . وفى المعركة التى دارت بين المتنافسين ، أخذ اكتافيوس يحقق نصرا بعد آخر . وأخيرا حقق اكتافيوس نصره النهائى على خصمه انطونيوس فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م ، وبذلك أصبح الزعيم الأول والقائد الأعلى الذى لا ينافسه منافس فى الامبراطورية الرومانية مشرقها ومغربها . وكان أن أنعم عليه السناتو بلقب « أوغسطس » سنة ٢٧ ق.م، مما أذن بغروب شمس الجمهورية وقيام الامبراطورية الرومانية .

الباب الثاني

الامبراطورية الرومانية

يبدأ المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوربا في العصور الوسطى باستعراض أحوال الامبراطورية الرومانية في أقصى مراحل قوتها وعظمتها • وليس معنى هذا أن تاريخ أوربا في العصور الوسطى يبدأ بداية دقيقة من هذه المرحلة ، وانما نستهدف من هذا العرض أن يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التي كيفت التاريخ الأوربي في العصور الوسطى(١) • هذا الى أن حضارة أوربا في العصور الوسطى ليست في حقيقة أمرها الا مزيجا من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر البربرية التي اجتازت حدود الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختلطت بأهاليها من جهة أخرى(٢) •

والواقع أن الامبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ ، اذ لم يقدر لامبراطورية أخرى في تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الامبراطورية الرومانية من قوة واتساع • ذلك أن هذه الامبراطورية ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة ـ باستثناء فارس والهند ـ وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧) (٣) • وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غربا حتى الفرات شرقا ، فشملت في الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وأيبريا وايطاليا واليريا فضلا عن شمال أفريقية من المحيط الأطلسي حتى طرابلس ، في حين شمل الجزء الشرقي من الامبراطورية

---

(1) Stephenson: Med. History. p. 5.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 3.
(3) Cary : A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine, pp. 646.647.

البلقان وآسيا الصغرى وأعالى بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقه(١)، هذا مع ملاحظة أن نفوذ روما امتد بعيدا الى ما وراء حدودها السياسية ، حتى بلغ فارس والهند ، وتطرق الى النوبة والسودان ، ونفذ الى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال أطلس ، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب(٢) .

وترجع عظمة الامبراطورية الرومانية الى أن السلطة المركزية فيها استطاعت أن تحكم سيطرتها على هذه المساحات الجغرافية المترامية الأطراف ، وعلى تلك الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات ، الأمر الذى تطلب من الحكومة الرومانية اصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى اختلفت بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى وحضاراتها ولغاتها ودياناتها . وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الامبراطورية الرومانية ومثار الاعجاب بها ، وانما تبدو هذه العظمة واضحة جلية فى مقدرة امبراطورية الرومان على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين ، جنبا الى جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد وما زالت فى فجر تاريخها مثل الغاليين والرومان . وهنا نلاحظ أن امتداد الامبراطورية الرومانية على شواطىء البحر المتوسط جعل من هذا البحر شريانا رئيسيا يربط بين مختلف أجزائها ، فى حين ساعدت الأنهار الداخلية على الربط بين أطراف الولايات(٣) ، هذا فضلا عن الطرق المعبدة التى اشتهرت بها حضارة الرومان ، والتى أقاموا منها شبكة واسعة مترامية ليس لها نظير فى التاريخ(٤) .

وكانت الامبراطورية الرومانية فى أزهى عصورها ـ وهى الفترة الواقعة بين قيام أوغسطس سنة ٢٧ ق٠م٠ ووفاة ماركوس أورليوس ١٨٠ م ـ تمثل بناء اجتماعيا سليما مترابط البنيان ، ذلك أنها كانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن

---

(1) Chapot : Le Monde Romain, pp. 68-71.
(2) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1. p. 4.
(3) Rostovtzeff : A Hsit. of the Ancient World, Vol. 2. p. 286.
(4) Chapot : Le Monde Romain. p. 103-105.

غاليا
اسبانيا
ايطاليا
تراقيا
دولة الفرس
أرمينيا
العرب
البحر المتوسط
قبرص
ليبيا
برقة
قيصرية
سورية
صقلية
قرطاجة
افريقية
موريتانيا
نوميديا
بانونيا
نقوميديا
نصيبين
أنطاكية
الاسكندرية

الأمبراطورية الرومانية
فى القرن الرابع الميلادى

نظام ادارى امتاز بالكفاية والدقة ، فى حين اعتقدت الطبقات الدنيا أن الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح فى ظل قانون عادل دون أن تحاول التدخل فى حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم أو معتقداتهم أو نظمهم الاجتماعية(١) .

أما عن طابع الحكومة الرومانية فى أوائل عصر الامبراطورية - أى حتى الاصلاحات العظيمة التى أدخلها دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث - فيلاحظ أن هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهورى السابق(٢) ، أو ربما كان من الادق القول بأنها ظلت جمهورية مع ظهور رأس للدولة وللجيش الرومانى يتمتع بمنصبه طوال حياته . وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعة ، واستمرت المناصب العليا فى الدولة بأيدى الأرستقراطية من كبار ملاك الأراضى ، كما بقى المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وان فقدوا كثيرا من أهميتهم السياسية(٣) . ولذلك يبدو من الخطأ أن ننظر الى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة . حقيقة انها لم تكن ملكية دستورية ، ولكنها امتازت - ولا سيما فى العصر الأول للامبراطورية - بسيادة العرف والتقاليد والقانون ، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهورى مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهرا دستوريا واضحا(٤) .

والواقع أن النظام السياسى الذى وضعه أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م) يعتبر حلا وسطا بين النظامين الملكى الاستبدادى والجمهورى الدستورى(٥) . ذلك أنه كان أمام أوغسطس أن يختار بين نظامين للحكم ، الأول نظام قيصر الذى قام على أساس حكم عسكرى اعترف فيه جميع الناس - سواء فى ايطاليا أو الولايات - بالطاعة العمياء لسيدهم الأعلى ، والثانى نظام الحكم الجمهورى

---

(1) Thompson : op. cit. pp. 4—5.
(2) Cam. Ancient Hist. Vol. 10 : p. 160.
(3) Stephenson : Mediaeval History, p. 6.
(4) Lot : The End of the Ancient World, pp. 6—7.
(5) Cam. Ancient Hist, Vol. 10. p. 158—168.

الذى يقر أهمية المواطنين الرومان فى ايطاليا والولايات الى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة فى الدولة • وهنا لجأ أوغسطس الى التوفيق بين النظامين ، أى بين الزعامة العسكرية التى ورثها عن أسلافه والتى أضحت ضرورية للمحافظة على سلامة الامبراطورية وأمنها وصالحها العام ، وبين رغبة المواطنين الرومان فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة - على الأقـل فى الميدانين الاجتماعى والاقتصادى ، ان لم يكن فى الميدان السياسى (١) • وهكذا نبذ أوغسطس حكم قيصر المطلق ولكنه ركز فى يد الامبراطور معظم السلطات التى اعتاد أن يباشرها كبار الموظفين فى العصر الجمهورى ، وبخاصة القيادة الحربية التى انتقلت من أيدى القناصل الى يد الامبراطور • واذا كان السناتو قد ظل محتفظا بهيبته ومكانته القديمة فى ظل النظام الجديد ، الا أن سلطاته التشريعية والقضائية والادارية تناقصت بصورة واضحة(٢) ، كمـا أصبح يتألف من أعضاء يختارهم الامبراطور من مختلف أنحاء الامبراطـــورية على الاطلاق ، بعد أن كان فى العصر الجمهورى يمثل أقلية ممتازة محدودة ، مما جعل الطبقة السناتورية Senatorial Class تعتمد على أوغسطس اعتمادا تاما(٣) •

وقد عاب بعض المؤرخين على الامبراطورية الرومانية فى أوائل عهـــدها افتقارها الى وجود قانون وراثى ثابت ينظم وظيفة الامبراطور • ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة فى النظم الرومانية عندئذ ، ولكننا يجب أن نعترف بأن علاجها لم يكن أمرا يسيرا بالدرجة التى قد نتصورها • ذلك أن ثمة حقيقـــة كبرى ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، هى أن الامبراطــورية الرومـــانية فى عصرها الأول لم تـكن مجـــرد امبراطـــورية فى قالب جمهورى فحسب ، بل كانت استمرارا للنظام الجمهورى الســـابق وامتدادا له ، مما تعذر معه وضـع قــــون وراثى ثابت للحـــكم دون

(1) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol. 2. pp. 175—176.
(2) Cam. Ancient Hist. Vol. 10 pp. 161—165.
(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 191.

التخلص من هذا القناع الجمهورى الذى استترت خلفه الامبراطورية الجديدة(١) • وعلى هذا فقد كان من الصواب - بل من الضرورى من الناحية السياسية - أن تحتفظ الامبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهورى فى عصرها الأول عندما كان أنصار التقاليد والمبادىء الجمهورية القديمة مازالو يمثلون أغلبية ذات نفوذ قوى فى السناتو •

على أن ضعف الامبراطورية الرومانية أخذ يبدو واضحا فى القرن الثالث، عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية فى عزل الأباطرة واقامة غيرهم بعد أن كان الجيش خادما مخلصا للامبراطور(٢) • ولم تلبث الفرق الامبراطورية فى مختلف الولايات أن أخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الامبراطور والسناتو ، مما جعل الأباطرة وأعضاء السناتو ألعوبة فى أيدى رجال الجيش (٣) / ولكن لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن جميع أباطرة القرن الثالث كانوا غير أكفاء فقد أظهر أول الأباطرة العسكريين فى ذلك القرن وهو سبتميوس سفروس (١٩٣ - ٢١١) مقدرة كبيرة ، على الرغم من نزعته الاستبدادية ، حتى أن عهده يعتبر مرحلة تحول فى تاريخ الامبراطورية والنظم الرومانية جميعا • وقد استطاع هذا الامبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت فى الحكم حتى سنة ٢٣٥ ، واشتهر من أباطرتها كاراكلا (٢١١ - ٢١٧) بسبب القانون الذى منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالى الامبراطورية من الأحرار(٤) • ومهما يكن من أمر ، فان الفضل يرجع الى الامبراطور سبتميوس سفروس فى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية • ويتضح نفوذ الجيش الرومانى فى ذلك الوقت ونظرة الأباطرة الى رجال الجيش فى النصيحة التى قدمها هذا الامبراطور

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 8.
(2) Cary : op. cit. pp. 721—723.
(3) Rostovtzeff : op. cit, Vol. 2, p. 303.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 33.

الى أبنائه وهو على فراش الموت ، اذ قال « أجزلوا العطاء للجند ، ولا تهتموا بالآخرين(١) » .

وبتولى الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ – ٢٥١) منصب الامبراطورية ، بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهورى ، حتى حعلوا من الجمهورية نظاما استبداديا يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الامبراطور والضغط على أهالى الامبراطورية . وهكذا أمست الحاجة ملحة فى الداخل الى اصلاح النظم الادارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة . أما فى الخارج فقد أخذ يتزايد ضغط الجرمان وبخاصة على جبهتى الراين والدانوب ، فى الوقت الذى ازداد الخطر الفارسى على الولايات الآسيوية (٢).

وفى وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التى عمت الامبراطورية عقب انتهاء حكم أسرة سفروس سنة ٢٣٥ ، ظهر جندى دلماشى من أصل متواضع — هو الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) — ليتدارك الموقف ويعالج مشاكل الامبراطورية فى عزم واصرار ، فأحدث ثورة ضخمة فى نظم الحكومة الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الامبراطورية . ذلك أن جميع المتاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية فى أواخر أيامها كانت قد أخذت تتبلور لتظهر عندئذ فى صورة خطيرة واضحة . ففى الداخل تفاقمت المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفى الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس وضغطهم على حدود الامبراطورية(٣) . وبعبارة أخرى فان العوامل التى أدت الى اضمحلال الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها ظهرت واضحة فى أواخر القرن الثالث(٤) .

---

(1) Lot : op. cit. p. 10.
(2) Ibid.
(3) Cary : op. cit. pp. 723—726.
(4) Thompson : op. cit, Vol. 1 p. 12

ويحسن بنا قبل أن نعالج اصلاحات دقلديانوس ، أن نبدأ أولا باستعراض المشاكل الأساسية الهامة التى شكت منها الامبراطورية الرومانية فى القـــرن الثالث • وكانت أولى هذه المشاكل هى كيفية احتفاظ الامبراطورية الرومانية بوحدتها سليمة كاملة ، بعد أن اتجهت بعض الولايات — فى الشرق والغرب — نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية ، وقامت فيها فعلا — وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٢٠٠ — حركات ثورية انفصالية(١) • ومن الخطأ وسوء المبالغة أن ننسب هذه الحركات الى مطامع بعض الأفراد الطموحين وتتجاهل روح الاستياء والغضب التى عمت أهالى الولايات ، والتى كانت العامل الأساسى فى تشجيع هؤلاء الطموحين على الظهور • فاذا دققنا النظر فى معظم الثورات التى نشبت فى مختلف ولايات الامبراطورية منذ القرن الثالث ، وجدنا من ورائها جميعا عوامل مشتركة — اقتصادية واجتماعية وعنصرية — حركتهـــا وساعدت على سرعة اشتعالها • وهنا نشير الى أنه ليس من الصواب الأخـــذ بالرأى القائل بأن ازدياد تركيز السلطة الحكومية فى أواخر عهـــــد الامبراطورية الرومانية هو سبب اضمحلال هذه الامبراطورية لأنه أدى الى كبت الروح العنصرية فى الولايات • فالواقع أن الحكومة الرومانية اضطرت الى اتباع سياسة التركيز هذه فى أواخر عصر الامبراطورية نتيجة للفســـاد الذى عم الولايات فعلا ، ولا سيما بعد أن أصبح حكام الولايات على قسط غير كاف من المقدرة مما أفقدهم ثقة الحكومة ، فى الوقت الذى أصاب مجالس الولايات الانحلال والوهن(٢) • لذلك لجأت الحكومة المركزية الى التدخل لمحاولة اصلاح الأوضاع الادارية فى الولايات ، وكان العلاج المألوف عندئذ هو تصغير مساحة الولاية عن طريق تقسيمها أو تفتيتها ، فضلا عن الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية فى الولاية(٣) وهكذا أخذ عدد الولايـــات الرومانية فى تزايد مستمر نتيجة لهذه السياسة حتى قفز هذا العدد من ست وأربعين ولاية سنة ٤١ الى مائة وتسعة عشر ولاية سنة ٣٢٧•ولم يكن الانحلال

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 24—25.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 25—26.
(3) Chapot ; op. cit. p. 127.

فى الحكومات البلدية الخاصة بالمدن ذات الادارات المستقلة عن ادارة الولاية — أقل وضوحا منه فى حكومات الولايات ، فكثير من المدن أسرفت فى اقامة المنشآت العامة وزخرفتها كالحمامات والمسارح والملاعب ، الأمر الذى تطلب زيادة أعباء الضرائب المحلية(١) وقد دفع ذلك بعض الأباطرة الى تعيين مراجعين ومحاسبين لفحص دفاتر بلديات المدن ، كما دفعهم أحيانا الى حرمان بعض البلديات من حرياتها واستقلالها الذاتى وجعلها تابعة لحكومة الولاية(٢) .

أما الناحية الاقتصادية فقد ساءت فى الامبراطورية نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الدولة وجعلت طـــرق التجارة غير مأمونة فى البر والبحر (٣) وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب فى القرن الثالث ، سواء تلك التى فرضتها الحكومة المركزية أو التى جمعتها السلطات المحلية . وذلك أن الامبراطورية أصبحت مقسمة الى دوائر جمركية عـــديدة ، فى حين فرضت الضرائب على جميع السلع التجارية بنسبة تتراوح ٢٪ ، ١٢٪ ، هذا فضلا عما فرضته المدن من ضرائب صغيرة على المأكولات — كالخضر والفواكه والطيور واللحوم — التى ترد اليها من الأقاليم المجاورة(٤) . وكان من المتبع أحيانا أن تكون هذه الضرائب عينية ، أى تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف ، بعكس الحال فى الضريبة الذهبية الفضية Chrysargyrum ، وهى الضريبة الرئيسية فى الانتاج الصناعى والتى سميت بهذا الأسم لأنها كانت تدفـــع نقدا(٥) .

ومهما يكن من أمر ، فـان العبء الأكبر للضرائب وقـــع على الأراضى والمزارعين ، واذا كان العالم الرومانى قد اشتهر بالملكيات الزراعية الكبيرة ، فان المفروض هو أن تقوم طبقة كبار الملاك بتحمل الجزء الأكبر من أعبـــاء الضرائب . ولكن الواقع العملى لم يطابق هذا الفرض النظرى ، اذ تحرر كبار

---

(1) Dill : Roman Society from Nero to Marcus Aurelius pp. 245—250.
(2) Chapot : op. cit. pp. 113—125.
(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 317.
(4) Charlesworth : The Roman Empire, pp. 70—81.
(5) Lot : The End of the Ancient World, p. 121,

الملاك من هذا العبء الباهظ وألقوا به على كواهل المستأجرين ، عن طريق رفع قيمة الايجار أو عن طريق اثقالهم بالالتزامات والخدمات التى يتعين عليهم أداؤها للمالك(١) . أما المزارع الصغير فكان يلجأ الى رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب ، وعندئذ يستولى كبار الملاك المجاورين على الأرض ويصبح المزارع الحرفنا ، أو يترك مزرعته لينزح الى احدى المدن وينضم الى جموع الدهماء التى أخذت تتكاثر فى المدن الرومانيـــــة(٢) . وبالاضافة الى ذلك وجدت فى الامبراطورية الرومانية ضريبة اجبارية يؤديها أهل الولاية نقدا أو سخرة لصيانة الطرق والجسور والقنوات وغيرها من المرافق العامة . هذا عدا الضرائب المستحقة على جميع الأحـــــرار ، والتى اقتصرت فى أول الأمر على المواطنين الرومان الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية حتى منح كاراكلا هذه الجنسية سنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية الأحرار للحصول على ايراد أوفر وأعم ، وان كان هذا الاجراء قد ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة للامبراطورية ونظمها(٣) .

وهكذا نلاحظ ازديادا مطردا فى الضرائب المباشرة وغير المباشرة داخل الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث . ذلك أن الأمر لم يقتصر على تضاعف عدد الضرائب المفروضة ، بل صحب ذلك ارتفاع نسبة الضريبة الواحـــدة ارتفاعا مستمرا(٤) . وقد أثر هذا الوضع تأثيرا خطيرا فى بناء المجتمـــع الرومانى الذى اختل توازنه نتيجة لأن الأغنياء — وهم الطبقة الارستقراطية المؤلفة من كبار ملاك الأراضى — ازدادوا غنى ، فى الوقت الذى ازداد الفقراء فقرا . أما الطبقة الوسطى فى المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص وسارت فى طريق الاضمحلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها الى فئة من الأتباع والعبيد

---

(1) Rostovstzeff ; op. cit., pp. 313—315.
(2) Katz : The Decline of Rome, p. 37.
(3) Rostovtzeff ; op. cit., Vol. 2 p. 317.
ويلاحظ أن الهدف الأساسى الذى توخاه كاراكلا من منح الجنســــية الرومانية لجميع أهالى الولايات الأحرار ما زال موضع نقاش وجدل بين المؤرخين
(4) Chapot ; op. cit. pp. 106 — 111.

فى ميدان الزراعة والصناعة . كذلك أدى هذا الوضع الى تدهور الانتاج وانخفاض قيمة العملة التى لم يتردد بعض الأباطرة فى تزييفها والاكثار من سكها . ذلك أن الأباطرة عندما وجدوا أنفسهم لا يملكون المعادن الكافية لسك العملة ، لجئوا الى خلط الذهب بالفضة ، والفضة بالنحاس ، والنحاس بالرصاص ، وبذلك انحطت قيمة العملة وأفلس من التجار من كان ثريا بسبب التلاعب فى النقد(١) / هذا الى أن تزييف العملة أدى الى اختفاء النقود الجيدة من السوق ، وقصر التداول على النقود الرديئة - وفقا لقانون جريشام الحديث - الأمر الذى أدى الى ارتفاع الأسعار ارتفاعا جنونيا(٢) . وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعا يمكن تفسير الثورات العديدة التى انتشرت فى مختلف ولايات الامبرطورية فى القرن الثالث ، عندما أخذ المزارعون والفلاحون يهجرون مزارعهم ويهاجمون المدن المجاورة لنهبها ، كما اتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة حتى عم الفساد البر والبحر(٣) .

وبالاضافة الى هذه المفاسد والمشاكل الداخلية ، تعرضت الامبراطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه الحدود فى القرن الثالث . فالفرنجة أغاروا على أراضى الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦ (٤) ، والقوط الذين اجتاحوا اقليم داشيا غزوا مواشيا سنة ٢٥١ ولم يكن طردهم من هذا الاقليم الا بعد أن انتصر عليهم كلوديوس سنة ٢٩٨(٥) . وفى سنة ٢٧٠ اندفع الألمانى خلال ممرات الألب مهددين شمال ايطاليا . وفى عهد الامبراطور فالريان (٢٥٣ - ٢٦٠) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية أفريقية الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد أخرى لنهب مدنها ومزارعها .

---

(1) Rostovtzeff ; op. cit. Vol. 2, p. *317.*
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 38.
(3) Katz ; op. cit. pp. *36—37.*
(4) Cary : op. cit. p. 723
(5) Cam. *Med. Hist. Vol. 1* pp. *204—206*

هذا فى الوقت الذى تطرقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان الى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقى عبر القوقاز(١) .

وزاد من هذه الأخطار الخارجية التى هددت الامبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التى أخذت منذ سنة ٢٣٣ تهدد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسوريا تهديدا خطيرا مستمرا ، حتى تمكن الفرس من انزال الهزيمة بالامبراطور فالريان وأسره سنة ٢٥٩ (٢) . واذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك فى احراز شىء من الانتصارات الجزئية على الفرس ، الا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسى أو حتى الاقـلال منـه(٣) .

الامبراطور دقلديانوس :

وهكذا بدت الامبراطورية الرومانية على شفا هاوية عندما اعتلى الامبراطور دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ ليقوم بأعظم عملية ترميم فى بناء الامبراطورية المتداعى ، ويبدو أنه ليس من الواقـع فى شىء أن نعتبر دقلديانوس أول الأباطرة المصلحين الذين عملوا على انقاذ الامبراطورية فى القرن الثالث ، اذ وجد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الامبراطورية بين سنتى ٢٥٣ ، ٢٨٢ جماعة أحسوا بخطورة الموقف ورغبوا فى الاصلاح ، ونخص بالذكر الامبراطور أورليان Aurelien (٢٧٠ - ٢٧٥) الذى أطلقت عليـه الوثائق المعاصرة لقب « مجدد الامبراطورية »

ولكن المشكلة كانت أشد تعقيدا من أن تحل فى سهولة ، فاكتفى هؤلاء الأباطرة المصلحون ببعض الاصلاحات الجزئية التى تناولت الضرائب والعملة الزراعية كما سمحوا لبضعة آلاف من العناصر الجرمانية المرابطة على حدود الدولة باجتياز هذه الحدود والاقامة داخلها ، وذلك لتوفير الأيدى العاملة اللازمـة

---

(1) Thompson ; op. cit. Vol. 1 p. 16
(2) Cary; op. cit. p. 724.
(3) Moss; The Birth of the Middle Ages, pp. 6—7.
(4) Vasiliev: Hist. de l'Empire Byzantin; Tome 1: p. 77.

للزراعة من جهة ولاتقاء شر هذه العناصر وخطرها من جهة الأخرى(١) .

ولكن أحدا من أباطرة القرن الثالث لم يستطع أن يقـــوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) من اصلاح شامل بعيد الأثر في مختلف مرافق الامبراطورية ، وهنا نجد دقلديانوس يوجه جهوده نحو ثلاثة أهداف كبرى ، هي تقوية نفوذ الحاكم أو الامبراطور ، واعادة تنظيم الجهاز الحكومي ، وتجديد نظام الجيش(٢) ولتحقيق هذه الأهداف بدأ هذا الامبراطور باقرار الأمن والنظام في مختلف الولايات الامبراطورية ، فأخضع الثورات المتأججة في غاليا ومصر وولاية أفريقية وبريطانيا ، كما صد البرابرة على امتداد جبهتي الراين والدانوب . ولم يكد دقلديانوس يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧ واسترد منهم بلاد ما بين النهرين ، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقا مرة أخرى حتى نهر دجلة ، كما عادت رقعة الامبراطورية من جديد الى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء أقليم أو اقليمين(٣) وقد فكر دقلديانوس في حماية العالم الروماني من الأخطار الجسيمة التي كانت تهدده ، وذلك بانشاء قوة حربية متنقلة - أي غير مرتبطة بجبهة واحدة - لتتحرك في أي وقت الى أية جهة حسب الظروف ووفق مشيئة الامبراطور(٤) .

على أن الخدمات الحقيقية التي أداها دقلديانوس للامبراطورية والتي تركت أثرا بالغا في أحوالها ، لم تكن في ميدان الحرب بقدر ما كانت في ميــــدان الاصلاح الاداري . ذلك أنه أعاد تنظيم الجهاز الاداري في صورة حرمت ايطاليا مما كان لها في العصور القديمة من مكانة ممتازة ، كما قضت على التفرقة بين الولايات الامبراطورية وولايات السناتو(٥) . وقـــد أدرك دقلديانوس بثاقب بصره أن المركز الحقيقي لقوة العالم الروماني لم يعد في الغرب وانما أصبح في الشرق ، حيث امتازت الولايات بوفرة الخيرات وكثرة السكان ومهارة

(1) Bloch : L'Empire Romain. pp. 188—194
(2) *Rostovtzeff ; op. cit. Vol. 2, p. 320*
(3) Thompson : op. cit *Vol. 1 p. 17*
(4) *Stephenson ; Med. Hist. p. 38*
(5) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. *32*

الأيدى العاملة فى الزراعة والصناعة والتجارة • لذلك مهد دقلديانوس لما فعله الأمبراطور قسطنطين فيما بعد(١) فاتخذ عاصمة جديدة للامبراطورية فى الشرق ، هى مدينة نيقوميديا فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بحر مرمرة (٢) • هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة ايطاليا من روما الى ميلان ، وهى المدينة التى تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الامبراطورية منها الى غاليا أو ألمانيا لصد هجوم أو اخماد أية فتنة (٣) •

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الرومانى اعادة تنظيم الجهاز الادارى تنظيما جوهريا شاملا • ذلك ان دقلديانوس أدرك ضرورة ايجاد علاج للخطر الناجم عن تضاعف عدد الولايات ، وما ترتب على هذه الظاهرة من قيادات انفصالية • لهذا فكر فى ربط الولايات الرومانية بعضها ببعض ، فقسم الامبراطورية الى أربعة أقاليم أو أقسام ادارية كبرى ، على رأس كل قسم منها حاكم ادارى عام يتمتع اما بلقب « أوغسطس » أو بلقب « قيصر » ، ويعتبر من الناحية العملية شريكا للامبراطور فى حكم الامبراطورية(٤) • أما هذه الأقسام الادارية الأربعة الكبرى فكانت غاليا (وتشمل بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء المعروف حاليا باسم مراكش) ، وايطاليا (وتشمل الأراضى الواقعة بين الدانوب والبحر الأدرياتى فضلا عن ايطاليا والبلاد المعروفة حاليا بأسماء الجزائر وتونس وطرابلس) ، واليريا (وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان) ، ثم أخيرا اقليم الشرق ويشمل بقية الامبراطورية أى تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر(٥) • وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالقسم الأخير ومركزه نيقوميديا ، هذا فضلا عن احتفاظه بلقب الامبراطورية ووظيفتها •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1 p. 24
(2) Cary : op. cit., p. 195
(3) Bloch : op. cit. p. 195.
(4) Idem, pp. 194—195
(5) Painter; A Hist. of the Middle Ages, pp. 5—6.

وهكذا أصبحت الامبراطورية من الناحية النظرية مقسمة الى أربعة أقسام كبرى يحكمها أربعة حكام ، اثنان منهم أعلى مقاما ويحملان لقب «أوغسطس» والاثنان الباقيان أقل درجة ويحملان لقب « قيصر » ويخلفان الأولين ، فى حالة الوفاة أو العجز(١) . أما الامبراطور نفسه فلم يعد أن يكون أحـــد الحاكمين الأولين ، ولكن كانت بيده السلطة العليا فى الامبراطورية والاشراف العام على جميع شئونها كما كان القائد الأعلى للجيش(٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كانت السلطة الادارية فى الامبراطورية قد قسمت أو وزعت ، الا أن الامبراطورية نفسها ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ ، بحيث أن كل أوغسطس كان له حق المرور فى أراضى القيصر التابع له . كذلك يلاحظ أنه اذا كانت السلطة العليا فى النواحى التشريعية والادارية قد أصبحت نظريا فى أيدى الأوغسطين ، الا أن دقلديانوس ظل من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور فى الامبراطورية (٣) . وبعبارة أخرى فانه ليس معنى تقسيم الســلطة أن الامبراطورية نفسها انقسمت ، اذ ظلت هذه الامبراطورية تمثل وحدة على عهد دقلديانوس(٤) . ثم كان أن قسم دقلديانوس هذه الأقسام الأربعة الكبرى الى سبعة عشر وحدة أصغر Dioceses كل وحدة منها يرأسها نائب Vicarus عن الحاكم العام ، وتشمل عددا من الولايات . أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، لكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصـــة بالأباطرة(٥) . وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام ، والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم ، وهؤلاء الحكام مسئولين أمـــام دقلديانوس الذى كان يتمتع بسلطة تامة فى تعيينهم أو عزلهم . وعن هـــذا الطريق أراد دقلديانوس أن يجعل الاجراءات الادارية تتم بصورة أسرع وأدق ، وفى الوقت نفسه يقضى على عوامل الانفصال والفساد المحلية التى

---

(1) Vasiliev, op. cit. Tome I, p. 78
(2) Rostovtzeff . op. cit. Vol. 2; pp. 321-323.
(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 14
(4) Vasiliev, op. cit. Tome, I, p. 78
(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol 2, 325

طالما سببت متاعب جسيمة للامبراطورية فى القرن الثالث • وهكذا رفض دقلديانوس التعلق بأذيال النظم الجمهورية السطحية التى لم يبق منها سوى أوهام خيالية ، فتخلص من مظاهر الحكم الجمهورى بحيث بدت الامبراطورية فى عهده – كما كانت فعلا فى باطنها – ملكية استبدادية مطلقة • وهذا يحاول بعض الكتاب تفسير هذه الاتجاهات فى ضوء النفـــوذ الشرقى ؛ بحيث لم يقتصر أثر هذا النفوذ على تنظيمات دقلديانوس فحسب ، بل امتد أيضا الى اعلاء كلمة الامبراطور وتمتعه بسلطة مطلقة أشبه بسلطة الأكاسرة(١) •

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم الى أكثر شعوب الامبراطورية تخلفا فى الميدان الحضارى ، وبخاصة الجرمان • فبقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة ، بقدر مـــا ازدادت أهميته ومكانته ، وهكذا اعتمد دقلديانوس على الفرق المؤلفـــة من البرابرة المرتزقة فى حماية الامبراطورية ، وجعل مراكزهم قرب عواصـــم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة السير الى الحدود فى أى وقت يطلب منهم ذلك(٢) / وليس هناك شك فى أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس ، كما أصبح الطريق مفتوحا أمام الجندى ليرتقى ويصبح ضابط مائة ثم يتدرج فى مختلف درجات القيادة حتى يصل الى مرتبة القائد الأعلى للجيش • وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكون شجاعا خبيرا بفنه مخلصا للامبراطور(٣) •

ثم أتبع دقلديانوس هذه التنظيمات الادارية والحربية باصلاح النظم المالية والضرائب فقام بعملية واسعة تستهدف حصر الأراضى الزراعية فى الامبراطورية وتحديدها لتقرير الضرائب فى صورة عادلة • واذا كان دقلديانوس لم ينجح فى علاج الأزمة الاقتصادية علاجا ناجحا ، الا أنه نجح فى حماية الفقراء من جشع المستغلين والمتجرين فى أقوات الأهالى(٤) • وكان العلاج الذى لجأ اليه

(1) Katz; op. cit. p. 44.
(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 323.
(3) Idem, p. 324.

دقلديانوس هو سك عملة صحيحة سليمة حازت ثقة التجار والمتعاملين من جهة ، ثم تحديد كميات البضائع المتداولة والتى تعرض للبيع من جهة أخرى . هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والأجور من جهة ثالثة(١) على أن هذه المقاييس لم تفلح فى علاج ما كان يعانيه أهالى الامبراطورية من ضغط وفاقه بسبب كثرة الضرائب التى وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا فى حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الاعفاءات المالية(٢) . وهكذا يمكن القول بأن كل ما فعله دقلديانوس لاصلاح الحالة المالية هو أنه بسط جهاز الضرائب وحاول منع وقوع أزمة مالية ، ولكنه لم يستطيع بأى حال إعادة الأوضاع المالية فى الدولة الى حالتها الطبيعية نتيجة لتدهور مستوى المعيشة(٣). هذا الى أن اصلاحات دقلديانوس المختلفة وما تطلبته هذه الاصلاحات من نفقات طائلة ، ألقت حملا ثقيلا على الأهالى فى وقت كانت مالية الامبراطورية تعانى ارتباكا شديدا منذ أوائل القرن الثالث ، مما زاد الحال سوءا .

الامبراطور قنسطنطين :

ثم كان أن تنحى دقلديانوس عن عرش الامبراطورية سنة ٣٠٥ بعد أن بلغ الستين من عمره واستبد به المرض وأحس أن الوقت قد حان ليتخلى عن الحكم لغيره بعد أن أدى واجبه فى انقاذ الامبراطورية وتدعيمها(٤) . وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الامبراطورية قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة ، وبرزت خلالها شخصية قنسطنطين الذى استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد آخر حتى تم توحيد الامبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣ ، وعندئذ أخذ هذا الامبراطور على عاتقه مهمة اتمام الاصلاحات التى بدأها دقلديانوس(٥) .

(1) Lot : op. cit, pp. 18—19
(2) Stephenson ; Med. Hist. pp. 38—39
(3) Rostovtzeff ; op. cit, Vol. 2, p. 327
(4) Lot: op. cit. pp. 22—23
(5) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 80.

والواقع ان الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة في التاريخ نظرا للأعمال الهامة التي قام بها ، والتي كان لها أثر واضح في تغيير وجه التاريخ ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم الى عالم العصور الوسطى(١) . ذلك أن هذا الامبراطور قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية : الأولى اعترافه رسميا بالديانة المسيحية ، والثانية نقله عاصمة الامبراطورية من روما القديمة على ضفاف التيبر في ايطاليا الى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور(٢) . وسوف نرجيء الكلام عن الجانب الديني من أعمال قسطنطين الى الباب الآتي مكتفين في هذا الباب بالاشارة الى الركن الدنيوي من أعماله .

ومن الواضح أن قسطنطين اقتفى في اصلاحاته الادارية أثر السياسة التي وضع أساسها دقلديانوس ، فقام باتمام الأعمال التي بدأها هذا الامبراطور بشكل أبعد أثرا(٣) ، حتى أننا نجد من الصعب في كثير من الأحيان الفصل بين أعمال هذين الامبراطورين . وهنا نلاحظ أن الاصلاحات الادارية التي قام بها دقلديانوس وقسطنطين تمت على أساس التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنية(٤) . وظهرت هذه التفرقة واضحة في حكم الولايات ، اذا أصبح حاكم الولاية مسئولا عن شئونها الادارية المدنية فحسب ، في حين اختص القائد (dux) بالاشراف على النواحي الحربية في ولاية أو أكثر من ولايات الامبراطورية(٥) . على أن أهم تغيير أدخله قسطنطين كان ادخال مبدأ الحكم الوراثي ، فأصبح المنصب الامبراطوري وراثيا في أسرته التي اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى(٦) . أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قسطنطين نحو انقاص عدد

---

(1) Bynes : Constantine the Great and the Christian Church ; p. 3.
(2) Vasiliev: op. cit. Vol. 1. p. 54.
(3) Bury: Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 1.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 80
(5) Ostrogosky: op. cit. p. 33.
(6) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 332.

أفراد الفرق العسكرية ، كما استمر فى سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط فى سلك الجيش الرومانى كجند نظاميين •

وعلى الرغم من أن قسطنين كان مشرعا نشيطا ، الا أن كفايته الادارية ما زالت موضع شك • ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية ، وأنزل طبقة الصناع الى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب(١) • هذا فى الوقت الذى شدد فى فرض العقوبات على جامعى الضرائب فى المدن اذا عجزوا عن استيفاء الضرائب التى قررتها الحكومة • أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا يمنع أولئك الذين يغرقون فى الديون - نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار - من ترك أراضيهم والانتقال الى ولايات أخرى ، عسى أن تكون الأحوال الاقتصادية فيها أقل قسوة ، الأمر الذى عجل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة الى أقنان مربوطين بالأرض(٢) •

على أنه ليس هناك من شك فى أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية ، يدل على أن قسطنطين أوتى بصيرة سياسية حكيمة • حقيقة أن الفضل فى فكرة نقل عاصمة الامبراطورية الى الشرق لا يرجع الى قسطنطين بقدر ما يرجع الى دقلديانوس ، الذى أقام فى مدينة نيقوميديا على الشاطئ الشرقى لبحر مرمرة واختصها برعايته وأنشأ فيها كثيرا من المبانى الجميلة الرائعة(٣) • ولكن اصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسميا يدل على بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التى أمست فيها الامبراطورية الرومانية ، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من تنفيذ رأيه •

---

(1) Katz : op. cit. p. 50.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 27
(3) V[illegible] : op. cit. T[illegible] 1. p. 72.

ومهما تكن الأسباب التى دفعت الامبراطور قسطنطين الى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة ، وسواء كان الدافع الأساسى اليها هو أن الامبراطور وجد أن سياسته الدينية واعترافه بالمسيحية لا يمكن أن تستقيم فى روما حصن الوثنية ودرعها الحامى ، ففكر فى نقل عاصمته الى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين ، أو كان الدافع غير ذلك من الأسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، فالمهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلا سنة ٣٣٠ فشيد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور(١) • وتمثل المنطقة التى أقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة ، اذ تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور ، ومن الشمال مياه القرن الذهبى الذى هيأ مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة الجديدة(٢) • ومن الواضح أن موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة لأنها تسيطر على المضايق التى تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة ، كما انه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى • هذا الى أن القسطنطينية كانت مركزا تجاريا ممتازا اذ أصبحت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التى تربط البحر الأسود [illegible] ايجه، وشمال أوربا وغربها بآسيا(٣) • ولم يدخر قسطنطين نفسه وسعا فى أن يجعل هذه المدينة الجديدة التى سميت باسمه روما ثانية ، فأقام بها قصرا امبراطوريا وسوقا ومحاكم ودارا للسناتو وحمامات وملعبا عظيما • وسرعان ما أثبتت القسطنطينية أنها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى(٤) •

والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التى اتخذها قسطنطين وأثرها فى التاريخ ، لأن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع غير وجه التاريخ الأوربى الألف سنة التالية • فلولا قيامها لما استطاعت البابوية الوصول الى ما وصلت اليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى ، ولحرم

---

(1) *Lot* : ep. cit. pp. 36—37.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 17.
(3) Diehl & Marcais : *Le Monde Oriental.* p. 4
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 36.

شرق أوربا من تلك القلعة المنيعة التى صمدت فى وجه المسلمين وبالتالى حالت دون غزوهم شرق أوربا(١) • هذا بالاضافة الى أن القسطنطينية صارت حصنا للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب الهللينية ، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد الى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التطور الحضارى لأوربا •

الامبراطورية الرومانية بعد قنسطنطين :

ثم حدث بعد وفاة قنسطنطين ٣٣٧ أن قسمت الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، حتى استطاع أحدهم – وهو قنسطنطيوس – توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذى استمر حتى سنة ٣٦١(٢) • وعلى الرغم من ذلك فان الامبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السريع فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها ، دون أن تفلح جهود الأباطرة الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة مثل جوليان (٣٦١ – ٣٦٣) وجوفيان (٣٦٣ – ٣٦٤) ، وفالنز (٣٦٤ – ٣٧٨) فى صد ذلك الخطر أو فى وقف تيار الانحلال • ذلك أن جوليان قتل أثناء الحرب مع الفرس سنة ٣٦٣ فى حين لجأ خليفته جوفيان الى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضى ما بين النهرين(٣) • أما فالنز فقد عاد مسرعا من الجبهة الفارسية لمواجهة خطر القوط والتقى بهم فى موقعة أدرنة (أدريانوبل – أغسطس سنة ٣٧٨) حيث تمكن القوط الغربيون – بمساعدة اخوانهم الشرقين – من محو الجيش الرومانى وقتل الامبراطور نفسه فى المعركة(٤) • ويعتبر مقتل هذا الامبراطور نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ أخذت قبائل القوط الغربيين عندئذ داخل أراضى الامبراطورية تحت ضغط الهون الأسيويين • هذا فى الوقت الذى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 18—19
(2) Vasiliev : op. cit. Tome, 1 p. 82.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 85.
(4) Ostrogorsky, op. cit. cit. p. 48

أخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى أصبحت المسيحية ديانة الامبراطورية الرسمية على عهد الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥) . وبذلك أمسى مصير الامبراطورية الرومانية معلقا بين أيدى الجرمان من جهة ورجال الكنيسة من جهة أخرى .

وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه الى قسمين شرقى وغربى ، فكان القسم الشرقى من نصيب ابنه أركاديوس فى حين صار القسم الغربى من نصيب ابنه هونريوس(١) . ومن الواضح أن هذا التقسيم جاء طبيعيا ، لأن القسم الشرقى اليونانى يختلف اختلافا بينا فى حضارته واتجاهه وميوله وعقليته عن القسم الغربى اللاتينى . على أنه لا ينبغى أن يفهم من هـذا التقسيم أنه منح الامبراطورية قوة جديدة ، بل على العكس لايمكن اعتباره الا مظهرا من مظاهر التفكك والانحلال الذى أصاب الامبراطورية الرومانية ، والذى حاول الأباطرة المصلحون مثل دقلديانوس وقسطنطين تداركه ، ولكن عوامل الانحلال كانت أقوى من جهودهم التى لم تؤد الا الى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية فيما بعد(٢) .

ذلك أن عوامل الانحلال اشتد خطرها فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما ازداد الفساد الادارى وتضاعف عبء الضرائب وتفاقم الخلل الاجتماعى، بعد أن تكاثر عدد العبيد المشتغلين بالزراعة والصناعة وتناقص عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن بوجه عام(٣) . وهكذا يسهل على دارس أحوال الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع أن يدرك أنها كانت تعانى عندئذ آلام الموت البطىء ، وبالتالى فان العصور القديمة أمست فى طريق الزوال وباتت الأحوال ممهدة لأن تنتقل أوربا الى طور جديد من أطوار تاريخها أكثر ارتباطا بالعصور الوسطى(٤) .

---

(1) Vasiliev: op. cit, Tome. 1 pp. 82—83.
(2) Moss : op. cit. pp. 78—79
(3) Katz : op. cit. pp. 78—79
(4) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 543—552.

وقد أجهد المفكرون أنفسهم فى الوقوف على أسباب انحلال الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، فمنهم من قال بأن السبب فى ذلك هو فشل هـــذه الامبراطورية فى حل مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة ، ومنهم من نادى بأن انهيار نظام المدينة الحرة ذات الحكم الذاتى هو مصدر اضـــمحلال الامبراطورية(١) ، فى حين قال فريق ثالث أن سبب الكارثة هو الافراط فى الاعتماد على المدن والتوسع فى منحها استقلالا ذاتيا ، مما أفسد وحدة النظام الادارى فى الولايات وأثار البغضاء بين أهالى المدن وأهالى الريف ، كما أوجد تعارضا بين الأوضاع الاقتصادية التى سادت المدن من جهة وتلك التى سادت الريف من جهة أخرى . وأخيرا يأتى رأى رابع يعلل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية بازدياد نفوذ أرستقراطية كبار الملاك الاقطاعين ونموها على حساب الطبقة الوسطى من الأحرار التى تناقص أفرادها فى الريف والمدن وتحولوا الى عبيد(٢) .

ويشبه بعض المؤرخين الامبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتـــدت جذورها القوية فى مختلف الاتجاهات ، مما يجعلها أقوى من أن تنهار نتيجة لعامل واحد أو سبب بعينه . لذلك يرجعون انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها الى عدة أسباب تضامنت جميعها لاسقاط الامبراطورية . وســـواء كانت هذه الأسباب طبيعية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو حربية أو دينية(٣) ، فان يجب أن نعترف بأنه لم توجد دولة أو حكومة فى التاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحد من الرفعة أو الحطة ، وأن الدول تتفق مع الكائنات الحية فى خضوعها لسنة الموت والبعث .

(1) Idem. p. 553.
(2) Thompson, op. cit. vol, I pp. 28—29
(3) Cary, op. cit, pp. 778—779.

الباب الثالث

الإمبراطورية والمسيحية

ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أثناء عهد الامبراطور أوغسطس (ت ١٤ م) فى بيت لحم بفلسطين ، فى وقت أخذ العالم الرومانى يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الروحى • فالرومان أنفسهم بدءوا ينظرون الى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة ، على أنها أمور شكلية(١) ، مما دفع المتعلمين منهم بوجه خاص الى الاستخفاف بالعقائد الدينية السائدة — سواء أكانت يونانية أو رومانية الأصل — ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التى نادى بها الرواقيون(٢) • ولكن حتى هذه التعاليم الرواقية أخذت هى الأخرى تبدو تدريجيا أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين نظرا لما امتازت به من تطرف فى الجمود والمنطق فضلا عن بعدها عن الآفاق السماوية(٣) •

والواقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصارا سريعا للمسيحية فحسب ، بل أيضا لكثير من الديانات الأخرى الوثنية • ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفى فى نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشىء سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة • أما الآلهة ذات الأصل الأجنبى التى وجدت فى روما أو غيرها من أنحاء الامبراطورية — مثل غاليا وبريطانيا — فكانت هى الأخرى رموزا شكلية لا تثير حماسة دينية فى نفوس المعاصرين(٤) • وفى وسط هذا الفراغ الدينى الكبير لم يجد أهالى الامبراطورية وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. I. p. 89
(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 51—52
(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 345 & Glover. op. cit. p. 155
(4) Cary : op. cit.p. 531 & 590

المختلفة المستوردة من الشرق مثل ديانة سيبل (Cybele) من آسيا الصغرى وديانة متراس Mîthras من فارس وديانة ايزيس من مصر ، وأخيرا المسيحية التى نبتت فى فلسطين(١) •

ومن الواضح أنه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التى عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت ، لأن قصة المسيح وحياته فاقت فى سموها وجمالها بقية القصص الدينى المعاصر • ويكفى ان تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة ، لا من فلسفة اليونان التى لا يمكن أن يتفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين • فاذا أضفنا الى ذلك أن المسيحية جاءت دينا سماويا عاما دون أن تختص بطائفه أو تميز فريقا على آخر ، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها فى النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة(٢) •

ومن المعروف أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة فى عصرها الأول ، وكذلك عن انتشار المسيحية فى أركان الامبراطورية الرومانية ضئيلة وغير كافية ، وان كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع الى القديس بولس فى تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والأخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود ، فضلا عن جهوده فى وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية(٣) • وهكذا أخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بحيث لم يكد ينتهى القرن الأول الا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية ، بل ان المسيحيين كونوا جالية ملحوظة فى روما نفسها منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٦٤ مما عرضهم لنقمة الامبراطور نيرون واضطهاده(٤) • وهنا نشير الى أنه ليس من الواقع فى شىء ما يظنه البعض

(1) Dill: op. cit. pp. 529—546
(2) Glover : The Conflict of Religions in the Early *Roman Empire* pp. 33—74
(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 335
(4) *Painter* : op. cit. p. *11.*

من أن انتشار المسيحية فى أوائل عهدها اتخذ اتجاها أفقيا فحسب ، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة فى المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات ، اذ يثبت الواقع أن هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى ، من الطبقات الدنيا الى الطبقات الراقية العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى(١) • ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرص وسالونيكاوبيثنيا وغيرها من الولايات الرومانية ، فضلا عن رسائل القديس بولس (٢) • حقيقة ان الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة ، وأن الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تقبل على اعتناق المسيحية فى أعداد ضخمة الا بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ولكن ليس معنى ذلك أن المسيحية عدمت أنصارا لها بين أفراد الطبقة الأرستقراطية خلال القرون الثلاثة الأولى عن عمرها(٣) •

وهنا نلاحظ أن ظروف الامبراطورية الرومانية والأوضاع التى أحاطت بها كانت أكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها • فهذه الامبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها وأطرافها برباط وثيق ، فضلا عن الأمن والسلام الذين سادا ربوعها ، ونشاط التبادل التجارى بين مختلف أجزائها • هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية ، مما جعل من اليسير انتقال الآراء والأفكار والمعتقدات فى سهولة بين مختلف أنحاء الامبراطورية ، وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها الى أقصى أطراف البلاد فى سرعة فائقة (٤)•

---

(1) Thompson, op. cit. vol. 1, p. 32

(2) Katz : op. cit., pp. 64—65

ومن ذلك ما جاء فى العهد الجديد « فاقتنع قوم منهم وانحازوا الى بولس وسيلا ، ومن اليونانيين المتعبدين جمهور كثير ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل » •

(سفر أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ٤٠)

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 95—96.

(4) Duchesne : Hist. Ancienne de l'Eglise; Tome 1. p. 9

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة والنظم والقواعد التى قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى • هذا الى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الرومانى جميعا (١) •

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية أن فئة واحدة من كبار الموظفين لها أن تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسية ومدنية وحربية ودينية ، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بآلهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما أن عقيدته لا تهدد سلام الامبراطورية من جهة أخرى (٢) • وكل ما هنالك هو أنه يجب على الرعايا — مع اختلاف عقائدهم — أن يعترفوا بعبادة الامبراطور القائم ، وهو اجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا • ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الامبراطورية الرومانية سوى اليهود ، فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا القدر من الحرية الدينية (٣) •

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الأجنبية الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها ، لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا أن المسيحية ليست الا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية (٤) ، لا سيما أن المسيحيين رفضوا — مثل اليهود — تألية الامبراطور وعبادته • ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى اتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين ، لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى وأخذوا يجتمعون سرا لمباشرة طقوسهم الدينية ، كما رفضوا الخدمة فى الجيش الرومانى ، واتخذوا الأحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلا من السبت عند اليهود (٥) • وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها الى

---

(1) Stepenson : Med. Hist. p. 52
(2) Katz. op. cit. p. 58
(3) Stephenson : op. cit. p. 53
(4) Hardy : Studies in Roman History, vol. 1; p. 2
(5) Katz ; op. cit. p. 62

المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامة تهدد أوضاع الامبراطورية وسلامتها (١) •
والمعروف أن أية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التى يعقدها فريق من رعاياها أمرا يخشى منه على كيانها ، لا سيما اذا كانت هذه الاجتماعات تضم الطبقات الفقيرة التى انتمى اليها معظم المسيحيين الأوائل(٢) • وبعبارة أخرى فان سبب حنق الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا لا دينيا ، لأن المسيحية بدت فى صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادىء من شأنها تقويض الدعائم التى قام عليها المجتمع الرومانى(٣) • وهنا نلاحظ أن نظرة الحكومات الى الطوائف والجمعات الصغيرة تختلف عنها الى الجماعات الكبيرة ، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية الى المجتمعات المسيحية الصغيرة فى أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها ، بعكس ما أصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية وكثر أتباعها وعندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية الى نوع من الخوف والشك فى أمرها(٤) •

وكان أن بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما فى حق الدولة ، فمعنت اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم • ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذى قدم مسيحيى روما طعاما للنار العظيمة التى أشعلها سنة ٦٤ فحسب (٥) ، بل شارك فيها أيضا فئة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أورليوس(٦) ومن أولى الوثائق التى تصور لنا بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد ، تلك الرسالة التى أرسلها بلينى الصغير حاكم بيثنيا الى الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) يفيده فيها بأنه عفا عن جميع المشكوك فى أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الامبراطور ، فى حين

(1) Charlesworth : op. cit. p. 149
(2) Painter : op. cit. p. 15
(3) Hardly : op. cit. vol. 1, p. 34
(4) Idem, p. 37
(5) Cary : op. cit. p. 531
(6) Duchesne, op. cit. Tome 1, pp. 110—115 & 359

أعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك • وقد أجاب الامبراطور تراجـــان معبرا عن استحسانه لتصرفه(١) •

على أنه يبدو أن هذا الاضطهاد أتى بنتيجة عكسية ، لأن روح الشجاعة والصبر والايمان التى واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع اعجاب الكثيرين الذين أقبلوا هم الآخرون على اعتناق الديانة الجديدة (٢)• وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث الا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مطردا ، مما دفع الامبراطور دقلديانوس الى التطرف فى قمعها فى أوائل القرن الرابع ،لاسيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش الى التهديد بالقضاء على ولاء الجند للامبراطورية(٣)• وقد أصدر هذا الامبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم واحـــراق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم نهائيا من الوظائف الحكومية ، الى غير ذلك من الاجراءات المشددة التى جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه « عصر الشهداء »(٤) / ويبـدو أن هـــدف دقلديانوس من هـــذه السياسة كان محاولة اجبـــار الكنيسة ـ عن طريق الاضطهاد ـ على الخضوع للدولة ، شأنها شأن بقيـــة الهيئات والمنظمـات الاجتماعية فى الدولة الرومانية • ذلك أن قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة داخل الدولة ، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذى أقام عليه دقلديانوس نظامه وبنى اصلاحاته ، والذى يقضى بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة(٥)• وهنا نلاحظ أن اضطهاد الأباطرة والحكام لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد المسيحية فى هذا الدور من تاريخها ، بل كان على الديانة الجديدة أن تواجه عندئذ تهديدا خطيرا من شأنه أن يفقدها طابعها الأساسى ، وذلك من ناحية الأدريين (الغنوصيين) Gnostics الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية

---

(1) Hardy : op. cit. Vol. 1, pp. 78—94
(2) Katz : op. cit. p. 94.
(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2 p. 346 & Lot. op. p. 24
(4) Duchesne : op. cit. Tome 2. pp. 6—15
(5) Rostovzteff : op. cit. Vol. 2, p. 350

بالآراء الميتافيزيقية والأفلاطونية الحديثة ، هذا فضلا عن الهجوم الذى واجهته المسيحية من جانب اليهود(١) •

ومهما يكن من أمر فان المسيحية خرجت من جميع هـــذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس، لاسيما بعد أن أخذ الامبراطور قسطنطين بسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ معترفا بوضع الديانة المسيحية كاحدى الشرائع المصرح باعتناقها داخل الامبراطورية ، بمعنى أن يتمتع المسيحيون فى الامبراطورية بكافة الحقوق التى تمتع بها غيرهم من أتبـــاع الديانات الأخرى(٢) •/وهنا يصح أن نتوقف قليلا لتدبر أهمية هذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها قسطنطين • فاذا تذكرنا أن الامبراطورية الرومانية قامت على أساس الوثنية وفكرة تأليه الأباطرة ، واذا تذكرنا ما نزل بالمسيحية فى مختلف الولايات الرومانية من تعذيب واضطهاد ، واذا أدركنا ما ترتب على اعتراف قسطنطين بالمسيحية من انتشار سريع لهذه الديانة الجديدة وازدياد نفـوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة أقوى العوامل التى كيفت تاريخ أوربا العصور الوسطى ، أمكننا فى النهاية أن نتحقق من أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها قسطنطين • ويمكن أن نضيف الى هذا ما سبق أن أشرنا اليه فى الباب السابق من أن قسطنطين أتبع اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الامبراطورية من روما الى القسطنطينية ، وأنه هجر روما الخالدة الى عاصمته الجديدة بالشرق ، مما يشير الى أن ثمة تغييرا أساسيا أخذ يعترى وجه العـــالم القديم ، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسـطى جديدة لم تعد فيهـــا روما مركز الامبراطورية من جهة ، وأصبحت المسيحية ورجالها بمثابة القوة الفعالة فى المجتمع الأوربى من جهة أخرى(٣) •

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الحافز الذى دفع قسطنطين الى اصـدار مرسوم ميلان السابق ، وهل جاء صدور هذا المرسوم عن عقيدة صادقة وايمان

---

(1) Glover : op. cit. p. 173
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 61—63
(3) Katz : op. cit. p. 52

بالمسيحية أم هو مجرد اجراء سياسي اتخذه قسطنطين لتحقيق مآرب خاصة . والواقع أنه توجد أدلة كثيرة تثبت ايمان قسطنطين بالمسيحية ، كما توجد أدلة أخرى عديدة توضح استمرار اعتقاده في الوثنية(١) . ذلك أن عدد المسيحيين عندئذ لم يتجاوز عشر مجموع سكان الامبراطورية ، الأمر الذى يؤيد الرأى الأول بأن قسطنطين اتخذ قراره عن شعور دينى لا بدافع المصلحة السياسية(٢). على أننا اذا تأملنا الموقف قليلا وجدنا أن المسيحية كانت أوسع انتشارا وأشد تركيزا فى الشرق منها فى الغرب ، بحيث أن آسيا الصغرى غدت من المراكز الرئيسية للمسيحية فى القرن الرابع(٣). هذا فى الوقت الذى كان قسطنطين قد انتصر على خصمه ماكسنتيوس Maxentius فى موقعه جسر ملويان Milvian Bridge بايطاليا سنة ٣١٣ ، وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربى من الامبراطورية ولم يبق أمامه سوى اخضاع جزئها الشرقى ، حتى تتحقق له السيادة التامة على الامبراطورية كلها . لذلك لا يستبعد أن يكون قسطنطين قد أصدر مرسوم ميلان غداة انتصاره على ماكسنتيوس فى الغرب ليفتح أمامه أبواب الشرق(٤) . وتتواتر فى المراجع التاريخية قصة شهيرة حكاها أيوزيب Eusébe أسقف قيصرية المعاصر نسبها الى قسطنطين نفسه ، وخلاصتها أنه حدث أثناء زحف الامبراطور على روما لمحاربة خصمه أن رأى بعد غروب الشمس هالة من النور مضيئة فى السماء على شكل صليب وتحتها عبارة « ستنتصر بفضل هذا ! » فلما نام الامبراطور رأى فى منامه صورة المسيح ومعه الصليب نفسه وقد أتى ليأمره باتخاذ هذا الصليب شعارا له والزحف على عدوه فورا . فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من نصر حققه قسطنطين على خصمه من الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واعتناقه لها(٥) .

ومهما يكن من أمر ، فان مرسوم ميلان سنة ٣١٣ جعل من المسيحية ديانة مرخصة Religio licitia ، كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات

(1) Ostrograsky : op. cit. pp. 42—43
(2) Vasiliev : op. op. cit. Tome 1. pp. 56?58
(3) Idem. p. 57
(4) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 5—6
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 6, p. 61

الأخرى داخل الامبراطورية الرومانية وتعهد بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم، أسوة ببقية رعايا الامبراطورية • ومن هذا يبدو أن سياسة قسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال ، كما أنها تعبر عن تطـور فكرى أكثر منهـا عن تحول روحى(١) • ذلك أنه تسامح مع المسيحيين فى الوقت الذى لم يضطهد الوثنيين، وعن هذا الطريق حاول أن يمسك العصا من وسطها ليحقق نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية(٢) • والواقع أن عهد الامبراطور قسطنطين يمثل عدة تيارات دينية متضاربة ، اذ لم يقتصر فيه الوضع على التطاحن بين المسيحيين والوثنيين ، بل انقسمت المسـيحية الناشئة على نفسها بين أريوسـيين وأثناسيوسيين ، مما جعل كل فريق يعمل للفوز والحصـول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات على حساب المذهب الآخر • وهنا وجد قسـطنطين فرصته فحاول أن يرضى الجميع دون أن يغضب فئة أو مذهبا (٣) • وهكذا اعترف قسطنطين بالمسيحية بمذهبيها دون أن يتنكر لديانة الدولة أو يتخلى عن عبادة الامبراطور التى كانت مصدرا أساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم • وبعبارة أخرى فان قسطنطين اختار أن يقيم قوته السياسية على ثلاثة دعائم رئيسية هى العبادة الامبراطورية ، والعقيدة الأريوسية ، والعقيدة الأثناسيوسية، كما يتضح ذلك من سياسة الامبراطور وتصرفاته • ذلك أنه احتفظ بعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها ، كما احتفظ كأسلافه من الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم(٤) Pontifex Maximus • أما بلاطه فقد أصـبح يغص بالأساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية ، جنبا الى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين • هذا فى الوقت الذى صارت وظائف الدولة الكبيرة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين ، كما نقشت على نقوده شـارات المسيحية والوثنية(٥) • أما عن حياته الخاصة فان قتل قسطنطين لزوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر اطلاقا بتعاليم المسيحية وأخلاقها • وهكذا يمكن

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 43
(2) Lot : op. cit. p. 29
(3) Thompson : op. cit. vol. 1 pp. 35—36
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 43
(5) Lot : op. cit. p. 26

القول بأن قسطنطين ظل حتى أواخر حياته وثنيا مع الوثنيين وأثناسيوسيا مع الأثناسيوسيين وأريوسيا مع الأريوسيين(١) .

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها أثر عظيم فى تاريخ الشرق والغرب جميعا . وربما يبدو من الأنسب فى كثير من الأحيان الابتعاد عن الخوض فى هذه الخلافات والمشاكل الدينية فى دراسة تاريخية كالتى تقوم بها ، ولكننا عندما نجد الخلاف المذهبى يتحكم فى توجيه التيارات السياسية بل فى تغيير مجرى الأحداث التاريخية ـ كما حدث فعلا فى القرنين الرابع والخامس ـ نرى أنفسنا مضطرين الى الاشارة الى مختلف وجهات النظر الدينية حتى نستطيع فى ضوئها أن نتفهم ما ترتب عليها من أحداث سياسية(٢) . وهنا نلاحظ أن الخوض فى المسائل اللاهوتية لم يقتصر فى القرن الرابع على رجال الدين ، وانما كان أمرا مباحا وموضوعا مفتوحا أمام الجميع . وخير شاهد فى ذلك ما كتبه القديس جريجورى أسقف نيسا Nyssa (٣٤٠ ـ ٤٠٠) عن القسطنطينية ، اذ يصف العمال والعبيد فى هذه المدينة بأنهم جميعا من المشتغلين باللاهوت ، فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروى لك أوجه الخلاف بين المسيح الابن والاله الأب ، واذا ذهبت لشراء رغيف خبز أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، اذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شىء(٣) .

أما المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين وبالتالى العالم الرومانى الى معسكرين وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان ، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والاله الأب . ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجل الكنيسة باسكندرية حول تحديد هذه العلاقة ، فقال أريوس ـ وهو كاهن سكندرى مثقف ـ بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل

---

(1) Cam. Med. Hist. I p. 10
(2) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental pp. 21—2.
(3) Thompson : op. cit. vol. I p. 37

الابن ، ولما كان المسيح الابن مخلوق للاله الأب فهو اذا دونه ولا يمكن بأى حال أن يعادل الابن الاله الأب فى المستوى والقدرة(١) • وبعبارة أخرى فان المسيح مخلوق لا اله بمعنى هذه الكلمة المطلق ، والا فان المسيحين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة الهين(٢) • أما اثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويا للاله الأب تماما فى كل شىء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه ،هذا وان كانا شخصين متميزين•ويبدو أن الأثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد فى دعوتها على مكانة المسيح ، وأن أى اتجاه نحو التقليل من مركزه يؤدى الى اضعاف الدعوة المسيحية • وهكذا كان أنصار أريوس من الموحدين • ومن الواضح أن المذهب الأريوسى كان يتفق ومنطق المثقفين لأنه أراد أن يقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل ، فى حين كان المذهب الأثناسيوسى يستقيم وتفكير عامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم (٣) • وهنا نلمس أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب ، اذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسى فى بلاد الغرب اللاتينى فى حين أصبحت الغلبة فى الشرق الهللينى للمذهب الأريوسى • هذا فضلا عما نلحظه من أن معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موحدين ، فى حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التى انتمى اليها رجال الدين من الأثناسيوسيين •

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين ، خشى الامبراطور قسطنطين أن يؤثر ذلك فى وحدة الامبراطورية ، فحاول أن يوفق بين المذهبين ، وأرسل مبعوثا (هوسيوس Hosius) الى الاسكندرية لهذا الغرض ، ولكن جهود الامبراطور لم تكلل بالنجاح(٤) • لذلك دعا قسطنطين الى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف(٥) • وكان هذا المجمع أول مجمع مسكونى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. p. 119
(2) Lot : op. cit. pp. 43—44
(3) Pain'er : op. cit. p. 16
(4) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 68
(5) Bynes : Constantine and the Christian Church. pp. 19—22

عالمى فى تاريخ الكنيسة ، اذ حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين فى الشرق والغرب ، ورأسه الامبراطور قسطنطين نفسه ، على الرغم من أنه لم يكن معمدا . وقد أدان مجمع نيقية هذا آريوس ، وبالتالى تقرر نفيه الى اليريا واعدام كتاباته وتحريم تداولها واضطهاد أتباعه من الأريوسيين (١) . ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة فى الأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وعن هذا الطريق انتقلت الى الأمم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين (٢) .

ولعل بقاء المذهب الأريوسى قويا فى الشرق كان من العوامل التى أدت بالامبراطور قسطنطين الى تغير رأيه ، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧ . ونستطيع أن نعلل هذا التغيير الذى طرأ على مسلك قسطنطين بما كان يعتزمه الامبراطور من نقل عاصمته الى القسطنطينية ، وهو الأمر الذى تم فعلا سنة ٣٣٠ مما استلزم استرضاء أهالى الجزء الشرقى من الامبراطورية (٣) . وتؤكد هذه الخطوة من جانب قسطنطين الرأى القائل بأنه كان على استعداد تام لتغيير ميوله المذهبية — بل الدينية — وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية . ذلك أنه ظل يؤيد المذهب الأثناسيوسى طالما كانت عاصمته فى الغرب وطالما اعتمد على الغرب فى قوته ، ولكنه عندما شرع فى نقل عاصمته الى الشرق وأحس بالحاجة الى استرضاء سكان القسم الشرقى من الامبراطورية ، لم يجد غضاضة فى تغيير عقيدته أو ميوله نحو المذهب الأريوسى(٤) . وهكذا تم عقد مجمع دينى جديد فى صور سنة ٣٣٤ ألغى قرارات مجمع نيقية السابق ، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه ، وبذلك دارت الدوائر على اثناسيوس الذى عزل فى العام التالى ونفى الى تريف فى غاليا حيث ظل حتى أطلق سراحه الأمبراطور جوليان (٣٦١ — ٣٦٣) ، الذى كان بحكم وثنيته لا يهتم بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين (٥) . على أن أريوس لم يلبث أن توفى فجأة فى القسطنطينية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 122—123
(2) Stephenson. op. cit. p. 83
(3) Bynes : op. cit. pp. 26—30
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 70—71
(5) Lot : op. cit. p. 45

سنة ٣٣٦ مما جعل أتباعه يهمسون بأنه مات مسموما ، فى حين هلل خصومه واعتبروا ذلك حكم الله العادل • ولم يلبث أن لحق به الامبراطور قسطنطين فتوفى هو الآخر سنة ٣٣٧ بعد أن تم تعميده على فراش الموت وفق مبدىء المذهب الأريوسى •

وكان قسطنطين قد قسم الامبراطورية قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة ، فأخذ قسطنطين الثانى الغرب وأخـــذ قسطنطيوس الشرق فى حين كانت البريا والجزء الأوسط من شمال افريقية من نصيب قسطانز(١) • وهنا نجد كل حاكم من هؤلاء الحكام الثلاثة يعمل على توطيد نفوذه عن طريق المذهب الســائد فى بلاده ، فاتجه قسطنطيوس نحو تشجيع الأريوسية ، فى حين دأب أخواه على تأييد الأثناسيوسية ، مما جعل الخلاف المذهبى يتطور الى انقسام فى الكنيسة بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى (٢) • وعندما توفى قسطنطين الثانى أصبحت مهمة الزود عن العقيدة الأثناسيوسية تقع على عاتق البابوية ورجـال الدين فى الغرب ، فصار عليهم أن يتكاتفوا لاسيما بعد مقتل قسطانز وتوحيـد الامبراطورية الرومانية تحت حكم قسطنطيوس (٣٥٣ ـ ٣٦١)(٣) • ذلك أن الامبراطور قسطنطيوس عرف بولائه للمذهب الأريوسى ولاء دفعـه الى العمل على فرض هذا المذهب على أجزاء الامبراطورية الغربية،مما جعل كفة الأريوسية ترجح فى الامبراطورية الرومانية عند وفاته سنة ٣٦١ • على أن هذا الرجحان كان مؤقتا ، اذ لم يلبث الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) أن أعلن نهائيا عدم شرعية المذهب الأريوسى فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كما فرض عقوبات مشددة على أتباع المذهب الأريوسى فى جميع أنحـــاء الامبراطورية(٤) •

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 40
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 84
(3) Katz : op. cit. pp. 87—88
(4) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 349

صحوة الوثنية :

أما عن موقف الوثنية المتداعية فى هذه الحقبة فقد رأينا كيف ظل قسطنطين الأول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفا وسطا بين المسيحية بمذهبيها من جهة والوثنية من جهة أخرى • ولكن حدث أن أبناء هذا الأمبراطور خالفوا أباهم واختاروا عدم الاستقرار فى مجاملة الوثنية وأهلها ، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد ، فصادروا ما لمعابدها من أراض وممتلكات ، حتى اذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين لآلهة الوثنية ، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات(١) •

على أن الوثنية لم تستسلم فى سهولة مطلقة ، اذ أبت الا أن تصحو من جديد ، وذلك عندما تولى حكم الامبراطورية جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣) الذى كان متمسكا بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية ، فتخلى عن المسيحية سرا قبل أن يتولى منصب الامبراطورية • ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الامبراطور قنسطنطيوس الثانى سنة ٣٦١ ، حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ، وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ، ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقا لمرسوم قنسطنطيوس(٢) • ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الامبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية ، وانما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى أنزله بهم أنصار الديانة الجديدة ، أو بعبارة أخرى أراد جوليان أن يحقق نوعا من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقا للغرض الذى أملى اصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣ (٣) ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عدالة واتزانا اذا علمنا أنه امتدح بعض المبادىء الكريمة التى نادت بها المسيحية مثل الاحسان والرحمة والعطف على الفقراء والمرضى،

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 85
(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 367.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 103

حتى أنه كتب الى أحد الكهنة الوثنيين يخبره فى صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر الى مثل هذه الخلال الحميدة(١) •

على أن هذا الشعور لم يمنع الامبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو فى مستواها دون المسيحية،فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به فى الكنيسة ، وعنى بالمعابد الوثنية وزينتها حتى لا تبدو أقل جمالا من الكنائس (٢) • وفى الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجانا على حساب الحكومة صحبة البريد الامبراطورى ، كما أخذ يستبعد المسيحيين تدريجيا من وظائف الجيش والادارة ليحل الوثنيين محلهم(٣) •

ولكن يبدو أن هذه الصحوة التى مرت بها الوثنية على عهد الامبراطور جوليان لم تكن الا صحوة الموت • اذ لم يلبث المسيحيون أن استردوا فى عهد جوفيان - الذى حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر - مكانتهم وامتيازاتهم التى حرمهم منها جوليان • ثم جاء الامبراطور جراشيان (٣٧٥ - ٣٨٣) فتخلى عن لقب « الكاهن الأعظم » الذى تمسك به جميع الأباطرة السابقين ، بل ان هذا الامبراطور سرعان ما استأنف سنة ٣٨٢ سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية(٤) • حقيقة أن هذه الاجراءات لا تعنى القضاء على الوثنية قضاء تاما مبرما ، اذ ظلت الوثنية قوية - وبصفة خاصة فى الغرب وروما - حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى أواخر القرن الرابع • ولكن تشييد المعابد الوثنية فى هذه الفترة المتأخرة أصبح لا يتم على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل(٥) • ثم كانت بداية التطرف فى استخدام القوة والعنف ضد الوثنية

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 44

(2) Duchesne : op. cit. Tome 2 pp. 326—332

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 90—92

(٤) احتفظ جراشيان لنفسه بحكم الأجزاء الغربية من الامبراطورية - وبصفة خاصة اقليم غاليا - فى حين كان الجزء الشرقى من الامبراطورية تحت حكم عمه فالنز • وعندما لقى فالنز حتفه على أيدى القوط الغربيين فى موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ، انتقل حكم الجزء الشرقى من الامبراطورية الى جراشيان الذى خشى بأس القوط فتنازل عن حكم الجزء الشرقى من الامبراطورية لثيودسيوس • وهذا هو السبب فى تداخل سنوات حكم جراشيان وفالنز وثيودسيوس •

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 44—45

وأهلها على عهد الامبراطور ثيودسيوس الأول الذى نجح فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه سنة ٣٩٤ • وقد استمرت الحرب التى بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الامبراطور ، أقفلت فيهـــا معابد الوثنيين وأعدمت كتبهم ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم ، بل ان الامبراطور أركاديوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية ـ لا اغلاقها فحسب ـ واستغلال أحجارها وموادها فى اقـــامة منشآت عامة(١) • وعندئذ أدركت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والالتجاء الى مناطق العزلة النائية فى ايطاليا وغاليا • وهكذا ظل الحال حتى القرن السادس عندما أقام القديس بندكت ديره الشهير سنة ٥٢٩ على أنقاض آخر ما تبقى من معابد أبولو فى مونت كاسينو • وفى السنة السابقة نفسها أغلق جستنيان مدارس الفلسفة فى أثينا بوصفها ركنا من أركان الوثنية(٢) •

على أن إنتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة والدولة والمجتمع من جهة أخرى • ذلك أن الامبراطورية الرومانية كان لها دين رسمى وكهنة يتمتعون بمسـاندة الحكومة وتأييدها • ولكن رجـال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا اطلاقا التدخل فى شئون السلطة الزمنية، بعكس الكنيسة التى أخذت تكتسب شيئا فشيئا صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية ، مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية والروحية (٣) •وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الامبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة فى غرب أوربا • ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الامبراطورية الرومانية فى تنظيماتها حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الادارى فى أقاليم الامبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسى (٤) •

(1) Bury : p. cit. Vol. 1 p. 371
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 113—114.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 46
(4) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165

والواقع أن الاعتراف بالمسيحية دينا رسميا للامبراطورية كانت له نتائج بعيدة الأثر بالنسبة للكنيسة ونظمها • ذلك أن التنظيم الكنسى امتاز بالبساطة المطلقة فى العصر المسيحى الأول ، اذ لم يتعـــد الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض ، لكل مجتمع منها أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة (١) • حقيقة ان بعض هؤلاء الأساقفة امتازوا عن زملائهم بحكم ما لكراسيهم من أهمية قديمة أو ثروة عظيمة أو مساحة واسعة ، ولكن مع ذلك لم توجد هيئة كنيسة تمثل سلطة دينية ذات نفوذ فعال فى الحياة العامة•وقد ظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطارقة فى روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وهؤلاء يمكن تشبيههم بكبار الرؤساء الاداريين فى الامبراطورية الرومانية • وكان يتبع كل واحد من هؤلاء البطارقة مجموعة من رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شئون كرسيه الأسقفى ، وأخـــيرا يأتى قس الأبرشية فى القرية • وهكذا ظهر سلم كهنوتى متدرج يشبه الى حد كبير سلم الوظائف الادارية فى الامبراطورية الرومانية(٢) •

ثم كان أن أخذت الكنيسة المسيحية تحصل ـ بصفتهـــا راعية الديانة الرسمية للدولة ـ على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية • وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والاعفاء من الضرائب فضلا عن قيام الأساقفة بالفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين(٣)•ولم يلبث أن ازداد نفوذ الأساقفة تدريجيا فى أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى ، لا سيما وأن الصدقات التى جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه ، مما أوجـد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين(٤) • وهكذا أخذت

---

(1) Cam. Med.H ist. Vol. 1, p. 143.
(2) Idem, Vol. 1 p. 147
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 65.
(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٣ •

تزداد ثروة الكنيسة ، حتى امتلكت الأراضى والضياع الواسعة التى قام العبيد والأقنان بفلاحتها ، هذا فضلا عن الهبات التى أغدقها الأباطرة بسخاء من جهة، والتبرعات التى قدمها الأهالى عن طيب خاطر من جهة أخرى(١) .

ولكن يلاحظ أنه اذا كان هذا التطور الذى مرت به الكنيسة فى القرن الرابع امتاز بعمقه وسرعته ، حتى أدى الى تحويلهـا من منظمة بسيطة ديموقراطية الى هيئة وراثية ذات ادارة بيروقراطية مركزه ، الا أن الكنيسة دفعت ثمنا باهظا مقابل ما أحرزته من عظمة ، كلفتها التخلى عن سياسة التسامح من جهة ، وانتشار الفساد ــ من رشوة وسرقة ومحاباة ــ فى جهازها من جهة أخرى . ذلك أن النعمة الكبيرة التى أصبحت فيها الكنيسة أدت الى اتساع الفجوة بين رجالها وجمهور المسيحيين . وبعبارة أخرى فان ازدياد ثروة رجال الدين أدى الى اختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة ــ وهى الروح التى ميزت الكنيسة فى عصرها الأول ، وحلت محلها مسحة من القسوة والتعالى والتباعد ــ هى النتيجة الطبيعية للغنى المفرط المفاجىء . وهكذا أخذ الأساقفة يتباعدون شيئا فشيئا عن رعاياهم ، وصار الواحد منهم يجلس على عرشه الأسقفى كما كان يفعل الحاكم الرومانى من قبل . ولم يلبث أن تضاءل قصر حاكم الولاية أمام القصر الأسقفى بعد أن تشبه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا أنفسهم بالحشم والأتباع والموظفين(٢) .

على أن القرن الرابع لم يشهد قيـام التنظيم الكهنوتى للكنيسة وازدياد نفوذها السياسى فحسب ، بل شهد أيضا تطور اللاهوت المسيحى وتقدمه . ذلك أن المسيح وضع للناس أسلوبا جديدا للحياة ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمى منظم . وطالما كان أتباعه ورسله يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أناس غير مثقفين فان الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذا اللاهوت ، لأنه كان يكفى هؤلاء البسطاء أن يستمعوا الى قصة المسيح وحياته ليتفهموا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 561
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 49

أسلوب المسيحية فى الحياة • ولكن انتشار المسيحية بين المثقفين ــ الذين ألفوا التفكير الكلاسيكى ومرنوا طرق الجهل وأساليب المنطق والفلسفة ــ أدى الى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية (١) • ذلك أن هؤلاء المتعلمين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة ، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا الى لحم المسيح ودمه • وسرعان ما أصبحت هذه المسائل تحتل جانبا كبيرا من تفكير المسيحيين عندما غدت المسيحية دينا رسميا للدولة ، مما استلزم وضع دراسات لاهوتية يقنع بها المثقفون من معتنقى الديانة الجديدة • وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار مفكرى المسيحية الذين يطلق عليهم عادة لقب آباء الكنيسة ، وأهمهم القديس كلمنت السكندرى فى القرن الثالث ، وأوريجن (١٨٥ ــ ٢٥٤) وجيروم (٣٣١ ــ ٤٢٠ تقريبا) وأمبروز (٣٤٠ ــ ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ ــ ٤٣٠) • وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ــ لاسيما آراء الأفلاطونية الحديثة ــ فأفادوا منها فى تبرير آرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون • هذا الى أن هؤلاء الآباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة ومطالب الدولة والكنيسة فى عهدها الجديد من جهة أخرى(٢) •

نشأة البابوية :

على أن التيار الذى انساقت فيه الكنيسة ، ومحاكاتها لنظم الحكومة الامبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للامبراطورية امبراطور يتزعمها • وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين الشرق والغرب ، ففى الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم فى الشئون الكنيسة وبخاصة فيما بين القرنين السادس والثامن بحيث أصبحوا يتدخلون لا فى سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل فى نظمها وسياستها الداخلية أيضا •

---

(1) Duchesne : op. cit. Tome III; p. 18
(2) Painter : op. cit. p. 15

وهكذا أصبح من العسير وقف تدخل الامبراطور البيزنطي في شئون الكنيسة الشرقية ، حتى غدا امبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القيصرية البابوية Caesaro Papism أى الجمع بين السلطتين السياسية والدينية • ومن الواضح أن هذه السياسة وضع أسسها قسطنطين نفسه منذ اعترافه بالمسيحية وانشائه القسطنطينية • هذا الى أنه استن سنة جديدة اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الشرقيين ، هى قيام الامبراطورية بدعوة المجامع الدينية العامة لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية(١) • أما فى الغرب فان الوضع اختلف عن ذلك كثيرا لأن الامبراطورية الغربية أصبحت بعد تقسيم العالم الرومانى ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا كما حدث فى الشرق(٢) • وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه الى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف بلدان العالم الغربى •

وليس من العسير علينا أن نكشف العوامل التى هيأت لأسقف روما هذه الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب • ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التى يقوم فيها كرسيه الأسقفى • واذا كان الشرق الرومانى غنيا بمدنه الهامة التى صارت مراكز لكراسى دينية كبرى مثل الاسكندرية وبيت المقدس وقيصرية وأنطاكية والقسطنطينية ، فان الغرب لم يوجد به فى هذه المرحلة الأولى من تاريخ المسيحية سوى روما وقرطاجة • ومهما يبلغ أمر هذه الأخيرة ، فانها كانت لا يمكن أن ترقى الى مكانة روما ذات الماضى العريق والشهرة الواسعة والصيت الذائع(٣) لهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته ، حتى استغل أساقفة روما هذه الأهمية والمكانة فى تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على بقية أسقفيات الغرب • هذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة فى سهولة ، اذ تعرضوا لكثير

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 63.
(2) Lot : op. cit. p. 53
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 169—173

من ألوان المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجة(١) •

أما اذا انتقلنا الى التنافس بين روما والقسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحى ، فان القسطنطينية اعتمدت على أنها مركز الأباطرة ومحل اقامتهم ، وبالتالى يحق لبطرقها أن تكون له الزعامة الدينية على العالم المسيحى، كما كان لامبراطورها الزعامة السياسية • ولكن هذا الرأى صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين وظل محفوظا فى الكنائس التى أسسوها ، وبخاصة فى أنطاكية(٢) والاسكندرية وروما(٣) • وهنا تبدو القسطنطينية مفتقرة الى مثل هذا التشريف ، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب الى موضعها أو الاستشهاد قربها أو تأسيس كنيسة فى منطقتها ، لأن القسطنطينية نفسها لم تؤسس الا فى القرن الرابع(٤)• أما روما فيكفيها فخرا أنها ارتبطت ارتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس الذى اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته ، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات(٥) • واذا كان بطرس — بحكم هـذا التشريف — يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل ، فان خلفاءه — أساقفة روما — أحق الناس بأن يرثوا زعامة العالم المسيحى(٦) •

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والأسانيد شىء ، ومحاولة فرض

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 51—52

(٢) ترتبط أنطاكية ارتباطا وثيقا بتاريخ المسيحية فى أدواره الأولى وكانت أول بلد أطلق فيه اسم المسيحيين على تلاميذ المسيح « ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا » (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) •

(3) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 171

(4) Deanesly : op. cit. 169

(٥) انجيل متى : الاصحاح السادس عشر (١٨ — ١٩) • والمعروف أن القديس بطرس اسمه الأصلى سمعان « استدع سمعان الملقب بطرس » سفر أعمال الرسل اصحاح ١١ (١٣) ، وأن المسيح هو الذى أطلق عليه بطرس Petrus بمعنى صخرة (وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى) انجيل متى — الاصحاح السادس عشر ١٨ — ١٩ •

(6) Stephenson : op. cit. p. 84

سيطرتهم على العالم المسيحى شىء آخر . والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما فى القرنين الأول والثانى أكثر من أسمائهم . ولم يكن ذلك الا بعد عهد قسطنطين عندما أخذت المراجع تشير الى بعض البابوات(١) الذين لعبوا دورا فعالا فى توجيه سياسة الكنيسة . ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول (Damasus) (٣٦٦ — ٣٨٤) الذى كتب مؤلفا استعرض فيه مكانة كرسى روما الأسقفى وأكد سيادة البابوية وسموها(٢) . كذلك عهد هذا البابا الى جيروم بترجمة الانجيل الى اللاتينية . أما خليفته البابا سيركيوس (Siricius) ٣٨٤ — ٣٩٩ ، فترجع اليه أولى المراسيم البابوية التى وصلتنا ، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها . وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ — ٤٦١) الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية فى الغرب .

وفى هذه الأثناء كان الشرق البيزنطى مصرا على عناده ، فاستمر الأباطرة يدعون المجامع الدينية للنظر فى المسائل الدينية المعلقة ، كما أخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين روما والقسطنطينية من حيث المركز الدينى . وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية فى مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ تأكيد هذه المساواة فى المكانة والامتيازات بين كرسى روما وكرسى القسطنطينية ، ولكن مندوب البابا ليو الأول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسبقية كرسى روما(٣) . وهكذا تمسك بابوات روما دائما بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس ، حتى اعترف بزعامتهم جميع أسقفيات الغرب فى القرن الخامس ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية . وفى سنة ٤٥٥ أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث امبراطور الغرب مرسوما يقضى بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا(٤) . وهنا نشير الى وجود عوامل أخرى ثانوية ساعدت

---

(١) من الواضح أن لفظ بابا Pope انما هو تحريف للفظ اللاتينى Papa بمعنى أب ويمكن اطلاق هذا اللفظ على أى فرد من رجال الكنيسة ، ولكن العرف جرى فى الغرب على أن يختص به أسقف روما وحده من باب التشريف .

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 171—173

(3) Idem : Vol. 1 pp. 510—511

(4) Duchesne : op. cit. pp. 631—632

على تحقيق سيادة البابوية ، منها ازدياد الالتجاء الى أساقفة روما لاستئناف الأحكام القضائية التى أصدرتها المجامع الاقليمية أو صغار الأساقفة ، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الأكبو والسيد الأعلى(١) • ومن هذه العوامل أيضا عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوى الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفى مثل ليو الأول وجريجورى الأول ، هذا فضلا عن أن سقوط الامبرطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ ترك البابا وحيدا لا ينافسه سيد سياسى فى الغرب ، فى الوقت الذى كان بعيدا عن سلطان امبراطور القسطنطينية ونفوذه فى الشرق •

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية فى صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس(٢) • أما الشرق فقد ظل على عناده مستقلا بامبراطوريته وكنيسته عن الغرب • وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائما من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية • ومن أمثلة ذلك الخلاف الذى قام حول تفسير طبيعة المسيح ، اذ أدان مجمع افسوس سنة ٤٣١ الرأى القائل بفصل طبيعة المسيح الالهية عن طبيعته البشرية(٣) • ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية ، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب « الطبيعة الواحدة Monophysite » • وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ برأى البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين فهو اله من طبيعة أبيه وبشر من طبيعة أمه - وهو المذهب الملكانى - الا أن هذه المشكلة استمرت قائمة لتمثل سببا جديدا للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب (٤) •

---

(1) Thompson : op. cit. pp. Vol. p. 54
(2) Deanesly : op. cit. pp. 177—184
(3) Duchesne ; op. cit. pp. 459—463
(4) Bury ; op. cit. Vol. I pp. 357—358

الباب الرابع

البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب

رأينا كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع على أن أوجه التاريخ القديم بدأ يتعرض لكثير من المسخ والتغيير • ذلك أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يعتبر خطوة خطيرة ، بل انه الحقيقة التاريخية في تاريخ عالم البحر المتوسط في الفترة الواقعة بين ظهور روما وتحقيق زعامتها من جهة وبين ظهور الاسلام وانتشاره من جهة أخرى(١) • ويكفي أن هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار المسيحية انتشارا آمنا سريعا يدل على أن دعامة كبرى من الدعائم التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنهار أمام عقيدة جديدة ومبادىء جديدة وآراء جديدة ، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر ، وبين الحكام ورعاياهم ، وبين الناس بعضهم وبعض على أسس تختلف كلية عما عرفه العالم القديم • أما نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما الى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا في مسخ وجه العالم القديم ، اذ أحس المعاصرون بأن القديم المألوف أخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم في طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل(٢) • ذلك أن الناس تلفتوا حولهم ليجدوا روما ــ وهي المدينة الخالدة الجبارة مهد الأباطرة العظام والتي سادت الشرق والغرب حتى أصبحت شعارا للمدنية والحضارة وصار كل ما عداها رمزا للبربرية والتأخر ــ هذه المدينة أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد أن هجرها الأباطرة وتركوها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السالف ، في حين أقام الأباطرة على شاطىء البسفور حيث بنوا القسطنطينية ليجعلوا منها روما جديدة ترث روما القديمة في مجدها

---

(1) Lot : op. cit. p. 39
(2) Katz :o p. cit. pp. 50-51.

وعظمتها(١) • ويرتبط بهذه الأحداث ما اتصفت به حكومة الامبراطور قنسطنطين من طابع وراثى بحيث أصبحت الامبراطورية فى هذا العهد الجديد تعتمد على حق الوراثة فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة • كذلك شهدت هذه المرحلة بعينها اندثار فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانية ـ الرومانية ، هى فكرة المواطنة ، اذ لم يعد هناك مجال فى العصر الذى أعقب قنسطنطين للمواطنين الذين اكتظت بهم المدن الحرة فى العالمين اليونانى والرومانى ، وحلت محل ذلك فكرة الرعوية بمعنى أن جميع رعايا الامبراطور أصبحوا متساوين فى تبعيتهم له(٢) •

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والأحداث التى أخذت تبدو على مسرح العالم الرومانى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، تجعلنا نعتقد أن أوربا كانت تمر عندئذ بمرحلة انتقال كبرى ، تحملها من العصور القديمة الى العصور الوسطى • ولعل هذا التطور هو الذى دفع مؤرخا مثل بيورى الى القول بأن حكم قنسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد ، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطين مؤسس الامبراطورية(٣) • والمعروف أن العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاثة أصول ضخمة : أولها التراث الكلاسيكى بوجه عام والرومانى بوجه خاص ، وثانيها المسيحية وكنيستها وثالثها الجرمان(٤) • أما هؤلاء الجرمان فكانوا جزءا من العالم البربرى الواسع الذى أحاط بالامبراطورية الرومانية من معظم نواحيها ، والذين لم يلبثوا أن أثروا فى تغيير مصائر هذه الامبراطورية عندما أخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثانى • والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الامبراطورية الرومانية فى الغرب عمرا أطول وأن تموت موتا أبطأ رغم الانحلال الاقتصادى والاجتماعى والسياسى التى تعرضت له ، لولا هجمات البرابرة التى

(1) Charlesworth: op. cit. pp. 180—181
(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. p. 11. p. 333.
(3) Bury : op. cit. Vol. 1. p. 1
(4) Thompson : op. cit. 1 p. 56

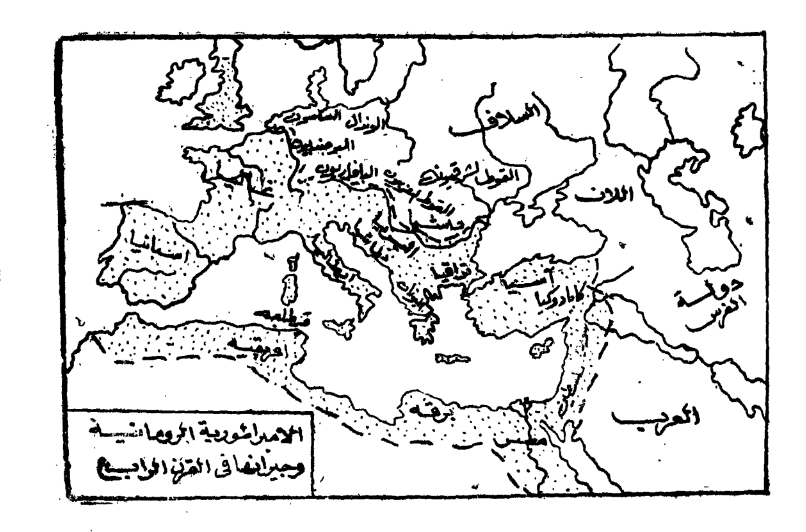
أسرعت بالامبراطورية نحو مصيرها المحتوم(١) .

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن لفظ « بربرية » بالمعنى الذى نستعمله لا يرادف لفظ « همجية » أو لفظ « وحشية » بأى حال ، لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم الاجتماعى القبلى ، الذى لم يرق بعد الى مرحلة الاستقرار المدنى واقامة الدول ذات الحدود الثابتة . فالمجتمع البربرى يعتمد على أساس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده ، ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نتهم الشعوب البربرية التى أحاطت بالدولة الرومانية بأنها عاشت سلبية مفتقرة الى أسس ودعائم حضارية ، لأن هذه العناصر تمتعت فى الواقع بتقاليد حضارية خاصة تزداد أمامنا كلما ازداد البحث فى أصول هذه العناصر التى تمتد الى ما قبل التاريخ(٢) .

أما هذه الشعوب التى أحاطت بالعالم الرومانى فكانت كثيرة ومتباينة ، ففى الجنوب كان البربر فى غرب افريقية ، وفى الجنوب الشرقى كان العرب ، وفى الشرق وجد الفرس ، وفى الشمال الشرقى — بين جبال اورال وألطاى — ربضت شعوب آسيوية رعوية مثل السكيثيين Scythians والسارماشيين Sarmatians والهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول والأتراك ، والى الغرب من هذه الشعوب —أى داخل الحدود الأوربية— وجد السلاف والجرمان والكلت .

أما مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية ، فكانت فى أول الأمر تبدو بعيدة جدا عن حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ ظلت تعيش فى سهول آسيا معتمدة على قطعان الخيل والماشية ، وتنتقل وراءها من مرعى الى آخر تبعا لظروف الأمطار والمناخ(٣) . على أن قسوة هذه الظروف اضطرت بعض الشعوب

(1) Lot : op. cit. p. 187
(2) Dawson . The Making of Europe, p. 68
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 323 — 330


الامبراطورية الرومانية
وجيرانها في القرن الرابع
السلاف
القوط الشرقيون
اللان
اسبانيا
قرطاجنة
افريقية
تراقيا
آسيا
كبادوكيا
دولة الفرس
برقة
مصر
العرب

الآسيوية الى القيام باغارات مدمرة للسلب والنهب • ولم تك أوربا بمنجاة من هذه الاغارات ، لأن السهول الواقعة شمالى بحر قزوين فتحت بابا أمام القبائل الرعوية الآسيوية — وبخاصة قبائل الهون — نفذت منه الى أوربا ، وبالتالى أثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الرابضة على حدود الامبراطورية الرومانية(١) •

وكانت أولى ضحايا هذه العناصر الآسيوية الرعوية — وبخاصة الهون — هم السلاف الذين استقروا فى المناطق المعروفة الآن بأواسط روسيا • ويبدو أن هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب فى أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال ، مما عرض كثيرين منهم للاستعباد ، حتى اشتقت كلمة عبد فى كثير من اللغات الأوربية Slave من اسم السلاف•ومع ذلك فقد عكف السلاف على فلاحة الأرض وأخذوا ينتشرون تدريجيا فى الأجزاء الشرقية من أوربا حتى حولوها الى كتلة سلافية(٢) •

أما الكلت Celts — وهم الذين عرفهم الرومان باسم الغاليين Gauls فكانوا يحتلون فى أول الأمر الغابات الواقعة فى شمال أوربا حتى نهر الألب شرقا ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال ، اذ تدفقوا عبر جبال الألب فى ايطاليا وعبر نهر الراين فى الأراضى التى عرفت بعد ذلك باسمهم (غاليا) ، كما غزوا الجزر البريطانية، وبذلك أصبح الكلت فى القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الأطلسى(٣) • وفى الوقت الذى غزا قيصر غاليا كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرقى الراين ، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا عندئذ سوى فتح الرومان

(1) Stephenson : op. cit. p. 59 & Deanesly, op. cit. p.22
(2) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 349—355
(3) *Idem; Vol. I pp. 186—187*

لها . ثم كان أن فتح الرومان بريطانيا فى القرن الأول الميلادى ، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى أيرلند(١) .

الجرمان :

والواقع ان الجرمان أو التيتون كانوا أقرب عناصر البرابرة الى حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ انتشروا فى القرنين الأول والثانى فى أواسط أوربا وشرقيها عبر نهرى الراين والدانوب . أما الموطن الأول للعناصر الجرمانية فكان البلاد المحيطة بالبحر البلطى(٢) . ومن هناك أخذوا يتحركون جنوبا ليحلوا محل الكلت حتى استقروا فى المناطق الواقعة بين نهرى الألب والراين ، حيث حالت استحكامات الامبراطورية الرومانية دون تقدمهم بعد ذلك(٣) . ويمكن الوقوف على كثير من أحوال الجرمان فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم بالرجوع الى كتابات قيصر وتاكيتوس Tacitus ، ومنها يتضح أنهم احتفظوا بكثير من التقاليد والنظم التى كانت تتعارض الى حد كبير مع ما ألفته العقلية الرومانية(٤) . ذلك أن الجرمان توخوا الناحية الفردية فى كل شىء ، فالفرد هو محور الحياة ، وعلى أساس قوته الشخصية وسطوته كانت أهميته ونفوذه . واذا كان الجرمانى قد تمسك بطاعة زعيمه فان هذا الشعور بالطاعة انبثق عن احساس باطنى لا تنفيذ لأمر أو قانون . أما أخلاق الجرمان الأوائل فكانت مزيجا من الفضائل والنقائص التى عرفت بها الشعوب البدائية (٥) . ذلك أنهم جمعوا بين الشجاعة والقسوة وبين الكرم وعدم مراعاة أصول الجيرة، هذا فضلا عما عرفوا به من احترام للعهد وترابط بين أفراد الأسرة الواحدة ورعاية للمرأة ، وهى الصفات التى ظلوا عليها والتى لم يفسدها سوى اختلاطهم

---

(1) Painter : op. cit. p. 19
(2) Deanesly : op. cit. p. 25
(3) Hubert: Les Germains. pp. 16—17
(4) Painter . op. cit. pp. 20—21. &
ابراهيم طرخان : تاكيتوس والشعوب الجرمانية .
(5) Katz : op. cit. pp. 100—101.

بالرومان وتأثرهم بهم (١) • كذلك أولع الجرمان بالميسر والمقامرة حتى بلغ الأمر بالشخص الذى يفقد ماله أن يقامر على حريته • وكان أهم ما امتدحه تاكيتوس فى الجرمان هو كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس(٢) • والمرجح أن القاعدة السائدة بينهم هى أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة ، وان كان بعض النبلاء قد خرجوا عن هذا المبدأ بعد أن ازدادت ثروتهم • أما ديانة الجرمان فكانت خليطا من الأساطير وعبادة القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والرعد وغيرها ، ولكنهم لم يقيموا معابد أو تماثيل لآلهتهم ، كما أن الكهنة لم يؤلفوا طبقة خاصة ممتازة فى مجتمعهم(٣) •

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرمانى فى أول الأمر ، حيث تمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده بلغت حقه فى سلبهم الحياة • ومن مجموعة الأسر التى تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة ، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر(٤) • ولم يتمتع بحق ملكية الأرض سوى الأحرار والنبلاء فقط ، فى حين كان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مشتركة عما يرتكبه أحد أفرادها من جرائم • وفى حالة القتل كان لابد لأهل القتيل من الأخذ بثأره الا اذا دفع القاتل أو أهله فدية مرضية •

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعى الى ثلاث طبقات : النبلاء والأحرار والعبيد (٥) • وكان النبلاء يكونون الطبقة المحاربة التى تمتعت بنوع خاص من التشريف ، فلا يشتغل أفرادها بالفلاحة وانما يقضون وقت السلم فى الأكل والنوم والصيد والتسكع ، فى حين تقع بقية أعباء المجتمع — وأهمها الفلاحة وأعمال المنزل — على غير المحاربين من النساء والأولاد

(1) Lavisse : Hist. de France; Tome II, Première Partie, p. 46
(2) Tacitus : Germania, p. 11
(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 63
(4) Eyre : European Civilisation. Vol. III, p. 13.
(5) Lavisse, op. cit. pp. 48—49

والعبيد • ولم يقم هؤلاء العبيد بدور هام فى الخدمة المنزلية - مثل عبيد الرومان - وانما اقتصر عملهم على الزراعة حيث وزعت عليهم حصصا من الأرض يدفعون جزءا من غلتها فى نهاية الموسم (١) • أما الأحرار - من غير النبلاء - فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من العبيد(٢) • وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن الحرية وملكية الأرض كانا أمرين متلازمين سارا جنبا الى جنب فى المجتمع الجرمانى ، وثانيهما أن النبالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الأرض /ولم يعرف الجرمان حياة المدن فى عصورهم الأولى • وانما عاشوا فى قرى متناثرة وسط الأضحال والغابات ، فى حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيدة من الأغصان والطمى(٣) • واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شعر رؤوسهم ولحاهم ، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم • أما طعامهم فكان بسيطا يتألف من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب (٤)• / ولم يعرف الجرمان النبيذ الا عندما استقروا على الحدود الرومانية ، أما شرابهم الأساسى فكانوا يصنعونه من الحنطة أو الشعير ، أى أنه كان أقرب الى الجعة منه الى النبيذ • وكان لكل قرية جمعية أو مجلس moot يتكون من رجالها الأحرار ، فى حين أن القرى لم تك فى عزلة عن بعضها البعض ، وانما وجد اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التى تتخلل الغابات(٥) • والمعروف أن الثروة عند الجرمان قومت بالخيل والماشية وغيرها من الحيوانات الأليفة النافعة • حقيقة أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية كما عرفوا الأوانى الذهبية والفضية ، ولكن الحيوانات السابقة حلت عندهم محل النقود فى التبادل والمعاملة(٦) •

---

(1) Tacitus : Germania; p. 15
(2) Stephenson : op. cit. p. 61
(3) Katz : op. p. 99 & Tacitus: Germania ; p. 10
(4) Tacitus ; Germania, p. II
(5) Thompson, op. cit. Vol. I p. 64
(٦) ابراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١ •

أما التنظيم السياسى فكان بسيطا ، وحدته القرية أو المارك Mark ، ومن بعدها تأتى المائة hundred وهى وحدة عسكرية تكبر القرية(١)، ثم تأتى المقاطعة أو المديرية (Gau) وتتألف من عدة مئات ، ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التى أطلق عليها فيما بعد مملكة أو رايخ Reich عندما تقدم النظام الملكى بين الجرمان(٢) • وكانت للدولة الجرمانية جمعية عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تنعقد الا فى حالة الحرب أو الهجرة • كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس أصغر ، تتألف من النبلاء والأحرار ولكنها تجتمع فى وقت السلم أيضا لبحث المسائل المدنية • وعلى رأس كل أمة من الأمم الجرمانية وجد بعض الرؤساء أو القادة Principes الذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء ، وانما كانوا زعماء منتخبين اختارهم شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة • وفى وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف بالشجاعة والاقدام ، فيتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهى بانتهاء الحرب(٣) على أنه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة ، فان هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه حينا بعد آخر • ثم تطور الأمر فصار يختار ابنه بعد وفاته ، مما أدى تدريجيا الى قيام نظام ملكى وراثى فى الدول والجماعات الجرمانية(٤) • على أن ملوك الجرمان لم يكونوا فى هذه المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين ، دون أن يتمتعوا بسلطة مطلقة فى التشريع أو فرض العقوبات ، وهى المسائل التى حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان والعرف المتوارث دون أن يمتلك فرد أو زعيم حق تغيير الأوضاع المألوفة(٥) • واذا كان بعض المؤرخين يميلون

---

(١) يرجع اصطلاح المائة الى الجرمان الأوائل الذين انتشروا فى شمال أوربا ووسطها • ويرجح أن هذا الاصطلاح كان يعنى عندئذ جماعة من المحاربين عددهم مائة فرد • وكما أن أفراد هذه الوحدة حاربوا سويا فكذلك اختاروا عند الاستقرار أن يجتمعوا سويا ، ومن هنا أطلق هذا الاصطلاح على الوحدة السياسية التى تتوسط القرية والمقاطعة •

(Karsten : Les Anciens Germains, p. 178) :

(2) Moss : op. cit. pp. 40—41.

(3) Tacitus : Germania, p. 9

(4) Thompson : op. cit. Vol. I p. 65

(5) Stephenson : op cit p 62

الى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها كانت ديموقراطية ، فانه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أنها اتبعت نظاما ديموقراطيا في الحكم ، لأننا سبق إن رأينا أن المجتمع الجرماني قام على أساس التفرقة الاجتماعية بين مختلف طبقاته . وانما المقصود من لصق هذه الصفة بالجرمان هو وجود بعض المبادىء التي تنم عن اتجاهات ديموقراطية في المجتمع الجرماني مثل انتخاب الزعماء ، والفصل في القضايا في محاكمات عامة(١) .

هذه هي خلاصة أحوال الجرمان الذين استقروا على حدود الامبراطورية الرومانية من جهتي الشمال والغرب . وهنا نلاحظ عدم وجود أي عداء بين الرومان والجرمان في أول الأمر ، كما أنه لم توجد مطامع للجرمان في أراضي الامبراطورية ، وانما كل ما أراده الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة في بلاده . وعلى هذا ليست من الواقع في شيء تلك النظرية التي تقول بأن روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش في رعب من الخطر الجرماني ، وأن الجرمان أخذوا منذ أول أمرهم يمنون أنفسهم بغزو الامبراطورية الرومانية والقضاء عليها(٢) . وهناك من الدلائل ما يثبت أن السنوات الواقعة بين قيصر وماركوس أورليوس (٥٠ ق.م. - ١٨٠ م) شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان ، كما أن القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الامبراطورية عاشت حينئذ في حالة واضحة من الهدوء والاستقرار . على أن هذا الوضع أخذ يتغير في أواخر القرن الثاني ، عندما تعرض المجتمع الجرماني لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة (٣) . ذلك أن السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية أخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق ، في الوقت الذي ازدادت أعداد الجرمان وضاقت أمامهم سبل العيش . وهنا تلفت هؤلاء الجرمان حولهم فلم يجدوا الا أرضا فقيرة مجدبة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات،

---

(1) Painter . op. cit. p. 23
(2) Katz: op. cit. p. 103
(3) Cam. Med. Vol. I p. 188

فضلا عن تأخرهم ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة الى قحط ومجاعات ، مما جعلهم فى حالة من الشدة ونقص فى الأقوات دفعتهم الى الحركة . وهكذا أخذ الجرمان يتطلعون الى أراضى الامبراطورية الرومانية التى جذبتهم اليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضـــارتها الزاهرة (١) .

وقد بدأ موقف الجرمان السلبي من الامبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الامبراطور ماركوس أورليوس (١٦١ — ١٨٠) ، عنـــدما تحالفت بعض الطوائف الجرمانية المعـروفة باسم المـــاركومانى Marcomanni والقواضى Quadi لمهاجمة جبهة أعالى الدانوب عند بانونيا(٢) . وعلى الرغم من أن الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم ، الا أن تهديد الجرمان لحدود الامبراطورية لم ينقطع بعد ذلك ، اذ لم يلبث أن ظهر خطرهم على الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث على عهد الامبراطور كارا كالا (٢١١ — ٢١٧) عندما تقدم القوط جنوبا من شواطىء البحر البلطى فسحقوا السارماشيين وهاجموا اقليم داشيا على الدانوب ، حيث ظلوا خمسين ســـنة يعيثون فسادا فى البلقان حتى هزمهم الامبراطور كلوديوس الثانى (٢٦٨—٢٧٠) فى نيسوس Naissus سنة ٢٦٩(٣) .

ويهمنا فى أمر هذا الدور المبكر من أدوار الحرب بين القوط والرومان أن أباطرة الرومان اختاروا أن يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان ، فتنازلوا لهم عن اقليم داشيا وسحبوا منه الجيوش الرومانية والموظفين على عهد الامبراطور أورليان (٢٧٠ — ٢٧٥) ، وعندئذ استقر القوط وأعرضوا عن أعمال السلب والنهب وبدءوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية، مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الامبراطورية الرومانية(٤) .

---

(1) Katz : op. cit. pp. 101—102
(2) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 29
(3) Thompson. op. cit. Vol. I p. 72

أن الخطر الذى هدد الامبراطورية الرومانية فى هذا الدور لم يأت من جانب القوط وحدهم ، وانما قام الألمان والفرنجة والبافريون والسكسون والتورنجيون والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة ، حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية سنة ٣٠٠ لتبدأ فترة أخرى جديدة من العلاقات السلمية الهادئة بين الرومان والجرمان (١) • على أن توغل الجرمان داخل حدود الامبراطورية لم يتوقف فى هذا الدور السلمى الجديد ، وانما استمر بعد أن غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة الى الزحف البطىء والتسلل السلمى الهادىء • وهنا نجد الامبراطورية تفتح صدرها لهؤلاء الوافدين من الجرمان ، فتستخدمهم جنودا فى بعض الفرق وتمنحهم مستعمرات وأراضى يقيمون فيها داخل الحدود الرومانية ، بل أن بعض ضباط الجيش الرومانى البارزين فى تلك الفترة جرت فى عروقهم دماء جرمانية (٢) • حقيقة أن استخدام الجرمان فى الجيش الرومانى والسماح لهم بالاقامة السلمية لم يك أمرا جديدا ، اذ ترجع جذور هذه الظاهرة الى أيام الامبراطور أوغسطس نفسه ، ولكنها أخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق فى القرنين الثالث والرابع ، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة والجرمان المقيمين وسطهم من جهة أخرى تمتد الى التزاوج والتفاعل الاجتماعى ، مما ترك أثرا بعيد المدى فى مستقبل الحوادث • وهكذا لا يمكن القول بأن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية كانت فى القرن الرابع تفصل بين العالمين الرومانى والبربرى لأن كلا من الطرفين أخذ يتأثر بالآخر ويؤثر فيه (٣) •

ثم كان أن تجددت الهجمات الجرمانية على حدود الدولة الرومانية مرة أخرى منذ سنة ٣٧٥ متخذة طابعا جديدا • فحتى هذا التاريخ كانت تلك الهجمات عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة ولا توحد بينها خطة جامعة • وكان يكفى أن تتعرض قبيلة لضغط قبيلة أخرى ، أو تصاب

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 207.
(2) Painter : op, cit. p, 19.
(3) Eyre : op. cit. p. 15.

منطقة من مناطق الجرمان بقحط أو نقص فى الأقوات ، أو يستكشف أحد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف فى الحدود الرومانية ، للقيام بهجوم جزئى محلى على أراضى الامبراطورية . ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل اغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥ (١) وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨ أى نحو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم ، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صورة أوربا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحا (٢) وهنا يحسن قبل أن نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث ، أن نشير الى أن هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية والقوة ، فطعمت حضارة العالم القديم المتداعية بما جلبته معها من دماء جديدة ونظم جديدة . وليس من الصواب فى شىء القول بأن الجرمان كانوا معادين للحضارة الرومانية ، وأنهم مسئولون عن تدمير هذه الحضارة ، لأن الحضارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية ، وأخذت تتدهور فعلا فى طريق الانحلال عندما بدأ الجرمان يتطرقون الى جسم الامبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجىء السريع أو عن طريق التسلل الهادىء البطىء (٣) . وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الأثر المباشر الذى أحدثته غزوات الجرمان فى جسم الامبراطورية الرومانية وكيانها ، أن نذكر دائما أهمية هؤلاء الجرمان فى تاريخ غرب أوربا وحضارتها .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن شدة التباين بين جموع البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الرابع والسادس تجعل من الضرورى التفرقة بين الجماعات التى أخذت تجتاح البلاد لتسلب كل ما يصادفها دون أن تحاول الاقامة والاستقرار فى تلك البلاد أو تترك أثرا فى تاريخها سوى الخراب والتدمير ، وبين الجماعات المترابطة التى غزت اقليما من أقاليم الامبراطورية لتستقر فيه وتختلط بالأهالى الأصليين اختلاطا جنسيا وحضاريا

---

(1) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 59.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 79.
(3) *Stephenson : op. cit. p. 68.*

مما ترك أثرا عميقا فى تاريخها • ومن أمثلة النوع الأول اتباع راداجيسوس Radagaisus وهم خليط من البرابرة الذين انتهى الأمر بتحطيمهم فى ايطاليا سنة ٤٠٥ (١) • وكذلك أتباع اتيلا من الهون وغير الهون الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضى الامبراطورية بدون ضابط • أما النوع الثانى فمن أمثلته القوط والفرنجة والبرجنديون والوندال والأنجلوسكسون واللمبارديون (٢) •

القوط الغربيون :

أما القوط فيبدو أنهم عبروا البحر البلطى من سكندناوة قبل حلول القرن الرابع قبل الميلاد حتى وصلوا مصب الفستولا • وقرب منتصف القرن الثانى الميلادى بدأت قبائل القوط رحلة طويلة نحو الجنوب الشرقى حيث استقروا شمالى البحر الأسود • وهناك انقسم القوط الى قسمين شرقيين وغربيين (٣)• فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات (٢٧٥ — ٣٧٥)(٤)

وكان أن ترتب على أحتكاك القوط بالعالم الرومانى أن أفادوا من حضارة

(1) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 33.

(3) Fliche : La Chretienté Medievale, pp. 10-14.

(٣) يلاحظ أنه لا توجد علاقة بين الموقع الجغرافى وتقسيم القوط الى شرقيين وغربيين • ويبدو أن هذه التسمية التى أطلقت على شعبتى القوط لا تعدو أن تكون نوعا من الخطأ التاريخى الذى اكتسب صيغة الحقيقة بحكم تواتره فى المراجع التاريخية • ذلك أن المدلول الأصلى للفظ Ostrogoths — وهو اللفظ الذى جرى العرف على ترجمته فى المراجع الى القوط الشرقيين — هو فى الحقيقة القوط الساطعون أو الزاهرون (auster) لا الشرقيون ، كما أن المدلول الأصلى للفظ Visigoths — الذى تعبر عنه المراجع بالقوط الغربيين ، هو القوط الأذكياء Wise • واذا كانت الظروف شاءت أن يتجه القوط الغربيون غربا وأن يستقر القوط الشرقيون شرقيهم ، فان هذا كان من محض المصادفات التاريخية •

(Lot : The End of the Ancient World, p. 191).

(3) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44.

الرومان وتأثروا بها تأثرا ظهر بجلاء فى اعتناقهم المسيحية عن طريق مبشر منهم اسمه ولفلاس Wulfilas (٣١١ – ٣٦١) تلقى تعليمه بالقسطنطينية • وعندما عين ولفلاس هذا اسقفا على القوط حوالى سنة ٣٤١ قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القوطية ، وتعتبر هذه الترجمة – التى مازال جزؤ منها باقيا حتى اليوم – أقدم آثار اللغة الجرمانية (١) • على أن المهم فى أمر اعتناق القوط للمسيحية هو أنهم تلقوها فى مذهبها الأريوسى ، لأن ولفلاس نفسه كان أريوسيا ، الأمر الذى ادى الى انتشار الأريوسية بين القوط ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل الوندال والبرجنديين واللمبارديين ، مما كان له أبعد الأثر فى مستقبل الحوادث التاريخية فى أوربا العصور الوسطى (٢) •

ثم حدث فى النصف الثانى من القرن الرابع ان اندفع الهون الأسيويون خلال المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين نحو جنوب روسيا ، وبالتالى انقضوا على القوط (٣) • ويبدو أن هجوم الهون جاء على درجة من العنف والشدة جعلت الرومان والجرمان يتآزرون جميعا لصد هذا الخطر المشترك • على أن ضغط الهون أحدث رد فعل عنيف بين الجرمان ، مما أثر بالتالى فى أوضاع الامبراطورية الرومانية تأثيرا خطيرا • ذلك أن القوط الغـــربيين لم يجدوا بدا من القرار من وجه الهون فطلبوا من الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون • واذا كان الامبراطور قد وافق على طلبهم ليتخذ منهم ستارا يحمى الحدود الرومانية من خطر الهون (٤) ، الا أن عبور ما يقرب من مليون ومائة ألف محارب من القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ – حيث سمحت لهم الحـــكومة الرومانية بالاقامة فى مواشيا وتراقيا – أحدث هزة عنيفة فى جسم الامبراطورية • ذلك أن هؤلاء الدخلاء لم يلبثوا أن ثاروا على الامبراطورية ، وأنزلوا الهزيمة

---

(1) Bradley : The Goths, p. 61.
(2) Moss : op. cit. p. 44.
(3) Lot : Les Invasions Germaniques, pp. 56-57.
(4) Painter . op. cit. p. 24.

بالامبراطور فالنز وذبحوه في أدرنة سنة ٣٧٨ (١)، مما دفع خليفته الامبراطور ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥) الى العمل على اتقاء شر القوط ، فعقد معهم اتفاقية اصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطور ، كما سمح للقوط الشرقيين بالاقامة في اقليم بانونيا والقوط الغربيين بالاقامة في شمال تراقيا • وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة في هذه الأقاليم التي احتلوها ، فأعفوا من الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التي تعهدوا بتقديمها الى الامبراطورية (٢) • وتعتبر هذه الاتفاقية التي عقدها ثيودسيوس مع القوط سنة ٣٨٢ نقطة تحول كبرى في سياسة الامبراطورية الرومانية تجاه الجرمان ، الذين اخذوا منذ ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك لهم داخل حدود الامبراطورية ، بعد ان اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالاقامة السلمية في ظل الادارة والنظم الرومانية • على أن القوط الغربيين ظلوا محتفظين بطابعهم ، فضلا عن نظمهم وقوانينهم ومذهبهم الأريوسي مع التزامهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للامبراطورية وحراسة حدودها • واستمر هذا الوضع سائدا حتى وفاة الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد (٣) •

ذلك أنه حدث عند وفاة ثيودسيوس أن قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب اركاديوس والغرب من نصيب هنريوس (٤) • وهنا أخذ نفوذ الجرمان السياسي والحربي يزداد قوة داخل الامبراطورية فاعتمد هنريوس في الغرب على قائد وندالي قدير هو ستليكو ومنحه تفويضا تاما من الناحية الحربية ، في حين اعتمد أركاديوس في الشرق على روفينوس

---

(1) Wallace - Hadrill : The Barbarian West, p. 21,
(2) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 48.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 90.
(4) Lot & Pfister & Ganshof : Les Destinees de L'Empire-En Occident, p. 24.

Rufinus وهو وزير قوطى عرف بالأنانية والقسوة وعدم الاخلاص (١).
ويبدو أن القوط الغربيين كانوا فى حالة استياء منذ اتفاقهم مع الامبراطورية سنة ٣٨٢ لأنهم لم يلبثوا أن تبرموا بما ألقته عليهم هذه الاتفاقية من التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للامبراطورية فى الوقت الذى كانوا ينشدون حياة الاستقرار والهدوء . لذلك ثاروا سنة ٣٩٥ تحت زعامة ملكهم ألرك فغزوا مقدونيا وتساليا واقتحموا آثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية (٢) . وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية عندئذ فى حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر القوط الغربيين ، مما جعل ستليكو قائد الامبراطورية الغربية يقوم بهذه المهمة ، فعبر البحر الأدرياتى وحصر القوط فى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة المورة (مقاطعة اليس Elis) وان كان ملكهم ألرك قد استطاع الفرار (سنة ٣٩٦) .

وأخيرا رأى اركاديوس امبراطور الدولة الشرقية أن يمنح ألرك اقليم اليريا سنة ٣٩٨ ، حيث ظل القوط الغربيون قابعين أربع سنوات ، فى حين عاد ستليكو الى غاليا وجبهة الدانوب لمحاربة الوندال (٣) . وفى سنة ٤٠٢ حاول ألرك غزو ايطاليا لأول مرة ، ولكن ستليكو رده على أعقابه . ولم تلبث ايطاليا أن تعرضت مرة أخرى سنة ٤٠٥ لغزو جماعات من الوندال والسويفى والبرجنديين واللان الذين اضطروا الى الاتجاه نحو ايطاليا أمام ضغط الهون ، ولكن ستليكو أنزل بهم الهزيمة وأسر زعيمهم راداجيسوس وأعدمه سنة ٤٠٦ ، وبذلك نجت ايطاليا مرة أخرى من غزو البرابرة (٤) . على أن ستليكو اضطر فى سبيل الدفاع عن ايطاليا فى هذه المرة الأخيرة الى سحب بعض الفرق الحربية التى تقوم بحراسة جبهة الراين ، مما أتاح الفرصة لجماعات من الوندال واللان والسويفى لعبور الحدود الرومانية سنة ٤٠٦ ، ومن ثم قضوا ثلاث سنوات فى غاليا اجتاحوا فيها البلاد ونهبوها ثم اندفعوا منها الى

(1) Cam Med, Hist. Vol. 1, p. 260.
(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 110.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, p. 116.
(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 28.
(5) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 168.

أسبانيا سنة ٤٠٩(١) • وقد أفزعت هذه الأحداث الامبراطور هنريوس الذى رأى فيها فرصة طيبة للتخلص من قائده ستليكو بعد أن ازداد نفوذه ازديادا خطيرا حتى أوشك أن يصبح الحاكم الفعلى فى الدولة — مما أثار حقد الامبراطور — فوجه اليه تهمة الاهمال فى حماية حدود الامبراطورية والتآمر ضد سلامتها وسلامة الامبراطور نفسه ، وبالتالى تم اعدامه سنة ٤٠٨ (٢) •

ويبدو أن الامبراطور تطرف فى التخلص من أتباع ستليكو عن طريق القتل ، مما جعل بعضهم يفرون نحو ألرك ملك القوط الغربيين حيث زينوا له غزو ايطاليا (٣) • وقد وجد ألرك فرصته سانحة بعد مقتل ستليكو — الرجل الوحيد الذى استطاع انزال الهزيمة به — فزحف على رأس رجاله من القوط الغربيين الى روما التى تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيبال لحصار جيوش أجنبية معادية • وعندما فشلت المفاوضات بين ألرك والامبراطور هنريوس — الذى كان عندئذ آمنا فى عاصمته الجديدة رافنا — اقتحم القوط الغربيون روما سنة ٤١٠ (٤) ، فنهبوا بيوت نبلائها وأحرقوها ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالى ، كما احترموا الكنائس على الرغم من أريوسيتهم• أما ألرك فقد توفى قرب نهاية ٤١٠ حيث تذكر الأساطير أنه دفن فى قاع أحد الأنهار بجنوب ايطاليا (٥) •

وأخيرا لم يجد الامبراطور وسيلة لاخراج القوط الغربيين من ايطاليا سوى اعطاهم اقليم اكوتين من اللوار حتى البرانس (٦) • والواقع أنه كان على القوط الغربيين أن يبذلوا جهدا جديدا لاستخلاص هذه الهبة من جموع الوندال واللان والسويفى الذين كانوا قد تطرقوا الى هذه الأقاليم الغالية كما

---

(1) Cam. Med. Hist, Vol. 1, pp. 266-268.
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 202-204.
(3) Lot . Les Invasions Germaniques, pp. 74-75.
(4) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 180.
(5) Deanesly : op. cit. pp. 27-28.
(6) Bradley : The Goths, pp. 106-107.

سبق • وقد استطاع واليا ملك القوط الغربيين الجديد أن يطرد السويفى الى الجزء الشمالى الغربى من أسبانيا وأن يزيح الوندال الى جنوبى نهر ابرو ، وبذلك تمكن القوط الغربيون من الاستقرار سنة ٤١٨ فى الجزء الجنوبى من غاليا - أى فى اقليم اكوتين وحول تولوز - بعد ان قضوا زهاء أربعين عاما فى التنقل والترحال (١) • وكانت المنطقة التى انتشر فيها القوط الغربيون عندئذ تمتد من تولوز على نهر الجارون الى اسبانيا ، التى طردوا الوندال منها سنة ٤٢٩ •

وعندما توفى واليا خلفه ثيودريك الأول (٤١٩ - ٤٥١) الذى عمل على تثبيت أركان مملكة القوط الغربيين وتوسيع رقعتها • وكان أهم ما قام به فى سبيل تحقيق ذلك انتزاعه عدة مدن فى جنوب غاليا من الرومان سنة ٤٣٦ (٢) • وقد حاول الرومان الوقوف فى وجهه ولكنه أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٩ ، ومن ثم ساد السلام بين الطرفين • أخيرا مات ثيودريك الأول سنة ٤٥١ أثناء حربه مع الهون ، فخلفه فى حكم القوط الغربيين ثيودريك الثانى (٤٥١ - ٤٦٥) الذى حارب السويفى فى شمال غرب أسبانيا وغزا ناربون قرب الحدود الغالية الأسبانية كما مد مملكته حتى نهر اللوار • على أن ثيودريك الثانى لم يلبث أن قتل سنة ٤٦٥ بواسطة أخيه ايورك (٤٦٥ - ٤٨٤) الذى يعتبر أقدر ملوك القوط الغربيين (٣) • ذلك أنه قضى على ما تبقى من النفوذ الرومانى فى أسبانيا ، وأخضع السويفى كما وضع أول مجموعة للقانون الجرمانى عرفها التاريخ (Antiqua) والحق ان مملكة القوط الغربيين - التى ظلت قائمة فى أسبانيا حتى الفتح العربى فى أوائل القرن الثامن - تعتبر أقوى الممالك الجرمانية فى الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ من جهة ، وقيام مملكة الفرنجة فى شمال غاليا ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من جهة أخرى (٤) •

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 205.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 279.
(3) Bury . op. cit. Vol. 1, p. 341.
(4) Thompson ; op. cit. Vol, 1, p. 94.

الوندال :

أما الوندال فقد ظلوا يقاومون القوط الغربيين فى أسبانيا طوال أربع عشرة سنة اضطروا بعدها الى عبور البحر الى شمال افريقية سنة ٤٢٩ تحت زعامة ملكهم جزريك Gaiseric (١) . وصادف عندئذ قيام حرب أهليـــة فى ولاية شمال افريقية ، وقيام امبراطور قاصر هو فالنشيان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٥) على عرش الامبراطورية ، مما سهل على الوندال مهمتهم . وسرعان ما أثبت جزريك — ذلك الرجل القصير الأعرج — أنه على جانب كبير من المقدرة والكفاية (٢) ، اذ استولى على البلاد من طنجة حتى طرابلس ، كما سقطت قرطاجة — أهم مدينة فى الغرب بعد روما — فى أيدى الوندال سنة ٤٣٩ ، وبذلك ضاعت ولاية شمال افريقية فخسرت الامبراطورية الرومانية بضياعها جزءا آخرا من أهم اجزائها التى كانت تمونها بالغلال (٣) . ولم يستطع أهالى شمال افريقية سوى الامتثال لحكم القدر ، لأن عدد الغزاة من الوندال بلغ نحوا من ثمانين ألفا من رجال ونساء وأطفال . وزاد من سوء أحوال الأهالى ان جزريك نهج فى حكم مملكته الجديدة نهجا استبداديا عنيفا فصادر الضياع وانتزع الأراضى من أصحابها ، كما تعسف فى جمع الأموال والضرائب من الأهالى وعاملهم فى قسوة بالغة (٤) . هذا الى أنه أثار حنق أهالى البلاد الأصليين بصورة بالغة عندما اتبع سياسة دينية متطرفة ، فصادر — وهو الملك الأريوسى — ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال افريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك اضطهادا بالغا أثار سخط الرأى العام حتى أصـــبح لفـظ الوندالية Vandalism ، فى اللغـــات الأوربيـــة الحديثة يستخدم مرادفا للهمجية والوحشية (٥) .

---

(1) Wallace-Hadrill : op. cit. pp. 38-39.
(2) Oman : The Dark Ages, p. 7.
(3) Lot & Pfistor & Ganshof; op. cit. p. 63.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 95.
(5) Oman : The Dark Ages, pp. 7-9.

على أن خطر الوندال لم يقف عند هذا الحد ، اذ لم يلبثوا أن أصبحوا قوة بحرية خطيرة فى البحر المتوسط ، فأغاروا على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فضلا عن ايطاليا حتى هاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥(١) • ومهما يكن من أمر فان عظمة دولة الوندال فى شمال افريقية سرعان ماولت عقب وفاة جزريك سنة ٤٧٧ ، هذا على الرغم من أنه ترك بعده أسطولا قويا وثروة طائلة وقصرا ذاخرا بالمنهوبات • وكان ذلك سنة ٥٣٤ عندما استطاع بلزاريوس قائد جيوش الامبراطور البيزنطى جستنيان أن يسترد ولاية شمال افريقية من الوندال ، بعد أن عمرت دولتهم خمسا وتسعين سنة منذ استيلاء جزريك على قرطاجة سنة ٤٣٩ (٢) •

الهون :

أما الهون الأسيويون فكانوا قد اجتاحوا اقليم الدانواب الأدنى بعد أن تغلغل القوط الغربيون داخل جسم الامبراطورية سنة ٣٧٥(٣) • ثم ظل الهون مقيمين على شواطىء البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا الى تراقيا وأخذوا يهددون القسطنطينية نفسها • ويبدو أنه اشتد عبث الهون — تحت زعامة أتيلا بالولايات الرومانية الواقعة فى حوض الدانواب الأدنى بين سنتى ٤٣٠ و ٤٣٣ ، مما اضطر ثيودوسيوس الثانى امبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ — ٤٥٠) الى دفع جزية مالية سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على أراضى دولته ، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب • وكان أن تقدم أتيلا غربا بحذاء الدانواب سنة ٤٤٧ فخرب مواشيا وتراقيا واليريا وبانونيا حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١(٤) • وقد نهب الهون كثيرا من مدن غاليا مثل

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1. pp. 306-308.
(2) Deanesly : op. cit, p. 77.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 215
(4) Lot & Pfister & Ganshof ; op. cit. p. 66.

تريف وميتز وتروى وشالون وغيرها من المدن المهمة التى فر أهلها من وجه الهون طلبا للنجاة ، بعد ما شاع عنهم من قصص طويل يعبر عن بطشهم وقسوتهم(١) • ولم يكن منتظرا من الامبراطور الغربى عندئذ ـ وهو فالنشيان الثالث ـ أن يقوم بعمل ايجابى ضد هذا الخطر الجاثم ، ولكن قائده أيتيوس Aetius برز فى هذه الظروف ليحمل عبء الدفاع عن غاليا • وهنا حدثت ظاهرة جديرة بالاهتمام ، وهى أن القوط الغربيين تحالفوا مع الجيوش الرومانية لدفع خطر الهون المشترك ، حتى أنزل الحلفاء الهزيمة بجموع أتيلا قرب شالون سنة ٤٥١(٢) • ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، اذ أنقذت غرب أوربا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة أتيلا بغزوة مفاجئة لايطاليا فى العام التالى (٤٥٢)(٣) • ولم تلبث روما أن وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد ، مما جعل أسقفها البابا ليو العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة أتيلا(٤) وهنا تجمع الأساطير المعاصرة على أن طيف القديس بطرس أفزع أتيلا فأسرع بالاياب ، وان كان الواقع هو أن أتيلا أحس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الرومانى الشهير أيتيوس ، مما جعله يسرع باخلاء ايطاليا فى يوليو سنة ٤٥٢ بعد أن أخذ وعدا بتسلم جزية سنوية • ولم يلبث أن توفى أتيلا العام التالى (٤٥٣) فى بانونيا وعندئذ حاول أبناؤه اقتسام امبراطوريته الواسعة(٥) ، ولكن الشعوب الخاضعة للهون انتهزت الفرصة وثارت وأنزلت بهم الهزيمة فى موقعة نديو Nedeo سنة ٤٥٤ • وبذلك انهارت امبراطورية الهون قبل أن تمضى على وفاة أتيلا عشرون عاما(٦) •

---

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, pp. 291-293.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 280-281.
(3) Bury : op. cit. Vol, 1, 294.
(4) Fliche : La Chretiente Medievale, p. 24.
(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.
(6) Lot : The End of the Ancient World. 288.

البرجنديون :

أما البرجنديون فكانوا قد ذاقوا من ضغط الهون أضعاف ما ذاقته بقيــة قبائل الجرمان في الغرب ، كما أنهم كانوا أول من استفاد من تفكك امبراطورية الهون . وقد ظهر البرجنديون لأول مرة على مسرح الحوادث الأوربية فى النصف الثانى من القرن الثالث عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين سنة ٢٧٧(١) . وفى القرن الرابع استخدمتهم الامبراطورية الرومانية في جيوشها كما كان الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان . وعلى الرغم من أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة الا أنهم اضطروا الى استخدام العنف في شق طريقهم الى غاليا عبر الراين ، وذلك تحت ضغط الهون(٢) ، حتى سمح لهم القائد الرومانى أيتيوس بالاقامة أخيرا في المنطقة الواقعة قرب نهر السافون . وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مــع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون فى موقعة شالون سنة ٤٥١ ، وأخـــذوا يتوسعون سلميا حتى انتشروا سنة ٤٦٨ فى جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون ، ولم يحل دون وصولهم الى شاطىء البحر المتوسط سوى غزو أيورك ملك القوط الغربيين لاقليم بروفانس(٣) .

سقوط الامبراطورية الغربية :

وهكذا يبدو من العرض السابق لغزوات الجرمان أنه لم يكد ينتصــف القرن الخامس حتى كانت الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد مزقت اربـا بضياع معظم أجزائها . ذلك أن الجيوش الرومانية انسحبت من بريطانيا سنة ٤٤٢ ، فى حين انتزع الوندال ولاية افريقية ، واحتل القوط الغربيـون والبرجنديون أسبانيا فضلا عن جنوب غاليا والأجزاء الشرقية منها . هذا فى

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 98.
(2) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 249
(3) Deanesly : op. cit. p. 30.

الوقت الذى عبر الألمان الراين الأعلى واستقروا فى الألزاس ، كمــا عبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز ، وبذلك فقدت الامبراطورية الغربية معظم أجزائها مما آذن بسقوط هذه الامبراطورية وضياع البقية الباقية منها(١) .

والواقع أن عوامل الاضمحلال التى أخذت تنخر ببطء فى عظام الامبراطورية الغربية على عهد الامبراطور هنريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) والامبراطور فالنشيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥) ازدادت خطورة بعد ذلك ، لاسيما بعد أن كافأ فالنشيان الثالث قائده أيتيوس بقتله سنة ٤٥٣ ، وهو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع صد هجمات الوندال التى تعرضت لها روما بعد ذلك بعامين(٢) . ذلك أن الوندال أصبحوا بعد احتلالهم ولاية افريقية قوة بحرية كبرى هددت جميع بلاد النصف الغربى من حوض البحر المتوسط . ولم يلبث أن ظهر أسطول وندالى عند مصب نهر التيبر فى صيف سنة ٤٥٥ ، وعندئذ حاول البابا ليــو العظيم انقاذ روما من الوندال ، كما سبق أن أنقذها منذ سنوات قليلة من أيدى الهون ، ولكنه فشل فى هذه المرة(٣) وهكذا اقتحم الوندال روما وقضوا فيها أربعة عشر يوما سلبوا خلالها المدينــــة كنوزها ، فنهبوا ما فى القصر الامبراطورى والمعابد والكنائس والبيوت من نفائس ، فضلا عن عدة آلاف من الأهالى حملوهم معهم عبيدا عند انصرافهم(٤) . ولعلنا نلمس فى هــذه الاغارة دليلا واضحا على أن مجد روما السياسى والحربى أدبر وتولى ، وبالتالى أضحى مستقبلها ومصيرها رهينا بمقدرة الكنيسة البابوية . والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتى ٤٥٥ ، ٤٧٦ أى بين مقتل الامبراطور فالنشيان الثالث وسقوط الامبراطورية فى الغرب ، تعتبر من أظلم عصــــور تاريخ الامبراطورية الغربية ، بعد أن فقدت هذه الامبراطورية معظم أراضيها(٥)

(1) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 77-94.
(2) Cam. Med, Hist. Vol. 1, pp. 418-420.
(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 78.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 100-101.
(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

ـ وأصبحت القوة الفعلية فى ايطاليا بأيدى فئة من قادة الفرق الجرمانيـة المأجورة ، الذين ازدادوا تطرفا وقسوة لعدم وجود قوة أخرى تقف فى طريقهم وتحد من بطشهم . أما الأباطرة فقد أصبحوا ألعوبة فى أيدى الجند ، يولونهم ويعزلونهم وفق ارادتهم ، حتى انتهى الأمر بأن ثار أودواكر ـ زعيم بعض جموع الجرمان ـ ودخل رافنا سنة ٤٧٦ ، حيث كان الامبراطور عندئذ وهـــو رومولس أوغســطولس Romulus Augustulus فى الثانية عشر من عمره ، فاكتفى أودواكر بنفيه الى جنوب ايطاليـا مع تخصيص معاش كاف له(١) .

وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وأصبحت ايطاليا من الوجهة القانونية تابعة للامبراطورية الرومانية التى لم يبق غيرها على قيد الحياة وهى الامبراطورية البيزنطية . وحتى هذه الامبراطورية لم يكن لها عندئذ نفوذ فعلى ملموس فى ايطاليا ، مما ترك البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها الايطاليون طوال القرون التالية ، ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيلين بحمايتهم .

واذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا فى أهمية الأحداث التى جرت سنة ٤٧٦ ، ويتخذون هذه السنة التى سقطت فيها الامبراطورية الغربية حدا فاصلا بين عصرين ، فاننا يجب ألا ننساق معهم فى تفكيرهم وتيارهم . ذلك أن الامبراطور الغربى كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة ، فى الوقت الذى سقطت امبراطوريته ، هذا فضلا عن أن ايطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحا لعبث كثير من الطوائف الجرمانية التى تطرقت اليها . ومن هذا يبدو أن عزل الامبراطور الطفل رومولس أوغسطولس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ لم يؤد الى تغير كبير فى الحالة القائمة فعلا(٢) . وهنا ينبغى أن نسجل أيضـا أن أودواكر نفسه لم يقصد بعمله أن يبدأ عهدا جديدا أو يحدث انقـلابا من نوع غير معروف،وانما كل ماكان يطمع فيه هوأن يحظى بما حظى به فعلا غيره من

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 406.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 430-433.

زعماء الجرمان داخل حدود الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من البعثتين اللتين أرسلهما الى زينون امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٧٧ ، ٤٧٨(١) . حقيقة أن العالم الغربي ظل بدون امبراطور منذ سنة ٤٧٦ حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ ، الأمر الذي ظهر أثره واضحا فى تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة وفى تطور البابوية من جهة أخرى ، ولكن عدم وجود أباطرة فى الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعنى بأى حال زوال فكرة الامبراطورية ، تلك الفكرة التى ظلت تتصور الامبراطورية طوال العصور الوسطى على أنها وحدة لا تتجزأ(٢) . هذا وان كان بعض الكتاب ـ مثل أومان ـ يعترفون بالآراء السابقة ، ولكنهم يصرون على أن سنة ٤٧٦ لها أهمية خاصة كخط فاصل بين التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى(٣) .

ومهما يكن من أمر فالمهم هو أن سنة ٤٧٦ لم تكد تنتهى حتى كانت هناك ست ممالك جرمانية قد قامت فى غرب أوربا على أنقاض الامبراطورية الرومانية . وهذه الممالك هى مملكة أودواكر فى ايطاليا ، ومملكة الوندال فى شمال افريقية ، ومملكة القوط الغربيين التى امتدت من اللوار حتى مضيق جبل طارق ، ومملكة البرجنديين فى وادى الرون ووادى الساؤون ، ودولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى ، وأخيرا تأتى صغرى هذه الممالك الجرمانية وهى مملكة السويفى Suevi فى الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال وغاليسيا(٤) .

الفرنجة :

كان أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام دولة الفرنجة ، وهى الدولة الجرمانية الوحيدة التى استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود

---

(1) Eyre : op. cit. p. 23.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p, 431.
(3) Oman : The Dark Ages, p. 3.
(4) Idem, p. 5.

الامبراطورية • ذلك أن قبائل الفرنجة المتقلبة التى كونت فيما بينها حلفا مائعا فى القرن الثالث ، أخذت تظهر عنــد بداية القــرن الخامس فى هيئة كتلة متراصة أهم عناصرها الفرنجة البحريون Francs Ripuaires والفرنجة البريون Francs Saliens وكان كل من هذين الفرعين قد استقر فعلا فى القرن الرابع داخل حدود الامبراطورية الرومانية ، فامتد الفرنجة البحريون بين الراين الأدنى والميز والشلد ، فى حين امتد الفرنجة البريون على امتداد الموزل الأدنى(١) •

ويعتبر كلوفس (٤٨٦ — ٥١١) المؤسس الحقيقى لدولة الفرنجة البحريين ، اذ اســتطاع أن ينزل الهزيمة فى ســواسون سنة ٤٨٦ بســياجريوس Syagrius ، وهو الذى ظل يمثل آخر بقايا الادارة الرومانية فى حوض السين على الرغم من سقوط الامبراطورية فى الغرب قبل ذلك بعشر سنوات(٢) • وقد أخذ كلوفس يعمل بسرعة — بعد انتصاره فى سواسون — على مد نفوذ الفرنجة على الجهات الشمالية من غاليا • وكان من الطبيعى أن يقابل أهالى البلاد الأصليين هذا التغيير بقليل من الدهشة وكثير من الفتور بعد أن اعتادوا الخضوع لفئة جديدة من غزاة الجرمان الفينة بعد الفينة • وهكذا جاء وقت على غاليا الرومانية أصبحت مقسمة بين القوط الغــربيين والبرجنديين والفرنجة(٣) •

على أن حركة الفرنجة اختلفت كثيرا فى طابعها عن الحركات التى قامت بها بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو • ومن هنا يميل بعض المؤرخين الى عدم اعتبار كلوفس فاتحا بكل معانى الكلمة ، والى وصف نضاله ضد سياجريوس بأنه صدام بين زعيمين طموحين أكثر منه بين قوميتين متعاديتين(٤) • ذلك أن بقية الشــــعوب

---

(1) Fliche : La Chretienté Mediévale, p. 30.
(2) Deanesly : op. cit. p. 58, & Gregory of Tours; The Hist. of the Franks II 27.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 108.
(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.

الجرمانية كالقوط والوندال والبرجنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية ، وأخذت تجوس خلال الأقاليم الأوربية عدة سنوات ، حتى استقر كل منها أخيرا وسط جزء من المحيط اللاتينى الغربى بعيدا عن موطنها الأول • أما الفرنجة فانهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى ، وانما أخذوا ينتشرون منه ويضيفون اليه اقليما بعد آخر ، دون أن يتخلوا عن مركزهم الأساسى أو يقطعوا صلتهم به (١) • وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية ، فى الوقت الذى ذابت بقية الشعوب الجرمانية فى المحيط اللاتينى الذى استقرت وسطه بعد أن قطعت صلتها بمواطنها الأولى • كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية فى سياستهم الحكيمة التى امتازت بعدم الافراط فى العنف والاساءة الى أهالى البلاد الأصليين • ولا يوجد لدينا أى سند تاريخى يثبت أن الفرنجة حاكوا البرجنديين أو القوط الغربيين فى اغتصابهم الأراضى والضياع من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة ، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالى غاليا ولم يؤذوهم فى أملاكهم وأرواحهم(٢) ، هذا فضلا عن احتفاظهم بحسن العلاقات مع الامبراطورية الرومانية فى معظم الحالات(٣) • ولا شك فى أن هذا المسلك من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين ، وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفس الديانة المسيحية سنة ٤٩٦ (٤) • وليس المهم فى هذه الخطوة الهامة هو ما ترتب عليها من انتشار الديانة الجديدة بين أتباع كلوفس وشعبه من الفرنجة ، وانما المهم هو أن كلوفس اعتنق المسيحية على مذهبها الأثناسيوسى أو الغربى مخالفا فى ذلك بقية الشعوب الجرمانية التى ظلت ممقوتة فى الغرب بسبب

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 108.
(2) Dill : Roman Society in Gaul, p. 89.
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 285.

أريوسيتها(١) • والواقع أن رجال الكنيسة الكاثوليكية في جنوب غاليا كانوا يرقبون توسع الفرنجة في الشمال باهتمام بالغ من أول الأمر ، لأنهم رأوا في كلوفس وأتباعه الوثنيين مادة خاما يسهل تشكيلها وفق مبادىء الكنيسة الغربية ، لا سيما أن مسلكهم تجاه أهالى البلاد الأصليين جاء مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة والاعتدال بعكس الحال مع البرجنديين أو القوط الأريوسيين • لذلك أخذ رجال الكنيسة في غاليا يترقبون اليوم الذى اعتنق فيه كلوفس المسيحية في صورتها الأثناسيوسية ، لا سيما بعد أن تزوج من كلوتيلدا ، وهي أميرة برجندية دانت بالعقيدة الكاثوليكية(٢) • ويقال ان الظروف التى أحاطت بكلوفس أثناء حربه مع الألمانى في الألزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية في حالة انتصاره ، وكان أن أوفى بعهده فتم تعميده سنة ٤٩٦(٣) •

وهنا نستطيع أن نقول أن كلوفس استطاع بهذه الخطوة أن يحدد مصير الفرنجة ومستقبل دولتهم لأن اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف الكاثوليك وتأييدهم ، ليس فقط في غاليا وانما في جميع أرجاء غرب أوربا(٤) ومعنى ذلك قيام نوع من التعاون والارتباط بل التآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان ، وهو أمر كان لا يمكن تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين من جهة والبرجنديين أو القوط الأريوسيين من جهة أخرى(٥)• ويكفى أن المملكة الفرنجية كانت الوحيدة بين المملكات الجرمانية التى اكتسبت عطف رجال الكنيسة وتأييدهم في غرب أوربا ، حتى أصبح كلوفس قسطنطينا آخر(٦) في حين ظهر ملوك الفرنجة في ثوب حماة المسيحية ورجالها في الغرب مما مهد لايجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul, pp. 86-89.
(2) Deanesly : op. cit. p. 59.
(3) Gregory of Tours : The Hist of the Franks, p. 2-30.
(4) Fliche : La Chretiente Medievale, p. 33.
(5) Lavisse : Hist de France. Tome, 11, Premiere. Partie, p. 99.
(6) Lot ; The End of the Ancient World p. 317-318.

الفرنجة ، وهو التحالف الذى كان له اثر بعيد فى مستقبل أوربا العصـــور الوسطى •

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع عقب سنة ٤٩٦ ، بعد أن أخذ الأهالى من الرومان الكاثوليك فى بقية أنحاء غاليا يتمنون الدخول تحت حكم كلوفس - الملك الجرمانى الذى يتفق معهم فى المذهب (١) • على أنه يلاحظ أن توسع الفرنجة فى هذه المرحلة لم يقتصر على الجهات الغربية والجنوبية وانما امتد ايضا فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى • وقد حدث سنة ٤٩٦ أن أخذ الألمانى يباشرون ضغطهم من أعالى الراين على الفرنجة البريين الذين انتشروا الى الجنوب منهم ، فاستنجد هؤلاء الأخيرون بكلوفس الذى أسرع لنجدة أقاربه فشن هجومين على الألمانى أحدهما سنة ٤٩٦ والثانى ٥٠١ ، حتى انتهى الأمر بانزال هزيمة ساحقة بالألمانى الذين اضطروا الى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين لحماية انفسهم من الفرنجة (٢) وتعتبر هذه الحرب بين الفرنجة والألمانى على جـــانب كبير من الأهمية حيث أنها أدت الى توسع الفرنجة فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى ، كما أنه ترتب على نجاح الفرنجة فى صد الألمانى عدم قطع الصلة بين الفرنجة من جهة ووطنهم الجرمانى الأول فيما وراء الراين من جهة اخرى ، فضلا عن نجاح الفرنجة فى وقف التيار التوسعى لبقية العنـــاصر الجرمانية مثل البافاريين والثورنجيين والسكسون (٣) •

على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى لم يلبث أن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين فى غاليا ، مثل البرجنديين والقوط الغربيين • أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس

---

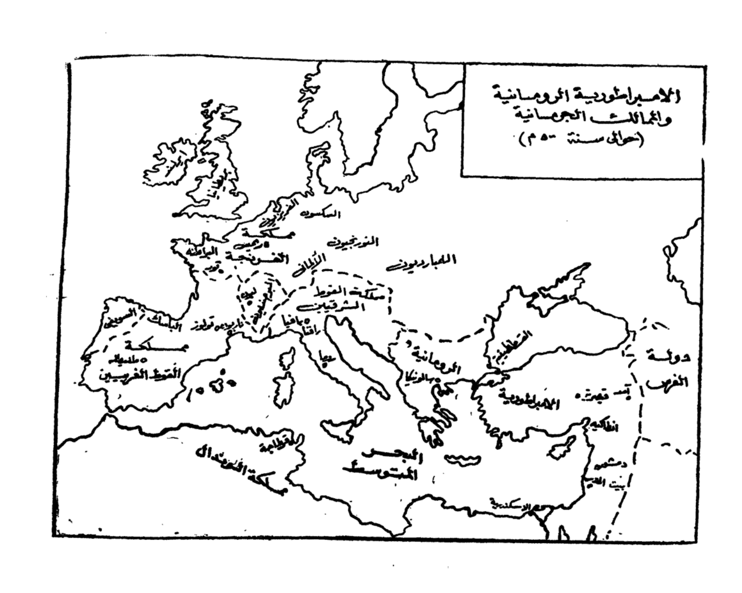
(1) Deanesly : op. cit. p. 60.
(2) Lot : The End of the Ancient World, p. 317.
(3) Thompson : op. cit. Vol. I. p. 109.

أن يجبرهم سنة ٥٠٠ على دفع الجزية رمزا للتبعية (١) . وأما القوط الغربيون فان كلوفس شن الحرب عليهم سنة ٥٠٧ وقتل ملكهم ألرك الثانى بعد أن هزمه فى فوجليه Vougle كما استولى على تولوز سنة ٥٠٨ . ولم ينقذ القوط الغربيين من أيدى الفرنجة عندئذ سوى تدخل ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذى أسرع لنجدة أقربائه (٢) . وأخيرا حل الموقف بين الفرنجة والقوط سنة ٥١٠ بعد أن تم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين يمتد حتى نهر الجارون ـ بما فيه مدينة تولوز – فى حين احتفظ ثيودريك باقليمى بروفانس وناربونيس (سبتمانيا) (٣) .

وعندما توفى كلوفس سنة ٥١١ كانت دولة الفرنجة تمتد على جانبى الراين ، وتشمل جميع غاليا ما عدا أرموريكا (بريتانى) وجاسكونى وبروفانس . على أن هناك حقيقة هامة أثرت فى تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم تأثيرا عميقا ، هى أنهم ظلوا يعتبرون الملك ارثا يقسم بين سائر أبناء الملك أسوة بسائر أنواع الارث ، ووفقا لهذا المبدأ قسم كلوفس مملكته الواسعة ذات السكان المتباينين فى الأصل والجنس بين أبنائه الأربعة (٤) . ومع ذلك فان توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم أو نتيجة لما قام بين كلوفس من نزاع وخلاف . ففى سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا ، كما استولى على اقليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١ وأوفرن سنة ٥٣٢ ، وبرجنديا سنة ٥٣٤ ، وبافاريا سنة ٥٥٤ – ٥٥٥ ، وجاسكونى سنة ٥٦٧ . وساعد على هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة ، أن لوثر الأول (كلوتير) استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٥٨ بعد وفاة اخوته الثلاثة ، أى أنه حكم جميع مملكة كلوفس فضلا عن برجنديا وثورنجيا وبروفانس وبافاريا (٥) .

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul. p. 91.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 484.
(3) Lot : The End of the Ancient World pp. 318-319.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. Vol. 1, p. 484.
(5) Deanealy : op. cit. p. 67.



الامبراطورية الرومانية
والممالك الجرمانية
(حوالى سنة ٥٠٠ م)
السكسون
مملكة
ريمس
الفرنجة
البريطون
تور
النورنجيون
الألمان
اللمبارديون
مملكة القوط
الشرقيين
بافيا
رافنا
روما
الباسك
السويف
طولوز
ناربونه
مملكة
طليطلة
القوط الغربيين
قرطاجنة
مملكة الفندال
البحر
المتوسط
الرومانية
سالونيكا
القسطنطينية
الامبراطورية
قيصرية
انطاكية
دمشق
بيت المقدس
الاسكندرية
دولة
الفرس

على أن مملكة الفرنجة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى بين أبناء لوثر الأول عند وفاته سنة ٥٦١ (١) • وقد ظهرت الخلافات التاريخية والجنسية واضحة هذه المرة بين الأقسام التى انقسمت اليها مملكة الفرنجـــة وهى أوستراسيا ونستريا ، فى حين كان الطابع اللاتينى هو الغـالب على برجنديا واكوتين • ومهما يكن من أمر فان العصر الأول لتاريخ الفرنجة ـ وهو عصر البطولة الذى امتاز بالتوسع والغزو ـ انتهى سنة ٥٦١ (٢) ، ليبدأ عصر آخر سنعود اليه بعد قليل •

القوط الشرقيون :

رأينا ما كان من أمر سقوط الامبراطورية الغربية فى ايطاليا سنة ٤٧٦ ، وهو الأمر الذى جعل لأباطرة الدولة الشرقية نوع من السيادة الاسمية على ايطاليا بحكم ما لأباطرة هذه الدولة من حق فى وراثة أباطرة الغرب •ولكن حدث سنة ٤٨٩ ـ أى بعد موقعة سواسون بثلاث سنوات ـ أن انتهى ما كان لأباطرة الدولة الشرقية من سلطة اسمية فى ايطاليا وذلك عندما غزاها القوط الشرقيون تحت زعامة ثيودريك (٣) •

وكان القوط الشرقيون قد تعرضوا سنة ٣٧٥ لخطر الهون ولـكنهم لم يستطيعوا الفرار عبر الدانوب كما فعل اقرباؤهم القوط الغربيون ، ومن ثم ظلوا تحت سيطرة الهون ما يقرب من سبع وسبعين سنة ، أى حتى سنة ٤٥٢ عندما توفى أتيلا وتفككت امبراطوريته وأخذت الشعوب الخاضعة للهـون تتحرر من سيطرتهم (٤) • على أن القوط الشرقين وجدوا أنفسهم غداة تحررهم من سيطرة الهون فى حال لا يحسدون عليها نظرا لما لحق أقاليم

(1) Lavisse : Hist. de France, Tome 11, Premiere Partie, p. 132.
(3) Thompson : op. cit, Vol, 1, p. 114.
(3) Oman : The Dark Ages, p. 16.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 366.

الدانوب فى ذلك الوقت من دمار وخراب شامل حتى أصبحت الاقامة فيها أمرا متعذرا . لذلك اتجه القوط الشرقيون جنوبا داخل حدود الامبراطورية حيث أخذوا يسببون لها مضايقات شتى (١) . وعلى الرغم من أن قوات الامبراطورية الشرقية أسرت ثيودريك - ابن ملك القوط الشرقيين - وأرسلته رهينة الى القسطنطينية ، الا أن المناصب والألقاب البراقة التى خلعها عليه البيزنطيون ، ومظاهر العظمة التى حفلت بها القسطنطينية ، لم تنس ثيودريك أهله وعشيرته الذين كانوا يقاسون آلام الفاقة والحرمان فى بيئتهم الفقيرة ، ففر اليهم سنة ٤٧٤ وأخذ يتجول بهم عدة سنوات فى أقاليم البلقان (٢) . واخيرا رأى الامبراطور زينون أن خير وسيلة ينقذ بها أقاليم الدولة الشرقية من عبث القوط الشرقيين هى أن يلهيهم بايطاليا ، فألقاها لهم لقمة سائغة سنة ٤٨٨ . وكان أن نفذ القوط الشرقيون الى ايطاليا سنة ٤٨٩ فأنزلوا عدة هزائم بأودواكر عند ايسونزو Isonzo وفيرونا ، حتى اعتصم أودواكر برافنا فحاصره القوط الشرقيون حتى استسلم سنة ٤٩٣ . ولم يلبث أن دخل ثيودريك رافنا ليقتل أودواكر ويصبح سيد ايطاليا (٣) ، والواقع أن ثيودريك كان من الوجهة القانونية نائبا عن امبراطور الدولة الشرقية فى ايطاليا ، حتى أنه سك اسم الامبراطور البيزنطى على العملة (٤) ، ولكنه أصبح من الناحية العملية ملكا مستقلا على مملكة القوط الشرقيين التى شملت ايطاليا وصقلية وغيرها من الأقاليم المجاورة مثل بانونيا ودلماشيا والبريا وبروفانس ، فى حين ظلت كورسيكا وسردينيا فى أيدى الوندال .

وقد اتخذت غزوة القوط الشرقيين لايطاليا شكل هجرة عامة ، اذ اصطحبوا

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 115.

(2) Deanesly : op. cit. p. 35.

(3) Eyre : op. cit. p. 25.

(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

معهم نساءهم وماشيتهم(١) . أما زعيمهم ثيودريك فكان أعظم شخصية سياسية في عصره ، بل انه يكاد يكون الشخص الوحيد المعاصر الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمة والوسطى . ذلك أنه دخل الامبراطورية صديقا لا عدوا ، كما أراد أن يعتبره المعاصرون حاكما رومانيا لا زعيما بربريا . ويكفى أن ايطاليا تمتعت في عهده بحكومة قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية (٢) . من ذلك أن ثيودريك العظيم لم يدخل سوى تعديلات قليلة نسبيا في النظم القائمة بايطاليا ، وذلك فى خلال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٨٩ حتى سنة ٥٢٦ ، فاتخذ قصره في رافنا مركزا لحكومة بيروقراطية تشبه في طابعها النظام الامبراطورى القديم ، كما احتفظ بالسناتو والوظائف العمومية والنظام الادارى والمدارس ، فضلا عن أنه أبقى ملكية الأرض الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى . واذا كان القوط الشرقيون قد احتفظوا لأنفسهم من الناحية الشكلية بقوانينهم الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى حتى أنها لم تلبث أن فقدت طابعها الأصلى بعد عدة أجيال (٤) . أما الوظائف المدنية الكبرى في الدولة فان ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الايطاليين الكفاة لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الامبراطورية الرومانية في سابق مجدها . ومن أمثلة الرجال الذين استعان بهم ثيودريك كاسيدورس Cassiodorus وانوديوس Ennodius وسناريوس Senarius وأجابيتوس Agapitus وبيوثيوس Boethius وغيرهم (٥) . كذلك خالف ثيودريك بقية الجرمان فى أنه حافظ على المبدأ الرومانى القديم الخاص بالفصل بين الوظائف المدنية والحربية ، الأمر الذى زاد من الحقد المتبادل

---

(1) Eyre : op. cit, p. 25.
(2) Idem : pp. 25-27.
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 241.
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 22-24.
(5) Eyre : op. cit. p. 6.

بين الموظفين المدنيين الرومانيين وقادة القوط العسكريين .

وعلى الرغم مما عرف عن ثيودريك العظيم من تسامح ورغبة صادقة في التوفيق بين أهالى ايطاليا الاثناسيوسيين والقوط الاريوسيين ، الا أن الخلاف المذهبى ظل يحول دون حسن التفاهم بين الطرفين . حقيقة ان ثيودريك عنى بالمحافظة على آثار الحضارة الرومانية ، فضلا عن عنايته بجمع القوانين الرومانية معتمدا على مجموعة ثيودسيوس ، مما جعل من ثيودريك العظيم أحد بناة الحضارة فى أوائل العصور الوسطى (١) . ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا البناء الكبير الذى أجهد ثيودريك نفسه فى اقامتـــه كان لا يمكن أن يدوم أو يستمر طويلا . فالقوط الشرقيون الذين لم يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا أقاموا وسط مجتمع كبير من أهالى ايطـــاليا الأصليين الذين زاد عددهم عندئذ على تسعة ملايين . هذا فضلا عن أن القوط الشرقيين قطعوا صلتهم بصميم الوطن الجرمانى فيمـــا وراء الدانوب والراين - بعكس الحال مع الفرنجة - مما ترتب عليه انقطـــاع الشريان الرئيسى الذى يحيى فيهم روحهم ويذكرهم بأصولهم ومبادئهم الجرمانية (٢) لذلك نجد أنه على الرغم من نفوذ ثيودريك الواسع وعظمة بلاطه فى فيرونا أو رافنا ، وتسامحه الدينى والسياسى ، ورعايته للآداب والفنون ، وحرصه على اقامة كثير من الجسور والطرق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة ، الا أن البناء الذى أقامه لم يكن قوى الأساس وبالتالى لم يقدر له البقاء طويلا (٣). ذلك أن ذكرى روما القديمة ، وموقف الامبراطورية البيزنطية التى استعادت سطوتها على عهد جستنيان ، والخلافات المذهبية بين القوط الشرقيين وأهالى ايطاليا الأصليين ، كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتقضى على أمـــل ثيودريك فى اقامة ملكية قوطية ثابتة الأركان فى ايطاليا . وقد اتضحت هذه

(1) *Idem* : op. 27.
(2) Thompson : op. cit. Vol, p. 118.
(3) Lot & Pfister, Ganshof : op. cit. pp. 113-116.

الحقيقة المؤلمة لثيودريك في أواخر أيامه لا سيما عندما قام جستين الأول - امبراطور الدولة البيزنطية (٥١٨ - ٥٢٧) بحركة اضطهاد واسعة ضد الاريوسيين أدت الى تعذيبهم ومصادرة كنائسهم ، الأمر الذى جعل ثيودريك يرسل بعثة برياسة البابا حنا الأول سنة ٥٢٥ الى الامبراطور البيزنطى للعدول عن سياسته (١) . ويبدو أن فشل هذه البعثة في تحقيق أغراضها جعل ثيودريك يتشكك في جميع من حوله ، حتى قام بحركة اضطهاد مماثلة ضد الكنسية الكاثوليكية فى ايطاليا . ولم ينج من هذه الموجة الجارفة الفيلسوف بوثيوس الذى أعدم بلا ذنب سنة ٥٢٥ ثم لحق به فى السجن البابا حنا الأول فى العام التالى . وأخيرا لم يلبث ثيودريك نفسه أن مات فى العام نفسه (٥٢٦) بعد أن سلم جميع الكنائس الكاثوليكية فى ايطاليا للأريوسيين (٢) .

ولم تكد تمضى سنوات قليلة على وفاة ثيودريك حتى أرسل جستنيان - امبراطور الدولة الشرقية - جيشا الى ايطاليا سنة ٥٣٦ لاستردادها من القوط واعادتها الى أحضان الامبراطورية . وعلى الرغم من مقاومة القوط الباسلة الا أن قوتهم انهارت بعد سنوات قليلة (٥٥٢) وبذلك اختفى القوط الشرقيون كأمة قائمة بذاتها من صفحة التاريخ (٣) .

الانجلز وبريطانيا :

صورت لنا الحوادث السابقة الخاصة بتسلسل الغزوات الجرمانية كيف تفككت الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس بعد أن استولى الجرمان على غاليا وأسبانيا وافريقية وأقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة . أما بريطانيا التى أشرنا الى أن الفرق الرومانية انسحبت منها فى أوائل القرن الخامس (٤)

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 454.
(2) Deanealy : op. cit pp. 43-44.
(3) Cam. Med Hist, Vol, 2, p. 18.
(4) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 72-73.

فلم تلبث الأحداث التى تلاحقت عليها فى المائة والخمسين سنة التـــالية أن جعلتها تتوارى تماما من فوق مسرح التاريخ ، حتى اذا ما ظهرت على المسرح مرة أخرى كانت قد اتخذت صبغة جديدة وأصبحت انجلترا لا بريطانيا .

ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطىء بحر الشمال وفى شبه جزيرة جتلاند - مثل الأنجلز والسكسون والجوت - أخذت تواصل اغاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع (١) . وقد جـــددت هذه العناصر اغاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية سنة ٤٤٢ ، ولكنهم أغاروا فى هذه المرة على بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم بقصد الاقامة ، حتى تم لهم - عند نهاية القرن السادس - اجتياح معظم البلاد المعروفة حديثا باسم انجلترا ، ماعدا اقليم كورنوول فى الجنوب الغربى (٢) . ولكن اذا كان أمر الجرمان فى صلب القارة قد انتهى باستقرارهم نهائيا وســـط الشعب الرومانى المغلوب على أمره ، والتأثر بأوضاع هذا الشعب من النواحى اللغوية والدينية والحضارية ، الا أن الموقف اختلف فى بريطانيا حيث طرد الغزاة أمامهم أهالى البلاد الأصليين من الكلت ، مما جعل المسيحية تختفى مؤقتا من البلاد .

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم ، وانما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع Heptarchy (٣) ، وهى مملكة كنت التى تألفت من الجوت ، وممالك اسكس Essex وســـكس Sussex ، ووسكس Wessex التى كان أهلها من السكسون ، ثم ممالك انجليا الشرقية ومرسيا Mercia ونورثمبرلاند ، وكان أهلها من الأنجلز . وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبرت ملك كنت (٥٦٠ - ٦١٦) أن يفرض سيادته عليها جميعا . وكان هذا الملك قد تزوج برتا Bertha - وهى أميرة فرنجيــة مسيحية -

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 378-381.
(2) Hadgkin : The Hist of England. p. 108.
(3) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 95.

فى الوقت الذى وصل انجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجورى العظيم • وكان وصول أوغسطين الى كنت سنة ٥٩٧ واعتناق ملكها أثلبرت المسيحية بشيرا بازدياد عدد البعثات التبشيرية من جهة وسرعة انتشار المسيحية فى انجلترا من جهة أخرى ، الأمر الذى أدى الى خروج أهالى بريطانيا عن عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية(١)• وهنا نلاحظ أن دخول بريطانيا دائرة الكنيسة الغربية عوض جزءا من الخسارة التى أصابت هذه الكنيسة فيما بعد باستيلاء المسلمين على أسبانيا • هذا الى أن البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة فى انجلترا ، فظل الانجلوسكسون لا يعرفون شيئا عن الكنيسة الشرقية أو عن الامبراطورية وصاروا أينما ولوا وجوههم لا يجدون أمامهم سوى روما والبابوية (٢) •

والواقع ان القديس أوغسطين ـ الذى اصبح أول أساقفة كانتربورى (٥٩٧ ـ ٦٠٥) لم يصادف صعوبة فى نشر المسيحية فى كنت ، ولكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا فى بقية أنحاء الجزيرة • وعلى الرغم من ذلك فان المسيحية أخذت تتقدم تقدما حثيثا فى تلك البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها • حقيقة أن الكنيسة فى انجلترا صادفت عدة صعاب اعترضت سبيل تنظيمها وربطها بالبابوية ، ولكنها استطاعت أن تتخطى هذه الصعاب فى القرن السابع مما أتاح لانجلترا نصيبا عن تراث الحضارة الكلاسيكية • ومن أبرز أساقفة كانتربورى فى هذا القرن ثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus (٦٦٩ ـ ٦٩٠) الذى نظم الأسقفيات فى انجلترا وزاد منها ، كما جعل من يورك كرسيا لرئيس أساقفة ، وعقد اولى المجامع الدينية التى عرفتها الكنيسة الانجليزية (٣) • وهكذا ليست هنالك مبالغة فيما يصر عليه بعض الكتاب من اعتبار ثيودور هذا مؤسس الأمة الانجليزية التى كانت حتى ذلك الوقت

---

(1) Idem. p. 96.
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 303-304.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 540.

مفتتة الى قبائل صغيرة ، كما اعتبروه واضع دعائم الحياة العلمية فى انجلترا وهى الحياة التى بلغت ذروتها على عصر بدة Bede (٦٧٥ - ٧٣٥) (١).

أما فى الجانب السياسى فقد ظلت انجلترا تعانى الكثير بسبب الانقسامات وعدم الوحدة حتى استطاع اجبرت Egbert ملك وسكس (٨٠٢ - ٨٣٩) أن يغزو الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة سنة ٨١٥ ، وأن يهزم مرسيا سنة ٨١٩ وبذلك اصبح سيد انجلترا وصارت وسكس أكبر قوة سياسية عندما بدأت تشتد اغارات الفيكنج فى القرن التاسع (٢) .

* * *

وبعد ، فطه من الواضح الآن أن الغزوات التى قام بها البرابرة - من جرمان وغير جرمان - تركت أثرا واضحا فى المجتمع الرومانى . ذلك أن هذه الغزوات أدت الى تحطيم الامبراطورية الرومانية فى الغرب وضياع معظم أقاليمها غنيمة فى أيدى الغزاة . حقيقة ان جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ - ٥٦٥) بذل جهدا كبيرا فى استرداد هذه الأقاليم التى فقدتها الامبراطورية الرومانية فى شمال أفريقية وايطاليا واسبانيا ، ولكن نجاحه كان مؤقتا سريع الزوال (٣) . أما فى الناحية الاقتصادية ، فقد رأينا أن الامبراطورية الرومانية كانت تشكو أعراض التدهور الاقتصادى قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها ، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة لأن التدمير الشامل الذى نتج عنها وما صحبها من حروب بين الغزاة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية أدت الى توقف التجارة والزراعة والصناعة بل الى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام . ولا شك فى أن الأثر النفسى الذى تركته غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية الغربية فى نفوس المعاصرين كان عظيما حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم(٤).

---

(1) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 195-209.
(2) Idem : pp. 263-265.
(3) Eyre : op. cit. pp. 31-32.
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 36.

واذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحى الحياة فى الامبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار فى ظل التطورات الجديدة ، فانها كانت الكنيسة الكاثوليكية التى احترمها الجرمان ولم يمسوها بسوء حتى ازدادت فى ذلك العصر قوة ونفوذا . والواقع أن الأخطار التى ألمت بالعالم الرومانى من جهة ، وسقوط الامبراطورية الغربية من جهة أخرى ، جعلت الكنيسة الغربية تبدو فى صورة القوة الوحيدة التى يمكنها انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث الماضى ، كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التى أحاطت بهم (١) .

---

(1) Painter : op. cit, p. 28.

الباب الخامس

الامبراطورية البيزنطية

(٣٣٠ - ٨٠٢)

ان المتتبع لتاريخ أوربا فى العصور الوسطى تواجهه حقيقة هامة تسترعى الانتباه ، هى أنه اذا كانت الامبراطورية الرومانية الكبرى قد انقسمت الى قسمين شرقى وغربى فى أواخر القرن الرابع ، فان القسم الشرقى أو البيزنطى قدر له البقاء والاستمرار فى حين لم تلبث الامبراطورية الغربية أن سقطت قبل أن يمضى قرن على هذا التقسيم (١) • فاذا حاول الباحث تعليل هذه الظاهرة فانه لن يجد سببا معقولا لهذا التفاوت الكبير فى العمر بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية سوى أن الأولى لم تتأثر بشكل خطير بالغزوات الجرمانية فى الوقت الذى وقعت الولايات الغربية من الامبراطورية تحت سيطرة الأنجلز والسكسون والبرجنديين والقوط والوندال وغيرهم • حقيقة ان ولايات الامبراطورية الشرقية الواقعة جنوبى الدانوب قاست كثيرا من التدمير بسبب اغارات البرابرة ، ولكن الجرمان لم يستقروا فى القرن الخامس فى هذه الولايات بسبب السياسة التى اتبعها الأباطرة البيزنطيون ، وهى السياسة الخاصة باغراء المغيرين على الاتجاه غربا (٢) • هذا فضلا عما حبت به الطبيعة عاصمة الامبراطورية البيزنطية من مناعة وموقع حصين ، جعلها بعيدة عن منال الأعداء ، وطالما كانت القسطنطينية نفسها رافعة رأسها فالامبراطورية قائمة لم تسقط (٣) •

ومهما يكن من أمر فان تقسيم ثيودسيوس العظيم للامبراطورية سنة ٣٩٥

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, pp. 122-123.
(2) Painter : op. cit. p. 33.
(3) Katz : op, cit. p. 113,

جعل هناك امبراطوريتين احداهما شرقية الطابع والكنيسة يونانية الحضارة واللغة والتراث ، والثانية غربية الطابع ، لاتينية اللغة والحضارة ، كاثوليكية المذهب • والواقع أن تاريخ الامبراطورية البيزنطية ظل تاريخ القسطنطينية بحضارتها الهللينية ، في حين أمسى تاريخ الامبراطورية الغربية في العصور الوسطى مزيجا من حضارة الشعب الروماني والشعوب الجرمانية التي غزت الغرب واستقرت فيه •

وقد خلف الامبراطور ثيودسيوس في حكم الامبراطورية الشرقية ابنه أردكايوس (٣٩٥ - ٤٠٨) ثم ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) • وليست هناك أهمية خاصة لهذه الفترة سوى ما قام به ثيودسيوس الثاني من جمع القانون الروماني وتبويبه ، مما نتج عنه صدور المجموعة التي عرفت بمجموعة ثيودسيوس سنة ٤٣٩ (١) • وترجع أهمية هذا العمل الى أن الشعوب الجرمانية - وبخاصة القوط - تأثرت بمجموعة ثيودسيوس أكثر من تأثرها بأى مصدر روماني آخر ، حتى أصبحت هذه المجموعة أساس التشريع الادارى في كل من أسبانيا وايطاليا •

ويبدو أن الامبراطورية البيزنطية شهدت تقدما ملموسا بعد وفاة ثيودسيوس الثاني سنة ٤٥٠ ، لأن خلفاءه الذين تعاقبوا على عرش الامبراطورية في السبع والسبعين سنة التالية كانوا على درجة كافية من المهارة (٢) • ومن أشهر الأباطرة في هذه الفترة الامبراطور زينون Zeno (٤٧٤ - ٤٩١) الذى خلص الامبراطورية الشرقية من خطر القوط كما ذكرنا ، وكذلك الامبراطور أنسطسيوس (٤٩١ - ٥١٨) الذى استن بعض تشريعات مالية لا تخلو في طابعها العام من التعسف ولكنها نجحت على أى حال في اشباع خزانة الدولة بالمال (٣) • هذا فضلا عن أنه حصن حدود الدولة على امتداد جبهة الشام باقامة عدد كبير من القلاع كما دعم تحصينات القسطنطينية وجبهة

---

(1) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental, p. 10.
(2) Stephenson : op. cit, p. 67.
(3) Ostrogorsky : op. cit, p, 60.

الدانوب ، وحارب الفرس (١) . ثم كان أن أدت وفاة أنسطسيوس سنة ٥١٨ دون وريث الى شيء من عدم الاستقرار ، انتهى بقيام جستين الأول فى الحكم (٥١٨ - ٥٢٧) بعد أن كان يشغل وظيفة قائد الحرس الامبراطورى . وقد تبنى الامبراطور جستين هذا ابن أخته - الـــذى عرف فيما بعد باسم جستنيان - وجعله قائدا للجيش ثم شريكا له فى حكم الامبراطورية (٢) . وأخيرا تولى جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية سنة ٥٢٧ ليبدأ صفحة هامة فى تاريخها .

جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) :

والواقع أن جستنيان كان من أبـــرز الشـــخصيات التى تولت عرش الامبراطورية ، كما استطاع تخليد اسمه فى التاريخ بفضل الأعمال الواسعة التى قام بها فى الداخل والخارج . والى جانب جستنيان يحفظ لنا التاريخ اسم زوجته الامبراطورة ثيودورا التى لعبت دورا هاما فى حياة زوجها ، حتى أن الفضل يرجع اليها فى انقاذه من السقوط عندما شبت ثورة خطيرة فى القسطنطينية سنة ٥٣٢ وهم الامبراطور بالفرار ، ولولا تشجيع ثيودورا وحثها له على الثبات (٣) .

وكانت الامبراطورية الرومانية تمر بمحنة قاسية عندما اعتلى جســتنيان عرشها ، اذ انتزع الجرمان معظم ولاياتها فى الغرب فى حين أخذ خطر الفرس يتفاقم فى الشرق مرة أخرى ، ولا سيما عندما تولى حكمهم كسرى الأول أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩) أعظم ملوك بنى ساسان . أما عن السياسة الحربية التى اتبعها جستنيان لدفع هذه الأخطار فيمكن تلخيصها فى أنها قامت على أساس الدفاع فى الشرق والهجوم فى الغرب / ذلك أن جستنيان لم يستنكف من شراء مسالمة الفرس بالمال فى سبيل محاولة استرداد الامبراطورية التى انتزعها الجرمان فى الغرب حتى تعود الامبراطورية الرومانية كما كانت قديما

(1) Bury : op. cit. Vol. 2, pp. 10-15.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1. p. 2
(3) Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin, Tome 1. pp. 172-173.

وحدة متماسكة ويعود البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة أخـــرى(١) .
وهنا نلاحظ أن بعض المؤرخين انتقدوا جستنيان لأنه ضحى بكثير من الدماء والأموال فى حروبه بالغرب ضد الجرمان ، فى الوقت الذى كان هـــؤلاء الجرمان - باستثناء الوندال - لا يؤذون الامبراطورية أو يهددونها . ويرى هؤلاء الناقدون أنه كان أحرى بجستنيان أن يوجه كل جهوده الحربية ضد الفرس حيث كان يكمن الخطر الحقيقى على الدولة البيزنطية . ولكننا يجب أن ندرك أنه لو فعل جستنيان ذلك وتغاضى عن أمر الغرب موجها كل جهوده نحو الشرق ، لأدت هذه السياسة الى تخليه عن تراث الامبراطـــورية الرومانية وروحها(٢) . فسياسة جستنيان الحربية حافظت على العلاقات بين الدولة البيزنطية من جهة والعالم الرومانى الغربى من جهة أخرى ، وحالت دون جعل هذه الامبراطورية قوة شرقية بحتة ، الأمر الذى دفـــع بعض المؤرخين الى اعتباره آخر امبراطور « رومانى » بمعنى الكلمة ، أو الوحيـــد الذى يستحق لقب امبراطور رومانى بعد دقلديانوس وقسطنطين وجوليان وفالنشيان وثيودسيوس(٣) .

وقد بدأ جستنيان بحرب قصـــيرة ضد الفرس (٥٢٧ - ٥٣٢) انتهت بصلح سريع بين الطرفين سنة ٥٣٢ ، وبذلك اطمأن الامبراطور من جهـــة الجبهة الشرقية وأخذ يحول قواته ضد الغرب(٤) . وقبل أن نعالج حروب جستنيان فى الغرب يصح أن نشير الى أن حسن الحظ هيأ له قائدين ماهرين هما بلزاريوس ونارسيس ، اللذان يرجع اليهما الفضل فى الإنتصـــارات العظيمة التى أحرزتها الجيوش البيزنطية على عهد جستنيان(٥) . وكـــانت القوة الحربية للامبراطورية البيزنطية على عهد جستنيان تبلغ مائة وعشرين ألف رجل ، وان كان عدد المقاتلين الذين اشتركوا فى أية موقعة لم يتجاوز

---

(1) Stephenson : op. cit. p. 107.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 186-187.
(3) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 162.
(4) Lot & Pfister & Ganshof; op. cit. p. 131.
(5) Bury : op. cit. Vol, 2, pp. 79-88.
(6) Painter : op. cit. p. 33.

خمسة وعشرين ألفا . على أن عدد أفراد هذه القوة لا يهمنا - من ناحية الأثر - بقدر ما يهمنا أن هذه القوة كانت مؤلفة من الخيالة الثقيلة Cataphracti المزودين بالسهام والسيوف والحراب ، فضلا عن الدروع الحديدية السميكة(١) . والواقع أن اتباع هذا الأسلوب فى الحرب يعتبر ثورة فى التاريخ الحربى لأوربا فى العصور الوسطى(٢) . أما فيما يتعلق بمشروعات جستنيان الحربية بالذات ، فانه لم يكن فى استطاعة أى ملك من ملوك الجرمان فى الغرب أن يصمد فى وجه هذا النوع من الخيالة الثقيلة ، مما مكن جستنيان من الحصول على انتصارات سريعة فى الحروب التى قام بها لاسترداد أراضى الامبراطورية المفقودة فى الغرب .

وكانت أولى حروب جستنيان فى الغرب ضد الوندال ، الذين اغتصبوا ولاية شمال افريقية - كما سبق أن ذكرنا - وأسسوا فيها مملكة خاصة بهم . وكان الوندال قد اعتراهم الذبول والفتور فى وطنهم الجديد نتيجة لأثر الجو الافريقى الذى لم يعتادوه من جهة ، ولاختلاطهم مع أهالى البلاد الأصليين من جهة أخرى(٣) . لذلك لم يتمكن الوندال من اقامة بناء حضارى فى افريقية ، وانما أقاموا دولة اعتمدت على السلب والنهب وأعمال القرصنة فى البحر المتوسط ، مما جعل حملة جستنيان ضدهم تصادف توفيقا كبيرا . وقد أتيحت الفرصة لتدخل جستنيان عندما استنجد به فريق من الوندال سنة ٥٣١ أثناء المنازعات الداخلية التى عمت دولتهم عندئذ (٤) . لذلك لم يكد جستنيان يفرغ من الحرب الفارسية سنة ٥٣٢ حتى عهد الى قائده بلزاريوس بغزو ولاية افريقية بعد أن زوده بقوة لم تتجاوز ستة عشر ألفا من المحاربين حملتهم خمسمائة سفينة . وشاء حسن حظ بلزاريوس عندئذ أن جليمار Gelimar - مغتصب عرش الوندال - كان قد أرسل أسطوله وجزءا من جيشه لاخماد ثورة فى جزيرة سردينيا ، مما مكن بلزاريوس من الوصول بسلام الى شاطىء

---

(1) Cam, Med, Hist, Vol, 2, p. 11.
(2) Stephenson : op. cit. pp. 107-108.
(3) Thompson : op. cit, Vol, 1. 127.
(4) Bury : op. cit. Vol, 2, p. 126.

أفريقية حيث أنزل قواته الى البر وأخذ يزحف فورا على قرطاجـــة سنة ٥٣٣(١) • وقد تمكن بلزاريوس من تحطيم قوة الوندال بعد أن أنزل بهم الهزيمة فى موقعتين ، وذلك بفضل مساعدة أهالى البلاد الأصليين من العنصر الرومانى الكاثوليكى • وهكذا لم يمض على وصول القوات البيزنطيـــة الى أراضى ولاية أفريقية ستة أشهر الا وكانت دولة الوندال قد دالت واختفت الى حيث لا رجعة ، من صفحة التاريخ • وسرعان ما عادت الادارة الرومانية الى شمال أفريقية وعاد الرومان الى تملك الأراضى التى سبق أن اغتصبها منهم الوندال ، فى حين حمل قادة الوندال وزعماؤهم الى القسطنطينية ليصبحوا عبيدا(٢) • واذا كانت حكومة جستنيان قد أخـــذت تعمل فى سرعة على ازالة كل أثر تركه الوندال فى شمال افريقية ، الا أن البربر ـ الذين ظلوا فى حالة ثورة منذ الفتح الرومانى ضد أى حكم أجنبى ـ أثاروا عقبة قوية فى سبيل الادارة البيزنطية ، بحيث لم يتم اخضاعهم الا بعد سقوط دولة الوندال باثنتى عشرة سنة ، وان ظل مركز البيزنطيين ضعيفا بعد ذلك (٣) •

ولم يكد الامبراطور جستنيان يفرغ من أمر شمال افريقية حتى بدأ يوجه نظره نحو ايطاليا التى اغتصبها القوط الشرقيون • وقد بدأ جستنيان بأن طلب من القوط عدة مطالب باهظة أهمها دفع جزية سنوية ضخمة ، وتقديم ثلاث آلاف من الرجال القوط للعمل فى جيوش الامبراطورية ، وتحرير الكنيسة من سيطرة القوط ، هذا فضلا عن اعتراف القوط بحق الامبراطـــورية فى السيادة العليا على ايطاليا • ولم ينتظر جستنيان نتيجة المفاوضات الدائرة بينه وبين القوط الشرقيين حول المطالب السابقة ، وانما انتهز فرصة مقتل صاحب الحق الشرعى فى عرشهم للتدخل فى شئونهم الداخلية ، فتقدم جزء من الجيوش الامبراطورية الى ايطاليا عن طريق دالماشيا ، فى حين قام جزء آخر باحتلال صقلية تحت قيادة بلزاريوس(٤) •

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, pp. 258-259.
(2) Cam Med. Hist. Vol, 2, p. 13.
(3) Stephenson : op. cit. p. 109
(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 260.

وفي سنة ٥٣٦ عبر بلزاريوس البحر من صقلية الى ايطاليا فاستولى على نابلى ثم روما دون أن يشتبك مع القوط الشرقيين فى معركة فاصلة(١) • وقد ظن جستنيان أن أمر ايطاليا والقوط انتهى بهذه السهولة عند ذلك الحد ، فاستدعى قائده بلزاريوس ، فى الوقت الذى أعاد القوط توحيد صفوفهم تحت زعامة توتيلا Totila وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على ايطاليا بأكملها مرة أخرى ، فضلا عن صقلية وسردينيا وكورسيكا • وهكذا تطلبت الظروف أن يعود بلزاريوس الى المسرح الايطالى مرة أخرى ، ولكن يبدو أن الجيوش البيزنطية لم تكن كافية للقيام بعمل حربى واسع ، وذلك بسبب تجـــدد الحرب بين الامبراطورية والفرس من جهة ، ولحاجة الامبراطـــورية الى الاحتفاظ ببعض قواتها فى شمال أفريقية من جهة ثانية ، هذا فضلا عن انتشار الوباء فى القسطنطينية نفسها من جهة ثالثة(٢) • وقد رفض القوط الشرقيون الاستسلام فى سهولة ، فاستمرت الحرب فى ايطاليا سنوات طويلة ، أظهر فيها القوط عنادا شديدا ، على الرغم من الهزائم المتلاحقة التى حلت بهم • وأخيرا حـــل نارسيس Narses محل بلزاريوس فى قيادة الجيوش الامبراطورية فى ايطاليا ، فانهارت أمامه قوة القوط الشرقيين نهائيا سنة ٥٥٢ عنـــدما أنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة تادينوى Tadinoe وقتل آخـــر ملوكهم توتيلا(٣) • وكان أن أرسلت بقايا القوط الى نارسيس يعترفون بأن الله لم يكن فى جانبهم وأنهم مستعدون للتسليم نهائيا على أن يسمح لهم بمغادرة ايطاليا ليعيشوا فى أى بلد آخر من بلاد البرابرة ، فوافق نارسيس على هذا العرض سنة ٥٥٣ • وهكذا انسحب القوط الشرقيون من ايطاليا حيث اختفوا بعد ذلك نتيجة اندماجهم فى بعض الشعوب البربرية الأخرى مثل الجبيداى أو السلاف ، وبذلك انتهى دورهم على مسرح التاريخ(٤) • وهنا نلاحظ أن هذه الحرب لم تكد تنتهى حتى كانت ايطاليا فى حالة يرثى لها بسبب الخراب

---

(1) Hodgkin : Italy and Her, Invaders, Vol. 4. 41-84
(2) Idem : p. 444.
(3) Lot : The End of the Ancient World, pp. 262-263.
(4) Hodgkin : Italy and Her Invaders, Vol, 4, pp.

المادى والانحلال الاجتماعى والضعف الاقتصادى وقلة السكان نتيجة للحروب وانتشار المجاعات والأوبئة ، حتى أخذت قطعان الذئاب تهاجم المدن بعد أن وجدت الريف أمامها مجدبا • وقد لجأ بعض أهالى المدن فى الشمال الشرقى مثل بادوا وأكويليا وغيرهما الى الفرار عندئذ نحو الأراضى الضحلة الواقعة على قمة البحر الأدرياتى ، وهى الجهة التى أصبحت ملاذا للكثيرين منذ غزوات ألرك وأتيلا ، مما يعتبر نواة لنشأة مدينة البندقية(١) •

وبعد أن فرغ جستنيان من أمر ايطاليا ، أخذ يوجه جهوده نحو استرداد أسبانيا من القوط الغربيين ، وذلك اتماما لمشروعه الخاص باعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية • وعلى الرغم من أن دولة القوط الغربيين أضحت فى حالة يرثى لها بعد هزيمة ملكها ألرك الثانى أمام كلوفس سنة ٥٠٨(٢) ، الا أنه يبدو أن طبيعة البلاد الأسبانية من جهة ، وانشغال جستنيان بنواحى أخرى من جهة ثانية ، وتماسك القوط الغربيين فى وجه هذا الخطر الجديد من جهة ثالثة ، كل هذه العوامل حالت دون تمكين جيوش الامبراطورية من الاستيلاء على أسبانيا استيلاءا تاما ، فاكتفت سنة ٥٥٤ بالسيطرة على بعض المدن الهامة فى الركن الجنوبى الشرقى مثل أشبيلية ومالقة وقرطاجنة وقرطبة فضلا عن جزائر البليار (٣) •

على أن الكوارث التى حلت بالامبراطورية البيزنطية عندئذ فى الشرق ، أضعفت من بريق انتصارات جستنيان فى الغرب • ذلك أن سياسة هذا الامبراطور أدت الى تعريض مصالح الامبراطورية فى الشرق للخطر بل التضحية بها فى سبيل تحقيق أحلامه الغربية(٤) • فعلى الرغم من أن بلزاريوس أحرز نصرا على الفرس عند دارا سنة ٥٣٠ الا أن جستنيان لم يشأ أن يستغل فرصة هذا النصر لملاحقة الفرس ، وانما فضل أن يدفع جزية لكسرى سنة ٥٣٢ لشراء مسالمته وسكوته(٥) • على أن كسرى أنوشروان لم

(1) Thompson : op. cit. I, p. 130.
(2) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 169-171.
(3) Bury : op. cit. Vol, 2, p. 287.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 187.
(5) Diehl & Marcais : op. cit. p. 69.

يلبث أن جدد الحرب ضد الامبراطورية سنة ٥٤٠ واستولى فيما بين هذه السنة وسنة ٥٥٥ على دارا ، كما اجتاح بلاد الشام واحتلت جيوشه أنطاكية . كل ذلك وجستنيان يطأطيء الرأس للفرس في سبيل اتمام مشروعاته الغربية ، حتى أنه عاد فاشترى الصلح منهم مرتين الأولى سنة ٥٤٥ والثانية سنة ٥٦١ . وكان المال الذى دفعه جستنيان للفرس كان الثمن الذى اشترى به انتصاراته في الغرب(١) .

وفي هذه الأثناء كان على جستنيان أيضا أن يعمل لحماية حدود امبراطوريته في شبه جزيرة البلقان من أخطار جماعات جديدة من البرابرة مثل السلاف والبلغار والآفار(٢) . والواقع أن سلامة البلقان كانت أكثر أهمية للامبراطورية الشرقية من استرداد افريقية وايطاليا وأسبانيا ، كما كانت لا تقل أهمية عن حرب الفرس بالنسبة لمستقبل الامبراطورية وحماية حدودها . لذلك أقام جستنيان سلسلة من القلاع يبلغ عددها ثمانين ، امتدت من مصب الساف حتى الدانوب ، كما أقام خطا آخر من التحصينات خلال ابيروس وتساليا وتراقيا ومقدونيا(٣) . أما في آسيا فقد حصن الحدود من طرابيزون حتى الفرات ، كما وحد بعض الأقاليم الشرقية في آسيا الصغرى توحيدا اداريا مثل بونطس Pontus وبافلاجونيا Paphlagonia وأرمينيا وكابادوكيا وجلاتيا Glatia ، فأصبحت جميعا خاضعة لحاكم واحد يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . ومن الواضح أن الغرض من هذا الاجراء كان تحقيق الترابط بين أجزاء آسيا الصغرى من جهة ، وضمان الاتصال المباشر مع بلاد الشام من جهة أخرى(٤) .

على أنه اذا كانت أعمال جستنيان الحربية لم تعش طويلا لتخلد اسمه بعد وفاته فان أعماله السلمية كانت من العظمة والأهمية بحيث ضمنت لجستنيان الخلود بين عظماء التاريخ (٥) . وعلى رأس هذه الأعمال جميعا تأتي مجموعة

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 270.
(2) Ostrogorsky : op. cit, p. 66.
(3) Bury : op. cit. Vol, 2, pp. 308-310.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 2, pp. 38-39.
(5) Fliche : La Chritiente, : p. 50.

القوانين Corpus Juris التى تمت تحت اشراف جستنيان وبفضل تشجيعه ، مما جعلها ترتبط باسمه على مر العصور • ذلك أن الامبراطور جمع نخبة من كبار رجال القانون تحت رآسة تريبونيان وكلفهم جمع القوانين الرومانية وتبويبها بعد أن أصبحت مهددة بالاندثار والضياع(١) • وبعد مرور أربعة عشر شهرا من الجهد المتواصل أصدرت هذه اللجنة سنة ٥٢٩ مجموعة الدساتير الامبراطورية التى نسبت الى جستنيان Codex Justinianus ، وهى تشمل جميع الدساتير والمراسيم التى أصدرها الأباطرة فضلا عن تشريعات السناتو(٢) • وفى سنة ٥٣٣ صدر موجز يحوى المبادىء الأساسية للتشريع الرومانى حتى يكون مرجعا لطلاب القانون • وبعد ذلك بأيـام ـ فى نفس السنة السابقة ـ صدرت الموسوعة Digesta التى تقع فى خمسين كتابا ينقسم كل منها الى فقرات ، على رأس كل فقرة بيان يتضمن اسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب والموضوع(٣) • أما بقية تشريعات جستنيان الخاصة فكانت تصدر بين حين وآخر تباعا ، وأطلـق عليها المتجدادت Novellae Constitiones ، وقد نشرت جميعها باليونانية سنة ٥٦٥(٤) •

أما سياسة جستنيان الدينية فكانت ترمى الى السيطرة على شئون الدولة والكنيسة جميعا ، بحيث يصبح جستنيان بمثابة أمبراطور وبابا شرقى فى نفس الوقت • ويبدو أن جهود جستنيان اتجهت نحو توحيد جميع رعايا العـالم الرومانى فى ظل كنيسة واحدة يسيطر هو عليها • ولما كان تحقيق هذه الغاية يتطلب القضاء على الوثنيين والهراطقة قضاءا تاما ، فان جستنيان تمسك بالمراسيم التى أصدرها أسلافه فى هذه الشأن ، كما أقصى عن مهنة التدريس كل من يدين بتعاليم الهيللينية وفلسفتها(٥) • وهكذا أغلقت مدارس أثينا الفلسفية ذات الماضى المجيد الذى يرجع الى القرن الرابع قبل الميلاد ، كما روعى أن

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, pp. 187-189.
(2) Bury : op. cit. Vol, 2, pp. 397-398.
(3) Cam. Med. Hist, Vol, 2, pp, 59-60.
(4) Eyre : op. cit. pp. 40-42
(5) Bury : op. cit. Vol, 2, pp. 364-372.

يكون الأساتذة فى القسطنطينية وغيرها من أنحاء الامبراطورية بعيدين عن الشبهات الفكرية • أما اليهود فقد أبعدوا عن كافة مناصب الدولة ، ومثلهم كل من لم يستطع اثبات صدق عقيدته ، فى حين حرم الهراطقة من كافة الحقوق المدنية فضلا عن العقوبات الرادعة التى تعرضوا لها(١) •

على أن جستنيان لم يستطع أن يتخذ موقفا حازما أو سياسة ثابتة من مشكلة المونوفيزيتية ، وهى المشكلة التى هددت باتساع فجوة الانشقاق الدينى بين روما والقسطنطينية منذ الامبراطور زينون ثم الامبراطور أنسطسيوس من بعده ، حتى جاء الامبراطور جستين فعمل على ازالة هذا الشقاق عن طريق العودة الى مراسيم مجمع خلقدونيا (سنة ٤٥١) وموافقة البابوية على رأيها(٢)• وقد أراد جستنيان فى أول الأمر أن يتبع سياسة سلفه جستين فى النزول على رأى البابوية والقول بمذهب الطبيعتين ، وبالتالى تسفيه المونوفيزيتية واضطهاد أتباعها ، لا سيما وأن هذه السياسة تتفق مع مطامع جستنيان فى ايطاليا(٣) • لكن جستنيان لم يستطع المضى فى هذه السياسة لأن زوجته ثيودورا - صاحبة الرأى المسموع لديه - كانت تميل الى المذهب المونوفيزيتى ، مما جعل الامبراطور يتأرجح بين المذهبين • وأخيرا أدى انتصار جستنيان فى ايطاليا الى تشجيعه على اتخاذ رأى حاسم فى الموضوع - هو رأى زوجته ثيودورا طبعا - فاستغل فرصة دخول جيوشه روما ، وحاول فرض رأيه على البابوية والغرب(٤) • وعندما عارضت البابوية هذا الرأى ، قبضت الجنود على البابا فجليوس Vigilius وسيق الى القسطنطينية حيث عقد المجمع المسكونى الخامس سنة ٥٥٣ بحضور الامبراطور ، وانتهى باقرار سياسته الدينية(٥) • ولكن اذا كان جستنيان قد ظن أنه خرج منتصرا من هذه الجولة ،

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, pp. 197-198.
(2) Duchesne : op. cit. pp. 515-518.
(2) Diehl & Marcais ; op. cit. p. 107.
(4) Vasiliev; p. cit. Tome, 1, p. 199.
(1) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, pp. 190-198.

فان الواقع سرعان ما أثبتت أنه زاد من حدة الخلاف بين المذهبين ، اذ شجع موقفه المونوفيزيتيين على اقامة كنيسة منفصلة لا تزال قائمة حتى اليوم ، وتعرف باسم الكنيسة اليعقوبية أو كنيسة اليعاقبة نسبة الى مؤسسها يعقوب برادايوس أسقف الرها فى القرن السادس (١) • أما فى الغرب فان سياسة جستنيان لم تؤد الا الى ازدياد عداء البابوية للامبراطورية الشرقية ، وبالتالى اضعاف نفوذ الأباطرة البيزنطيين فى ايطاليا ، الأمر الذى شجع البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) فيما بعد على اتخاذ موقف صلب حازم من الامبراطورية البيزنطية وسياستها الدينية (٢) • وقد ظل النفور سائدا بين القسطنطينية وروما بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح ، حتى استولى المسلمون فى القرن السابع على الشام ومصر وهى المراكز الرئيسية للمذهب المونوفيزيتى، ومن ثم لم يعد الأباطرة البيزنطيون فى حاجة الى استرضاء أهل الشام ومصر، فعمل الامبراطور قسطنطين الرابع على استرضاء البابا أجاثون Agathon (٦٧٨ - ٦٨١) حتى تم عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية سنة ٦٨١ أصدر قرارا بادانة المونوفيزيتية واعدامها (٣) •

وقد نشطت تجارة القسطنطينية وصناعتها نشاطا كبيرا على عهد جستنيان حتى نافست الاسكندرية بل تفوقت عليها • ذلك أن القسطنطينية أصبحت فى ذلك العصر من أهم مراكز التجارة بين الشرق والغرب ، فكانت ترد اليها من الصين والهند الحراير والأحجار الثمينة والبخور والعطور والتوابل ، ومن روسيا الرقيق الخيل والفراء والجلود والقمح • هذا فى الوقت الذى استمرت أرض البلقان فى انتاج خيراتها المعدنية والنباتية ، كما ساد الرخاء ولايات آسيا الصغرى وازداد سكانها (٥) • وكان جستنيان - مثل أسلافه العظام - بناءا كبيرا فأكثر من شق الطرق وبناء الجسور والقصور والمستشفيات والقلاع

---

(1) Stephenson : op. cit. pp. 111-112.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 202
(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 221
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 68-69.

والمسارح والحمامات • وعلى رأس هذه المنشآت جميعا تأتى كنيسة أيا صوفيا بفنها الرائع وقبتها الفريدة ، مما جعلها من أعظم التحف الفنية الخالدة التى خلفتها العصور الوسطى (١)

الامبراطورية البيزنطية بعد جستنيان :

على أننا اذا تركنا المظاهر السطحية البراقة لذلك العصر ، ألفينا أن شعب جستنيان قاسى الكثير من البؤس والضغط نتيجة لسياسته • ذلك أن حروب هذا الامبراطور الواسعة ومشروعاته الضخمة أجهدت خزانة الدولة وتطلبت زيادة الضرائب ، بحيث أننا لا نبالغ عندما نقرر أن جستنيان ترك الامبراطورية أشد انهاكا مما وجدها عليه (٢) • هذا فضلا عن أن البناء الامبراطورى الذى أجهد جستنيان نفسه فى اقامته سرعان ما أخذ يتداعى ، فلم تمض على وفاته ثلاث سنوات الا كان اللمباrديون قد دخلوا ايطاليا فى حين طرد القـــوط الغربيون القوات الامبراطورية من أسبانيا (٣) • وقد ظهرت أعراض الانهاك الشديد واضحة على الامبراطورية البيزنطية بعد وفاة جستنيان مباشرة سنة ٥٦٥ ، اذ أخذت تتدهور تدهورا سريعا فى الوقت الذى تجـــددت اغارات أعدائها فى عهد جستين الثانى (٥٦٥ – ٥٧٨) وطبريوس (٥٧٨ – ٥٨٢) وموريس (٥٨٢ – ٦٠٢) وفوقاس (٦٠٢ – ٦١٠) •

وأول من يستحق الذكر من هؤلاء الأباطرة هو الامبراطور موريس الذى ركز خطته السياسية فى اقرار السلام مع الفرس وتكريس كل موارد الدولة للاحتفاظ بالبلقان وآسيا الصغرى ، حتى لو أدى بـــه الأمر الى التضحية بايطاليا (٤) • ولهذا الغرض عقد موريس اتفاقية مع الفرس سنة ٥٩٢ ، قضت بضم أرمينيا وجزء من أعالى بلاد النهرين ومدينة دارا الى الامبراطورية

---

(1) Fliche : La Chretiente Med. p, 58.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. p. 56.
(3) Painter : op. cit. p. 34.
(4) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 137.

التى تعهدت بدفع جزية سنوية للفرس (١) . على أنه اذا كانت الامبراطورية قد استطاعت وقف خطر الفرس مؤقتا ، الا أن تفكك امبراطورية المغول فى القرن الخامس سرعان ما فتح الطريق أمام شعب آسيوى جديد هم الآفار الذين ظلوا حتى ذلك الوقت يرابطون فيما بين الدون والفولجا . وفى الوقت الذى كن موريس مشغولا بحربه المستمرة ضد الفرس التى استمرت حتى سنة ٥٩٢ ، اذا بالسلاف والآفار يستغلون الفرصـــة ويتوغلون داخــل تراقيا ومقدونيا (٢) . لذلك لم يكد موريس يفرغ من عقد الصلح مع الفرس فى هذه السنة السابقة ، حتى نقل كل قواته الى جبهة الدانوب ضد الآفار (٣). وقد أحرز موريس نجاحا كبيرا فى أول الأمر ، اذ سيطرت جيوشه سنة ٦٠٢ على جبهة الدانوب بل تقدمت الى ما وراء هذا النهر . وهنا أصدر الامبراطور أوامره بأن تقضى جيوشه فصل الشتاء على الحدود الشمالية بدلا من العودة الى العاصمة ، الأمر الذى أدى الى ثورة الجند فزحفوا على العاصمة وأسقطوا الحكومة وقتلوا الامبراطور موريش نفسه ، فى حين أعلن فوقاس - زعيم الانقلاب - نفسه امبراطورا (٤) .

ولكن يبدو أن هذا الانقلاب كان وخيم العواقب بالنسبة للامبراطورية ، لأن الامبراطور الجديد أخفق فى الحصول على رضاء الرأى العام ، فى الوقت الذى ظهر عجزه عن حماية حدود الامبراطورية . ولم يكد فوقاس يعتلى العرش حتى عجل الفرس بشن الحرب من جديد فاستولوا على دارا واخترقوا آسيا الصغرى حتى وصلوا الى خلقدونيا على البسفور فحاصروها ، هذا فى الوقت الذى اشتد ضغط الآفار على الجبهة البلقانية (٥) . وكان فوقاس أضعف من أن يواجه الموقف فى شجاعة ، فلجأ سنة ٦٠٤ الى شراء مسالمة

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, p. 223.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 130-133.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 280.
(4) Stephenson : op. cit. pp. 115-116
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p, 285

الآفار عن طريق رفع قيمة الجزية التى تدفعها لهم الامبراطورية • ولكن هذه المحاولة لم توقف تيار الآفار والسلاف فاجتاحوا شبه جزيرة البلقـــان بأكملها حتى بدت الامبراطورية على شفاهلوية سحيقة (١) • وفى هذا الموقف أخذ فوقاس يتشكك فى كل من حوله بالقسطنطينية فبدأ موجة من الارهاب وسفك الدماء جعلت كل أحد من أشد المقربين اليه لا يأمن عاقبة غدره • وفى وسط هذا الجو المشحون بالأخطار الخارجية والمخاوف الداخلية تخلى خيرة قادة الجيش البيزنطى عن العمل فى خدمة ذلك الامبراطور الضعيف ، بل ان بعضهم اتصل سرا بالفرس طالبين معونتهم للاطاحة بهذا الطـــاغية المتعطش للدماء • وكان أن انتهى الأمر بتدبير مؤامرة داخلية بالاتفاق مع هرقل حاكم قرطاجة الذى أرسل ابنه ـ المسمى هرقل أيضا ـ فأتى بسفنه ورجاله الى القسطنطينية سنة ٦١٠ حيث تم الانقلاب دون حرب ، فعزل فوقاس وقتل بأيدى وزرائه فى نفس اليوم الذى اعتلى فيه هرقل عرش الامبراطورية (٢) •

هرقل :

على أن هرقل تولى حكم الامبراطورية فى هذه الظروف ليجد نفسه فى مركز لا يحسد عليه حاكم : فالخزانة خاوية ، وولايات الامبراطور تعانى انهاكا شديدا وفوضى شاملة ، وخطر الفرس على الامبراطورية لا يزال قائما بل ازداد وضوحا وعنفا عندما اجتاح الفرس بلاد الشام سنة ٦١٤ واستولوا على بيت المقدس ثم على مصر بعد ذلك بعـــامين (٣) • وهـــكذا أتى على الامبراطورية البيزنطية حين من الدهر فقدت جميع اراضيها الآسيوية ما عدا شريطا ضيقا فى غرب آسيا الصغرى ، فضلا عن ضياع مصر ، وهى المخزن الرئيسى الذى كان يمد الامبراطورية بالقمح حينذاك • أما فى الجبهة الغربية فقد تقدم الآفار جنوبى الدانوب حتى وصلوا بلاد اليونان نفسها ، بحيث لم يبق للامبراطورية سوى القسطنطينية وجزر بحر ايجة وجنوب ايطاليا وولاية

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 78.
(2) Stephenson : op. cit. p. 116
(3) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 143-144.

شمال افريقية حول قرطاجة ، فضلا عن جزء محدود من آسيا الصغرى (١).

وهنا لم يشأ هرقل أن يستسلم لهذه الظروف القاسية وانما قضى اثنتى عشر سنة فى تنظيم الأداة الحكومية ومراقبة حركات أعدائه . وفى هذه الأثناء حصل على المال اللازم من الكنيسة التى أظهرت شعورا طيبا وتضامنا قويا ، فقدمت للامبراطور ما لديها من حلى وذهب وفضة لتصهر وتسبك نقودا ، وعندئذ تيسر لهرقل استئجار الجند اللازمين ، كما أمن ظهره من جانب الآفار فاشترى مسالمتهم مقابل مبلغ كبير من المال (٢) . وأخيرا أبحر هرقل فى ربيع سنة ٦٢٢ الى خليج اسوس - عند الركن الجنوبى لآسيا الصغرى - حيث أنزل هزيمة بالفرس واستعاد منهم كابادوكيا وأرمينيا كما أجبرهم على الانسحاب من آسيا الصغرى (٣) . ولم تمض ثلاث سنوات أخرى حتى كان هرقل قد اضطر الفرس الى الجلاء أيضا عن بلاد الشام ومصر واعادة هذه البلاد الى حظيرة الدولة . ويبدو أن حروب هرقل ضد الفرس فى تلك المرحلة اتخذت طابعا دينيا صليبيا ، اذ أقبل كثير من المسيحيين المخلصين على المشاركة فيها من أجل استرداد الصليب الأعظم أو صليب الصلبوت الذى استولى عليه الفرس عند غزوهم بيت المقدس (٤) . ومهما يكن الأمر فان هذه العوامل مكنت هرقل من انزال ضربة قاصمة بالفرس ، فتقدم سنة ٦٢٦ عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب الامبراطورية الفارسية حيث أنزل بكسرى الثانى (٥٩٠ - ٦٢٨) هزيمة ساحقة فى ديسمبر سنة ٦٢٧ قرب أطلال نينوى . وعندما فر كسرى الثانى من ميدان المعركة لحق به هرقل إلى المدائن عاصمة الفرس ، حتى انتهى الأمر بقيام ثورة فى فارس أطاحت بكسرى

---

(1) Oman : The Dark Ages. pp. 204-205.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 260.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 293.

(٤) تروى الأساطير أن القديسة هلينا - أم قسطنطين - اكتشفت فى بيت المقدس الصليب الأعظم أو الحقيقى Vraie Croix الذى صلب عليه السيد المسيح . وعلى الرغم من أن بعض أجزاء هذا الصليب نقلت الى روما والقسطنطينية من باب التبرك ، الا أن الجزء الرئيسى منه ظل فى بيت المقدس ، وهو الذى استولى عليه الفرس واسترده هرقل .
انظر : (Vasiliev : op. cit. Tome. p. 1, p. 66)

الثانى وجعلت خليفته يعقد صلحا مع الامبراطور البيزنطى (١) • وبمقتضى هذا الصلح وافق الفرس على اخـــلاء جميـــع الأراضى التى انتزعوها من الامبراطورية البيزنطية ، ورد صليب الصلبوت واطلاق سراح الأسرى ، على أن تعود الحدود بين الدولتين كما كانت فى عهد موريس (٢) • على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك ، اذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية حتى تعاقب على عرش فارس فى تسع السنوات التالية أربعة عشر حاكما ، مما مزق أوصال دولة الفرس وجعلها مسرحا للفتن الداخلية • وفى ذلك الوقت تعرضت الدولة الفارسية لخطر خارجى جديد غير خطر الروم ، هو خطر العرب المسلمين الذين أجهزوا على بنى ساسان فى موقعة نهاوند سنة ٦٤١ وبذلك دالت دولة الفرس المستقلة لتصبح جزءا من الدولة العربية الاسلامية (٣) •

أما فى البلقان فقد حدث فى هذه الأثناء أن أوغلت جماعات من الصرب والكرواتيين فى تراقيا ومقدونيا تحت تأثير ضغط الآفار (٤) • ولم يقف أثر هذه الموجة عند توغل هؤلاء الأعداء فى اليريا واليونان والمورة ، وانما أصبح مصير الامبراطورية البيزنطية كلها معلقا فى كفـــة القدر عندما حـــاصروا القسطنطينية سنة ٦٢٦ (٥) • وهكذا ساد الاضطراب الامبراطورية البيزنطية منذ وفاة هرقل سنة ٦٤١ حتى نهاية أسرته سنة ٧١٧ • وفى خلال هذه المدة بذلت الامبراطورية جهودا يائسة لوقف الخطر الجديد الذى واجهها من جانب العرب ، ولكن هذه الجهود لم تنجح فى وقف حركة التوسع الاسلامية على حساب الروم • وسرعان ما استولى العرب على الشام ومصر ثم على قبرص (٦٤٨ ـ ٦٤٩) ورودس (٦٥٣) بل هاجموا القسطنطينية نفسها سنة ٦٦٧ ثم سنة ٦٧٢ ـ ٦٧٣ ، فى حين انتهوا من غزو شمال افريقية بأكمله ســـنة

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 92-93.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. p. 150.
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 95—96.
(4) Idem : p. 94.
(5) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 151—152.

٧٠٩ (١) . وبالاضافة الى هذه الكوارث التى نزلت تترى على الامبراطورية البيزنطية ، نشبت اضطرابات فى أطراف البلقان أثارتها العناصر السلافية . هذا فضلا عن ظهور عنصر جديد من البرابرة الآسيويين الذين يرجعون الى أصل فنى ، وهم البلغار الذين تركوا مقرهم على الفولجا وعبر الدانوب سنة ٦٧٩ ليتوغلوا فى أراضى الدولة البيزنطية فى البلقان (٢) .

واذا كان عهد هرقل يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ السياسى للامبراطورية البيزنطية ، فان هذا العهد لا يقل أهمية فى الميدان الحضارى . فهذا العهد يمثل البداية الحقيقية للعصر البيزنطى ، بعد أن تخلت الامبراطورية عن التعلق بأهداب الحضارة الغربية واللغة اللاتينية وأخذت تتحول تدريجيا نحو الطابع اليونانى البحت . وقد جاء وقت على الامبراطورية الشرقية عاشت فيه اللغتان جنبا الى جنب ، فاللاتينية استخدمت لغة رسمية فى دوائر الحكومة ، واليونانية أصبحت لغة شعبية وأداة التفاهم بين الناس والكنيسة . لذلك وضع هرقل حدا لهذه الأوضاع وجعل اليونانية لغة الدولة الرسمية ، مما ظهر أثره فى انعاش الحضارة الهللينية . وأمام تأثير هذا التيار الهللينى تخلى هرقل عن الألقاب اللاتينية المعقدة التى تمسك بها أسلافه فاستخدم لقب باسليوس Basileus اليونانى بمعنى ملك ، وهو اللقب الذى استعمله من بعده أباطرة الدولة البيزنطية ، والذى حل محل ألقاب الرومان مثل امبراطور Imperator وقيصر Ceasar وأوغسطس Augustus .

ليو الثالث الأيسورى :

وفى وسط الفوضى والأخطار الداخلية والخارجية التى أحدقت بالدولة الشرقية عقب وفاة هرقل سنة ٦٤١ ، وجدت الامبراطورية حاكما رشيدا

---

(1) Painter : op. cit. p. 44 & Orton : op. cit. pp. 80-81.
(2) Ostrogorsky : op. cit, pp. 112-114.
(3) Idem, pp. 95-96.

شجاعا فى شخص الامبراطور ليو الثالث الأيســـورى (٧١٧ – ٧٤١) • ويرجع أصل هذا الامبراطور – كما يتضح من لقبه – الى اقليم أيسوريا عند طوروس فى الطرف الشرقى لآسيا الصغرى ، ثم انتقـــل الى تراقيا فالتحق بالجيش البيزنطى حيث ظهرت مواهبه وشجاعته فضلا عن مقدرته على التنظيم • وقد حدث فى السنة نفسها التى اعتلى فيها ليو الأيسورى عرش الامبراطورية أن أرسل الخليفة الأموى سليمان ابن عبد الملك جيشا يبلغ ثمانين ألفا ، يسانده أسطول من ألف وثمانمائة سفينة للاستيلاء على مدينة القسطنطينية ، فحاصرها المسلمون بقيادة مسلمة بن عبد الملك سنة كاملة ارتدوا بعدها سنة ٧١٨ دون أن يحققوا غرضهم بفضل مهارة ليو الأيسورى التى حالت دون احكام الحصار الاسلامى حول القسطنطينية ، فظلت العاصمة تلقى الامدادات من اقليم البحر الأسود (٢) • ويعتبر صمود ليو الثالث فى وجه المسلمين أمرا على جانب كبير من الأهمية نظرا لضخامة الحملة الاسلامية وقوتهـــا من جهـــة ولقرب القسطنطينية من قلب العالم الاسلامى من جهة أخرى ، مما أنذر بتغيير وجه شرق أوربا بأكمله فى حالة استيلاء المسلمين على هذه القلعة المنيعة (٣) • وهنا ينبغى أن نذكر أن شرق أوربا كانت تسوده فى تلك الفترة عناصر وثنية كالآفار والسلاف والبلغار ، وهى بحكم وثنيتها كان من المحتمل جدا أن تتأثر بالديانة الاسلامية اذا سقطت القسطنطينية فى أيدى المسلمين ، وفى هذه الحالة يمكن أن نتصور مدى التغيير الذى كان يعترى التطور التـــاريخى لشرق أوربا (٤) • وبعد أن فرغ ليو الثالث من أمر المسلمين أتيحت له فرصـــة قصيرة لتنظيم قواته ، ثم استأنف القتال من جديد لحماية الامبراطورية فأخضع ثورة فى صقلية سنة ٧١٨ ، كما رد هجوما للبلغار على البلقان سنة ٧٢٠ وهجوما رابعا قام به المسلمون على القسطنطينية سنة ٧٢٦ • وأخيرا اختتم ليو الثالث سلسلة انتصاراته الحربية بانزال هـــزيمة برية بالجيوش

---

(1) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, pp. 52-53
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 313-314.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 142.
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 303-304.

الاسلامية التى حاولت غزو آسيا الصغرى سنة ٧٤١ . وقد ساعدت ليو الأيسورى على تحقيق هذا الانتصار المساعدة الكبيرة التى تلقاها من مملكة الخزر ، وهى المملكة التى ارتبطت حينئذ بالدولة البيزنطية لمواجهة الخطر المشترك من جانب المسلمين ، الأمر الذى أثار فى وجههم عقبات جمة وبخاصة فى القوقاز وأرمينيا . وليس أدل على قوة الارتباط بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة الخزر عندئذ من زواج قسطنطين بن ليو الثالث ووريثه فى العرش من ابنة خان الخزر سنة ٧٣٣ (١) .

ولم تكن اصلاحات ليو الثالث المدنية أقل أهمية من جهوده الحربية . ذلك أن الامبراطورية البيزنطية كانت فى حاجة شديدة الى كثير من الاصلاحات الداخلية بعد عوامل الضعف والانحلال التى تعرضت لها منذ منتصف القرن السادس ، وبعد حروب جستنيان التى استنفدت امكانيات الامبراطورية،فضلاعن اغارات الفرس والعرب والبلغار والسلاف وما ترتب عليها من اختلال الحياة الاقتصادية (٢) . لذلك قام ليو الثالث بحركة اصلاحية واسعة النطاق ، فأعاد تنظيم الجيش وأدخل كثيرا من التحسينات الادارية ، ونظم الشئون المالية والضرائب ، كما أصلح بعض النظم الكنسية ، وحد من نفوذ كبار ملاك الأراضى ، هذا كله عدا عنايته بترقية الزراعة والتجارة والصناعة (٣) . أما فى ميدان التشريع فقد أصدر ليو الثالث سنة ٧٢٦ مرجعا قانونيا يعرف باسم الاكلوجا Ecloga (المختار) . ويعتبر هذا المرجع على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ القانون البيزنطى لأنه يشتمل على مختارات من أهم قواعد القانون المدنى والجنائى مع العناية بالنواحى المتعلقة بالأسرة والميراث والملكية . وكان الغرض من اصدار هذا الكتاب امداد القضاة بمرجع واف مركز يغنيهم عن بقية المراجع المطولة التى كان من الصعب الرجوع اليها (٤)

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 129.
(2) Oman : The Dark Ages, pp. 504-507.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 3-4.
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 141.

على أن هناك مشكلة دينية كبرى ظهرت فى ذلك العصر واستمر أثرها طوال عدة قرون فى تاريخ غرب أوربا فضلا عن شرقها . أما هذه المشكلة فقد قامت حول عبادة الصور والأيقونات ، اذ ظهر رأى ينادى بتحريم هذه العبادة بعد أن انتشرت وشاعت ، حتى أخذ المسلمون - بسببها - يعيبون على المسيحيين أنهم يعبدون الأصنام ، فى حين رأى المؤيدون أن عبادة الصـــور الدينية أمر طبيعى يقتضيه احترام صاحب الصورة (١) . على أنه يبدو أن عبادة الأيقونات جاءت مصحوبة بكثير من البدع والخرافات ، الأمر الذى استنكره المثقفون فى الامبراطورية ، ومن بينهم ليو الثالث نفسه الذى انحدر من أسرة على قسط من الثراء ، كما كان على جانب من الثقافة مكنه من تفهم حقيقة الوضع (٢) . وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن عبادة الصور والأيقونات لم تكن بأمر الجديد فى المسيحية ، وانما ترجع بدايتها الى القرن الرابع نفسه ، أى الى العصر الذى تم فيه الاعتراف بالمسيحية رسميا ، وحينذاك بدأ تزيين الكنائس بالصور والتماثيل الدينية وبدأت هذه الأيقونات تحتل مكانة خاصة فى قلوب كثير من أتباع الكنيسة . وثانيهما أن الاعتراض على عبادة الأيقونات لم يكن وليد القرن الثامن وانما امتدت جذوره الى ما قبل ذلك بكثير عندما استاء بعض المسيحيين المخلصين من تصوير الانسان بالفسيفساء أو النقوش الجصية البارزة (الفرسكو) أو نحتها فى الحجر ، واعتبروا ذلك ضربا من الوثنية ، حتى أن مجمع الوير Elvire فى أسبانيا نادى فى أوائل القرن السادس بتحريم وضع الصور والتماثيل فى الكنائس (٣) .

ومهما يكن الأمر فانه يبدو أن عبادة الأيقونات انتشرت انتشارا واسعا فى القرن الثامن ، مما تطلب من الامبراطور ليو الأيسورى علاجا سريعا لهذه المشكلة . وهناك رأى يقول أن الامبراطور ليو استغل هذه المشكلة فى القضاء على نفوذ الأديرة اليونانية ، بعد أن تضخمت ثروتها وتضاعفت ممتلكاتها المعفاة من الضرائب وازدادت حقوقها وامتيازاتها ومسموحاتها ، مما جعلها خطـــرا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 6.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 259-263.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 337-338.

كبيرا على الدولة (١) • ولما كان الرهبان من أشد المنتفعين من عبادة الأيقونات فانهم عارضوا الامبراطور فى تحريسها ، وأخذوا يبذرون بذور الفتنة والشقاق فى كل مكان ، ووجدوا مؤيدين كثيرين لهم فى كل جهة وبخاصة بين كبار النبلاء الذين تطلبت مصالحهم الخاصة معارضة الامبراطور والوقوف فى وجهه• وهكذا انقسم الناس - داخل الكنيسة وخارجها - الى معسكرين : أيقونيين ولا أيقونيين (٢) •

والغريب أن الحرب على الأيقونية بدأت فى الدولة الاسلامية عندما أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك أمرا سنة ٧٢٣ بازالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية (٣) • ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك الى الدولة البيزنطية فبدأ الامبراطور ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٧٢٦ أى بعد مرور تسع سنوات على تخليصه القسطنطينية من حصار المسلمين، وعندئذ وجد الامبراطور تشجيعا قويا وتأييدا لسياسته اللاأيقونية من بعض كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين فضلا عن المثقفين من رجال الدين • ولم تلبث جموع الجند أن سايرت الامبراطور فى سياسته ، كما شايعت هذه السياسة الأجزاء الشرقية من الامبراطورية • وهنا لا نستطيع أن نجد تفسيرا لقوة الحركة اللاأيقونية فى الشرق عنها فى الغرب الا فى أثر العقيدة الاسلامية التى قاومت الأصنام وعبادتها ، فضلا عن تأثير اليهود الذين حرموا عبادة الصور وتقديسها (٤) • أما المعارضون لسياسة الامبراطور الدينية فكان على رأسهم الديريون الذين وجدوا فى عبادة الأيقونات مصلحة خاصة لهم ، كما تمسكت بهذه العبادة الطبقات الدنيا من الناس نتيجة لجهل أفرادها وانتشار البدع والمعتقدات الباطلة بينهم (٥) • واذا كانت الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية قد أظهرت تمسكها بشعورها اللاأيقونى ، فان الأجزاء الغربيـــــة - وبخاصة ايطاليا والبابوية - عارضت الامبراطور ليو معارضة شديدة وتمسكت بسياستها الأيقونية (٦) •

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. p. 144.
(2) Cam Med. Hist. Vol, 4, p. 10.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 143.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 338.
(5) Oman : The Dark Ages pp. 309-310.
(6) Eyre : op. cit. p. 82.

وكان المرسوم الذى أصدره ليو الثالث سنة ٧٢٦ بتحريم عبادة الأيقونات حازما وشديدا ، اذ قضى بازالة جميع التماثيل والصور الدينية من الكنائس والأديرة وبدأ رجال الامبراطور فعلا فى ازالة الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، الأمر الذى أثار علمة الناس . ولكن الامبراطور أخضع ثورتهم فى سهولة • ولم تلبث هذه الأعمال أن استفزت رجال الكنيسة لا سيما فى الغرب — حيث وقف البابا جريجورى الثانى ثم البابا جريجورى الثالث موقفا عنيدا من سياسة الامبراطور اللاأيقونية ، حتى أصدر البابا جريجورى الثالث قرار الحرمان ضد الامبراطور سنة ٧٣١ (١) • على أن هذا القرار لم ينه المشكلة اذ استمر الخلاف عدة قرون حتى انتهى بفوز الأيقونية وأنصارها ، على الرغم من الانتصارات المؤقتة التى أحرزها ليو الثالث •

ويهمنا فى هذا المقام أن النزاع اللاأيقونى كان له أثره الخطير بالنسبة لايطاليا والبابوية وعلاقتهما بالدولة البيزنطية • ذلك أن أواسط ايطاليا وروما ورافنا وقفت جميعا الى جانب البابوية فى المعسكر الأيقونى ، فى حين كانت صقلية وجنوب ايطاليا فى جانب الامبراطور اللاأيقونى (٢) • وقد رد الامبراطور ليو الثالث على قرار البابا بحرمانه من الكنيسة بأن حرم البابوية من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، وفصل الكراسى الأسقفية فى هذه الجهات عن سلطان البابا الدينى والقضائى وجعلها تحت سلطان بطريرق القسطنطينية (٣) • وهكذا جاء النزاع اللاأيقونى ليزيد من حدة الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، مما كان له أثر واضح فى مستقبل الحوادث التاريخية (٤) • أما من الناحية السياسية فقد ساعدت هذه الخلافات على أن تجعل البابا حاكما ايطاليا لا يدين بالتبعية للامبراطورية البيزنطية • وهنا أخذت البابوية تبحث عن قبلة أخرى تتجه نحوها لطلب المعونة السياسية والحربية ضد اللمبارديين حتى وجدت ضالتها أخيرا فى دولة الفرنجة

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1. p. 144.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 10.
(3) Diehl & Marcais : op. cit. p. 257.
(4) Lot : The End of the Ancient World. p. 301.

ايطاليا (١) • أما ايطاليا نفسها فقد غدت مقسمة سياسيا وحضاريا الى ثلاثة أقسام ، فالوسط لاتيني يظهر فيه نفوذ البابا ، والجنوب يوناني يتبع الامبراطور البيزنطي ، والشمال جرماني يخضع للومبارديين • وقد زاد من صبغة جنوب ايطاليا وصقلية بالطابع اليوناني في السنوات التالية ما حدث من هجرة آلاف الملاك والرهبان والقساوسة فضلا عن عامة الناس من البلقان الى صقلية وجنوب ايطاليا ، تحت ضغط السلاف والبلغار (٢) •

قنسطنطين الخامس :

وعلى الرغم مما كانت عليه الدولة البيزنطية عند وفاة ليو الثالث سنة ٧٤١ من انقسام بسبب النزاع السياسي والديني في الداخل ، والأخطار الناجمة عن غزو البرابرة والعرب لأراضيها في الخارج ، الا أنها استمرت تقوم بدورها كاملا على مسرح التاريخ • ولا غـــرابة في ذلك ، فان أهم ما امتازت به الامبراطورية البيزنطية في تاريخها الطويل كان — كما سبق أن أشرنا — احتفاظها بطابع الحيوية والاستمرار •

وقد خلف ليو الثالث قنسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) الذي ورث عن أبيه نشاطه ومثابرته ، وان اختلف عنه في تطرفه وحبه لمظاهر الترف والمرح • وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي ورثها قنسطنطين الخامس عن والده هي الخلاف بين الأيقونيين واللاأيقونيين ، وهو الخلاف الذي دفـــع الفريق الأول الى المناداة بسقوط قنسطنطين الخامس واشعال نار الثورة في البلقان • ولكن الامبراطور اعتمد على مقدرته من جهة وعلى مساعدة الأقاليم الآسيوية من جهة أخرى حتى استطاع اخماد هذه الثورة سنة ٧٤٢ • ويبدو أن موقف قنسطنطين الحازم من الأيقونيين ، وما اتصف به هذا الموقف من عنف وصرامة ، جعلهم لا يفكرون في اشعال نار الفتنة مرة أخرى طوال حكمه الذي امتد سنوات عديدة (٣) • وعندما وجد الامبراطور أن طريقة العنف

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 691-695.
(2) Thompson : op. cit. Vol, 1, pp. 144-155.
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 147-148.

وحدها غير كافية لتحقيق سياسته اللاأيقونية ، وأن كثيرا من الناس استمروا يباشرون عبادة الصور والأيقونات الدينية سرا ، لجأ الى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية سنة ٧٥٣ - ٧٥٤ لتبرير سياسته (١) . على أن هذا المجمع لم يكن مسكونيا الا من الناحية الاسمية فقط ، لأن البابوية ردت على الدعوة لحضور هذا المجمع بانزال اللعنة على كل من يحضره ، فى حين اعتذر عن حضوره بطارقة أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، الذين كانوا فى حماية المسلمين ، وبذلك لم يحضر المجمع سوى نحو ثلاثمائة وأربعين أسقفا برآسة بطريرق القسطنطينية (٢) . وكان أن قرر هذا المجمع تحريم تصوير المسيح فى أى شكل من الأشكال لأن هذه الصور والتماثيل تعبر عن طبيعته الانسانية والالهية فى طابع بشرى مجسد وبذلك تطمس صفته الالهية . أما صور القديسين فقد حرم المجمع عبادتها هى الأخرى بدعوى أن هذه العبادة ضرب من الوثنية وعبادة البشر (٣) . وهكذا اتخذ قسطنطين من قرارات مجمع القسطنطينية سلاحا قويا ساعده على التطرف فى اضطهاد الأيقونيين والتنكيل بالديريين بوصفهم أشد أنصار الأيقونية ، بل انه عمل على هدم الحياة الديرية فى بلاده بمختلف الطرق والوسائل ، وان لم يتمكن من تحقيق هدفه (٤) .

أما فى الميدان الخارجى فان عهد قسطنطين الخامس البالغ قرابة خمس وثلاثين سنة كان عهد نشاط حربى كبير ، توجته سلسلة من الانتصارات التى أحرزها الامبراطور على أعداء بلاده فى الشرق والغرب . ذلك أنه استغل ما كان هناك من خلافات داخل الدول الأموية واسترد سنة ٧٤٦ بعض الجهات الواقعة على أطراف آسيا الصغرى وأعالى النهرين من المسلمين ، كما صد سنة ٧٤٨ هجوما اسلاميا وقع على جزيرة قبرس واستولى على ملطيــة عند أعالى الفرات سنة ٧٥١ - ٧٥٢ لمدة قصيرة . ولم يكن قسطنطين الخامس أقل

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 13-14.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. p. 271.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 345.
(4) Oman : The Dark Ages. pp. 313-315.

حماسة فى الدفاع عن ولايات البلقان ضد البلغار ، فأصلح الحصون الواقعة على الحدود وحصن القلاع المطلة على ممرات البلقان (١) . وهكذا استطاعت الامبراطورية الصمود فى وجه البلغار عندما هاجموها سنة ٧٥٥ فقـــاومت سالونيكا الحصار بعناد حتى تمكن الامبراطور من انزال الهـــزيمة بهم فى ستريمون ، وعندئذ أسكن بضعة آلاف من البلغار فى بيثينيـــا . وقـــد قام قسطنطين الخامس بعدة حملات بعد ذلك (٧٥٩ - ٧٧٥) أدب فيها البلغار وأوغل داخل أراضيهم . (٢)

ويبدو أن الانتصارات الخارجية التى أحرزها قسطنطين الخامس مكنته من القيام بعدة اصلاحات داخلية أدت الى انعاش أحوال الامبراطورية (٣) . من ذلك أنه أقام عدة مستعمرات فى الأراضى البور الواقعة على الحدود الغربية للامبراطورية ، وأنزل فيها المسيحيين المهاجرين من أرمينيا وتراقيا ، وذلك لطبع هذه الجهات بالطابع الهللينى . هذا الى أن الزراعة تقدمت فى عهده كما نشطت التجارة بعد أن أمن الطرق وقضى على قطاعها . أما القسطنطينية فقد اهتم بها وعمل على تزويدها بالمياه العذبة اللازمة وامدادها بالسكان الكافين لتعميرها ، بعد أن أدى انتشار الوباء فيها (٧٤٦ - ٧٤٧) الى موت بضعة آلاف من سكانها . وأخيرا مات قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ وهو فى السابعة والخمسين من عمره ، تاركا خلفه دولة منظمة ، وجيشـــا يدين بالولاء للامبراطور ، وخزانة عامرة بالمال (٤) .

نهاية البيت الأيسورى :

خلف قسطنطين الخامس أكبر أبنائه ليو الرابع الشهير فى التاريخ باسم ليو الخزرى لأن أمه كانت ابنة ملك الخزر كما تقدم . واذا كان ليو الرابع

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 149.
(2) Idem : pp. 149-151.
(3) Diehl & Marcais op. cit. p. 259.
(4) Oman : The Dark Ages. pp. 316-317.

قد أظهر شيئا من التسامح تجاه الأيقونيين في بداية عهده ، الا أنه لم يلبث أن تحول الى سياسة أبيه عندما وجد أنهم رفعوا رؤوسهم ليعاكسوا الدولة من جديد (١) . كذلك هاجم ليو الرابع المسلمين شرقي الأناضول سنة ٧٧٨ ، فرد عليه الخليفة المهدى العباسي بمهاجمة أراضي البيزنطيين في العام التالي . على أن ليو الرابع لم يلبث أن توفي سنة ٧٨٠ بعد حكم قصير لم يتجاوز خمس سنوات (٧٧٥ - ٧٨٠) . والواقع ان هذه الوفاة المبكرة لم يكن لها من أهمية سوى أنها جعلت السلطة الفعلية في الدولة البيزنطية تنتقل الى أيدي أرملته ايرين ، التي قامت بالوصاية عدة سنوات على ابنها الصغير قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧) والتي أثبتت أنها من أمهر النساء الشهيرات في التاريخ وأكثر عنفا وميلا للشر (٢) .

ذلك أنها تخلت عن الاصلاحات اللاأيقونية التي تبناها الأباطرة الأيسوريون في الستين سنة السابقة ، ولم تلبث بمجرد أن آلت اليها مصائر الأمور أن أعلنت الحقيقة التي اخفتها عن زوجها في حياته وهي أنها من أشد أنصار الأيقونية . وقد بدأت ايرين وصايتها باخماد مؤامرة حاول القيام بها أنصار الاصلاح من اللاأيقونيين ، كما عينت في منصب بطريرق القسطنطينية طرسيوس - وهو أحد دعاة الأيقونية المتحمسين . وكان من الطبيعي أن تهلل البابوية والكنيسة الغربية لايرين ، التي تشجعت فعقدت مجمعا دينيا في نيقية سنة ٧٨٧ أقر بقاء الصور والأيقونات على أساس احترامها وتبجيلها ، لا عبادتها لذاتها(٣) .

على أن قيام امرأة من هذا النوع على رأس الامبراطورية عاد بنتائج وخيمة على الدولة في تلك الظروف ، عندما أمست الحاجة واضحة الى وجود امبراطور قوي محارب يستطيع دفع الأخطار الخارجية التي هددت الامبراطورية . ذلك أن جيوش الخليفة العباسي هارون الرشيد اجتاحت

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4. p. 21.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 312-313.
(3) Idem, pp. 349-350.

آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى وصلت البسفور ، فى حين عجزت ايرين عن مواجهة الخطر فرضيت أن تشترى الصلح من المسلمين مقابل مبلغ ضخم تعهدت بدفعه سنويا . وفى ذلك الوقت نشط البلغار فى البلقان فاجتاحوا تراقيا بعد أن أنزلوا الهزيمة بجيوش الامبراطورية(١) . وفى وسط هذه الظروف بلغ قسطنطين السادس سن الرشد ، ولكنه لم يستغن عن أمه ، التى حقدت على ابنها وكرهت أن يشاركها الحكم بعد أن تذوقت طعم السلطان . ويبدو أن الانتصارات التى أحرزها قسطنطين السادس فى هذه المرحلة ، وبخاصة عندما انتصر على العرب عند انطاليا ـ على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى ـ الحقد أن أعمى بصيرتها فدبرت مؤامرة فى القصر سنة ٧٩٧ انتهت بالقبض على ابنها وسمل عينيه ، وبالتالى عزله وارساله الى أحد الأديرة ليقضى عشرين سنة محروما من نعمة البصر (٢) .

على أنه اذا كانت ايرين قد أقدمت على هذه الجريمة الشنيعة ضد ولدها ليخلو لها الجو ، الا أن الفترة القصيرة التى قضتها فى الحكم بعد ذلك ـ وهى لا تتجاوز خمس سنوات (٧٩٧ ـ ٨٠٢) جاءت مليئة بالكوارث الداخلية والخارجية(٣) . ذلك أن سياسة هذه الامبراطورة ومسلكها الفظ ، أثار روح المعارضة والحنق عند فريقين من أهم عناصر الامبراطورية ، أولهما الجيش حيث كان الشعور اللاأيقونى لا يزال قويا لاسيما بين رجال الفرق الآسيوية ، وثانيهما كبار ملاك الأرض (dunatoi) . أما فى الخارج فقد عادت جيوش هارون الرشيد الى تهديد الأقاليم الآسيوية للامبراطورية حتى وصلت افسوس غربا . ولم تستطع الامبراطورة أن تتخلص من هذا الخطر الا عن طريق تجديد العهد بدفع جزية سنوية ضخمة للمسلمين سنة ٧٩٨(٤) . وفى وسط هذه الظروف القاسية لم تتورع ايرين عن الدخول فى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 22-24.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 161.
(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire. p. 67.
(4) Cam. Med. Hist Vol, 4. p. 24.

مفاوضات مع شارلمان - امبراطور الغرب الجديد - بقصد الزواج منه وتوحيد الشرق والغرب داخل اطار امبراطورية رومانية جديدة(١) .

وأخيرا أدرك كبار رجال الدولة أن الكيل قد طفح ، فدبزوا مؤامرة سنة ٨٠٢ - بزعامة نقفور أمين الخزانة - ونجحت هذه المؤامرة في القبض عليها وحبسها في أحد الأديرة . وفي وسط هذه الأزمة لم تجد ايرين فردا واحدا يعطف عليها أو يدافع عنها - حتى من الأيقونيين - بعد أن أثار سلوكها الخاصة والعامة من الناس(٢) .

وعلى هذا الوجه انتهى البيت الأيسورى بعد أن ظل فى حكم الدولـــة البيزنطية خمسا وثمانين سنة . واذا كانت ايرين قد اختتمت تاريخ هذا البيت بصفحة سوداء لطختها الأنانية والقسوة ، الا أن الخدمات التى أداها الأباطرة الأيسوريون للدولة - وبخاصة ليو الثالث وقسطنطين الخامس - لا يمكن اغفالها . ويكفى أن هؤلاء الأباطرة أمنوا الامبراطورية وحموها من الأخطار الخارجية الجسيمة التى أحاطت بها وهددتها ، كما فعلوا الكثير من أجل مضاعفة ثروة الامبراطورية وزيادة سكانها وتقوية جيوشها(٣) .

---

(1) Bryce : The Holy Roman Empire. p. 61 & Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 624. & Vol. 9, pp. 24-26.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 313.
(3) Oman : The Dark Ages, pp. 320-321.

الباب السادس

الاسلام

على الرغم من أن الاسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره فى أوربا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوربا في تلك العصور دون الاشارة الى هـــذا الأثر • حقيقة أن الدولة الاسلامية فى أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوربا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة فى البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أى بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، فى الوقت الذى كانت حضارة أوربا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر • وبعبارة أخرى فان حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة • هذا فضـــلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافى بمثابة الحلقة التى ربطت القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقية ، وبالتالى انتقل عن طريقهـــا التراث الحضارى للشرق الى أوربا العصور الوسطى(١) •

وتختلف الغزوات التى تعرضت لها أوربا من جانب العرب منذ القـــرن السابع فى طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التى تعرضت لها أوربا قبل ذلك من جانب الجرمان • فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمـــة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية صلات تحالف

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

وولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التى أدت الى غـــزو أراضى الامبراطورية والاستقرار داخل حدودها • أما العرب الذين غزوا الامبراطورية فى القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شىء من الأهمية ، وكل ما هنالك هو أن الامبراطورية الرومانية اكتفت باتخـــاذ بعض اجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضاربة فى الصحارى المجاورة ، هذا فضلا عن اقامة دولة الغساسنة على حدود الشـام لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم • وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف البلاد العربية لتهديد العالم الرومانى ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم(١) •

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شـــاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلم سنة ٥٧٠ وهجرته الى المدنية سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة • وبعبارة أخرى فان انتصار رسالة خاتم النبيين أدت الى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا اله الا الله محمد رسول الله • على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق ، ومن ثم غدت مهمة الرسول بعد أن تم نشر الاسلام فى بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق ديانته والايمان برسالته • ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفـدهم النبى الى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل النبى يعد العدة للغزو والجهاد ، وان كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتتسع الا بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢ •

وليس العجيب في أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمـــة

---

(1) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو أن العرب غزوا فارس فى الوقت نفسه الذى غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين فى وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا فى بادية الشام سنة ٦٢٩ ، أى فى العام التالى مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس(١) . وكانت دولة الروم - أو الدولة البيزنطية - تعانى حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها فى البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التى أخذت تقوى عند أقباط مصر والأراميين فى سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هدد كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا(٢) . ومهما يكن من أمر فان موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح الا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبى بكر الذى بادر بايفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية - بقيادة أبى عبيدة الجراح - تعمل فى الشام ضد الروم ، فى حين كان القسم الثانى من هذه الجيوش - بقيادة خالد بن الوليد - يعمل فى العراق ضد الفرس(٣) . وقد حاول هرقل - امبراطور الروم - ارسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانقاذ الموقف فى فلسطين ، ولكن القائد العربى - خالد بن الوليد - أتى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى موقعة أجنادين سنة ٦٣٤(٤) . وعندما توفى الخليفة أبو بكر فى هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذى اتسعت الفتوح الاسلامية فى عصره ، واستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ ثار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل فى هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 231.
(3) Idem pp. 338-339.
(4) Idem, p. 341.

حا استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب في جسده • واذا كان هرقل قد أمضى سنتى ٦٣٥ ، ٦٣٦ فى جبهة الشام ، الا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع فى أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨) (١) • ويروى القلقشندى أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج الى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت الى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومى بعدها الا خائفا » • ثم عاد الى القسطنطينية (٢) •

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم • ففى سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفى سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق الى قلب بلاد فارس(٣) • ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة فى وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر موك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس(٤) •

وفى هذه الأثناء استمرت القوات العربية التى اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام • وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدى المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت الى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمعاقل المهمة الموجودة فى شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ - ٦٣٩) • وباستيلاء العرب على قيصرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) • ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس • ويعتبر فتح مصر بالذات مثلا واضحا على عظم الخسارة التى منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية

---

(1) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ •

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 347.

(4) Orton : op. cit. pp. 80-81.

(5) Oman : The Dark Ages. p. 220.

البيزنطية وانحلالها السياسى(١) • وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط • وكان أن أخذ العرب فى فتح ولايـة أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد(٢) • وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كان عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس • ومهما يكن من أمر فان قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وان كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير •

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضـارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين • وبذلك مرت سبعمائة السنة التى سيطرت فيها أوربا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوربا(٣) •

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال افريقية حتى المحيط الأطلسى وانما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف

---

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.
(2) Orton : op. cit. p. 81.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 287.

باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتى ٧١١ ، ٧١٣(١) . وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، اذ فقدت بلادا ارتبطت بهـا أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحى مثل شمال أفريقية وأسبانيا . وفى جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على اعتناق الاسلام « عن اختيار وارادة حرة »(٢) . وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديرة باهتمام المشتغل بالتاريخ . فالعرب الذين غزوا العالم الرومانى فى القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل . ومع ذلك فان الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تغلبت فى النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم ، فى حين كانت الغلبة فى الجهات التى انتزعها العرب واستقروا فيها ـ مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس ـ لحضارة العرب وديانتهم . ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخى واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الرومانى ، فى حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة وديانة سماوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم فى المجتمع الجديد(٣) .

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذى أحرزته ، كانت من الموضوعات التى احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين . ذلك أنه لم تكد تمض على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى . حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التى سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة فى تاريخ العالم . وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربى فى القرن السابع لم تكن مفاجئـة ـ كما تبدو ـ وانما هى

---

(1) Thompson : op. cit. vol. I. pp. 163-164.

(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ .

(3) Pierenne : Mohammed and Charlemagne. p. 150.

حلقــة أخيرة من ســلسلة طــويلة بدأت قبــل ذلك بعــدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شــبه الجــزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب فى القرن السادس (١) . وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) . ويميل برناردلويس الى مشاركة بيكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفــاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) . أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيرا أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا .

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيرا من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع . حقيقة ان مؤرخا محدثا مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكما رومانيا معاصرا فى القرن السابع وقد أرسل

---

(١) القرآن الكريم سورة سبأ (١٥ - ١٧) :
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 331 (C.H. Becker)
(٣) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ .
(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ .

اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا « انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور ! » (١) ؛ أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم ، حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) .

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطىء هذا البحر واستيلاءهم على موانى الشام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ - ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريا فى فتوحهم الجديدة (٣) . والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر فى جاهليتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشيطة قبل الاسلام ، ولكن عرب الشمال ظلوا بعيدين عن ممارسة ركوب البحر حتى

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 63—64
(2) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 47
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 160

كانت الفتوح الاسلامية ، وحينئذ أخذوا يكيفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط • ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة فغزوا قبرص سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبيه لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) ، وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق‌م (١) •
واذا كانت الظروف التي تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فان الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجة سنة ٦٦٥ • ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها • كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرص ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجة ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) (٢) • ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدى المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقوس Callinicus • أما هذا الاختراع فعبارة عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف ، مما أنزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) •

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطيح بالامبراطورية البيزنطية • واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239
(2) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 283.

رأس هذه الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطىء الأوربى سنة ٧١٧ (١) • وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامى يهاجمها من ناحية البحر، حتى كادت المدينة تقع فى أيدى المسلمين لولا النار الاغريقية التى لعبت دورها فى تشتيت سفنهم ، فى الوقت الذى أغرى الامبراطور ليو الأيسورى (٧١٧ـ ٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف (٢) • وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) • وهكذا تم تجنيب الامبراطورية البيزنطية ، بل أوربا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوربا من جهة الشرق •

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزا فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها • وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرص (٤) • ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد • وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامى على الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموى • ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيها ، ومن ثم قل الضغط الاسلامى على حدود هذه

---

(1) Idem : pp. 313—314
(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 139
(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 54,
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121—122

الدولة بصورة واضحة فى العصر العباسى (١) ، ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، اذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما اضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالمة المسلمين بالمال (٢) ، هذا فى الوقت الذى استمرت اغارات العرب البحرية على شاطئ الدولة البيزنطية وثغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٩٠٤ على سالونيكا ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها .

ويلاحظ أن صمود الدولة البيزنطية ونجاحها فى صد المسلمين ، فى الوقت الذى نجح الفرنجة فى صد مسلمى الأندلس عن غاليا وغرب أوربا ، كان له أثر كبير فى مستقبل تاريخ القارة الأوربية ، ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الاسلامية تمثل المركز الأساسى للحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الاسلامى لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقى للحضارة الأوربية لا مركزها الأساسى ، وهكذا أخذ التاريخ البيزنطى منذ اتساع الفتوح الاسلامية يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمى أوربا من خطر آسيا ، فى حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوربية الى الغرب (٣) .

على أن أثر العرب والاسلام فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف ، وانما يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحا فى الميدان الحضارى ، وهنا نجد الحضارة العربية الاسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية (٤) ، ومازالت السرعة التى انتشرت بها اللغة العربية والديانة

---

(1) Painter : op. cit. p. 44
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 317
(3) Eyre : op. cit. p. 64
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين • فاللغة العربية ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال ان سهولتها أدت الى سرعة انتشـــارها من المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية فى أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويـــلا ـ باستثناء فارس • لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية الا فى ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين • ويقول بيكر أن أوربا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية • وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحت تفسر انتشار الاسلام فى هذه البلاد على أنه لم يتم الا بحد السيف (١) • ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة ـ التى ما زال بعض المتعلمين فى أوربا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها ـ بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير • فسيطرة العرب السياسية هى التى انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين (٢) •

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدها العالم فى العصور الوسطى • فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العنـــاصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابو داخل الامبراطورية الرومانية ، والذين لا تقترن أسماؤهم فى التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) • وفى الوقت الذى نسمع بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 330
(2) Ibid.
(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46

شامل لكثير من أقاليم أوربا وأفريقية ، اذا بالبلاد التى فتحها العرب واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستنارة • وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكرى وتقدم اقتصادى وعمران شامل وازدياد مطرد فى السكان والأموال (١) •

حقيقة ان العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة • ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها • وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات فى غرب آسيا وشمال افريقية ، وهى الدراسات اليونانية التى ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) • وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة فى منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخى ثابت ومستمر • وبعبارة أخرى فان الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهلينستية وتعهد هذه الحضارة بالحفظ اولعناية والتغذية المستمرة • ولكن حدث عندما نقلّ الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهللينستى يضعف – الى حد ما – فى الحضارة الاسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية • وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخذ غرب أوربا يزداد – هو الآخر – تباعدا عن الحضارة الهللينستية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) • وهكذا غدت الحضارة الاسلامية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432—435
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330
(3) Ibid.

مجمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة (١) •

وكان أن أفاقت أوربا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوربا تقبل على هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوربيون الى مراكز الحضارة الاسلامية يرتشفون من معينها الفياض ويرتوون من منهلها العذب • وازداد تدفق طلاب العلم الأوربيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من ألوان النشاط الفكرى (٢) • حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها العرب عن التراث اليونانى القديم ، ولكن الفضل يرجع اليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ، حتى اذا ما اندثر التراث اليونانى – أو كاد يضيع – فى الفترة المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية فى الغرب ، لم يبق التراث اليونانى الفكرى قائما فى كثير من الحالات الا فى التراجم العربية (٣) • وحسبنا ما أحدثه شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوربا العصور الوسطى (٤)، وما سببته معارف العرب فى الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من انقلاب شامل فى تطور التفكير الرياضى الأوربى ، وما ترتب على انتقال معلومات العرب فى الفلك والجغرافيا الى الأوربيين من تطور شامل ، وما اعترف به الأوربيون أنفسهم من تقدم العرب فى الطبيعة والكيمياء والطب ، حتى استمرت الجامعات الأوربية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كثير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم (٥) • هذا كله

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48
(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.
(3) Eyre : op. cit. pp. 273—279
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 296.
(5) Eyre : op. cit. pp. 793—294

فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوربيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوربا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) .

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها العرب والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا وفى تفهم الأوربيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا (٣) . ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتلمذ عليهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوربيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوربا فى العصور الوسطى (٤) .

---

(1) Lehaby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.
(2) Orton : op. cit. p. 91
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 287
(4) Thompson : op. Vol. 1 pp. 92—93

الباب السابع

إيطاليـــا بين ثلاث قوى

اللمبارديون ـ البابوية ـ الدولة البيزنطية

لم تكد تمض سنوات قليلة على استسلام آخر القوات القوطية فى شمال ايطاليا للقائد البيزنطى نارسيس ، أو على وفاة الامبراطور جستنيان العظيم سنة ٥٦٥ بعد أن اطمأن الى سيطرة قواته على شبه الجزيرة الايطالية ، حتى تعرضت ايطاليا لغزو اللمبارديين الذين تركوا أثرا واضحا فى كيانها السياسى ونظمها الاجتماعية وقوانينها العامة والخاصة (١) •

أما هؤلاء اللمبارديون فكانوا آخر الشعوب الجـــرمانية التى اقتحمت الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها • وقد أقامـــوا فى القرن الأول عند وادى نهر الأودر والجزء الأدنى من نهر الالب ، حتى تحركوا جنوبا بعد قليل • ثم كان أن ظهروا فى بانونيا فى أوائل القرن السادس حيث دخلوا فى صراع رهيب مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية مثل الجبداى ، وخرجوا منتصرين من هذا الصراع سنة ٥٦٧ بفضل تحالفهم مع عنصر الآفار الذين خلفوا الهون فى الأجزاء الشرقية والوسطى من أوربا (٢) • على أنه يبدو أن اللمبارديين لم يشكلوا فى هذه المرحلة خطرا على الامبراطورية ، بل عملوا كجند مرتزقة فى جيوش جستنيان حتى أن الجـــزء الأكبر من الجيش البيزنطى الذى عمل تحت قيادة نارسيس فى ايطاليا لطرد القوط الشرقيين كان مؤلفا من اللمبارديين (٣) • ولم تلبث الظروف أن جعلت من اللمبارديين قوة خطيرة تهدد الامبراطورية ، وذلك عندما اتحدت قبائلهم

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 289
(2) Wallace — Hadrill : The Barbarian West, p. 45
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 289

تحت زعامة ملك واحد . وكان ذلك في الوقت الذى اضطروا تحت ضغط الآفار الى الجلاء عن بانونيا . وهنا تلفت اللمبارديون حولهم فلم يجدوا بلدا أصلح لهم وأقرب اليهم من ايطاليا .

وهكذا أخذت جموع اللمبارديين تتدفق على ايطاليا فى ربيع سنة ٥٦٨م تحت زعامة ملكهم ألبوين Alboin فى وقت كانت الامبراطورية البيزنطية - تحت حكم جستين الثانى - فى حالة لا تسمح لها بارسال جيوش لصد هذا الخطر الداهم ، لذلك تركز الدفاع عن ايطاليا ضد الخطر اللمباردى فى المدن المحصنة ذات الأسوار المنيعة . ولكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود ، فلم يكد يمض عام حتى انتشر اللمبارديون فوق سهول نهر البو ، واستولوا على فيرونا وميلان دون أن يصادفوا مقاومة جديدة من الأهالى او من الحامية البيزنطية . ثم استطاع اللمبارديون اخضاع بافيا بعد حصار دام ثلاث سنوات فاتخذوها عاصمة مملكتهم الجديدة التى أخذت منذ ذلك الوقت فى الاتساع السريع (١) . ذلك أن مقتل ألبوين أثناء حركة توسع اللمبارديين لم يؤثر فى موقفهم وقوتهم ، اذ استطاع أشراف اللمبارديين وزعماء قبائلهم التفوق على القوات البيزنطية الضعيفة ، بل انزال الهزيمة بها ، حتى استولوا على تسكانيا والأجزاء الوسطى من ايطاليا حتى بنفنتوم ، فضلا عن السهول الشمالية التى لصق بها اسم اللمبارديين حتى اليوم (٢) .

ولم تكن هذه أول مرة تتعرض فيها ايطاليا لمحنة الغزو الجرمانى كما سبق أن رأينا ، ولكن الفارق هو أن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا من قبل لم تنتزع كل الأراضى من أصحابها الرومان ، وانما اكتفت باغتصاب مساحة تتراوح بين ثلث الأراضى ونصفها ، وتركت الباقى لأصحاب البلاد الأصليين (٣) . أما اللمبارديون ، فقد وضعوا أيديهم على جميع الأراضى المفتوحة وأنزلوا الملاك الأصليين الى مرتبة التبعية ، كما أذاقوا الفلاحين كثيرا من الضغط والجور . وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على استمرار هذا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 196
(2) Oman : The Dark Ages. p. 187
(3) Thompson. op. cit. vol. 1 p. 170

الضغط ، الا أنه من الثابت أن اللمبارديين كانوا أعنف العناصر الجرمانية التى غزت ايطاليا وأشدها قسوة (١) • هذا الى أن اللمبارديين امتازوا عن غيرهم من الشعوب الجرمانية بشدة تعصبهم لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية وتمسكهم بها • وربما كان من أسباب هذه الظاهرة أنهم دخلوا ايطاليا فاتحين لا حلفاء معاهدين (foederati) للامبراطورية وأنه لم توجد روابط قوية تربطهم بالحضارة الرومانية مثلما كان الحال مع القوط من قبل • هذا زيادة على اعتناقهم للمذهب الأريوسى من جهة وقلة عددهم بالنسبة لأهالى البلاد من جهة أخرى ، مما جعلهم شديدى التعصب لأصلهم الجرمانى ونظمهم الجرمانية • ومن أمثلة هذا التعصب الواضحة أن الملكية اللمباردية ظلت انتخابية فى حين أصبحت وراثية فى جميع ما عداها من الممالك الجرمانية (٢)•

وقد وجد موريس امبراطور الدولة البيزنطية (٥٨٢ - ٦٠٢) أن مقاومة الغزو اللمباردى لايطاليا غير مجدية ، فلجأ الى وسيلة أكثر نفعا من الناحية العملية وهى اعادة تنظيم الادارة الامبراطورية فى ايطاليا ، على أساس اقامة نظام الدوقيات فى روما وبيروجيا ونابلى وكالبريا وليجوريا ، بحيث تخضع كلها للنائب الامبراطورى فى رافنا • وكان النائب الامبراطورى يجمع فى يده السلطتين الحربية والمدنية وكذلك كان الدوقات كل فى دوقيته ، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللمبارديين (٣) • على أن أهم ما يلاحظ على الأملاك البيزنطية فى ايطاليا عندئذ هو تناثرها وعدم ارتباطها ، مما جعل أباطرة القسطنطينية يشعرون بعجزهم عن مواجهة الموقف ويطلبون مساعدة الفرنجة ضد اللمبارديين (٤) • وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ أوثارى Authari ملك اللمبارديين (٥٨٤ - ٥٩٠) يعمل على توحيد قواهم تحت سيادته ، حتى اذا ما تم له ذلك بدأ

---

(1) Orton : op. cit. p. 103
(2) Wallace — Hadrill : op. cit. p. 45
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 178
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 190—191

يوجه كل جهوده نحو حرب الفرنجة وصد خطرهم (١) . وثمة تطور آخر هام حدث فى عهد أوثارى هو زواجه من ابنة دوق بافاريا ، وهى أميرة كاثوليكية ، الأمر الذى نشأ عنه اعتناق زوجها للمذهب الكاثوليكى الذى أخذ ينتشر بين اللمبارديين فى القرن السابع (٢) .

وبعد أوثارى جاء أجيلولف Agilulf فى حكم اللمبارديين (٥٩٠ - ٦١٦) وقد شاء حسن حظ هذا الملك الجديد أن الفرنجة شغلوا بالمنازعات الداخلية فيما بينهم عن اللمبارديين ، مما مكن الملك اللمباردى من انتزاع أجزاء جديدة من أملاك الدولة البيزنطية فى ايطاليا ، حتى توسط البابا جريجورى العظيم فى عقد اتفاقية بين اللمبارديين والامبراطورية البيزنطية سنة ٥٦٨(٣) . على أن نقض النائب الامبراطورى فى ايطاليا لهذه الاتفاقية جعل اللمبارديين ينزلون خسارة جسيمة بالامبراطورية ، اذ انتزعوا بادوا سنة ٦٠٢ ثم مانتوا - آخر المعاقل البيزنطية فى حوض البو - فى السنة نفسها . وهنا لجأ الامبراطور فوقاس - ازاء الأخطار الجسيمة التى تهدد دولته عندئذ ، وبخاصة من جانب الفرس - الى شراء مسالمة اللمبارديين مقابل تعهده بدفع جزية سنوية ضخمة لهم . وقد تعرض اللمبارديون فى عهد ملكهم أجيلولف لبعض المتاعب والثورات الداخلية ، فضلا عن التهديدات الخارجية التى واجهت دولتهم من جانب الآفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية . ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا العصر يمثل دور النضج بالنسبة للمبارديين وحضارتهم فى ايطاليا ، اذ أخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد واعتناقهم المسيحية الغربية يهتمون ببناء الكنائس وينصرفون نحو كثير من المشروعات السلمية(٤) .

على أن أشهر ملوك اللمبارديين وأهمهم فى التاريخ كان روثارى Rothari (٦٣٦ - ٦٥٢) الذى شهد عصره اتمام غزو شمال ايطاليا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 190—200
(2) Oman : op. cit. p. 193
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 201
(4) Oman : The Dark Ages, p. 195


ايطاليا
سنة ٥٩٠
بافاريا
برجنديا
اوستريا
نستريا
فيرونا
رافنا
انكونا
دوقية
سبولتو
كورسيكا
دوقية
روما
بنفنتو
نابلي
سردينيا
ممتلكات البيزنطيين
ممتلكات اللمبارديين

وانتزاع المنطقتين اللتين كانتا لا تزالان تحت سيطرة البيزنطيين ، وهما منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا – بما فيها مدينة جنوا العظيمة – ، والمنطقة المحيطة بمدينة أودوزو Oderzo على شاطىء البندقية . ولم يحصل روثارى على هذه الجهات الا بعد جهاد عنيف وقتال شاق ضد البيزنطيين ، انتهى بانتصاره عليهم بعد أن حملهم خسارة فادحة (١) . ولا ترجع أهمية روثارى فى التاريخ الى انتصاراته السابقة فحسب ، بل يرجع جانب كبير من شهرته الى أنه شكل القانون اللمباردى ونظمه ، فأصدر سنة ٦٤٣ مجموعة القوانين العرفية الخاصة بالشعب اللمباردى والتى لم يسبق تدوينها أبدا من قبل . حقيقة ان القوانين والتشريعات التى أصدرها روثارى (Edictum Rotharis) لا تعدو أن تكون مجموعة بدائية تصور أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة وسط الأحراش والغابات ، أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب ايطاليا . ولكنها على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الشطر الأكبر منها يتناول المسائل المتعلقة بالفدية والتزامات الاتباع نحو سادتهم وتنظيم حقوق الوراثة ، دون أن تحوى شيئا عن حياة الحضر والكنيسة ، فان أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية وقيمتها فى تصوير أوضاع الشعوب الجرمانية ، فضلا عن كونها أول قانون مدون للمبارديين (٢) .

وبعد أن فرغ البيزنطيون من حروب هرقل ضد الفرس ثم العرب ، حاولوا فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ – ٦٦٨) أن يقفوا موقفا قويا تجاه اللمبارديين فى ايطاليا ، ليستغلوا حالة التفكك والانقسام والفوضى التى أمنى فيها اللمبارديون عقب وفاة ملكهم روثارى سنة ٦٥٢ فى احياء النفوذ الامبراطورى واسترداد ما فقدته الامبراطورية فى شبه الجزيرة الايطالية(٣) . ولذلك هجم البيزنطيون على بنفنتوم (٦٥٠ – ٦٦٣) ولكن اللمبارديين اتحدوا واختاروا جريمولد دوق بنفنتوم ملكا عليهم (٦٦٢ – ٦٧١) وبذلك تمكنوا من مقاومة البيزنطيين(٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 203
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 289—290
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 9 —293
(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 239.

وهكذا نجح الغزو اللمباردى فى القضاء على الوحدة الايطالية التى أجهد الامبراطور جستنيان نفسه فى احيائها ، فظلت ايطاليا حتى القرن التاسع عشر مجرد اصطلاح جغرافى دون أن تقوم لها وحدة سياسية تنظم أمورها . والواقع أن ايطاليا غدت فى القرن السابع مقسمة بين ثلاث قوى : اللمبارديون والدولة البيزنطية والبابوية . وان نظرة عابرة يلقيها الباحث على خريطة ايطاليا عندئذ لتوضح له ما كانت عليه من انقسام وبعثرة سياسية حتى صار من الصعب فى كثير من الحالات أن تتصل الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا بعضها ببعض الا عن طريق البحر(١) .

ازدياد نفوذ البابوية :

أما الأهمية القصوى لعصر استقرار اللمبارديين فى ايطاليا فترجع قبل كل شيء الى ما شهده ذلك العصر من ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها السياسى ، حتى غدت تمثل احدى القوى الحاكمة فى ايطاليا الى جانب اللمبارديين والدولة البيزنطية . وخير ما يوضح ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الفترة هو تضاعف ممتلكات الكنيسة فى ايطاليا ، وهى الأملاك التى لم تضمن للبابوية موردا ماليا ضخما فحسب بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوى والمادى فى البلاد(٢) . ذلك أن أساقفة ايطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التى سادت ايطاليا فى ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الأراضى ويتخذون لأنفسهم صفة الحكام العلمانيين ، فيعينون موظفى البلديات فى المدن ويشرفون على الأعمال العامة ويجمعون الضرائب ، وغير ذلك من الأعمال التى هى فى الواقع من صميم اختصاص الحكام العلمانيين(٣) . وقد ساعد رجال الكنيسة على تحقيق أغراضهم ومطامعهم فى الاستيلاء على الأراضى ، أن صغار ملاك الأراضى فى ايطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها ، فلم يجدوا وسط الفوضى الناجمة عن النزاع بين اللمبارديين

(1) Thompson : op. cit. Vol. I pp. 172—173
(2) Moss : op. cit. p. 132
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 229 .

والبيزنطيين سوى الكنيسة ، فسلموها أراضيهم مختارين وأصبحوا شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان (١) • أما البابا فكان لا يختلف - من الوجهة النظرية - عن غيره من الرعايا البيزنطيين ، وذلك من حيث تبعيته للنائب الامبراطورى • ولكن نفوذ هذا النائب الامبراطورى أخذ يخبو ويتضاءل تدريجيا حتى أصبح غير ملموس ، ولا سيما أن نواب الامبراطور البيزنطى لم يحاولوا أن يتخذوا روما مركزا للدفاع ضد الخطر اللمباردى ، وانما آثروا الاقامة فى رافنا وبذلك تركوا روما وليس فيها الا سيد واحد هو البابا (٢) • وهنا نلاحظ أنه اذا كان البابا قد أصبح أعظم ملاك الأراضى فى ايطاليا فان الممتلكات البابوية لم تقتصر على المنطقة المحيطة بروما ، وانما انتشرت فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الايطالية ، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت الى صقلية فضلا عن ممتلكات البابا خارج ايطاليا ، بحيث أنه يمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التى نعمت بها البابوية كانت السر فى القوة الزمنية التى تمتعت بها (٣) • وقد تعرضت البابوية فى عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) لخطر اللمبارديين الذين استولوا على الأملاك البابوية فى شمال ايطاليا ، كما أدى توسعهم فى أواسط أيطاليا الى تهديد الأراضى البابوية فى تلك الجهات • وربما كان الخطر اللمباردى هو الذى جعل البابوية تحافظ على علاقتها الودية مع الدولة البيزنطية فى ذلك الدور حتى تعثر على نصير آخر يحميها من أخطار الدولة البيزنطية واللمبارديين جميعا (٤) •

والواقع أن البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التى ميزتها طوال العصور الوسطى فى عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم • وقد ولد هذا الرجل فى روما سنة ٥٤٠ فى أسرة عريقة من النبلاء ، ولكنه أظهر منذ حداثته نزعة دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التى ورثها عن أهله فى تأسيس ستة أديرة فى صقلية ودير سابع فى روما • ولم يلبث أن استقال من المنصب

(1) Moss : op. cit. p. 132
(2) Oman : The Dark Ages. pp. 198—199
(3) Lot : The End of the Ancient World. p. 305
(5) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 174

الكبير الذى عينه فيه الامبراطور جستين الثانى ، ووزع ما تبقى لديه من مال على الفقراء والمحتاجين مفضلا الانقطاع للحياة الديرية (١) • وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ ـ على الرغم من تمنعه الشديد ـ أخذت تظهر شخصية هذا البابا الجديد على حقيقتها ، لتعبر عن كثير من الصفات التى امتاز بها أهالى العصور الوسطى ، مثل ولعه باللاهوت واعتقاده فى المعجزات وبغضه للتراث الكلاسيكى وحماسته للديرية (٢) • والى جانب كل ذلك اتصف جريجورى العظيم بالتواضع الجم ، حتى اتخذ لنفسه وهو بابا لقب « خادم خدام الله "Servus Servorum Dei" زيادة على بساطته المتناهية • ولكنه فى مباشرته وظيفته البابوية اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطته العليا كما يتضح من رسائله العديدة الى معاصريه من الأساقفة والملوك لينهاهم فيها عن المفاسد ويأمرهم بالخير والاستقامة (٣)•

وتبدو عظمة جريجورى الأول أشد ما تكون وضوحا فى النواحى السياسية والادارية والتبشيرية ، فحكومته فى روما كانت أقرب الى الحكومة الدنيوية منها الى الحكومة الدينية • ذلك أنه أخذ ينظم وسائل الدفاع ضد اللمبارديين كاعداد الجند وتحصين الأسوار وشحن القلاع ، بل توجيه الهجمات • وفى حالات أخرى كان هو الذى يفاوض اللمبارديين باسم الشعب الرومانى حتى عقد معهم هدنة سنة ٥٩٢ ، كما عقد صلحا نهائيا مع ملكهم أجيولف سنة ٥٩٨ أنهى به الحروب المتواصلة التى استمرت ثلاثين سنة منذ الغزو اللمباردى لايطاليا (٤)• وتشهد رسائل جريجورى الأول ـ التى دونت عند نهاية القرن السادس ـ على مدى دقة هذا البابا وكفايته الادارية • ذلك أن هذه الرسائل تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية عن كيفية ادارة جريجورى لأملاك البابوية الواسعة ، وعن جهوده فى تنمية مواردها والاشراف اشرافا دقيقا على ايراداتها ومصروفاتها (٥) • وقد أراد جريجورى الأول أن يستغل ايراد

---

(1) Dudden : Gregory the Great; vol. 1 p. 106
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 236—237.
(3) Oman: the Dark Ages, p. 201
(4) Dudden : op. cit. vol. 1, p. 246
(5) Moss : op. cit. p. 132

البابوية الضخم فى مختلف الأغراض التى تعود على أبناء العالم المسيحى بالخير ، مثل فدية أسرى المسيحيين ، وتخفيف آلام المجاعات وانشـــــاء المستشفيات للعناية بالمرضى والجرحى ، وتدعيم الكنائس أو اصلاحها بعد أن تعرض كثير منها لبعث اللمبارديين (١) • وهنا نلاحظ أن أفق جريجورى العظيم لم يقف عند الحدود الايطالية ، لأن هذا البابا حرص على أن يشعر جميع أبناء العالم المسيحى بأهميته بوصفه أبا روحيا للجميع ، فاذا ســـمع بحدوث أزمة اقتصادية فى القسطنطينية أسرع بارسال السفن اليها من صقلية محملة بالقمح ، واذا علم بحاجة قبط مصر الى الأخشاب أرسل لهم حاجتهم من سردينيا •• وهكذا (٢) •

وعلى الرغم من ان اختيار جريجورى العظيم لمنصب البابوية تطلب موافقة الامبراطور البيزنطى وقبول البابا الجديد لجميع قرارات المجـــامع الدينية السابقة ، الا أن جريجورى أظهر دائما تمسكا بسيادة كرسى روما على بقية الكراسى الأسقفية فى الشرق والغرب (٣) ، حتى أنه حاول ــدون جدوىــ فرض سيادة البابوية ــ فى الناحية القضائية ــ على الأساقفة الشرقيين بما فيهم بطريرق القسطنطينية • ويبدو أن ضعف النائب الامبراطورى فى ايطاليا ، وافتقاره فى معظم الحالات الى المال والرجال ، ساعد على ازدياد نفوذ البابوية المدنى فى بقية انحاء ايطاليا ، فضلا عما فعله جريجورى من مد نفوذ البابوية الفعلى الى أفريقية وغاليا وأسبانيا وانجلترا (٤) • ذلك أنه عمل على نشر المذهب الكاثوليكى بين القوط الغربيين ، وبذلك أدخل أسبانيا فى حظيرة الكنيسة الغربية ، كما أرسل بعثة القديس أوغسطين الصغير الى انجلترا ، الأمر الذى أدى الى انتشار المسيحية فيها من جهة والى سيطرة البابا على كنيستها من جهة أخرى • أما فى ايطاليا فقد استطاع جريجورى العظيم أن يدعم

---

(1) Deanesly: op. cit. p. 180 & Moss : op. cit. p. 132
(2) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 178
(3) Cam. Med. Hist. vol. 1 p. 246
(4) Dudden : op. cit. vol. 2 pp. 201—237

الكنيسة الكاثوليكية بين اللمبارديين عن طريق تأثيره على زوجـــة ملكهم أجيلولف (١) • وفى غاليا كانت رغبات جريجورى العظيم تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة ، حتى أصبح لهذا لبابا كلمة مسموعة فى جميع أنحاء غاليا • حقيقة أن جريجورى لم يتردد فى طلب معونة الامبراطورية البيزنطية لاخضاع أساقفة اليريا أو تأديب هراطقه الدوناتيين فى شـــمال افريقية (٢) ولكنه بلغ بهذا البابا أنه فى الوقت الذى كان أحوج ما يكون الى مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، لم يتراجع عن تهديد الامبراطور موريس عندما لجأ الأخير الى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجـــال القادرين على الخدمة العسكرية ، وهكذا استطاع جريجورى - بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها - أن يضرب مثلا عاليا احتذاه خلفاؤه من البابوات (٣). ويكفى أنه ترك لخلفائه - عندما توفى سنة ٦٠٤ - بناء بابويا شامخا ونفوذا روحيا واسعا وسلطة زمنية قوية ، كما حقق للمنصب البابوى قسطا من السمو لم يسبق أن حظت به البابوية من قبل (٤) •

على أن هذه المكانة السامية التى أضحت فيها البابوية منذ عهد جريجورى الأول ، سرعان ما أدت الى نوع من التنافس بينها وبين الامبراطورية نتيجة لاعتزاز كل من الطرفين بسمو مركزه ، وهو تنافس أدى الى الصدام أكثر من مرة فى العصور الوسطى • وقد بدأ الاحتكاك أول مرة بين الامبراطور قنسطانز الثانى (قنسطنطيوس) ٦٤١ - ٦٦٨ ، والبابا مارتن الأول (٦٤٩- ٦٥٥) وكان هذا البابا قد عقد مجمعا فى روما سنة ٦٤٩ أعلن بطلان المرسوم الذى أصدره الامبراطور بخصوص تحريم أى نقاش حول المونوفيزيتية ، فى الوقت الذى كانت البابوية تطمع فى تحريم المونوفيزيتية نفسها واضطهاد أتباعها • ولم يستطع الامبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة فأمر نائبـــه فى ايطاليا بانتهاز الفرصة للقبض على البابا ، فتم ذلك وأرسل البابا الى القسطنطينية:

---

(1) Cman : The Dark Ages, p. 202
(2) Moss: op. cit. p. 133
(3) Dudden : op. cit. vol. 2 pp. 238—239
(4) Oman : The Dark Ages. p. 203

حيث حوكم ونفى الى القرم ليموت ٦٥٥ (١) • ويبدو أن حرص الامبراطور قنسطانز على تحقيق سيطرته شجعه على الانتقال الى ايطاليا سنة ٦٦٣ حيث اشتبك مع اللمبارديين فى بعض مواقع فى الجنوب ، ثم قصد روما بعد ذلك حيث قدم له البابا فيتاليان Vitalian (٦٥٧ - ٦٧٢) فروض الولاء والتبعية (٢) • على أن هذه الزيارات أضرت فى الواقع بالامبراطور وسمعته أكثر مما أفادته ، نظرا لأنه لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التى وجدها فى روما ، هذا فى الوقت الذى لم يغفر الايطاليون للامبراطور قنسطانز ما فعله بالبابا مارتن الذى اعتبروه شهيدا • ويبدو أن قنسطانز أحس عندئذ بخطورة ازدياد نفوذ البابوية ، بدليل انه حاول أن يقلم أظفارها ، فمنح رئيس أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطانها الروحى • وقد استمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين سنة ، حتى انتهى الأمر بعودة الأخيرة الى حظيرة البابوية•

ومن الواضح أنه لو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية لاستطاع أن يقف من الامبراطور قنسطانز موقفا صلبا عنيدا ، ولتطور الأمر عندئذ الى نزاع خطير بين البابوية والامبراطورية • ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا ، فخشى أن يتعرض للمصير الذى تعرض له مارتن من قبل وآثر الاستسلام والخضوع ، الأمر الذى أجل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية ، ولكن الى حين (٤) • ذلك أن قسطنطين الثالث (٦٦٨ - ٦٨٥) حرص على علاقته الودية مع البابوية ، ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر فى عهد خليفته جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥) الذى عاد فحرض نائبه فى ايطاليا على القبض على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) وارساله الى القسطنطينية • ولكن النائب الامبراطورى تعرض - عند محاولة تنفيذ هذا الأمر - لمعارضة الحامية البيزنطية نفسها ، فضلا عن أهل روما ، حتى انتهى الأمر بانتصار البابا فى الوقت الذى أدت سياسة الامبراطور جستنيان الثانى

---

(1) Diehl & Marcais : op. cit. p. 231
(2) Idem : p. 239
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 394
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 277—278

الى عزله (١) • وقد ساعدت الفوضى التى تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية فى الاثنتين والعشرين سنة التالية (٦٩٥ - ٧١٧) على ضعف نفوذها فى ايطاليا ، وهو الأمر الذى أعطى البابوية فرصة للظهور والتمتع بسلطات زمنية واسعة ، حتى أن البابا حنا السادس (٧٠١ - ٧٠٥) باشر جمع الضرائب فى روما كما عقد المعاهدات مع دوق بنفنتو اللمباردى •

ثم كان أن ساءت العلاقات الى حد كبير بين روما والقسطنطينية على عهد البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) عندما أخذ الامبراطور ليو الأيسورى يباشر سياسته اللاأيقونية • ويبدو أن جريجورى الثانى استغل هذه الأزمة من جهة ، كما استغل نفوذ الامبراطورية فى ايطاليا - ما عدا الجنوب - من جهة أخرى ، ليتحرر من سلطة الامبراطورية تحررا تاما ، ويجعل سلطة البابا الزمنية فى أواسط ايطاليا حقيقة ملموسة • لذلك استحوذ جريجورى الثانى على السلطات الامبراطورية مثل جمع الضرائب فى ايطاليا سنة ٧٣٥ ، كما أصدر قرار الحرمان ضد النائب الامبراطورى مما يعتبر خروجا على الامبراطور (٢) • وفى الوقت الذى اشتد الخلاف والقتال بين اتباع الامبراطور وأتباع البابا فى ايطاليا ، أعاد اللمبارديون توحيد جبهتهم تحت زعامة ليتوبراند (٧١٢ - ٧٤٣) الذى يعتبر هو الآخر من أعظم ملوك اللمبارديين • وقد عرف عن ليتوبراند تحمسه للكنيسة حتى أنه أسس عددا كبيرا من الأديرة ، فى الوقت الذى اختار ألا يتخذ سياسة معادية للامبراطورية• وكل ما هنالك هو أنه صمم على بسط سيادة الملكية اللمباردية على جميع أنحاء ايطاليا ، مما أوقعه فى صراع مع غيره من زعماء اللمبارديين فضلا عن الامبراطورية والبابوية جميعا (٣) • وهكذا أخذ اللمبارديون يهاجمون الممتلكات الامبراطورية ويستولون على المدن التابعة للامبراطور البيزنطى واحدة بعد أخرى مثل بولونيا وأوزيمو Osimo وريمينى Rimini ويبدو أن ليتوبراند لم يشأ أن يلتحم بالبابوية عندئذ ، فنزل عند رغبة البابا

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 408—409
(2) Deanesly : op. Cit. p. 411
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 290

وسلمه قلعة سوترى Sutri التى انتزعها اللمبارديون من البيزنطيين قرب روما (١) .

وفى ذلك الوقت استمر جريجورى الثـــانى يرد على الامبراطور ليو الثالث فى لهجة عنيفة ، مقبحا رأيه فى تحريم عبادة الأيقونات ، مهددا اياه بالاحتماء باللمبارديين اذا جرؤ الامبراطور على ارســـال جيش ضد روما (سنة ٧٢٩) (٢) . ومن الواضح أن الاحتماء باللمبارديين كان آخر ما يمكن أن تلجأ اليه البابوية ، لأن وقوع روما فى قبضة ملك قوى مثل لتوبراند معناه القضاء التام على ما تطمع فى تحقيقه البابوية من سلطة زمنية . ثم انه ليس من المعقول أن تعمل البابوية على تخليص نفسها من سيطرة الامبراطور البيزنطى لتلقى بنفسها تحت رحمة الملك اللمباردى . وهكذا يبدو أن جريجورى الثانى - عندما هدد الامبراطور البيزنطى بالاحتماء باللمبارديين - لم يكن جادا فى تهديده ، بدليل أنه قام عندئذ ببذر بذور الفرقة بين لتوبراند فى الشمال ودوقتى بنفنتو وسبوليتو فى الجنـــوب (٣) وسرعان ما أدركت البابوية أنها نجحت فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى أواسط ايطاليا ، ولكنها أصبحت وحيدة وجها لوجه أمام خصم آخر أقرب وأشد خطرا وهم اللمبارديون .

وقد حدث ذلك فى الوقت أن توفى البابا جريجورى الثانى وخلفه البابا جريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١) ، الذى كان هو الآخر من كبارالمتحمسين للأيقونية ، مما أوقعه فى عداء مرير مع الامبراطور البيزنطى . وكان أن رد الامبراطور ليو الأيسورى على موقف البابا الجديد باصدار مرسوم لتحديد اختصاص البابوية القضائى وفصل أسقفيات اليريا وجنوب ايطاليا عن البابوية وسلطانها (٤) . وفى العام التالى (سنة ٧٣٢) أعد الامبراطور ليو الثالث

---

(1) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 181.
(2) Oman : The Dark Ages, pp. 282—283
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 691—695
(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 267

أسطولا وحملة لاسترداد أملاك الامبراطورية من اللمبارديين ، والقبض على جريجورى الثالث . ولكن الطبيعة أبت الا أن تعاكس الامبراطور ، فهبت زوبعة فى البحر الأدرياتى حطمت الأسطول الامبراطورى وقضت على المشروع البيزنطى . وتعتبر هذه آخر محاولة جدية بذلتها الامبراطورية البيزنطية لاسترداد نفوذها المفقود فى ايطاليا ، اذ اضطر الأباطرة الشرقيون بعد ذلك الى ترك البابوات وشأنهم فى حين لم يعد للنائب الامبراطورى نفوذ يذكر (١).

التحالف بين البابوية والفرنجة :

أما عن الموقف فى ايطاليا فقد عمل الملك ليتوبراند على نشر السلام فى أنحاء البلاد طوال ثمانية الأعوام التى أعقبت اتفاقيته مع البابوية سنة ٧٣٠ . وتدل الشواهد التاريخية على أن ليتوبراند كان رجلا تقيا ، احترم البابوية وناصر المسيحيين ضد أعدائهم . من ذلك أنه عندما غزا المسلمون اقليم بروفانس (٧٣٦ - ٧٣٧) طلب شارل مارتل مساعدة ليتوبراند ضد مسلمى الأندلس ، فأسهم اللمبارديون فى طردهم من غاليا (٢) . على أن جو السلام الذى ساد ايطاليا حتى سنة ٧٣٨ ، لم تلبث أن أفسدته ثورة دوق سبوليتو ضد ليتوبراند (٣) . والمهم من أمر هذه الثورة هو أن فشلها أدى الى فرار الأمير الثائر الى روما محتميا بالبابوية مما أثار ليتوبراند وجعله يزحف الى روما ويحاصرها . وفى هذه الأزمة لم يستطع جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، فلم يجد البابا أمامه سوى شارل مارتل رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، فأرسل اليه طالبا المساعدة ضد اللمبارديين (٧٣٩) (٤) . على أن الظروف تجمعت عندئذ لتجعل مساعدة شارل مارتل للبابا أمرا متعذرا ، اذ كان الأول مازال مشغولا بأمر المسلمين الذين لم تنقطع اغاراتهم على غاليا ، فضلا عن أن شارل مارتل

---

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 284—285
(2) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 129
(3) Oman : The Dark Ages, p. 285
(4) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 132

كان لا يزال يذكر فضل ملك اللمبارديين فى مساعدته منذ عدة سنوات ضد المسلمين . وهكذا لم يصادف طلب البابا جريجورى الثالث قبولا من شارل مارتل ، ولا سيما أن رجال الدين الفرنجة كانوا معادين لشارل مارتل بسبب استيلائه على أراضى الكنيسة . واذا كان ليتوبراند قد استغل هذه الظروف فى الاستيلاء على دوقية سبوليتو ثم مهاجمة المناطق المجاورة لروما (١) ، الا أن الأوضاع أخذت تتغير عندما توفى البابا جريجورى الثالث وشارل مارتل جميعا سنة ٧٤١ ، فى الوقت الذى عاد النائب الامبراطورى الى رافنا ليجدد جهوده ضد اللمبارديين . وهنا أدرك ليتوبراند أن مصالحه تتطلب الاتفاق مع البابا الجديد زكريا (٧٥١ — ٧٥٢) ، فتعهد له بالمحافظة على السلام لمدة عشرين سنة ، ورد كافة المدن والممتلكات التى انتزعها اللمبارديون من البابوية . ومع ذلك فان هذه الحلول لم تنجح فى اطفاء ثورة الغضب والكراهية التى أثارتها أعمال اللمبارديين فى نفوس البابوات . لذلك من الخطأ الظن بأن البابوية هدأت بالا بعد أن استرضى ليتوبراند البابا زكريا سنة ٧٤٢ ، فكل ما هنالك هو أنها أخذت تتربص الدوائر باللمبارديين وتترقب الوقت المناسب للايقاع بهم (٢) .

ثم كان أن مات ليتو براند سنة ٧٤٣ قبل أن يتمكن من مهاجمة النائب الامبراطورى ، فتعاقب فى حكم اللمبارديين الملك هلدبراند (٧٤٣ — ٧٤٤). ثم راتشيس Ratchis (٧٤٤ — ٧٤٩) ثم استولف (٧٤٩ — ٧٥٦). وقد أظهر أستولف هذا تمسكا شديدا بسياسة ليتوبراند الخاصة بتوحيد ايطاليا ، مما جعل اللمبارديين يعودون من جديد الى تهديد الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا . وكان أن وصلت مملكة اللمبارديين فى عهد أستولف هذا الى أقصى درجات الاتساع بعد أن نجح فى الاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١ (٣) ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ، أو حتى معارضة من الامبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) الذى كان مشغولا فى بلاده

---

(1) Thompson : op. cit. Vol: 1 pp. 182—183
(2) Oman : The Dark Ages p: 287
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 151

بالحركة اللاأيقونية من جهة وبمحاربة البلغار والفرس والمسلمين من جهة أخرى (١) • وبعد ذلك اتجه أستولف نحو اخضاع الممتلكات البابوية ، بل البابوية نفسها ، فطلب من البابا ستفن الثانى (الثالث) (٧٥٢ - ٧٥٧) أن تعترف روما بالتبعية للملك اللمبارديين فضلا عن قيام البابوية بدفع جزية سنوية • وقد حاول البابا أن يخيف أستولف بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو أن يهدده بطلب معونة الامبراطور البيزنطى ، ولكن هذه التهديدات وأشباهها لم تنجح فى تحويل الملك اللمباردى عن قصده • وفى هذا الموقف الحرج وجد البابا ستفن نفسه مضطرا الى العمل بسرعة للخروج من ذلك المأزق • وشاءت الظروف أن يكون ذلك فى الوقت الذى أعلن بيبين القصير - ابن شارل مارتل - نفسه ملكا سنة ٧٥٢ بعد عزل آخر ملوك البيت الميروفنجى • وكان أن تم الاتصال سرا فى أوائل سنة ٧٥٣ بين البابا ستفن الثانى من جهة وبيبين القصير من جهة أخرى ، وترتب على ذلك فرار البابا فى أكتوبر ٧٥٣ الى غاليا حيث تم الاتفاق بينه وبين بيبين • وفى يوليو ٧٥٤ أعاد البابا تتويج بيبين بيده وأضفى عليه لقب البطريقية من باب التشريف (٢) •

أما أستولف فقد أفزعه نبأ التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية ، وحاول اصلاح الأمور ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لم تلبث أن غزت جيوش الفرنجة شمال ايطاليا فى ربيع سنة ٧٥٤ • وهنا لم يستطع أستولف المقاومة فحلت به هزيمة جعلته يفر مدحورا الى بافيا ، حتى حضر بيبين القصير بنفسه وحاصر أستولف فى معقله • وقد عرض أستولف الصلح فى هذه المرحلة على أساس أن يقدم فروض التبعية الشخصية لملك الفرنجة وأن يرد للبابا حقوقه المسلوبة • وبعد توقيع هذه الاتفاقية عاد البابا ظافرا الى روما كما رجع بيبين الى بلاده • ولكن لم يكد أستولف يعلم بعودة بيبين حتى أخذ يماطل فى تنفيذ اتفاقية الصلح ، فامتنع عن رد المدن التى سبق أن انتزعها من

(1) Lot : The End of the Ancient World. p. 302
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 584—585

البابوية ٧٥٣ ، بل عاد الى محاصرة روما فى شتاء ٧٥٥ - ٧٥٦ ، مما تطلب عودة بيبن القصير الى ايطاليا للمرة الثانية لينزل هزيمة أخرى باللمبارديين(١). وفى هذه المرة كانت الشروط التى عرضت على أستولف أشد قسوة ، اذ ألزمه بيبن بتقديم ثلث دخله الملكى بمثابة جزية سنوية فضلا عن مدينة رافنا وعدد آخر من المدن التى أخلاها اللمبارديون ، فى حين توفى أستولف سنة ٧٥٦ • ومن ثم أخذت دولة اللمبارديين فى الذبول والانحلال ولم تعد تمثل خطرا على البابوية أو تسبب ازعاجا لدولة الفرنجة(٢) •

أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة فى ايطاليا ، اذ امتدت من البحر الأدرياتى ورافنا شرقا حتى روما غـــربا عبر الأبنين ، فى حين فشلت المملكة اللمباردية فى محاولتها توحيد ايطاليا • وهـــكذا اكتسبت البابوية سلطانا زمنيا الى جانب سلطانها الروحى ، حتى ظلت عقبة كأداء فى سبيل الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر • ومع أن حوادث سنة ٧٥٦ لم تؤد الى اتخاذ خطوة نهائية فاصلة لتحرير البـــابوية من روابطها الرسمية بالامبراطورية البيزنطية ، الا أنه من الواضح أن البابوية تحررت فعلا - وبطريقة عملية - من تبعيتها للقسطنطينية •

(1) Idem, pp. 589—590
(2) Thompson : op. cit. Vol. I p. 186

الباب الثامن

ظهور الديرية

شهد العصر الذى أخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد تدريجيا فى الامبراطورية الرومانية ، نشأة حركة دينية كانت فى أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث أن أصبحت جزءا أساسيا من النظام الكنسى . والواقع أنه يمكن القول بأن بذور حياة الزهد والرهبانية وجدت فى أصول المسيحية الأولى ، فالعهد الجديد لم يخل من اشارات عن تحريض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك (١) ، هذا فضلا عما جاء فى أقوال القديس بولس من حث على حياة العزوبة (٢) التى تعتبر ركنا مهما من أركان حياة الزهد والرهبانية (٣) . واذا كنا نسمع عن أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية فى أوائل عهد المسيحية (٤) ، الا أن هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح شيئا مألوفا فى الشرق المسيحى قبل القرن الرابع ، فى حين لم ينتشر فى الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس . ويفهم من هذا أن الحياة الديرية شرقية الأصل ، بل انها أقوى أثر تركه الشرق فى المسيحية (٥) .

والواقع أن الزهد والعزلة – وهما من الدعائم الأولى للحياة الديرية – مهدا فى أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التى تحولت فيما بعد الى حياة ديرية اجتماعية . وهنا نستطيع تفسير الرغبة فى العزلة والتقشف

---

(١) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل » . (انجيل متى – الاصحاح التاسع عشر ١٢) .

(٢) « وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (العهد الجديد – رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس – الاصحاح السابع – ١) .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 521

(4) Bury : Hist of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 383

(5) Thompson : Vol. 1 p. 219

بأنها كانت ثورة نفسية ضد ما ساد المجتمع الرومانى فى القرن الرابع من فساد . فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة ، وبين فساد المجتمع الخارجى من جهة أخرى ، دفع كثيرا من المخلصين الى الفرار نحو الأماكن النائية ينشدون راحة الفكر والضمير (١) . هذا فضلا عن أن الاضطهاد الوحشى الذى لقيه المسيحيون ، والذى بلغ أشده فى أواخر عهد دقلديانوس جعل الكثيرين يفكرون فى الفرار بعقيدتهم الى الأماكن البعيدة . وهكذا أصبح نبذ الممتلكات والأهل والموطن نوعا من أنواع الرياضة النفسية التى تستهدف خدمة الدين ، فالفقر والحرمان يؤديان الى طهارة النفس ، والعزلة فى جو تكتنفه المصاعب من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام .

والمعروف أن حياة الرهبانية ظهرت لأول مرة فى المسيحية فى مصر ، حيث ساعدت طبيعة البلاد وجوها على نشأة هذه الحياة وتطورها (٢) . ويعتبر القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ - ٣٥٦) والقديس أنطون - المعاصر له - أول مثلين نعرفهما عن الرهبانية فى المسيحية . ويبدو أننا لا نستطيع الكلام بالتفصيل عن حياة القديس بولس نظرا لأن المتأخرين أضفوا عليه هالة واسعة من النور يصعب فى ضوئها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال ، حتى قيل أنه قضى سبعة وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهوف طيبة بمصر العليا . أما القديس أنطون فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبان فى مصر العليا ، خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة الا فى انتاج ما يلزمهم من طعام وملبس ، فالحياة الدينية المثلى فى نظر القديس أنطون قامت على أساس الانفرادية (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف

(1) Ibid.
(2) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal p. 86.
(3) Painter. op. cit. p. 17

البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية . فليس من الدين فى شىء أن يبتعد الفرد عن اخوانه من بنى الانسان ليعيش وحيدا وسط الهوام ، يقضى أيامه فى جوع وحرمان ، أو يأكل ما تيسر له من طعام فاسد دون أن يرتدى شيئا سوى أسمال بالية ، ويحرم نفسه حتى من نظافة الجسد (١). لذلك كان لابد للعقلاء من الراغبين فى الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام آخر يتفق وطبيعة البشر . ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من جهة وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى . وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر (٣) . أما القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى ، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا فى جيش قسطنطين ، حتى اهتدى الى المسيحية فانسحب الى الصحراء ليباشر حياة الرهبانية الانفرادية متبعا مذهب « العزلة عبادة » . ولم يلبث أن ضاق باخوم ذرعا بهذه الحياة التى لا تتفق وطبيعة البشر بحكم أن الانسان اجتماعى بالطبع ، ولذلك شيد أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة حوالى ٣١٥ - ٣٢٠ (٤) . وهنا يلاحظ ان باخوم تأثر عند اقامة ديره الجديد بما شاهده فى الجيش الرومانى من نظم ، فجاء الدير فى تصميمه وخلواته أشبه شىء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية ، كما أن القديس باخوم استن لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المعـــــروفة فى الجيش الرومانى ، ففرض على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى ، زيادة على مباشرة الطقوس الدينية . وسرعان ما تكشفت للمعاصرين مزايا هذا النوع الجديد من حياة التعبد ، فأقبلوا على الديرية اقبالا شديدا ، حتى أن المؤرخ المعاصر بلاديوس Palladius الذى زار مصر حوالى سنة ٣٩٠ قدر أتباع القديس باخوم بثلاثة آلاف راهب ، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى (١) . على أنه يلاحظ أيضا

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 219-220
(2) Bury : op. cit. p. Vol. 1 p. 338
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 524

بخصوص هذه الأديرة الباخومية ، أنها كانت منفصلة بعضها عن بعض ، ولكل منها ادارته المستقلة (٢) ، كما أن الحياة الاجتماعية فيها كانت محدودة بل ان الطابع الغالب على الحياة داخل هذه الأديرة كان يميل الى العزلة والانفرادية لأن كل راهب عاش شبه مستقل فى خليته أو قليته مع الزامه بالاجتماع مع اخوانه للقيام بالصلوات المشتركة (٣) .

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبانية والديرية خارج حدود مصر فى الجزء الشرقى من العالم الرومانى ، أى فى بلاد الشام وقبرس وما بين النهرين وآسيا الصغرى (٤) . ففى بلاد الشام نسمع عن القديس سيمون العمودى (ت ٤٥٩) الذى اتخذ مقامه فوق عمود لمدة ثلاثين عاما ، مكتفيا بأن يدلى سلة صغيرة بواسطة حبل ليحصل فيها على ما يحتاج اليه من لوازم أساسية (٥) . أما فى آسيا الصغرى فقد أسست أخت للقديس باسل ديرا للراهبات سنة ٣٥٨ فى اقليم بونطس (Pontus) أما القديس باسل نفسه (٣٢٩ - ٣٧٩) فقد درس الأنظمة الأنطونية والباخومية ولم تعجبه ، فأسس مؤسسة ديرية فى قيصرية الجديدة (Neocaesarea) بآسيا الصغرى أيضا حوالى سنة ٣٦٠ . وسرعان ما أصبحت التنظيمات التى وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للاديرة الباسلية التى انتشرت فى الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صارت هذه الأديرة تتزعم الحياة الديرية فى الامبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى (٦) .

والواقع أن نظام القديس باسل هذا جاء مزيجا من المثالية والواقع العملى، اذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل الدير ،وجعل

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 220.
(2) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 37
(3) Painter : op. cit. pp. 17—18
(4) Workman : op. cit. pp. 111—113
(5) Stephenson : op. cit. p. 87
(6) Workman : op. cit. pp. 113—115

الرهبان يشتركون اشتراكا فعليا فى الحياة العامة والطعام والعمل والعبادة ، كما نبذ فكرة اقامة الأديرة فى الصحراوات والمناطق المتطرفة وفضل اقامتها على مقربة من المدن ان لم يكن فى المدن نفسها (١) • كذلك حرم القديس باسل تعذيب النفس واهمال الجسد وحث على العناية بالنظافة والعمل ، فبدلا من أن يترك الرهبان أجسادهم تذبل وتبلى بدعوة التقشف والزهد ، جعلهم القديس باسل يوجهون نشاطهم نحو أعمال نافعة ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل المنطقة التى يقع فيها الدير (٢) • وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النـــافع المفيد داخل الدير ، مثل الفلاحة والنسيج وصناعة الجلود والأخشاب والبناء، مع تحريم الملكية الخاصة على أعضاء الدير ، بحيث لا يمتلك الراهب الا ثوبه ونعليه • وكان يراعى فى ثياب الراهب البساطة والرخص والنظافة ، أما طعامه فكان كافيا مغذيا دون اسراف • ومن هذا كله يمكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقى للحياة الديرية فى المسيحية (٣) •

ولكن على الرغم من أن الديرية احتلت مكانة ملحوظة فى الحياتين الدينية والاقتصادية منذ القرن الرابع ، الا أنها لم تخل من مساوىء وعيوب • ذلك أن الديرية قامت فى أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب التدين، فكل راهب يفكر فى انقاذ نفسه وتجنيبها الضلال دون أن يفكر فى غيره بالقدر الذى يفكر به فى نفسه ، بل ربما أوقعته عزلته عن المجتمع البشرى الكبير فى كثير من الأخطاء (٤) • واذا كان الراهب يقوم بشىء من أعمال البر والاحسان فانه لا يقوم بها رحمة بأخيه الانسان وانما رحمة بنفسه ووسيلة يتقرب بها الى الله • وهو يعمل داخل الدير لا لأن العمل نشاط نافع لنفسه وللمجتمع أو وسيلة لمساعدة غيره ، وانما يتخذ من العمل منفذا لتصريف طاقة الحماسة المكبوتة فى نفسه • فالراهب يهجر العالم ويلوذ بديره لأنه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 527—528
(2) Thompson : Vol. 1 p. 221
(3) Painter : op. cit. p. 18
(4) Taylor : The Mediaeval Mind. Vol. 1 pp. 373—374

فى حقيقة الأمر أجبن من أن يواجه مصاعب الحياة ويعمل على تعديل ما بها من انحراف ، وتقويم ما فيها من آثام وشرور (١) . وهكذا يبدو أنه على الرغم من اتجاه بعض كبار رجال الكنيسة — مثل حنا فم الذهب — الى اعلاء شأن الحركة الديرية ، الا أن ذلك لا يخفى الحقيقة الهامة ، وهى أن هذه الحركة أصبحت عاملا من عوامل التفكك والانحلال التى أخذت تنخر فى جسم المجتمع . ويبدو أن هذه الحقيقة اتضحت للمعاصرين مذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثانى من القرن الرابع عندما شكا مجمع جانجرا Gangra سنة ٣٦٢ من أن نشاط الحركة الديرية أدى فعلا الى تمزيق كيان الأسرة وشل كثير من مرافق الحياة العامة (٢) . هـذا فى الوقت الذى انتاب الفزع الحكومة الرومانية لكثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم لينخرطوا فى سلك الديرية ، فاستنت قانونا يقضى بتحريم دخول الأديرة على اللاحقين للخدمة العسكرية . وربما كان من العوامل التى دفعت الدولة الى اتخاذ مثل هذا القرار هو أن الديريين أخذوا يشتبكون أحيانا مع الكنيسة والدولة ويبعثون أتباعهم المسلحين بالعصى الغليظة لفرض آرائهم على المجامع الدينية (٣) . هذا فضلا عن أن الرهبان فاقوا غيرهم من الطوائف المسيحية فى شدة تعصبهم ، الأمر الذى جعلهم يحرضون جموع الناس على التطرف فى العنف ضد الوثنيين والهراطقة . وقد اتضح تعصب الرهبان الشديد ضد كل ما له علاقة بتقاليد الوثنية وحضارتها فى أن مولد الحركة الديرية جاء مصحوبا من الناحية الزمنية بآخر حلقات الصراع بين المسيحية والوثنية المتداعية (٤) . وهنا يجب أن نتذكر أن التراث الكلاسيكى فى النواحى الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية يرتبط ارتباطا شديدا بالوثنية وتقاليدها ، مما جعل الديريين يعملون على هدم هذا التراث والقضاء عليه دون أن يفرقوا بين عقائد الوثنية وحضارتها . وحسبنا أن كثيرا من الأعمال

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 221—222
(2) Workman : op. cit. p. 56
(3) Moss : op. cit. p. 37
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 221—222

الهدامة البشعة التى اقترفت ضد التراث الوثنى قام بها الديريون ، مثل تحطيم المعابد الوثنية وما بها من مخلفات فنية ، وحرق المكتبات وخاصة مكتبة الاسكندرية الثانية ، واضطهاد رجال الفكر والفلاسفة والأبرياء بل تحريض الغوغاء على سفك دمائهم ، كما حدث للفيلسوفة هياشيا Hypatia (١) .

ومهما يكن من أمر فان انتشار الحياة الديرية أدى الى وجود فئتين من رجال الدين ، الأولى تشمل رجال الدين النظاميين Regula أى رجال الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة ، وهؤلاء اختلفوا فى وضعهم القانونى والتاريخى والاجتماعى عن الفئة الثانية من رجال الدين « الدنيويين » أو « العلمانيين » (Saecula) ، أى رجال الكنيسة من أساقفة وشمامسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العكس من الديريين كانوا أكثر تدخلا فى الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعامة الناس(٢) . وبقدر ما كان الفارق واضحا بين هاتين الفئتين وبقدر ما كان التنافس شديدا بينهما حول النفوذ والثروة ، بقدر ما تأثرت احداهما بالأخرى وأثرت فيها . من ذلك أن الهبات والعطايا - من أرض وعقار ورقيق وغيرها - أخذت تنهال على مقدمى الأديرة فى القرن السابع مثلما انهالت على الأساقفة فى القرن السادس . ومن جهة أخرى أصرت الكنيسة فى بعض العصور على تطبيق مبدأ عدم زواج رجالها أسوة بما كان عليه الديريون(٣) . حقيقة أن فكرة عدم زواج رجال الدين بوجه عام أكثر قدما من الديرية نفسها ، ولكن هذه الفكرة لم تقو وتشتد وتصبح مجالا للبحث والنقاش فى المجامع الدينية الا بعد انتشار الحياة الديرية .

الديرية فى غرب أوربا :

وصلت الحياة الديرية الى غاليا وايطاليا وشمال افريقية قبل قيام الدولة

---

(1) Ibid.
(2) Stephenson : op. cit. p. 92.
(3) Eyre : op. cit. p. 215

الميروفنجية(١) ، وكان النظام الديرى الذى انتشر فى الغرب الأوربى قبل نهاية القرن الرابع شديد الشبه بالنظام الباخومى الذى عرفته مصر(٢) . ذلك أن كثيرا من الحجاج الغربيين الوافدين من روما وغاليا وأسبانيا زاروا الأديرة الباخومية فى مصر ونقلوا معهم فكرتها الى الغرب(٣) . هذا الى أن جيروم ترجم سنة ٤٠٤ نظام باخوم الديرى الى اللاتينية ، وبذلك وضع أمام الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التى عرفتها مصر(٤) .

على أن تاريخ الديرية فى غرب أوروبا يرتبط بأربعة أسماء لامعــة هم القديس كاسيان (حوالى ٣٦٠ - ٤٣٥) والقديس مارتن التورى (حوالى ٣١٦ - ٣٩٧) والقديس قيصر الآرلى (ت ٥٤٢) والقـــديس بندكت (حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣) . ويعتبر أول هؤلاء - وهو القديس كاسيان - المؤسس الحقيقى للديرية الغربية على الرغم من وجود بعض رهبـــان فى الغرب - وبخاصة فى غاليا - قبل عصر كاسيان . وقد امتاز نظام كاسيان بروح الابتكار لأنه لم تسبق له رؤيه الأديرة الباخومية ، ومن ثم جاء نظامه وليد خبرته(٥) . أما القديس مارتن فقد فاق كاسيان فى اتساع نفوذه لأن الأول نجح فى اكتساب [illegible] الرأى العام الشعبى وعطفه فى حين فشـــل الثانى فى ذلك . وكان مارتن قد انتخب بالاجماع أسقفا لتور سنة ٣٧٢ ، وعلى مقربة منها أسس ديره الشهير (مارموتيه Marmoutier) (٦) . ومع ذلك فان القديس مارتن لم يترك أثرا واضحا فى تنظيم الحياة الديرية ، اذ قضى معظم حياته فى محاربة الوثنية فى غاليا ، ولا سيما المناطق الريفية ، مما جعل الوثنية وأنصارها يفرون الى الغابات والمستنقعات حيث استمروا عدة سنوات . أما القديس قيصر الآرلى فاختلف عن زميليه السابقين فى أنه

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 70
(2) Stephenson : op. cit. p. 88
(3) Moss : op. cit. pp. 36—37
(4) Workman : op. cit. p. 117
(5) Idem : p. 231
(6) Deanesly : op. cit. p. 71

عاش فى الوقت الذى كان الفرنجة قد غزوا غاليا فعلا ، ولذلك نجد اسمه مقحما فى كثير من الأحداث السياسية والدينية المعاصرة . وقد وضع نظامه للرهبان والراهبات يتضح فيه تأثره بآراء كـل من كاسيان والقـديس أوغسطين . كذلك وضعت شقيقة قيصر ، وهى القديسة قيصرية Caesaria نظاما لدير الراهبات فى آرل Arles بمعاونة أخيها ، وينص هذا النظام على أن تشغل الراهبات وقتهن بالغزل والطهى فضلا عن نسخ الكتب(٣) . وهكذا أخذت الأديرة تنتشر فى غاليا فى عهد خلفاء كلوفس ، ولا سيما أن الملوك والأفراد أسسوا عددا كبيرا منها(٣) .

أما ايطاليا فيلاحظ أن الحركة الديرية لم تتقدم فيها حتى القرن السادس لعدم ظهور أحد أعلام الديرية ومؤسسيها فى تلك البلاد ، كما كان الحال بالنسبة لباخوم فى مصر وباسل فى آسيا الصغرى وكاسيان فى غاليا(٣) . وهكذا يمكن القول بأنه حتى بداية القرن السادس كانت غاليا هى البـلد الوحيد فى غرب أوربا الذى كانت به مجتمعات ديرية منظمة ، وذلك على الرغم من وجود رهبان متفرقين أو جماعات غير منظمة من عشاق حياة الزهد فى كثير من بلاد الغرب . ولكن الوضع أخذ [illegible] فى القرن السادس نتيجة لجهود ثلاثة رجال نفخوا فى الحركة الديرية بايطاليا روحا جديدة وأعطوها طابعا غربيا ، وهؤلاء الرجال هم بندكت وكاسيدور وجريجورى(٤) . أما القديس بندكت فهو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى الذى عرف باسمه والذى جعل الديرية الايطالية تحتل مكان الصدارة فى الغرب بعد أن حل النظام البندكتى محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة ، كما تمتع — لأول مرة فى تاريخ المنظمات الديرية — بتأييـد البابوية وعطفهـا . ولا يمكن أن نصف هذا النظام البندكتى — الذى أحرز النصر النهائى فى

---

(1) Idem. p. 74
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 147
(3) Dudden : Gregory the Great : Vol. 2, p. 160
(4) Idem p. 161

غرب أوربا — بأنه باخومي أو باسلي ، لأن له طابعه الخاص الذى لا يوصف الا بأنه بندكتي(١) •

وقد ولد القديس بندكت هذا حوالى سنة ٤٨٠ فى أسرة ايطالية معروفة بالثراء والأرستقراطية ، فأرسل الى روما ليتلقى تعليمه ، ولكنه ضاق ذرعا بما لمسه من مظاهر الفساد الخلقي وآثر الفرار الى مكان جبلي منعزل ، حيث عاش في كهف بعيد معتمدا على ما يمده به المقـــربون من مأكل ولوازم ضرورية(٢) • ولم تلبث أن ذاعت شهرة هذا الرجل التقى ، فقصده الناس طلبا للبركة حتى تجمع حوله عدد من المريدين ، وعندئذ فكر بندكت — حوالى سنة ٥٢٠ — فى الانتقال الى مكان بعيد عن روما وأرسل بعض أتباعه للبحث من موضع أكثر ملاءمة • وكان أن عاد هؤلاء ليخبروا كبيرهم بأنهم عثروا على مكان مناسب فى منتصف الطـــريق بين روما ونابلى عنـــد مونت كاسينو ، حيث يوجد معبد قديم للاله أبولو ما زال يتردد عليه بعض الفلاحين من المناطق المجاورة(٣) • وهكذا اختار بندكت ذلك الموضـــع لاقامة ديره الأول مستخدما فى ذلك أحجار المعبد الوثنى القديم • ثم أخذ رهبان الدير الجديد يعملون فى تطهير المنطقة المجاورة من الغابات والمستنقعات واستصلاح أراضيها للزراعة ، حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالى المناطق القريبة بالغلات والمحصولات المختلفة خلال أوقات الشدة(٤) •

على أن المهم فى دير مونت كاسينو هو أنه أصبح مركزا وأبا روحيا لشبكة واسعة من الأديرة التى تأسست فى غرب أوربا وفق النظام الأساسى الذى وضعه القديس بندكت لهذه المنظمة(٥) • ذلك أن بندكت كان على علم تام بمساوىء الديرية الشرقية وعيوبها ، كما أنه أحاط بنظام الأديرة الباسلية بعـــد أن

(1) Stephenson : op. cit. p. 88.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 536
(3) Workman : op. cit. p. 142
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1. pp. 226—227
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 551

ترجمت مبادىء هذا النظام من اليونانية الى اللاتينية ، مما دفع القديس بندكت الى تلافي هذه العيوب في نظامه الجديد الذي أصبح من أعظم التنظيمات الدينية في العصور الوسطى ، كما صار أساسا لجميع التنظيمات الديرية التالية(١) • وكان النظام البندكتي يقوم على ثلاثة أركان أساسية هي انكار الذات والطاعة والعمل • وهكذا ساد الأديرة البندكتية جو من التعبد والهدوء والنظام والعمل اليدوي ، بحيث لم يترك هذا كله مجالا للأنانية والكبرياء واللغو والخمول(٢) • وكان ينبغي على من يريد الانضمام الى الدير البندكتي أن يقضي أولا فترة تحت الاختبار حتى تثبت صلاحيته واخلاصه ، وبعد ذلك يقسم يمين الولاء لنظام الدير ، وعلى أن يظل عزبا فقيرا مطيعا ، وعندئذ يتخلى عن ارادته ليخضع خضوعا تاما لمقدم الدير - وهو رئيسه المنتخب - فلا يمكنه أن يخرج خارج أسوار الدير الا بتصريح من ذلك المقدم(٤) • ومن هذا يتضح أن مقدم الدير البندكتي كان يتحمل مسئولية جسيمة لأنه هو المسئول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب ، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير • لذلك خول القديس بندكت مقدم الدير سلطة عليا في كل شيء ، فرأيه هو النهائي في جميع المسائل ، ولا يجوز الالتجاء الى أية جهة أخرى لنقض قراراته ، هذا وان كان على هذا المقدم أن يستشير بقية رهبان الدير قبل أن يبت في أمر هام(٤) •

أما عن الحياة داخل الدير البندكتي فامتازت بالمساواة التامة بين أعضائه ، فالحر والعبد والشريف والوضيع كلهم سواء دون أن يكون هناك فضل لعضو على آخر الا بالعمل الطيب • وكانت روح الاعتدال تسيطر على حياة الرهبان ، فيأكلون طعاما كافيا ، وينامون ما يقرب من ثمان ساعات ليلا ، كل منهم في فراشه الخاص ، مع عدم حرمانهم من قدر معلوم من النبيذ • واذا كانت العبادة هي الركن الأول من أركان الحياة الديرية ، اذ يجتمع الرهبان

---

(1) Idem : Vol. 5. p. 658
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 227
(3) Painter : op. cit. pp. 74—75
(4) Workman : op. cit. p. 146

للاشتراك فى الصلاة والترتيل ثمان مرات يوميا (١) ، الا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة ، فقال بأن العمل عبادة Laborare est orare وخصص لرهبان الدير ما يقرب من سبع ساعات يوميا يقضونها فى فلاحة الأرض . أما كبار السن من أعضاء الدير الذين لا يحتملون مشقة العمل فى الحقل ، فكانوا يكلفون أعمالا تتفق ومقدرتهم ، كبعض الصناعات الخفيفة أو طهى الطعام واعداده ، أو نسخ الكتب الدينية ، أو تعليم الرهبان الجدد أو الأطفال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا فى مدرسة الدير(٢) .

أما الرجل الثانى الذى ترك أثرا واضحا فى تطور الديرية فى ايطاليا ، بل فى الغرب الأوربى فهو كاسيدور الذى اعتزل خدمة الملكية القوطية فى ايطاليا بعد حياة سياسية حافلة بالعمل الكثير ، وآثر الانقطاع لحياة الرهبانية ، وذلك قبل وفاة القديس بندكت بأربع سنوات أو خمس . وقد أسس كاسيدور ديرين فى كالبريا موطن آبائه وأجداده(٣) . وهنا نلاحظ أنه آمن بأن الحياة الديرية لا تستلزم كراهية الطبيعة وجمالها أو ضرورة حرمان الفرد من الضروريات التى تحقق له السعادة والراحة ، مما جعله يعمل على ادخال قسط من البهجة والجاذبية على الحياة الديرية . على أن أهم ما عنى به كاسيدور هو أن يجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفة اللاهوت والعلوم الدينية فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضا « لأن عقولنا تتدرب على فهم الانجيل والكتابات الدينية وعن طريق دراسة الأدب الدنيوى» . لذلك تحمل كاسيدور كثيرا فى سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحوى مجموعة نادرة من المخطوطات التى تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ، فرجال اللاهوت يجدون فيها نسخا مصححة مقارنة من الانجيل زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين . أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسيدور مجموعة من انتاج رجال الأدب والبلاغة - شعرا ونثرا -

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538
(2) Stephenson : op. cit. pp. 91—92
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538

فوق ما جمع من كتب التاريخ والجغرافيا والموسيقى والعلوم • وهكذا يرجع الفضل الى كاسيدور في زيادة القيمة العلمية للأديرة ، وهى الناحية التى ظهر أثرها فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية فى غرب أوربا(١) •

وأخيرا يأتى جريجورى الأول ، وهو الديرى الذى أصبح بابا ليقوم بدور المنظم للحياة الديرية فى غرب أوربا • فالفارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يسهم مثلهما بنواح مبتكرة فى نظم الحياة الديرية ومثلها ، ولكن جهوده ظهرت فى تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذى أتى به القـديس بندكت فضلا عن تحديد العلاقة بين الديرين من جهة والأساقفة ورجـال الدين العلمانيين من جهة أخرى • وهكذا نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب بين الحياة الديرية من جانب والكنيسة والبابوية من جانب آخر ، وهو أمر لا نجد له شبيها فى الشرق البيزنطى حيث ظل التباعد واضحا بين هيئة الكنيسة من رجال الكهنوت المتزوجين وبين الديريين العزاب(٢) •

والواقع ان البابا جريجورى العظيم استغل الديرية كأداة فعالة تساعده فى تنفيذ سياسته ونشر المسيحية • ولا عجب فى ذلك [illegible] فقد كان هذا البابا راهبا بندكتيا شديد التحمس للديرية ، حتى أنه است[illegible]وته الموروثة الطائلة فى تأسيس عدد كبير من الأديرة ، منها ستة فى صقلية وواحد فى روما(٣) • كذلك اختار جريجورى العظيم معظم أعضاء البعثات التبشيرية التى أرسلها الى مختلف الجهات من الرهبان البندكتيين(٤) • ومن هذه الارساليات بعثة القديس أوغسطين الصغير - مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى فى روما - وقد أوفده البابا الى انجلترا سنة ٥٩٦ على رأس بعثة من تسعة وثلاثين راهبا ليعيدوها الى حظيرة المسيحية بعد أن ظلت خارجها ما يقرب من قرنين نتيجة لغزوات الجوت والانجلز والسكسون ، وهى الغزوات التى أدت الى تحطيم

---

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2 pp. 169—173.
(2) Workman : op. cit. p. 152
(3) Dudden : op. cit. Vol. 1 p. 207
(4) Workman : op. cit. p. 169—172

الحضارة الرومانية وذبول المسيحية فى بريطانيا • وفى سنة ٦٠١ طلب أوغسطين من البابا امداده بعدد آخر من الرهبان لمساعدته فى جهوده التبشيرية ، فأمده البابا بمجموعة أخرى من المبشرين البندكتيين(١) وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافها ، فأسس ديرا فى كانتربورى ، وهو المكان الذى شيدت عليه الكتدرائية الشهيرة ، فيما بعد ، واتخذ الرهبان هذا الدير مركزا لنشاطهم التبشيرى الذى قام على أساس تحويل المعابد الوثنية القديمة الى كنائس بدلا من هدمها (٢) • ولم يلبث أثلبرت - ملك كنت - أن اعتنق المسيحية وتبعه كثيرون من رعاياه ، كما أنعم الملك على رجال الكنيسة الجديدة بكثير من المنح والأراضى(٣) •

الديرية الأيرلندية :

على أن الارساليات البندكتية التى قصدت انجلترا وغاليا الفرنجية ، صادفت فى طريقها نوعا من الأديرة الكلتية التى انتشرت من أيرلند الى انجلترا وغاليا وألمانيا • وكانت أيرلند هى البلد الوحيد من البلاد المعروفة للقدماء فى غرب أوربا الذى لم يفتحه الرومان ، مما ترك القراصنة الأيرلنديين - من عنصر الكلت - أحرارا فى مواصلة اغاراتهم العنيفة على بريطانيا ، وبخاصة فى أوائل القرن الخامس ، أى فى أواخر حكم الرومان لبريطانيا •

وفى احدى هذه الغارات - حوالى سنة ٤٠٠ - أسر الأيرلنديون شابا اسمه سوكات Succat ، قدر له أن يصبح فيما بعد القديس باتريك (ت ٤٦١) مؤسس الكنيسة الأيرلندية(٤) • ذلك أن سوكات قضى ست سنوات أسيرا فى أيرلند ، فر بعدها الى غاليا حيث قضى بعض الوقت فى التعلم ، حتى فكر بعد ذلك فى العودة الى أيرلند ليقوم بنشر المسيحية بين

---

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2, p. 123
(2) Workman : pp. 172—174
(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 117—119
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533

ربوعها . وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة فى أيرلند قبل ذلك الوقت ، بدليل أن البابا كالستين الأول أرسل سنة ٤٣١ مبعوثا اسمه بلاديوس الى أيرلند ليكون أول أسقف لها(١) ، الا أن القديس باتريك يعتبر صاحب الفضل الحقيقى فى تحويل أيرلند الى المسيحية الغربية ، كما أن الفضل يرجع اليه فى تأسيس أسقفية أرماغ فى الشمال الشرقى من أيرلند سنة ٤٤٥(٢) .

ويبدو أن تطرف أيرلند وعزلتها ساعدت على احتفاظ الكنيسة الأيرلندية ببعض الأوضاع الكنسية القديمة ، بعد أن درست هذه الأوضاع واختفت من صلب القارة . وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضاع ، لذلك بدأ الخلاف بين الايرلنديين والبابوية منذ عهد البابا جريجورى العظيم، ولم ينته هذا الخلاف حتى سنة ٧٣٣ عندما قبل الأيرلنديون مسايرة الأوضاع المعمول بها فى الكنيسة الرومانية .

وقد اتجه الأيرلنديون فى القرن السادس نحو ارسال بعثات تبشيرية من الرهبان الى سكتلند وبريطانيا وغاليا ، مدفوعين [illegible] ذلك بحبهم للتجوال والسياحة من جهة وبحماستهم الدينية من جهة أخرى . وكان رائد هذه الحركة القديس كولمبا St. Columba الذى اتجه سنة ٥٦٣ على رأس اثنى عشر من أتباعه لتأسيس دير فى مدينة أيونا Iona غربى البلاد المعروفة الآن باسم سكتلند(٣) . ومن هذا الدير اتجه المبشرون لتحويل البكتيين Picts - وهم العناصر القديمة التى سكنت سكتلند الحالية - الى المسيحية(٤) . ولم يلبث المبشرون الأيرلنديون أن مدوا نشاطهم الى انجلترا نفسها ، حيث التقوا بالبعثات التبشيرية التى أرسلتها روما . وهكذا تم

---

(1) Idem : Vol. 2 pp. 503—505
(2) Deanesly : op. cit. p. 468
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533
(4) Workman : op. cit. pp. 199—200

القضاء في القرن السابع على وثنية الأنجلوسكسون بعد أن تعرضت بلادهم لغزو المبشرين الأيرلنديين من الشمال والمبشرين الرومان من الجنوب(١) .

وفي ذلك الوقت نفسه ، قام المبشرون الايرلنديون بغزو القارة . وأولـ هــؤلاء المبشرين وأعظمهم كان القــديس كولمبانوس Columbanus (٥٤٣ - ٦١٥) ، الذى نزح مع أربعين من أعوانه - حوالى سنة ٥٨٥ - الى بريطانيا ومنها الى غاليا ، حيث أسس ديرا شــهيرا عنــد أناجريت Anagrates في برجنديا سنة ٥٩١ . ولم يلبث هذا الدير أن اجتذب كثيرا من الراغبين في الحياة الديرية ، مما شجع القـديس كولمبانوس على تأسيس دير جديد جنــوبى الأول بثمانية أميــال عند لوكســويل Luxeuil (٢) . ويلاحظ أن القديس كولمبانوس أهمل عند تأسيسه هذه الأديرة احدى القواعد المعمول بها في القارة ، وهى أنه يتعين على مقدم الدير أن يحصل أولا على موافقة الأسقف الذى يقع الدير داخل دائــرة أسقفيته ، مما أدى الى اصطدام بين الطرفين . ولم يلبث دير لوكسويل أن نما هو الآخر بسرعة ، مما شجع على اقامة أديرة أخرى لكل منها مقدم ، أهمها دير فونتين Fontaines (٣) . أما القديس كولمبانوس فقد ظــل يعمل عشرين عاما في دير لوكسويل حتى استفزت سياسته الصارمة الخاصة بنقد البلاط والكنيسة عداء الطرفين ، مما جعله ينزح الى سويسرا حيث أخذ يواصل جهوده فترة قصيرة حول بحيرة زيورخ وبحيرة كونستانس(٤) . ولم يلبث أن اضطر القديس كولمبانوس الى مغادرة سويسرا مع أعوانه ، فعبر جبال الألب الى ايطاليا حيث أحسن ملك اللمبارديين اســتقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيو Bobbio شمالى جنوا . وفي هذا الدير - الذى أصبح من أعظم أديرة أوربا في العصور الوسطى وأوفــرها ثروة في المخطوطات - قضى القديس كولمبانوس السنوات الثلاث الأخيرة من حياته حتى توفي سنة ٦١٥(٥) . على أن نظام الأديرة الذى وضعه القــديس

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 232
(2) Cam. : Med. Hist. Vol. 1, pp. 533—534
(3) Workman : op. cit. p. 207
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 148
(5) Workman : op. cit. p. 208

كولمبانوس ، لم يقدر له البقاء طويلا ، لأنه لم يقرر وسيلة للربط بين هـذه الأديرة بعضها وبعض ، كما أنه اصطدم فى سرعة بالنظام البندكتى • ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صبغة عملية أوضح ، فضلا عن تمتعها بعطف البابوية ورعايتها ، فان نظام القديس كولمبانوس لم يستطع الثبات طـــويلا أمامها(١) •

ولم يقتصر نفوذ الأديرة الأيرلندية على هذه الجهات السابقة ، وانما امتد أيضا الى جهات أخرى فى وسط أوربا لم تكن المسيحية قد وصلت اليها بعد • ففى جنوب ألمانيا قامت عدة أديرة أيرلندية أشهرها ورزبرج ورجنسبرج وسانت جال St. Gall وغيرها من الأديرة التى ظلت تحتفظ بذكرى أصلها الكلتى الأيرلندى على الرغم من تأثرها فيما بعد بالنظام البندكتى • ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثامن الا كانت جميع الأديرة الأيرلندية قد أصبحت من الوجهة العملية خاضعة لاشراف البابوية ، كما انتهى استقلال الكنيسة الأيرلندية • على أن الأديرة الأيرلندية - بوجه خاص - تركت أثرا عميقا فى الحياة الدينية وغير الدينية فى غرب أوربا • ويكفى أنها أصبحت مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية ، كما أن كثيرا منها - مثل بوبيو وسانت جال وغيرها من الأديرة الأيرلندية بأيرلند نفسها وانجلترا - امتازت بغنى مكتباتها بالمخطوطات الكلاسيكية النادرة(٢) • هذا الى أن حمية البعثات الأيرلندية وحماستها أشعلت حركة التبشـــير فى أوربا العصـــور الوسطى • وكان الأيرلنديون هم أول من تمسك بالمبدأ الخاص باستقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة ، وهو المبدأ الذى لم يعترف به غرب أوربا الا فى القرن الحادى عشر •

المبشرون الانجليز فى غاليا والمانيا :

ازداد عدد البعثات التبشيرية الانجليزية فى الخارج زيادة كبيرة منذ أواخر القرن السابع • ففى سنة ٦٧٧ جنحت سـفينة ولفـرد أسقف يورك

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 232—233

(2) Eyre : op. cit. pp. 266—267

الأنجلوسكسونى على شاطىء فريزيا وهو فى طريقه الى روما فقضى الشتاء فى هذه البلاد • وفى سنة ٦٩١ عبر وليبرورد Willibrord - وهو أحد رجال الدين الانجليز - البحر الى فريزيا حيث ساعده بيبين هرستال على تأسيس أسقفية أوترخت ، ومن ثم استمر يعمل على نشر المسيحية فى تلك الجهات ما يقرب من خمسين سنة(١) • على أن أعظم رجال الكنيسة ورهبان المسيحية فى القرن الثامن كان بدون شك القديس بونيفيس الذى تلقى تعليمه فى اكستر ثم عبر البحر سنة ٧١٥ الى فريزيا • وعندما وجد الحرب متأججة بين الفريزيين وشارل مارتل ، عاد الى انجلترا ومنها الى روما سنة ٧١٨ حيث زودته البابوية بالنفوذ والسلطة اللازمين للقيام بجهوده التبشيرية فى ألمانيا(٢) • وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات فى هس حتى عينه البابا رئيسا لأساقفة مينز ، الكرسى الأسقفى الرئيسى فى ألمانيا(٣) • وهناك فاقت جهوده ما قام به الرهبان الأيرلنديون من ادخال الحضارة اللاتينية وتنظيمها • واليه كذلك يرجع الفضل فى تأسيس كثير من الأسقفيات والأديرة فى الأراضى الألمانية مثل أسقفيات ورزبرج وماربورج وأرفرت ، وأديرة فولدا وهرسفلد وأورثرف وامونبرخ • هذا الى أن القديس بونيفيس تبعه بعض النساء الانجليزيات الى ألمانيا مثل والبورجا Walburga وليوبا Lioba وثكلا Thekla وهؤلاء أسهمن فى تأسيس كثير من الأديرة البندكتية الخاصة بالنساء فى ألمانيا(٤) كذلك • كان للقديس بونيفيس دور أساسى فى دعوة مجمعى لفتناس Liftinas (سنة ٧٤٣) وسواسون (سنة ٧٤٤) وفى القرارات التى أصدرها هذان المجمعان(٥) • أما جهوده السياسية فكانت لا تقل أهمية عن جهوده الدينية ، اذ يرجع اليه الفضل فى التوفيق بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل ، كما أنه تولى المفاوضات بين بيين القصير والبابوية ، وهى المفاوضات التى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 541 & Vol. 2 p. 535
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 236
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 540
(5) Workman : op. cit. p. 176
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540

انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين واعتلاء ببين عرش دولة الفرنجة ، وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والدولة الكارولنجية(١) .

ويبدو أن هذه الأعمال والمشاغل العديدة صرفت بونيفيس فيما بين سنتى ٧١٨ ، ٧٥٢ عن الهدف الذى كرس نفسه له فى شبابه ، وهو تحـــويل الفريزيين الى المسيحية . وقد أدرك بعد سنة ٧٥٢ أنه أتم أعماله السياسية والادارية ، فعزم على العودة الى فريزيا ـ التى كانت لا تزال على وثنيتها ـ لمباشرة نشاطه التبشيرى . ولكن الفريزيين الوثنيين أحاطوا به هذه المرة وقتلوه سنة ٧٥٥ ، وبذلك انتهت صفحة علم من أعلام المسيحية الغربية فى العصور الوسطى(٢) .

وبعد ، فانه يتضح لنا مما سبق كيف قام الديريون بدور فعال فى نشر المسيحية وحفظ الحضارة فى عصر مضطرب امتاز بالفتن والحروب . أما فى الميدان الاقتصادى فان نشاطهم أدى الى اصلاح كثير من الأراضى والنهوض بالزراعة ، زيادة على جهودهم العملية فى النسيج والصباغة ودبغ الجلود وصناعتها الأمر الذى تبعه نبوغهم فى زخرفة المخطوطات وتزيينها . على أنه يتضح لنا بالموازنة بين الديرية فى الشرق والغرب أن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى جعل الديرية أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان الحضارى والمجتمع الانسانى . أما فى الغرب فان الأديرة البندكتية أصبحت مراكز الحضارة والتعليم ، فيها تنسخ الكتب وفى مدارسها يتعلم الصـــغار والكبار(٣) . هذا الى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل فى الموازنة بينها وبين الديرية الشرقية ، بقدر ما تتمثل فى الأثر الذى تركه النظام البندكتى فى حياة العصور الوسطى وتفكيرها .

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 289—290 .
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 237
(3) Workman : op. cit. pp. 152—254

ففى الوقت الذى كان العالم الرومانى يحقر من شأن العمـــل اليدوى ، ويعتبر هذا النوع من الأعمال وقفا على العبيد ، اذا بالنظام البندكتى يضع العمل اليومى فى منزلة العبادة ، ويجعله جزءا أساسيا من حياة الديريين ؟ وبذلك أصبحت الديرية عاملا ايجابيا منتجا فى المجتمع ولم تعد ـ كما اتهمها البعض قديما ـ مأوى للمتعطلين وملاذا للكسالى الهاربين من أعباء الحياة وتبعاتها(١) .

---

(1) Idem : pp. 153—158

الباب التاسع

شارلمان و أمبراطورية الفرنجة

رؤساء البلاط :

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى كفت عن التوسع والنمو فجأة ، ودخلت دورا من الفوضى والحروب الأهلية استمر قرابة قـــرن ونصف . وسرعان ما ظهر فى هذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجى من سلالة كلوفس(١) ، فى الوقت الذى انقسمت دولة الفرنجة الى ثلاث ممالك صغرى هى أوستراسيا فى وادى الميز والراين الأدنى ، ونستريا فى الجزء الغربى بما فيه (نورمنديا) واكوتين ، وأخيرا برجنديا فى المنطقة بين الرون وجبال الألب(٢) . ومن مظاهر ضعف ملوك الفرنجة فى هذه الأقســـام الثلاثة تغلب نفوذ النبلاء ورجال الدين ، فوافق الملوك على أن يتنازلوا عن تعيين الأساقفة ليقوم رجال الأسقفية بانتخابهم ، كما وافقوا على عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم الدولة ، مما جعل الكنيسة الفرنجية شبه مستقلة عن التاج . أما النبلاء العلمانيون فقد حصلوا على ضمان بملكية ما تحت أيديهم من أراض ، كما حيل بين التاج وبين فرض أية ضرائب اضافية(٣) .

ثم كان أن اختار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البلاط فى القصر الملكى ، وذلك ضمانا لامتيازاتهم ومصالحهم . وكانت هذه الوظيفة فى أول أمرها متواضعة يقوم صاحبها بالاشراف على خـــدم القصر وموظفيه ،

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 158
(2) Davis : Charlemagne, p. 25
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 332

ولكنها أخذت تسمو تدريجيا حتى أصبح صاحبها بمثابة الوزير الأول في الدولة ، الذي يشرف على جمع ايرادات الأراضى الملكية فضلا عن توزيع الهبات والوظائف (١) • وقد تعاقب فى هذا المنصب منذ سنة ٦١٤ سلسلة من النبلاء بطريق الوراثة ، حتى أصبحت السلطة الفعلية فى أيديهم • وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين بعد وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٩ مرتبطا بالملوك ، وانما برؤساء البلاط فى الأقسام الثلاثة التى انقسمت اليها الدولة الميروفنجية (٢) • وكان النصر فى النزاع بين هذه الأقسام الثلاثة لأوستراسيا التى برز رئيس بلاطها بيبين الثانى أو بيبين هرستال فى أواخر القـــرن السابع ، ثم خلفه فى منصبه ابنه غير الشرعى شارل مارتل سنة ٧١٤ (٣) وقد استطاع شارل مارتل أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية فى يده سنة ٧١٩ ، وعندئذ وجد دولة الفرنجة فى حالة يرثى لها بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاط فى نستريا وأوستراسيا من جهة ، والأخطـــار الخارجية التى أحاطت بدولة الفرنجة عندئذ من جهة أخرى • وهنـــا أسرع شارل مارتل فى القيام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق ، فقام بخمس حملات ضد السكسون بين سنتى ٧١٨ ، ٧٣٨ وبحملتين ضد الفريزيين (سنة ٧١٩ ، ٨٣٨) وحملة ضد الألمانى (سنة ٧٣٠) وحملتين ضد البافاريين (سنة ٧٢٥ ، ٧٢٨) (٤) على أن الخطر الأكبر الذى هدد دولة الفرنجة فى ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب ، أى من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على ناربون سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا فى برجنديا • وقد وجد شارل مارتل نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه ، فحشد قوى أتباعه من النبلاء وغير النبلاء ، واستعان باللمبارديين فى ايطاليا كما استولى على بعض أراضى الكنيسة ، هذا كله فى الوقت الذى كان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى قد استولوا على بوردو سنة ٧٣٢ وأخذوا بعد ذلك يزحفون شمالا • وأخيرا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p, 136.
(2) Lot: The End of the Ancient World, p. 337.
(3) Idem: op. 341 — 342.
(4) Deanesly: op. cit. p. 285.

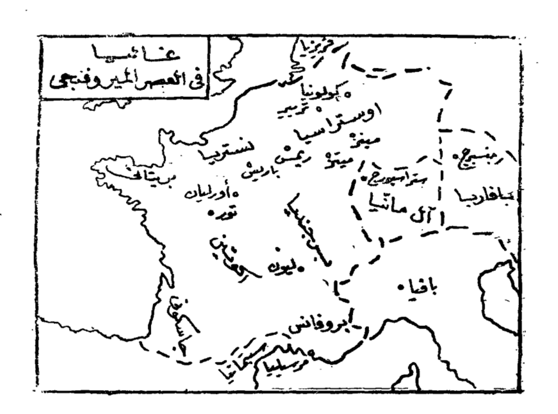
دارت الموقعة بين الطرفين بين بواتيه وتور ، واستمرت سبعة أيام قتل فيها عبد الرحمن وارتد أتباعه من المسلمين سنة ٧٣٢ (١) ·

أما شارل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة ومكانة أكسبته لقب مارتل Martel أى المطرقة ، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول الذى حمى غرب أوربا من الغزو الاسلامى (٢) · وقد اعتاد المؤرخون أن يبالغوا فى قيمة هذا النصر الذى احرزه شارل مارتل على المسلمين سنة ٧٣٢ ، على أساس أنه حمى غرب أوربا بأجمعه من غزو المسلمين وسيطرتهم ، ولكن نظرة دقيقة الى الحوادث المعاصرة تثبت لنا أن الواقع يخـــــالف ذلك · فالمسلمون لم يلبثوا أن عادوا فى العام التالى الى تهديد آرل وأفنيون وغيرهما من المدن وبخاصة فى اقليم بروفانس (٣) · ثم انه لم يكن هناك ثمة خطر واضح يهدد غرب أوربا بأجمعه من جانب المسلمين الذين بوصولهم الى الأندلس كانوا قد قاربوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية الكبرى · لذلك كان من الصعب ، بل من المتعذر على المسلمين أن يقوموا بجهد حربى ضخم جديد لاخضاع غرب أوربا لنفوذهم ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعدوا كثيرا عن المركز الأول لحركتهم التوسعية · هذا الى أن الدولة الاسلامية كانت قرب منتصف القرن الثامن قد أخذت تتعرض فعلا لنتائج الانقسامات المذهبية والسياسية مما يحول دون تكاتف المسلمين فى المشرق والمغرب للقيام بجهد عظيم مشترك لغزو أوربا · ولذلك لا نبالغ اذا قلنا أن غزوة عبد الرحمن فى جنوب غاليا لا تعدو أن تكون حملة محلية محدودة الهدف والنتائج · وربما كانت حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية قبل ذلك بخمس عشرة سنة أشد خطرا على مصير أوربا ومستقبلها ، نظرا لقرب القسطنطينية من مركز الخلافة الاسلامية فى دمشق من جهة ولعظم الجهود والامكانيات التى سخرت فى هذه الحملة من جهة أخرى ·

على أن استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة فضلا عن رفضه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.
(2) Stephenson, op. cit. p. 171.
(3) Fichenau: The Carolingian Empire, pp. 12—13.


غاليا
في العصر الميروفنجي
كولونيا
اوستراسيا
نستريا
ميتز
ريمس
باريس
أورليان
تور
ليون
ستراسبورج
آل مانيا
بافاريا
بافيا
بروفانس
مرسيليا

مساعدة البابوية ضد اللمبارديين ، أثار وحشة بينه وبين الكنيسة (١) . ومهما يكن من أمر فان هذه الوحشة لم تستمر طويلا اذ توفى شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه ببين القصير فى رآسة البلاد (٧٤١ - ٧٦٨) . وقد عمل ببين هذا على اصلاح ذات البين مع الكنيسة ، فعقدت أربعة مجامع دينية تحت اشراف القديس بونيفيس ، وفى هذه المجامع تقرر فرض النظام البندكتى على الأديرة الفرنجية ، وتعيين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة ، على أن يمتد سلطان البابوية على الجميع (٢) .

وسرعان ما أيقن المعاصرون أن الوضع السياسى القائم فى دولة الفرنجة غير صحيح فى ظل حكم رئيس بلاط هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وملك شرعى مستضعف لا حول له ولا قوة . لذلك اجتمع المجلس العام لشعب الفرنجة سنة ٧٥١ وقرر عزل شلدريك الثالث (شلدبرت) آخر ملوك أستراسيا ، واحلال ببين القصير محله فى العرش . وهنا أراد ببين القصير أن يصبغ هذه الخطوة صبغة شرعية فأرسل بعثة الى البابا زكريا فى روما لاستشارته وأخذ رأيه . ولسنا فى حاجة الى القول بأن البابوية كانت لا تزال تطمع عندئذ فى مساعدة دولة الفرنجة ، بوصفها القوة الوحيدة التى يمكنها مساندة البابوية ضد اللمبارديين . لذلك جاء رد البابا زكريا واضحا ، وهو أنه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية فى البلاد . وهكذا تشجع ببين القصير فأعلن عزل شلدريك الثالث ونفاه الى أحد الأديرة ليقضى فيه بقية حياته ، فى حين اعتلى هو عرش الفرنجة (٧٥٢ - ٧٦٨) ، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس وبدأت الأسرة الكارولنجية من سلالة رؤساء بلاط أوستراسيا(٣) .

ولم تلبث ظروف الموقف بين البابوية واللمبارديين أن أدت الى سفر البابا ستفن الثانى سنة ٧٥٣ الى غاليا لطلب المساعدة من ببين القصير . وكان أن

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 207.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 539—540.
(3) Oman: The Dark Ages, pp. 325—326.

تعهد ببين بمساعدة البابا وأقسم على أن يحقق للبابا كل ما يريد ، ويعطيه رافنا ، فضلا عن بقية المدن التى يستردها من اللمبارديين أو البيزنطيين • وفى مقابل ذلك توج البابا بيين بيده كما توج زوجته وولديه شـــارل وكارلومان ، وأنزل اللعنة على كل من يحاول اغتصاب عرش الفرنجة من بيت بيين القصير (١) وبذلك دخلت دولة الفرنجة دورا كبيرا من تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية فى غرب أوربا ، بفضل تحالفها مع البابوية، وهو التحالف الذى كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوربا فى العصور الوسطى (٢) •

حضارة الدولة الميروفنجية :

أخذت نظم الفرنجة تتعدل عقب استقرارهم فى غاليا نتيجة لاتصالهم المستمر بالمواطنين الرومان ، وما نجم عن هذا الاتصال من تأثر الفرنجة بالأوضاع الرومانية • ويلاحظ أن الفرنجة احترموا ملكية الأرض فى غاليا ولم يغتصبوها من أصحابها ، كما أنهم لم يحاكوا غيرهم من الجرمان فى استخدام العنف مع أهالى البلاد الأصليين (٣) • ولكن كبرياء الفرنجة أبت عليهم الاعتراف بالمساواة التامة المطلقة بينهم وبين أهالى غاليا الأصليين من الرومان ، فجعلوا الدية التى تدفع تعويضا عن مقتل رجل من الفرنجة تفوق تلك التى تدفع عن مقتل أحد الرومان ، كما أعفوا أنفسهم من الضرائب الرومانية المباشرة ، وجعلوا هذا النوع من الضرائب وقفا على أهالى غاليا من الرومان وحدهم (٤) وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شقاق عنصرى بين الفرنجة والرومان فى غاليا اذ تزاوج الطرفان بعضهما من بعض فى حرية وسهولة ، وأصبحت جميع المناصب الكنسية والحكومية مفتوحة أمام الجميع دون تمييز أو تفرقة (٥) • وساعد على هذا التقارب بين الفرنجة والرومان

---

(1) Moss: op. cit. p. 200.
(2) Eyre: op. cit. p. 89 & Moss: op. cit. p. 200.
(3) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 114.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 212.
(5) Lot: The End of the Ancient World, p. 358.

اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى واستخدامهم اللغة اللاتينية ، مما أدى الى التداخل الحضارى وتأثر كل طرف بالآخر . وهكذا أخذ الملوك الميرفنجيون يحاكون مظاهر البلاط الرومانى الامبراطورى ، فأضفوا على موظفى البلاط ألقابا رومانية وأصدروا مراسيمهم وفق النمط الرومانى .

أما فيما يختص بنظم الحكم عند الفرنجة فى العصر الميروفنجى ، فنلاحظ أن الملكية ظلت وراثية فى ســـلالة كلافس ، فلم يعرف الفرنجة المبـــدأ الانتخابى . وكانت السلطة الملكية تعتبر ارثا يقسم بين الأبناء الذكور بالتساوى مع استبعاد الاناث (١) . وقد تمتع ملوك الفرنجة بسلطة مطلقة فى النواحى الادارية والمالية والقضائية والحربية ، وكانت أية مخالفة أو عصيان للملك يعاقب صاحبها بالاعدام (٢) .

وقد اعتبر الفرنجة ــ شأنهم شأن غيرهم من الجرمان ــ معظم الجرائم نوعا من المخالفات الشخصية الخاصة لا العامة ، فيترك لعائلة المجنى عليه مهمة معاقبة الجانى والاقتصاص منه . وفى بعض الحالات كانت الأسرة صاحبة الحق تكتفى بأخذ تعويض من المذنب أو أهله ، وفى حالات أخرى كانت تقتص لنفسها بطريقة عنيفة تدل على الخشونة والوحشية . على أن قسوة قانون الفرنجة وتطرفه سرعان ما خفت حدتهما نتيجة لجهود رجال الكنيسة وانتشار تعاليم الديانة المسيحية ومبادئها (٣) .

أما عن الناحية المالية والاقتصادية فيلاحظ أن ملوك الفرنجة لم يحاولوا تغيير النظم المالية السائدة فى غاليا ، فتركوا جميع الضرائب القائمة كما هى ، سواء فى ذلك ضريبة الأرض أو الضريبة الشخصية أو ضرائب الأسواق أو الضرائب غير المباشرة (٤) . وكان الدخل الملـــكى يتألف من ايراد الضياع الملكية فضلا عن الهبات والهدايا والخدمات الخاصة والمحلية التى كان

---

(1) Dill: Roman Society in the Merovingian Age, p. 113
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 133—134.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 213.
(4) Lot: The End of the Ancient World, p. 351.

على الرعايا أن يقدموها • ثم أخذت تختفى تدريجيا الضرائب الرومانية المباشرة التى كانت معروفة أيام الرومان مثل ضريبة الرأس وضريبة الأرض، وأصبح الكونتات وحكام الأقاليم يدفعون للملك ثلثى الضرائب والأموال التى يجمعونها من الأهالى على أن يحتفظوا لأنفسهم بالثلث (١) • أما الهدايا السنوية التى يقدمها النبلاء للملك كل ربيع فقد أصبحت اجبارية ، ولم تعف منها جهة من الجهات ذات الايراد ، حتى الأديرة والمؤسسات الدينية • وكانت هذه الهدايا تشمل الذهب والفضة والأحجار الثمينة والخيول وما شابهها • ومن هذا يبدو أن جميع الأيرادات السابقة كانت تقدم للملك بصفته الشخصية ليصرف منها على بلاطه دون أن يكون للمنشآت العامة فيها نصيب (٢) • أما هذه المنشآت فكانت تقوم بها الادارة المحلية ، كما أن المجندين الأحرار كانوا يدخلون الخدمة العسكرية مزودين بأسلحتهم على نفقتهم الخاصة (٣) •

وقد نشطت التجارة فى عهد الدولة الميروفنجية حيث وجدت طبقة نشيطة من التجار استخدمت طرق التجارة الرومانية القديمة • ويبدو أن نسبة التجار اليهود واليونانيين كانت كبيرة ، لا سيما فى المدن والموانى ذات الأهمية التجارية مثل مرسيليا وآرل وناربون (٤) • وكانت لغاليا علاقات تجارية مهمة مع موانى الشرق فى البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ ، أى حتى زمن جريجورى التورى أول مؤرخى الفرنجة • ولكن هذه العلاقات أخذت تذبل تدريجيا نتيجة لنمو قوة المسلمين البحرية فى القرن السابع ، مما جعل تجارة الفرنجة تصبح شبه محلية • أما الطابع الغالب على دولة الفرنجة فكان الطابع الزراعى نتيجة لاضمحلال المدن وهجراتها وتلاشى الحياة المدنية من جهة ، ولازدياد عدد الضياع الزراعية الكبيرة التى تكفى نفسها بنفسها

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 126—127.

(2) Thompson: Vol. 1. pp. 215—216.

(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 353.

(4) Lot, Pfister, Ganshof: *op. cit. p.* 355.

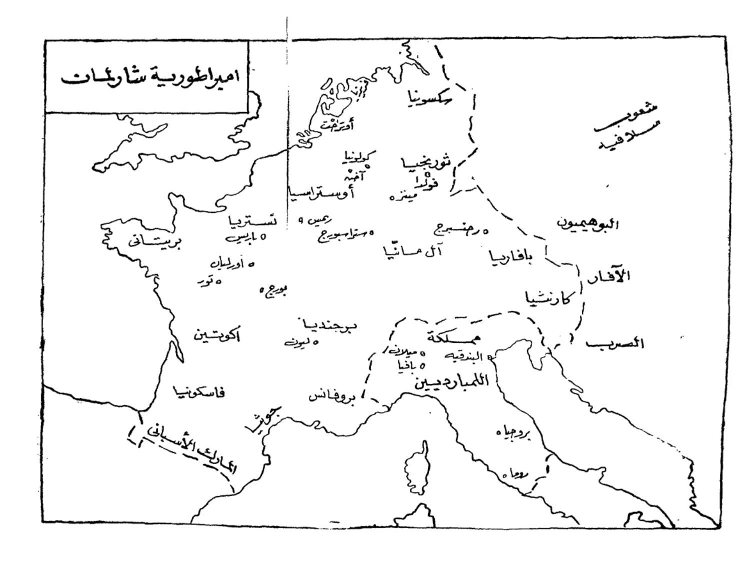
وما صحب ذلك من تناقص عدد الأحرار وصغار الملاك وازدياد عدد الأقنان من جهة أخرى (١) •

الدولة الكارولنجية :

وبتتويج بيبين القصير رئيس البلاط ملكا على دولة الفرنجة سنة **٧٥٢** تكون الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة الكارولنجية فى حكم دولة الفرنجة • وقد استمر بيبين القصير فى الحكم حتى وفاته سنة **٨٦٨** **وعندئذ قسمت** مملكته — وفقا لتقاليد الفرنجة — بين ولديه ، فخص شارل أوستراسيا وجزء من أكوتين ، واختص كارلومان بنستريا وبقة أكوتين (٢) • ولا يهمنا كثيرا أمر النزاع الذى نشب بين الأخوين والذى هدد بالقضاء على وحدة مملكة الفرنجة ، ما دام النزاع قد انتهى بوفاة كارلومان سنة **٧٧١** ، مما أتاح لأخية شارل فرصة توحيد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته ، من مصب الراين حتى مصب الرون ومن نهر المين حتى خليج بسكاى (٣) • على أن الذى يهمنا هو أن جربرجا Gerbrega — أرملة كارلومان — استاءت لاغفال حقـــوق ولديها القاصرين فى ملك أبيهما ، ففرت الى بلاط دسدريوس ملك اللمبارديين فى بافيا • وكان شارل قد سبق أن تزوج من ابنة دسدريوس ولكنه عاد فطلقها بالسرعة التى تزوجها بها ، الأمر الذى زاد الموقف توترا بين شارل ودسدريوس • ولم يكن منتظرا من الملك اللمباردى أن يتأخر عن مساعدة أرملة كارلومان (٤) ، فطلب من البابا تتويج ابنى كارلومان ، ولما رفض البابا ذلك لجأ دسدريوس الى مهاجمة الأملاك والأراضى البابوية • مما دفع البابا ستفن الثالث (الرابع) (٧٦٨ — ٧٧٢) الى الاستنجاد بشارل ملك الفرنجة (٥) • وقد حاول شارل مفاوضة دسدريوس فى أول الأمر فأرســـل اليه يطلب

---

(1) Idem: p. 350.
(2) Oman: The Dark Ages, p. 336.
(3) Kleinclausz: Charlemagne: pp. 12—13.
(4) Moss: op. cit. p. 218.
(5) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 421.


امبراطورية شارلمان
فريزيا
أوترخت
سكسونيا
شعوب سلافية
كولونيا
آخن
ثورنجيا
فولدا
أوستراسيا
مينزه
نستريا
ريمس
ستراسبورج
رجنسبرج
البوهيميون
باريس
بريتاني
آل مانيا
بافاريا
أورليان
تور
بورج
الآفار
كارنثيا
برجنديا
اكوتين
مملكة
ليون
ميلان
البندقية
الصرب
بافيا
اللمبارديين
فاسكونيا
بروفانس
جنوة
المارك الأسباني
بروجياه
روماه

(1) Idem: p. 350.
(2) Oman: The Dark Ages, p. 336.
(3) Kleinclausz: Charlemagne: pp. 12—13.
(4) Moss: op. cit. p. 218.
(5) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 421.

سليم جميع المدن التى استولى عليها من البابوية بدون وجه حق ، ولكن دسدريوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه فى عدم اعطاء البابوية مدنها . وعندما غزا شارل ايطاليا سنة ٧٧٣ حاول دسدريوس أن يسد منافذ الألب فى وجهه ، ولكنه غلب على أمره وفر الى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته (١) . وفى هذه الأثناء أخذ ابن دسدريوس يجمع قوات اللمبارديين قرب فيرونا ، مما جعل شارل يترك جزءا من قواته فى حصار بافيا ، ويسرع بالجزء الباقى لمطاردة هذا الابن الذى فر الى القسطنطينية تاركا شارل يستولى على فيرونا وبرجامو وغيرهما من المدن المهمة (٢) . وعندما طال حصار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح (سنة ٧٧٤) فى روما حيث جدد للبابا هدريان (أدريان) الأول (٧٧٢ - ٧٩٥) هبة ببين القصير للبابوية من قبل . ثم كان أن سقطت بافيا أخيرا بعد حصار عشرة أشهر ، فحمل دسدريوس الى دير كوربى فى نستريا حيث قضى بقية حياته بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة ، فى حين اتخذ شارل لنفسه لقب « ملك اللمبارديين » . ويلاحظ أن شارل لم يشأ فى أول الأمر أن يدمج اللمبارديين ضمن مملكته ، وآثر أن يتركهم يعيشون فى ظل نظمهم الخاصة . ولكن عندما ثار اللمبارديون ضده من جديد ، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن دسدريوس الهارب فى القسطنطينية واعلانه ملكا ، عاد اليهم ونجح فى اخضاعهم سنة ٧٧٦ ، وعندئذ أرغم اللمبارديون على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم .

على أن حروب شارل العظيم ضد اللمبارديين لم تكن سوى الحلقة الأولى فى سلسلة طويلة من الحروب قام بها شارل ضد السكسون ومسلمى أسبانيا والعناصر السلافية الرابضة على نهرى الالب والدراف (٤) . وقد حققت

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 220.

(2) Cman: The Dark Ages. p. 347.

(3) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 228.

(4) Eginhard: The Life of Charlemagne pp. 15—26 & The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne; p. 105.

هذه الحروب الواسعة التى قام بها شارل قسطا كبيرا من النجاح ، وأدت الى حماية غزب أوربا من العناصر الوثنية المجاورة فضلا عن نشر المسيحية بين هذه العناصر . ففى سنة ٧٧٨ قام شارل العظيم بأولى حملاته الكبيرة ضد المسلمين فى أسبانيا فاجتمعت جيوشه أمام سرقسطة واعترف له حكام برشلونة وجيرونا بالولاء . على أن جيوش شارل عجزت عن الاستيلاء على سرقسطه فعادت أدراجها دون أن تحقق نتائج ظاهرة (١) . وفى أثناء عودة شارل هاجمت عناصر الباسك (البسقاوية) فى شمال أسبانيا مؤخرة جيشه ، فقتل رولان وأصبح هذا الحادث محورا لأنشودة مشهورة ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصورت شارل العظيم فى صورة الصليبى الأول (٢) . وبعد أن قام شارل بعدة هجمات ضد السكسون ، أخضع البافاريين سنة ٧٨٨ وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق نظم الادارة الفرنجية (٣) . وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة لملك البافاريين ، الأمر الذى أثار شارل ضدهم ، فغزا أراضيهم فى حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنتى ٧٨٨ ، ٨٠٥ حتى حطم قوتهم نهائيا وأخضعهم تماما . وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم ، على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة(٤) . كذلك قام شارل العظيم بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهرى الالب والأودر سنة ٧٨٩ ، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا سنة ٨٠٥- ٨٠٦ .

على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون ، الذين سبق أن قاتلهم شارل مارتل وبيبن القصير . وقد قام شارل العظيم بثمان عشرة حملة ضدهم ، كان غرضه الأول منها حماية حدود بلاده من خطرهم ، ثم لم يلبث أن اصبح هذا الغرض تحويلهم الى المسيحية واخضاعهم بالقوة (٥) . وكان مصدر المتاعب الكبرى التى واجهت شارل فى حروبه ضد السكسون

---

(1) Lavisse: Hist. de France, Tome 2, Première Partie pp. 293—294.

(2) Davis: op. cit. pp. 110—114.

(3) Deanesly: op. cit. pp. 368—369.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 362.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 609—611.

نابعا من صعوبة بلادهم ذات الغابات والأحراش ، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضي على قوة أعدائه بالاستيلاء عليها ، فضلا عن عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية . وهكذا ساعدت هذه الظروف السكسون فأظهروا عنادا شديدا وتمسكا قويا بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم ، بحيث أنه كان يخضعهم في كل مرة ويأخذ منهم عددا ضخما من الأسرى والرهائن زيادة على غرامة مالية فادحة ، وعندئذ يتظاهرون بالخضوع ويعتنقون المسيحية بالجملة ، ولكنهم لا يلبثوا أن يرتدوا الى أسلوبهم وعقائدهم بعد أن ينصرف عنهم شارل (١) . وعندما تجددت ثورة السكسون سنة ٧٨٢ أعدم شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة في مذبحة فردن Verden (٢). وهكذا ظل شارل يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم حتى خربت بلادهم فهدأت العلاقات بينه وبينهم قليلا ، وان استمرت ثورات السكسون حتى سنة ٨٠٤ (٣) . وفي هذه الأثناء أسس شارل ثمان أسقفيات في سكسونيا وأرسل كثيرا من البعثات التبشيرية اليها ، حتى آمن السكسون أخيرا بالمسيحية ، وعندئذ حرص شارل على تعليم بعضهم ليصبحوا قساوسة في بلادهم (٤) .

على أن حروب شارل الطويلة ضد السكسون بوجه خاص ، لم تصرفه عن العمل على تأمين شواطيء أوربا الجنوبية وجزرها من خطر قراصنة المسلمين ، بعد أن اشتدت اغاراتهم عليها . لذلك بدأ شارل العظيم بتأمين حدوده الجنوبية من ناحيتهم ، فأنشأ وحدة ادارية على الحدود الأسبانية سميت ماركية أسبانيا (March of Spain) سنة ٧٩٥ حول مدن جيرونا وجاردونا وأورجل وأوزونه ثم ضم اليها برشلونة سنة ٧٩٧ ، هي أعظم مدن اقليم قطالونيا بعد أن سلمها له حاكمها الخائن نكاية في سيده خليفة

(1) Halphen: Etudes Critiques sur L'Hist. de Charlemagne, p. 146.
(2) Kleinclausz: Charlemagne, p. 134.
(3) Deanesly: op. cit. 358—365.
(4) Kleinclausz: op. cit. pp. 138—139.

قرطبة (١) . أما فى الجانب البحرى فقد استولى الفرنجة على كورسيكا وسردينيا ، كما استولوا على جزر البليار سنة ٧٩٩ لحرمان مسلمى الأندلس من اتخاذها قواعد للاغارة على شواطىء ايطاليا وغاليا الجنوبية (٢) . على أن الصراع البحرى لم يلبث أن اشتد فى الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط عندما ظهرت قوة الأغالبة البحرية ، الأمر الذى أزعج البابا ليو الثالث وشارل العظيم فضلا عن الدولة البيزنطية . وهنا لم يتأخر شارل فى ارسال النجدات الى البابا للدفاع عن شواطىء ايطاليا وصقلية ، وان كانت هذه الجهود لم تفلح فى وقف ذلك الخطر الذى تعرضت له شواطىء أوربا الجنوبية بشكل واضح فى أوائل القرن التاسع (٣) .

وهكذا قضى شارل العظيم معظم حكمه فى حروب مستمرة ، حتى قدر عدد حملاته بأربع وخمسين حملة مكنته من فرض سيطرته على ما كان للامبراطورية الرومانية القديمة من أملاك فى الغرب ، اذا استثنينا ولاية افريقية وبريطانيا وجنوب ايطاليا ومعظم أسبانيا ، هذا فضلا عما نتج عن هذه الحروب من نشر المسيحية فى بلاد وبين شعوب لم يسبق أن وصل اليها الرومان من قبل (٤) .

تتويج شارل العظيم امبراطورا :

يتضح مما سبق أنه لم يكد ينته القرن الثامن الا كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين . ذلك أنه لم ينجح فى تكوين دولة ضخمة فى غرب أوربا فحسب ، بل نجح أيضا فى حماية البابوية ونشر المسيحية ، واحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية فى الغرب (٥) . وقد أثارت هذه الأعمال فى عقول المعاصرين ذكرى روما

---

(1) Oman: The Dark Ages, p. 365.
(2) Eginhard: *Life of Charlemagne*, p. 31.
(3) Deanesly: op. cit. pp. 375—376.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 259.
(5) Kleinclausz: op. cit. p. 287.

ومجدها القديم ، فأخذوا يتغنون بهذه الذكرى ويشعرون بالرغبة فى احياء هذا المجد • على أن المعاصرين لم يقصدوا احياء مجد الامبراطورية الرومانية فى حضارتها وقوتها فقط ، بل أيضا فى شخص الامبراطور بعد أن ظل الغرب يشعر بفراغ سياسى كبير منذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس • حقيقة كانت هناك امبراطورية رومانية وامبراطور قائم فى القسطنطينية ، ولكن أهالى غرب أوربا بوجه عام وايطاليا بوجه خاص نظروا الى هذا الامبراطور البيزنطى نظرة ملؤها الاستياء والكراهية بسبب موقف الأباطرة البيزنطيين من عبادة الأيقونات من جهة وسياستهم المعادية للبابوية من جهة أخرى ، حتى أصبح هؤلاء الأباطرة — فى نظر الايطاليين — مجرد جباة أموال مبغوضين (١) •

كان هذا هو شعور المعاصرين اذا نحو الماضى والحاضر فى الوقت الذى قضى شارل العظيم على قوة اللمبارديين السياسية ، وحمى البابوية من خطرهم، وحارب السكسون وغيرهم من العناصر الوثنية لينشر المسيحية بينهم ، كما حارب المسلمين فى أسبانيا والبحر المتوسط لدفع خطرهم ، هذا كله مع شدة رعايته للعلوم وجهوده فى انعاش الحضارة فى الغرب • ولا شك فى أن هذه الأعمال أوضحت للمعاصرين أن شارل العظيم كان أكبر قوة فى عصره تحمى البابوية والكنيسة بل الحضارة الغربية ، وأنه جدير بلقب الامبراطور بعد أن قام بأعمال لا تقل عن تلك التى قام بها أعاظم الأباطرة الرومان •

ومن الواضح أنه كان فى استطاعة شارل أن يضفى على شخصه هذا اللقب أو أن يوحى الى الكنيسة الفرنجية بفعل ذلك ، ولكنه كان يطمع فيما هو أكثر ، أى فى أن تخلع عليه البابوية نفسها لقب الامبراطورية حتى يكون أوقع أثرا فى العالم المسيحى أجمع (٢) • وكان أن أتيحت الفرصة لتحقيق هذا الحلم الجميل سنة ٧٩٩ عندما تآمر خصوم البابا ليو الثالث ضده ووضعوا

(1) Moss : op. cit. p. 219.
(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 232.

خطة ترمى الى سمل عينيه وقطع لسانه لابعاده عن منصبه (١) . ولم يلبث أن سمع شارل بأمر هذه الأحداث التى جرت فى روما وبأن البــابا لم ينج من المؤامرة الا بصعوبة ، فأرسل الى البابا الهارب يستدعيه اليه واستقبله فى ترحاب خفف عنه ما يعانيه من آلام (٢) . وبعد ذلك قام شارل بارسال البابا مخفورا الى روما حيث لحق به بعد قليل . وفى روما عقد مجمع برأ ليو الثالث من جميع التهم التى ألصقها به خصومه ، وبذلك عاد البابا الى مباشرة مهام منصبه فى حين أمر شارل بمعاقبة المتآمرين (٣) . وهنا أخذ البابا يفكر فى وسيلة يرد بهـا الجميل للملك الفرنجى الذى أنقذ البابوية وأثبت فى كل مناسبة أنه أخلص حليف لهـــا وأقوى دعامة للكنيسة الغربية . حقيقة أن منح لقب الامبراطور لمــلك من ملوك البرابرة أمر ليست له سابقة ، وربمـــا بدا غريبا فى نظر المعاصرين ، ولكن حيـــاة شارل العظيم أثبتت أنه لم يكن كغيره من ملوك البرابرة . واذا قورن بمعاصرته الامبراطورة ايرين - وهى المرأة الشريرة التى أخذت تعبث بمصير الامبراطورية البيزنطية فى ذلك لوقت - فانه لا يوجد أى وجه للمقارنة أو الموازنة (٤) . وهكذا يبدو أن شبح هذه المرأة العابثة التى تحكمت فى مصائر الامبراطورية البيزنطية (٧٩٧ - ٨٠٢) كان من العـوامل التى شجعت البابوية والغرب على قطع آخر الخيوط التى ربطتهم بالامبراطورية الشرقية (٥) .

وكان أن نفذ البابا فكرته فى الاحتفال الكبير الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس تمجيدا لعيد رأس السنة (٨٠٠) . فعندما انتهت الصلاة ، تقدم البابا ليو الثالث بخطى وئيدة ممسكا تاجا ذهبيا فى يده ووضعه على رأس شارل - الذى كان لا يزال راكعا أمام المذبح وقال - « اللهم امنح الحياة والنصر لشارل

---

(1) Cam. Med, Hist. Vol. 2 p. 619.
(2) Deanesly, op. cit. p. 381.
(3) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne, p. 92.
(4) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 457.
(5) Oman : The Dark Ages, p. 372.

الثامن ، وبذل جهودا جبارة فى خدمة العلم والتعليم(١) . من ذلك أنه قام على تصحيح المخطوطات القديمة واهتم باصلاح نظم المدارس الدينية ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافى . كذلك تولى ألكوين رئاسة مدرسة القصر التى كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها(٢) . وهكذا أضحى بلاط شارلمان مركزا ثقافيا علميا كبيرا ذاخرا بالمعلمين - مثل ألكوين - والمؤرخين مثل اينهارت الذى وضع ترجمة معروفة لشارلمان ، والشعراء مثل ثيودلف(٣) . لذلك لا عجب اذا انتشر التعليم وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه ، فضلا عن العناية بالمكتبات ونسخ الكتب وتصحيحها ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها ، مما أدى الى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرا من ضروب العلم والمعرفة(٤) .

أما اصلاحات شارلمان فى ميادين التشريع والقضاء والادارة ، فكانت هى الأخرى على جانب كبير من الأهمية . من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرا من التشريعات لاقرار النظام الادارى وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبى فى دور القضاء . كذلك أمر شارلمان سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف العناصر التى تألفت منها امبراطوريته(٥) . وقد قسم شارلمان امبراطوريته الواسعة الى أقسام ادارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه فى منطقته ، ويتمتع تبعا لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء فى النواحى المالية أو القضائية أو الادارية . فالكونت مسئول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات ، كذلك عن اعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس ، فضلا عن الاشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية . وكان للكونت أن يختار مساعدين ونوابا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 574.
(2) Syre, op. cit. p. 268.
(3) Kleinclausz : op. cit. pp. 197—202.
(٤) يمكن الوقوف على مظاهر النهضة الكارولنجية فى شىء من التفصيل بالرجوع الى كتاب « النهضات الأوروبية » للمؤلف .
(5) Egnihard : The Life of Charlemagne, p. 45.

يساعدونه فى مهام منصبه بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين • وفى نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الامبراطورية الى القصر الملكى فى العاصمة (اكس لاشابل) حيث يقضون بضعة أسابيع فى تسليم مافى عهدتهم من أموال فضلا عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة(١) • أما هذا المجلس L'assemblée générale فكان بمثابة مجلس استشارى ينعقد وفق ارادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الامبراطورية وشعوبها - لا الفرنجة فحسب - فضلا عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات(٢) • ولما كان لابد لحكام الأقسام الادارية الواقعة على الحدود من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار الخارجية الطارئة ، فان هذه الأقسام - التى أطلق عليها ماركيات - عين على كل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع فى وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت فى كونتيته(٣) • على أن أهم اصلاح ادارى أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missi • وكان هؤلاء المبعوثين يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره الى حكام الأقاليم ويفتشون على هؤلاء الحكام لضمان حسن سير الادارة (٤) • واعتاد شارلمان أن يرسل الى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين أحدهما من رجال الادارة والثانى من رجال الدين ليضمن انتظام الجهازين الادارى والكنسى فى الدولة(٥) • كذلك حرص شارلمان على عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم وانما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يوطدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالى الأقاليم(٦) •

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية فى امبراطوريته فاهتم بالزراعة ونهض بها حتى أصبحت ضياعه بمثابة مزارع نموذجية تفيض بالخيرات ، كما شجع كبار الملاك فى الامبراطورية على العناية بزراعة أراضيهم ومعاونة الحكومة

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 403.
(2) Kleinclausz : op. cit. pp. 82—88.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 680.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première partie, p. 319.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 682—683.
(6) Davis ; op. cit. pp. 155—157.

فى تقوية جسور الأنهار(١) . أما الصناعة فكانت مراكزها الأساسية فى الأديرة، التى اشتهرت بانتاج خير المصنوعات المعدنية والجلدية والخشبية وغيرها . على أن الصناعة لم تقتصر فى العصر الكارولنجى على الأديرة وانما انتشرت فى الضياع والقرى حيث بدأت تظهر بذور النقابات لتنظيم مصالح أفراد الحرفة الواحدة وحمايتهم من المنافسة الخارجية(٢) . كذلك بدت جهود شارلمان واضحة فى ميدان التجارة حيث اهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتشجيعها . من ذلك أنه نظم الموازين والمقاييس والمكاييل والعملة المتداولة ، هذا فضلا عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها ومنع المستغلين من فرض رسوم باهظة على سالكيها أو عابرى الجسور . وقد أقيمت الفنادق والوكالات على امتداد الطرق الرئيسية لايواء التجار ودوابهم وحفظ بضائعهم(٣) . على أن التجار فى ذلك العصر فضلوا دائما استخدام الطرق النهرية والبحرية لسهولتها وقلة تكاليفها ، فكانت التجارة الداخلية فى الامبراطورية تعتمد على أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها ، فى حين اعتمدت التجارة الخارجية على البحر المتوسط وبحر الشمال . وساعد هذا النشاط التجارى الواسع على ظهور أهمية بعض المدن بحكم موقعها مثل مينز التى كانت مركزا رئيسيا للتجارة بين ألمانيا وغاليا ، ومثل نيم Nimes وماجلون وآرل وناربون التى كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق(٤) .

شارلمان والكنيسة :

يبدو لنا من دراسة تاريخ الامبراطورية الكارولنجية أن الطابع الدينى كان غالبا عليها . فالعامل الأساسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا فى العصور الوسطى كان العامل الدينى ،

(1) Boissonnade; Life and Work in Med. Europe, p. 71.
(2) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie, p. 336.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 657.
(4) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie, pp. 338—340.

وهو العامل نفسه الذى أدى الى نجاح شارلمان فى اقامة امبراطوريته ، وفى المزج بين شعوب هذه الامبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعا لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة ، بل يسيطر عليها وعلى رجالها .

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلهفة دائما على محالفة الملوك الكارولنجيين لحمايتها من نفوذ الامبراطورية البيزنطية من جهة ومن خطر اللمبارديين من جهة أخرى . واذا كان ملوك البيت الكارولنجى لم يتقاعسوا عن مساندة البابوية ، فان الأخيرة ردت اليهم الجميل بتتويج ببين القصير ملكا سنة ٧٥٣ ثم بتتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ . وهكذا قامت الامبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى ، فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل امبراطوريته ، فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو الى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع لبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة(١) ، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديريين وواجباتهم(٢) . « وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعا ، ورئيسا للأساقفة والكونتات دون تمييز لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة »(٣) . حتى الموسيقى الدينية ، والمواعظ التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله(٤) . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعا تاما لحكومة شارلمان كما صار رجالها بمثابة أتباع مخلصين له ، يخضعون لأوامره ونواهيه خضوعا تاما(٥) . وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة الى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦ ، يفهمه أن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 616.
(2) Kleinclausz: op. cit. p. 225.
(3) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 316.
(4) The Monk of St. Gall; The Life of Charlemagne, p. 72.
(5) Fichtenna: The Carolingian Empire, pp. 132—133.

اختصاص البابوية لا ينبغي أن يتعدي الجانب الديني بأي حال » وأن واجبك أيها الأب المقدس هو أن تساعدنا برفع يديك الى السماء والدعاء لنا مثلما فعل موسى(١) » .

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كان شارلمان يجمع في قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن الموقف أخذ يتغير بعد شارلمان ، عندما عجز خلفاؤه عن فرض سيطرتهم على الكنيسة ورجالها مما آذن باصطدام السلطتين كما سنرى فيما بعد(٢) .

تقسيم الامبراطورية الكارولنجية :

أشرنا فيما سبق الى تمسك الفرنجة بنظرتهم القديمة الى الملك على أنه ارث يقسم بين أبناء الملك . وطبيعي أن يؤدي استمرار تطبيق هذا المبدأ الى تفتيت الدولة ثم الى زوالها نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثم تقسيم كل قسم بين أبناء الأبناء وهكذا . ومن الغريب أن شارلمان — وهو السياسي البعيد النظر — لم يحاول الخروج على هذه القاعدة أو تعديلها ، فقسم امبراطوريته الواسعة في حياته بين أبنائه الثلاثة(٣) . على أن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء واحد — هو لويس التقي — أخر الى حد ما تقسيم الامبراطورية(٤) . وقد احتفل شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقي الذي خلفه في حكم الامبراطورية ، والذي لم يلبث أن أعيد تتويجه بواسطة البابا ستفن الرابع (الخامس) سنة ٨١٦(٥) .

والواقع أن لويس التقي لم يكن بالشخص الذي يستطيع حكم امبراطورية

---

(1) Oliver Thatcher : A Source Book .... p. 107. &
سفر الخروج — اصحاح ١٧ — ١٢
(2) Davis: op. cit. pp. 276—277.
(3) Deanesly, op. cit. p. 392.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624.
(5) Oman: The Dark Ages, p. 387.

شارلمان . ذلك أنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أو الكفاية الادارية ، أو حتى قوة الشخصية ما يضمن له سيطرة كافية على الجيش والادارة والكنيسة . هذا في الوقت الذى تزايد الخطر الخارجي بعد وفاة شارلمان سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الامبراطورية الشرقية، أو من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية ، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية(١) . وزاد الطين بلة تمسك لويس التقى - وخلفائه من بعده - بسياسة تقسيم الملك بين الأبناء ، حتى أن لويس وضع مشروعا سنة ٨١٧ لتقسيم امبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وببين ولويس ، ليضمن عدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته(٢) . على أن لويس التقى تزوج بعد ذلك وأنجب ابنا جديدا اسمه شارل ، ومن ثم أراد اعادة توزيع المملكة توزيعا جديدا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة باخوته . ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الاخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الاخوة بعضهم وبعض من جهة ، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى(٣) . وكان أن توفى ببين ، ثم لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تم الاتفاق فيما بينهم في اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقسيم الامبراطورية تقسيما يرضيهم جميعا(٤) . ذلك أن شارل الأصلع أخذ نستريا واكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية، وأخذ لويس الألماني الجزء الواقع شرقي الراين من أوستراسيا فضلا عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا ، في حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين ، أى فريزلاند (الأراضي المنخفضة) والجزء الباقي من أوستراسيا غربي الراين زيادة على برجنديا وبروفانس وايطاليا . على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهاية لامبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب ، بل لأنها توضح أيضا بداية مولد بعض الدول

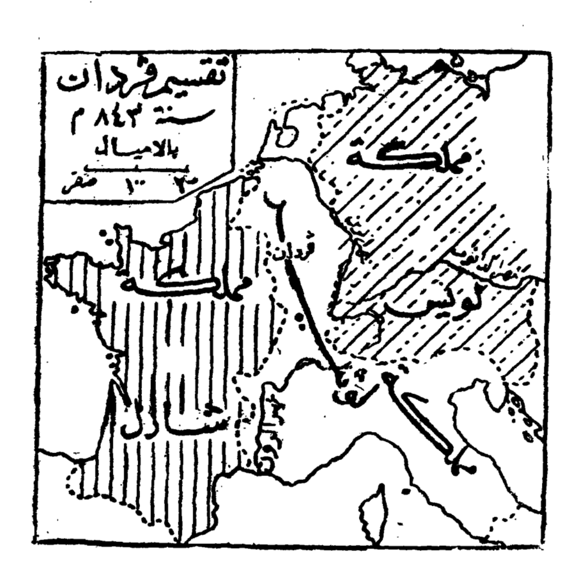
---

(1) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 130.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 pp. 10—11.

(3) Lavisse: op. cit. Tome. 2 Première Partie, pp. 362—363.

(4) Oman; The Dark Ages; p. 409.



تقسيم فردان
سنة ٨٤٣ م
بالاميال
٢٠ ١٠ صفر
مملكة
لويس
مملكة
شارل
فردان

العظمى الحديثة(١) . ذلك أن التقسيم السابق قام - الى حد ما - على أساس لغوى ، فكان شارل الأصلع يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية - المحرفة عن اللاتينية - ومن ثم سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للاشارة الى هذا الجزء الغربى من الامبراطورية الفرنجية . وحكم لويس الألمانى الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية ؛ ومن ثم سنشير الى هذا الجزء بألمانيا . أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية ، وقد سميت بلاده لوثرنجيا - أى مملكة لوثر - ثم حرف الاسم الى اللورين ، وهى المنطقة التى ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية(٢) .

ولم يلبث لوثر - صاحب المملكة الوسطى - أن توفى سنة ٨٥٥ ، وبذلك قسمت مملكته الى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه(٣) . وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت اليها الامبراطورية الكارولنجية ، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجى ، بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهـذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا وشارل السمين فى ألمانيا . وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوحد بين ألمانيا وايطاليا وفرنسا توحيدا اسميا لمدة ثلاث سنوات ، الا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العام التالى(٤) . أما فى فرنسا فان شارل البسيط كان طفلا فى الثامنة من عمره ، مما سهل انتقال السلطة الفعلية الى أيدى أودو كونت باريس ، الذى استطاع أن ينتزع الملك ويؤسس أسرة جديدة هى أسرة كابية سنة ٨٨٨(٥) .

وعلى هذا الوجه انهـارت الامبراطورية الكارولنجية ، وان ظلت ذكرى شارلمـان - مؤسس هذه الامبراطورية - باقية فى التاريخ لتخلد اسمه الى جانب

---

(1) Eyre: op. cit. p. 99.
(2) Orton: op. cit. pp. 149—150.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 34.
(4) Deanesly, op. cit. p. 560.
(5) Idem, p. 561.

قيصر والاسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التى استطاعت أن تكيف التاريخ الأوربى • واذا كان المعاصرون فى القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالاسكندر ورومولوس وهانيبال وغيرهم من أعلام العصر الوثنى ، فان البابوات وصفوه بأنه قسطنطين الجديد ، كما رسمت صورته فى قصر انجلهايم الى جوار قسطنطين وثيودسيوس(١) •

(1) Kleinclausz, op. cit. pp. 355 — 556 & Fichtenau, op. cit. p. 83.

الباب العاشر

الفيكنج

نقصد بالفيكنج العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك ، والتى اتخذت اغاراتها على أوربا شكلا خطيرا فى القرن التاسع . وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها ـ وأطلق عليها المعاصرون ـ اسم الفيكنج Vikings ـ بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا(١) .

واذا كان الفيكنج يرجعون في الناحية الجنسية الى الأصل التيتونى أو الجرمانى ، الا أننا نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التى أغارت على أوربا فى أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى . ذلك أن الفيكنج ظلوا برابرة خالصين محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعى والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون فى هذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السابقة التى اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحيـــة قبل اقتحامها حدود الامبراطورية بعـدة قرون . ولم تحـــاول الامبراطورية الرومانية أو امبراطورية الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربى الجنوبى مما جعل بعض الكتـــاب يقـــول بأن الفيكنج هم الذين استكشفوا أوربا وليست أوربا هى التى كشفت عن الفيكنج(٢) .

ولم يختلف الفيكنج عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية فى نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ، اللهم الا أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات

---

(1) Mawer: The Vikings, p. 1.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 306.

والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشـــون فيه سوى السهول الساحلية ، وهى لا تعدو فى معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأرض الصعبة . وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى اتصفت بطولها وقلة عرضها وســـارت بالمجداف أو الشراع ، وجابوا بها شواطىء أوربا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الأطلسى حتى أصبحوا أعظم الشعوب البحـــرية التى عرفتها أوربا بالعصور الوسطى(١) . لذلك اتخذت اغارات الفيكنج شكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه الى الزحف البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة . كذلك عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التى دفعت الفيكنج الى الخروج من بلادهم والقيام بهـــذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس نفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية . فمن الناحية النفسية أثبت التاريخ دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع فى البلاد المتحضرة القريبـة منها ، والرغبة فى الاغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها . وهذا الشعور كان أحد العوامل التى حركت الجرمان نحو أراضى الامبراطورية الرومانية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج فى القرن التاسع(٢) . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفيكنج كانوا عمـلاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا(٣) . لذلك اهتز الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لمـا ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجارى ، وبالتالى مضايقتهم اقتصاديا ومن الناحية الاجتماعية

---

(1) Stephenson, op. cit. p. 201.
(2) Eyre: op. cit. p. 106.
(3) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 465.

يقال ان أعداد الفيكنج تزايدت فى القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شـــواطىء سكندناوة ودانمرك ، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يمسك رمقهم ويســد حاجتهم(١) . هذا وان كانت لا توجد فى الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا لهجرة الفيكنج فى القرن التاسع(٢) . وأخيرا يأتى العامل السياسى ممثلا فى نشأة الملكية بين الفيكنج وبخاصة فى النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع فى يدى هارولد الأشقر (Harold Fairhair) ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة عن الخضوع فى ظل نظام لم يألفوه . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك شهدتا أيضا تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفيكنج الى الهجرة(٣) . وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية فى شمال غرب أوربا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة فى سبيل توسع الفيكنج جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدى شارل مارتل سنة ٧٣٤ ثم شارلمان سنة ٧٨٥ ، أن زالت هذه العقبة من طريق الفيكنج وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم(٤) .

واذا كنا فى حديثنا عن الفيكنج نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين فاننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعنى وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد به هو الاشارة الى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندناوه أو شبه جــــزيرة الدانمرك ،

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.
(2) Eyre: op. cit. p. 106.
(3) Mawer, op. cit. pp. 7—8.
(4) Eyre: op. cit. p. 106.

وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجى لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك(١) .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافى فى توزيع غزوات الفيكنج ، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التى هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرق أوربا والبحر الأسود . أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انجلترا وأيرلند والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر الشمالية فى المحيط الأطلسى . هذا فى حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطىء الامبراطورية الكارولنجية فى ألمانيا وفرنسا ، فضلا عن انجلترا وأيرلند والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التى مرت بها علاقة الفيكنج بغرب أوربا الى ثلاثة أدوار ، الأول دور الهجوم والثانى دور الاستقرار والثالث دور الدفاع . أما دور الهجوم فقد بدأ فى أواخر القرن الثامن - أى منذ سنة ٧٨٩ - عندما أخذ الفيكنج يهددون شواطىء انجلترا واسكتلندا وأيرلند . وفى ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفيكنج ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص بعد وفاة لويس التقى(٢) . وقد اتخذ نشاط الفيكنج فى ذلك الدور شكل

---

(1) Stephenson, op. cit. p. 200.

وقد جاء فى موسوعة تاريخ كامبردج أن المقصود بالفيكنج « جموع الشماليين والدانيين والسويديين » ومن هذا التعريف نفهم أن الشماليين هم النرويجيون وحدهم ، فى حين أن لفظ الفيكنج أكثر شمولا لأنه يعنى جميع سكان سكندناوة والدانمرك فى القرن التاسع . والواقع ان معظم حوليات العصور الوسطى لم تحاول التفرقة بين الدانيين - سكان دانمرك - والنرويجيين ، وعبرت عنهم جميعا باسم الشماليين Nordmanni ، على أننا نجد هذه التفرقة واضحة بين الفئتين فى كتابات الأيرلنديين المعاصرة . أما الكتاب الذى دونوا حولية أنجلو سكسون فقد حرصوا على استخدام لفظ الشماليين Noromenn للدلالة على النرويجيين فقط ، وكذلك فعل ألفرد فى ترجمته لكتاب المؤرخ أوروزيوس .

(انظر .Mawer, op. cit. pp. 9—10)

(2) Oman: The Dark Ages, p. 415.

غزوات صيفية فيخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو يعودون اليها فى الخريف وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والأسلاب . على أن حركة توسع الفيكنج لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع ، عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم فى معسكرات حصينة أو فى الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطىء البلاد التى يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها . وبعد أن كانوا فى الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا فى هذا الدور الثانى يغيرون على بلاد غرب أوربا فى هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاستقرار فى البلاد التى يغزونها . وهكذا أقام الفيكنج مستعمرة قصيرة العمر فى أيرلند سنة ٨٤٣ كما قضوا الشتاء لأول مرة فى انجلترا سنة ٨٥١(١) ، وكذلك أخذوا يستقرون حوالى ذلك الوقت فى الجزء الغربى من فرنسا الذى عرف فيما بعد باسم نورمنديا(٢) . ولكنهم أخذوا يوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وكلما هجر الأهالى الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفيكنج . وأخيرا يأتى الدور الثالث فى أواخر القرن التاسع ، وهو الدور الذى امتاز بمقاومة أهالى البلاد وحكامها للفيكنج فى حين التزم هؤلاء الأخيرون جانب الدفاع . وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أودو حاكم باريس مما أدى الى فشل حصار الفيكنج لباريس (٨٨٥ - ٨٨٧) ، وقبل ذلك بقليل كان ألفرد ملك وسكس بانجلترا قد أنزل بالدانيين هزيمة كبرى فى أدنجتون سنة ٨٧٨(٣) . وفى سنة ٨٩١ استطاع أرنولف - أحد ملوك البيت الكارلونجى فى المملكة الوسطى - أن ينزل هزيمة بالفيكنج فى موقعة ديل Dyle فى برابانت Brabant (٤) .

---

(1) Hodgkin: The Hist. of England, p. 267.
(2) Eyre, op. cit. p. 107.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.
(4) Eyre: op. cit. pp. 109—110.

اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية :

بدأت اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية فى حياة شارلمان الذى أدى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين . ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين(١) ، هذا فى الوقت الذى أخذت بعض سفنهم تغير على اقليم أكوتين(٢) . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفيكنج على شواطىء الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموا احدى القرى أو المراكز الساحلية . ويبدو أن هذه الاغارات أفزعت شارلمان فأعد أسطولا قويا فى موانىء نستريا لحماية شواطىء امبراطوريته من هجمات الفيكنج ، ومع ذلك فقد استمر جودفريد ملك الدانيين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان فى جنوب البحر البلطى وشواطىء فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم سنتى٨٠٤ ، ٨٠٩ كوسيلة لدفع شرهم(٣) . ثم حدث فى عهد لويس التقى ـ خليفة شارلمان ـ أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التى قامت حول تقسيم الامبراطورية ، وأنزلوا قوات ضخمة على شاطىء فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبــوا أوترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا ، ودورشتد Duurstede أكبر موانى الاقليم . وفى العام التالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب ثم عادوا سنة ٨٣٧ الى مهاجمة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن Nimuegen ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما حضر اليهم لويس التقى على رأس جيوشه(٤). ويبدو أن لويس التقى حاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال ، كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحولوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج ، وان كانت هذه الاجراءات وأشباهها لم تؤد فى

---

(1) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. pp. 465—466.
(2) Mawer: op. cit. p. 17.
(3) Davis: op. cit. pp. 296—297.
(4) Oman: The Dark Ages, p. 400.

الواقع الا الى زيادة مطامعهم فى أراضى الامبراطورية(١) •

ويلاحظ أن أنهار فرنسا القريبة مثل السين واللوار والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السبيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا فى نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدرائيتها ، ودخلوا فى الجارون حتى تولوز ، فى حين أوصلهم السوم الى اميان ، والسين الى باريس • وقد ساعد الفيكنج على التوغل فى الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التى أمست فيها هذه الامبراطورية فى القرن التاسع من نزاع وحروب أهلية بين الأمراء والحكام(٢) • ومهما يكن من أمر فان اغارات الفيكنج أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقى سنة ٨٤٠ ، اذ أوغلوا فى نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان • وربما شجع الفيكنج فى سياستهم الهجومية عندئذ ما لجأ اليه لوثر بالذات من تحريض لهم على مهاجمة أراضى منافسيه ، وذلك أثناء النزاع الذى قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقى(٣) • وهكذا أوغل الفيكنج فى اللوار قبيل عقد اتفاقية فردون مباشرة وأحرقوا ميناء نانت(٦) • ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفيكنج حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ ، حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية • وكان لويس الألمانى أوفر اخوته حظا لأن قبائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمى هذه الدولة من خطر الفيكنج • ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألمانى حرق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥ ففر أسقفها الى برمن(٥) ، كما أن قوة كبيرة من الفيكنج أوغلت فى نهر الالب سنة ٨٥١ وهزمت أمراء السكسون ، ثم عادت ظافرة الى الدانمرك بعد أن نهبت جزءا كبيرا من سكسونيا •

---

(1) Mawer: op. cit. pp. 18—19.
(2) Thompson: op. cit. vol. I p. 312.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 3 p. 315.
(4) Oman: The Dark Ages, p. 416.
(5) Mawer: op. cit. p. 20.

أما الأخ الثانى لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ أخذ الفيكنج يغيرون على شواطىء فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى روريك Rorik ليسترضيه ويتفادى شره . ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما أصبحت شواطىء فريزيا (الأراضى المنخفضة) قلاعا للفيكنج ، استغلوها فى التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر فى قصره بمدينة آخن (أكس لا شابل) لا يأمن على نفسه من خطرهم .

وأما الأخ الثالث - وهو شارل الأصلع - فكان أسوأ الثلاثة حظـــا ، لأن مملكته امتازت بشاطىء طويل مكشوف ، وعـــدد كبير من الأنهـــار التى ساعدت الفيكنج على التوغل داخل البلاد . وقد استغل الفيكنج فرصة انشغال شارل فى حرب أهلية مع ابن أخيه بيبين أمير أكوتين ، وجددوا هجماتهم على الأجزاء الشمالية من مملكته . وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة فى نستريا ، بعد أن استولوا على دير نوار موتييه، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الأجزاء الجنوبية من فرنسا(١) . ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بيبين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفيكنج ، اذ استعان بهم الأول وساعدهم على التوغل فى حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تولوز . وفى ذلك الوقت كان الفيكنج قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد ، فأغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥ ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا فى وجههم فحصن نفسه فى مرتفعات مونتمارتر Montemartre ، وفى دير سانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها الفيكنج وينهبوها .

ولم تقف اغارات الفيكنج على فرنسا عند هذا الحد ، بل انهم أغاروا على بوردو - كبرى مدن الجنوب - ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماما بعد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 316.
(2) Mawer: op. cit. pp. 20—21.

قليل فظلت بأيديهم عدة سنوات • ومن الواضح أن استيلاء الفيكنج على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة ، أغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميرى بأعداد أكبر حتى وصلت مملكة شارل الأصلع الى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال • وقد حدث عندما تجددت هجمات الفيكنج على حوض السين سنة ٨٥٢ ، أن أتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الأصلع ، ولكن الأخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، وأجاز له الاستقرار فى منطقة قرب مصب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى بلاده (١) • ولم تلبث أن تجددت الحروب الأهلية بين لويس الألمانى وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة طيبة للدانيين الذين أوغلوا فى مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بأنجرز وبلوا ، وبذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ - ٨٥٤) (٢) •

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجى عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفيكنج أنهم لجئوا الى شراء مسالمتهم بالمال • من ذلك ما فعله شارل الأصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الأخير باخلاء نستريا من الغزاة • ولكى يحصل الملك الكارولنجى على هذا المبلغ الذى تعهد بدفعه للفيكنج فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منهـا الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين (٣) • وهكذا جاءت هذه الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الأثقال التى كان يتحملها أهالى دولة الفرنجة ، فى الوقت الذى اتضح عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم(٤)

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 379.
(2) Oman: The Dark Ages p. 422.
(3) Mawer: op. cit. p. 45.
(4) Thompson: op. cit. vol. I p. 313.

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٥ ، ٨٨٧ تعتبر أحلك عصور التاريخ الغربى . ففى سنة ٨٥٥ توفى لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين أبنائه وأخوته حول اقتسام مملكته . وفى هذه الظروف لم يتوقف خطر الفيكنج ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الأصلع الى اصدار مرسوم بيستر Pistres سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات فى مجارى الأنهار لتعوق تقدم سفن الفيكنج من جهة أخرى . على أن وفاة لويس الألمانى سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الأصلع سنة ٨٧٧ زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، بل من ضعفها وعجزها عن مقاومة أخطار الفيكنج (١) . ففى سنة ٨٧٩ دخلت جموعهم نهر الشلد وأقاموا معسكراتهم عند غنت ليجتاحوا وادى السوم بأكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة مثل كوربى وسانت روكويير وغيرهما . كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز لنفس المصير ، اذ هيأت أنهار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفيكنج حتى وصلوا آخن وهددوا كولونيا . حقيقة ان لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن يحرز نصرا على الفيكنج فى موقعة سوكورت Saucourt سنة ٨٨١ ، حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته ، ولكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم (٢) . وفى سنة ٨٨٢ لجأ شارل السمين الى مصالحة جودفريد أحد زعماء الفيكنج فعقد معه معاهدة السلو Elsloo التى وافق فيها شارل على منح الفيكنج مبلغا ضخما من العملة الفضية ، فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لجودفريد الذى تزوج جزلا ابنة الملك شارل . وفى مقابل كل ذلك ينسحب جودفريد من مملكة شارل السمين ويتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعا للملك شارل .

ولكن هؤلاء الفيكنج الذين غادروا ألمانيا وفقا لمعاهدة السلو اتجهوا نحو

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome. 2, Première Partie, pp: 389—390.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 321.

نستريا ، وهو أمر لم يهتم له شارل السمين فى قليـــل أو كثير ما داموا سيجلون عن مملكته • لذلك كان شتاء سنة ٨٨٢ — ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة من ريمس حتى أميان جموع ضخمة من الفيكنج • وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ — ٨٨٤) أن يحذو حذو سلفه لويس الثالث ، وانما فضل ان يقتفى سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة لكى يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى أوستراسيا وانجلترا وأيرلند • وقد اتيحت لشارل السمين — بعد مــوت كارلومان ملك فرنسا — فرصة توحيد معظم أجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتى شارل السمين وشــارل العظيم (١) • ولذلك امتازت السنوات الثلاث التى وحد فيها شارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ — ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية •

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن الاتفاقات التى عقدها ملوك الغرب مــع الفيكنج لا قيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التى يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم • لذلك لم يلبث أن عاد الفيكنج ، الى تهديد ألمانيا وفرنسا ، حتى اشتدت اغاراتهم بصفة خاصة فى الســنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع ، فدمروا فلاندرز ، كما تعرض وادى الجارون الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة • ذلك أن الفيكنج استولوا على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان أساطيلهم دارت حول شبه جزيرة أيبريا وأغارت على الموانى المسيحية والاسلامية فى أسبانيا ، كمــا هددت الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط وتسللت فى الرون حتى بلغت نيم والنسون(٢) • واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قــد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفيــكنج ، فان الأديرة والكنائس لم يكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به أولئك المغيرون الوثنيون • لذلك شدد الفيكنج هجماتهم على الأديرة

(1) *Lavisse: op. cit. Tome 2, première partie, p.* [illegible]
(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. [illegible]

والكنائس بعد أن خربوها فوجدوها مخبأ الثروات والكنوز ، الأمر الذى نشأ عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية فى ذلك العصر . ولما كانت الأديرة حينذاك هى المراكز الأساسية للنشاط التعليمى والحضارى فى أوربا العصور الوسطى فان الخسارة التى لحقت الحضارة الأوربية بتدمير الأديرة وفرار أهلها أو قتلهم كانت أعظم من أن تقدر(١) .

على أن حوض السين ظل الهدف الأساسى لهجوم الفيكنج فى أواخر القرن التاسع . وقد تعرضت باريس فى أواخر سنة ٨٨٥ لهجوم كبير قام به أربعون ألفا منهم جاءوا فى سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شئون الغزو (٢) . وكان أن استطاعت باريس الصمود عدة أشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أدو حاكمها ، حتى وصل أخيرا (سبتمبر ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة أخرى ويعقد صلحا مشينا مع الفيكنج تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس ، كما سمح لهم بالاقامة فى برجنديا (٣) . على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع الى ظهور شخصية كونت أودو على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع أيضا الى ظهور أهمية باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار أودو ملكا على فرنسا فى فبراير سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين فى العام السابق (٤) . ولم يلبث أن أحرز أودو انتصارا جديدا على الفيكنج بعد تتويجه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم (٥) . ولكن الفيكنج لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، اذ عادوا بعد قليل الى محاصرة باريس للمرة الرابعة . وعلى الرغم من أن المدينة استطاعت الصمود مرة أخرى ومقاومة الحصار لعدة أشهر ، الا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أودو الكونت ، اذ اكتفى هو

(1) Haskins; The Normans in European History, p. 35.
(2) Mawer: op. cit. p. 49.
(3) Lavisse: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 394.
(4) Idem: p. 399.
(5) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 62.

الأخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفيكنج بالمال ، وعندئذ انسحبوا الى بريتاني . ولم يلبث أن عاد الفيكنج - كما هى عاداتهم - الى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أودو بهم هزيمة ساحقة عند مونتبنسيه Montpensier وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢ .

وهكذا أخذ نبلاء فرنسا يشعرون بتناقص خطر الفيكنج ، الأمر الذي دفعهم الى التآمر ضد ملكهم أودو ، فنظروا اليه على أنه أحدهم وأرسلوا يستدعون شارل البسيط - وريث البيت الكارولنجى - من انجلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو وشـــارل البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ بوفاة أودو (١) . وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربى من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ ، وأظهر فى هذه المدة همة كبيرة فى محاربة الفيكنج على الرغم من صغر سنه . ولم تكن اغارات الفيكنج قد انقطعت حينئذ ، بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الأهلية بين أودو وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها من جديد . وهنا نلاحظ أن اغارات الفيكنج امتازت - فى هذه المرحلة - بمقاومة الأهالى لها من جهة ، وبقلة الغنائم التى أصبح الفيكنج يحصلون عليها من جهة أخرى ، بعد أن أحاطت المدن والأديرة أنفسها بأسوار منيعة .

وعندما فشل الفيكنج فى تثبيت أقدامهم فى برجنديا نتيجة لمقاومة البرجنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذى نسب اليهم فيما بعد - نورمنديا . وتشير الوثائق المعاصرة الى أن رولو Rollo الذى أصبح فيما بعد دوق نورمنديا أخذ يهاجم بايو فيما بين عامى ٨٩٠ ، ٨٩٢ . ويبدو أن الفيكنج اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطىء هذا الجزء الغربى من فرنسا بين السوم وبريتانى . وعلى الرغم من أنهم فشلوا فى الاستيلاء على شاوتر سنة ٩١٢ (٢) ، الا أن شارل البسيط

---

(1) Idem: pp. 65—68.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 318.

اختار أن يسلك معهم نفس الأسلوب الذى اتبعه ألفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو اقليما واسعا يستقر فيه مع أتباعه(١) • وكان أن تمت المقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفيكنج الاقليم الساحلى الممتد من السوم حتى بريتانى ، وهى المنطقة التى نسبت الى الشماليين (أو النورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورمنديا (٢) •

والواقع أن اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع ، لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدى الفيكنج فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ ، والذين لم تنقطع اغاراتهم عنها الا حوالى سنة ٩٦٦ أى بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن (٣) • ومهما يكن الأمر فان الفيكنج أصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورمنديا حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا • ومن الواضح أن الدافع الأساسى الذى شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورمنديا للفيكنج لقمة سائغة هو رغبته فى ايجاد خصم قوى يقف فى وجه كونت باريس • وزاد من أهمية الأمر أن رولو دوق نورمنديا سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، كما أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفيكنج المتناثرة فى فرنسا ليعيشوا تحت حكم رولو فى نورمنديا ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد (٤) • والمعروف عن الفيكنج أنهم كانوا – أينما حلوا – يظهرون مرونة سريعة فى تقبل حضارة وعادات وأوضاع أهالى البلاد الأصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمان على غزو الفيكنج لاقليم نورمنديا حتى تأقلم النورمان وأصبحوا فرنسيين فى لغتهم ونظمهم وثقافتهم ، وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 322.
(2) Mawer; op. cit. p. 52.
(3) Haskins: The Normans in European Hist. p. 27.
(4) Fliche; L'Europe Occidentale, pp. 72—77.

والعنف التى اتصف بها أسلافهم الأوائل ، مما جعلهم يقومون بدور هام فى حكومات فرنسا وانجلترا وايطاليا وصقلية ، وهى الجهات التى غزاها النورمان فيما بعد (١) .

اغارات الفيكنج على انجلترا :

كانت انجلترا من أولى بلاد غرب أوربا التى تعرضت لاغارات الفيكنج ، إذ شهدت هذه البلاد غارة قامت بها بعض سفنهم التى رست قرب دورشستر Dorchester سنة ٧٨٧ على عهد الملك بيوهتريك Beorhtric ملك وسكس (٧٨٦ - ٨٠٢) كما نهبت أسقفية لندسفرين Lindisfrane قرب الشاطىء الشمالى الشرقى لانجلترا سنة ٧٩٣ (٢) . وبعد أن أغار الفيكنج على دير القديس بولس فى جارو Jarrow على الساحل الشرقى سنة ٧٩٤ لم نسمع عن اغارات أخرى قاموا بها على انجلترا حتى سنة ٨٣٥ . ويبدو أنهم فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٩٤ ، ٨٣٥ وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو أيرلند كما سيلى بعد قليل .

وقد أطلق أهل انجلترا من السكسون اسم « الدانيين » Danes على جماعات الفيكنج التى أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن (٣)، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون نفس الجرعة التى سبق أن سقوها لأهالى بريطانيا - من البراطنة والرومان - فى القرنين الخامس والسادس . ومهما يكن من أمر فانه على الرغم من قسوة اغارات الفيكنج على انجلترا ، وما لقيته البلاد على أيديهم من تخريب وفوضى ، الا أنه من الثابت أن الفائدة التى حصلت عليها انجلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة التى لحقت

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 402.
(2) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 257—258.
(٣) هذا على الرغم من أن اغارات الفيكنج فى هذا الدور الأول على انجلترا قام بها فعلا النرويجيون أو الشماليون من سكان النرويج لا الدانيون من سكان الدانمرك ، وهم الذين لم تبدأ هجماتهم بصفة جدية على انجلترا وايرلندة الا قرب منتصف القرن التاسع . أنظر .
Mawer; op. cit. p. 14.

بها ، ويكفي أنها أدت الى تكتل انجلترا الأنجلوسكسونية في هيئة مملكة واحدة (١) •

أما اغارات الفيكنج على انجلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت في الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن أخذت تمتد شرقا (٢) • ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفيكنج في هذا الدور ، اذ أغاروا على سوثامبتون Southampton سنة ٨٤٠ وبورتلاند في نفس الوقت ، وشارموث Sharmouth سنة ٨٤٣، ومصب نهر باريت Pariet سنة ٨٤٨ ، ثم ومبورى Wembury سنة ٨٥٤ • وليس معنى ذلك أن بقية أجزاء البلاد نجت من خطر الفيكنج ، فقد اجتاحوا لندسى Lindsey وانجليا الشرقية وكنت سنة ٨٤١ • وفي سنة ٨٤٤ لقي ردوولف Redwulf ملك نورثمبريا مصرعه على أيديهم (٣) •

ولم تلبث أن دخلت نهر التميز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين الذى استولوا على كانتربورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث أنزل بهم اثلوولف Ethelwulf ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى Ockley وذبح منهم عددا كبيرا • ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ في انجلترا عند ثانت Thanet ، وبذلك أخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة الى دور الاستقرار (٤) •

ثم كان أن لجأ شارل الأصلع الى تخليص أراضي نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ ، وعندئذ لجأت هذه الجموع الى انجلترا حيث أغارت في العام التالى (٨٦٧) على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول نورثمبريا (٥) • على أن انتهاء أمر هذا النزاع لم يؤد الى اضعاف الدانيين

(1) Hodgkin: The History of England, p. 262.
(2) Mawer: op. cit. p. 14.
(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 266—267.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 312.
(5) Mawer: op. cit. p. 24.

أو طردهم ، بل ان مرسيا Mercia دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ (١) م كما عبروا مرسيا الى انجليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث أنزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم اعتبر هذا الملك قديسا وشهيدا فى نظر العصور التالية (٢) .

والواقع أنه لم ينقذ بقية انجلترا من خطر الدانيين وتوسعهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ – ٨٩٩) ، حتى أن سنة ارتقائه العرش صارت ذات أهمية بالغة فى تاريخ انجلترا (٣) . ذلك أن ألفرد العظيم أبلى بلاءا حسنا فى الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى أنه اشتبك معهم فى تسعة مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه ، الأمر الذى جعل الدانيين يقنعون بعقد الهدنة ويولون أبصارهم شطر مرسيا . على أن الصراع سرعان ما تجدد بين ألفرد والدانيين سنة ٨٧٥ ، وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من الصعاب فى هذا الدور ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها جميعا وأنزل بالدانيين هزيمة ساحقة عند ادنجتون Edington سنة ٨٧٨ . وكان أن طلب الدانيون الصلح ، فتم عقد صلح ودمور Wedmore سنة ٨٧٨ على أساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد به ملكهم من اعتناق المسيحية (٤) . ولكن ملك الدانيين فى انجلترا لم يلبث أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ، الأمر الذى جعل ألفرد يحاربهم مرة أخرى حتى انتهى الأمر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ حددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب التيمز حتى شستر ، بمعنى أن لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفرد ، فى حين التـزم الدانيون الأراضى الواقعة شمالى هذا الخط وهى التى سميت مسموح الدانيين (Danelaw) (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 318.
(2) Mawer: op. cit. p. 25.
(3) Hodgkin: The Hist. of England; p. 278.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 319.
(5) Hodgkin; The Hist. of England, p. 287.

وقد تمتعت انجلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها ألفرد فى اعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، فى حين وجه الفيكنج جهودهم الى القارة ، وفى ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقى الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفيكنج ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال ، فاختاروا أرنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ ، ولم يلبث أرنولف هذا أن أحرز نصرا على الفيكنج قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الأمر الذى جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انجلترا (١) ، وهكذا تعرضت انجلترا فى خريف سنة ٨٩٢ لهجوم أسطولين من أساطيل الدانيين أحدهما أرسى عند ليمن Limen (فى الجنوب الشرقى جنوبى دوفر) فى حين أرسى الأسطول الثانى عند ملتون Milton فى الجزء الشمالى من كنت ، وسرعان ما أبدى الدانيون نشاطا كبيرا فى مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن ألفرد واجههم فى قوة وعزيمة وأجبرهم على الانسحاب ، وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات أخرى خارجية قام بها الدانيون على انجلترا بقية عهد ألفرد ، وان ظل الدانيون المقيمون فى أنجليا الشرقية ونور ثمبريا يقومون بكثير من أعمال القرصنة ، الأمر الذى دفع ألفرد الى توجيه نشاطه نحو بقاء أسطول قوى استغله فى دفع خطر الدانيين وانزال عدة ضربات بهم (٢).

وعندما توفى ألفرد سنة ٨٩٩ أخذ خلفاؤه يغزون أراضى الدانيين تدريجيا حتى انتهى الأمر سنة ٩٥٤ بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذى أصبح يستحق لقب ملك انجلترا فى التاريخ . على أن ملوك انجلترا فى الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شىء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفيكنج ، وفى هـذه المرة لم يأت الدانيون الى انجلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاءوا فى صورة أمة مترابطة ، حتى أصبح كانوت Canute بن ملك الدانمرك والنرويج ملكا على انجلترا (١٠١٦ - ١٠٣٥) ، ولم يستطع أصحاب الحق الشرعى فى عرش انجلترا من البيت السكسونى استرداد عرشهم الا سنة

---

(1) Idem: pp. 306—307.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 325.

١٠٤٣ ، عندما تولى ادوارد الثالث (١٠٤٢ - ١٠٦٦) الذى عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » فى التاريخ • وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا فى بلاط قريبه دوق نورمنديا مما جعله يتأثر الى حد كبير بالآراء والاتجاهات النورمندية (١) • ومهما يكن من أمر فان وليم دوق نورمنديا ادعى أنه صاحب الحق الشرعى فى بلاط انجلترا عند وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ ، بحكم القرابة بين الطرفين من جهة ، وبحجة أن ادوارد نفسه وعد وليم بأن يرثه فى حكم انجلترا من جهة أخرى • وهنا نلاحظ أن البابوية ساندت وليم النورمندى فى أطماعه بسبب غضب البابا من السكسون ، الذين طردوا رئيس أساقفة كانتربورى النورمندى على الرغم من أنه كان يحمل تفويضا من البابوية (٢) •

وهكذا استطاع وليم النورمندى أن ينزل قواته على الشاطىء الجنوبى الشرقى لانجلترا ، متغلبا على الصعوبات التى اعترضته ، فأوقع الهزيمـــــة بهارولد ملك انجلترا السكسونى الجديد - فى موقعة هاستنجس ١٠٦٦ (٣) وبذلك نجح وليم فى فتح انجلترا مما أكسبه لقب الفاتح فى التاريخ ، كما استطاع توحيد نورمنديا وانجلترا تحت حكمه •

غزوات الفيكنج لأيرلندا :

أما أيرلندا فقد قاست أكثر من غيرها فى المرحلة الأولى من مراحــــل اغارات الفيكنج ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم ، فى الوقت الذى كانت مدن الجزيرة وأديرتها مكشوفة دون أسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين • وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون اغاراتهم على أيرلندا فى أواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نوع من الاستقرار فى الجزيرة فى أوائل القرن التاسع (٤) •

---

(1) Ibid.
(2) Idem, Vol. 5 p. 497.
(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 488—491.
(4) Oman: The Dark Ages, p. 417.

واذا كانت أيرلند قد تعرضت لاغارات الفيكنج فى الوقت نفسه الـــذى واجهت انجلترا – هى الأخرى – غزواتهم ، الا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر • ذلك أن الفيكنج داروا حول الشاطىء الغربى لاسكتلند وغزوا جزيرة سكاى Skye قرب الشاطىء سنة ٧٩٥ ، كما هاجموا جزيرة مان Man – بين أيرلند وانجلترا – سنة ٧٩٨ • أما جزيرة أيونا قرب شاطىء سكتلند الغربى فقد نهبوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦(١). وفى سنة ٨٠٧ ظهر الفيكنج قرب شواطىء أيرلند الشمالية الغربية عنـــد سليجو Sligo ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا روسكومون Roscommon فى أواسط البلاد • وفى سنة ٨١١ هاجموا منستر Munster فى جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جـــزيرة هوث Howth – بجوار دبلن – وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١ (٢) •

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع أن أساطيل الفيكنج أحاطت بأيرلند احاطة تامة فى الربع الأول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ الا وكان الفيكنج قد أوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم• وعندئذ لم يعد الفيكنج يكتفون بالغارات الفردية ، وانما أخذوا يهاجمون الجزيرة بأساطيل كبرى ، متخذين من خلجانها وموانيها العديدة مراكز ينفذون منها الى الداخل (٣) •

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبدتها القبائل الأيرلندية حالت دون استيلاء الفيكنج على الجزيرة كلها ، فقنعوا باقامة مراكز لهم حول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها • وقد حصن الفيكنج هذه المراكز وأقاموا فيها القلاع ، وعن هذا الطريق ظهرت أهمية دبلن وليمريك Limerick وكورك ووترفورد Waterford ووكسفورد(٤) • أمـــا المناطق الداخلية فقد اكتفى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.
(2) Mawer; op. cit. p. 12.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.
(4) Mawer; op. cit. p. 13.

الفيكنج بنهبها ولا سيما الأديرة التى تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرين من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز وألمانيا .

ومن زعماء الفيكنج فى هذا العصر تورجس Turges الذى ظهر اسمه لأول مرة عند هجومهم على أرماغ سنة ٧٣٢ . وقد بلغت قوة تورجس هذا ذروتها سنة ٨٤١ عندما نفى مقدم دير أرماغ وأصبحت له السيطرة التامة على الجزء الشمالى من أيرلند ، حتى وقع فى قبضة الأيرلنديين بعد ذلك بثلاث سنوات . ومهما يكن من أمر فان تورجس هذا لم يكن الا واحدا من عدد كبير من زعماء الفيكنج الذين غزوا أيرلند فى هذه الحقبة والذين تتردد أسماؤهم بكثرة فى الحوليات المعاصرة (١) .

وهنا نكرر القول بأن الإغارات الأولى التى تعرضت لها انجلترا وأيرلند جميعا من جانب الفيكنج فى هذا الدور الأول - أى حتى قرب منتصف القرن التاسع - قامت بها عناصر من الشماليين أى النرويجيين ، لا من الدانيين (٢). وتحدد الحوليات المعاصرة أول اغارة للدانيين على ايرلند بسنة ٨٤٩ ، ومنذ ذلك الوقت أخذت اغاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا فى صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة . من ذلك أن الدانيين اشتبكوا مع النرويجيين فى معركة كبيرة وقتلوا منهم كثيرين ، كما نهبوا قواعد النرويجيين فى دبلن ودوندالك Dundalk سنة ٨٥١ . وهكذا اشتد النزاع فى أيرلند بين الدانيين والنرويجيين الشماليين فى الوقت الذى تدخل الأيرلنديون ليحموا أنفسهم من خطر الفريقين ، مما أوقع الجزيرة فى حالة شاملة من الفوضى . وزاد من حدة هذه الفوضى وصول أولاف Olaf - ابن ملك النرويج - الى ايرلند سنة ٨٥٣ ليخضع الدانيين فى الجزيرة (٣) .

وقد أصبحت دبلن تحت حكم أولاف مركزا قويا لحكم النرويجيين

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.
(2) Mawer: op. cit. p. 14.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.

الشماليين فى أيرلند ، كما أخذ الوفاق يسود العـلاقات بين النرويجيين والدانيين فى الجزيرة • أما الايرلنديون أنفسهم فقد لاقوا كثيرا من المتاعب ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا ، وظهر بينهم زعماء تولوا قيادتهم ضد أعدائهم•
ولم يقتصر نشاط أولاف فى هذه الفترة على أيرلند ، وانما امتد خارجها فذهب الى سكتلند سنة ٨٦٦ ، كما أسهم بنفسه فى حصـار دمبارتون Dumbarton على شاطىء سكتلندا الغربى سنة ٨٧٠ • وعندما عاد أولاف الى النرويج حوالى سنة ٨٧٣ بدأ الدانيون ينتهزون الفرصة للقضاء على سيطرة النرويجيين فى أيرلند ، مما فتح باب النزاع والحرب بين الطرفين من جديد (١) • على أننا نستطيع القول بأن الغلبة فى أيرلند ظلت بوجه عام للنرويجيين الشماليين ، وأن الدانيين لم ينجحوا فى بسط سيطرتهم على الجزيرة (٢) •

ثم كان أن ساد السلام فى أيرلند لفترة امتدت نحو أربعين سنة بدأت سنة ٨٧٧ • ويبدو أن الفيكنج شغلوا فى هذه الفترة بميادين أخرى استأثرت بالجزء الأكبر من نشاطهم ، وبخاصة انجلترا وامبراطورية الفرنجة • ولم تلبث أن سقطت دبلن نفسها فى أيدى الأيرلنديين سـنة ٩٠٢ • على أن النرويجيين سرعان ما استعادوها سنة ٩١٦ ، وعبثا حاول الأيرلنديون استعادة مركزهم حتى حلت بهم الهزيمة سنة ٩١٩ ، وهكذا أضحت أيرلند طوال الخمسين سنة التالية فريسة سهلة لاغارات الشماليين والدانيين على السواء • واذا كان الشماليون اتخذوا دبلن مركزا أساسيا لهم ، فان الدانيين اتخذوا كورك Cork فى جنوب الجزيرة قاعدة لهم وأغاروا منها على الجهات المجاورة حتى اجتاحوا اقليم منستر بأجمعه (٣) •

وفى تلك الأثناء استمر الأيرلنديون يقاومون أعداءهم فى عزيمة لا تعرف الملل حتى أغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة • وفى سنة ٩٨٠ نزلت أولى الضربات الكبرى بالشماليين عندما حلت بهم الهزيمة فى تارا Tara واضطروا الى اطلاق سراح جميع ما لديهم من رهائن ، فضلا عن دفع

---

(1) Mawer: op. cit. p. 58.
(2) Idem, p. 11.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317—334.

غرامة حربية باهظة • ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين وأعدائهم عند كلونتارف Clontarf سنة ١٠١٤ وانتهت هي الأخرى بهزيمة الشماليين هزيمة ساحقة ومقتل زعمائهم • ومع أن الفيكنج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدنهم الكبيرة في أيرلند الا أنهم أخـــذوا يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندى على مر السنوات (١) •

الفيكنج في الجزر الشمالية :

على أن توسع الفيكنج في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انجلترا وأيرلند وشواطيء سكتلند وامبراطورية الفرنجة ، وانما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد مثل مان وأوركني وشتلندوفاروى Faroes (٢)•
هذا فضلا عن أن النرويجيين اتجهوا - بحكم موقعهم الجغرافي - اتجاها شماليا غربيا ، أي نحو أيسلاند وجرينلاند • ويرجح أن النرويجيين عرفوا من اقامتهم في أيرلند بوجود جزيرة أخرى كبيرة تقع بعيدا في شـــمال المحيط الأطلسى ، لأنه من الثابت أن الرهبان الأيرلنديين سبق أن وصلوا أيسلاند وان لم يستقروا فيها • هناك رواية وردت في احدى الســـاجات تشير الى أن سفينة نرويجية قذفتها العواصف بعيدا عن طريقها حتى رست على شواطيء أيسلاند سنة ٨٦١ (٣) • ومهما يكن من أمر فان استقرار الفيكنج في أيسلاند لم يبدأ الا حوالى سنة ٨٧٠ عندما هاجر اليها كثير من النبلاء النرويجين ومعهم أتباعهم ليعيشوا فيها أحرارا بعيدين عن سيطرة هارولد الأشقر صاحب السلطة العليا في النرويج عندئذ (٤) •

ولم يلبث أن اتجه الشماليون غربا من أيسلاند حتى وصلوا جرينلاند والشواطيء الشمالية الغربية لأمريكا حوالى سنة ١٠٠٠ • وهكذا أصبحت جرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليهـــا من النرويج وأيسلاند ، فعمروها وشيدوا بها الكنائس حتى أسست أســـقفية جاردار Gardar سنة ١١٢٦ (٥) •

---

(1) Mawer: op. cit. p. 46.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 325.
(3) Thompson: Vol. I, p. 332.
(4) Mawer: op. cit, p. 142.
(5) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 324.

توسع السويديين شرقا :

اذا كان هناك جدل طويل فى التاريخ حول نصيب كل من النرويجيين والدانيين فى حركة الفيكنج ، فاننا لا نصادف خلافا فى الرأى عند دراسة حركة توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا . حقيقة انـــه يفهم من بعض المصادر المعاصرة أن السويديين ترددوا - هم الآخرون - على انجلترا وغيرها من بلاد الغرب ، ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردى ، ولا تعبر بأى حال عن النشاط الاجماعى للسويديين . وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على أســاس التغلغل السلمى الذى اعتمد على النشاط التجارى ، لا على أساس الغزو الحـــربى والنهب والتدمير ، وهى الصفات التى امتازت بها غزوات النرويجيين والدانيين فى الغرب (١) .

والواقع أن البحر البلطى كان ميدانا أساسيا لنشاط عناصر الفيكنج ، وان كان السويديون والدانيون هم الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط فى هذا الميدان ، بعكس النرويجيين الذين اتجهوا غربا بحكم توجيههم الجغرافى .

واذا كان نشاط الدانيين فى حوض البحر البلطى قد اقتصر على شواطىء بومرانيا Pomerania - غربى دانزج - فان نشاط السويديين اتجه الى الجزء الشرقى من حوض ذلك البحر حتى وصلوا الى كورلاند Kurland على خليج ريجا ، ومنها الى أوغلوا شرقا على امتداد نهر دونا Duna داخل البلاد (٢) . ومهما يكن من أمر ، فان الميدان الرئيسى لتوســـع السويديين ونشاطهم لم يكن فى حوض البحر البلطى وشمال أوربا بقدر ما كان فى سهولها الجنوبية الشرقية . وفى هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » Rus ، وهو لفظ فنى بمعنى « النوتية أو البحارة » ، أطلقه الفنيون والسلاف على هذه العناصر الشمالية التى تغلغلت فى بلادهم .

---

(1) Mawer: op. cit. p. 9.
(2) Idem, pp. 72—73.

وكان الآفار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية فى شرق أوربا لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين فى القوقاز أو التجار المسيحين فى القسطنطينية • ولكن قوة الآفار كانت قد انهارت فى القرن التاسع ، الأمر الذى مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من الســويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا أقدامهم فى حوض نهر الدنيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود • وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطى والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم فى هذا الجزء الشرقى من أوربا (١) • ذلك أن الروس أسسوا عدة مدن ، تتحكم كل مدينة منها فى المنطقة القريبة التى تحيط بها والتى تسكنها قبائل مختلفة من السلاف ، ولكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها • وقد فكرت هذه المدن فى حماية أنفسها وحماية تجارتها ، فلجأت الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم أيضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية (٢) • وكان أن حدث حوالى سنة ٨٨٢ أن استولى أحد الزعماء الروس - ويدعى روريك Rurik - على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفكنج فى شرق أوربا ، كما كانت نورمنديا مركزا لهم فى غربها • على أنه اذا كانت دوقية نورمنديا قد صادفت مقاومة عنيفة حـــالت دون توســعها فى فرنسا (٣) ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة - وغير المباشرة - على كثير من القبائل والشعوب الضاربة فى سهول شرق أوربا • ويقال أنه بلغ من سرعة اتساع كييف أن أصبح بها ■ فى الربع الأول من القرن الحادى عشر - أى على عهد فلاديمير الأول أو العظيم (ت ١٠١٥) - ثمان أسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والألمان ، فضـــلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد (٤) • ومازالت لدينا بعض معاهدات تجارية

---

(1) Stephonson: op. cit. Ps, 201, 211.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 325.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 327.
(4) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 325.

ترجع الى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولـة البيزنطية من جهة أخرى ، تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصوغات وغيرها من لوازم الترف • وربما كان أوضح ما فى هذه المعاهدات أن الموقعين عليها من الروس يحملون أسماء سويدية (١) •

على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل تجارية سلمية على طول الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو الحرب والقتال ، مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها • من ذلك أنه حـدث سنة ٨٦٥ أن أبحروا فى الدنيبر حتى البحر الأسود واجتازوه الى بحر مرمرة حيث تعرضت سفنهم لعاصفة حطمت معظمها • ثم حدث سنة ٩٠٧ أن أغار أحد زعماء الروس واسمه أولج Oleg على أطراف القسطنطينية ومعه أتباعه تحملهم ألف سفينة ، ولم ينسحب الا بعد أن دفعت له الامبراطورية مبلغا كبيرا من المال (٢) •

ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى هجم زعيم روسى آخر اسمه ايجور Igor على عاصمة الدولة البيزنطية سنة ٩٤١ ثم ٩٤٤ ، مما دفـع الامبراطورية الى السعى للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على أسس سلمية (٣) • وكان أن تم التفاهم فعلا حوالى منتصف القرن العاشر ، ومن ثم أخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين في البحـرية الامبراطورية ، حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم (٤) • وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحرب (٥) ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق ، على أن تعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل

---

(1) Mawer: op. cit. p. 75.
(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 229.
(3) Vasiliv: op. cit. Tome I. p. 426.
(4) Diehl & Marcais: op. cit. pp. 470—471.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 327.

والمجوهرات . أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التى عثروا عليها فى السويد وفى روسيا والتى يرجع معظم تواريخها الى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٠ ، ١٠٠٠ (١) . ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافى الكبير الذى عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادى عشر ، الا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافى العام (٢) .

نشاط الفيكنج فى حوض البحر المتوسط :

لم يقتصر نشاط الفيكنج على دائرة البلاد السابق ذكرها ، انما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة ، ففى سنة ٨٤٤ أغار الفيكنج على شواطىء أسبانيا الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس وأشبيلية بوجه خاص لعشهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية (٣) . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التى أظهرها الأهالى فى صد أولئك الغزاة ـ الذين أسماهم المسلمون باسم المجوس (٤) . ـ الا أنه يبدو أن أغاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثانى الى ارسال سفارة الى ملك الفيكنج (٥) .

ثم حدث سنة ٨٥٩ أن أبحر الفيكنج من حوض السين وعبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بعض بلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطىء الأندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار . وبعد أن أمضوا فصل الشتاء فى احدى الجزر الواقعة عند منصب نهر الرون ، حيث أغاروا على مدن اقليم

(1) Mawer: op. cit. p. 79.
(2) Idem: p. 80.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(٤) ويبدو أن اطلاق مسلمى الأندلس اسم المجوس على الفيكنج جاء نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يستولون عليها ، أو لما اعتاده الفيكنج من اشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الأمر الذى جعل المسلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أو المجوس .

(5) Mawer; op. cit. pp. 19—20.

بروفانس ، أبحروا فى الربيع التالى الى ايطاليا حيث استولوا على بيزاولونا Luna ويبدو أن الهدف الأساسى من ذهاب الفيكنج الى ايطاليا كان الاستيلاء على روما ، ولكننا لا ندرى السبب فى عدم تقدمهم جنوبا لتحقيق هذا الهدف وان كانت بعض الأساطير المعاصرة تعلل ذلك بأن الأمر اختلط عليهم فظنوا أن لونا هى روما • ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الفيكنج عادوا سنة ٨٦٢ من حيث أتوا فعبروا مضيق جبل طارق الى بريتانى •

وهكذا استطاع الفيكنج فى النصف الثانى من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفيكنج الغربيون الى شواطىء ايطاليا من الجهة المقابلة (١) •

حضارة الفيكنج :

لم يكن الفيكنج برابرة بكل معانى الكلمة ، لأنهم أظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية (٢) ، اذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية الأولى من جهة ، فى حين فاقوا كثيرا من شعوب أوربا المجاورة فى بعض نواحى النشاط البشرى ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعى من جهة أخرى (٣) • على أن الخشونة والبدائية التى عرف بها الفيكنج فى أول الأمر لم تلبث أن أخذت تتعدل نتيجة لانتشار المسيحية تدريجيا بينهم ، وما ترتب على ذلك من تهذيب طباعهم •

ويرجح أن أول معرفة الفيكنج بالمسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين ، حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندناوة والدانمرك منذ أوائل القرن الثامن • ومن هذه البعثات بعثة القديس وليبرورد Willibrord وبعثة ابو Ebbo رئيس أساقفة ريمس سنة ٨٢٣ (٤) • وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقى على نشر المسيحية بين

(1) Idem: pp. 46—47.
(2) Haskins: The Normans in European History, p. 36.
(3) Mawer: op. cit. p. 83.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 314.

الفيكنج بالطرق السلمية ، فأغرى هارولد ملك الفيكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من أتباعه سنة ٨٢٦ . وعند عودة هارولد بعد ذلك الى بلاده صحبه القديس انسكار St. Ansker أحد رهبان دير كوربى المعروفين بحماستهم الدينية ، فقضى انسكار عامين فى نشر المسيحية فى الدانمرك ، ثم أبحر الى السويد حيث استقبل استقبالا طيبا ونجح فى تحويل عدد كبير من السويديين الى المسيحية ، حتى عاد الى بلاده سنة ٨٣١ ، فعين رئيسا لاسقفية هامبورج التى أصبحت قاعدة لنشر المسيحية فى البلاد الشمالية (١). وهكذا أخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية ، ليس بين الدانيين فحسب ، بل بين النرويجيين والسويديين كذلك ، وليس فى بلادهم الأصلية فحسب بل فى المواطن الجديدة التى هاجروا اليها واستقروا فيها سواء فى غرب أوربا أو شرقها . وليس هناك من شك فى أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثرا واضحا فى مستقبل أوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على أهمية هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الذين استقروا فى شرق أوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين فى القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين فى الدولة البيزنطية (٢) .

وقد امتازت حضارة الفيكنج فى الجانب المادى بالثروة والفخامة ، فجمعوا الحلى وأدوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الأشياء التى فاضت بها مقابرهم . وليس هناك من شك فى أن مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب فى اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجارى من جهة أخرى (٣) . ومن الواضح أن الفيكنج تركوا أثرا حضاريا واضحا فى كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلند وانجلترا وملحقاتهما الطبيعية (٤) . واذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفيكنج قد أخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التى نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لها البقاء فى أقصى

---

(1) Mawer: op. cit. p. 86.
(2) Dawson: The Making of Europe. p. 244.
(3) Haskins: The Normans in European History, p. 36.
(4) Mawer: op. cit. p. 86.

الغرب - أى فى ايسلاند وجرينلاند - حيث ازدهرت حضارة الفيكنج وأصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن أى تطور حضارى آخر فى القـــارة الأوربية(١) • حقيقة ان حضارة الفيكنج فى تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة أيرلند الكلتية نتيجة لهجرة كثير من الكلت الأيرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة • وقد بلغ التقدم الحضارى فى جرينلاند - بعد استقرار الشماليين فيها - أن أديرتها فى القرن الثانى عشر كانت تستخدم أنابيب المياه الدافئة فى تدفئة داخل الأديرة ، فى حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينبوع دافىء طبيعى • هذا فضلا عن النشاط التجارى الواسع الذى قام به أهالى جرينلاند وأيسلاند فى الميدان الاقتصادى ، اذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت الى البلاد القريبة(٢) •

أما فى ميدان الأدب فان المجموعة الضخمة من أساطير الساجا Saga وأشعار الادا تعتبر خير ما يدل على التقدم الأدبى وبخاصة فى أيسلاند • أما الساجات فهى أساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعى واتزانها واســـتقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية • وأما الادات Eddas فهى مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ولكنها تمتاز أيضا ببروز الجانب الخلقى والنظرة الواقعة الى الحياة • واذا كانت هذه الأشعار تنطوى على شىء من الخشونة والبربرية ، الا أنها تعبر تعبيرا ساميا عن روح البطولة ، كما تحرص على ابراز الغرض الأسمى الذى يسعى اليه البطل • وهكذا يرجع الفضل الى الفيكنج عندما انتجت جزر أوربا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبا رفيعا من أعظم ما أنتجته أوربا العصور الوسطى(٣) •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 339.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 324.
(3) Dawson: op. cit. p. 252.

الباب الحادى عشر

أسرة كابيه فى فرنسا

من الواضح أن الغزوات التى تعرضت لها أوربا فى القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وما جرى من منازعات بين الأمراء والحكام ، تمخضت كلها فى النهاية عن حال شديدة من الفوضى عمت بلاد غرب أوربا • وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم ، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك أو لنفوذه السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم • وهكذا أخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك فى ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة ، كوسيلة وحيدة لحماية أرواحهم من الأخطار والقلاقل التى هددت المجتمع الغربى(١) • وبعبارة أخرى فان هؤلاء الضعفاء أو المستضعفون قبلوا أن يعيشوا فى حال من الهوان والمغارم مقابل قيام كبار الأمراء الاقطاعيين بحمياتهم والذود عنهم ، فى حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن أى أمير آخر من الأمراء الاقطاعيين •

وسوف نتكلم ـ فيما بعد ـ بشىء من التفصيل عن النظام الاقطاعى وخصائصه(٢) ولكن يكفى أن نشير الآن الى أن هذا الوضع من التنظيم السياسى والاجتماعى هو الذى ظلت عليه فرنسا فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر • ففرنسا ذاتها هى الدولة التى بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى أصبح من الضرورى الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس أرواحهم • وهكذا لم يكد ينتهى القرن العاشر ، الا كان النظام الاقطاعى

---

(1) Painter: op. cit. pp. 105—106.

(٢) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب الخاص بنظم أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى •

قد وطد أقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا(١) .
ومن الثابت أن فرنسا - وهي الجزء الغربي من الامبراطورية الكارولنجية - اختلفت عن ألمانيا - الجزء الشرقي من هذه الامبراطورية - لأن الأولى كانت في سالف الزمن جزءا من العالم الروماني حتى دخلت تحت حكم الجرمان . وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى أقسام ادارية - أو كونتيات - تتبع حدود الأسقفيات ، ويحكم كلا منها كونت نائبا عن الملك الميروفنجي أو الكارولنجي . وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية في فرنسا وعندئذ لم تبق قوة تحل محلها سوى قوة الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك(٢) .

ولا شك في أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي امتاز بها تاريخ فرنسا في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي وقيام أسرة كابيه في الحكم . ذلك أنه حدث عندما عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ أن اختير أودو كونت باريس ملكا في العام التالي ، بعد ما أبداه من شجاعة في الدفاع عن باريس أثناء حصار الفيكنج لها(٣) . على أنه يبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بهذا البيت(٤) ، الأمر الذي أثار نزاعا طويلا - استمر قرنا من الزمان - بين البيت الكارولنجي والبيت الباريسي حول الاستئثار بحكم فرنسا . وهنا نشير الى عدم صحة ما يردده كثير من المؤرخين من أن الكارولنجيين الأواخر امتازوا بالضعف وعدم الكفاية ، الأمر الذي أدى الى ضياع الملك من أيديهم . فالواقع أنهم كانوا على قدر كاف من المقدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان ينقصهم المال اللازم . ذلك أن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع في الجزء الغربي من امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذي أصبح من نصيب سلالته ملوك فرنسا . وهذا هو السبب

---

(1) Orton: op. cit. p. 174.
(2) Painter: op. cit. p. 152.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 62—63.
(4) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 60.

فى أن ملوك الجزء الغربى من الامبراطورية ـ فرنسا ـ ظلوا دائما فى فقر وحاجة الى المال حتى زوال البيت الكارولنجى (١) .

وقد حدث اثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجى والبيت البارسى ان اختير احد أبناء البيت الكارولنجى ملكا ـ وهو شارل البسيط (٨٩٣ ـ ٩٢٣) . ولم يعجب ذلك روبرت أخو آودو ووريثه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح بفضل مساعدة لوثرنجيا للأخير . هذا الى أن شارل البسيط اكتسب حيف قويا عندما منح رولو واتباعه من الفيكنج اقليم نورمنديا . ومع ذلك ، فان السنوات الأخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الجسام التى سببها له روبرت كونت باريس(٢) . وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ ، ولكنه قتل فى العام التالى تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله(٣) . أما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ ـ ٩٥٤) ، الذى كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من أخت أوتو العظيم ليضمن مساعدة ألمانيا . ولكن لويس الرابع سرعان ما استكشف أنه أضعف من أن يقف أمام هيو العظيم(٤) ، فاضطر الى مسالمته مكتفيا بالاقامة فى مدينة لايون Laon . وهكذا نجح هيو العظيم ـ ومن بعده هيو الملقب كابيه فى السيطرة على معظم أنحاء فرنسا قبل أن تحل سنة ٩٨٦ ، وهى السنة التى توفى فيها لوثر بن لويس الرابع . ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ ـ ٩٨٧) ابن لوثر ـ دون أن يترك ابنا يخلفه ـ بمثابة فصل الختام بالنسبة للبيت الكارولنجى ، فتم تتويج هيو كابيه ملكا على فرنسا (٩٨٧ ـ ٩٩٦) فى نفس العام الذى شهد وفاة لويس الخامس ، وبذلك بدأ تاريخ أسرة كابيه فى حكم فرنسا .

ومن الواضح أن قيام أسرة كابيه فى حكم فرنسا سنة ٩٨٧ لا يعنى أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى ، اذا لم يلبث آل كابيه أن ورثوا حقوق

---

(1) Painter; op. cit. p. 153.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 66.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 74—75.
(4) Orton: op. cit. p. 180.

الكارولنجيين وامتيازاتهم من جهة ، كما أصبحوا السادة الأعلين لجميع الاقطاعيين فى المملكة من جهة الأخرى(١) • ولكى ندرك مركز هيو كابيه يجب أن ننظر اليه من ثلاث زوايا مختلفة : أولها أنه توج ملكا على دولة الفرنجة الغربية (فرنسا) ليرث الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم ، وثانيهما أنه جاء ممثلا لكبار الاقطاعيين ، وأخيرا أنه هو نفسه لا يعدو أن يكون أميرا اقطاعيا فى اقطاعه أو فى دوقيته(٢) • واذا كان من أسباب سقوط الملكية الكارولنجية هو أنها لم تستطع أن تمثل التطور الاقطاعى وتسايره فى وقت اصبح لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعائم وأسس اقطاعية ، فانه يمكن القول بأن أسرة كابيه الجديدة أنقذت نظام الملكية فى فرنسا بتزويدها بروح وقواعد اقطاعية مكنتها من مسايرة العصر والظروف(٣) •

وقد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كابيه فى الوصول الى حكم فرنسا يعتبر انتصارا للأمراء الاقطاعيين على الملكية الكارولنجية ، ولكن اذا دققنا النظر وجدنا أن آل كابيه كانوا أنفسهم فى مركز لا يحسدون عليه من جراء منافسة كبار الأمراء الاقطاعيين وخطرهم(٤) • ذلك أن فرنسا كانت عند قيام أسرة كابيه فى الحكم سنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضخم من الاقطاعيات المتباينة التى ارتبط كل منها بأسرة معينة فى ظل قوانين ونظم خاصة ، حتى أن سنة وخمسين من كبار الأمراء الاقطاعيين كانوا يسكون النقود الخاصة بهم ، فضلا عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى فى فرنسا • ولا أقل من استعراض أهم الامارات أو الأقسام التى انقسمت اليها فرنسا عندئذ ، حتى يمكننا متابعة تاريخها منذ القرن العاشر •

ففى الشمال كانت دوقية برجنديا التى حكمها فرع من أسرة كابية الحاكمة(٥) فى حين تحولت فلاندرز ـ بين نهر الشلد وبحر الشمال ـ الى امارة قوية ،

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, p. 147.
(2) Painter: op. cit. p. 155.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.
(4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 341.
(5) Tout: The Empire and the Papacy p. 88.

بفضل سياسة أمرائها فى ضم الضياع المجاورة على الحدود الفرنسية من جهة ، وبفضل نشاطها التجارى وما ترتب عليه من ازدياد الثروة واتساع المدن وكثرة السكان من جهة أخرى • أما فى الغرب فان بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب اهمالها وتأخرها وجدبها وكثرة الحروب فيها ، فضلا عن اغارات النورمان عليها(١) • وعلى حدود بريتانى - على بحر المانش - قامت امارة نورمنديا التى أصبح صاحبها - بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩١١ - فصلا للتاج الفرنسى • وسرعان ما غدا أهلها من النورمان جزءا من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجديدة واعتنقوا الديانة المسيحية(٢) •

أما جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة ، لأن الأجزاء الجنوبية امتازت بلغتها الخاصة البروفنسالية فضلا عن عاداتها وتقاليدها التى ظلت ترتبط بالتراث الرومانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجرمانى • واذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض اقطاعية للملك ، فان أمراء الجنوب لم تربطهم صلة بآل كابيه سوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تأريخ حوادثهم • وأهم هذه الامارات الجنوبية كانت دوقية اكوتين وعلى رأسها أمراء بواتييه منذ القرن العاشر • وقد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ومن خليج بسكاى حتى الرون ، الأمر الذى جعل من المتعذر على فرد واحد أن يحكمها(٣) • أما الاقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون Gascons يحكمهم أمير منهم حتى انضموا الى كوتين فى أواخر القرن الحادى عشر • وأخيرا وجدت امارتان على البحر المتوسط ، الأولى امارة تولوز محل سبتمانيا القديمة ، والثانية امارة برشلونة محل المارك الأسبانى الذى أقامه شارلمان على الحدود(٤) •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 128.
(2) Lavisse: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, pp. 41—44.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 128—130.
(4) Stephenson: op. cit. pp. 231—232.

آل كابيه الأوائل :

وعلى الرغم من كثرة مادون عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كابيه ، الا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية . والظاهرة العامة التى تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ - ١١٠٨) هو أن الظـــروف أظهرتهم فى مظهر الضعف أمام كبراء الأمراء الاقطاعيين . وان كان الواقع هو أن فرنسا دخلت فى ذلك العصر دورا جديدا من تاريخها ، بمعنى أنه اذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور ، فان آل كابيه الأوائل يمثلون عصر تقدم وبناء(١) .

وقد أكسب هيو كابيه - أول هـــؤلاء الملوك (٩٨٧ - ٩٩٦) الأسرة الحاكمة لقبها الذى عرفت به فى التاريخ ، وان كان كل ما فعله هو أنه توج ابنه فى حياته ، وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها خلفاؤه فى القرنين التاليين ، الأمر الذى جعل العرش ينتقل فى سهولة الى ابنه روبرت الثانى (٩٩٦ - ١٠٣١) ، ثم حفيده هنرى الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠) ثم ابن حفيده فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨) ، دون أن يكون لأحد هؤلاء الملوك نشاط خاص يسترعى انتباهنا .

ويبدو أن الظروف كانت لا يمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا حكم فرنسا فى القرن الحادى عشر فى فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته الاسمية الواسعة . لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو انقاذ ما تبقى لهم من نفوذ موروث فى اماراتهم الاقطاعية حول باريس ، وهى المنطقة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ile de France حيث وجد بعض صغار الأمراء الاقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع والحصون - وبخاصة فى عهد فيليب الأول - تحديا له(٢) .

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.
(2) Lavisse; op. cit, Tome 2, Deuxième Partie, p. 176.

واذا كان عهد فيليب الأول بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه سلطة الملكية الى الحضيض ، الا أن هذا العهد يمثل أيضا نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة نظرا لاتساع أملاك آل كابيه تدريجيا(١) • ذلك أن فيليب الأول أستغل حاجة أمير بورج Bourges للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى واشترى منه اقطاعه ، كما استولى على بعض أراضى كونت انجو عن طريق المساومة السياسية • ومن ناحية أخرى أسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم(٢) •

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون التخلى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا الى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة • ففى داخل جزيرة فرنسا ـ أوعلى مقربة منها ـ وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكية • وقد قدم رؤساء هذه الأسقفيات ومقدمى الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم وتدعيمها • ولكن على الرغم من هذه المساعدات فان آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أندادا لكبار الأمراء الاقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا(٣) • حقيقة ان اسهام كثير من فرسان فرنسا وأمرائها الاقطاعيين فى النشاط الصليبى كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل، اذ أدى ذلك الى اتجاه هؤلاء الأمراء الى هذه الحروب الدينية فى الشرق بدلا من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض(٤) ، ولكن ذلك ليس معناه أن الفوضى الاقطاعية التى عمت البلاد قل خطرها • وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الاقطاعيين بعضهم وبعض ، أو

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 110.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 161.
(3) Stephenson: Med. Hist. pp. 244—245.
(4) Orton: op. cit. p. 185.

بعبارة أخرى بين الفرنسيين بعضهم وبعض ، لا عن هجمات أجنبية قام بها مغيرون من الخارج كما كان الحال فى غزوات الفيكنج من قبل(١) .

لويس السادس :

ولكن اذا كان فيليب الأول قد ظهر عجزه عن مقاومة البارونات الاقطاعيين فان خليفته لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) كان مثلا طيبا للحاكم القوى(٢) والواقع أن بيت كابيه كان قد انحدر الى درجة سيئة من الضعف والانحلال عندما اعتلى لويس السادس العرش . وقد رأى لويس السادس أنه يتعين عليه اخضاع أتباعه وأفصاله من الأمراء الاقطاعيين داخل جزيرة فرنسا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية ونشر هذا السلطان فى بقية أنحاء فرنسا(٣) . وهكذا لم تكد تحل سنة ١١٢٠ الا كان الملك يستطيع أن ينتقل فى أنحاء أراضيه الاقطاعية دون حاجة الى حراسة أو جيوش ، كما أن أفصاله أخذوا يدفعون الأموال المستحقة عليهم بانتظام . ولم يلبث أن أدى استقرار الأوضاع داخل جزيرة فرنسا الى نشاط الحياة الاقتصادية ، بعد أن أمن التجار على أنفسهم وأموالهم ، مما عاد على الجميع بالخير والرفاهية(٤) .

ولكن اذا كان لويس السادس قد استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الاقطاعية ، الا أنه ظل عاجزا أمام كبار الأمراء الاقطاعيين فى بقية أنحاء فرنسا . ذلك أن هؤلاء الأمراء الأقوياء استمروا يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يقيموا وزنا للملك أو يعترفوا له الا بتبعية اسمية ، فلم يدفعوا له ما يستحق عليهم من ضرائب اقطاعية أو يقدموا له ما يجب عليهم من ضرائب عسكرية وغير عسكرية يفرضها العرف الاقطاعى(٥) . وهنا شاءت الظروف أن تمد

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 77.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 594—597.
(3) Idem, p. 596.
(4) Stephenson: Med. Hist.p. 398.
(5) Tout: The Empire and Papacy, p. 278.

ملك فرنسا بقوة تساعده فى فرض سيطرته على بقية الأمراء الاقطاعيين فى بلاده . ذلك أن وليم العاشر دوق اكوتين أوصى وهو على فراش المـــوت (سنة ١١٣٧) بأن تتزوج ابنته وورثيته اليانور من ابن لويس السادس ، الأمر هيأ لملك فرنسا فرصة ضم دوقية قوية غنية زادت من سطوته ونفوذه. هذا فى الوقت الذى استغل لويس السادس فرصة النزاع بين أبناء وليم الفاتح ليؤكد تبعية هنرى الأول ملك انجلترا له بوصفة دوق نورمنديا(١) .

والواقع أن أعظم خطر هدد الملكية الفرنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر جاء من ناحية ملوك انجلترا ، الذين جمعوا بين العرش الانجليزى ودوقيه نورمنديا . ذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخرى حتى جرح وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحا خطيرا أثناء مهاجمته ضواحى باريس . ثم لجأ هنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ - ١١٣٥) الى تأليف حلف قوى ضد لويس السادس ملك فرنسا ، وضم الى هذا الحلف أقصاله فى بريتانى وأمراء جزيرة فرنسا الحانقين على ازدياد نفوذ الملكية وأهالى المدن الفلمنكية الذين لم يكونوا على وفاق مع أمرائهم ، فضلا عن كونت بلوا Blois . وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت أكثر من مرة بلويس السادس الا أنه ظل محتفظا بشانه ومركزه(٢) .

وثمة تطور هام يستحق الاشارة فى تلك الفترة ، هو نشاط الحـــركة القومونية فى شمال فرنسا . ومع أنه لا يوجد ما يثبت أن لويس السادس أيد المدن وشجعها ، الى أنه لا يوجد دليل فى الوقت نفسه على أنه عاكس حركة تحرر المدن وقاومها . وربما كان الأقرب الى الصواب أنه منح كثيرا من المدن الناشئة براءات ساعدت علىّ تحريرها(٣) .

---

(1) Stephenson; Med. Hist. pp. 400—401.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 280.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 515.

وخلاصة القول ان دعائم بيت كابية تم تثبيتها عند وفاة لويس السادس سنة ١١٣٧ ، الأمر الذى مكن خلفاءه من اقامة دولة قوية على هذه الدعائم (١) .

لويس السابع :

أما لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠) فقد كان مركزه قويا بعد أن ضم اليه اكوتين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق . وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبنى الثائر (سنة ١١٤٧) ، وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا أنوسنت الثانى (٢) . ويقال ان لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة الى احراق كنيسة فترى Vitry التى كانت مشحونة باللاجئين ، فاحترق فى هـذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال . ويبدو أن هـذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع – وهو الرجل التقى – حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه . وكان أن أسـهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحبا معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ مما تطلب منه بذل كثير من الأرواح والأموال دون ثمرة .

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسيةالتى كانت لأبيه بحيث لم ينقذ الأداة الحكومية فى فرنسـا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر (ت ١١٥٢) Suger الذى كان مقدم دير سانت دنيس ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا من الانهيار ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا ووزيرا خاصا للملك (٣) . ولم يلبث أن تحقيق عدم الانسجام بين لويس السابع – الملك التقى الهادىء – وزوجته المرحة الطروب ، وهى اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر . وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك انجلترا قد زوج ابنته من كونت انجو ، وأنجبت

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 163—164.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 607.
(3) Lavisse : op. cit Tome III, Première Partie, pp. 20-23.

هذه الزيجة هنرى الأنجوى . وصادف أن طلق لويس السابع زوجته اليانور صاحبة أكوتين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة ، ولأنها لم تنجب له ولدا ذكرا يحفظ الحكم فى بيت كابيه من جهة أخرى (١) ، فتزوجت اليانور من هنرى الأنجوى السابق الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنرى الثانى (٢) . وهكذا أصبحت ممتلكات ملك انجلترا فى صلب القارة تمتد من المانش حتى البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا وانجلترا أمرا لا مفر منه (٣) . وكان المحك بين لويس السابع وهنرى الثانى هى مدينة تولوز ، اذ منع الأول ملك انجلترا من الاستيلاء عليها مما أثار الحرب بين الطرفين . وقد شاءت الظروف أن يرتكب هنرى الثانى فى ذلك الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى ، مما أثار الشعور العام ضد ملك انجلترا وجعل الكثيرين من نبلاء بريتانى وبواتو وجوين يساندون لويس السابع (٤) . هذا فى الوقت الذى اتبع لويس السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج . ففى الداخل لجأ الى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقام لها المدن لتتخذها مسرحا لنشاطها ولتكون عونا له على كبار الأمراء الاقطاعيين (٥) . أما فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وهو تفاهم أو تحالف ظل قائما مدى ثلاثة أجيال . هذا فى الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك انجلترا عن طريق اثارة أبنائه ضده . وفعلا ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الذين كانوا يشرفون على أملاك التاج الانجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع من خطر الملكية الانجليزية (٦) .

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 250.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5 p. 609
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 268
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 55
(5) Orton : op. cit. pp. 251—252.
(6) Adams : The History of England, p. 304

فيليب اوغسطس

ثم كان أن اعتلى عرش فرنسا فيلب أوغسطس « الثانى » (١١٨٠ - ١٢٢٣) الذى تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة . ولم يلبث أن استطاع فيلب أوغسطس التخلص من الأخطاء التى وقع فيها والده ، ومن ثم بدأ يستأنف سياسة جده فى التمكين للملكية الفرنسية وبسط نفوذها (١) . لذلك امتاز عهده بازدياد قوة الملكية فى الداخل والتوسع فى الخارج ، وهى نتائج التى توصل اليها بعد سلسلة من الاصلاحات الداخلية الواسعة التى منحته قـــوة جعلته خطرا على خصومه فى انجلترا ونورمنديا وفلاندرز وألمانيا وجنـوب فرنسا(٢) . هذا الى أن فيلب أوغسطس حكم مدة قاربت أربعا وأربعين سنة ، وهى مدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا ، ممـا أتاح للملك فرصة تأكيد حقوقه الاقطاعية قبل الأمراء الجدد . وأخيرا ينبغى أن نذكر ما كان لفيلب من أخلاق ساعدته على النجاح ، فقد عرف عنه قوة العزيمة والثبات والصبر ، زيادة على ما هو عليه من الذكاء وحسن التقدير ، مما مكنه من مواجهة الصعاب التى اعترضته والتغلب عليها واحدة بعـــد أخرى(٣) .

وقد بدأ فيلب أوغسطس عهده باسترضاء هنرى الثـانى ملك انجلترا ، ليضمن عدم تدخله فى الحركة التى أزمع القيام بها لاخضاع أمراء فلاندرز وشامبنى وبرجنديا(٤) . وكان أن دخل فيلب فعلا فى حرب طويلة مع هؤلاء الأمراء (١١٨١ - ١١٨٥) حتى أخضعهم لسلطان الملك الذى أصبح يسيطر على المنطقة الغنية الممتـــدة من فرماندوا Vermandois حتى أرتوا Artois (٥) على أن فيلب أوغسطس كان يدرك تماما من أول الأمر أنه من المتعذر عليه تحقيق سيطرته على الاقطاعات الكبرى فى فرنســـا ما دامت

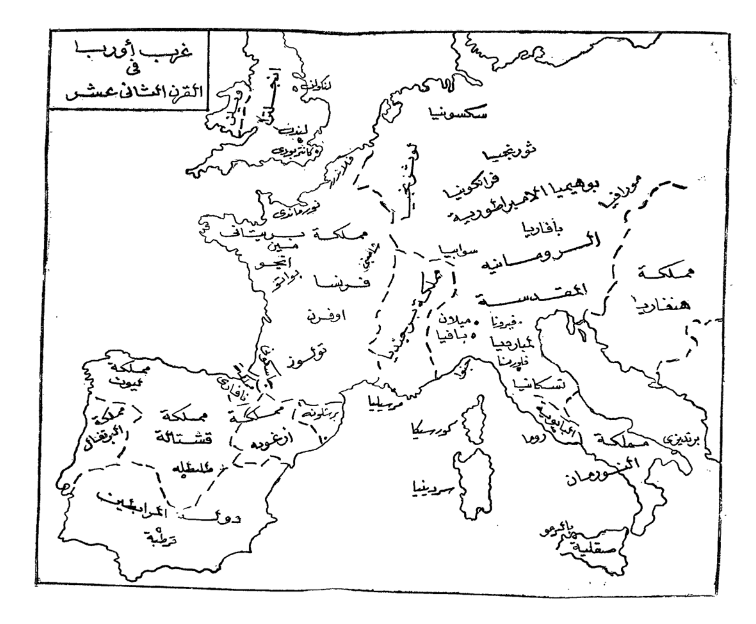
---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 424
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 284—285
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 520
(4) Adams : The Hist. of England, p. 338
(5) Lavisse : op. cit Tome 3. Première Partie, p. 87

ممتلكات التاج الانجليزى فى شمالها وغربها تحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتمثل خطرا جاثما عليها(١) • لذلك لجأ فيلب الى كل وسيلة ممكنـــة ــ سياسية أو حربية ــ لاضعاف قوة انجلترا فى القارة • من ذلك أنه عقد تحالفا سنة ١١٨٧ مع فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا (١١٥٢ ــ ١١٩٠) للوقوف فى وجه خصومها من كبار الاقطاعيين ، وبخاصة الانجويين فى فرنسا والجلفيين فى ألمانيا (٢) • وقد استمر هذا التحالف الذى جعل ملوك أسرة كابيه وآل هو هنشتاوفن فى جانب ، وملوك انجلترا والجلفيين فى الجانب الآخر المضاد، يلعب دورا عظيما فى السياسة الأوربية حتى موقعة بوفان **Bouvines** سنة ١٢١٤ • على أن جهود فيلب الثانى ضد الملكية الانجليزية لم تقف عند محالفة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وانما ، استغل ملك فرنسا عقوق هنرى وريتشارد وجيوفرى وحنا ــ أبناء هنرى الثانى ملك انجلترا ، وأخذ يساعدهم ضد أبيهم ليضعف نفوذ الملكية الانجليزية عن طريق بث الشقاق بين ملك انجلترا وأبنائه (٣) •

وعندما خلف ريتشارد الأول أباه فى حكم انجلترا (١١٨٩ ــ ١١٩٩) خرج ليسهم مع فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠ • ولم تطل اقامة فيلب بالأراضى المقدسة اذ اعتذر بسوء حالته الصحية وعاد الى بلاده سنة ١١٩١ • ومن الواضح أن الحجة التى احتج بها فيلب أوغسطس كانت شكلية واهية ، وأنه عاد بقصد الحصــول على نصيب زوجته فى اقليم فلاندرز بعد أن توفى كونت فلاندرز (٤) • هذا الى أنه انتهز فرصة غياب ريتشارد فى الأراضى المقدسة وحاول الهجــوم على نورمنديا ، ولكن أمراءه رفضوا الاشتراك معه لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضى صليبى يحارب فى الأراضى المقدسة ، فضلا عن أن هذه الأراضى تعتبر طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته • وعندئذ أخــــذ

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 291—302
(2) Adams : op. cit. p. 347
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 293
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 304



غرب أوربا
فى
القرن الثانى عشر
سكسونيا
ثورنجيا
فرانكونيا
بوهيميا
مورافيا
الامبراطورية
بافاريا
سوابيا
الرومانيه
المقدسة
مملكة
هنغاريا
مملكة بريتاني
نورماندى
لندن
كانتربورى
فلاندرز
انجو
فرنسا
بواتو
اوفرن
تولوز
ميلان
فيرونا
بافيا
لمبارديا
فلورنسا
جنوا
تسكانيا
روما
مملكة
النورمان
برنديزى
باليرمو
صقلية
كورسيكا
سردينيا
مرسيليا
برشلونه
مملكة
ارغونه
مملكة
قشتالة
مملكة
ليون
مملكة
البرتغال
طليطله
دولة المرابطين
قرطبة
نافار

فيليب أوغسطس يحرض حنا ضد أخيه ريتشارد ويعده بمساعدته على تتويجه ملكا على انجلترا (١) • ويبدو أن أخبار هذه المؤامرات بلغت مسامع ريتشارد فعاد من الشرق بعد أن عقد صلح الرملة مع صلاح الدين ، ولكنه سلك الطريق البرى من ايطاليا الى بلاده ، فوقع فى يد دوق أوستريا الذى باعه لهنرى السادس امبراطور ألمانيا • وقد عرض فيلب أوغسطس مبلغا كبيرا على الامبراطور ليحتفظ بملك انجلترا أسيرا ، ولكن الامبراطور أفرج عنه سنة ١١٩٤(٢) • وهكذا استطاع ريتشارد العودة الى بلاده ليستعد للذهاب الى نورمنديا حيث تعرضت مصالحه لخطر كبير أمام تهديد فيلب أوغسطس •

وقد قضى ريتشارد السنوات الخمس الباقية من حكمه على شاطئ فرنسا ولم يعد الى انجلترا حتى مقتله سنة ١١٩٩ • أما الأعمال التى قام بها فى نورمنديا فى تلك الفترة ، فانه بدأ بهجوم مباغت على فيليب أوغسطس قرب فريتفال Fréteval وعندئذ لم يستطع فيلب النجاة الا بصعوبة بعد أن فقد خاتم الملك وبعض الوثائق والأمتعة المهمة (٣) • ويبدو أن الهزيمة كانت أقسى ضربة تعرض لها فيليب أوغسطس فى حياته ، مما جعله ينسحب من نورمنديا ومين وتورين ، ويطلب عقد الهدنة مع ملك انجلترا سنة ١١٩٤ • على أن الحرب لم تلبث أن تحولت الى فلاندرز لحدوث تطور فى السياسة الامبراطورية (٤) •

ذلك أنه حدث عند وفاة الامبراطور هنرى السادس امبراطور ألمانيا سنة ١١٩٧ أن رشح كل من الجلفيين والجبللنيين فردا يتولى عرش الامبراطورية، فاختار الفريق الأول أوتو الرابع دوق برنسويك ابن هنرى الأسد وابن أخت ريتشارد ملك انجلترا ، فى حين اختار الفريق الثانى فيليب دوق سوابيا وهو الأخ الأصغر للامبراطور هنرى السادس خصم ريتشارد • وكان من

---

(1) Painter : A Hist. of the Midlde Ages, p. 252
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 112
(3) Adams : op. cit. p. 378
(4) Cam. Med. Hist, Vol, p. 305

الطبيعى أن تؤيد انجلترا أوتو الرابع مرشح الجلفيين نظرا للظروف السابقة من جهة ولمصالحها التجارية فى شمال غرب ألمانيا من جهة أخرى (١) • وقد اتفقت مع انجلترا فى موقفها كل من فلاندرز وبولونيا Boulogne (٢) أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد ساند المرشح الآخر وهو فيليب دوق سوابيا ، ولهذا الغرض زحف الى فلاندرز حيث لم يصادفه التوفيق (٣) • ثم أعقبت ذلك هدنة بين الطرفين لمدة سنة استغلها ريتشارد فى بناء حصن جيلارد Gaillard فوق ربوة تطل على نهر السين شمالى روان ، وذلك لحراسة عاصمة نورمنديا من أى اعتداء فرنسى • ولم يلبث بناء ذلك الحصن أن أثار العداوة بين الطرفين من جديد ، فهجم فيليب أوغسطس على نورمنديا سنة ١١٩٨ ونجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة (٤) • وأخيرا تدخل البابا ونجح سنة ١١٩٩ فى عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات (٥) • على أن ريتشارد لم يلبث أن لقى مصرعه فى تلك السنة السابقة نفسها ، وبذلك تخلص فيلب أوغسطس من ألد خصومه وأقدرهم •

وقد خلف ريتشارد فى حكم انجلترا أخوه حنا (١١٩٩ - ١٢١٦) الذى كانت تنقصه الكفاية والقدرة الشخصية اللتين امتاز بهما أخوه ، مما أتاح فرصة لفيلب الثانى ملك فرنسا حتى يستمر فى سياسة تفتيت أملاك التـــاج الانجليزى بالقارة • ولتحقيق هذا الغرض أخذ فيلب يستعد بتدبير المال اللازم للحرب من جهة وبتأليب آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا ملك انجلترا من جهة أخرى ، وذلك كما سبق أن ألب أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم وألب حنا ضد أخيه ريتشارد • وقد تظاهر فيلب باعترافه بسلطة آرثر فى نورمنديا وبريتانى ، وخذ يحشد قلاع هذين الاقليمين بالجنـد الفرنسيين

---

(1) Barraclough : The Origins of Modern Germany, pp. 210—213.

(٢) على بحر المانش جنوبى كاليه •

(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 522

(4) Tout : The Empire and The Papacy, pp. 394—395

(5) Adams : op. cit. p. 385

تحت ستار مساعدته ضد عمه (١) • وبعد ذلك تخلى فيليب عن مساعدة آرثر مقابل ثمن مرتفع اضطر حنا الى دفعه ، وهو التخلى عن افرى Evreux لفرنسا ، وعن المحالفات التى عقدها ريتشارد فى ألمانيا وفلاندرز ، فضلا عن دفع مبلغ كبير من المال • وفى الوقت الذى كان حنا ملك انجلترا مفتقرا الى المال وولاء الرجال ، كان فيليب متمتعا بكل ما يعوز خصمه ، فأخذ يستولى على مدن نورمنديا واحدة بعد أخرى عن طريق رشوة حامياتها ، فان لم تنفع الرشوة لجأ الى القوة والقتال • وهكذا لم تكد تنته سنة ١٢٠٥ الا كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورمنديا وانجو ومين وتورين ، فى حين دان له بالطاعة معظم أمراء بواتو ، بذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسى وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة (٢) •

والواقع أن استيلاء آل كابيه على نورمنديا يعتبر نقطة تحول بالغة الأثر فى تاريخ الملكيات الغربية • فعلى الرغم من خسارة انجلترا الفادحة بضياع نورمنديا الا أنها استفادت بعد أن أصبحت مملكة جزرية قائمة بذاتها ، لا مجرد امتداد لممتلكات ملوكها النورمان فى القارة • أما الأمراء النورمان فقد أصبح عليهم أن يختاروا بين ممتلكاتهم واقطاعاتهم فى أحد جانبى المانش ، ليكونوا أفصالا اما لملك انجلترا أو لملك فرنسا ، بعد أن كانت تبعيتهم موزعة بين الجانبين • وهكذا يمكن القول بأن استيلاء الفرنسيين على نورمنديا يعتبر الخطوة الأولى نحو تبلور القومية الانجليزية (٣) • أما من ناحية فرنسا فقد غدا فيليب أوغسطس بعد استيلائه على نورمنديا يفوق فى قوته أى أمير اقطاعى آخر فى البلاد ، اذ صارت أملاكه تشمل بيكاردى ونورمنديا وأنجو وبواتو وأوفرن ، فضلا عن جزيرة فرنسا • بل ان ملك فرنسا أصبح الرجل الثانى فى أوربا بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة • وذلك بعد أن تضاعفت أملاكه وموارده فى الرجال والأموال (٤) •

(1) Lasvisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 260e
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 253
(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 472—473
(4) Orton : op. cit. p. 253

وقد حرص فيليب فى السنوات العشر التالية على تدعيم سلطانه فى هذه الممتلكات الجديدة التى اغتصبها من التاج الانجليزى ، والاستعداد فيها لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب انجلترا • ولم تلبث أن لاحت الأخطار التى توقعها فيليب أوغسطس ، عندما عاد حنا ملك انجلترا الى بلاده ، ليجمع الأموال اللازمة لاسترداد أراضيه المفقودة فى فرنسا ، وليقيم حلفا ضد ملك فرنسا يضم الأمراء الحانقين عليه مثل كونت فلاندرز ، فضلا عن زعيم الولفيين أوتو الرابع امبراطور ألمانيا • وأخيرا تم الاتفاق على أن يقوم الحلفاء بغزو فرنسا من الشمال فى حين يهاجم حنا ملك انجلترا أنجو من الجزء الذى تبقى له فى اكوتين (١) • وهكذا أصبح الموقف خطيرا بالنسبة لفيليب أوغسطس ، ولا سيما أن أوتو الرابع حشد سنة ١٢١٤ قوة ضخمة فى فلاندرز تبلغ ثمانين ألف مقاتل فى حين أخذ حنا يستميل أمراء أكوتين • أما فيليب أوغسطس فلم يكن أمامه سوى أن يعتمد على الشعور الوطنى الذى أخذ يستيقظ فى شمال فرنسا من جهة ، وعلى ما عساه أن يقوم به الهوهنشتاوفن — أعداء أوتو فى ألمانيا — من جهة أخرى • وكان أن تغلب فيليب أوغسطس على أوتو الرابع وبقية الحلفاء الذين هاجموا فرنسا من جهة الشرق فى موقعة بوفان Bouvines (يولية سنة ١٢١٤) ، فى الوقت الذى فشل الهجوم الذى قام به حنا ملك انجلترا على اللوار (٢) • وهكذا جاء هذا الانتصار الجديد ليحمى ملوك فرنسا من أى خطر أو تهديد من جانب انجلترا لاسترداد أملاكها المفقودة فى نورمنديا ومين وانجو • أما بواتو / Poitou فقد ظلت منطقة انتقال بين الطرفين (٣) •

امتداد النفوذ الفرنسى جنوبا — الحملة الالبيجنسية :

وبينما فيليب أغسطس يعمل على نشر نفوذه فى الشمال والغرب عن طريق الغزو والسياسة ، اذ بحملة صليبية تتجمع فى شمال فرنسا لتغزو جنوبها ،

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3; Première Partie pp. 166 — 173.

(2) Adams : op. cit. p. 431

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 395—396.

وتبعا لذلك تمد نفوذ أسرة كابيه على الجنوب أيضا • ذلك أنه وجدت في جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى ، هي دوقية اكوتين وكونتيه تولوز وكونتيه بروفانس • وكانت الاثنتان الاولتان ضمن نطاق الملكية الفرنسية ، في حين ظلت كونتيه بروفانس وراء الرون لا ترتبط بملك فرنسا •

وهكذا استمر جنوب فرنسا في شبه عزلة عن شمالها ، وهي عزلة زاد من وقعها الاختلاف الحضارى بين الجنوب والشمال ، اذ بقى الجنوب محتفظا بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أى جزء آخر من أجزاء أوربا ، دون أن يحدث ما يغير الوضع الحضارى لهذا الاقليم سوى سيطرة العرب على مصب الرون بين سنتى ٨٨٨ ، ٩٧٢ • على أن تخلص جنوب فرنسا من سيطرة المسلمين ساعد هذا الاقليم الغنى بثروته الطبيعية ونشاطه التجارى ومناخه المعتدل على تشييد بناء حضارى امتاز بالتجديد والعظمة • ويكفى أن جنوب فرنسا شهد مولد الأدب البروفنسالى الذى تجلى بوضوح فى شعر التروبادور فضلا عن ظهور جو من التسامح الدينى وحرية الفكر (١) •

وقد أدت هذه الحرية وذلك التسامح من جهة ، وروح الاستياء العامة من الأوضاع التى تردت فيها الكنيسة ورجالها من جهة أخرى ، الى انتشار بعض المذاهب الهرطقية فى جنوب فرنسا • ذلك أن تولوز والمنطقة المحيطة بها اكتظت عند نهاية القرن الثانى عشر بأعداء سافرين للكنيسة ورجالها ، فى حين كان الأمراء أنفسهم من الهراطقة أو من مشجعى الهرطقة (٢) • وكان أن ظهر عندئذ مذهبان من المذاهب الهرطقية الخارجة عن تعاليم العقيدة الكاثوليكية وأصولها ، أولها مذهب الوالدنسيين (Waldensian) وثانيهما مذهب الكاتاريين Catharist • أما المذهب الأول فينسب الى بطرس والدو (Peter Waldo) وهو أحد تجار ليون فى القرن الثانى عشر ، وهب

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 528.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 397.

جميع ثروته لأوجه البر والاحسان وأخذ - حوالى سنة ١١٧٧ - يتجول ، واعظا الناس بالعودة الى سنن القديسين والرسل الأوائل ، مهاجما رجال الدين وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع تعاليم المسيحية وروحها(١). ولم يلبث أن التفت حوله عدد كبير من الفقراء وبخاصة فى جنوب فرنسا واقليم بروفانس حيث أخذ الولدانسيون يهاجمون رجال الكنيسة حتى اتهمته الكنيسة بالخروج عليها وبأنه يفسر الانجيل تفسيرات غير صحيحة ، ولا سيما أن القانون الكنسى يحرم على أى فرد مباشرة الوعظ والارشاد الا باذن من الكنيسة(٢) . وعندما لجأ بطرس والدو الى البابا ليشكو اليه موقف الكنيسة منه ، رأى البابا حسن نيته ، فأقر الوالدنسيين على مذهبهم فى التقشف والحياة البسيطة ، ولكنه حرم عليهم الوعظ الا باذن من الأساقفة التابعين لهم . على أن بطرس والدو وأتباعه استكشفوا فى العهد الجديد ما ينص على أن الوعظ ركن أساسى من أركان المسيحية(٣) ، فرفضوا الامتثال لرغبة البابا سنة ١١٧٩ ، وقالوا أنهم لا يمتثلون لبشر لأن الطاعة تجب عليهم للرب وحده . وهكذا صدر قرار الحرمان ضد الوالدنسيين ١١٨١ - ١١٨٤ وطردوا من منطقة ليون ، فتحولوا الى فرقة هرطقية ، وأخذوا يباشرون طقوسهم الدينية دون وساطة رجال الدين كما تطرفوا فى اعتناق الآراء الغريبة عن الكنيسة(٤) . وقد مات بطرس والدو نفسه سنة ١١٩٧ ، ولكنه ترك أتباعا كثيرين فى بوهيميا واللورين وجنوب فرنسا وأرغونة وشمال ايطاليا . ولم يلبث أن انقسم هؤلاء الأتباع على أنفسهم وتحولوا الى فرق هرطقية عديدة ، مما أثار فى وجه البابوية مشاكل كثيرة لا حصر لها .

أما أتباع المذهب الثانى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم الكاتاريين Cathari أى الأطهار ، وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين ،

---

(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 707.
(٣) «وأوصانا ان نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للأحياء والأموات» (سفر أعمال الرسل - الاصحاح العاشر - ٤٢) .
(4) Stephenson : Med Hist. p. 445.

وبينما اختلف الوالدنسيون مع الكنيسة حول أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية دون أن يعترضوا على تعاليمها الدينية ، اذا بالكاثاريين ينادون بتعاليم تتعارض تعارضا كبيرا مع تعاليم الكنيسة مما جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت(١) • ذلك أن مذهبهم لم يقم على أساس التوحيد ، وانما كان مذهبا ثنائيا يقول بوجود الهين أحدهما للخير والآخر للشر ، الأول يحكم العالم الروحى والثانى يحكم العالم المادى(٢) • وبعبارة أخرى فان هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة ، فهناك روح ومادة وهنـــاك نور وظـــلام ، وخير وشر ...(٣) • كذلك نادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الآراء الهدامة • ويبدو أن هذه الآراء انتشرت من شرق أوربا الى غربها ـ عن طريق التجار ـ حتى صلت فى القرن الحادى عشر الى لمبارديا وشرقى فرنسا ووسطها وحوض الراين وفلاندرز ، مما هدد الكنيسة وأفزعها فزعا شديدا(٤) • ومن الواضح أن آراء الكاثاريين انتشرت فى الجهات التى تنكر فيهـــا رجال الدين لواجباتهم ووظائفهم • وحيث اشتدت الفوارق بين كبار رجال الكنيســـة وصغارهم ، الأمر الذى دفع كثيرا من الطبقات الفقيرة الى الانضـــمام الى هذه الفرقة حتى ازداد عددهم زيادة كبيرة(٥) • ويبدو أنهم بلغوا درجـــة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبى Albi فى كونتيه تولوز ـ مما جعلهم ينسبون اليها ويعرفون باسم الألبيجنسيين Albigensians

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول البابا أنوسنت الثالث اقناع الهراطقة فى أول الأمر بالعودة الى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة ، فأرسل بعض الوعاظ ـ وعلى رأسهم مقدم ديرسيتو ، ومندوب من قبل البابا نفسه ـ الى الجهات الجنوبية من فرنسا • ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم ، ولم يلقوا

(1) Eyre ; op. cit. p. 355
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 701—702
(4) Ibid.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 306

تشجيعا ومساعدة للقيام برسالتهم ، حتى من جانب الأمراء ، وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز ، الذى امتاز بحبه للطرب والمرح فلم يهتم بشئون الدين والكنيسة (١) • وأخيرا يئس أنوسنت الثالث (سنة ١٢٠٤) من القضاء سلميا على هذا الخطر الذى أخذ يستفحل ويهدد الكنيسة تهديدا خطيرا ، فبدأ يفكر فى الالتجاء الى القوة للقضاء على هؤلاء الهراطقة • على أن ريموند السادس رفض أن يمد يد البابوية بالقوة اللازمة لتنفيذ عزمها ، فلجأ البابا الى فيليب أوغسطس ، وطلب منه أن يقود جيشا ضد الهراطقة ، ولكن ملك فرنسا كان هو الآخر مشغولا عندئذ بالحرب ضد حنا ملك انجلترا فلم يلب نداء البابوية الذى تكرر سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ • ويبدو أن فيليب أوغسطس لم يرض عن تدخل البابوية فى شئون فرنسا ، وادعاء البابا حق اخضاع بعض المقاطعات الفرنسية ، بحجة أن هذه المقاطعات خارجة عن تعاليم الكنيسة ، فضلا عن أنه وجد نفسه لا يستطيع مهاجمة بعض أفصاله فى الجنوب والاستيلاء على أراضيهم ، مما يعتبر خروجا على أوضاع العرف الاقطاعى (٢) • وأخيرا لجأ المندوب البابوى الى اصدار قرار الحرمان ضد ريموند السادس ١٢٠٧ ، الأمر الذى ترتب عليه مقتل هذا المندوب فى العام التالى بوساطة أحد رجال كونت تولوز • وعلى الرغم من عدم وجود ما يثبت تحريض ريموند السادس على مقتل المندوب البابوى ، الا أن البابا اعتبره مسئولا عن هذه الجريمة ، فأقرت البابوية قرار الحرمان ضد ريموند السادس ، كما أعلنت أنه من حق أى مسيحى أن يستولى على أراضى وأموال هؤلاء الهراطقة الخارجين عن أصول الدين (٣) •

وقد تحمس كثير من مراء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا ، وان ظل فيليب أوغسطس نفسه على موقفه • وهكذا نجحت هذه الحملة الصليبية التى دعت اليها البابوية ضد الهراطقة (سنة ١٢٠٩) ، وان كانت قد تحولت الى القضاء على

---

(1) Idem : pp. 310—311
(2) Cam. Med.é Hist. Vol. 6 p. 314
(3) Stephenson : op. cit. pp. 446—447

الأمراء الاقطاعين فى الجنوب وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز الذى حلت به الهزيمة فى سبتمبر سنة ١٢١٣ • ولم تستول هـذه الحملة الصليبية على تولوز فحسب بل أنزلت الهزيمة أيضا بملك أرغونة بطرس الثانى (١١٩٦ - ١٢١٣) فى موريه Moret سنة ١٢١٣ • وبعد ذلك عقد البابا أنوسنت الثالث مجمعا دينيا بابويا سنة ١٢١٥ قرر اعطاء دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الامارات الاقطاعية المجـاورة ، لسـيمون دى مونتفورت أحد أمراء جزيرة فرنسا الذى تولى زعامة هذه الحملة •

أما فيلب أوغسطس الذى ظل بعيدا - فى أول الأمر - عن حوادث تلك الحرب الصليبية ، فانه لم يستطع أن يقاوم نفوذ البابا وقرار المجمع البابوى • ولم يلبث فيليب أن خرج عن عزلته تدريجيا ، فسمح لابنه لويس سنة ١٢١٣ بالمشاركة فى حرب الهراقطة الجنوبيين ، كما ساعد سيمون دى مونتفورت فى تدمير الحصون والمعاقل الاقطاعية فى الجنوب(١) • وعلى الرغم من أن سيمون اعترف لفيلب أوغسطس بالتبعية ، الا أن الأخير لم يلبث أن استاء من مسلك الأول المشوب بالكبرياء والعنف • لذلك ساعدت قوات ملك فرنسا المحاولة التى قام بها ريموند السادس لاسترداد أملاكه ، مما أدى الى مقتل سيمون سنة ١٢١٨ ، ثم لم يلبث أن لحق به فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣ •

اصلاحات فيلب أوغسطس :

ولم تكن انتصارات فيلب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته فى التاريخ ، لأن اصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات • وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيفا مع أفصاله وأتباعه الاقطاعين ، لأن مشاغله فى الحـروب والفتوح حالت دون أن يسلك مسلكا عدائيا تجاه هؤلاء الأفصال ، ومع ذلك فانه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الأمراء الاقطاعين • أما موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيليب أوغسطس مع البابوية لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة فى بلاده ، فأخذ يعمل جاهدا للحد

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 277

من تدخل البابا فى شئون الكنيسة ، كما ألزم رجالها بدفـــع ما عليهم من ضرائب والتزامات(١) .

أما فى الناحية الادارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيلب أوغسطس كان محاربا وسياسيا أكثر منه اداريا ومشرعا . وهكذا أصبح دوره الرئيسى فى تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطانها ، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم . ومع ذلك فان الظروف تطلبت منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الادارى لفرنسا، وهو البناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع(٢) . ذلك أنه قاوم الاتجاه الذى كان يرمى الى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية ، لما فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين . وقد أوجد فيلب أوغسطس طبقتين من الموظفين الاداريين ، تتألف الأولى من الوكلاء الملكيين (biallis) ومهمتهم الاشراف على العدالة وجمـــع الايرادات الملكية . وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوســـطى لضمان اخلاصهم للملك وارتباطهم به ، فضلا عن مراعاة نقلهم من منطقـــة الى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها(٣) . أمـــا الطبقة الثانية فكانت من المديرين الذين عهد اليهم الاشراف على المناطـــق الواقعة على الحدود قرب الأعداء ، ومن ثم اختير هـــؤلاء المديرون من الفرسان والبارونات ذوى الخبرة بشئون القتال . وفيما عدا مهامهم الحربية ، قام المديرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدهم فى ذلك عـــدد كبير من الموظفين والمندوبين(٤) . وقد ساعد فيلب أوغسطس فى الناحيـــة الادارية وزيره والتر الاسبتارى Walter the Hospitaler الذى امتـــد نشاطه الى جميع فرع الادارة الحكومية فضلا عن شئون الجيش والقضاء . والى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين ، وجدت مجموعة من المستشارين — العلمانيين والدينيين — روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى يظلوا بمثابة مجلس استشارى . وكان الملك يضيف الى هـــؤلاء مجموعة

---

(1) Idem : pp. 211—218
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 404
(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 235
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 254

أخرى من النبلاء والأساقفة فى حالة الضرورة(١) • وعند دعوة هذا المجلس ، روعى فى الدعوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه • ويبدو أن هذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه ، كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا بحيث لا يتعرض للمسائل التى تدخل فى الروتين الحكومى العادى • وبعبارة أخرى فانه كان يمثل هيئة استشارية بحتة لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها ، لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية • على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أنه كان حاكما مطلقا بكل معانى الكلمة ، لأن طبيعة النظام الاقطاعى وما ارتبط به هذا النظام من حوق وواجبات كانت تحد من سلطة الملك المطلقة(٢) •

أما المدن فكان فيلب أوغسطس أعظم نصير لها ، فحالف أهلها وأظهر عطفا كبيرا على آمالهم ، حتى دخل كثير من المدن الفرنسية الخارجة عن أملاكه تحت حمايته • ولم يكتف فيلب أوغسطس باعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها ، وانما ساعدها فى تقوية أسوارها واستحكاماتها وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها • كذلك شجع التجار الأجانب على التردد على الأسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من انتاجها(٣) • أما باريس فقد أضحت على أيام فيلب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية فى أوربا • ذلك أنه شيد لها سورا قويا يضم بين جوانبه القصر الملكى والمدارس والكتدرائية والأحياء التجارية والصناعية ، كما عنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها(٤) • وفى عهد فيلب أوغسطس حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها ، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة • وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالى الألب فى العصور الوسطى ، وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة فى القارة ، فضلا عن كونها

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 326
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p, 526
(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première partie, pp. 222—232
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 327—330

ضمت بعض المبانى القوطية الجميلة التى أخذت تنتشر فى بقية أنحاء فرنسا عندئذ(١) .

وخلاصه القول أن فيلب أوغسطس استطاع - عن طريق القوة والسياسة أن يجعل من فرنسا دولة عظمى، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أىّ أمير اقطاعى آخر فى فرنسا . ويكفى أنه أول ملك من أسرة كابيه شعر بأن قوته وسطوته بلغتا درجة من الثبات بحيث لم يعد فى حاجة الى تتويج ابنه فى حياته ليضمن له العرش من بعده(٢) .

لويس الثامن :

وقد خلف فيلب أوغسطس ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) الذى لم يكن على شىء من المقدرة التى امتاز بها أبوه ، وان ظل حريصا على سياسة والده الخاصة بتكتيل فرنسا وبسط نفوذ الملكيـــــة على مختلف أنحائها . ولتحقيق هذه الأهداف فرض لويس الثامن سياسته على أكوتين وان بقيت بوردو خارج قبضته ، كما أظهر رغبة صادقة فى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وفى تلك الأثناء كان قائد الحملة الصليبية الألبيجنسية - سيمون دى مونتفورت - قد قتل سنة ١٢١٨ فتنازل ابنه عمورى للويس الثامن ملك فرنسا عن كل الحقوق التى حصل عليها سيمون من البابوية ، مما دفع لويس الثامن الى القيام بحملة صليبية سنة ١٢٢٦ ضد الهراقطة وان كان هدفهـــا الحقيقى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وقد نجح لويس الثامن فعلا فى تحقيق جزء كبير من هدفه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦(٣) .

لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) :

وعلى الرغم من أن لويس التاسع كان طفلا فى الثانية عشر من عمره عند وفاة أبيه الا أن ذلك لم يعق تقدم الملكية الفرنسية بفضل وصاية أمه بلانش

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy. p. 403
(2) Idem : Ps. 402—405
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6 pp 322—324

القشتالية (Blanche of Castile) • ولم يلبث أن فاق لويس التاسع أمه في الصلاح والتقوى حتى سمى القديس لويس(١) •

على أن الأمراء والبارونات الاقطاعيين استغلوا فرصة صغر سن الملك ووصاية أمه للحد من نفوذ الملكية المتزايد • ولتحقيق ذلك دبر البارونات أكثر من مؤامرة ضد الملك الصغير وأمه ، ولعل أهمها تلك المؤامرة التى حيكت سنة ١٢٢٩ التى تزعمها دوق برجنديا وكونتات بريتانى وشامبنى ولامارش ، يؤيدهم هنرى الثالث ملك انجلترا • ولكنها باءت بالفشل بفضل حزم بلانش - الملكة الوالدة - من جهة ، ومساعدة البابوية - الحليفة الطبيعية لأعداء الهرقطة الألبيجنسية - من جهة أخرى(٣) • وهكذا استمرت الأوضاع حتى انتهت فترة الوصاية سنة ١٢٣٥ •

ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التى تلقاها أسلافه ، فدفعته حماسته الدينية الى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة ، على الرغم من معارضة أمه ونصح وزرائه • وقد قضى لويس التاسع عدة سنوات فى الاستعداد لهذه الحملة حتى أبحر سنة ١٢٤٨ قاصدا مصر ، بعد أن أصبحت العقيدة السائدة عند الصليبين عندئذ أن مصر هى المفتاح الموصل للسيطرة على بيت المقدس(٣) • وبعد أن استولى لويس التاسع على دمياط سنة ١٢٤٩ ، تقدم نحو القاهرة حيث حلت الهزيمة بجيشه قرب المنصورة نتيجة لجهل الصليبين بأحوال البلاد وطبيعتها فى حين وقع لويس التاسع نفسه أسيرا فى أيدى المسلمين ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفع فدية ضخمة •

واذا كان لويس التاسع ملكا متدينا حى الضمير ، فان ذلك دفعه الى التسليم بحقوق غيره مثلما تمسك هو بحقوقه • وفى ضوء هذا الاعتبار اختار لويس

---

(1) Idem, p: 331
(2) Orton : op. cit. p. 332
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 357

التاسع أن يسالم هنرى الثالث ملك انجلترا بدلا من محاولة طرد الانجليز من جاسكونى(١) •

ويبدو أن هذه السياسة لم تؤد فقط الى اقرار صلح باريس بين فرنسا وانجلترا سنة ١٢٥٩ بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين ، بل دفعت هنرى الثالث أيضا الى التنازل عن كل حقوقه الاسمية فى نورمنديا وأنجو ، ومين وتورين وبواتو ، وان أصر على الاحتفاظ بملكية جوين وجاسكونى وليموسان وكويرسى وبريجورد ، على أن تؤدى جميعها فروض التبعية لملك فرنسا وتتعهد بعدم المشاركة فى أية ثورة ضده(٢) • وهكذا يمكن القول بأنه - بصرف النظر عن حماسة لويس التاسع الصليبية - فان سياسته الخارجية اتسمت بطابع المسالمة ، فلم يحاول أن يستغل الظروف السيئة التى أحاطت ببيت هوهنشتاوفن ليحقق لنفسه مكاسب خاصة ، ورفض أن يقحم نفسه فى النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فلم يستجب الى تحريض البابا فى مهاجمة فردريك الثانى ولم يخضع لرأى الأخير ويسلمه البابا انوسنت الرابع(٣) ، وهذا فضلا عن أنه لم يفكر فى استغلال سوء أحوال انجلترا ليعتدى على أملاكها فى فرنسا(٤) • واذا كان لويس التاسع قد استطاع أن يجعل من فرنسا فى أواخر عهده أقوى دولة فى أوربا ، فاننا يجب أن نقدر الظروف الخارجية التى ساعدت على ابراز هذه الحقيقة ، وأهمها حرج مركز الامبراطورية الألمانية من جهة وسوء أحوال الملكية الانجليزية من جهة أخرى(٥) •

أما فى الداخل ، فان لويس التاسع حرص كل الحرص على احترام حقوق أفصاله من كبار الأمراء الاقطاعيين ، فى الوقت الذى احتفظ بسلطانه الملكى وحقوقه العليا فى السيادة على الدولة • وفى ذلك الوقت كان كبار الأمراء الذين أتعبوا أسلافه فى القرن الثانى عشر قد ماتوا ، وخلفهم خلف ضعيف من

---

(1) Painter : A History of the Middle Ages, p. 257
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 358
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 420—421
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 476
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 241

الأمراء الذين لم يحاولوا أن يسيبوا متاعب كثيرة للملكية(١)•لذلك لاعجب اذا رأينا عهد لويس التاسع وقد امتاز باصلاحات متعددة فى النواحى الادارية والقضائية والمالية ، وان كان من الملاحظ أن ذلك العهد لم يشهد مولد نظم جديدة بقدر ما شهد تطور النظم القديمة السائدة • وكان محور السلطة المركزية فى ذلك العصر – سواء فى فرنسا أم انجلترا – هو المجلس الاقطاعى للملك Curia Regis الذى تألف فى جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين ، ينضم اليهم أفصال الملك فى حالة الشروع فى اعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة (١) • وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس فى القرن الثالث عشر أخذ ينقسم الى عدة لجان لكل منها مهمته، مثل الهيئة التى اختصت بالايراداب الملكية Chambre des Comptes والهيئة الخاصة بالقضاء أو المحكمة الملكية فى باريس Parlement وغيرهما• أما ممتلكات الخاصة الملكية والأراضى الاقطاعية الخاصة بالملك ، فقد عهد بالاشراف عليها الى وكلاء ملكيين Bailis ولكى يتأكد لويس التاسع من حسن سير الجهاز الحكومى ، دأب على ارسال مندوبين ملكيين (Enquêteurs) لسماع شكاوى الأهالى والتحقيق فيها فضلا عن التفتيش على الحكام المحليين ، مما جعلهم شديدى الشبه بالمبعوثين Missi على أيام شارلمان (٣) • وقد تمسك لويس التاسع بحقه فى أن تستأنف أمامه كافة القضايا على أن يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الاقطاعيين ، كما حدد عددا معينا من الجرائم يجب أن يكون الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم • أما فى الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول فى جميع أنحاء فرنسا ، فى حين لا تسرى العملات الخاصة التى أصدرها كبار الأمراء الاقطاعيين الا فى اقطاعاتهم وحدها ، الأمر الذى ضمن البقاء والفوز النهائى للعملة الملكية (٤) • كذلك اهتم لويس التاسع برعاية

---

(1) Orton : op. cit. pp. 333—334
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p, 335
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 424
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 336—338 & 351

التجارة وحماية القومونات ونشر الأمن والسلام ، مما مكن التجار من البيع والشراء فى يسر وطمأنينة ، هذا فضلا عن عدة مدن أقامها لويس التاسع فى الجنوب (١) .

أما سياسة لويس التاسع تجاه الكنيسة فقد قامت على أساس حمايتها من جشع الأمراء الموظفين الملكيين ، واعطائها كل مالها ، وفى الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية تجاه الكنيسة وحرص على استخلاص هذه الحقوق كاملة غير منقوصة ، فلم يسمح لها بالتدخل فى الشئون العلمانية وفرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام (٢) . وقد حظى رهبان منظمتى الفرانسسكان والدومينكان بمكانة خاصة عند لويس التاسع على حساب غيرهم من أفراد المنظمات القديمة ، فضلا عن رجال الكنيسة العلمانيين (٣) .

وهكذا أخذ لويس التاسع يعمل على تنظيم الادارة واقرار العدالة والمساواة فى جمع الضرائب ، مما جعل لفترة الأخيرة من حكمه ـ بعد عودته من الأراضى المقدسة سنة ١٢٥٤ ـ تمتاز بالسلام الشامل . ولم يحدث فى تلك الفترة ما يعكر صفو السلام والأمن الداخلى ، وانما أخذ الملك ينتقل من اقليم الى آخر ومن مدينة الى أخرى فى ظل ادارته الصالحة ، وما عرف عنه من عطف وبر بالضعفاء والمحتاجين . لذلك لا عجب اذا امتاز ذلك العهد بالتقدم الحضارى الكبير فى ميادين العلوم والفنون ، فأخذت جامعة باريس الناشئة تخطو بالدراسات المتنوعة الى الأمام ، فى حين بلغ الفن القوطى عصره الذهبى ، كما يبدو فى كتدرائيات ذلك العصر وعلى رأسها كتدرائيات أميان وبورج وبوفيه (٤) .

على أن افراط لويس التاسع فى التقوى والتدين كانت له نتائج هدامة من بعض الوجوه ، اذ دفعه ذلك الى التطرف فى اضطهاد اليهود والهراطقة ، والى

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 76
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 350
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 422—423
(4) Thompson : op. cit. Vol. I, pp. 539—540

السماح باتخاذ أعنف الاجراءات ضد الألبيجنسيين فى الجنوب ، مما أثر فى الحضارة البروفنسالية تأثيرا سيئا للغاية (١) • وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر سنة ١٢٤٩ لم تأت بثمرة سوى الخسارة الفادحة فى الأرواح والأموال (٢) ، فان لويس التاسع سرعان ما نسى الدرس القاسى الذى أخذه قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ وأخذ يفكر فى أواخر أيامه فى القيام بحملة صليبية جديدة • وكانت وجهة هذه الحملة تونس فى شمال افريقية ، حيث أرسى أسطول لويس التاسع سنة ١٢٧٠ فى وقت من أسوأ فصـــول السنة • ومن الواضح أن لويس لم يكن عندئذ فى سن تمكنه حتى من ركوب فرسه ، الأمر الذى عجل بوفاته فى السنة السابقة نفسها ، وبذلك فقدت فرنسا أبرز من جمع بين المواهب الخلقية والسياسية فى مسلسلة ملوكها العظام (٣) •

فيلب الثالث :

وبعد لويس التاسع حكم ابنه فيليب الجرىء أو الثالث (١٢٧٠ – ١٢٨٥) الذى يعتبر عهده عديم الأهمية ، اللهم الا من ناحية أنه يمثل مرحلة انتقال بين الملكية الاقطاعية التى ميزت عهد سلفه لويس التاسع ، والملكية القومية التى ميزت عهد خلفه فيليب الرابع • وهنا نشير الى أن القومية بمعناها الحديث الذى نعرفه ، لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى (٤) ، وكل ما هنالك هو أن انهيار النظام الاقطاعى ونشأة المدن وظهور الآداب واللغات الجديدة ، كل ذلك جعل ملوك أوربا فى أواخر العصور الوسطى يرفضون فكرة خضوع العالم لسلطة امبراطورية عليا ، وهى الفكرة التى طالما هيمنت على العصور الوسطى • وهكذا أخذ كل ملك يباشر سلطانه ويثبت نفوذه على أنه يستمد ذلك السلطان والنفوذ من الله مباشرة مما جعل الملوك يتجهون فى بلادهم اتجاها محليا ، لا عالميا •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 347
(2) Orton : op. cit. p. 337
(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 46
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 306

وعلى الرغم من عدم كفاية فيلب الثالث ، الا أن الملكية الفرنسية استمرت في تقدمها بفضل الطاقة التى زودها بها ملوك فرنسا السابقين ، مما جعل عهد فيلب الثالث لا يبدو مظلما على طول الخط • ولعل أبرز ما فى هذا العهد أن الملكية الفرنسية نجحت فى ضم ثلاثة أقاليم مهمة ظل اثنان منها فى حوزة التاج الفرنسى • ذلك أنه كان من جملة الذين هلكوا فى حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ألفونس أمير بواتيه وزوجته دون أن يتركا وريثا ، فاستولى التاج الفرنسى على أملاكهما الواســـعة فى تولوزوبواتو Boitou وأوفرن Auvergne وبروفاس (١) • ثم حدث سنة ١٢٧٤ أن توفى هنرى ملك نافارى وكونت شامبنى وبرى Brie تاركا طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها ، أخذتها أمها الى البلاط الفرنسى طالبة حماية فيلب الثالث • وسرعان ما انتهز ملك فرنسا الفرصة فأسرع باحتلال شامبنى وبرى وضمهما الى التاج الفرنسى ، فى الوقت الذى وافق البابا على زواج أرملة هنرى من فيلب ابن ملك فرنسا الذى اعتلى العرش تحت اسم فيلب الرابع (٢) •

فيلب الرابع :

أما فيلب الرابع أو الوسيم (١٢٨٥ - ١٣١٤) فقد امتاز ببعد النظر وقوة العزيمة والمهارة السياسية • وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوربا(٣) • لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش أن الحدود الطبيعية لبلاده هى الراين والألب والبرانس ، وبناء على ذلك أخذ يعمل على ضم الجهات التى ظلت خارج نفوذه • وقد رأينا أن التاج الفرنسى ضم شامبنى عن طريق زواج فيلب الرابع من صاحبتها، ولما كانت بريتانى فى شبه عزلة ، فان فيلب أخذ يتطلع الى جوين وجاسكونى، اللتين كانتا لا تزالان مملوكتين لملك انجلترا ، مع اعترافه بالتبعية فيهما لملك فرنسا • ثم كان أن تصادمت المصالح الانجليزية والفرنسية أيضا فى اقليم

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 111
(2) Lodge : The Close of the Middle Ages, pp. 47—48
(3) Orton : op. cit. pp. 358—359

فلاندرز ، الذى كان من أهم المراكز الصناعية والتجارية فى غرب أوربا(١). فانجلترا التى لم يكن قد تم تصنيعها بعد ، اعتادت أن تصدر الصوف الخام من يوركشير الى فلاندرز حيث يتم صنعه وتسويقه ، فى حين تجبى الملكية الانجليزية ايرادها الأساسى من الضريبة المفروضة على الصوف المصدر الى فلاندرز (٢) . وكان دوق فلاندرز تابعا للتاج الفرنسى فى حين كانت مدن ذلك الاقليم حرة من الناحية العملية ، ويميل أهلها الى انجلترا بحكم ارتباطهم بها اقتصاديا . هذا كله فضلا عما كان هنـــاك من تنافس بين الانجليز والفرنسيين حول مصايد الأسماك فى بحر الشـــمال مما أثار كثيرا من الاشتباكات بين الصيادين الفرنسيين والانجليز فى بحر الشمال وحرك شكوك الملكية فى كل من البلدين (٣) .

وأخيرا حدث سنة **١٢٩٣** أن أعتدى بعض صيادى جاسكونى على الصيادين النورمان ، ورفض الفريق الأول الامتثال لأحكام المحاكم الفرنسية ، مما جعل فيلب الرابع ملك فرنسا ينتهز فرصة المتاعب الداخلية التى تعرض لها ادوارد الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧) ويستدعيه للحضور أمامه لاستجوابه بشأن اخلاله بتعهداته الاقطاعية (٤) . على أن ادوارد كان مشغولا عندئذ بحرب الاسكتلنديين ، فوعد بالحضور فى وقت آخر قريب ، وأرسل أخاه ادموند بدله ، كما سلم لفيلب بعض القلاع الواقعة على الحدود فى جوين ضمانا لحضوره (٥) . ويبدو أن ادوارد لم يستطع الحضور الى باريس فى الوقت المحدد ، مما أساء الى العلاقة بين الطرفين فلجأ فيلب الرابع الى التمسك بالقلاع التى أخذها ، فى حين رد عليه ادوارد باعلان تحلله من ولائه لملك فرنسا ، كما عمل تحالفا مع بعض الأمراء الألمان والفلمنكيين ضده . أما فيلب الرابع فرد على ذلك بالتحالف مع سكتلند ضد ملك انجلترا ، ثم احتل جوين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 320.
(2) Perroy: La Guerre de Cent Ans, pp. 16—18.
(3) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 296.
(4) Lodge: op. cit. p. 51.
(5) Perroy: op. cit. p. 45.

وهاجم كونت فلاندرز حليف ادوارد سنة ١٢٩٧ ، حتى انتهى الموقف بصلح مؤقت بين الطرفين سنة ١٢٩٨ بفضل وساطة البابا بونيفيس الثامن ، فتخلى ملك انجلترا عن مساعدة كونت فلاندرز وتخلى ملك فرنسا عن مساعدة سكتلند • ولم يلبث أن ثار أهالى فلاندرز من الفلمنك ضد الحكم الفرنسى فذبحوا كثيرا من الفرنسيين ، كما هزموا القوات الفرنسية سنة ١٣٠٢ عند كورتراى Courtrai وأخيرا اضطر فيلب الرابع الى عقد صلح نهائى مع ادوارد الأول سنة ١٣٠٣ على أساس أن يعود كونت فلاندرز الى حكم بلاده وأن تسترد انجلترا جاسكونى وجوين (١) •

ولكن يبدو أن أطماع فيلب الرابع فى فلاندرز كانت لا يمكن أن تنتهى بهذه السرعة ، فلم يلبث بعد أن اطمأن الى وفاة بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣ أن عاد الى محاولة اخضاع الفلمنكيين ، ونجح فعلا فى الانتصار عليهم ،ولكنه لم يحرز نصرا حاسما • وسرعان ما استطاع أهالى فلاندرز تعبئة قواهم مما جعل ملك فرنسا يعجل بالصلح سنة ١٣٠٥ •

أما عن العلاقة بين فيلب الرابع والبابوية فكان محورها الأساسى البابا بونيفيس الثامن الذى كان أهم شخصية فى عصره ، حتى لقب بأنه آخر بوبوات العصور الوسطى العظام(٢) • كان هذا البابا (١٢٩٤ - ١٣٠٣) قد شب فى أيام سطوة البابوية وقوتها ، ومن ثم لم يستطع أن يتفهم الأوضاع الجديدة التى أخذت تلم بالعالم الأوربى ، وأنشأ يباشر سلطاته البابوية على أوسع مدى ، مما جره الى التدخل فى شئون النبلاء والملوك المعاصرين (٣) • وعندما أشرك فيلب الرابع - ملك فرنسا - رجال الكنيسة فى دفع الضرائب التى قررها لمواصلة الحرب ضد انجلترا سنة ١٢٩٤ ، احتج رجال الكنيسة على هذا العمل وشكوا الى البابوية • والواقع أن أهم مشكلة واجهت الملكيات

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 300.
(2) Lodge: op. cit. p. 28.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 44—45.

الأوربية عند نهاية القرن الثالث عشر كانت الحاجة الى المال لمواجهة نفقة الدولة المتزايدة من جهة ونفقات الادارة وكثرة الموظفين من جهة أخرى . وفي حالة فرنسا بالذات جاء عامل جديد هو حرب فلاندرز الطويلة التي تطلبت من فيلب الرابع الالتجاء الى طرق جديدة ـ لا تخلو من عنف ـ في جمع الأموال ، حتى من الكنيسة(١) .

لذلك أصدر البابا بونيفيس الثامن قرارا سنة ١٢٩٦ ببطلان حق الملوك في فرض ضرائب على الممتلكات الكنسية دون اذن البابوية ، وهدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار (١) . وقد استاء ملكا فرنسا وانجلترا من هذا القرار الذي يعتبر محاولة من البابوية للعودة الى أوضاع القرن الثاني عشر . وسرعان ما اتخذ استياء ادوارد الأول ملك انجلترا صورة نزاع مع رئيس أساقفة كانتربوري ، في حين أدى استياء فيلب الرابع الى صدام مباشر بينه وبين البابا بونيفيس الثامن نفسه (٣) . ذلك أن فيلب الرابع حرم على جميع الأجانب دخول فرنسا ، وبذلك حال دون وصول المندوبين البابويين ، كما حرم تصدير الذهب والفضة والنقود خارج فرنسا مما أدى الى قطع الموارد المالية التي تصل الى البابوية من فرنسا (٤) .

وكان من الطبيعي أن يحتج بونيفيس الثامن على اجراءات فيلب الرابع فدعا الى عقد مجمع من رجال الدين لاتخاذ قرار ضد الملكية الفرنسية (٥). ولكن فيلب الرابع حال دون خروج أي واحد من رجال الدين الفرنسيين الى روما ، كما دعا مجلس الطبقات States General لأول مرة في التاريخ الفرنسي (أبريل سنة ١٣٠٢) . وقد أقر النبلاء في ذلك المجلس السلطة الزمنية للتاج ، في حين كتب رجال الدين الى البابا بونيفيس الثاني

---

(1) Orton: op. cit. pp. 360—361.
(2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, p. 45.
(3) Tout: The Hist. of England. pp. 200—201.
(4) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 132.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 313.

ينصحونه بعدم عقد المجمع الذى نادى به(١) . ولكن المجمع البابوى لم يلبث أن عقد سنة ١٣٠٢ ، وحضره بعض رجال الدين الفرنسيين على الرغم من الاجراءات المشددة التى اتخذها فيلب الرابع ، مما عرضهم لمصادرة أملاكهم. وقد أقر ذلك المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذى أثار فيلب الرابع وجعله يوجه الى البابا بونيفيس الثامن كثيرا من الاتهامات كما دعا الى عقد مجمع لمحاكمته (٢) . ثم حدث فى الوقت الذى كان بونيفيس يتأهب لاصدار قرار الحرمان ضد فيلب أن تمكن أتباع الأخير من القبض على البابا واهانته ، بحيث لم يستطع البابا الخلاص الا بصعوبة ، ثم مات فى روما سنة ١٣٠٣ . وبوفاة بونيفيس الثامن أنطوت آخر صفحة فى تاريخ البـــابوية بمعناها العظيم الذى عرفته العصور الوسطى ، لأنه على الرغم من اتهـــامه بالمحسوبية والمحاباة وعلى الرغم من أن دانتى جعله من أهل الجحيم ، الا أنه كان مشرعا عظيما واداريا كبيرا ، بحيث أن فشله لا يرجع الى نقص فى مواهبه بقدر ما يرجع الى عدم استطاعته تفهم الروح الجديدة التى سادت المجتمع الأوربى فى أواخر العصور الوسطى (٣) . وقد جاء بعد بونيفيس الثامن البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) الذى كان رجلا معتـــدلا فسحب القرارات التى سبق أن صدرت ضد ملك فرنسا (٤) . ثم جاء البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) فسمح لفيلب الرابع بفرض ضريبة عشرية لمدة خمس سنوات على ممتلكات الكنيسة الفرنسية . وفى سنة ١٣٠٩ اختار كلمنت الخامس افينون مقرا له يباشر منه مهام منصبه البابوى ، وبذلك بدأت فترة الأسر البابلى التى سنتكلم عنها فيما بعد .

ويتضح مما سبق أن فيلب الرابع لم يحقق نتائج ناجحة تستحق الذكر فى نشاطه الخارجى ، اذ انتهت محاولاته فى ضم اكوتين وفلاندرز بالفشل ،

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 149—150.

(2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 49 — 50.

(3) Eyre: op. cit. pp. 465—466.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 316.

ولم ينجح الا فى ضم ليون سنة ١٣١٢ • واذا كان قد حقق انتصارا على البابوية فان هذا الانتصار تم عن طريق وسائل غير مشرفة ، هذا فضلا عن أن اقامة البابوية في أفينون لم تحقق فوائد ثابتة لفرنسا • وهكذا يبدو أنه اذا كانت ثمة أهمية لعهد فيلب الرابع فى التاريخ ، فان هذه الأهمية تنبع من ادارته الداخلية وجهوده فى تحسين هذه الادارة والتخلص من جميع العقبات التى حالت دون سيطرة الملك على دولته سيطرة تامة (١) • وهنا نلاحظ أن الفارق الأساسى بين الدولتين الانجليزية والفرنسية فى هذه الحقبة هو أن الأولى دانت كلها لملوكها الذين غزوها وفرضوا عليها نظما حربية وقضائية ومالية موحدة ، فى حين تم بناء فرنسا لبنة بعد أخرى ، اذ لم يكن لملوكها فى أول الأمر سوى الجهات المحدودة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ، ومن ثم أخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجيا على كبار الأمراء فى الجهـــات المجاورة • ولهذا السبب ظلت فرنسا لا تخضع لقانون عام موحد حتى ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ (٢) •

ويبدو أن فيلب الرابع الرابع اضطر بحكم حاجته المستمرة الى المال اللازم لمواصلة حروبه الى اتخاذ بعض الاجراءات التعسفية • ومن ذلك أنه طرد جميع رجال المال والصيارفة اللمبارديين من فرنسا سنة ١٢٩١ ، كما صادر ممتلكاتهم • أما اليهود فقد قام فيلب الرابع فى أول الأمر بحمايتهم مقابل مقاسمتهم أرباحهم • وكان اليهود فى تلك الحقبة من العصور الوســـطى يمثلون طبقة رجال المال فى أوربا والشرق • حقيقة انهم انتشروا فى بلاد واسعة متعددة ، ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط هى الدين والدم والمال • وهكذا جمعوا ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية واقراض الهيئات الكنسية لاتمام منشآتها الضخمة ، أو اقراض الفرسان والأمراء لتنفيذ مشروعاتهم الصليبية ، وذلك بفوائد مالية باهظة ، منتهزين فرصة تحـــريم الكنيسة على أتباعها أكل الربا (٣) • وأخيرا استغل فيلب الرابع الكـــره

(1) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 49—50.
(2) Stephenson: Med. Hist. p. 495.
(3) Orton: op. cit. pp. 631—632.

الاجماعي لليهود وصادر أملاكهم وطردهم من بلاده سنة ١٣٠٦ (١) • ولكن فيلب الرابع لم يلبث أن أدرك ما ترتب على طرد اليهود من اضطراب أصاب التجارة الفرنسية ، مما جعله يسمح لبعضهم بالعودة ، وان كان قد عاد الى طردهم ثم ارجاعهم أكثر من مرة (٢) • ويبدو من استعراض تاريخ مختلف البلدان الأوربية فى تلك الفترة أن هذه المعاملة السيئة التى لقيها اليهود من فيلب الرابع لم تكن أمرا شاذا فريدا من نوعه • ذلك أن جشعهم وحبهم للمال وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية دفعت ادوارد الأول ملك انجلترا الى طردهم أيضا من بلاده ومصادرة أملاكهم سنة ١٢٩٠ (٣) ، كما لجأ أمراء ألمانيا وملوك أسبانيا والسلطات الحاكمة فى المدن الايطالية الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد اليهود (٤) •

ولم ينج الداوية ـ وهم أفراد احدى المنظمات التى أسهمت بنصيب واضح فى الحروب الصليبية ـ من أطماع فيلب الرابع • وكانت منظمة الداوية قد فقدت أهميتها العسكرية منذ سقوط عكا فى أيدى المماليك سنة ١٢٩١ ، ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشاط مصرفى ومالى واسع در عليها ثروة طائلة • والواقع أنها أضحت أشبه شىء بتنظيم سرى يحوطه الغموض ، ويعيش أفرادها فى رفاهية ونعيم بعد أن انصرف معظمهم الى المصالح الدنيوية(٥) • وقد اقترح بعض البابوات ضم هذه المنظمة الى هيئة أخرى حصلت على صيت ذائع فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الاسبتارية التى ظل أفرادها يقومون بكثير من أعمال البر والاحسان (٦) • ولكن فرسان الداوية عارضوا فكرة ادماج الهيئتين بعضهما فى بعض ، بعد أن ألفوا حياة الدعة والراحة حتى أتخمتهم الثروة واتصفوا بالكبرياء والغطرسة • ثم كان أقدم البابا كلمنت الخـــامس

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74—75.
(2) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 222—226.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 655.
(4) Tout: The Hist. of England, pp. 175—176.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316—317.
(6) Stephenson : Med. Hist. pp. 501—502.

على التحقيق فى مسلك الداوية لمحاكمتهم ، وعندئذ انتهز فيلب الرابع ملك فرنسا الفرصة سنة ١٣١٠ فأحرق أربعة وخمسين من فرسانهم فى باريس ، ثم أصدر أمرا سنة ١٣١٢ بحل هيئة الداوية ومصادرة أملاكها . وفى سنة ١٣١٤ أحرق مقدمهم جاك دى مولاى Jacques De Molai (١) ، وبذلك انحلت هيئتهم وتفرقوا فى البلاد . ويبدو أن الاضطهاد الذى حل بالداوية جعلهم يعتنقون بعض المذاهب الهرطقية التى أدانهم بها البابا كلمنت الخامس (٢) .

ثم ان حاجة فيلب الرابع الى الأموال لم تدفعه الى التعسف فى جمعها فحسب ، بل أيضا الى تغيير العملة والتلاعب فى قيمتها (٣) . كذلك فرض ضرائب على المبيعات مما أدى الى تدهور أهمية أسواق شامبنى العظيمة . هذا فضلا عن الضرائب غير المباشرة التى فرضها على الواردات والصادرات بعد أن توصل الى حقيقة مهمة ، هى استغلال الضرائب فى تنظيم عملية التجارة . وهكذا لجأ الى فرض ضريبة على الأصواف الانجليزية والفلمنكية لحماية الانتاج المحلى والمساعدة على ترقيته . كذلك فرض فيلب الرابع ضرائب على الهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات وأراضى البارونات والطبقة البورجوازية . أما المدن فقد فرض على كل منها مبلغا معينا كبيرا من المال ، ومنح البلديات حرية فى جمع الضرائب من الأهالى (٤) .

أما فى الناحية الادارية والتشريعية فان فيلب الرابع فصل من الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس بقية الاقطاعيين ، وأحل محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الرومانى وتشبعوا بما فيه من حب للملكية واعتراف بسيادتها(٥) . كذلك أنشأ محكمة أو غرفة مالية الغرض منها

---

(1) Lodge: op. cit. p. 56.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 318—319.
(3) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 233.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 324—325.
(5) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

الفصل فى المنازعات التى تقوم حول الضرائب وغيرها من الاشكالات المالية . على أن أهم من هذا كله كانت دعوة فيلب الرابع لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ ، وهو المجلس الذى كان له أثر خطير فيما بعد فى تاريخ فرنسا (١) . ذلك أن فيليب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث ـ رجال الدين والنبلاء والبورجوازيين ـ وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة ، مثلما حدث سنة (١٣٠٢ ـ ١٣٠٣) أثناء نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن ، وسنة ١٣٠٨ عند حل منظمة الداوية ، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج الى أموال للحرب فى فلاندرز (٢) . ويبدو من التجاء فيلب الرابع الى دعوة هذا المجلس أنه كان يقدر ما للرأى العام من أهمية وقوة . وعلى الرغم من أنه لم يسمح لأعضاء مجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين ، الا أنه سمح لهم برفـــع آرائهم الى الملك(٣) . وقد حدث أثناء أنعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على احدى الضرائب ، فاضطر فيلب الرابع الى الغائها والى عدم التلاعب فى العملة بعد ذلك .

نهاية أسرة كابيه :

وعند وفاة فيلب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين (١٣١٤ - ١٣١٦) وبعد ذلك اعتلى عرش فرنسا ابن آخر لفيلب الرابع هو فيلب الخامس (١٣١٦ - ١٣٢٢) الذى دعا مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد لاقرار أحقيته فى العرش واحباط المحاولة التى قام بها منافسوه لتولية ابنة لويس العاشر . وكان فيلب الخامس حاكما نشيطا ذكيا (٤) ، عمل على تركيز الادارة الملكية فى باريس وتحـــويل كثير من الضرائب الاقطاعية لصالح الملكية ، ومنع الأمراء الاقطاعيين من الاحتفاظ بحاميات فى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 684.
(2) Lodge: op. cit. pp. 59—60.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 326—327.
(4) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

قلاعهم ما لم تكن هذه القلاع على الحدود • كذلك امتاز عهد فيلب الخامس بكثرة التشريعات التى بلغت بالنظم التى وضعها آل كابيه درجة الكمال • أما مجلس طبقات الأمة فقد بلغ عندئذ درجة كافية من النضج وتعـددت اجتماعاته حينا بعد آخر •

وبعد فيلب الخامس تولى الحكم أخوه شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨) وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع ، فشـابه أباه فى حب فرض الضرائب والتلاعب فى قيمة النقوذ • أما فى الخارج فقد شغل شارل الرابع بحرب فلاندرز ، وهى الحرب التى ظلت منذ أيام فيلب الرابع لا تخمد نارها الا لتشتعل بعد قليل (٣) • كذلك فتح شارل الرابع باب النزاع مع انجلترا من جديد نتيجة لاستيلائه على معظم جاسكونى • ومهما يكن من أمر ، فـان شارل الرابع هذا لم يترك وريثا يرثه فى حكم المملكة ، مما أدى الى انتهاء عهد أسرة كابيه (٤) •

وكان أن اجتمع مجلس طبقات الأمة بعد وفاة شارل الرابع سنة ١٣٢٨ ، فاختار فيلب فالوا الذى أصبح فيلب السادس ملكا على فرنسا • وليس لهذا الاختيار من أهمية خاصة سوى أن النزاع حول وراثة العرش بعد وفاة شارل الرابع كان من اسباب قيام حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وهى الحرب التى سنعالجها فى باب خاص فيما بعد •

---

(1) Orton: op. cit. p, 364.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 338.
(3) Lodge: op. cit. p. 65.

الباب الثاني عشر

المانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن جزئها الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى • فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الامبراطورية الرومانية القديمة • واذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارولنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى اخضاع بافاريا وسكسونيا ، الا أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية • وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من امبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الامبراطورية تتعرض للتفكك والانهيار قرب منتصف القرن التاسع (١) •

وتتضح هذه الفكرة فى شعوب ألمانيا التى أخذت تتمسك بتراثها القديم وتبحث عن زعامة محلية عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكنج والمجريين ، فظهر زعماء محليون من كبار الأمراء فى كل سكسونيا وفرانكونيا وسوابيا وبافاريا ، وهى الأجزاء الرئيسية التى تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا (٢) • على أنه يلاحظ أن المانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الامبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تتناقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأمراء الاقطاعيين (٣) • حقيقة أن هناك تشابه واضح فى التطور السياسى بين المملكتين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية الى أيدى الأمراء

---

(1) Barraclough: The Origins of Modern Germany; pp. 6—11.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 164.
(3) Orton: op. cit. p. 160.

المحليين ، وفى أن زمام الحكم انتقل فى كل من البلدين من أيدى سلالة البيت الكارولنجى الى بيوت أخرى اقطاعية(١) • ولكن آلمانيـــا اختلفت عن فرنسا فى أن أراضى الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة فى الأولى ، كما أن نفوذ الأمراء – على الرغم من ازدياده – لم يصل الى درجة تقويض نظم الادارة القديمة كما صار الحال فى فرنسا (٢) •

الواقع أن الخطر الذى هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحيـــة الأمراء الاقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسها • فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية ساعدت على توحيد سكانها – مع اختلاف أصولهم – اذا بألمانيا تظل منقسمة الى أقاليم كبرى تختلف اختلافا بينا من الناحية الطبيعية ، حتى أصبح لكل اقليم منها اتجاهه السياسى وعصبيته العنصرية • فاذا كان الجزء الشمالى من ألمانيا سهلى منبسط فان الجزء الجنوبى جبلى وعر ، واذا كانت أنهـــار الشمال ، تتجه لتصب فى بحر الشمال أو البحر البلطى وبذلك توجه الأهالى نحو الشمال ، فان أنهار الجنوب تجرى شرقا وغربا لتوجيه الأهالى فى هذين الاتجاهين • وهكذا ساعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشعوب والقبائل التى تألفت منها ألمانيا فى نهاية القرن التاسع ، وهم الســـوابيون والبافاريون والسكسون والثورنجيون والفريزيون (٣) •

ارنولف :

وكان أهم حكام ألمانيا من البيت الكارولنجى فى أواخر القرن التاسع هو الملك أرنولف (٨٨٧ – ٨٩٩) • وقد امتاز حكم أرنولف هذا – البالغ اثنى عشرة سنة – بالحيوية والقوة ، حتى استطاعت ألمانيا فى تلك الفترة التغلب على أعدائها فى الشمال والشرق ، فضلا عن حصولها على نوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية فى غرب أوربا • وحسب أرنولف أن الملوك الذين

(1) Stephenson: Med. Hist. pp. 279—280.
(2) Orton: op. cit. pp. 160—161.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 36 63.

حكموا مختلف أجزاء دولة الفرنجة قصدوا ألمانيا للحصـــول على موافقته ورضائه مما حقق له زعامة فعلية عليهم ، على الرغم من عدم تمتعه بلقب الامبراطورية (١) .

ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو نجاحه فى دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد اقل أعداء الدولة الألمانية خطرا عليها . ذلك أنه حدث سنة ٨٩١ أن أخذ الدانيون يتدفقون على أوستراسيا فى قوة وعنف حتى اجتاحوا جميع أراضى الميز والموزل ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات المحلية التى واجهتهم فى لوثرنجيا . وعندما سمع أرنوف بذلك أتى مسرعا من بافاريا وأخذ يطارد الدانيين حتى معسكرهم عند لوفان Louvain حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة (٢) . وكانت هذه الهزيمة درسا قاســيا تلقاه الدانيون فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية ، بحيث لم يحاولوا بعد ذلك التوغل داخل حدود ألمانيا أو اقامة امارة مســتقلة فى أراضيها ، وان استمرت اغاراتهم السريعة على شــواطىء فريزيا والراين الأدنى (٣) .

وبعد أن أخضع أرنولف بعض الثورات التى قامت بها العناصر السلافية التابعة له فى الشرق ــ مثل التشك والمورافيين ــ دفعه طموحه ورغبته فى أن يصبح امبراطورا الى أن يزج بنفسه فى السياسة الايطالية ، مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى . ذلك أن ايطاليا كانت عندئذ ميدانا للتنافس بين بعض الأمراء ، مما أتاح فرصة لتدخل أرنولف فى شئونها ، وبخاصة عندما اشتد النزاع بين جاى Guy (ويدو Wido) وبرنجار Berengar حول حكم ايطاليا ، مما أثارا حربا عنيفة بين الطرفين وقفت فيها لمبارديا فى صف برنجار ، فى حين ظاهرت تســكانيا

---

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 468—469.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 10.

والبابوية جاى (١) . وكان أن توج البابا ستفن الخامس جاى امبراطورا وملكا على ايطاليا سنة ٨٩١ ، الأمر الذى حقق له النصر النهائى وجعل خصمه برنجار يستنجد بأرنولف ملك ألمانيا (٢) . وهنا رحب أرنولف بهذه الفرصة التى أتاحت له التدخل فى شئون ايطاليا فعبر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع حوض نهر البو ، فى حين فرجاى نحو الجنوب حيث توفى . وفى العام التالى أغار أرنولف مرة أخرى على ايطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا الجديد فورموزس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) وتوجه امبراطورا (٣) .

وهكذا وضع أرنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا جهودهم بين ألمانيا وايطاليا دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل فى شئون ايطاليا سوى اضعاف نفوذهم فى ألمانيا وبعثرة قواهم . فعلى الرغم من الجهود الضخمة التى بذلها ملوك ألمانيا للسيطرة على ايطاليا ، الا أن نفوذهم فيها لم يكن فعليا الا فى حالة وصول الملك الألمانى على رأس جيشه الى ايطاليا ، وفيما عدا ذلك سرعان ما يتقلص ذلك النفوذ ويتلاشى بعودة الألمان الى بلادهم (٤) . ذلك أن البابوية والنبلاء والمدن عارضت جميعا قيام أية سلطة سياسية قوية فى ايطاليا ، ومن ثم فشل الأباطرة الألمان فى الربط بين ألمانيا وايطاليا سياسيا فى ظل تاجهم ، فى الوقت الذى صرفتهم شئون ايطاليا عن تدعيم نفوذهم فى ألمانيا ذاتها . ومهما يكن من أمر فان الانقسامات والأفكار التى تعرضت لها ألمانيا على عهد أرنولف وخلفائه المباشرين أدت الى ترك ايطاليا وشأنها دون تدخل من جانب ألمانيا لمدة ستين سنة (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3. pp. 64—65.
(2) Oman: The Dark Ages, pp. 463—464.
(3) Deanesly: op. cit. p. 565.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1. pp. 364—365.
(5) Bryce: The Holy Roman Empire, p. 78.

أما أرنولف فقد عاد من ايطاليا متوجا بالتاج الامبراطورى الذى أضفى عليه نوعا من المهابة أكدت أولويته بين ملوك غــــرب أوربا المعـــــاصرين وزعامته عليهم • على أن المشاكل التى واجهت أرنولف بعد عودته من ايطاليا كانت كثيرة وشاقة ، ومن هذه المشاكل ما هو داخلى مرتبط بمسألة الوراثة، ومنها ما هو خارجى يتمثل فى اغارة المجريين على ألمانيا (١) • أما هؤلاء الهنغاريون أو المجريون فكانوا قبائل رعوية من أصل أسيوى مثل الهون والآفار ، اعتمدوا على الخيل فى حلهم وترحالهم وبرعوا فى الحــــروب الخاطفة التى شنوها على خصومهم • وقد ترك هؤلاء الهنغاريون مقرهم فى شرق أوربا ـ على البحر الأسود ـ وزحفوا سنة ٨٩٦ نحو السهول الواقعة بين الكربات والدانوب ، وهى المنطقة التى نسبت اليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر • ومن هذا الموطن الجديد أغار الهنغاريون فى ربيع سنة ٨٩٩ على ايطاليا عن طريق اكويليا وفيرونا حتى وصلوا بافيا • وبعد أن نهبوا سهول ايطاليا الشمالية اضطروا الى العودة عن طريق بانونيا(٢) • على أن أرنولف يعتبر المسئول الأول عن تجرؤ الهنغاريين على أراضى الامبراطورية بعد أن استعان بهم فى حربه ضد مورافيا ، وبذلك دلهم على طريق مورافيا وألمانيا جميعا • ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن خطر الهنغاريين على ألمانيا لم يكن جسيما فى حياة أرنولف نفسه ، لانشغالهم بتطهير ســــهول الدانوب من السلاف ، ولذلك لم يشتد خطرهم على بافاريا وثورنجيا الا عقب وفاة أرنولف فى نهاية سنة ٨٩٩ (٣) •

لويس الطفل (٨٩٩ ـ ٩١١) :

أجمع أمراء ألمانيا وأساقفتها على اختيار لويس الطفل *(Lewis the Child)* ملكا عقب وفاة أبيه أرنولف سنة ٨٩٩ • وكان لويس هذا فى السادسة من عمره عندئذ ، الأمر الذى جعل الاحدى عشرة سنة التى حكم فيها البلا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 67.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 43—44.
(3) Oman: The Dark Ages, p. 471.

حكما اسميا من أحلك عصور التاريخ الألماني • ففى تلك الحقبة قويت النزعة الاقطاعية عند الأمراء الألمان ، وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قوية وعصبية قبلية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بينهم • وربما أدى الى حدة هذه المنازعات أن مناصب الدوقات والكونتات أصبحت وراثية ، مما جعل لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسية التى تألفت منها ألمانيا ــ وهى فرانكونيا وسوابيا وبافاريا وسكسونيا ــ دوقا يرثه ابنه فى منصبه (١) • ولم تكن النزعة الانفصالية أقل وضوحا عند الأساقفة الألمان ، الذين بلغوا هم الآخرون درجة كبيرة من الثروة واتساع الأملاك والنفوذ حتى أصبحت لهم سيطرة على التاج ، كما ناضلوا مع الأمراء لتحقيق أطماع سياسية بحتة (٢) • على أنه يبدو أن هؤلاء الزعماء المحليين ــ من دينيين وعلمانيين ــ ظلوا لا يجرؤون على الحركة ما دام هناك ملك قوى على رأس الدولة ، فلما توفى أرنولف وخلفه ابنه لويس الطفل أخذوا يتحركون ويشتبكون بعضهم مع بعض فى منازعات طويلة وحروب أهلية دامية أضرت بالبلاد ضررا جسيما •

وزاد الطين بلة اشتداد اغارات الهنغاريين التى لم تنقطع عن ألمانيا منذ وفاة أرنولف سنة ٨٩٦ • وقد بدأ الهنغاريون بالاغارة على بافاريا وكارنثيا ، ثم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطرقوا الى سوابيا حتى وصلوا سكسونيا • وكان أن أنزل الهنغاريون هزيمة كبرى بالقوات البافارية سنة ٩٠٧ • كما قتلوا ليتوبولد Luitpold دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج واسقفى فريزنج وسبن Seben (٣) • وهكذا تمكن الهنغاريون من اجتياح بافاريا كما دخلوا ثورنجيا فى العام التالى وقتلوا دوقها وأسقف ورزبرج ، الأمر الذى دفع لويس الطفل ــ وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره ــ الى النزول الى الميدان بنفسه لصد خطر الهنغاريون • وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونيون تحت قيادة الملك الصغير

---

(1) Orton: op. cit. p. 161.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 370.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 69.

لحرب المجريين ، ولكن الهزيمة حلت بهم جميعا • ولم يلبث أن توفى لويس الطفل عقب هذه الكارثة ، في سبتمبر سنة ٩١١ (١) •

كونراد الأول (٩١١ - ٩١٨) :

وبوفاة لويس الطفل انتهت سلالة البيت الكارولنجى من الذكور فى ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلا الا فى شخص شارل البسيط فى فرنسا (٢) • ولم يكن هناك سوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشكلة ملء العرش ، فاما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسى للبيت الكارولنجى ، واما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب • وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأى الأخير ، فاجتمع زعماء فرانكونيا وسكسونيا وسوابيا وبافاريا واختاروا سنة ٩١١ كونراد الأول دوق فرانكونيا ملكا عليهم • وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية ، فيشترك فى انتخاب الملك كبار الأمراء فضلا عن رؤساء أساقفة مينزوكولونيا ، مما جعل عملية الانتخاب هذه مصدر خلافات وحزازات لا تنقطع (٣) •

وكانت السنوات السبع التى قضاها كونراد الأول فى الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ، اذ لم يكن له مجد موروث - كما كان للكارولنجيين - يعتمد عليه فى توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا اليه على أنه واحد منهم ، وازدادوا تباعدا عن السلطة المركزية • وهكذا قويت النزعة الانفصالية فى أقسام ألمانيا المختلفة ، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية فى ذلك العهد(٤) • وقد حاول كونراد الأول - يسانده الأساقفة - القبض على زمام الأمراء ، ولكنه دفع الثمن غاليا ، اذ أثار كره الأمراء للملكية حتى أصبح كبار الأمراء فى أواخر عهده أكثر شعورا بقوتهم

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 472—473.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 21.
(3) Barraclough: op. cit. p. 18.
(4) Oman: The Dark Ages, pp. 475—476.

وأشد تعصبا ضد الملكية ونفوذها (١) • وهكذا يبدو أنه اذا كان كونراد الأول قد فكر في بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة ، فانه سرعان ما اضطر الى التخلي عن هذه الفكرة والاعتراف بأمراء سكسونيا وسوابيا وبافاريا على أنهم أنداد مساوون له • والواقع أنه لم يكن في وسع كونراد أن يفعل غير ذلك أمام ازدياد شعور العصبية المحلية في الأقاليم السابقة من جهة ، وتجدد خطر الهنغاريين على ألمانيا من جهة أخرى (٢) •

ذلك أنه في الوقت الذي أخذ السوابيون والبافاريون يقاومون جهود كونراد الأول في توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، اذا بالهنغاريين يوغلون في ألمانيا حتى بلغوا الراين سنة ٩١٣ ، فأغاروا على مدينة كوبلنز Coblenz ، بل دهموا بازل وأحرقوها سنة ٩١٧ ، وهي أهم مدن الركن الجنوبي الغربي من المملكة الألمانية • وهكذا مات كونراد الأول دون أن ينجح في دفـــع الأخطار الداخلية أو الخارجية التي أحاطت بدولته (٣) •

هنري الأول (الصياد) ٩١٩ ـ ٩٣٦ :

وكان آخر ما فعله كونراد الأول وهو على فراش الموت أن نصح من حوله بضرورة اختيار ملك قوي يخلفه اذا أرادوا انقاذ ألمانيا • ويبدو أن التفكير في الصالح العام تغلب حينئذ على كونراد لأنه اعترف بضعفه وحذرهم من اختيار أحد أفراد أسرته ، بل رشح لمنصب الملكية خصـــمه العنيد هنري السكسوني ، لأنه اعتقد أنه أصلح فرد يستطيع انتشال البلاد من الهوة التي تردت فيها (٤) •

ثم سارت الأمور في الاتجاه الذي أراده كونراد الأول ، فاجتمع كبار الأمراء والأساقفة عقب وفاته وقر رأيهم على اختيار هنري دوق سكسونيا

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 371—372.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 229.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale. pp. 33—34.
(4) Oman: The Dark Ages. p. 477.

ملكا على ألمانيا سنة ٩١٩ ، ويقال ان اختيار هنرى لمنصب الملكية تم أثناء انشغاله برياضة الصيد ، ومن ثم لقب فى التاريخ بالصياد (Fowler) (١).
والواقع أن انتقال الملكية الى البيت السكسونى أمر له دلالته العظمى ، حتى أنه يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الأمة الألمانية . حقيقة ان قيام دولة ألمانية مستقلة أصبح حقيقة تاريخية واقعة منذ عهد لويس الألمانى وأرنولف، ولكن السيادة ظلت لعنصر الفرنجة فى ألمانيا حتى وفاة كونراد الأول ، مما جعل ألمانيا تبدو فى صورة الجزء الشرقى من دولة الفرنجة أكثر منها دولة ألمانية مستقلة . ولكن بانتقال الحكم الى دوق سكسونيا أخذت الملكية تبدو فى طابع ألمانى بحت ، لا سيما وأن السكسون كانوا أقل العناصر التى تألفت منها ألمانيا تأثرا بتقاليد الكارولنجيين وأكثرها تمسكا بتراثها الجرمانى القديم(٢) .

والمعروف أن الفضل يرجع الى هنرى الأول فى وضع أسس الملكيـــة الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد والده وخليفته أوتو(٣) . على أنه يبدو لنا فى أول الأمر أن سلطة هنرى الصياد وهو ملك ــ عندما تولى الحكم ــ لم تتجاوز سلطته وهو دوق سكسونيا(٤) ، فألمانيا كانت وقتئذ أقرب الى اتحاد بين الدوقات الكبرى ، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذى يحكم أقوى هذه الدوقيات بلقب الملكية . ومن هنا كانت مهمة هنرى الصياد هى أن يحول هذه السيادة الاسمية الى سلطة فعليـــة ، ولذلك رفض – من أول الأمر ــ أن يتوج بيد رئيس أساقفة مينز حتى لا يظهر بمظهر التبعية للكنيسة ، كما عمل على تقوية الروابط بين الدوقيات الألمانية(٥). أما موقف هنرى الأول من كبار الدوقات ، فقد طلب اليهم اعلان ولائهم له

---

(١) ومن الثابت أن هذا اللقب لم يطلق عليه لأول مرة فى التاريخ الا قرب منتصف القرن الثانى عشر . أنظر
(Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179)

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. *13—14.*
(3) Bryce: *op. cit. p. 117.*
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179.
(5) Thompson op. cit. Vol. 1, pp. *373—374.*

وتقديم فروض التبعية بوصفهم أصاله الاقطاعيين . كذلك أصر هنرى على الحد من نفوذ هؤلاء الدوقات عن طريق حرمانهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكام المحليين ، وجعل هؤلاء الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة . أما الأساقفة ومقدمو الأديرة فقد أعاد اليهم أراضيهم التى اغتصبت منهم خلال حكم لويس الطفل ، وجعلهم يتمتعون فى هذه الأراضى بالسلطة التى تمتع بها الكونتات وبذلك أصبحوا يتبعون التاج تبعية مباشرة(١) .

ومن الواضح أن هنرى الأول اعتمد فى تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية على قوته الحربية التى استمدها من سكسونيا ، كبرى الدوقيات الألمانية التى عرف أهلها بالشجاعة وقوة الشكيمة . على أنه كان من العسير أن يتمكن هنرى من تنفيذ جميع أركان هذه السياسة قبل أن يؤمن بلاده ضد الأخطار الخارجية التى سببت له ولأسلافه كثيرا من الكوارث فى السنوات الأخيرة . ذلك أن سكسونيا قاست كثيرا من غزوات الدانيين والونديين(٢) ، فضلا عن المجريين الذين أخذوا يوجهون حرابهم سنة ٩٢٤ نحو سكسونيا ، بعد أن لمسوا قوة معارضة البافاريين . وهكذا تلقت سكسونيا الضربة وحدها فى تلك المرة ، دون أن يلقى هنرى الصياد أية مساعدة من سوابيا أو بافاريا ، الأمر الذى جعله يقبل الصلح مع الهنغاريين على أساس أن يدفع لهم جزية سنوية . وبذلك استطاع هنرى أن يجنب بلاده خطرهم لمدة تسع سنوات استغلها فى القيام بعد اصلاحات حربية . وكان أهم هذه الاصلاحات انشاء مراكز محصنة Burgwarde فى ثورنجيا وشرق سكسونيا ، وهو المراكز التى تحولت بسرعة الى مجمعات تجارية نشيطة تعيش داخل أسوار محصنة وتقوم بحمايتها حاميات من السكسون(٣) .

ولم يلبث أن انتهى أجل الهدنة مع الهنغاريين سنة ٩٣٣ ، وعندئذ فضل هنرى القتال على الاستمرار فى دفع الجزية ، فأنزل هنرى الأول بالمجريين

---

(1) Painter: A History of the Middle Ages, p. 165.

(١) قبائل سلافية انتشرت بين البحر البلطى والكربات .

(2) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 375.

هزيمة قرب مرسبرج (مارس ٩٣٣) وبعد ذلك حارب هنرى الأول الدانيين سنة ٩٣٤ وانتزع منهم منطقة قرب نهر الأيدر جعلها مستعمرة للمستوطنين الألمان ، وبذلك ضمن لألمانيا السيطرة على مصب نهر الألب(١) • وهكذا بدأ هنرى الأول حركة توسع الألمان شرقا ، كما حال دون تصدع المملكة وانفصال أجزائها الكبرى الأمر الذى ثبت أقدام الأسرة السكسونية فى الحكم وحقق للملكية الألمانية ما كان ينقصها من مجد وهيبة(٢) •

اوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) :

أوصى هنرى الأول قبل وفاته فى يولية سنة ٩٣٦ باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده • وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه هو فى العشرين من عمره ، وتم تتويجه فى آخن •

ويعتبر أوتو الأول أو العظيم مؤسس الامبراطورية المقدسة بالمعنى الذى يعبر عنه اسم هذه الامبراطورية والذى يشير الى ارتباط ايطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما جميعا(٣) • حقيقة ان تلك الامبراطورية الألمانية تعتبر من الناحية العملية امتدادا لامبراطورية شارلمان ، كما أنهـا اعتمدت على الآراء التى قامت عليها امبراطورية شارلمان سنة ٨٠٠ ، ولكن

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 185.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 38—39.

(٣) المعروف أن اللقب الأساسى لهذه الامبراطورية هو « الرومانية » فقط ، أما صفة « المقدسة » فقد ظهرت لأول مرة على عهد الامبراطور فردريك الأول حوالى سنة ١١٥٧ عندما استعمله الامبراطور نداء وجهه الى زعمـاء الامبراطورية طالبا مساعدته ضد المدن اللمباردية ، وبعد ذلك أكثر هنرى الرابع ثم فردريك الثانى من استعمال لقب « المقدسة » فى وصف الامبراطورية حتى غدا شائعا • على أن استعمال هذا اللقب فى وصف الامبراطورية لا يعنى أى تغيير فى وضعها السياسى ، لأن هذه الامبراطورية بمعناها العالمى الواسع وضع أساسها شارلمان ، وبمعناها الضيق - أى فى حدود ألمانيا وايطاليا - يرجع تأسيسها الى أوتو العظيم •
(أنظر • (Bryce: op. cit. pp. 196—197

القرن ونصف القرن الذى انقضى منذ تتويج شارلمان ، صحبه تغيير كثير من الأوضاع فى غرب أوربا ، وبخاصة بالنسبة لمركز الامبراطورية وسلطانها وعلاقتها بالكنيسة ، وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر الى أوتو فى التاريخ لا على أنه خليفة شارلمان بعد فترة طويلة من الشغور ، وانما على أنه المؤسس الثانى للامبراطورية فى الغرب(١) •

وكان أوتو الأول يعتقد فى سمو مركزه ، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية ، ولذلك أخذ ينشر نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا ، كما حرص على تعيين أقاربه فى مناصب الدوقيات الشاغرة • وقد أدت سياسة أوتو الى كثير من الثورات والحروب الأهلية ، الأمر الذى جعله يتجه نحـــو الكنيسة ليتخذ رجالها سلاحا يشهره فى وجه الدوقات وكبار الأمراء • ذلك أن أوتو الأول أدرك أنه فى حاجة الى أنصار لا يعتمدون على العصبية العنصرية ولا يحرصون على مصالحهم الوراثية ، ولم يجد ضالته الا فى رجال الكنيسة ، فرأى فى قوة الأساقفة اضعافا للنبلاء وللعصبية العنصرية التى هددت الوحدة الألمانية(٢) • وهكذا صار لزاما على الأساقفة ومقدمى الأديرة أن يرسلوا الفصائل اللازمة للجيش الملكى كلما طلب اليهم ذلك ، كما ضاعف أوتو من نفوذهم فى مناطقهم – وفى المناطق القريبة – على حســـاب الدوقات • وبذلك ضمن أوتو الأول فى حالة ثورة أحد الدوقات ضده – وجود أنصار أقوياء للملكية من رجال الكنيسة داخل أراضى الدوق(٣) •

وقد لجأ أوتو الأول بحكم اتجاهه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها الى التوسع فى منح الأساقفة ومقدمى الأديرة الاقطاعات الكبيرة ، كما نصب نفسه حاميا للكنيسة وأملاكها • وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين فى ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان ، كما أخذوا يباشرون سلطات واسعة فى النواحى القضائية والمالية والادارية • على أنه يلاحظ أن الكنيسة دفعت الثمن

---

(1) Bryce: op. cit, p. 79—80.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 18—21.
(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 166.

عاليا لأن تحول الأساقفة الى أمراء اقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة ، جعلهم خاضعين للملك خضوعا مباشرا كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده . وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم فى تعيين الأساقفة وعزلهم ، مما أضر ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر(١) .

ويبدو أن تدخل أوتو الأول فى شئون الكنيسة الألمانية ومحاولته العمل دائما على اخضاعها لسيطرته المطلقة ، لم يتم دون معارضة ، اذ لجأ بعض كبار الأساقفة وعلى رأسهم وليم بن أوتو نفسه – الى عرض الأمر على البابا . وعلى الرغم من أن البابوية كانت فى شغل عندئذ عن ألمانيا وكنيستها ، الا أن هذا الحدث جعل أوتو يشعر بأن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وانما ترتبط بالبابوية فى روما وتخضع لهيمنتها ويتبع ذلك أنه اذا أراد أوتو أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا ، فانه يجب أن يبدأ باخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه الى جانبه . وطالما كان البابا خارجا عن قبضة أوتو الأول ، فان أحلام الأخير فى السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون . وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو ، وهى التدخل فى شئون ايطاليا للسيطرة على البابوية(٢) .

ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت لأوتو الأول فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، وذلك عندما توفى لوثر ملك ايطاليا وفرت أرملته الى ملك ألمانيا طالبة مساعدته ضد برنجار الثانى ملك ايطاليا الجديد . لذلك أسرع أوتو الأول الى غزو لمبارديا سنة ٩٥١ حيث تزوج من الأرملة الحسناء ، وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له(٣) . وجاء هذا التوفيق الذى صادفه أوتو فى ايطاليا بمثابة نصر ثالث له بعد أن أجبر ملك آرل Arles على الاعتراف له بالتبعية سنة ٩٤٦ ، وبعد أن هزم التشك فى بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا ، وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون

---

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 139—142.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 26—27.
(3) Bryce: op. cit. p. 83.

غربا وايطاليا جنوبا(١) . على أن الثورة لم تلبث أن تجددت فى ايطاليا سنة ٩٥٣ بسبب كره الايطاليين لسيطرة حكام ألمانيا ، وعندئذ لم يستطع أوتو الذهاب لاخمادها بسبب كثرة مشاكله الداخلية والخارجية .

ذلك أن ابنه ليولف ثار ضده فى سوابيا ، وثار كونراد فى اللورين الأعلى كما ثار فردريك رئيس أساقفة مينز . ومهما يكن من أمر ، فان أوتو لم يتعب كثيرا فى القضاء على هؤلاء الثائرين بسبب كثرة منافسيهم(٢) . وعندما توفى رئيس أساقفة مينز ، عين أوتو ابنه وليم بدله فى كرسيه ، كذلك قسم أوتو اللورين الى قسمين ، فجعل الجزء الأعلى من اللورين لأخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا فى حين نشأت تدريجيا فى الجزء الأدنى كونتية هينو Hainaut وبرابانت Brabant . وهكذا غلب الطابع الاقطاعى على الكنيسة حتى أصبح من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقا(٣) .

وفى خلال هذه الاضطرابات غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدا فى بافاريا حتى أوجسبرج . ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة ليخفيلد Lechfeld قرب أوجسبرج سنة ٩٥٥ ، مما جعلهم لا يجرءون على غزو ألمانيا مرة أخرى . وقد ترتب على هذه الهزيمة أن أوتو مد نفوذه شرقا على حساب الهنغاريين وأقام فى تلك الأراضى الجديدة ماركية أوستريا (النمسا)(٤) . ولكن يضمن أوتو العرش من بعده لابنه الصغير البالغ من العمر سبع سنوات فانه توجه معه شريكا فى الحكم سنة ٩٦١ ، وجعله تحت رعاية أخوته أسقفى كولونيا ومينز .

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من جهود أوتو الأول فى تدعيم نفوذه الملكى والربط بين أجزاء ألمانيا تحت سلطانه ، الا أنه ارتكب خطأ كبيرا فى حق

---

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 280.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 196—197.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 381.
(4) Orton: op. cit. p. 162.

وحدة الدولة الألمانية عندما قسم سكسونيا ، فجعل وستفاليا وحدها للتاج وأعطى بقية سكسونيا (استفاليا) ، لهرمان بيلونج Hermann Billung بعد أن منحه لقب دوق(١) • وسرعان ما أصبح دوقات سكسونيا من سلالة بيلونج خطرا عظيما هدد وحده ألمانيا في القرن التالي(٢) •

وهكذا لم تكد تنته سنة ٩٦١ الا كان أوتو الأول قد فرغ من معظم المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته ، وعاد من جديد يفكر في مشروعه الامبراطوري الضخم • ويقال ان الرغبة في احياء الامبراطورية عندئذ لم تكن وليدة تفكير أوتو وحده ، بل شاركه في هذه الرغبة كثير من المعاصرين الذين رأوا في هذا الاحياء منفذا للخلاص من الفوضى والأخطار التي تعرضت لها أوربا حينئذ ، لا سيما وأن لفظ الامبراطورية ارتبط دائما في أوربا العصور الوسطى بالاستقرار والأمن والنظام(٣) •

وكانت هذه الفوضى التي شكت منها أوربا في القرن العاشر أظهر ما تكون في ايطاليا ، حيث تعاقب على كرسي البابوية سلسلة من البابوات الضعاف غير الكفاة ، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشينة دبرها نبلاء روما العابثين ، حتى تولى أحد هؤلاء النبلاء منصب البابوية سنة ٩٥٥ تحت اسم البابا حنا الثاني عشر(٤) • على أن هذا البابا الجديد الذي جمع في شخصه بين السيادتين الدينية والدنيوية في روما ، سرعان ما وجد في الملك برنجار الثاني عقبة كؤودا اعترضت سبيل البابوية وحالت دون اتساع نفوذها ، ومن ثم استنجد حنا الثاني عشر بأوتو الأول عدة مرات بين سنتي ٩٥٧ ، ٩٦١(٥) • وقد سبق أن أشرنا الى المشاكل العديدة التي أحاطت بأوتو الأول في تلك الفترة والتي حالت دون تلبية نداء البابوية على وجه السرعة • وأخيرا عبر

---

(1) Barraclough: op. cit. p. 29.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I, pp. 378—379.
(3) Bryce: op. cit. pp. 83—84.
(4) Cam. Med. Hist, Vol. 3, p. 161.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 31.

أوتو جبال الألب الى ايطاليا ودخل روما فى سنة ٩٦٢ حيث توجه البابا حنا الثانى عشر امبراطورا فى فبراير من العام نفســه ، وفى ذات المكان الذى توج فيه شارلمان امبراطورا من قبل .

ومن الواضح أن تتويج أوتو الأول امبراطورا بيد البابا ، واستمرار تدخل الملوك الألمان فى شئون ايطاليا ، انما يعنى مواصلة هؤلاء الملوك جهودهم فى سبيل بسط سيطرتهم على جانبى الألب . ويبدو أن أوتو نفسه كان مصمما على فرض ارادته على البابوية كما فعل شارلمان من قبل ، كما أن البابا نفسه لم يمانع فى هذا الاتجاه ما دام أوتو يقوم بحمايته ضد خصومه(١) . على أن الشرط الذى ضايق البابوية وأفزعها هو أن أوتو أصر على أن يقسم البابا قبل ترسيمه يمين الولاء للامبراطور مما جعل حنا الثانى عشر يدس لأوتو عند الامبراطور البيزنطى بل عند الهنغاريين والمسلمين فضلا عن برنجـــار نفسه(٢) . لذلك أسرع أوتو بالعودة الى روما ففر البابا منها ، وعندئذ دعـا الامبراطور مجمعا كبيرا من الأساقفة والكرادلة ونبلاء روما ودوقات ألمانيا ، وقرر هذا المجمع سنة ٩٦٣ عزل البابا حنا الثانى عشر من منصب البابوية وحرمان أهل روما من المشاركة فى انتخاب البابا فى المستقبل وتعيين موظف امبراطورى فى حكم المدينة . أما المنصب البابوى فد عين فيه أحد القساوسة تحت اسم البابا ليو الثامن(٣) . وقد أثار أهل روما مرتين (٩٦٤ ، ٩٦٥) ضد هذا الوضع الشائن الذى انحدروا اليه ، حتى طـــردوا ليو الثامن من روما ، ولكن أوتو العظيم عاد اليهم وأخضعهم مرة بعد أخرى . وهنا يصح أن نكرر أن تدخل أوتو العظيم فى شئون الكنيسة البابوية جاء وليد الموقف السياسى ورغبته فى السيطرة على شئون ألمانيا بوجه خاص ، لا وليد الرغبة فى اكساب دولته طابعا ثيوقراطيا(٤) . ومهما يكن من أمر ، فان أوتو الأول

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 382.
(2) Ullmann: The Growth of the Papal Government, p. 230.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 282.
(4) Barraclough: op. cit. p. 55.



الإمبراطورية الغربية
فى القرن العاشر

قضى عدة سنوات بعد ذلك فى جنوب ايطاليا محاولا بسط سيطرته على هذا الجزء ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب معارضة الدولة البيزنطية وعدم اعتراف امبراطورها نقفور فوقاس به(١) .

واذا كان أوتو العظيم قد نجح فى احياء الامبراطورية فى الغرب ، فان امبراطوريته اختلفت اختلافا واضحا عن امبراطورية شارلمان . فالامبراطورية التى أقامها أوتو جاءت وليدة رغبته فى استغلال التقاليد الامبراطورية لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . هذا الى أن الامبراطورية كانت فى نظر أوتو مسألة ألمانيه بحتة ، فلم يكن يعنيه من أمر ايطاليا الا تنفيذ سياسته الداخلية فى ألمانيا نفسها . وهكذا استغل أوتو الأول الكنيسة والبابوية واللقب الامبراطورى الى أبعد مدى ، فى تنفيذ مشروعاته الألمانية لأنه أدرك جيدا أن ألمانيا هى منبع قوته الحقيقية . لذلك نستطيع أن نقرر ان امبراطورية أوتو لم تحظ مطلقا بذلك الطابع العالمى الذى امتازت به امبراطورية شارلمان ، فضلا عن أن هذه الامبراطورية المقدسة التى أقامها أوتو كانت لا يمكن أن تمثل تراث الماضى ، كما كان الحال مع امبراطورية شارلمان(٢) .

واذا كان المؤرخون المحدثون - وبخاصة الألمان - قد وجهوا اللوم الى أوتو العظيم لأنه جرى وراء الخيال ، وبذل من الجهد فى سبيل الحصول على الامبراطورية وعلى ايطاليا ما كانت ألمانيا نفسها أحق به ، الا أنه من الواضح أن هذا النقد غير عادل لأن أوتو لم يجر وراء ايطاليا والبابوية والامبراطورية الا لتحقيق أهداف بعيدة ترمى الى السيطرة على ألمانيا ذاتها(٣) . فأوتو الأول نظر الى تتويجه فى روما بعين الاهتمام لا لشىء سوى أن هذا التتويج سيمكنه من اتمام سيطرته على الكنيسة الألمانية بمساعدة البابا ، ثم من اتمام سيطرة الملكية على مختلف أنحاء ألمانيا(٤) .

---

(1) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, p. 469.
(2) Eyre: op. cit. p. 117.
(3) Barraclough: op. cit. p. 54.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 32.

ولعل خير شاهد على صحة هذه النظرة أعمال أوتو الأول بعـــد تتويجه امبراطورا ، اذ عكف فى همة ونشاط على اصلاح الكنيسة الألمانية واخضاعها لاشرافه ، كما أنشأ فى مجد برج Magdeburg أسقفية كبرى تشرف على المناطق السلافية شرقى الامبراطورية(١) .

وبعد ، فاننا فى ختام كلامنا عن الامبراطور أوتو العظيم ينبغى أن نشير الى أن عهده شهد نهضة فكرية كبرى ، وأن الاحياء الدينى فى ذلك العصر جاء مصحوبا باحياء ثقافى ، حتى غدا القصر الملكى فى ألمانيا - كما كان أيـــام الكارولنجيين - مركزا للنشاط الفكرى . وقد تزعم تلك النهضة - التى تعرف فى التاريخ باسم النهضة الأوتية أو السكسونية - برونو Bruno الأخ الأصغر للامبراطور أوتو ، كما ظهر من الأدباء كثيرون كتبـــوا فى مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية . أما الامبراطور أوتو نفسه فقـــد أسهم فى تلك النهضة على الرغم من مشاغله الكثيرة ، كما تعلم قراءة اللاتينية وتفهمها وان صعب عليه الحديث بها(٢) .

وأخيرا توفى أوتو الأول فجأة فى ربيع سنة ٩٧٣ بعد أن وضع أساس تطور جديد فى تاريخ الغرب استمر ما يقرب من ثلاثة قرون ، كما جعل من ألمانيا دولة قوية مستقرة وسط مظاهر الفوضى التى سادت غرب أوربا فى ذلك العصر ، بل انه حقق له مكانة الزعامة فى أوربا المعاصرة .

أوتو الثانى (٩٧٣ - ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ - ٩٧٦) عرض على معاصره الامبراطور أوتو الأول تصـــفية الموقف بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية - وبخاصة فى ايطاليا - عن طريق زواج أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو Theophano

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 281.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 24—25.

ابنة رومانوس الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الأسبق ، على أن يكـون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا(١) • وكان أن رحب أوتو الأول بهذه الفرصة فتم زواج ولى عهده أوتو من عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢ ، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين ايطاليـا وألمانيا فى ظل الامبراطورية المقدسة ، وان لم يتضح أثر هذا العامل الا فى عهد أوتو الثانى(٢) •

وقد اختلف أوتو الثانى الذى اعتلى عرش الامبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافا كبيرا فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول • فبينما التزم الأب سياسـة ألمانية حتى أنه فى احياء الامبراطورية كان يرمى الى خدمة المصلحة الألمانية ، اذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقا امتدت الى خارج حدود ألمانيا بكثير • فأوتو الثانى نظر الى ايطاليا والامبراطورية نظرة اختلفت الى حد كبير عن أبيه ، لأن ايطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا • ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الامبراطورية القوى ، وفى الوقت نفسه آمن ايمانا قويا بفكرة الامبراطورية العالمية وبأن سيطرة الامبراطور على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان • وهنا كانت الخطورة الكامنة على ألمانيا والأسرة السكسونية ، لأن سياسة أوتو الثانى - ومن بعده أوتو الثالث - التى اتجهت نحو ايطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا ، لم ينتج عنها الا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الامبراطورية الرومانية بوجه عام(٣) •

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفـوذ بعض الدوقيات ، الأمر الذى جاء مصحوبا بنزعة انفصالية ، على الرغم من جهود أوتو الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط الامبراطورية الوثيق • وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا تحت حكم الأميرة جوديت Judith أرملة هنرى الأولى دوق بافاريا ،

---

(1) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 433—434.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 201—202.
(3) Eyre, op. cit. p. 118.

بصفتها وصية على ابنها الصغير هنرى الثانى(١) • وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديت الى سوابيا عن طـريق ابنتها هـدويج Hedwig زوجة دوقه سوابيا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل • وهكذا رأى أوتو الثانى خطرا جسيما فى ارتباط بافاريا وسوابيا مما أنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا ، حتى دفعه الخوف الى تعيين ابن أخيـه دوقا على سوابيا عند وفاة دوقها العجوز • وكان أن ثارت بارفاريا (٩٧٦ ـ ٩٧٨) واستنجدت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا ، ولكن أوتو الثانى نجح فى اخماد هذه الثورة ، كما استغل الفرصة لاضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها(٢) • وهكذا انتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا ولكن بعد أن اتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة ، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى(٣) •

أما فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى اضطر أوتو الثانى الى الهرب من آخن ، وعندما رد أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما عجل باقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠(٤) على أن المسرح الرئيسى لنشاط أوتو الثانى كانت ايطاليا التى ظلت عندئذ ميدانا للفوضى نتيجة لأطماع الأمراء من جهة واغارات المسلمين من جهة أخرى • وقد حدث أن استنجدت البابوية ـ كعادتها ـ بأوتو الثانى ضد كرسكنتيوس ـ أقوى أمراء روما ، فعبر أوتو جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد البابا بندكت السابع (٩٧٤ ـ ٩٨٣) الى روما • وكان أوتو الثانى يطمع دائما فى أن يجعل سلطة الامبراطورية العالمية ملموسة فعلا ، وأن يثبت نفوذه فى ايطاليا بوجه خاص ، ولذلك استغل فرصة وجوده فى ايطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة لتحقيق غرضين : الأول طرد المسلمين

---

(1) Cam. Med, Hist. Vol. 3, pp. 204—205.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 37.
(3) Barraclough: op. cit. p. 33.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 385.

الذى عبروا من صقلية وهددوا بنفنتو ، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته ثيوفانو بعد أن عادت الدولة البيزنطية الى المماطلة فى هذه الحقوق(١) . وقد صادف أوتو الثانى توفيقا فى حربه بجنوب ايطاليا (٩٨١ - ٩٨٢) فاستولى على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو وبارى وتارنتو ، كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون Cotrone وقتل فى المعركة أبو القاسم أمير صقلية . على أن المسلمين لم يلبثوا أن نصبوا كمينا للقوات الامبراطورية ومزقوها شر ممزق عند خليج كولون Colonne سنة ٩٨٢ ، ولم يستطع الامبراطور نفسه النجاة الا بصعوبة(٢) .

ولا شك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الأولى من نوعها فى تاريخ الامبراطورية الأوتية ، اذ يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الامبراطورية الغربية فى وسط ايطاليا وجنوبها . وزاد من وقع الكارثة أن الأخبار جاءت الى الامبراطورية بتحوك السلاف على نهر الألب وأنهم أعلنوا ارتدادهم الى الوثنية وذبحوا كثيرا من رجال الكنيسة . لذلك عقد أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه ، وهو المجمع الذى اكتسب أهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وايطاليا فيه جنبا الى جنب ، اشارة الى وحدة البلدين داخل اطار الامبراطورية . على أن لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه واضحة ، فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب دينية مقدسة ضد المسلمين ، وفعلا بدأت الاستعدادات لتنفيذ هذه الفكرة التى يمكن أن تعتبر أساسا للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى . ومهما يكن من أمر فان أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أو السلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس بروما(٣) .

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 38.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 169—170.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 211—213.

أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) :

عندما توفى أوتو الثانى كان ابنه الصغير أوتو الثالث فى الرابعة من عمره ولذلك استغلت جميع القوى المعارضة للامبراطورية هذا الوضع لتحقيق أغراضها الثورية ، فعاد هنرى دوق بافاريـــا الى التمرد ، بل انـــه نازع الامبراطورة الوالدة ثيوفانو حق الوصاية على ولدها الصغير ، حتى بلغ الأمر أن طالب بالتاج لنفسه(١) • وهنا نجد زمام الموقف ينتقل الى أيدى رجال الدين والأساقفة ، الذين أصبح فى استطاعتهم ترجيح كفة على أخرى ، بعد أن جعل منهم أوتو الأول قوة سياسية لها حسابها فى الدولة • وبفضل تأييد رجال الدين انتصرت ثيوفانو وولدها أوتو الثالث ، واضطر هنرى الى التزام سياسة المسالمة فى دوقيته بافاريا • وعندما توفيت ثيوفانو سنة ٩٩١ تألف مجلس وصاية على أوتو الثالث ، تزعمه بعض كبار الأساقفة الذين تعهدوا الملك الصغير بالرعاية الكافية والتعليم الراقى كما بثوا فيه روح الحماسة للكنيسة(٢) • وهكذا نشأ أوتو الثالث نشأة قوية تغلب عليها التقوى والايمان حتى جاوز الخامسة عشرة من عمره فذهب الى ايطاليا سنة ٩٩٥ • وهناك فى ايطاليا وجد أوتو الثالث منصب البابوية شاغرا فعين برونو فى منصب البابوية تحت اسم جريجورى الخامس ، وهو أول ألمانى يتولى هذا المنصب(٣) • ولم يلبث ذلك البابا الجديد أن توج أوتو الثالث امبراطورا فى روما (مايو سنة ٩٩٦) وأخذ يعمل مع الامبراطور على تنفيذ آرائهما الخاصة بمدينة الأرض ممثلة فى الامبراطورية يتزعمها الامبراطور والبابا ، لنشر السلام واقـــرار العدالة • ثم عاد الامبراطور بعد تتويجه الى ألمانيا ، فحارب السلاف الذين ثاروا أثناء غيبته وطردوا أدالبرت من أسقفيته فى براغ وأعلنوا ارتدادهم الى الوثنية(٤) •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 209—210.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 41.
(3) Barraclough: op. cit, p. 99.
(4) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 223—224.

وفى ذلك الوقت ثار حنا كرسكنتيوس فى روما ، فعاد الامبراطور الى ايطاليا ليخضع حركته ويعدمه سنة ٩٩٨ ، كذلك توفى البابا جريجورى الخامس فعين الامبراطور بدلا منه معلمه جربرت الذى تسمى باسم البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) فاستأنف سياسة التحالف مع الامبراطورية لتحقيق أغراضهما المشتركة • ويبدو من آراء أوتو الثالث فى تلك الفترة أنه أراد أن يجعل من نفسه ملكا مقدسا (rex sacerdos) بمعنى السيطرة على الشئون الدينية والسياسية جميعا ، كما أراد أن يجعل من روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة (urbs regia) بعد أن أصبحت كنيستها أم الكنائس الغربية جميعا (١) • وهكذا انصرف أوتو الثالث عن شئون ألمانيا وحاول أن يجعل من نفسه قسطنطين آخر ، مما عاد بأوخم العواقب على سلطة الامبراطورية (٢) • ذلك أن البابوية أخذت تنهض بفضل تأييد الأباطرة ومساندتهم لتتشل نفسها من حـــالة الضعف والفوضى التى غرقت فيها فى القرن العاشر وتصل الى المستوى الذى أصبحت فيه على عهد جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) وبعبارة أخرى فان الأباطرة أخذوا يدعمون البابوية ، غير دارين أنهم يبنون لحدهم بأيديهم (٣) • هذا الى أن ما حاوله البابا سلفستر الثانى من بث نفوذه فى بولنـــدا وهنغاريا أغضب الشعور القومى فى هذين البلدين ، فضلا عن استياء أساقفة ألمانيا نفسها من سياسة هذا البابا وسيطرته عليهم • أما ايطاليا - وبخاصة روما نفسها - فقد ظلت تسبب المضايقات للبابا سلفستر حتى انتهى الأمر بقيام الثورة فيها ضد الامبراطور والبابا جميعا ، فى وقت لم يجد الامبراطور حوله نصيرا يسانده - حتى فى ألمانيا نفسها • وفى ذلك الموقف توفى الامبراطور أوتو الثالث قرب روما سنة ١٠٠٢ ، ثم لحق به البابا سلفستر الثانى فى العام التالى (٤)•

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 240—241.
(2) Eyre, op. cit. p. 118.
(3) Bryce: op. cit. p. 143.
(4) Fliche: L'Europe Occidentale, 231.

وصفوة القول أن أوتو الثالث كان رجلا نظريا ياقضى حكمه غارقا فى أحلام الماضى ، بعيدا عن الوقائع والحقائق التى أحاطت به ، فأقام معظم أيامه فى أيطاليا الأمر الذى أضر بهيبته فى ألمانيا أبلغ الضرر ، حتى فقد مكانته فيها عند وفاته (١) •

هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) :

توفى أوتو الثالث دون أن يترك ولدا يرثه فى العرش فانتقل الحكم من السلالة المباشرة لأوتو العظيم الى فرع آخر من نفس البيت السكسونى ، وذلك عندما تولى العرش هنرى الثانى دوق بارفاريا • واذ كان حسن الظروف شاء أن يتم هذا التحول فى وراثة العرش بطريقة سلمية الا أن أول ما يلاحظ على الملك الجديد أنه لم يحظ بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم • ذلك أنه أحس عدم توليه الملك عن طريق الوراثة عن آبائه - وان كان هو أقرب الأفراد الى أوتو الثالث الراحل بحكم كونه حفيد ابنة أوتو الأول (٢) - كما أحس أن الفضل فى اختياره يرجع الى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين ، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل ، واختار أن يحكم عن طريق المجامع والمجالس الاستشارية •

وقد تمتع هنرى الثانى بسلطان واسع فوق الكنيسة ، فأحبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير ، وفى الوقت نفسه استغل الأساقفة ومقدمى الأديرة كأداة له فى تنفيذ سياسته الدنيوية حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الامبراطورية فى مناطق نفوذهم • أما رهبان الأديرة الكلونية فقد حظوا بقدر كبير من عطفه وتشجيعه حتى أن الفضل يرجع اليه فيما أحرزه هؤلاء المصلحون من مركز قوى فى ألمانيا (٣) •

---

(1) Eyre: op. cit. p. 118.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234—239.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 48.

وقد أتى الخطر الأكبر الذى هدد الدولة الألمانية ـ عندما اعتلى هنــرى الثانى العرش ـ من ناحية السلاف ، وبخاصة بولندا التى أخذ حاكمها بولسلاف Boleslav يعمل على توحيد الشعوب السلافية تحت سيطرته ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان الى ما وراء نهر الالب (١) . وكان أن بدأ بولسلاف فى تنفيذ مشروعه فغزا بوهيميا سنة ١٠٠٣ ، وعندئذ حاول هنرى الثانى تصفية الموقف سلميا مع السلاف ، ولكن دون جدوى ، فقام بحرب طويلة متقطعة ضدهم بدأت بمهاجمة بوهيميا سنة ١٠٠٤ وانتهت بالصلح الأخير معهم سنة ١٠١٨ (٢) . وهكذا استنفدت حروب هنرى الثانى ضد السلاف بوجه عام والبولنديين بوجه خاص قدرا كبيرا من حكمه وجهده دون أن تؤدى فى النهاية الى نتيجة مشرفة بالنسبة له ، حتى اضطر أخيرا الى التسليم بمطالب البولنديين الاقليمية وأهمها ماركية لوزاس (Lusace) (٣).

على أن خطر البولنديين لم يصرف هنرى الثانى عن شئون ايطاليا ، وان كان من الواضح أن التيار الذى سار فيه أوتو الثالث لم يجرف هنرى الثانى بالقوة ذاتها فى طريقه ، وأن الأخير تخلى عن كثير من مطامع الأول الواسعة واتجه اتجاها ألمانيا قوميا الى حد كبير . ويبدو أن أحداث ايطاليا نفسها واضطراب أحوالها هى التى جذبت ملوك ألمانيا الى التدخل فى شئونها ، اذ عادت البابوية بعد وفاة سلفستر الثانى لتقع تحت رحمة أمراء روما من آل كرسكنتى Crescentii فى الوقت الذى نصب أردوين Ardoin نفسه ملكا على ايطاليا (٤) . لذلك ذهب هنرى الثانى الى ايطاليا سنة ١٠٠٤ ثم سنة ١٠١٣ . وفى المرة الأخيرة توجه البابا بندكت الثامن امبراطورا فى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 222.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234—239.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 49.

(٤) وجدت عائلتان كبيرتان تتنازعان السلطة والنفوذ فى روما عنـد مستهل القرن الحادى عشر ، الأولى آل كرسكنتى والثانية كونتات توسكولم Tusculum . ويبدو أن البابوات الثلاثة الذين خلفوا سلفستر الثانى تولوا منصب البابوية بفضل تأييد الأسرة الأولى ، انظر (Hayward: A History of the Popes, p. 142.)

روما (فبراير سنة ١٠١٤)(١) • ثم كان أن زار البابا نفسه ألمانيا سنة ١٠٢٠ لتدشين كتدرائية بامبرج Bamberg وفى تلك الزيارة تم الاتفاق بين البابا والامبراطور على أن يقوم الأخير بحملة شاملة على ايطاليا لاقرار الأوضاع فيها • وفعلا قام الامبراطور بحملته سنة ١٠٢١ حتى استطاع اخضاع شمال ايطاليا ووسطها ، ولكن مرضا تفشى بين رجاله فى أبوليا فاضطر الى العودة الى ألمانيا فى العام التالى قبل أن يستقر الموقف تماما فى ايطاليا • وهكذا ظل الحال مضطربا فى ايطاليا بسبب العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة ، وبين كبار النبلاء Capitani وصغارهم Vavassors من جهة أخرى ، وبين المدن بعضها وبعض ، أو بينها وبين السلطات الاقطاعية من جهة ثالثة (٢) •

أما هنرى الثانى فقد شغل سنواته الأخيرة بمؤازرة أنصار حركة الاصلاح الكلونية • والحق أن هنرى الثانى يعتبر من كبار المصلحين الديريين ، وبفضل جهوده تم ادخال اصلاحات كثيرة على أديرة بروم Prum وهرسفلد Hersfeld وريخنو Reichenau وفولدا وكوربى وغيرها • كذلك عقد كثيرا من المجامع الكنسية تحت رآسته وتولى هو توجيهها ، هذا فضلا عن أنه منح رجال الدين — وبخاصة الديريين — كثيرا من الامتيازات والحقوق (٣) • على أنه يلاحظ أن عطف هنرى الثانى على رجال الدين الأجانب — غير الألمان — أثار ضغينة الأساقفة الألمان وحقدهم • وقد تزعم حركة المعارضة ضد الامبراطور والبابا بندكت الثامن جميعا أريبو Aribo رئيس أساقفة مينز ، ولكن شاءت الظروف أن يموت البابا بندكت الثامن سنة ١٠٢٤ ثم يلحق به هنرى الثانى فى العام نفسه ، وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الامبراطور (٤) •

---

(1) Bryce: op. cit. p. 146.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 392.
(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 247—248.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 50.

وبوفاة هنرى الثانى انتهى البيت السكسونى الذى حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان استطاع فيها أن يجنبها الفوضى الشاملة التى تردت فيها فرنسا فى القرن العاشر(١) . على أنه يتضح لنا من عرضنا السابق لملوك البيت السكسونى أنهم بدءوا بتشجيع الأساقفة وتزويدهم بالنفوذ القوى كوسيلة للضغط على كبار الأمراء . ولم يكن للديريين فى أول الأمر نصيب من هذا العطف ، لأنهم بحكم عزلتهم وانقطاعهم للعبادة كانوا لا يصلحون أداة فى أيدى الملوك يستعينون بها على خصومهم السياسيين ، الأمر الذى جعل الديريين يحقدون على الأساقفة ويحسدونهم على ما هم فيه من قوة ونفوذ (٢) . ثم كان أن اعتلى عرش الامبراطورية هنرى الثانى فأخذ يعطف على الديريين ويشجع حركة الاصلاح الكلونية ، مما أغضب كبار الأساقفة وأخافهم . ذلك أنه كان من مبادىء هذه الحركة الاصلاحية تحقيق استقلال الكنيسة عن السلطة الزمنية ، وفى الوقت نفسه تركيز نفوذ البابوية ونشر سلطانها الفعلى على الكنيسة الغربية فى مختلف الدول . ومع أن الأساقفة الألمان اعترفوا برآسة روما وزعاماتها الروحية ، الا أنهم رأوا فى تحقيق هذه الآراء اضعافا لنفوذهم الدنيوى من ناحية وحرمانهم من بعض نفوذهم الدينى من ناحية أخرى ، لا سيما فيما يتعلق باستئناف الاحكام التى يصدرونها أمام البابا . لذلك وجد الأساقفة الألمان فى الآراء الكلونية التى شجعها الديريون خطرا هددهم ، ومن ثم أخذوا - عقب وفاة هنرى الثانى - يبذلون قصارى جهدهم حتى لا يلى عرش الامبراطورية رجل يشايع الديرية وآراءها الاصلاحية (٣) . وهكذا اتخذت مسألة اختيار خليفة لهنرى الثانى شكل نضال بين الأساقفة من جهة والديريين من جهة أخرى ، حتى انتصر الفريق الأول واختير كونراد دوق سوابيا .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 258.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 393.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 51.

كونراد الثانى (١٠٢٤ ـ ١٠٣٩) :

انتخب كونراد الثانى دوق سوابيا ملكا على الرغم من معارضة أهالى اللورين حيث كانت الآراء الكلونية قد أحرزت تقدما كبيرا ، وبانتخابه بدأت سلسلة الأباطرة الساليين . وكان الفارق عظيما بين هنرى الثانى وخليفته كونراد الثانى ، اذ كان الأخير جنديا ومحاربا قبل أى اعتبار آخر ، فرأى لذته الكبرى فى حياة المعسكرات لا فى المناقشات حول المسائل الدينية، لأن الحرب كانت فى نظره الوسيلة الوحيدة التى تضمن نفوذه الامبراطورى (١) .

والواقع أن كونراد الثانى توج ملكا فى مينز سنة ١٠٢٤ ليجد كل شىء مختلا فى الدولة ، ولكن لم يمض على قيامه فى الحكم عامان حتى بث فى دولته روحا جديدة وأصلح كثيرا من مواطن الضعف والخلل فيها . وأتت أول صعوبة واجهت كونراد الثانى من اللورين ، التى لم يكتف أمراؤها بمعارضة اختيار كونراد فحسب بل رفضوا الاعتراف به بعد تتويجه ملكا. ولكن كونراد الثانى قضى على هذه الفتنة وغيرها من القلاقل الداخلية وأعاد الاستقرار الى ألمانيا تحت سيادته(٢) . أما ايطاليا التى بلغت السلطة الامبراطورية فيها درجة متناهية من الضعف فى أواخر عهد هنرى الثانى ، فقد بقيت خارج نفوذ كونراد من الوجهة العلمية ، ولم ينقذ ما تبقى له من نفوذ سوى موقف الأساقفة اللمبارديين الذين رأوا فى الامبراطور خير درع يقيهم سيطرة الأمراء المحليين . لذلك عبر كونراد الثانى جبال الألب سنة ١٠٢٦ حيث قضى فى شمال ايطاليا عاما كاملا ثبت فيه نفوذه وأخضع خصومه ، ثم قصد روما بعد ذلك فى ربيع سنة ١٠٢٧ حيث توج امبراطورا بيد البابا حنا التاسع عشر . وهكذا يبدو أن الطابع الألمانى الضيق الذى امتازت به سياسة كونراد لم يحل دون قيامه بالزيارة التقليدية التى اعتاد الأباطرة أن يقوموا بها لايطاليا ، حتى قيل ان كونراد الثانى لم يصبح

---

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 246—247.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 254.

امبراطورا « رومانيا » الا بعد أن توجه البابا فى روما (١) • وبعد أن قام كونراد الثانى بزيارة جنوب ايطاليا لتقوية وسائل الدفاع عنها ضد البيزنطيين فى كالبريا ، عاد الى ألمانيا مسرعا ليتفرغ لشئونها • وهنا نكرر القول بأن سياسة كونراد الثانى اختلفت عن سياسة سلفه هنرى الثانى فى أن الأول اتجه اتجاها ألمانيا عمليا وتخلى عن الاتجاه العالمى النظرى الذى أدى الى اضعاف نفوذ هنرى الثانى فى ألمانيا (٢) •

ويبدو أن نفوذ كونراد الثانى فى المانيا بلغ درجة من القوة عقب عودته من ايطاليا جعلته يعمل على جعل الحكم وراثيا فى أسرته فتوج ابنه هنرى فى حياته سنة ١٠٢٨ • وقد أثار هذا العمل حقد كبار الأمراء ، وعلى رأسهم أرنست دوق سوابيا ، ولكن كونراد الثانى لم يتعب كثيرا فى القضاء على هذه الفتنة فأخضع الثورة وحرم أرنست من دوقيته ، بحيث عاد كونراد يسيطر عى ألمانيا سيطرة تامة قوية (٣) • •

على أنه اذا كانت الأوضاع قد استقرت لكونراد فى الداخل ، فان أعداء الدولة فى الخارج لم يتركوا له فرصة للتمتع بهذا الاستقرار • من ذلك أن كونراد الثانى دخل فى صراع طويل مع البولنديين (١٠٢٨ - ١٠٣١) بسبب اغاراتهم على سكسونيا الشرقية سنة ١٠٢٨ وتدميرهم كثير من القرى واحراق كنائسها • وكان السبب الأساسى لهذه الهجمات التى قام بهـا البولنديون على ألمانيا هو عدم اعتراف كونراد الثانى بملكهم مسكو الثـانى Mesko II ولكن كونراد كان فى موقف لا يساعده على انزال ضربة قاصمة بالبولنديين بسبب انشغاله بغيرهم من أعداء الدولة ، ولذلك انتهى الموقف بين الطرفين بالصلح سنة ١٠٣١ (٤) • وفى تلك الأثناء شـغل

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 250
(2) Eyre: op. cit. pp. 130—131.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 54.
(4) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 251—252.

كونراد الثانى بأمر بوهيميا التى كانت تربطها علاقة التبعية بالدولة الألمانية • وقد ساءت العلاقات بين كونراد الثانى وأودلرخ Udalrih دوق بوهيميا سنة ١٠٣٢ ، الأمر الذى حدا بالأول الى ارسال حملة الى بوهيميا أخضعت أودلريخ وأرسلته أسيرا الى بافاريا ، وان ظلت الفوضى ضاربة أطنابها فى بوهيميا حتى سنة ١٠٣٥ (١) • أما الهنغاريون فقد تجمعت عدة عوامل أساءت الى العلاقات بينهم وبين كوانراد الثانى أيضا ، مما اضطره الى الهجوم على هنغاريا سنة ١٠٣٠ ، ولكنه لم يصادف توفيقا فى تلك الحرب وذلك بسبب العقبات الطبيعية التى اعترضت سبيله ، كالغابات والأنهار والأحراش ، زيادة على مقاومة الهنغاريين وتفشى المرض بين جنوده ، مما جعله يعود متقهقرا الى ألمانيا ومعه البقية الضئيلة من جنوده (٢) •

على أن أهم نصر أحرزه كونراد الثانى فى سياسته الخارجية كان نجاحه فى ضم مملكة آرل Arles أو برجنديا Burgundy الى ممتلكاته• وكانت هذه المملكة قد وقعت منذ منتصف القرن العاشر فى فوضى شديدة ، حتى توفى ملكها رودلف الثالث سنة ١٠٣٢ دون أن يترك ولدا يرثه فى الملك (٣) • وهنا استغل كونراد الثانى صلة القربى التى تربطه بالملك الراحل وتوج نفسه ملكا على آرل ، مما جعل تلك المملكة جزءا من الامبراطورية ، حتى استمر أمراؤها مدة طويلة يتخذون لأنفسهم لقب « أمراء الامبراطورية المقدسة(٤) » • أما أهمية هذه الخطوة فلا ترجع الى أن ضم مملكة آرل أتاح نفوذا جديدا للاباطرة الألمان بقدر ما ترجع الى بضع حقائق أخرى هامة ، أولها أن هذه المملكة الجديدة كانت رومانية الطابع فأدى ضمها الى الامبراطورية الى تخفيف الطابع الألمانى الذى اتصفت به الامبراطورية المقدسة • وثانيها أن هذا الضم حال دون ارتباط آرل بفرنسا سياسيا فى ذلك

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 262.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale. p. 254.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8. p. 309.
(4) Bryce: op. cit. p. 148.

العصر ، كما أدى الى تثبيت مبدأ الوراثة فى ألمانيا (١) . فاذا أضفنا الى ذلك أن برجنديا أو آرل كانت مركزا رئيسيا لحركة الاصلاح الكلونية ممـــا ترتب على ضمها للامبراطورية سرعة انتشار تلك الحركة فى ألمانيا ، وأن ضم مملكة آرل الى الامبراطورية حال دون تدخل فرنسا فى شئون ايطاليا ، اذا ذكرنا كل هذا ، أدركنا فى النهاية مدى خطورة هذه العملية فى التاريخ وهكذا صارت الامبراطورية تضم جميع الأراضى التى تناولتها اتفاقية فردون سنة ٨٤٣ باستثناء الجزء الغربى ، أو فرنسا بمعناها الضيق .

على أن كونراد الثانى اعتقد أن هناك أمرا واحدا ينتقص سـلطانه الفعلى ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد ، وهذا الأمر هو قوة نفوذ كبار الأمراء ، وارتباط الأفصال بسادتهم الاقطاعيين ، وضعف الروابط التى تربط هؤلاء الأفصال وغيرهم من عامة الناس بالامبراطور . لذلك حاول كونراد أن يستميل الى جانبه صغار الأفصال ضد كبار الأمراء ، فناصر مبدأ توريث ما بأيديهم من اقطاعات ليهيىء لهم نوعا من الاستقرار والثبات فى وجه سادتهم الاقطاعيين (٣) . هذا الى أن تطبيق مبدأ الوراثة فى الاقطاعات الصغيرة من شأنه أن يدعم مبدأ توريث التاج الامبراطورى ، وهو أمر سعى كونراد لتحقيقه . كذلك لجأ كونراد الثانى الى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثية ، فضلا عن تدعيم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليدا علمانيا واستخدامهم كأداة للحد من بطش كبار الأمراء (٤) .

ويبدو أن النجاح العظيم الذى صادفه كونراد الثانى فى تطبيق هـــذه السياسة فى ألمانيا وبرجنديا دفعه الى تطبيقها فى ايطاليـــا . على أن روح الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية كانت قد أخذت تشتد فى شـــمال ايطاليا ، حتى بين كبار الأساقفة الذين سبق أن استنجدوا بكونراد ضد كبار

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy. pp. 55—56.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 259.
(3) Orton: op. cit. p, 170.
(4) Eyre: op. cit. p. 222.

الأمراء العلمانيين • ومن هؤلاء الأساقفة أربرت Aribert رئيس أساقفة ميلان الذى تمتع بمركز مستقل فى أسقفيته ، وأخذ يمنى نفسه بنفـــوذ سياسى الى جانب نفوذه الدينى (١) • ولكن اذا كان أربرت يستطيع الاعتماد على ولاء أهالى ميلان الذين عرفوا بطاعتهم لأساقفتهم ، فان الأمراء المحليين رأوا فى تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم ، فثاروا ضده مما أدى الى حربه أهلية استدعت سفر كونراد الثانى الى ايطاليا لتهدئة الموقف فى شمالها سنة ١٠٣٦ • وهنا وقف أربرت من الامبراطور موقفا عنيدا ، لم يلبث أن تحول الى حرب سافرة بين الطرفين • ولم يتردد كونراد عندئذ فى استمالة صغار النبلاء والاقطاعيين الى جانبه ، فأصدر مرسوما سنة ١٠٣٧ بجعل اقطاعاتهم وراثية فى ايطاليا ، كما وعدهم بعدم ارهاقهم بالضرائب والالتزامات المالية • على أن هذه الاجراءات وأشباهها لم تكن كافية لاخضاع أربرت الذى قوى مركزه فى ميلان فى الوقت الذى تطلبت شئون الامبراطورية من كونراد الثانى العودة الى بلاده سنة ١٠٣٨ حيث توفى فجأة فى أوترخت فى العام التالى (٢) •

ومهما يكن من أمر ، فاو وفاة الامبراطور كونراد الثانى قبل أن يتمكن من التغلب على مشكلة أربرت فى ايطاليا لا تقلل من نجاحه العام فى القيام بأعباء الوظيفة الامبراطورية • ويكفى أنه ثبت نفوذه الامبراطورى تثبيتا قويا جعل ابنه يعتلى عرش الامبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة ، وذلك لأول مرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة •

هنرى الثالث (١٠٣٩ ـ ١٠٥٦) :

بلغت الامبراطورية المقدسة ذروة قوتها على عهد هنرى الثالث (٣) الذى أظهر كفاية فى عهد أبيه عندما عهد اليه بحرب البولنديين والهنغاريين ، فضلا

---

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 258.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 59.
(3) Bryce: op. it. p. 148.

عن الخبرة السياسية التى اكتسبها بعد أن توجه أبوه وأشركه معه فى الحكم بصورة غير رسمية • وهكذا استطاع هنرى الثالث عندما تولى الحكم أن يتم رسالة أبيه ، وأن يسير وفق الخطوط العريضة التى اتبعها كونراد الثانى فى سياسته ، بل انه نفخ فى هذه لسياسة روحا جديدة جعلت الامبراطورية المقدسة تبدو فى عهده فى صورة القوة الكبرى الفعالة فى توجيه مصائر غرب أوربا (١) •

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت هنرى الثالث هى مشكلة أربرت رئيس أساقفة ميلان ، بعد أن مات كونراد الثانى قبل أن يحلها حلا يرضى كرامة الامبراطورية وهيبتها • على أن هذه المشكلة حلت حلا سلميا ، اذا تغلب العقل على أربرت عندما علم بوفاة الامبراطور كونراد الثانى ، واتجه الى ألمانيا سنة ١٠٤٠ حيث أعلن ولاءه لهنرى الثالث وطلب عفوه ، وبذلك عاد السلام الى ايطاليا وأصبح فى وسع الملك الجديد أن يتفرغ للمشاكل الأخرى، وأهمها مشكلة الحدود مع بولندا وبوهيميا وهنغاريا (٢) •

والواقع أن بولندا لم تكن مصدر خطر واضح على عصر هنرى الثالث بعد أن مزقتها الحروب الأهلية وتعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التى أضحت عندئذ أقوى الدول السلافية ، ولذلك لم يصادف هنرى الثالث صعوبة كبيرة فى اعادة بولندا الى تبعيتها للامبراطورية • ولكن الموقف اختلف بالنسبة لبوهيميا التى أراد دوقها برتسلاف (Bretislav) أن يجعل من نفسه ملكا وأن يرفع أسقف بوهيميا فى براغ الى مرتبة رئيس أساقفة حتى يحقق لبوهيميا الاستقلال السياسى والكنسى (٣) • ولذلك قاوم برتسلاف جهود الامبراطورية فى السيطرة على بوهميا مقاومة عنيفة ، ولكنها لم تجد أمام قوة هنرى الثالث الذى أوغل فى بوهيميا حتى هدد براغ نفسها سنة ١٠٤١ وأخيرا أدرك برتسلاف صعوبة المقاومة فرضى بالخضوع لهنرى الثالث بشروط قاسية أهمها دفع غرامة حربية باهظة ، واطلاق سراح ما لديه من

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 272—306.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 202.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. pp. 300—301.

أسرى ، وهدم جميع التحصينات المقامة فى غابات بوهيميا . وبعد ذلك مثل برتسلاف بين يدى هنرى الثالث (اكتوبر سنة ١٠٤١) حيث أعلن تبعيته وخضوعه ، وعندئذ أقطعه هنرى دوقية بوهيميا التى كان الأمير السلافى يحلم بتحويلها الى مملكة مستقلة (١) .

على أن الصعوبة التى صادفها هنرى الثالث فى هنغاريا كانت أشد وأعظم، اذ قامت فيها حركة وثنية أتت بملك جديد اسمه آبا Aba على العرش . وقد أصدر البابا قرار الحرمان ضد ذلك الملك الوثنى ، فحاول آبا أن يفوز باعتراف هنرى الثالث به ملكا ، ولما رفض هنرى أغار آبا على ألمانيا عن طريق وادى الدانوب ثم عاد الى بلاده فى أوائل سنة ١٠٤٢ محملا بالأسلاب . لذلك هجم هنرى الثالث على هنغاريا عدة مرات (١٠٤٢ - ١٠٤٥) حتى انتهى الأمر بفرار آبا واعتراف خليفته بطرس بالتبعية للامبراطورية (٢) .

أما فى الجبهة الشمالية فقد أنزل هنرى الثالث هزيمة بالعناصر السلافية التى أغارت على سكسونيا سنة ١٠٤٥ ، كما عقد الملك اجتماعا فى العام التالى مع الحكام السلاف ، اعترفوا فيه بسيادة الامبراطورية . وهكذا استطاع هنرى الثالث أن يكمل رسالة أبيه فى تحقيق عظمة ألمانيا وجعل الامبراطورية المقدسة صاحبة الكلمة العليا فى غرب أوربا (٣) . وربما ساعد على اعلاء كلمة الامبراطورية عندئذ ضعف الملوك الأوائل من أسرة كابيه فى فرنسا ، وانشغالهم بالحروب المستمرة مع الزعماء الاقطاعيين ، مما جعل الامبراطورية المقدسة لا تجد أمامها منافسا قويا من غرب أوربا ينازعها السيادة العلية . ولم يحاول هنرى الثالث أن يستغل ضعف فرنسا فى ذلك العصر فى تحقيق مطامع سياسية عبر الراين ، بل على العكس حرص على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا ، وأراد أن يؤكد حسن العلاقات بزواجه سنة ١٠٤٣ من أميرة فرنسية هى آجنى Agnes

---

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 262—263.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 61.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 264.

صغرى بنات وليم كونت بواتو . وربما كانت أهم النتائج التى ترتبت على هذا الزواج ، هو الأثر القوى الذى تركته الأميرة الفرنسية فى السياسة الدينية التى اتبعها زوجها هنرى الثالث (١) .

وبعد أن خلص هنرى الثالث من مشاكله الخارجية ، أخذ يوجه عنايته نحو مشاكل الامبراطورية فى الداخل ، أى فى ألمانيا وايطاليا . والواقع أن هذين البلدين كانا لا يزالان يشكوان الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من الجهود التى بذلها الأباطرة السابقون . وقد أدت سياسة كونراد الثانى - الخاصة بتشجيع صغار النبلاء الاقطاعيين - الى كثرة الحروب المحلية مما تطلب من هنرى الثالث جهدا كبيرا لحسم ذلك الوضـــــع واقرار الأمن والنظام . وفى سبيل الوصول الى هذا الغرض تخلى هنرى الثالث عن سياسة أسلافه فى الحرص على تركيز السلطة فى يدى الملك ، واكتفى بتعيين جماعة من أقاربه وأنصاره فى الدوقيات الكبيرة ، ثم ترك لهم بعد ذلك شيئا من التصرف والنفوذ فى دوقياتهم ، بعد أن أدرك أن ألمانيا أصعب من أن تحكم حكما أوتوقراطيا مركزيا (٢) .

على أن الدور الذى قام به هنرى الثالث فى ايطاليا - وبخاصة تجـــاه البابوية يسترعى منا انتباها خاصا . ذلك أن مركز البابوية انحط فى ذلك العصر الى الدرجة التى جعلت هنرى الثالث يتخذ تدعيم البـــابوية مفتاحا لسياسته الامبراطورية (٣) . وحسبنا أن البابا أصبح ألعوبة فى أيدى أمراء روما ، بل أصبح المنصب البابوى يباع ويشترى بالمال ، مما جرح شعور كل مسيحى غيور . من ذلك أن أحد هؤلاء الأمراء تولى منصب البابوية تحت اسم بندكت التاسع سنة ١٠٣٣ على الرغم من حداثة سنة . ثم لم يلبث أن باع منصبه لقاء حفنة من المال الى بابا آخر هو جريجورى السادس فى العام التالى . وازاء هذه الفوضى والفضائح ، عقد دعاة الاصلاح مجمعا فى روما واستنجدوا بالملك هنرى الثالث لمساعدتهم فى وضع حد لهذه الفوضى .

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 62.
(2) Bryce: op. cit. p. 148.
(3) Barraclough: op. cit. p. 56.

والواقع هنرى إهتم بحركة الاصلاح الكلونية وأخذ يتحمس لانقاذ الكنيسة والبابوية من الهوة التى سقطتا فيها ، حتى ازدادت هذه السياسة قوة بعد زواجه من آجنى (١) ٠

وكان أن عبر هنرى الثالث جبال الألب الى ايطاليا سنة ١٠٤٦ حيث عقد مجمعا في سوترى Sutri قرب روما فى ديسمبر من العام نفسه ، ثم مجمعا آخرا فى روما فى الشهر عينه ، عزل فيهما جميـــع البـابوات المتنازعين ، وانتهى الأمر بتعيين سويدجار Suidgar أسقف بامبرج تحت اسم البابا كلمنت الثانى ٠ وفى اليوم الذى احتفـــل فيه بتعيين البابا الجديد قام البابا بتتويج هنرى الثالث وزوجته بالتاج الامبراطورى (٢) ٠ وبعد ذلك قام الامبراطور وبصحبته البابا ــ بجولة فى جنوب ايطاليا لاخضاعها وإقرار الأمور فيها ٠ واذا كان الامبراطور قد اضطر الى العودة بعد ذلك الى ألمانيا ، الا أن سياسته استمرت نافذة فى ايطاليا حيث تمتع بنفوذ لم يحظ به غيره من أباطرة الدولة المقدسة (٣) ٠ من ذلك أنه حدث بعد وفاة البابا كلمنت الثانى سنة ١٠٤٨ أن ظل رأى الامبراطور معمولا به فى اختيار الشخص الذى يلى منصب البابوية فتعاقب علىّ هذا المنصب البابا داماسوس الثانى Damasus II الذى مات بعد أسابيع فخلفه ليو التاسع ــ قريب الامبراطور (١٠٤٨ ــ ١٠٥٤) ، ثم فكتور الثانى (١٠٥٤ ــ ١٠٥٧)(٤)٠ وفى عهد البابا الأخير قام هنرى الثالث بزيارة ايطاليا مرة أخرى لبعض أغراض سياسية ولكنه لم يلبث أن عاد الى ألمانيا لنشوب ثورة فى بافاريا ٠

وهنا تبدو لنا سياسة هنرى الثالث الدينية على جانب كبير من الأهميــة والتناقض ٠ ذلك أنه عمل اصلاح الكنيسة وشرع ضد السيمونية ــ أى بيع الوظائف الدينية ــ وغيرها من المفاسد الكنسية (٥) ٠ ولكنه حرص فى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 290.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 265—266.
(3) Bryce: op. cit. pp. 148—149.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 292—293.
(5) Eyre: op. cit. pp. 132—133.

الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية جميعا دون أن يدرى أن هذه السيطرة كانت من الأمراض الخطيرة التى تشكو منها الكنيسة عندئذ . وأبرز مثل لهذه السيطرة تدخل هنرى الثالث فى عزل البابوات وتعيين من يشاء دون الرجوع الى أية مجامع دينية . ومن الواضح أن هدف هنرى الثالث من ذلك كان سلب نبلاء روما سيطرتهم على البابوية ، علاوة على اثبات حقــــه فى تعيين أساقفة ألمانيا وتقليدهم علمانيا مادام هو الذى يعين البابا نفسه (١) . على أنه اذا كان ليو التاسع ومن بعده فكتور الثانى لم يتجاسرا على معارضة الامبراطور ، فان التطور نحو تحرير الكنيسة من سيطرة السلطة العلمانية بدأ يظهر فى بطء على عهد البابا ستفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) . ولم يلبث أن اتخذ هذا التطور شكل هجوم على السلطة العلمانية فى عهد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ - ١٠٦١) (٢) .

وهكذا أدت سيطرة الامبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة ، ومحاولة الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى ، الى نزاع حــــاد بين الامبراطورية والبابوية ، ظهرت أولى فصوله على مسرح العصور الوسطى بعد وفاة الأمبراطور هنرى الثالث ١٠٥٦ .

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 251

(2) Eyre: op. cit. p. 133.

الباب الثالث عشر

إيطاليا والبابوية

كانت ايطاليا فى ختام القرن العاشر مقسمة الى عدد من الوحدات تتنازع النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوربية كبيرة • فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا وكالبريا فى الجنوب ، بعد أن نجحت قوات الامبراطور باسل المقدونى فى طرد المسلمين من تلك الجهات واحراز نصر بحرى عليهم واسترداد معاقلهم فى الجنوب الشرقى من ايطاليا (٨٨٤ - ٨٨٧) (١) • هذا وان ظل المسلمون يسيطرون على بعض المراكز فى جنوب ايطاليا الغربى وجزيرة صقلية ، وذلك بعد أن سقطت سيراكيوز عاصمة الجزيرة فى أيديهم سنة ٨٧٧ • ومع أن المسلمين فشلوا فى اتخاذ مقر ثابت لهم فى جنوب ايطاليا ، الا أنهم استمروا يؤثرون فى توجيه مصائر ذلك الجزء من أوربا ، ولا سيما الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة (٢) • وبالاضافة الى البيزنطيين والمسلمين ، وجد عدد من الدوقيات اللمباردية فى بنفنتو وسالرنو وكابوا فى الجنوب (٣) • أما شمال ايطاليا ووسطها فقد أقام فيهما اللمبارديون عدة امارات قوية ، كما ظهرت فى تلك الأجزاء بعض المدن التجارية النشيطة مثل أمالفى ونابلى • هذا فضلا عن البابوية التى أخذت تعمل من جانبها على أن يكون لها نفوذ سياسى فوق نفوذها الدينى • فاذا أضفنا الى هذه القوى المتعددة الامبراطورية الرومانية المقدسة التى شرع أباطرتها يتدخلون فى شئون ايطاليا ويطمعون فى الربط بينها وبين ألمانيا تحت سيطرتهم ، أمكننا أن نكون فكرة عن الفوضى السياسية التى أضحت فيها ايطاليا فى تلك الحقبة (٤) •

---

(1) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, pp. 440—441.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 399— 400.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 103—104.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 167—168.

قيام دولة النورمان فى جنوب ايطاليا :

وقد ساعدت هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار على امتداد نفــوذ النورمان الى جنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، حتى استطاعوا أن يكونوا دولة قوية أسهمت بدور هام فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى • ذلك أن النورمان الذين استقروا فى غرب فرنســا سرعان ما اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الفرنسية ، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو • وبعبارة أخرى فانهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال ، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيــدة المدى بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة • وكثيرا ما انتهت هــــذه الأسفار بتأسيس دويلات نورمانية كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى • من ذلك ما حدث حوالى سنة ١٠١٩ من أن أربعين حاجا نورمانيا مروا بجنوب ايطاليا — قرب مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطىء الشرقى — فى طريق عودتهم من الأراضى المقدسة الى وطنهم (١) وفى ذلك الوقت كان ميليس Meles — أحد مواطنى مدينة بارى Bari قد استغل فرصة توغل المسلمون وثار ضد السلطات البيزنطية ، فاستعان بهؤلاء النورمان فى تحقيق غرضه ، واستغلهم كجند مرتزقة • وقد رحب زعيم هؤلاء الحجاج بالفرصة ، كما شجع البابا بندكت الثامن الفكرة ، وبفضل هذه المعونة تمكن ميليس من الانتصار على القوات البيزنطية مما أكسب النورمان شهرة كبيرة فى ايطاليا كجند محاربين شجعان • (٢)

وعندما عاد هؤلاء الحجاج الى نورمنديا نقلوا الى ذويهم ما شاهدوا عليه البلاد الايطالية من فوضى وتفكك ، الأمر الذى أغرى كثيرين من الطموحين على الهجرة من نورمنديا الى جنوب ايطاليا ليعملوا جندا مأجورين • ويقال ان دوق نابلى رحب بهم سنة ١٠٣٠ بعد أن ســاعدوه ضــد أمير كابوا اللمباردى ، مما جعل هذا الدوق يكافىء رانولف — زعيم النورمان — بمنحه

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 198
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 104—105.

منطقة غنية يقيم فيها مع قومه بصفة دائمة . وفى هذه المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠ ، التى تعتبر أوله مركز دائم لهم فى ايطاليا (١) . وهكذا أخذت جموع النورمان تتكاثر فى جنوب ايطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، حيث وجدوا فى هذا الوطن الجديد ميدانا صالحا لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية . واشتهر من زعماء النورمان فى ايطاليا فى هذه الحقبة ثلاثة اخوة يلقبون بلقب « هوتفيل Hauteville » هم وليم وهمفرى ودروجو ، وقد أحرزوا جميعا صيتا ذائعا فى ميدان الحرب والقتال (٢) . وكان أن قدم هؤلاء الاخوة مساعدتهم الى البيزنطيين سنة ١٠٣٨ لطرد المسلمين من صقلية ، حتى أصبح وليم هوتفيل أميرا على النورمان فى أبوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملفى Melfi مركزا له (٣) . وعندما توفى سنة ١٠٤٦ اعترف الامبراطور الغربى هنرى الثالث بأخيه دروجو أميرا على أبوليا . ولكن حدث حوالى ذلك الوقت أن حضر من نورمنديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة ، هو روبرت جويسكاد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان فى ايطاليا بعد وفاة همفرى سنة ١٠٥٧(٤) . وقد اشتهر روبرت جويسكارد هذا (ت١٠٨٥)كسياسى ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول الى هدفه . ومن أعماله أنه وجه كل جهوده نحو غزو جنوب ايطاليا وأراضى الدولة البيزنطية وتقويض نفوذها فى شبه الجزيرة (٥) ، دون أن يدرى أن توسع النورمان فى جنوب ايطاليا ، وما صحب هذا التوسع من أعمال النصب والعنف ، أثار حنق البابوية ومخاوفها . ذلك أنه على الرغم من ترحيب البابوات والأساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان ليكونوا عونا لهم ضد المسلمين من جهة والكنيسة الشرقية من جهة أخرى ، الا أن النورمان أثاروا كره الجميع بعد أن اشتهروا بالنهب والسلب والقسوة (٦) . هذا فضلا عن أنهم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 268.
(2) Stephenson: op. cit. p. 247.
(3) Diehl, Mareais: Le Monde Orientale, p. 560.
(4) Haskins: The Normans in European History, p. 201
(5) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 474.
(6) Orton: op. cit. p. 188.

أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ، فتارة يحاربون مع الأمراء اللمبارديين وطورا في صف القوات البيزنطية ، دون أن يكون لهم هدف من وراء كل ذلك سوى توسيع رقعة أراضيهم الخاصة على حساب البيزنطيين واللمبارديين والبابوية جميعا •

وكان أن دفع شعور الخوف والاستياء البابا ليو التاسع الى أن يوجه جيشا ـ خليطا من الألمان والايطاليين ـ لمهاجمة النورمان سنة ١٠٥٣ • ولكن النورمان انتصروا على هذه الحملة البابوية فى موقعة كيفتياتى Civitate فأثبتوا مرة أخرى كفايتهم الحربية (١) ، حتى استطاع زعيمهم روبرت جويسكارد أن يغزو كالبريا بأكملها سنة ١٠٥٧ (٢) • ويبدو أن هزيمة البابوية أمام النورمان وقتئذ كانت ذات نتائج مهمة ، لأنها أثبتت للمعاصرين ـ وبخاصة البابوية ـ أنه لا يمكن طرد النورمان من ايطاليا ، هذا فى الوقت الذى حالت تقوى هؤلاء النورمان دون استغلال انتصارهم فى تتبع البابوية ومعاقبتها(١) • وفى ذلك الوقت بالذات كانت البابوية فى حاجة الى حليف قوى ، بعد أن أخذت تحس خطر الأباطرة الألمان على كيانها وتطمع فى التحرر من سيطرتهم، مما جعلها تغير نظرتها تجاه النورمان وتفكر فى اتخاذهم حلفاء لها يساعدونها فى تحقيق استقلالها والتخلص من خطر الأباطرة من جهة ونبلاء روما من جهة أخرى • وأخيرا تمت هذه الصفقة السياسية بين البابوية والنورمان على عهد البابا نقولا الثانى (١٠٥٨ ـ ١٠٦١) وتحت تأثير ووساطة الكاردينال هلدبراند(٤)،الذى ذهب بنفسه سنة١٠٥٩ الى كابوا ومهدللاتفاق النهائى الذى أبرم فى ملفى Melfi ، والذى اعترفت فيه البابوية بشرعية حكم النورمان لجنوب ايطاليا مقابل اعترافهم بالتبعية للبابا ودفع مبلغ معين من المـال له سنويا(٥) •

ولا شك فى أن هذه الخطوة الحاسمة كان لها أثر خطير فى تاريخ أوربا

---

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 203
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 403.
(3) Eyre: op. cit. p. 130.
(4) Tout: The Empire and the Papacy. p. 114.
(5) Haskins: the Normans in European History, p. 204.


النورمان في صقلية
وجنوب إيطاليا
دوقية
سبوليتو
دولة البابوية
رومة
كامبانيا
بنفنتو
نابلي
سالرنو
دوقية أبوليا
باري
برنديزي
تارنتو
كالبريا
باليرمو
صقلية
إتنا
قطانية
سيراكوز
(سرقوسة)

العصور الوسطى . ذلك أن قيام دوقية أبوليا النورمانية كان الخطوة الأولى نحو قيام مملكة نابولى ، ونشأ من ذلك أن هذه الخطوة أدت الى فصل جنوب ايطاليا عن شمالها مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ ايطاليا . هذا الى أن اتفاقية ملفى هيأت للبابوية حليفا قويا فى الجنوب ، اتجهت اليه عندما تأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية نتيجة لحركة الاصلاح الواسعة التى شرعت البابوية فى النهوض بها(١) . وسرعان ما أثبتت الأحداث أن مملكة النورمان التى قامت فى جنوب ايطاليا أثرت تأثيرا خطيرا فى تاريخ ايطاليا بوجه عام والبابوية بوجه خاص . ولم يلبث الكاردينال هلد براند نفسه - عندما أصبح بابا تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ - أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا جميع الجزء الجنوبى من ايطاليا ، سواء الممتلكات البيزنطية أو امارة بنفنتو التابعة للبابوية . لذلك أدرك جريجورى السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأملاك البابوية وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليم كونت برجنديا(٢) . على أن محاولات هذا البابا - المعروف بالعنف والصرامة - لم تفلح فى وقف التوسع النورمانى اذ لم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو وأمالفى(٣) . ثم شاءت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجورى السابع فى صراعه العنيف ضد الامبراطورية ، مما جعله يتلهف على مساعدة النورمان ، فأقر جويسكارد سنة ١٠٨٠ على ما بيده من أراضى مقابل قيام الأخير بحماية البابوية من خطر الامبراطور(٤) .

وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلا وقدم لها بعض المساعدات ، ولكن ذلك لم يصرفه عن التوسع فى جنوب ايطاليا حيث كان أخوه الأصغر يعمل منذ سنة ١٠٦١ حتى تم استيلاء النورمان على بارى سنة ١٠٧١ بعد

---

(1) Eyre: op. cit. p. 138.
(2) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 303—304.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 179.
(4) Orton: op. cit. p. 189.

حصار ثلاث سنوات ، وبذلك تم طرد البيزنطيين نهائيا من ايطاليا(١) ، وأصبحت الخطوة التالية أمام النورمان هي الاستيلاء على جزيرة صقلية وانتزاعها من المسلمين • وأخيرا توفى روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ قبل أن يحقق بقية أطماعه الواسعة في الشرق ، وفي الدولة البيزنطية نفسها ، وان كان يكفيه أنه ثبت أقدام النورمان في جنوب ايطاليا(٢) • وبوفاة روبرت جويسكارد انتهت فترة الغزو النورماني في جنوب ايطاليا ، وهي الفترة التي استمرت نصف قرن ، وبدأ دور آخر – استمر نصف قرن أيضا ـ استحكم فيـــه النزاع الداخلي بين النورمان أنفسهم ، حتى استطاع روجر الثاني توحيد جميع الأراضي التي فتحها النورمان واتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠(٣) • وهكذا قامت مملكة الصقليتين ــ التي شملت جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية ــ والتي غدت من أبرز ممالك غرب أوربا وأرفعها حضارة في العصور الوسطى ، وذلك بحكم مركزها المتوسط بين الشرق والغرب •

شمال ايطاليا ووسطها في القرن الحادي عشر :

هذا عن جنوب ايطاليا ، أما شمالها فقد تعرض منذ القرن الحادي عشر لتطورات اقتصادية وسياسية أدت الى نشأة ما يعرف باسم القومونات ــ أو المدن ذات الكيان الاقتصادي والسياسي المستقل(٤) • ففي بداية القرن الحادي عشر ظهرت البندقية في صورة جمهورية مستقلة لها دوقها الذي ينتخبه نبلاؤها ولها نفوذها السياسي وكيانها الاقتصادي الخاص(٥) • وفي خلال ذلك القرن أيضا ظهرت جنوا وبيزا كقوى مستقلة أخذت تسهم في الحروب الصليبية منذ

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 117.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 182.
(3) Haskins: The Normans in European History, pp. 206—218—219.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 220.
عن نشأة القومونات وأهميتها ، أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب •
(5) Stephenson: Med. Hist. pp. 320—321.

نهاية القرن الحادى عشر اسهاما فعليا • ولم تلبث هذه الحركة - حركة استقلال المدن وتحررها - أن امتدت الى سهول لمارديا واقليم تسكانيا حيث حصل كثير من المدن على حقها فى الحكم الذاتى • ومن أمثلة هذه المدن Siena وفلورنسا ولوكا وميلان وبافيا وبرسكيا وبولونيا(١) • وسوف نتكلم عن أهمية نشأة المدن وظهور القومونات فيما بعد فى باب مستقل ، ولكن الذى يعنينا الآن بالنسبة لتاريخ ايطاليا هو أن هذه المدن أو القومونات أظهرت حرصا شديدا فى التمسك باستقلالها السياسى ، فأخذت تقاوم كل سلطة أو هيئة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال سواء كانت هذه السلطة دينية بابوية أو سياسية امبراطورية ، مما جعلها تلعب دورا هاما فى تاريخ ايطاليا السياسى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وبخاصة فى حوادث النزاع بين البابوية والامبراطورية(٢) • هذا فضلا عن الدور الهام الذى قامت به فى الميدان الحضارى بوجه عام وفى الجانبين الاقتصادى والفكرى بوجه خاص ، مما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد(٣) •

أما وسط ايطاليا فقد وجدت به بعد الغزو اللمباردى بعض الدوقيات المستقلة وأهمها دوقية تسكانيا • ولا تهمنا بقية تلك الدوقيات كثيرا ، لسرعة ما طرأ على وضعها السياسى من تغيير وتبديل طوال العصور الوسطى • على أن أهم قوة وجدت فى ذلك الجزء كانت بدون شك قوة البابوية ، التى لم تستمد أهميتها التاريخية من أثرها الروحى وزعامتها للكنيسة الغربية فحسب ، بل أيضا من الدور السياسى الذى أخذت تقوم به فى عناد واصرار لتجعل زعامتها على العالم الغربى حقيقة واقعة(٤) • وهنا نلاحظ أن البابوية لم تستطع أن تحقق أطماعها فى الزعامة والسمو الا بعد أن مرت الكنيسة الغربية بوجه عام بدور من الاصلاح والتطور ، الأمر الذى مكن البابوية من الوقوف على

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 481—482.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 222—228.
(3) Pirenne, Cohen, Focillon: La Civilisation Occidentale au Moyen Ages, pp. 146—153.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. pp. 55—58.

رأس الكنيسة فى وجه القوى المعارضة حتى خرجت فى النهـــاية مرفوعة الرأس .

البابوية والكنيسة الغربية :

امتاز تطور الكنيسة ونموها فى العصور الوسطى بظاهرتين أساســـيتين ، الأولى ازدياد سيطرة البابا على رجال الأكليروس والثانية ازدياد تدخل هؤلاء الآخرين فى الشئون العلمانية . وقد رأينا كيف قام شارلمان بتنظيم الكنيسة ضمن نواحى الاصلاح الأخرى التى تعهدها بعنايته وذلك بوصفه رائدا أو زعيما للشعب المسيحى (Rector Populi Christiani) (١) . ولكن اضمحلال امبراطورية شارلمـان حرم البابوية من حليفها القوى وتركهـــا وحيدة فى الميدان وسط مظاهر الفوضى الشاملة والأخطار الخارجية التى تعرضت لهـــا منذ منتصف القرن التاسع . ولم يقتصر هذا التدهور على البابوية وحدها ، بل امتد الى بقية الجهاز الكنسى حتى اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام فى الفترة الواقعة بين القرن التاسع ونهاية الحادى عشر(٢) . فالبابا غدا أقرب الى أن يكون نبيلا رومانيا لا سلطان له على كنائس بلدان غرب أوروبا المتعددة فى فرنسا وألمـانيا وايطاليا وانجلترا وأسبانيا وغيرها ، وهى الكنائس التى تباين مدى استقلالها عن السلطة الزمنية أو تبعيتها لها(٣) . أما الأساقفة فكان لهم فى البابوات أسوة سيئة ، وسرعان ما أصبحوا من رجال الاقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات ، بل ان وظائفهم نفسها غدت اقطاعية ، كما أدى زواجهم الى انصرافهم نحو جمع الثروة ليورثوها أبناءهم(٤) . وهكذا خرج الأساقفة عن دائرة اختصاصهم الدينى الى المشاركة فى الحروب وعقد المجالس القضائية

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 188.
(2) Eyre: op. cit. pp. 124—125.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 454.
(4) Idem: Vol. 5, pp. 5—6.

وجمع الضرائب والمكوس الاقطاعية ، لا داخل أراضيهم الخاصة فحسب ، بل فى أراضى النبلاء المجاورين أيضا(١) • وبعبارة أخرى فان كبار رجال الدين — من أساقفة ومقدمى أديرة — غدوا أفصالا اقطاعيين للملوك وكبار الأمراء ، يؤدون لهم ما جرى عليه العرف الاقطاعى من خدمات والتزامات معروفة(٢) •

على أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يسكت عنه المخلصون من رجال الدين ، لاسيما بعد أن رسم القديس أوغسطين فى القرن الخامس الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية ، وقال بأن الأولى قامت على أساس من الشر والغدر لأنها من صنع البشر ، لذلك يجب أن تخضع لسلطة الكنيسة ، وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رسالته(٣) • والواقع أن الكنيسة لم تنس حقوقها فى السمو على السلطة الزمنية ، وهى الحقوق التى سبق أن أوضحها القديس أوغسطين • وكل ما هنالك هو أن شارلمان نظر دائما الى الامبراطورية نظرة دينية ، واعتقد أن وجود دولة قوية وكنيسة قوية فى قبضته من شأنه أن يحقق نوعا من الوحدة بين بلاد الامبراطورية المختلفة وشعوبها المتباينة(٤) • وما دامت الكنيسة قد رضيت بأن يقوم شارلمان بدور حامى حماها ، المدافع عن كيانها ، فان عليها أن تقبل — وهى صاغرة — تدخله فى كافة شئونها الدينية دون أن تجرؤ على المطالبة بوضع حدود فاصلة بين السلطتين الدينية والعلمانية(٥) • وهكذا ظلت الكنيسة راضية بالأوضاع القائمة ، تخفى رغبتها فى التحرر والسيادة طالما كانت فى قبضة شارلمان القوية • هذا وان استمرت نظرة القديس أوغسطين ماثلة دائما فى أفكار ذوى الطموح من رجال الكنيسة •

على أن وفاة شارلمان وزوال قبضته القوية عن الكنيسة جعلتها تعمل على

---

(1) Eyre: op. cit. p. 125.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 125.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 413—414.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 443.
(5) Eyre: op. cit. p. 120.

تحرير نفسها بسرعة من سيطرة السلطة الزمنية ، كما أخذت البابوية تعمل على ابراز أهميتها وتحقيق سموها • من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (الخامس) (٨١٦ – ٨١٧) من انكار شرعية تتويج لويس التقى فى حياة أبيه ، وقيامه بتتويجه مرة أخرى بيده فى ريمس سنة ٨١٦ تأكيدا لحق البابوية فى منح التاج الامبراطورى(١) • ثم جاءت ثورة ابنى لويس التقى ضده سنة ٨٣٣ لتهيىء فرصة للبابا جريجورى الرابع يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما • ذلك أنه حدث عندما طلب بعض الأسقافة المشايعين للامبراطور لويس التقى من البابا الخضوع لأوامر الامبراطور بصفته الرئيس الأعلى للامبراطورية والكنيسة جميعا ، رد عليهم جريجورى الرابع بأنه بصفته بابا لا يعتبر أخا لبقية الأساقفة وانما أبا لهم ، يقدمون له فروض الولاء والطاعة(٢) • كذلك اختار جريجورى الرابع أن يؤكد لهم أن أوامره وآراءه ليست أقل قدسية من الأوامر الامبراطورية « لأن يجب ألا تنسوا أن الحكومة الروحية التى يهيمن عليها البابا أعلى قدرا من السلطة الامبراطورية التى لا تعدو أن تكون زمنية ومؤقتة(٣) » • وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٨٥٨ – ٨٦٧) الذى تمسك فى آرائه ومسلكه تجاه الامبراطور بمبدأ سمو البابوية على الامبراطورية(٤) ، وهو المبدأ الذى ظلت البابوية تجاهد فى سبيل تحقيقه منذ عهد جريجورى العظيم حتى عهد بونيفيس الثلمن(٥) • هذا الى أن نيقولا الأول لم يشأ أن يعترف بأن الامبراطور البيزنطى امبراطور رومانى « لأن الامبراطورية الرومانية لا توجد الا حيث يريد البابا » • وفى ضوء هذه الآراء جميعا يبدو لنا نيقولا الأول فى خطابه لمعاصريه من الحكام العلمانيين فى صورة السيد الآمر الذى تجب طاعته « لأن الحاكم الذى لا يطيع أوامر

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 134—144.
(2) Idem, pp. 168—169.
(3) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 115.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 452.
(5) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 125.

الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعتبر عاصيا ويستحق اللعنة والحرمان(١) ».
ثم جاء تتويج شارلمال الثانى أو الأصلع امبراطورا بيد البابا حنا الثامن سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الامبراطور صنيع البابوية وربيبها ، وأن البابا عندما توج شارل امبراطورا انما عبر عن ارادة الله والمسيح فى التفضل عليه بهذا التشريف ، « ومنحه » التاج الامبراطورى(٢) .

على أنه اذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التى عمت أوربا فى القرن التاسع للتحرر من سلطان الدولة ليكون لها كيان خاص مستقل ، الا أن الفصل بين الكنيسة والدولة بدا أمرا غير عملى فى ظل النظام الاقطاعى . هذا فى الوقت الذى لم تجد البابوية أمامها سابقة تستند اليها فى تأكيد سيادتها على الملوك من جهة وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى . وهنا لجأ رجال الكنيسة الى التزييف والتزوير لاختلاق سوابق تستند اليها البابوية فى تحقيق أهدافها . وثمة وثيقتان زيفهما رجال الكنيسة لتحقيق أغراضهم ومبادئهم ، أما الوثيقة الأولى فتسمى « هبة قسطنطين Donation of Constantine » والغرض منها اثبات سلطة البابوية الزمنية وسيادتها على الغرب الأوربى . وهذه الوثيقة المزورة عبارة عن مرسوم قيل ان الامبراطور قسطنطين أصدره عندما أنشأ روما الجديدة (القسطنطينية) وتنازل بمقتضاه للبابوية عن روما القديمة ، بل عن كل أراضى الامبراطورية الغربية(٣) . ويبدو أن هذه الوثيقة زورت فى القرن الثامن بعد أن منح بيبين الأول (القصير) البابا سلطة زمنية فى أراضى ايطاليا سنة ٧٥٥ ، فأراد رجال الكنيسة عندئذ أن يحيطوا هبة بيبين هذه بجو من الشرعية التقليدية التى تثبت أن حق البابوية فى مباشرة السلطة الزمنية قديم يرجع الى أيام قسطنطين نفسه(٤) . ومهما يكن من أمر فقد استمرت البابوية تعتمد على هذه الوثيقة المزورة

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 202—203.

(2) Idem: pp. 161 — 162.

(3) Eyre: op. cit. p. 122.

(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 58 — 60.

وتتخذها أساسا لسلطانها الزمنى حتى كشف عن تزويرها حوالى سنة ١٤٣٩ ، أى فى عصر النهضة الايطالية .

أما الوثيقة الثانية فظهرت حوالى ٨٥٠ - ٨٥٧ واسمها الأحكام البابوية المزورة Forged Decretals وهى تنسب الى شخص غامض اسمه ايسيدور، وان كان لا يمكن القول برأى قاطع فى حقيقة نشأتها(١) . وكل ما هناك هو أنه يبدو أنها وضعت فى ريمز أو مينز ، ثم أحكمت آياتها بعد ذلك فى روما . وكان الهدف الأساسى من وضعها خدمة مصالح الأساقفة المحليين من جهة والبابوية من جهة أخرى(٢) ، لأنها ترمى الى اضعاف سيطرة رؤساء الأساقفة وفى الوقت نفسه تعمل على اعلاء شأن البابوية وتضخيم نفوذها(٣) .

وهكذا أخذت هذه المبادىء تسود الدوائر الكنسية فى غرب أوربا منذ النصف الثانى من القرن التاسع ، فأخذ الأساقفة يتجاهلون رؤساءهم ويلجئون الى البابوية لانصافهم ، كما تدخل البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) فى شئون كنيسة اللورين ، مستندا الى بعض الأحكام المزورة السابقة ، فأصر على حقوق البابوية فى اصدار التعليمات والأوامر الى مختلف الكنائس المحلية(٤). على أنه من الملاحظ أن الفترة الواقعة بين وفاة نيقولا الأول سنة ٨٦٧ وتتويج أوتو الأول امبراطورا سنة ٩٦٢ ، كانت من أحلك السنوات فى تاريخ غرب أوربا من النواحى السياسية والكنسية جميعا . فبالاضافة الى اضمحلال امبراطورية شارلمان وتفككها ، شهدت هذه الفترة أيضا تدهور البابوية والكنيسة الغربية بوجه عام(٥) . حقيقة ان الكنائس المحلية فى مختلف بلاد غرب أوربا ظلت تنظر الى البابا على أنه زعيمها الروحى ، ولكن نفوذ البابوية على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسميا . فكثير من البابوات فى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيها فعليا رشيدا ، ولم يفكروا فى دعوة مجامع دينية عامة ، وتركوا مهمة هذا

---

(1) Bryce : op. cit. p. 153.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 448.
(3) Oman: The Dark Ages, p. 456.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 421—422.
(5) Eyre: op. cit. pp. 123—124.

التوجيه ودعوة المجامع الى الملوك فى كل بلد من البلدان حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم على الكنيسة فى بلادهم ، مما أدى الى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها فى غرب أوربا • ومن الواضح أن سيطرة الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط الى تفكك الكنيسة فى تلك الحقبة ، وانما أدت أيضا الى انحطاط المستوى الخلقى لرجال الدين لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم ، مما أدى الى وصول بعض ضعاف النفوس الى أرفع المناصب الكنسية(١) •

حركة الاصلاح الكلونية :

ولم يلبث هذا الفساد الذى عم الكنيسة فى القرنين التاسع والعاشر أن أدى الى ايقاظ بعض الضمائر التى أفزعها ما آل اليه أمر الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوربا(٢) • وكان أن انبعثت الدعوة الى الاصلاح فى النصف الأول من القرن العاشر فى منطقة اللورين حول متزوليبج ، حيث كانت الحياة الديرية قوية وسليمة • وهناك بدأ أحد المصلحين ـ واسمه جيرارد ـ تلك الحركة بتأسيس كنيسة قرب نامور سنة ٩١٤ ، ثم ألحق بها ديرا بعد قليل • وسرعان ما سارت تلك الحركة الاصلاحية فى اللورين سيرا طيبا فنادى المصلحون بالعودة الى تعاليم السلف الصالح وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية • ولكن تلك الحركة الاصلاحية ظلت محلية الطابع ، اذ استمر أنصار الفساد خارج المنطقة أقوى نفوذا ، فقاوم كثير من رجال الدين تلك الدعوة بعد أن ألفوا حياة الضعف والانحلال ، وبذلك حالوا دون انتشارها والافادة منها(٣) • ومهما يكن من أمر فان هذه الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى اقليم اللورين لم تكن الوحيدة من نوعها ، اذ عاصرتها دعوة أخرى

---

(1) Idem: p. 126.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 128.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 128—131.

للاصلاح انبعثت فى حوض الرون الأعلى حيث أسس وليم التقي دوق اكوتين ديرا جديدا فى كلوني سنة ٩١٠(١) •

وقد روعى فى نظام هذا الدير تجنب الأخطاء والمفاسد التى ترددت فيها بقية الأديرة المعاصرة ، ليصبح رأسا لحركة اصلاحية ديرية شاملة • من ذلك أن دير كلونى لم يقبل أرضا من أمير اقطاعى أو حاكم مقابل خدمات أو ارتباطات اقطاعية مع ذلك الأمير أو الحاكم • وهكذا جاءت جميع المنح التى تلقاها دير كلونى - من أراض وغيرها - حرة غير مشروطة ، ولا يتقاضى صاحبها عنها سوى حسن الثواب من الله والدعوات الطيبات من أهل الدير • واذا كان نظام الأديرة البندكتية قد تطلب من الديريين القيام بقسط كبير من العمل اليدوى فى الحقول الا أنه لوحظ عدم تطبيق هذا المبدأ بصورة تكفل تحقيق الغرض المنشود ، لأن معظم الأراضى التى كانت تمنح للأديرة عليها أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها ، الأمر الذى وفر على الديريين عناء العمل فى الحقول من جهة وأوجد فراغا كبيرا فى حياتهم من جهة أخرى • ولسد هذا الفراغ وتلافى أخطار البطالة روعى فى نظام كلونى مضاعفة الساعات اليومية المخصصة للصلاة والعبادة(٢) •

وقد قام نظام الأديرة الكلونية على أساس الطاعة المطلقة والتفانى فى خدمة المجموع ، فالفرد لا شيء والمجموع هو كل شيء • كذلك أدرك زعماء الحركة الكلونية أن الأمراض الخطيرة التى تعرضت لها الكنيسة حينئذ انما جاءت وليدة ارتباط الكنيسة بالدولة ، ولذلك وجدوا فى الفصل بين السلطتين العلاج الوحيد الشافى من تلك الأمراض(٣) • ولعل هذا هو السبب فى حرصهم على أن يكون نظامهم الديرى تابعا للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين اشراف على الأديرة الكلونية التى تقع فى مناطق

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 661.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 128-129.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 99.

نفوذهم(١) . وهكذا أصبحت الأديرة الكلونية تخضع لاشراف مركزى شديد ، اذ لا يوجد لها سوى مقدم واحد فى الدير الرئيسى بكلونى هو المسئول الأول عن بقية الأديرة الكلونية التى يشرف عليها رؤساء لا يتمتعون باستقلال كبير فى أديرتهم ويخضعون خضوعا مباشرا للمقدم العام فى كلونى ، الذى له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذى يخضع بدوره للبابا خضوعا مباشرا(٢) . وسرعان ما اشتهر دير كلونى فانتشر هذا النظام الديرى فى غرب أوربا انتشارا واسعا فى سرعة فائقة ، حتى أن كثيرا من الأديرة البندكتية المعروفة فى فرنسا وألمانيا تقبلت النظام الكلونى ودخلت تحت رئاسته . هذا زيادة على الأديرة الأخرى التى اختارت أن تحتفظ باستقلالها ولكنها تأثرت فى نظمها بمبادىء الاصلاح الكلونية(٣) . والذى يهمنا الآن من أمر هذه الحركة أنها لم تلبث أن تطورت واتسع أفقها ، فبعد أن كانت تستهدف فى أول أمرها اصلاح الحياة الديرية وحدها ، اذا بها فى القرن الحادى عشر تسعى نحو اصلاح الكنيسة اصلاحا شاملا ، معتمدة فى ذلك على ما أصبح للأديرة الكلونية ورجالها من قوة وعظمة ونفوذ واسع منذ منتصف القرن الحادى عشر . حقيقة أن الدعوة الكلونية تعرضت لمعارضة قوية من كثير من الأساقفة ، بل من بعض المؤسسات الديرية الأخرى التى ألف أهلها حياة الفساد ، ولكن حركة الاصلاح الكلونية استطاعت أن تستمر فى طريقها السوى دون أن توقفها هذه المعارضة(٤) .

وكانت الكنيسة تعانى عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة ، هى السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى . أما السيمونية فالمقصود بها شراء الوظائف

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 664.

(2) Eyre: op. cit. p. 127.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 662.

(4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 427.

الدينية بالمـال(١) ، وهو داء فشا فشوا خطيرا بين رجال الدين حتى توصل كثير من المجرحين وغير الصالحين الى المناصب الدينية الكبرى عن طريق المـال ، مما أضعف الكنيسة وشوه سمعتها(٢) . ذلك أن ما تمتعت به الأديرة والأسقفيات من ثروة طائلة وأراض واسعة ، جعلها موضع أنظار الطامعين الذين لم يضنوا بتقديم الأموال الكثيرة الى الحكام العلمانيين أو كبار الأساقفة ليعينوهم رؤساء على تلك الأديرة والأسقفيات(٣) . وقد حاول البابا جريجورى السادس (١٠٤٥ - ١٠٤٦) وكذلك البابا ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) مكافحة السيمونية ، وشجعهما فى جهودهما الامبراطور هنرى الثالث ، حتى تم عزل كثير من رجال الدين الذين اشتروا مناصبهم بالمـــال(٤) . هذا الى أن المجامع الدينية التى عقدت سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٠ أصدرت قـــرارات مشددة ضد السيمونية والاتجار فى المناصب الدينية(٥) .

أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الأساقفة ظلوا عـــزابا ، فى حين أقبل على الزواج معظم القساوسة وصغار رجال الدين(٦) . والواقع أنه لم يوجد قانون كنسى يفرض حياة العزوبة على رجال الكنيسة ، وان وجدت بعض تشريعات فى أوائل العصر المسيحى تؤيد مبدأ العزوبة(٧)،وهى تشريعات لم يمكن تنفيذها فى سهولة على الرغم من جهود البابا جريجورى العظيم فى سبيل تطبيقها(٨) . وهكذا ظلت الكنيسة ترى ضرورة الزام رجال الاكليروس

---

(١) تنسب السيمونية الى سيمون الساحر الذى ورد عنه فى العهد الجديد « ولمـا رأى سيمون أنه بوضع أيدى الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم ، قائلا أعطيانى أنا أيضا هذا السلطان حتى أى من وضعت عليـــه يدى يقبل الروح القدس ، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم » . (سفر أعمال الرسل ، الاصحاح الثامن ، ١٨ - ٢٠) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 10.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 122.
(4) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 147.
(5) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 343—344.

(٦) نلفت نظر القارىء الى أننا عالجنا موضوع زواج رجال الكنيسة بشىء من التفصـــيل فى البـاب الخاص بالنظم الدينية فى الجـــزء الثانى من هذا الكتاب .

(7) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 11—12.
(8) Eyre: op. cit. pp. 215—216.

بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة ، لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تطهر النفس زيادة على تدعيم النظام الكنسى نفسه(١) • والمعروف أن الاتجاه السائد منذ القرن العاشر كان يميل الى توريث الوظائف الاقطاعية ، مما أدى بدوره الى اتجاه رجال الدين المتزوجين نحو توريث وظائفهم الدينية لأبنائهم ، الأمر الذى يجعل منهم طبقة وراثية وينزل أبلغ الضرر بالنظام الكنسى • وعلى ذلك فالكنيسة كانت تقر مبدأ الزواج كتشريع دينى لحفظ السلالة البشرية ولكنها عارضت فى زواج رجال الدين حفظا لكيانها ونظامها • وقد ظهرت هذه المعارضة فى القرارات التى أصدرتها مجامع روما الدينية سنة ١٠٥٠ ، وسنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٣ ، والتى حرمت على عامة الناس التعامل مع القساوسة المتزوجين(٢) •

على أنه اذا كانت المسائل المتعلقة بالسيمونية وزواج رجال الدين تعتبر من المشاكل الداخلية بالنسبة للكنيسة ، فان مسألة التقليد العلمانى اختلفت عنها فى كونها تتصل اتصالا مباشرا بسلطة الحكام العلمانيين • والمقصود بالتقليد العلمانى هو أن يقوم الحكام العلمانيون — من أباطرة وملوك وأمراء — بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية • والمعروف أن القانون الكنسى نص منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة بوساطة أساقفتهم ، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأسقفية بانتخاب الأسقف ، وأخيرا يعتمد كبير كبار الأساقفة — وهو البابا — هذا الاختيار • ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام ، فأصبح أصحاب الأراضى من الاقطاعيين يقومون بتعيين القساوسة ، فى حين تولى الأباطرة والملوك والدوقات تعيين الأساقفة ، فيكفى أن يسلم أحدهم خاتم الأسقفية وعكازها الى أحد الأفراد ويقول له « تسلم أسقفية كذا » حتى يصبح أسقفا على تلك الأسقفية(٣) •

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. p. 428.
(2) Eyre: op. cit. p. 216.
(3) Orton: op. cit. pp. 166—167.

ومن الواضح أن هذا الوضع أفاد الدولة سياسيا ، اذ جعل كبار رجال الدين تابعين للحكام العلمانيين وجعل الوظائف الدينية بمثابة اقطاعات يمنحها هؤلاء الحكام لرجال الدين ، ولذلك تمسك أباطرة الدولة المقدسة ــ بوجه خاص ــ بهذا الحق ، واعتبروا تخليهم عنه خسارة كبرى تحيق بسلطانهم السياسي(١) ولكن الكنيسة هي التي خسرت خسرانا مبينا من جراء هذا الوضع الشاذ الذي أدي الى تفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البابوية ، بعد أن أصبح الأساقفة أذنابا للملك أو الامبراطور يعينهم لخدمته وتحقيق أغراضه ، لا لخدمة الكنيسة وتحقيق أغراضها • فالكنيسة كانت تريد من رجالها أن يخضعوا للبابوية وحدها وينصرفوا لخدمة وظائفهم الدينية ، في حين أراد الحكام العلمانيون أن يسيطروا على رجال الدين سيطرة اقطاعية وأن يتحكموا في تعيينهم حتى يكونوا أداة في أيديهم ، ولا سيما أن رجال الكنيسة كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة ــ التي تستطيع القراءة والكتابة ــ ومن ثم اشتدت حاجة الحكام العلمانيين اليهم في الشئون الادارية(٢) •

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى تدخل الملوك والأمراء في اختيار البابوات أنفسهم ، فأخذ أمراء روما يسيطرون على البابوية ــ وبوجه خاص بعد وفاة بندكت الثامن سنة ١٠١٤ ــ واختاروا لهذا المنصب الخطير من يحقق أغراضهم ، حتى ولو كان من غير رجال الدين ، مما جعل كثيرا من البابوات يستنجدون بالأباطرة الألمان كما سبق أن رأينا(٣) • ولكن قيام الأباطرة الألمان بحماية البابوية جعل هذه الأخيرة صنيعة لهم ، مما ساء الكرادلة المصلحين ، فانتهزوا فرصة وفاة الامبراطور هنري الثالث سنة ١٠٥٦ عن طفل صغير ــ هو هنري الرابع ــ واختاروا البابا ستفن التاسع عقب وفاة

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 237
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 132.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. [illegible] pp. 140-15[illegible]

البابا فكتور الثاني سنة ١٠٥٧ (١) • ويبدو أن هذا الاختيار لم يرق فى عيون أمراء روما فطردوا البابا ستفن التاسع وعينو البابا بندكت العاشر ، وعندئذ تمسك الكرادلة برأيهم ورفضوا الاعتراف بالبابا الجديد حتى تم عزله هو الآخر • ولوضع حد لهذه الفوضى دعا البابا نيقولا الثانى مجمعا دينيا فى روما سنة ١٠٥٩ لتنظيم اختيار البابا وانقاذ البابوية من الهوة التى غرقت فيها • وكان أن قرر هذا المجمع أن يتولى الكرادلة وحدهم - وهم أساقفة روما وضواحيها السبع - انتخاب البابا ، على أن يستدعى الناس ورجال الاكليروس بعد ذلك لمجرد الموافقة على هذا الاختيار (١) • هذا فضلا عن أنه تقرر ضرورة اختيار البابا من بين رجال الاكليروس فى روما نفسها ، الا فى حالة عدم توافر المؤهلات والشروط اللازمة للمنصب البابوى فى أحدهم ، فاذا تعذر لأى سبب اجراء عملية انتخاب البابا فى روما فانه يجوز اجراء هذه العملية فى أى مكان آخر (٣) • وبذلك استطاعت البابوية أن تتحرر من نفوذ نبلاء روما وسيطرة الأباطرة جميعا ، فضلا عن أن اختيار البابا أصبح انتخابيا فى هيئة مختارة من صفوة رجال الكنيسة • لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن هذا الاجراء كان الخطوة الأولى فى سبيل اقامة حكومة مركزية فى الكنيسة تستطيع أن تباشر الاصلاح الكنسى بوجه عام (٤) •

ومن الشخصيات البارزة التى ظهرت فى ذلك المجمع الدينى الكاردينال هلدبراند ، الذى رأى بثاقب بصره اقناع أعضاء المجمع بعدم المساس بحقوق الامبراطور القائم وهو هنرى الرابع ، على أن يحرم خلفاؤه من أى حق فى اختيار البابوات • ولم تلبث شهرة هلدبراند ومكانته أن أدت الى المناداة به بالاجماع لتولى منصب البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم جريجورى السابع ،

---

(1) Hayward: op. cit. p. 153.

(2) Bryce : op. cit. p. 155.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 37.

(4) Eyre: op. cit. p. 134.

وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البابوية بل فى تاريخ الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى (١) .

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) :

والواقع أن البابا جريجورى السابع لم يكن مجددا أو مبتكرا ولم يسهم الا بقسط ضئيل فى نظرية السمو البابوى ، لأن هذه النظرية قديمة ترجع الى أيام جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤) . بل ان البابا جلاسيوس الأول (٤٩٢ - ٤٩٦) حاول أن يطبق هذه الآراء الخاصة بسمو البابوية فى علاقته مع الامبراطور أنسطسيوس (٢) . ولكن اذا كانت نظرية السمو البابوى فى ذاتها ليست وليدة أفكار جريجورى السابع الا أن من حقه أن يفخر بأنه أول من طبق هذه النظرية فى اصرار وعناد (٣) . ذلك أنه كان يقدر ضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها حتى قال « اننى لا أقبل البقاء فى روما يوما واحدا اذا أدركت أننى عديم الجدوى للكنيسة » .

وكان أن عقد جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ لمعالجة مشاكل الكنيسة فى ذلك الوقت وهى - كما سبق - السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى (٤) . وقد أصدر هذا المجمع عدة قرارات تقضى بفصل كل من توصل الى منصب فى الكنيسة عن طريق الشراء ، وأن لا يسمح فى المستقبل بشراء الحقوق الكنسية وبيعها . كذلك تقرر فصل كل عضو فى الكنيسة اتهم بالتبذل والاستسلام لشهواته . أما عن زواج رجال الدين فقد دعا جريجورى السابع الجمهور المسيحى الى عدم التعاون مع أى قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بسنة الرسل وتعاليم البابوية ، كما

---

(1) Byrce: op. cit. p. 155.
(2) Idem, p. 158.
(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 271.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 61.

منع القساوسة المتزوجين من الوعظ فى الكنائس وحرم على الناس الاستماع اليهم (١) •

على أنه اذا كان جريجورى السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية فى الكنيسة ، فانه كان من المتعذر عليه مكافحة مبدأ التقليد العلمانى دون الاصطدام بالحكام العلمانيين ، وعلى رأسهم امبراطور الدولة الرومانية المقدسة صاحب النفوذ السياسى الواسع فى ألمانيا وايطاليا • وتتضح لنا نظرة جريجورى السابع الى الحكام العلمانيين ومكانتهم من رجال الدين فى عبارته الشهيرة « ان قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، ان البابا سيد الأباطرة لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس » • آما خير مايلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحى العالمى ، فهى المجموعة التى تنسب الى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل (حوالى سنة ١٠٨٧) • وتعرف هذه المجموعة باسم الارادة البابوية أو الأوامر البابوية (Dictatus Papae) وأهم موادها (٣) : ـ

ـ البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية •

ـ البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم •

ـ جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده •

ـ للبابا الحق فى عزل الأباطرة •

ـ لا يجوز عقد أي مجمع دينى عام الا بأمر البابا •

ـ ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس •

---

(1) Eyre: op. cit. p. 135.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 439—400.

ـ لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته •

ـ للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وايمان الولاء التى أقسموها لحاكمهم •

وهكذا يبدو من الآراء السابقة أن جريجورى السابع آمن ايمانا قويا بأن البابا له السلطة العليا فى حكم المجتمع المسيحى Societas Christiani وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائبا عن القديس بطرس • فاذا امتنع حاكم علمانى عن تنفيذ تعاليم الكنيسة فان لها أن تحاربه بالأسلحة الروحية والمادية Spiritualibus et Saeclaribus armis وبعبارة أخرى فان جريجورى السابع رأى أن الطريق الوحيد لاصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور ، هو اخضاعه للكنيسة واخضاع الكنيسة للبابوية • لذلك وجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلمانى هذا نصه :

« ان أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين ، يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس • واذا جرؤ امبراطور أو ملك أو دوق أو كونت ، أو أى شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فانه يحرم من الكنيسة فورا (٢) »

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعنى تحرير كافة رجـال الدين فى الأسقفيات والكنائس والأديرة من اشراف الملوك والأمراء فى مختلف البلاد ، كما يعنى جعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين فى العـالم

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p.281.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 367.

المسيحى الغربى ، من حيث تعيينهم فى مناصبهم والفصل فى مشاكلهم والاشراف على أعمالهم (١) .

وهكذا أخذت سياسة جريجورى السابع تنذر بصدام عنيف مع الحكام العلمانيين ، فرفض وليم الفاتح ملك انجلترا الاعتراف بسيادة البابوية والتبعية لها (٢) . فى حين لم يعبأ فيلب الأول ملك فرنسا (١٠٦٠ - ١١٠٨) بآراء البابا وطلباته واستمر فى سياسته نحو الكنيسة (٣) . أما أباطرة ألمانيا فكان من الطبيعى ألا يقبلوا قرار جريجورى السابع العنيف الذى يمس سيادتهم واشرافهم على رجال الدين فى بلادهم ، ولا سيما أن نحو نصف أراضى ألمانيا وثروتها كانت بأيدى رجال الدين من أساقفة وديريين ، فكان معنى تنفيذ قرار جريجورى السابع خروج هذه الأراضى من قبضة الامبراطور ودخولها تحت سيطرة البابا ، الأمر الذى يجعل الحكومة الامبراطورية ضربا من الشكليات أو المستحيلات (٤) .

وهكذا أوشكت البابوية أن تقع فى صدام عنيف مع السلطة الزمنية ، وهو النزاع الذى شغل أوربا طوال القرنين التاليين ، حتى أصبح تاريخها فى تلك الفترة من العصور الوسطى يدور حول محور واحد ، هو البابوية والامبراطورية (٥) .

وهنا نشير الى أن جريجورى السابع عندما شرع فى تنفيذ سياسته الاصلاحية العنيفة لم يعتمد على سلاح التشريعات والأوامر البابوية التى أصدرها فحسب ، وانما اعتمد أيضا على سلاح قوى ، هم رجال الأديرة الكلونية أو الرهبان السود ، كما أسماهم المعاصرون ، وهؤلاء كانوا قوة عظمى ساندت البابا فى سياسته واعتمد عليهم فى تنفيذها ، كما اختار منهم مندوبيه ورسله الى الزعماء العلمانيين والدينيين (٦) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 64—65.
(2) Adams: The History of England, pp. 49—50.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 80.
(4) Bryce: op. cit. p. 156.
(5) Ullmann: Madiaeval Papalism, p.
(6) Hoyward : op. cit. pp. 158.

الباب الرابع عشر

الامبراطورية والبابوية

عندما توفى هنرى الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ خلفه ابنه هنرى الرابع الذى كان عندئذ فى السادسة من عمره ، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة (١٠٥٦ - ١٠٧٢) (١) . ولا شك فى أن قيام صبى قاصر على عرش الامبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الامبراطورية وسلطانها ، فى الوقت الذى نفخت الحركة الكلونية روحا جديدة فى الكنيسة الغربية أدت الى ازدياد نفوذ البابوية التى وجدت حلفاء أقوياء لها فى النورمان بجنوب ايطاليا من جهة وفى كونتيسة تسكانيا من جهة أخرى (٢) .

ولم يكن منتظرا أن تستطيع آجنى Agnes - أم هنرى الرابع وصاحبة الوصاية عليه - الوقوف فى وجه كبار الدوقات والأمراء ، فدبر آنون - Annon - رئيس أساقفة كولونيا - مؤامرة لخطف الملك الصغير ووضعه تحت وصايته سنة ١٠٦٢ (٣) ، الأمر الذى استدعى تنحى الامبراطورة الوالدة عن الوصاية بعد ست سنوات (١٠٥٦ - ١٠٦٢) ثم تسليم مقاليد الحكم لهنرى الرابع سنة ١٠٦٥ على الرغم من أنه كان وقتئذ فى الخامسة عشر من عمره (٤) . ويبدو أن السلطة الفعلية فى الدولة أصبحت فى تلك الفترة بأيدى أدالبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن الذى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 112.
(2) Eyre: op. cit. p. 137.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 351.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 122.

كان رجلا طموحا فيسيطر على شئون الكنيسة والدولة جميعا ، واستباح أموال الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية وغير الدينية . هذا فى الوقت الذى استطاع أدالبرت أن يحتفظ لهنرى الرابع بسلطانه على الجزء الشمالى من ألمانيا (١) . على أن هذا الوضع لم يلبث أن أثار حنق الأمراء ، فعقـدوا مؤتمرا فى تريبور Tribur سنة ١٠٦٦ وخيروا الملك الصغير بين عزل أدالبرت أو ترك العرش ، فاختار الملك الحل الأول ، وان ظل أدالبرت محتفظا بنفوذه خلال فترات متقطعة (٢) . وهكذا لم يتيسر ايجاد حـل للموقف يكفل للامبراطورية شيئا من الاستقرار ، فقامت ثورة فى ثورنجيا سنة ١٠٦٩ وأخرى فى بافاريا سنة ١٠٧٠ ، كما أخذت ايطاليا تفلت تدريجيا من قبضة الامبراطورية (٣) .

وبوفاة أدالبرت سنة ١٠٧٢ يمكن القول بأن هنرى الرابع أخذ يباشر الحكم فى صورة عملية . ويبدو أنه كان قليل الثقة فى ولاء أهالى الأجزاء الشمالية من ألمانيا فاختار وزراءه المقربين من مقاطعة سوابيا الجنوبية التى ينتمى هو اليها ، وأكثر من تشييد القـلاع فى سكسونيا وثورنجيا فى الشمال (٤) ، كما حشد تلك القلاع بالجند الذين أتوا كثيرا من أعمال العبث والاعتداء على الفلاحين . ولم تلبث هذه السياسة التى انتهجها هنرى الرابع أن استثارت غضب أمراء الشمال ، فثارت سكسونيا وبافاريا سنة ١٠٧٣ ، واشترك فى هذه الثورة الأمراء ورجال الدين فضلا عن المزارعين الأحرار (٥) . وعندما نجح هنرى الرابع فى اخماد تلك الثورة سنة ١٠٧٥ صمم على حكم البلاد حكما استبداديا ، وان كان هذا الأسلوب لم يؤد الى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضاع فى ألمانيا ، وخاصة فى سكسونيا التى ظلت تتحين

---

(1) Barraclough: op. cit. pp. 93—94.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 447—448.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.
(5) Barraclough: op. cit. p. 95.

الفرص للثورة ضد الملك ، مما جعلها تلعب دورا مهما في الصراع المقبل بين هنري والبابوية (١) .

وفي ذلك الوقت كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى كرسي البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم البابا جريجوري السابع . ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا بأس البابا الجديد لما عرف عنه من شدة وصرامة ، فحرضوا هنري الرابع على الغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التي نص عليها مجمع روما الديني سنة ١٠٥٩ ، وانما أوصى البابا اسكندر الثاني باختياره خليفة له مما جعل جموع المصلين على البابا الراحل تنادي بهلدبراند بابا في كنيسة القديس بطرس بروما (٢) . ولكن هنري الرابع اختار ألا يطيع أساقفة ألمانيا فيما ذهبوا اليه ، واكتفى بأن أرسل الى روما مستفسرا عن الظروف التي أحاطت باختيار البابا الجديد . وهنا أظهر جريجوري السابع – هو الآخر – كثيرا من الاعتدال ، فأجل بقية المراسيم الخاصة بتوليه المنصب البابوي حتى تتم موافقة هنري الرابع على اختياره ، ولم تلبث أن صدرت هذه الموافقة في يونيو سنة ١٠٧٤ . وليس أدل على حسن التفاهم بين الملك هنري الرابع والبابا جريجوري السابع في تلك المرحلة من أن الأول استقبل البعثة التي أوفدها البابا الى ألمانيا سنة ١٠٧٤ بكل ترحاب ، كما وافق هنري على فصل خمسة من كبار أعوانه كان البابا اسكندر الثاني قد اتهمهم بالسيمونية وأصدر قرار الحرمان ضدهم (٣) .

على أن جريجوري السابع لم يلبث أن شرع يعالج أمراض الكنيسة في شدة وحزم . وكان أن استغل البابا فرصة الاضطرابات التي نشبت في سكسونيا وأصدر في ديسمبر سنة ١٠٧٤ قرارا بمنع جميع القساوسة المتزوجين في ألمانيا من مباشرة الطقوس الدينية في الكنائس ، مما أوجد حالة من الاستياء وعدم الاستقرار(٤) . وبعد عدة أشهر – أي في فبراير

---

(1) Eyre: op. cit. p. 137.
(2) Hayward: op. cit. pp. 156—157.
(3) Barraclough: op. cit. p. 108.
(4) Ibid.

١٠٧٥ — أصدر جريجورى السابع قراره العنيف ضد التقليد العلمانى ، كما سبق أن أشرنا ، الأمر الذى أزعج هنرى الرابع بوجه خاص وبقية ملوك الغرب بوجه عام وأثار مخاوفهم جميعا (١) • ذلك أن حرمان الملك من حق تعيين رجال الدين معناه قلب نظام الحكم فى الامبراطورية رأسا على عقب ، مما تطلب من هنرى اتخاذ موقف حازم تجاه القرار البابوى السابق • وكان أن تجمعت عدة عوامل لتساعد هنرى على الصمود فى وجه البابا ، أهمها فراغه من ثورة سكسونيا فضلا عن تأيد الأساقفة الألمان له لتخوفهم من شدة البابا الجديد وعنفه (٢) • ومهما يكن من أمر فقد أدت سياسة جريجورى السابع من ناحية وموقف هنرى الرابع من هذه السياسة من ناحية أخرى ، الى فتح باب النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى • والواقع أن هذا النزاع — الذى بدأ حول مشكلة التقليد العلمانى — له أهميته البالغة فى التاريخ ، لأنه أعمق من مجرد خلاف شكلى حول بعض المراسيم الكنسية — كما يظن البعض — وربما كان من الأصوب أن نتذكر دائما أن تقليد رجال الدين والنزاع الذى نشأ حول هذا التقليد ، لم يكن سوى محورا للحركة الاصلاحية الكنسية الكبرى ، وهى الحركة التى أكسبت ذلك العصر طابعه العام (٣) •

وقد مر النزاع بين البابوية والامبراطورية بعدة أدوار ، يحسن أن نعالج كلا منها على حدة ، مع عدم اغفال بقية التطورات التاريخية التى تعرضت لها الامبراطورية المقدسة خلال حوادث النزاع •

الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة ، وبخاصة فى شمال ايطاليا ، اذ أصر

---

(1) Bryce: op. cit. p. 156.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 128.
(3) Eyre: op. cit. p. 137.

كل من البابا والملك على أنه له وحده حق تعيين من يشغلون هذه المناصب ، وتمسك كلاهما برأيه لأنه رأى فى انتصار خصمه تحطيما للمبدأ الـــذى يسعى هو من أجل تحقيقه • فهنرى الرابع وجد فى تمسكه برأيه محافظة على حقه الذى ورثه عن أسلافه ، وأن نجاحه فى فرض رأيه أمر تتوقف عليه هيبته فى ايطاليا وغير ايطاليا من بلدان الامبراطورية ، ولذلك أسرع بتعيين اثنين من أتباعه فى أسقفيتى فرمو Formo وسبوليتو Spoleto على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلا داخل منطقة النفوذ البابوى (١)• أما جريجورى السابع فقد تمسك من جانبه بنظرية السمو البابوى بحكم أن البابا خليفة المسيح فى الأرض ووريث القديس بطرس فى الغرب ، كمـــا اعتبر نجاحه فى فرض رأيه على الامبراطور أمرا تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية فضلا عن سياسته فى الاصلاح الكنسى ، وهى السياسة التى شرع فعلا فى تنفيذها •

ثم كان أن تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنرى الرابع أسقفا جديدا لميلان - هو تدالد Tedald - سنة ١٠٧٥ ، وحينئذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع (٢) • ويبدو أن جريجورى السابع كان مستعدا عندئذ للتحدى والنزال ، فأرسل رسالة شديدة اللهجة الى هنرى الرابع فى أواخر سنة ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والثبور ان لم يخضع لرأى البابوية • وفى ذلك الوقت ثارت ثائرة الملك فعقد مجمعا فى ورمز Worms (يناير ١٠٧٦) قرر بطلان انتخاب البابا جريجورى السابع ثم عزله من منصبه (٣) • وعندما سمع جريجورى السابع بهذا القرار قابله بشىء من الهدوء ، فدعا هو الآخر مجمعا فى الفاتيكان (فبراير ١٠٧٦) قرر توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التى أقسموها له ، وبذلك بدأت الحرب سافرة بين العاهلين (٤) •

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 451.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale; Vol. 1, p. 370.
(3) Barraclough: op. cit. p. 109.
(4) Hayward: op. cit. p. 160.

ومع أن موقف الطرفين كان حرجا وصعبا ، الا أنه من الواضح أن هنرى الرابع وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة من خصمه ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثيرين من أبناء العالم المسيحى بوصفه الأب الروحى للكنيسة ، فى حين كان هنرى الرابع لا يستطيع الاعتماد حتى على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا عقوبتين : الأولى عقوبة الحرمان بوصفه مسيحيا ، والثانية عقوبة العزل بوصفه ملكا (١) • وبعبارة أخرى فان كفتى البابوية والامبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقا عند بداية النزاع ، بل طيلة الأدوار التالية التى مر بها ذلك النزاع ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد دائما على أسلحة قوية أهمها شعور المعاصرين وعواطفهم فضلا عن الأسانيد المستقاة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها ، فى حين لم يكن للامبراطور سوى سندين : أولهما القانون الرومانى الذى يمجد الامبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها ،وثانيهما الجيش الامبراطورى الذى ثبت عجزه فى أكثر من مناسبة عن اخضاع البابوية (٢) • والواقع أن هنرى الرابع لم يجد له نصيرا سوى تلك الفئة القليلة من رجال الدين الألمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السـيرة ، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سندا حقيقيا للملك • أما ذوو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعا البابوية فى موقفها المعادى للملك (٣) • وسرعان ما انتهز السكسون فرصة قرار البابا بتحرير أتباع هنرى الرابع ورعاياه من أيمانهم وتعهداتهم وثاروا ضده ثورة عنيفة ، حتى طردوا الحاميات الملكية من أراضيهم (٤) • وهكذا تلفت هنرى الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء ، اذ كانوا جميعا يخشون نزعته الاستبدادية • وكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 30E
(2) Ullmann: Medieval Papalism, p. 76.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 68.
(4) Eyre: op. cit. p. 138.

مجمعا فى تريبور Tribur (أكتوبر ١٠٧٦) قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع وانذاره باختيار ملك غيره على ألمانيا ان لم يغفر له البابا فى مدة أقصاها فبراير ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ فى أحد الأديرة محروما من جميع شعائر الملكية وحقوقها(١).

وكان أن انسحب هنرى الرابع الى ذلك الدير يفكر فى موقفه ، وان كان الموقف فى غير حاجة الى تفكير طويل ، ذلك أنه وجد نفسه وحيدا أمام خصم عنيد لا يرحم ، فلابد له من التراجع والاستسلام اذا أراد انقاذ عرشه ، ولا سيما أن الأمراء الألمان وجهوا الدعوة الى البابا للحضور الى أوجسبرج ، مما تطلب من هنرى الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه فى ألمانيا فيؤدى ذلك الى مظاهرة عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد فى موقفه (٢) . وأخيرا لم يجد هنرى الرابع أمامه حلا سوى أن يرحل سرا الى البابا ، فى الوقت الذى كان الأخير قد بدأ رحلته فعلا الى ألمانيا ، ولكنه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنرى الرابع عبر الألب اليه ، واحتمى البابا فى قلعة كانوسا التـــابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا (٣) . وكان البرد قارسا عندما أخذ هنرى الرابع يصعد الطريق الجبلى الوعر الى قلعة كانوسا ، حيث بقى ثلاثة أيام واقفا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل تطلبه دون قيد (يناير ١٠٧٧ (٤)) . ويقال ان هنرى الرابع دخل على البابا حافى القدمين ، مرتديا ثوبا من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف ، حتى اذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتمى بين قدميه وانفجر باكيا وهو يصيح « أغفر لى أيها الأب المقدس » ، فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية وزوده بالنصح والارشاد (٥) .

---

(1) Tout: The Empire and The Papacy, p. 130.
(2) Barraclough: op. cit. 110.
(3) Stephenson: Med. Hist. p. 291.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 69.
(5) Hayward: op. cit. p. 161.

وهكذا استطاع هنرى الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطالب بولاء رعاياه، ولكن بعد أن دفع ثمنا باهظا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة . فها هو حاكم الامبراطورية العظيم يذل نفسه للبابوية ويعترف بحقها فى حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من وظيفته . وها هو خليفة قيصر وشارلمان ارتضى أن يقف البابا موقف الحكم بينه وبين شعبه ، ان شاء أمرهم بالخروج عن طاعته وان شاء أمرهم بالامتثال له . لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التى أنزلتها البابوية بالامبراطورية فى كانوسا كانت قاصمة ، وأن الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقا بعد ذلك (١) .

والواقع - كما يبدو فى ضوء التطورات التالية - أن هنرى الرابع لم يستفد كثيرا من مقابلة كانوسا ، كما أن هذه المقابلة لم تكن مكسبا على طول الخط بالنسبة لجريجورى السابع (٢) . حقيقة ان البابا خرج من هـذه الجولة مرفوع الرأس بعد أن حقق سمو للبابوية . ولكن مسلك جريجورى السابع العنيف أثار استياء نسبة كبيرة من الرأى العام فى العالم المسيحى ، فعاب كثيرون على البابا شدته وقسوته ، وهو رجل الدين الرحيم والأب الروحى الذى يجب أن يتحلى بروح التسامح والعفو عند المقدرة . أما هنرى الرابع فسرعان ما استكشف أن خسارته فى كانوسا فاقت مكسبه لأن خضوعه للبابوية على ذلك الوجه المزرى لم يفده شيئا فى استرضاء أعدائه وخصومه الخارجين عليه فى ألمانيا ، بل ان أنصاره من اللمبارديين فى شمال ايطاليا ساءهم أن يريق الملك ماء وجهه على تلك الصورة المشينة فنادوا بخلعه واحلال ابنه محله (٣) . هذا فى الوقت الذى اعتبر أمراء ألمانيا فرار الملك سرا الى كانوسا خروجا على العهد الذى أخذه على نفسه تنفيذا لقرارات تريبور التى قضت بانزوائه فى أحد الأديرة حتى يغفر له البابا (٤) . ولذلك عقد الأمراء

(1) Orton: op. cit. p. 212.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 455.
(4) Barraclough: op. cit. p. 110.

الألمان مؤتمرا فى فورخهايم Forchheim (مارس سنة ١٠٧٧) قرروا فيه عزل هنرى الرابع عن العرش واختيار رودلف دوق سوابيا ملكا بدله . وهنا حرص الأمراء قبل البدء فى الاجراءات الخاصة بتتويج الملك الجديد على يد أسقف مينز ، على أن يأخذوا عليه موثقا بألا يطالب بأى حق وراثى لأبنائه فى العرش وألا يتدخل فى حرية انتخاب الأساقفة (١) .

على أن شعور العطف على هنرى الرابع أخذ يتزايد فى سرعة حتى بلغ حدا أصبحت عنده معظم ألمانيا فى جانبه ، ما عدا سكسونيا التى ناصرت رودلف . وقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين قرابة ثلاث سنوات (١٠٧٧ - ١٠٨٠) ، ولا يعنينا من حوادثها الكثيرة المعقدة سوى أنها فتحت باب النزاع من جديد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع . ذلك أن البابا اختار أن يقف على الحياد فى المرحلة الأولى من مراحل الحرب بين هنرى ورودلف حتى يحصل من الطرفين على اعتراف بسيادته (٢) . وعندما انتصر رودلف على خصمه فى موقعة فلارخهايم Flarchheim (يناير سنة ١٠٨٠) أعلن البابا رأيه صراحة فى أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون ، فعقد مجمعا دينيا فى مارس من نفس السنة قرر اعادة توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع واقصائه عن عرش الامبراطورية (٣) .

وهكذا أخذ جريجورى السابع ينادى بأنه قبل أن تحل بداية العام التالى سيكون هنرى الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعا ، ولكن شاءت الظروف ألا تحقق له شيئا من أمانيه . ذلك أن هنرى الرابع أدرك أنها معركة حياة أو موت فأظهر اصرارا وحماسة بالغين ولا سيما بعد أن آمن بوجود أنصار كثيرين له فى ايطاليا وألمانيا (٤) . لذلك رد هنرى الرابع على البابا بعقد مجمع آخر فى بركسن Brixen (يونية سنة ١٠٨٠) دعا اليه أنصاره

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 72.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 409.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 133.

من أساقفة ألمانيا وشمال ايطاليا ، وقرر هذا المجمع عزل البابا جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة وانتخاب جيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليخلفه فى منصب البابوية (١) • وقد امتاز هذا البابا الجديد ـ الذى اتخذ اسم كلمنت الثالث ـ بالخبرة الطويلة والكفاية العظيمة فأسرع عقب مؤتمر بركسن الى رافنا ليوجه الأمور فى شمال ايطاليا ضد منافسه جريجورى السابع • وهكذا اشتد النضال وتعقد الموقف ، بعد أن وجد على المسرح اثنان من البابوات يتنازعان الكرسى البابوى واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الامبراطورية (٢) واختار الحظ أن يقف فى جانب هنرى الرابع وكلمنت الثالث فى ألمانيا وايطاليا جميعا ، اذ دارت معركة حامية (أكتوبر سنة ١٠٨٠) على ضفاف نهر الستر Elster انتصر فيها حزب رودلف من السكسون ولكن رودلف نفسه قتل وبذلك استراح هنرى الرابع من منافس خطير (٣) • وعندما وجد هنرى الرابع أن السكسون أضاعوا ثمرة انتصارهم فى الخلاف حول اختيار خليفة لرودلف ، أسرع بعبور جبال الألب الى ايطاليا (مارس ١٠٨١) لمواجهة خصمه اللدود جريجورى السابع • وكان أن اجتمع هنرى الرابع بنصيره كلمنت الثالث فى رافنا ثم تقدم على رأس قواته صوب روما(٤)• وفى تلك المرحلة الحاسمة لم يجد البابا سندا يعتمد عليه سوى قوة حليفته الأميرة ماتيلدا من جهة وقوة النورمان من جهة أخرى • ولكن شاء سوء حظ جريجورى السابع أن تصاب قوات الأميرة ماتيلدا بهزيمة ساحقة عند فولتا Volta قرب مانتوا ، فى حين كان روبرت جويسكارد النورمانى مشغولا بمشروعه الخاص بغزو الدولة البيزنطية ، مما جعل الطريق مفتوحا أمام هنرى الرابع الى روما (٥) • أما جريجورى السابع فلم يفقد ثباته فى ذلك الموقف وانما اعتمد على حصانة روما ، وبذلك ظل هنرى الرابع فى

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 351—352.
(2) Barraclough: op. cit. p. 125.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 413.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 78.
(5) Barraclough: op. cit. p. 125.

ايطاليا نحو ثلاث سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها الا بعد رشوة الحراس لفتح أبواب المدينة (مارس ١٠٨٤) . وفى روما أسرع هنرى الرابع الى دعوة مجمع دينى قرر عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة ، وأعقب ذلك اعتلاء كلمنت كرسى البابوية فى روما وتتويج هنرى الرابع امبراطورا فى كنيسة القديس بطرس (١) .

أما جريجورى السابع فكان قد احتمى بسانت أنجيلو - قلعة روما الحصينة - ومن هناك أرسل يستحث حلفاءه النورمان فى جنوب ايطاليا للاسراع الى نجدته . وكان أن تقدم جويسكارد النورمانى نحو روما ، لا حرصا على مساعدة البابا جريجورى السابع ولكن خوفا من ازدياد نفوذ هنرى الرابع فى ايطاليا مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم (٢) . ولم يكن هنرى الرابع على درجة من القوة تمكنه من الوقوف فى وجه النورمان ، فآثر مغادرة روما قبل أن يصلوا اليها ، واتجه الى ألمانيا حيث كانت الظروف تستدعى وجوده (٣) . وهنا أسرع أهالى روما الى اغلاق أبواب مدينتهم فى وجه النورمان خوفا من عبثهم ، مما تطلب من جويسكارد استخدام العنف حتى اقتحم المدينة (مايو ١٠٨٤) ، فانساب رجاله فى شوارعها ينهبون ويدمرون ويحرقون كل ما صادفهم حتى احترقت أحياء بأكملها وبيع آلاف من أهل روما فى أسواق الرقيق ، ثم انسحب النورمان بعد ذلك الى جنوب ايطاليا ، تاركين روما تنعى مجدها وحرمتها (٤) . وقد أثارت هذه الأحداث الرأى العام ضد جريجورى السابع الذى تسبب فيما حل بروما على أيدى حلفائه النورمان . لذلك خشى جريجورى السابع أن يبقى وحيدا فى روما وسط مظاهر السخط التى أحاطت به ، وآثر مرافقة حلفائه النورمان الى

---

(1) Hayward: op. cit. p. 162.
(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 135.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 420.
(4) Haskins: The Normans in European History, p. 205

سالرنو حيث مرض ومات فى مايو سنة ١٠٨٥ (١) . وكانت آخر عبارة فاه بها جريجورى السابع وهو على فراش الموت قوله « لقد أحببت العـــدالة وكرهت الظلم ولذا أموت مغتربا » (٢) .

على أن وفاة جريجورى السابع لم تضع حلا لمشكلة التقليد العلمانى لأن البابا كلمنت الثالث لم يستطع البقاء فى روما بعد أن حولها النورمان إلى حطام ، فغادرها الى رافنا بشمال ايطاليا . وهكذا ظل الكرسى البابوى شاغرا فى روما زهاء سنة بعد وفاة جريجورى السابع حتى اجتمع الكرادلة واختاروا فكتور الثالث لمنصب البابوية (مايو ١٠٨٦) (٣) . وكان هذا البابا الجديد صديقا حميما لجريجورى السابع ومن أنصار مبادئه ، ولكنه كان - بحكم كبر سنه - أضعف من أن يقوم بالدور الذى قام به سلفه العظيم . وعند وفاة فكتور الثالث فى أواخر سنة ١٠٨٧ اختار الكرادلة رجلا أصلب عودا هو البابا أوربان الثانى الذى شابه جريجورى السابع فى تحمسه للاصلاح الكنسى ، ولكنه امتاز عنه بالحرص والمهارة فى انتقاء الوسائل التى ينفذ بها أغراضه ، معتمدا على التحالف بين البابوية من جهـــة والأميرة ماتيلـــدا والنورمان من جهة أخرى (٤) . على أن أوربان الثانى لم يستطع الاقامة فى روما طويلا بسبب احتلال قوات البابا الامبراطورى - كلمنت الثالث - لقلعتها، فاتجه الى جنوب ايطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده تحت حماية روجر الأول النورمانى (٥) . وكان أهم ما قام به أوربان الثانى فى تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنرى الرابع فى ألمانيا وايطاليا ، وذلك عن طريق عقد زواج سياسى سنة ١٠٨٩ بين الأخيرة ماتيلدا حليفـــة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف Welf الخامس دوق بافاريا ، وهو أقوى منافسى هنرى الرابع (٦) .

---

(1) Hayward: op. cit. p. 162.
(2) Bryce: op. cit. p. 180.
(3) Hayward: op. cit. p. 163.
(4) Barraclough: op. cit. p. 126.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.
(6) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 495.

وفى ذلك الوقت كانت الأحوال قد هدأت نسبيا فى ألمانيا ، فأخذ هنرى الرابع يوجه نشاطه نحو ايطاليا وانتقل اليها من جديد سنة ١٠٩٠ (١) . وامتازت الأعمال الحربية التى قام بها هنرى الرابع فى ايطاليا بين سنتى ١٠٩٠ — ١٠٩٢ بالنجاح والتوفيق ، فاجتاح أراضى الأميرة ماتيلدا واستولى على مدنها وقلاعها ، ما عدا قلعة كانوسا التى منى بالفشل أمامها لمناعتها (٢). ويبدو أن عجز هنرى الرابع أمام كانوسا شجع خصومه ، فحرضوا ابنه كونراد على الثورة ضد أبيه سنة ١٠٩٣ وانحاز كثير من المدن اللمباردية الى الابن الثائر الذى توج فى ميلان ملكا على ايطاليا فى السنة نفسها ، وقام بتتويجه رئيس أساقفتها انسلم بموافقة ماتيلدا أميرة تسكانيا وزوجها الولفى (٣) . أما البابا أوربان الثانى فقد شجعته هذه الأحداث على العودة الى روما فى أواخر سنة ١٠٩٣ ، ومن ثم أخذ يجوب البلاد ويعقد المجامع الدينية لتقوية جانب الكنيسة . وكان أن أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ ، وبذلك حقق للبابوية نصرا عظيما وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحى فى صراعه الطويل ضد المسلمين (٤) . وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة بالامبراطور هنرى الرابع الى مغادرة ايطاليا يائسا سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ لم يجد أمامه حلا سوى تسوية مشاكله فى ألمانيا تسوية هادئة ، فعين الابن الأكبر للامير ولف دوقا على بافاريا فى حين أقنع الابن الأصغر لذلك الأمير بترك عروسه ماتيلدا التى تكبره سنا . أما كونراد — ابن الامبراطور — فقد حرمه أبوه من وراثة العرش وأحل محله أخاه الصغير الذى توج فى حياة أبيه (٥) .

ولم ينقطع البابا أوربان الثانى فى تلك الأثناء عن العمل على توطيد مركزه فى ايطاليا وتصفية المشاكل المعلقة بين البابوية والنورمان فى الجنوب ، وذلك

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 146.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 440—441.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 147.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 139.

عندما توفى فجأة فى يوليو ١٠٩٩ ثم لحق به منافسة البابا الامبراطورى كلمنت الثالث فى العام التالى • وعلى الرغم من أن هنرى الرابع رغب حينئذ فى الصلح مع البابوية الا أن الشروط التى طلبها أوربان الثانى ثم تمسك بها خليفته باسكال الثانى جعلت تحقيق هذا الصلح أمرا متعذرا (١) • ذلك أن البابا الجديد باسكال الثانى الذى تم انتخابه فى أغسطس سنة ١٠٩٩ كان شديد التمسك بمبادىء جريجورى السابع وآرائه ، ومن ثم بدأ أعماله باصدار قرار الحرمان للمرة الثالثة ضد هنرى الرابع ، كما أخذ يحرض السكسون ضده حتى ثاروا بزعامة ابنه هنرى الصغير سنة ١١٠٤ (٢) • ويبدو أنه لم يتبق لدى هنرى الرابع وقتئذ من الصبر والعزيمة ما يكفى للدخول فى صراع جديد ضد البابوية ، فاستسلم لابنه هنرى الخامس وتنازل عن العرش سنة ١١٠٥ ثم لم يلبث أن توفى الأب فى العام التالى •

وسرعان ما أدرك هنرى الخامس أن خيانته لأبيه لم تفده كثيرا ، وأن البابوية التى اعترفت به ملكا فى حياة أبيه أخذت تعكر أمامه الجو داخل ألمانيا وخارجها • هذا فى الوقت الذى استكشفت البابوية أن هنرى الخامس لم يقل عن أبيه تمسكا بحقوقه فى التقليد العلمانى ، وأنه أخذ - بمجرد اعتلائه العرش - يملأ الأسقفيات الشاغرة فى الامبراطورية وفق هواه دون الرجوع الى رأى البابوية (٣) • وهكذا استمرت مشكلة التقليد العلمانى بدون حل ، اذ تمسك كل من البابا والامبراطور بحقوقه فى تقليد الأساقفة• وبعد أن قضى هنرى الخامس سنتين فى حروب ضد هنغاريا وبوهيميا ، عزم على تصفية الموقف مع البابوية • ولكن هنرى الخامس - على النقيض من والده - قرر الاتفاق أولا مع كبار الأمراء ليجعل من ألمانيا جبهة متحدة تسانده فى صراعه المقبل مع البابوية (٤) • وهكذا استطاع هنرى الخامس أن يستأنف معركة التقليد العلمانى وهو مطمئن تماما الى مساندة أمراء

---

(1) Barraclough: op. cit. pp. 126—127.
(2) Hayward: op. cit. p. 170.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 454—455.
(4) Barraclough: op. cit. pp. 128—129.

ألمانيا وأساقفتها ، فرحل الى ايطاليا سنة ١١١٠ على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل ليتوج امبراطورا فى روما وليثبت حقوق الامبراطـــورية(١) وفى تلك المرة لم يصادف هنرى الخامس مقاومة تذكر فى ايطاليا بسبب حالة الانقسام التى كانت تعانيها من جهة وعدم كفاية البابا باسكال الثانى من جهة أخرى • وربما كان من العوامل التى أضعفت مركز البابا فى تلك المرحلة أن ماتيلدا ــ أميرة تسكانيا ــ وهى الحليفة التقليدية للبابوية فى نضالها ضد الامبراطورية ، أسرعت هذه المرة بالخضوع لهنرى الخــامس وأعلنته وريثا لها فى امارتها ، وبذلك نكثت عهدها السابق بمنح أراضيها للبابوية (٢) • وفى هذه المحنة لم يبق أمام البابا باسكال الثانى سوى أن يفكر فى الوصول الى حل سلمى مع هنرى الخامس عندما اقترب الأخير من روما على رأس قواته فى أوائل سنة ١١١١ (٣) •

أما شروط الاتفاقية التى عرضها البابا على هنرى الخامس فجاءت غريبة فى طابعها جديدة فى نوعها ، اذ تقضى بأن تتنازل الكنيسة عن كل ما لها من أراض وحقوق اقطاعية وقضائية حصلت عليها منذ أيام شارلمان (٤) ، مكتفية بالعشور وبما يتبرع به الخيرون ، وفى مقابل ذلك تنتهى مصلحة الامبراطور فى التمسك بتقليد الأساقفة ، ويترك هذا الحق للبابا وحده • ومن هذا العرض يتضح مدى استعداد الكنيسة للتضحية بكل ما تمتعت به من حقوق وامتيازات دنيوية مقابل احتفاظها بحقوقها الروحية ، وعلى رأســـها تقليد الأساقفة والاشراف عليهم (٥) • ومن الطبيعى أن يقبل هنرى الخامس هذا العرض الذى يعطيه ملكية ضياع الكنيسة الواسعة ، ولكن المشكلة كانت تكمن فى موقف الأساقفة ورجال الكنيسة الذين سيفقدون أملاكهم وحقوقهم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 155.
(2) Barraclough: op. cit. p. 129.
(3) Orton: op. cit. p. 216.
(4) Barraclough: op. cit. p. 129.
(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 460—461.

وينخفضون في معيشتهم الى مستوى معين لم يعتادوه في القرون الأخيرة (١)•
وعندما اكتظت كنيسة القديس بطرس في روما بالجموع التي وفدت لمشاهدة
تتويج الامبراطور في يوم الأحد ٢٢ فبراير سنة ١١١١ ، بدأ البابا الحفل
بقراءة نص الاتفاقية الجديدة بينه وبين هنري الخامس ، فثار الأساقفة الألمان
والايطاليون جميعا واشتد سخطهم على البابا الذي قبل أن يضحي بأملاكهم
وحقوقهم مع احتفاظه هو بحقوق البابوية وأملاكها سليمة لم تمس (٢) •
ولم تلبث أن امتدت الثورة الى طرقات روما حيث أخذ الناس يعملون القتل
فيمن يصادفونه من الألمان ، مما جعل البابا يعدل عن الاتفاقية ويواجه هنري
الخامس وحيدا دون نصير • وكان أن ألقى ملك ألمانيا القبض على البابا
والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ له في مسألة التقليد العلماني ، فرضي
البابا أن يقوم الملك بتعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى ، بذلك انتصر
هنري الخامس وثأر لما حل بأبيه في كانوسا (٣) •

•

على أن المخلصين من أبناء الكنيسة لم يرضوا عن هذا الاستسلام فاشتد
حنقهم على البابا باسكال الثاني ، ولم يجد البابا مخرجا من موقفه سوى نقض
الاتفاقية المعقودة بينه وبين الامبراطور ، على أساس أنها تمت تحت تأثير
الضغط والارهاب (٤) • وهكذا أخذت الصعاب تحيط بالامبراطور هنري
الخامس لا سيما بعد أن دبرت بعض المؤامرات وقامت عدة ثورات ضده في
أنحاء متفرقة من ألمانيا (٥) • وفي ذلك الوقت توفيت الأميرة ماتيلدا في
ايطاليا سنة ١١١٥ بعد أن أوصت أخيرا بممتلكاتها الواسعة للبابوية ، ولو أن
وصية الأميرة ماتيلدا نفذت فعلا واستولت البابوية على ممتلكاتها لأصبح البابا
أعظم سلطة زمنية في ايطاليا ، ولكن الامبراطور هنري الخامس أسرع الى
ايطاليا في العام التالي لاثبات حق الامبراطورية في تلك التركة ، واحتل روما

---

(1) Cam. Med. Vol. 5, pp. 102—103.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 143.
(3) Barraclough: op. cit. p. 130.
(4) Hayward: op. cit. p. 172.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 144.

سنة ١١١٧ حيث توجت زوجته الانجليزية (١) . أما البابا فقد فر من روما ليحتمى بالنورمان فى الجنوب ولكنه لم يلبث أن مات سنة ١١١٨ قبل أن يبت برأى حاسم فى توقيع عقوبة الحرمان على الامبراطور (٢) . وقد خلف باسكال الثانى البابا جلاسيوس الثانى (١١١٨ - ١١١٩) ثم البابا كالكستس الثانى (١١١٩ - ١١٢٤) . وكان الأخير سياسيا قديرا جمع بين الصفتين الدينية والدنيوية لكونه ابن حاكم برجنديا . لذلك صمم البابا كالكستس الثانى من أول الأمر على فض النزاع مع الامبراطورية ، فعقد مجمعا دينيا لهذا الغرض فى ريمس كما أرسل مندوبين الى الامبراطور للتفاهم معه ، بل ان البابا اتجه بنفسه نحو موزون Mouzon (أكتوبر ١١١٩) لمفاوضة الامبراطور ، لولا أن الأخير حضر على رأس مظاهرة عسكرية ضخمة جعلت البابا يفضل الاسراع بالعودة من حيث أتى (٣) . على أنه يبدو أن الامبراطور هنرى الخامس كان قد مل النزاع هو الآخر فأظهر استعدادا للتفاهم ، وبذلك أخذ الطرفان يبحثان الاشكال لأول مرة فى جو مشبع بروح الاعتدال والرغبة فى التفاهم . وليس معنى ذلك أن طريق التفاهم أصبح ممهدا سهلا ، اذ يبدو أن الجروح القديمة لم تكن قد اندملت بعد ، ومن ثم دفع الشك الجانبين الى الدخول فى تفاصيل صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد هنرى الخامس سنة ١١٢٠ (٤) .

ولم يلبث هنرى الخامس أن أدرك عاقبة المبالغة فى التشكك والاسراف فى سوء الظن لا سيما بعد أن لمس ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى ألمانيا . هذا فى الوقت الذى عاد البابا كالكستس الثانى فأرسل الى الامبراطور موضحا له أن هدف البابوية ليس اضعاف الامبراطورية وتقليل شأنها وانما تعظيم قدرها وتقوية نفوذها (٥) . وهكذا عادت روح الاعتدال والرغبة فى التفاهم لتمهد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 104.
(2) Barraclough: op. cit. p. 131.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 479.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 146.
(5) Barraclough: op. cit. p. 132.

لاستئناف المفاوضات التى قدر لها النجاح تلك المرة ، حتى انتهى الأمر بعقد اتفاقية ورمز Worms الشهيرة بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى سنة ١١٢٢ (١) . وتنص هذه الاتفاقية على أن يكون انتخاب الأساقفة ومقدمى الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسى دون أى تدخل من جانب السلطة العلمانية ، وبعد الاحتفال بتقليد الأسقف دينيا يستطيع الامبراطور أن يكلفه أو يزوده بأية سلطة . أما فى ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب ، وللامبراطور أو مندوبه حق حضور عملية انتخاب الأسقف « دون الالتجاء الى السيمونية أو العنف » . وبعد أن يتم انتخاب الأسقف قانونيا يقلده الامبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الدينى (٢) .

ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تحقق كل ما كانت تصبو اليه الكنيسة لأن حضور الامبراطور أو مندوبه عملية انتخاب الأسقف من شأنه أن يؤثر فى سير الانتخاب ، ولكن يكفى — على أىّ حال — أن الكنيسة أحرزت نصرا ولو جزئيا بتحديد سلطة الامبراطور فى اختيار رجال الدين مما جعل البابا يظل سيد الموقف فى أوربا . وبعبارة أخرى فاننا نخرج من هذه الاتفاقية بأن الامبراطورية دخلت دائرة النزاع مع البابوية حول التقليد العلمانى وهى فى أوج قوتها وسلطانها ، وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح بعد ما نزل بها من هزائم نكراء بحيث يظهر الفارق واضحا بين موقف كل من هنرى الخامس وسلفه هنرى الثالث (٣) وقد حاول بعض الكتاب أن يصور الموقف عند عقد اتفاقية ورمز بأن الامبراطور كان أمامه أن يختار بين الاحتفاظ بالرغيف كاملا أو الاكتفاء بنصفه فأجبرته البابوية على الاكتفاء بالنصف ، فى حين كان على البابوية أن تختار بين النصف الثانى للرغيف أو البقاء دون نصيب ففازت بالنصف . وهكذا لم يستأثر فريق دون آخر بتقليد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 107.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 483.
(3) Bryce: op. cit. p. 161.

رجال الدين ويبقى الأمر مناصفة بين الطرفين (١) •

ولكن اذا كانت اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ وضعت حدا للنزاع حول التقليد العلمانى وأنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ، الا أنها لم تضع حدا للصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية (٢) • ذلك أنه يتضح من دراسة شروط هذه الاتفاقية أنها لم تمس جـوهر النزاع بين السلطتين ولم تتعرض للمشكلة الأساسية التى كمن فيها الخلاف ، وهى أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السـيادة العليا : البـابوية أم الامبراطورية (٣) ؟ وما دامت هذه المشكلة الكبرى قائمة دون حل فانه لا يمكن القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية قد وصل نهاية ترضى الطرفين ، لأن مشكلة التقليد العلمانى لم تكن فى حقيقة أمرها الا مظهرا للتنافس بين البابوية والامبراطورية حول سيادة العالم (٤) •

أحوال الامبراطورية بعد اتفاقية ورمز :

أما عن نتائج هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى فمن الواضح أنها كانت على جانب كبير من الخطورة بالنسـبة للامبراطورية • ذلك أن محاولة البيت السالى اقامة ملكية قوية باءت بالفشل، بمعنى أنه ليست البابوية أو الامبراطورية هى التى خرجت فائزة من هذا الصراع ، وانما كان كبار الأمراء فى ألمانيا هم الذين انتهزوا فرصة انصراف ملوكهم الى النزاع مع البابوية ليدعموا قوتهم وسلطانهم(٥) • وهـكذا أدى الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى الى ازدياد شدة التيار الاقطاعى فى ألمانيا حتى غدت حصون الأمراء وقلاعهم بمثابة المراكز الأساسية للتنظيم

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 463.
(2) Barraclough: op. cit. p. 133.
(3) Idem: pp. 139—140.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 184.
(5) Barraclough: op. cit. p. 134.

السياسى فى البلاد . وقد ظهر أثر هذا التطور بوضوح فى المجتمع الألمانى اذ أصبح ضعاف الأحرار — وبخاصة من المزارعين — أقنانا ، فى حين غدا أقوياؤهم فرسانا وأتصالا ، تربطهم روابط عديدة بسادتهم الاقطاعيين ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن النزاع حول التقليد العلمانى ترك أثرا خطيرا فى بناء المجتمع الألمانى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى (١) . ومن الواضح أن انتشار النظام الاقطاعى وازدياد نفوذ كبار الأمراء جاء على حساب الملكية وسلطانها ، لأن هذا الازدياد وما صحبه من تناقص نسبة الأحرار من السكان معناه أن الملك أو الامبراطور لم يعد له نفوذ مباشر الا على نسبة متناقصة من أهالى البلاد ، فى حين لم تعرف الأغلبية المتزايدة سلطانا مباشرا سوى سلطان سادتهم الاقطاعيين (٢) .

أما البابا كالكستس الثانى والامبراطور هنرى الخامس فلم تقدر لهما الحياة طويلا بعد اتفاقية ورمز ، اذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الثانى فى مايو سنة ١١٢٥ . وقد ساعدت كثير من الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرش الألمانى والبابوية على تهدئة الموقف بعد اتفاقية ورمز . ففى ألمانيا أجمع الأمراء عقب وفاة هنرى الخامس على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكا ، وهو الدوق الذى عارض هنرى الخامس معظم حكمه والذى كان محبوبا من الألمان بسبب بلائه ضد السلاف (٣) . وكان من أشد أنصار لوثر الثانى الأمير هنرى المتكبر دوق بافاريا الذى تزوج ابنة لوثر وأنجبت هذه الزوجية هنرى الأسد وارث دوقيتى بافاريا وسكسونيا (٤) . على أنه يبدو أن اختيار لوثر الثانى للعرش سنة ١١٢٥ لم يعجب آل هو هنشتاوفن

---

(1) Idem: pp. 136—138.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 108,163 & Barraclough: op. cit. p. 139.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 334—335.
(4) Eyre, op. cit. p. 159.

أمراء سوابيا ، هذا فضلا عن أن لوثر الثانى لم يكن الرجل القـــادر على استرداد هيبة الامبراطورية وعظمتها نتيجة لضعفه وتقدم سنه .

هذا عن ألمانيا ، أما الشطر الثانى من الامبراطورية وهو ايطاليا ، فان البابوية سرعان ما وجدت نفسها فى مأزق خطير أمام توسع النورمان فى جنوب ايطاليا بعد أن تم لهم الاستيلاء على صقلية سنة ١٠٩١ (١) . ومن ثم وحدوا صقلية وكالبرياوأوبوليا تحت سيطرتهم مما أفزع البابوية ، فهبت تدافع عن نفسها أمام هذا الخطر العظيم . وكان أن أخذ البـــابا هنريوس الثاني (١١٢٤ ـ ١١٣٠) يجاهد عبثا لتأليف حلف من أمراء ايطاليا ضد النورمان ، حتى اضطر أخيرا الى الاعتراف سنة ١١٢٨ بمركز روجر الثانى فى أبوليا وصقلية . ولم يلبث النورمان أن استصغروا لقبى « كونت » و « دوق » اللذين تلقب بهما أمراؤهم الأوائل فاحتفل فى يوم رأس السنة عام ١١٣٠ بتتويج روجر الثانى ملكا فى بالرمو (٢) . ثم كان أن نشأ نزاع حول الكرسى البابوى بعد وفاة البابا هنريوس الثانى ، ففر البـــابا انوسنت الثانى الى ملك ألمانيا مستنجدا به ضد خصومه ، ولما أنجده لوثر الثانى ، كافأه البابا بتتويجه امبراطورا فى روما سنة ١١٣٣ . والمهم فى أمر هذه الزيارة التى قام بها لوثر الثانى لايطاليا سنة ١١٣٣ هو أنه خالف سـياسة سلفه هنرى الخامس واعترف بحق البابوية فى تركة الأميرة ماتيلدا ، على أن يأخذ الملك هذه التركة من البابا كاقطاع مقابل ايجار سنوى ، ومعنى ذلك أن البابوية حصلت على دليل جديد يظهر الامبراطور فى صورة تابـع اقطاعى للبابا (٣) .

وعند وفاة الامبراطور لوثر الثانى سنة ١١٣٨ ، كان أقوى رجلين فى ألمانيا هما هنرى المتكبر دوق بافاريا وسكسونيا وعميد البيت الولفى ، وكونراد هو هنشتاوفن دوق سوابيا . وقد خشى كبار النبلاء قوة هنرى وبطشه ، كما

(1) Haskins: The Normans in European History p. 209.
(2) Idem, p., 210—211.
(3) Barraclough: op. cit. p. 157.

تخوف الكنيسة من قيام رجل قوى مثله فى عرش الامبراطورية ، ولذلك تم اختيار كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملكا على ألمانيا « ١١٣٨ - ١١٥٢ م (١)٠ ومنذ ذلك الوقت أخذ يشتد التنافس والعداء بين الولفيين - وهم أمراء سكسونيا - والجبلليين - وهم دوقات أسرة هوهنشتاوفن - نسبة الى قلعة فى اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم (٢) ٠ وقد تطور اللفظ الأول فى الصيغة الايطالية الى الجلفيين Geulfs وأصبح يطلق على أعداء الامبراطورية بوجه عام فى نزاعها مع البابوية ، فى حين أصبح اسم الجبلليين يطلق على أنصار الامبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام (٣) ٠

وكان كونراد الثالث هوهنشاوفن ضعيفا ، وهو أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج امبراطورا منذ أوتو العظيم (٤) ٠ وزاد من ضعفه أن تغيير البيت الحاكم أكثر من مرة سنة ١١٢٥ ثم سنة ١١٣٩ وما تبع ذلك من حروب أهلية ، أدى الى انكماش الأراضى الخاصة بالتاج ، وبالتالى ، الى ضعف الملك الذى استمد قوته فى ظل النظام الاقطاعى من ضياعه الخاصة ٠ وهكذا وجد كونراد الثالث نفسه لا يمتلك قوة مادية - لا سيما في شمال ألمانيا - تمكنه من الوقوف موقفا قويا من أعدائه فى الداخل والخارج ٠ وقد جاء ضعف الملكية الألمانية في تلك الحقبة مصحوبا بظاهرة واضحة هي أزدياد نفوذ كبار الأمراء في إنتخاب الملك ، وهى الظاهرة التى غدت بمثابة الطابع المميز للفترة الواقعة بين سنتى ١١٠٦ ، ١١٥٢ (٥) ٠ أما فيما يتعلق بموقف كونراد الثالث من ايطاليا والبابوية فيلاحظ أنه أضاع معظم جهوده فى الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية ، مما أضعف هيبته في ايطاليا حتى أعلن البابا انوسنت الثاني فى السنة نفسها التى اعتلى كونراد الثالث العرش « مجمع ١١٣٩) عدم ارتباطه باتفاقية ورمز ، وأن البابا له السيادة العليا على

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 231.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 347—349 & 404.
(3) Eyre: op. cit. p. 159.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358—359.
(5) Barraclough: op. cit. pp. 158—160.

جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها (١) • وعلى الرغم من كل ذلك فقد أبى كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة مع البابوية ، وفضل العمل على توطيد نفوذه فى ألمانيا عن طريق الحد من نفوذ البيت الولفى ، مما أدى الى حرب أهلية لم تنته الا سنة ١١٤٢ (٢) •

وعندما مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢ خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) الذى كان شابا فى الثلاثين من عمره امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء ، مع اتصافه بسرعة الغضب والايمان المطلق بعظمة الوظيفة الامبراطورية وسموها (٣) • وقد أخذ فردريك بربروسا يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الامبراطورية ومجدها المفقود ، وهو المجد الذى لا يتحقق - فى نظره - الا بالربط بين شطرى الامبراطورية فى ألمانيا وايطاليا • لذلك بدأ بعقد معاهدة كونستانس مع البابا سنة ١١٥٣ وفيها تعهد فردريك الأول بعدم عقد صلح مع روجر الثانى ملك صقلية دون موافقة البابا ، وأن يقوم فردريك باخضاع أعداء البابا والثائرين ضده مقابل تتويج البابا له امبراطورا ومساندته ضد خصومه فى ألمانيا (٤) •

ولكن فردريك كان أعقل من أن يذهب الى ايطاليا وينصرف الى شئونها قبل أن يوطد نفوذه فى ألمانيا • لذلك أخذ يتقرب الى الأمراء ويسترضيهم • فرد بافاريا الى هنرى الأسد عميد الولفيين وأعطاه سلطانا شبه مطلق عليها وعلى سكسونيا ، كما استرضى بقية الأمراء حتى قوى نفوذهم على حسابه • وبعد ذلك بدأ يوجه بصره شطر ايطاليا (٥) • ويبدو أن الموقف فى ايطاليا كان خطيرا حينذاك الى الدرجة التى جعلت فردريك الأول يسرع بالذهاب

---

(1) Hayward; op. cit. pp. 178—179.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 475.
(3) Bryce: op. cit. p. 166.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 247—248.
(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, 447.

اليها قبل أن يفرغ من اتمام مشروعاته الرئيسية في ألمانيا نفسها . ذلك أن البابوية سرعان ما أنهكها الصراع ضد النورمان فى الجنوب ، فى حين استطاعت المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا أن تتحرر من نفوذ الأمراء الاقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة فى ادارة شئونها (١) وكان أن اشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكتلها فى حلفين متضادين ، أحدهما بزعامة ميلان والثانى بزعامة بافيا ، وان كانت رغبتها فى التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادى جعلتها تتفق جميعا فى سياسة واحدة ، هى مقاومة أية سيطرة تحاول الامبراطورية فرضها عليها (٢) . ولم يحاول أحد حكام الامبراطورية - مثل لوثر الثانى أو كونراد الثالث - أن يتدخل لاخماد هذه الحركة التحررية التى لم تلبث أن امتدت الى روما نفسها . ذلك أن أهالى روما قاموا بثورة ضد البابا انوسنت الثانى سنة ١١٤٢ مطالبين بتحويل مدينتهم هى الأخرى الى قومون مستقل ، حتى انتهى الأمر بفرار البابا ايوجنيوس الثالث Eugenius III من روما سنة ١١٤٧ (٣) . والغريب فى أمر هذه الثورة أن زعيمها - وهو أرنولد البريشى Arnold of Brescia كان من رجال الدين ، فآمن بما سبق أن نادى به البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ من آراء تستهدف تخلى الكنيسة عن أراضيها الاقطاعية واكتفائها بالعشور والعودة الى حياة البساطة التى اتسمت بها المسيحية الأولى (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فقد استنجد البابا أيوجنيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣) ثم البابا أدريان الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩) بالملك فردريك بربروسا، الذى لبى النداء سنة ١١٥٤ ، كعادة أسلافه من حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة . وهنا نلاحظ أن الغرض الأساسى من ذهاب فردريك الأول الى ايطاليا فى تلك السنة كان اكتساب رضاء البابوية واثبات حسن نيته لها ،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 361.
(2) Eyre: op. cit. p. 165.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 486.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 371—372.

وليتوج امبراطورا في روما مقابل ما يؤديه للبابا من خدمات أهمها تحطيم قوة أرنولد البريشي وتثبيت سلطة البابوية في روما (١) . وكان أن استطاع فردريك بجيشه الصغير الذي لم يتعد ألفا وثمانمائة فارسا أن يخضع المدن اللمباردية ، فاعترفت له بالسيادة بعد أن أرهبها وأعطاها درسا قاسيا (٢) .
وبعد ذلك اتجه فردريك الى روما حيث كان أدريان الرابع قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٥٤ ، وهو الانجليزى الوحيد الذى تولى هذا المنصب فى العصور الوسطى (٣) . وكان هذا البابا الجديد قوى الشخصية واسع المعرفة ، فلم يستسلم للاخطار التى واجهت البابوية عندئذ ، وانما أنزل قرار الحرمان ضد روما وأنزل اللعنة على أهلها الثائرين ، وعندئذ أحجم الحجاج عن زيارة مدينة مغضوب عليها ، ففقد أهلها موردا غزيرا لثروتهم واضطروا الى طرد ارنولد البريشي والدخول فى طاعة البابوية (٤) .

على أن مشاكل البابوية لم تقف عند ذلك الحد ، اذ أغار وليم النورمانى على كامبانيا Gampania على الشاطىء الغربى جنوبى روما — ونهبه ودمره ، وهدد بالزحف على روما نفسها . لذلك أسرع أدريان الرابع بتجديد اتفاقية كونستانس التى سبق أن عقدها أيوجنيوس الثالث مع فردريك الأول سنة ١١٥٣ ، حتى انتهى الأمر بتتويج فردريك الأول امبراطورا فى كتدرائية القديس بطرس بروما (١١٥٥ — ١١٥٦) (٥) . وقد تم التتويج سرا وبسرعة ، خوفا من غضب أهالى روما الكارهين لفردريك ، والذين اشتدت ثورتهم عندما أعلن الخبر ، فى حين تناقصت جيوش الامبراطور واشتدت به الحاجة الى المؤن والامدادات ، فلم يستطع الثبات فى وجه أهالى

---

(1) Barraclough: op. cit. p. 178.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 248.
(3) Orton: op. cit. p. 232.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 249.
(5) Hayward: op. cit. p. 184.

روما الثائرين واضطر الى الفرار منها وبصحبته البابا (١) • وسرعان ماأدرك فردريك صعوبة البقاء في ايطاليا ، ولا سيما بعد أن سمع بأن الأوضاع في ألمانيا تستدعي عودته اليها ، فعبر جبال الألب الى بلاده تاركا البابا وحده في شمال ايطاليا • وهكذا اضطر أدريان الرابع الى مصالحة أهالي روما على أساس الاعتراف بمدينتهم قومونا مثل غيرها من القومونات الايطالية ، وعلى هذا الأساس استطاع العودة الى روما في صيف سنة ١١٥٥ (٢) •

أما الامبراطور فردريك بربروسا فقد عاد الى ألمانيا ليواصل جهوده في توحيدها وتقوية سلطانه على الأمراء ••قد تم للامبراطور ما أراد حتى بدا في نظر المعاصرين أعظم قوة في أوربا ، لا سيما بعد أن مد نفوذه الى برجنديا عن طريق الزواج من وريثتها سنة ١١٥٦ (٣) • وزاد من نفوذ فردريك الأول وسطوته على أوربا أن بولسلاف الرابع صاحب بولندا وبولسلاف الثاني صاحب بوهيميا دانا له بالتبعية ، في حين اعترف له ملك الدانيين - بل هنري الثاني ملك انجلترا - بالسيادة (٤) ، وبذلك لم يبق أمام الامبراطور سوى تدعيم نفوذه في ايطاليا • وكانت العلاقة قد ساءت بين فردريك الأول والبابا أدريان الرابع عقب انسحاب الأول الى المانيا فيصيف سنة ١١٥٥ تاركا البابا وحيدا في ايطاليا • وهنا نعود فنكرر القول بأن المشكلة الكبرى بين الامبراطورية والبابوية كانت لاتزال قائمة • واذا كانت الظروف قد اضطرت البابا والامبراطور الى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة التي هددت نفوذهما من ناحية القومونات الايطالية من جهة وثورة أرنولد البريشي من جهة أخرى وخطر النورمان في الجنوب من جهة ثالثة ، فان هذا الاتفاق لم يكن معناه اطمئنان الطرفين بعضهما الى بعض بأي حال من الأحوال •

والواقع أن مركز البابا أدريان الرابع كان ضعيفا فعلا عندما تركه الامبراطور

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 421.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 250.
(3) Barraclough: op. cit. p. 173.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 492.

وحيدا فى صيف سنة ١١٥٥ (١) • فالامبراطور ترك البابا دون أن يساعده فى اخضاع روما أو دفع الخطر النورمانى الذى هدد الأملاك البابوية تهديدا واضحا • لذلك أدرك البابا أدريان الرابع أنه لابد من الاعتماد على نفسه ، فألف حلفا مع أمراء أبوليا الاقطاعيين الذين اشتدت رغبتهم فى التخلص من سيطرة النورمان ، كما أجرى مباحثات مع مانويل الأول امبراطور الدولة البيزنطية (١١٤٣ - ١١٨٠) لمساعدته فى حربهم (٢) • ويبدو أن وليم النورمانى أحس بخطر هذه المحالفات التى يعقدها البابا ضده ، فأسرع الى عقد اتفاقية بنفنتو سنة ١١٥٦ مع البابوية ، ورضى باعلان تبعيته للبابا مقابل موافقة البابوية على قيامه فى حكم أبوليا وصقلية(٣) • وفى نفس هذه السنة أنزل وليم الأول النورمانى هزيمة كبرى بالبيزنطيين عند برنديزى حتى اضطر الامبراطور مانويل كومنين الى عقد الصلح مع الملك النورمانى سنة ١١٥٨ ونجحت وساطة البابوية فى اتمام ذلك الصلح (٤) • هذا فى الوقت الذى استرضى البابا أهالى روما بأن أقرهم نهائيا على قيام القومون الرومانى وبذلك تغلب أدريان الرابع على جميع المشاكل التى واجهته دون حاجة الى مساعدة الامبراطورية •

الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

هكذا يبدو أن كلا من البابا أدريان الرابع والامبراطور فردريك الأول استطاع أن يمكن لنفسه ويقوى مركزه فى بلاده ، ولم يبق بعد ذلك سوى أن يواجه كل منهما الآخر • والواقع أن فردريك الأول استاء من تحالف البابا مع وليم النورمانى من جهة ومع أهالى روما من جهة أخرى واعتبر ذلك نقضا للعهد بين الطرفين ، فى حين أخذ البابا أدريان الرابع يتخوف من ازدياد نفوذ الامبراطور واتساع سلطانه بعد أن استقرت له الأمور داخل

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 422.
(2) Vasiliev: op. cit. Tome II, p. 13.
(3) Orton: op. cit. p. 233.
(4) Ostrogorsky: op. cit. p. 342.

الامبراطورية وخارجها (١) . وصادف أن اختار البابا مندوبا أرسله الى ألمانيا ـ هو الكاردينال رولاند ، الذى عرف بصلابة رأيه وقوة عقيدته فى سمو الكنيسة ، فذهب المندوب ليعرب عن استياء البابا من بعض تصرفات الامبراطور ، لا سيما حبس كبير أساقفة لوند .Lund الذى كان صديقا حميما لأدريان الرابع . وعندما دخل المندوب البابوى على الامبراطور فى مجمع بسانسون Besancon سنة ١١٥٧ حياه تحية غريبة ، اذ قال « ان البابا يحييك كوالد والكرادلة يحيونك كاخوة » فدهش فردريك من هذه التحية التى جعلت من الكرادلة اخوة مساوين للامبراطور ، وهو السيد العظيم خليفة قيصر وشارلمان (٢) . على أن الذى ضايق فردريك هو أن رسالة البابا اليه احتوت عبارة مؤداها أن التاج الامبراطورى يعتبر Beneficium من البابا (٣) . وهذا اللفظ اللاتينى يحتمل معنيين ، اذ يمكن تفسيره على أنه يعنى « جميلا أو معروفا Benefit » كما يمكن تفسيره بمعنى اقطاع « Benefice » (٤) . واختار الامبراطور وأنصاره أن يفسروا اللفظ بمعناه الأخير ، أى أن البابا يعتبر التاج الامبراطورى منحة أقطعها للامبراطور ووهبها له . ومن ثم ثار فردريك لكرامته وكرامة وظيفته الامبراطورية ، وأيده فى موقفه الأساقفة الألمان . ولم يكن الامبراطور مبالغا فى غضبه أو ثورته لأن المندوب البابوى نفسه أصر على تفسير اللفظ على أنه يعنى « اقطاع » ، وقال لفردريك فى شجاعة « ممن اذن يتسلم الامبراطور امبراطوريته ان لم يتسلمها من البابا (٥) ؟ » ولكن فردريك أدرك جيدا أن التسليم بهذا المبدأ يعنى خضوع الامبراطور للبابا ، ولذلك رد مدافعا عن حقوقه « اننا نتسلم الامبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء ، ان شريعة الله تقضى بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفى الامبراطورية والبابوية ،

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 253.
(2) Ibid.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 390—420.
(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 341—342.
(5) Bryce: op. cit. p. 166.

كما قضت تعاليم القديس بطرس بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (١) • وعلى هذا فان كل من يقول بأننا تسلمنا التاج الامبراطورى اقطاعا من البابا يعتبر ملحدا باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس » (٢) •

أما البابا أدريان الرابع فقد ارتبك فى ذلك الموقف واضطر الى التصريح فى أوائل العام التالى بأنه قصد باللفظ معناه العام — أى معروف أو جميل — ولم يقصد معناه الاقطاعى الخاص • وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع المباشر مع الامبراطورية ، وان ظل سوء النية قائما عند الطرفين (٣) • وبعبارة أخرى فان أهمية هذا الحادث تبدو فى أنه كشف النقاب عن حقيقة شعور كل من البابوية والامبراطورية نحو الطرف الآخر كما مهد لتجدد النزاع السافر بين الجانبين • واذا كان النزاع بين الامبراطورية والبابوية قد اتخذ فى دوره الأول من مشكلة التقليد العلمانى محورا له فانه فى هذا الدور الثانى تركز فى مشكلة القومونات الايطالية (٤) •

ذلك أن الامبراطور فردريك بربروسا كان — كما سبقت الاشارة — يعتقد اعتقادا راسخا فى عظمة الامبراطورية ، ويؤمن بأنه خليفة قيصر وشارلمان ، ومن ثم يجب أن يتمتع بما كان لهذين الامبراطورين من نفوذ عالمى وسلطان واسع • وقد رأى الامبراطور فردريك الأول أن كثيرا من الحقوق التى تمتعت بها المدن اللمباردية انما هى فى حقيقة أمرها حقوق منحها ملوك الفرنجة لكونتات المدن ومنهم انتقلت الى أساقفتها حتى استغلت القومونات فرصة مشكلة التقليد العلمانى فاستأثرت بهذه الحقوق (٤) • وبعبارة أخرى

---

(١) من الواضح أن الامبراطور استند فى هذه العبارة الى ما جاء فى العهد الجديد : (أكرموا الجميع ، أحبوا الاخـــوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك) رسالة بطرس الأولى ، الاصحاح الثانى ، ١٧ •

(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 254.
(3) Bryce: op. cit. p. 197.
(4) Eyre: op. cit. p. 63.
(5) Barraclough: op. cit. p. 180.

فان سيطرة الامبراطورية على المدن اللمباردية لا تعنى أكثر من استرداد حقوق الامبراطورية المفقودة فى شمال ايطاليا • ومن الواضح أن تطبيق هذه الآراء عمليا كان يعنى اخضاع المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا لسلطة الامبراطورية المباشرة ، بل أيضا فرض السيطرة الامبراطورية على الأراضى البابوية نفسها بما فيها تركة الأميرة ماتيلدا التى استأثرت بها البابوية • وطبيعى أن البابا كان لا يمكنه أن يقر هذا الوضع ، لأن أخطر ما كانت تخشاه البابوية هو ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا مما يؤدى الى وقوع البابا تحت رحمته • ولم يلبث أن أتاح الانشقاق بين المدن اللمباردية فرصة طيبة لتدخل الامبراطور (١) ، واذ وقف حزب كريمونا وبافيا فى جانب الامبراطور ضد الحزب الآخر الذى تزعمته ميلان • وكان أن عبر الامبراطور فردريك الأول جبال الألب فى يولية سنة ١١٥٨ فخضعت له ميلان بعد مقاومة عنيفة ثم عقد الامبراطور مجمعا فى رونساجليا Roncaglia (نوفمبر سنة ١١٥٨) أعلن فيه تمسكه بحقوقه فى تعيين حكام امبراطوريين (Podesta) فى المدن اللمباردية يشرفون على سك العملة وجمع الضرائب (٢) •

على أن الأمور لم تتم للامبراطور فى شمال ايطاليا فى سهولة ويسر ، اذ توفى البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذى تلقب باسم اسكندر الثالث ، والذى ظل فى منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ — ١١٨١) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها ، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف التى رأيناها فى الدور الأول • وكان أن تألف تحالف بين صقلية والبابوية وميلان مما أخل بالتوازن الذى حققه فردريك فى ايطاليا سنة ١١٥٤ — ١١٥٥ (٣) • وسرعان ما تجددت ثورة المدن اللمباردية وعلى رأسها ميلان بتحريض من البابوية ، فطردت الحكام الامبراطوريين وأخذ يشتد فيها شعور التعصب العنصرى ضد الدخلاء الألمان • وهنا واجه فردريك الموقف

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 279.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 427.
(3) Barraclough: op. cit. pp. 181—182.

بشدة وحزم فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمرها ـ كما فعل مع كريما Crema ـ • أما ميلان فقد صمدت وقاومت حصار الامبراطور ثلاث سنوات حتى أرغمتها المجاعة على الاستسلام سنة ١١٦٢ ، وعندئذ دمرها فردريك تدميرا شاملا كما أخذ زعماءها رهائن عنده ، وبذلك أصبح الامبراطور سيد الموقف في شمال ايطاليا (١) •

أما عن موقف فردريك الأول من البابا اسكندر الثالث فانه كان يعرف أخلاقه وآراءه جيدا ، لأن اسكندر البابا لم يكن سوى رولاند الكاردينال الذي أزعجت شدته الامبراطور في مجمع بسانسون سنة ١١٥٧ • ولذلك صدم فردريك باختياره للبابوية ولم يجد أمامه سوى العودة الى سلاح الامبراطورية القديم ، وهو تعيين فكتور الرابع بابا امبراطوريا منافسا للبابا اسكندر الثالث (٢) • واذا كان اسكندر الثالث قد اضطر الى الانسحاب من روما بعد عدة أيام من توليه منصبه ، الا أنه ظل متمسكا بموقفه ، لا سيما بعد أن تم عقد مجمع ديني سنة ١١٦٠ تحت رعاية لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك انجلترا ، وقرر كبار الأساقفة في هذا المجمع الاعتراف ببابوية اسكندر الثالث والوقوف الى جانبه • وقد شجع هذا القرار البابا اسكندر الثالث على الفرار الى فرنسا بعد أن سقطت ميلان في يد الامبراطور سنة ١١٦٢ وأضحى موقف البابوية محفوفا بالخطر في ايطاليا (٣) وفي العام التالي ـ أي سنة ١١٦٣ ـ عقد اسكندر الثالث مجمعا في تور أصدر قرار الحرمان ضد البابا الامبراطوري فكتور الرابع وأعوانه من الكرادلة (٤) •

وعلى الرغم من أن فردريك الأول استكشف عند عودته الى ألمانيا سنة ١١٦٣ أن كثيرا من رجال الكنيسة الألمانية وقفوا الى جانب البابا اسكندر

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 497.
(2) Hayward: op. cit. p. 185.
(3) Lavisse, op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 39.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 257.

الثالث مطالبين بعقد مجمع لتسوية الخلاف بين البابوية والامبراطورية ، الا أنه لم يتأثر بهذه الأزمة وأصر على موقفه . وعند وفاة البابا الامبراطورى فكتور الرابع أثناء زيارة الامبراطور لايطاليا للمرة الثالثة سنة ١١٦٤ ، اختار الامبراطور البابا باسكال الثالث ليحل محله (١) . وفى تلك الأثناء أخذ الحكم الألمانى فى شمال ايطاليا يتصف بالقسوة والخشونة حتى أصبح الايطاليون يعاملون على أنهم أعداء الامبراطور لا رعاياه . وليس هناك من شك فى أن هذه السياسة كانت خطرا على مصالح الامبراطورية وأهدافها ، حتى تألف حلف فيرونا سنة ١١٦٤ لمقاومة الحكم الامبراطورى (٢) . وفى ذلك الوقت لم يستطع البابا الامبراطورى باسكال الثالث أن يحتفظ بمركزه فى روما ، كما أن تلك الأخبار شجعت اسكندر الثالث على المغامرة والعودة الى ايطاليا سنة ١١٦٥ ، فدخل روما دخول الظافر وأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور (٣) . وسرعان ما تجدد نشاط المدن اللمباردية ، فتقدمت البندقية لمساعدة حلف فيرونا ، مما جعل الامبراطور يعجل بالعودة الى ايطاليا للمرة الرابعة سنة ١١٦٦ . وفى تلك المرة لم يبدأ فردريك بالمدن اللمباردية (٤) ، وانما اختار أن يستأصل « رأس الأفعى » فزحف على روما مباشرة وحاصرها حصارا عنيفا حتى سقطت فى يده سنة ١١٦٧ ، وعندئذ كانت خيبة أمل الامبراطور كبيرة عندما عرف أن غريمه اسكندر الثالث تمكن من الفرار جنوبا محتميا بحلفائه النورمان (٥) . ومهما يكن من أمر فقد دخل فردريك الأول روما فى تلك السنة ليتوج امبراطورا – للمرة الثانية – بيد البابا الامبراطورى باسكال الثالث . وجدير بالملاحظة أن العداء بين الامبراطوريتين الغربية والشرقية بلغ أشده فى هذه المرحلة ، فلم يحاول الامبراطور فردريك بربروسا اكتساب الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الى جانبه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 394.
(2) Barraclough: op. cit. p. 182.
(3) Hayward: op. cit. p. 186.
(4) Eyre: op. cit. p. 166.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 441.



الامبراطورية الرومانية المقدسة
في عصر أسرة الهوهنشتاوفن
١١٣٨ - ١٢٥٤

ضد النورمان حلفاء البابا ، بل على العكس اتصل فردريك بقلج أرسلان سلطان قونية السلجوقي والعدو اللدود للامبراطور البيزنطي (١) .

ثم كانت أن أخذت المصائب تترى على الامبراطور ، فانتشر الطاعون في جيشه وفتك برجاله فتكا ذريعا ، مما جعل المعاصرين يفسرون ذلك في ضوء غضب الله ولعنة البابا اسكندر الثالث على الامبراطور . وقد شجعت هذه الأخبار المدن اللمباردية ، فكونت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللمباردي سنة ١١٦٨ الذي اتسع حتى شمل جميع مدن سهول ايطاليا الشمالية من ميلان حتى البندقية ، ومن برجامو حتى بولونيا . وهكذا انسدت المسالك في وجه الامبراطور فردريك بربروسا بحيث أنه لم يستطع العودة الى ألمانيا في ربيع سنة ١١٦٨ الا بمشقة بالغة (٢) . وسرعان ما إكتسب الحلف اللمباردي قوة جديدة عندما بارك البابا بانشاء مدينة جديدة تحمل اسمه - هي مدينة ألسندريا أو اسكندرية - Alessandria الى الشمال الغربي من جنوا (٣) .

وكان أن ساد السلام مدن العصبة اللمباردية مدة ست سنوات توفي أثناءها البابا الامبراطوري باسكال الثالث سنة ١١٦٨ وحل محله كالكستس الثالث . ولكن ايطاليا أصبحت من الناحية العملية خارج نفوذ الامبراطور في الوقت الذي ازداد نفوذ البابا اسكندر الثالث زيادة كبيرة حتى في ألمانيا نفسها . على أن الامبراطور فردريك بربروسا لم يكن بالرجل الذي يرضى بهذا الوضع ، وهو صاحب العقيدة الراسخة في عظمة الامبراطورية وسموها . لذلك قام بحملته الخامسة على ايطاليا سنة ١١٧٤ ، وحينئذ تأهبت المدن اللمباردية للدخول من جديد في صراع رهيب ضد الامبراطور (٤) . ولا يعنينا من حوادث هذه الفترة المتشابكة - بين حروب ومفاوضات - سوى

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 342.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 259.
(3) Haystead, op. cit., p. 187.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 443.

موقعة ليناتو ، Legnano الى الشمال الغربى من ميلان ، وهى الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللمباردى من جهة والجيوش الامبراطورية من جهة أخرى (٢٩ مايو ١١٧٦) • ويبدو أن الروح الوطنية والشعور بالفوارق العنصرية واللغوية فعلت فعلها عندئذ لتجمع مختلف المدن فى شمال ايطاليا فى هيئة جبهة متحدة تقف فى وجه سيطرة الألمان وتدخلهم (١) • وهكذا حلت الهزيمة فى هذه الموقعة بالجيوش الامبراطورية ، ولم يستطع فردريك الأول الفرار الى بافيا الا بمشقة بالغة • وثمة أهمية أخرى لهذه الموقعة ، هى أنها تعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوربا الحربى ، نظرا لأنها المرة الأولى التى استطاعت فيها جيوش المدن الناشئة أن تنزل الهزيمة بجيش امبراطورى يتبع النظم الاقطاعية التقليدية التى عرفتها أوربا منذ القرن التاسع (٢) •

أما عن الموقف بين فردريك الأول وأعدائه بعد ليناتو فيبدو أن نشوة النصر صرفت المدن اللمباردية عن مطاردة الامبراطور وفلول جيشه ، بل ان بعض المدن ـ مثل كريمونا ـ أخذت تفكر فى عقد صلح منفرد مع الامبراطور (٣) • ولم يكن فردريك الأول أقل رغبة فى الصلح بعد أن سئم النضال وهدده بعض أعوانه ـ مثل رئيس أساقفة كولونيا ـ بالانشقاق عنه ان لم يسو أموره تسوية سريعة مع البابا • أما البابا اسكندر الثالث فقد أظهر من جانبه وقتئذ كفاية سياسية ، فلم يمانع فى فتح باب المفاوضات مع الامبراطور سنة ١١٧٦ (٤) • وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين بعض الوقت بسبب اصرار البابوية على شروطها وتمسكها بآرائها ، حتى انتقل البابا الى البندقية فى مارس سنة ١١٧٧ ليكون على مقربة من سير المحادثات • وأخيرا لم يجد الامبراطور فردريك مفرا من الخضوع والتسليم ، فدخل البندقية حيث كان البابا اسكندر الثالث فى انتظاره يحيط به جمع حافل من الكرادلة (٥) • ولم تلبث أن تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام

---

(1) Bryce: op. cit. p. 175.
(2) Eyre: op. cit. 166.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 262.
(4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 502.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 448.

بالضبط ، فأتى الامبراطور فردريك الأول العظيم ، خليفة قيصر وشارلمان ، ليرتمى بين قدمى البابا اسكندر الثالث باكيا طالبا منه الصفح والغفران ، مثلما فعل سلفه - العظيم أيضا - هنرى الرابع مع البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٧ (١) .

وهكذا تم الصلح بين الامبراطورية والبابوية فى أغسطس ١١٧٧ ، فوافق فردريك الأول على رد جميع الأراضى المغتصبة من البابوية ، وتعهد كل من الطرفين بمساعدة الطرف الثانى ضد أى عدو يهدده . هذا علاوة عما وافق عليه الامبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمان فى صقلية لمدة خمس عشرة سنة ، وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية لمدة ست سنوات (٢) . وقبل أن تنتهى هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية تم توقيع صلح كونستانس سنة ١١٨٣ بين المدن اللمباردية والامبراطورية ، وهو الصلح الذى نص على أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسى والقضائى والاقتصادى والحربى ، مع احتفاظ الامبراطور ببعض المظاهر التى تصور سيادته الاسمية ، مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض ضريبة شكلية تافهة للمساهمة فى نفقات الجيوش الامبراطورية . على أنه من الواضح أن هذه الشروط لا تخفى الحقيقة الواقعة وهى أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة بمقتضى معاهدة كونستانس ، وأن نفوذ الامبراطور فى شمال ايطاليا أضحى اسما ، مما أدى الى تفكك الامبراطورية وانفصال ايطاليا عن ألمانيا فى تطورها (٣) .

الامبراطورية عقب صلح البندقية سنة ١١٧٧ :

وقد أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين الامبراطور وايطاليا عقب صلح البندقية فرصة لفردريك الأول ليوجه عنايته نحو شئون ألمانيا ، بعد أن شغلته الأحداث الايطالية عنها طويلا . وكان منبع الخطر الرئيسى الذى هدد سلطة

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 263.
(2) Barraclough: op. cit. p. 183.
(3) Bryce: op. cit. p. 175.

الامبراطور فى ألمانيا هو هنرى الأسد الذى استغل فرصة انشغال الامبراطور ليحصل على امتيازات واسعة ، ويزيد من أملاكه ونفوذه على حساب جيرانه فى الشمال والجنوب ، حتى غدا خطرا حقيقيا هدد الامبراطور فضلا عن بقية الأمراء . هذا الى أن زواج هنرى الأسد من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك انجلترا (١) ، جعله على صلة وثيقة بالبلاط الانجليزى ، ومكنه من اتباع سياسة خارجية مستقلة عن سياسة الامبراطورية . وقد ظهرت بعض أركان هذه السياسة فى مشروعات هنرى الأسد لضم الدانمرك وفى البعثات الدبلوماسية المتبادلة بينه وبين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، على الرغم مما كان من عداء شديد بين هذا الامبراطور والامبراطور فردريك بربروسا . بل ان هنرى الأسد تعمد زيارة القسطنطينية سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة مما أثار الشكوك بأنه يتآمر مع الامبراطور البيزنطى ضد فردريك (٢) . لذلك وجه فردريك الأول جهوده نحو هنرى الأسد فأنزل به الهزيمة سنة ١١٨٠ وعندئذ قسم سكسونيا بين عدد من النبلاء ولم يترك لهنرى سوى أجزاء محدودة (٣) .

ثم كان أن أحرز الامبراطور فردريك الأول نصرا سياسيا عظيما سنة ١١٨٤ عندما وضع مشروعا لزواج ابنه وخليفته هنرى من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية (٤) . ومن الواضح أن هذا الزواج جاء على جانب خطير من الأهمية لأن من شأنه أن يؤدى فى المستقبل الى التوحيد بين الامبراطورية ومملكة صقلية مما يجعل الأملاك البابوية فى وسط ايطاليا تقع بين شقى الرحى (٥) . ولم يكن هذا هو كل ما صادفه الامبراطور فردريك الأول من توفيق فى تلك المرحلة ، اذ أن الحلف اللمباردى تفكك بعد أن أحست المدن اللمباردية بزوال الخطر الامبراطورى ، فاشتد التنافس فيما بينهما ، مما مكن الامبراطور من النفاذ الى شئون ايطاليا مرة أخرى . وصادف

---

(1) Adams: The Hist. of England pp. 291—292.
(2) Barraclough: op. cit. p. 187.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 200—201 & 507.
(4) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 280.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 453.

أن توفى البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨١ فترك فراغا كبيرا فى روما لأن أحدا من البابوات الخمسة الذين خلفوه فى منصبه بين سنتى ١١٨١ ، ١١٩٨ لم تتح له فرصة البقاء طويلا فى الوظيفة البابوية ليقوم بعمل ذى أهمية فى التاريخ (١) • وقد أوشك النزاع بين البابوية والامبراطورية أن يتجدد سنة ١١٨٤ عندما ماطل البابا لوكيوس الثالث فى تتويج هنرى - ابن الامبراطور فردريك الأول - فى حياة أبيه ، ثم تجدد النزاع فعلا فى عهد البابا أوربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧) عندما عين كل من البابا والامبراطور رئيسا لأساقفة تـريـيـر Trier وتمسك كل منهما برأيه (٢) • وسرعان ما تألف حلف ضد الامبراطور فردريك الأول من البابا ورئيس أسـاقفة كولونيا وهنرى الأسد ، ولكن موقف الامبراطور أصبح قويا بعد أن استمال اليه أعداءه القدامى فى ايطاليا وألمانيا ، وعلى رأسهم مدينة ميلان التى شهدت الاحتفال بزواج هنرى ابن الامبراطور من الأميرة كونستانس •

وعلى الرغم من الهزائم التى لحقت بالبابا وحلفائه فى ألمانيا وايطاليا الا أن أوربان الثالث أصر على موقفه واستعد لاصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور، فى الوقت الذى جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صـلاح الدين على الصليبيين بالأراضى المقدسة سنة ١١٨٧ • وبعد ذلك بأيام قلائل توفى البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجورى الثامن على لم شعث القوى المسيحية لارسال حملة جديدة الى الشرق تثأر لما حل بالصليبيين على أيدى صـلاح الدين (٣) • على أن هذا البابا لم يمكث فى منصب البابوية سوى أسابيع قليلة توفى بعدها فخلفه كلمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١) الذى استأنف سياسة سلفه فى ضم صفوف الغرب المسيحى فاسترضى الامبراطور فردريك بربروسا بأن عزل رئيس أساقفة ترير المغضوب عليه من الفريق الامبراطورى ، كما وعد فردريك بتتويج ابنه هنرى • وهكذا عادت للامبراطور فردريك الأول سيادته من جديد على ألمانيا وايطاليا ، فنفى هنرى الأسد وثبت الأمن والنظام فى شطرى الامبراطورية (٤) • وفى سنة ١١٨٩ غادر الامبراطور فردريك

---

(1) Hayward: op. cit. pp. 189—191.
(2) Idem: p. 189.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 270—271.
(4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 509.

بربروسا ألمانيا على رأس الشطر الألماني من الحملة الصليبية الثالثة في الوقت الذي كان الأمير هنري الأسد يدبر له المؤامرات من منفاه في البلاط الانجليزي . وقد انتهز هنري الأسد فرصة سفر الامبراطور الى الشرق وعاد الى ألمانيا محاولا استرجاع سكسونيا بالقوة ، مما جعل السياسة الأوربية تمر في تلك الحقبة بدور شديد التعقيد بسبب علاقة الصداقة بين ألمانيا وفرنسا من جهة وعداء انجلترا لفرنسا وبالتالي لألمانيا من جهة أخرى (١) . أما فيما يتعلق بفردريك بربروسا فقد شاءت الأقدار أن يلقى هذا الامبراطور الشيخ حتفه غرقا في أحد أنهار آسيا الصغرى سنة ١١٩٠ قبل أن يصل الى الأراضي المقدسة .

وكان أن جاء في العرش بعد فردريك بربروسا ابنه هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) الذي ورث عن أبيه مقدرته وقوة عزيمته وتشبعه بفكرة الامبراطورية العالمية(٢) . ذلك أنه وضع لنفسه برنامجا ضخما يتضمن جعل المنصب الامبراطوري وراثيا في ذريته والغاء مبدأ الانتخاب في اختيار الامبراطور، واستغلال مركز زوجته كوريثة لعرش صقلية في تدعيم نفوذه في جنوب ايطاليا . على أن هنري السادس لم يستطع اتمام مشروعاته السابقة دون الاصطدام مع خصومه ومنافسيه ، وعلى رأسهم هنري الأسد الذي ذكرنا أنه عاد من منفاه بانجلترا ليطالب بأملاكه ويستعيد نفوذه (٣) . هذا في الوقت الذي كان وليم ملك صقلية قد توفى في أواخر سنة ١١٨٩ وأراد الوطنيون اعطاء عرش المملكة لتنكرد بدلا من كونستانس زوجة هنري السادس والوريثة الشرعية للعرش(٤) .

ويبدو أن هذه المشكلة الأخيرة كانت أهم المشاكل في نظر هنري السادس حتى أنه صفى المسائل المعلقة بينه وبين هنري الأسد ، ثم عبر جبال الألب الى

---

(1) Barraclough: op. cit. p. 195.
(2) Bryce: op. cit. p. 201.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 460.
(4) Eyre: op. cit. p. 167.

ايطاليا فى أوائل سنة ١١٩١ حيث اكتسب تأييد أهالى روما وتغلب على ممانعة البابا كالستين الثالث Calestine III حتى تم تتويجه مع زوجته الامبراطورة كونستانس فى شهر أبريل من السنة نفسها(١) • وعنــــدما زحف هنرى السادس جنوبا لاسترداد مملكة صقلية من مغتصبها تنكرد ، تنكر له الحظ بسبب مقاومة نابلى وانتشار الطاعون بين الجنود الالمان ، حتى اضـــطر الامبراطور الى العودة شمالا الى المانيا(٢) • وكانت الاوضاع فى ألمانيا عندئذ تنذر بصدام جديد بين الهوهنشتاوفن والجلفيين او بعبارة اخــــرى بين الامبراطور وهنرى الأسد ، وفعلا قامت الحرب بين الطرفين سنة ١١٩٢ • ولم تلبث أن تعقدت حوادث هذه الحرب عندما ثار أمراء الراين سنة ١١٩٣ نتيجة لسياسة هنرى الســـادس ، وبذلك اشـــتدت أواصر التحالف بين الهوهنشتاوفن فى ألمانيا وآل كابيه فى فرنسا ضد أعدائهم الولفيين وأمراء الراين وملك انجلترا(٣) • على ان الحظ حالف هنرى السادس ، اذ حدث فى الوقت الذى ثار أمراء الراين أن وصله خبر وقوع ريتشارد ملك انجلترا – أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة – فى أسر دوق أوستريا الذى سلمه بدوره لهنرى السادس • وقد ظل ريتشـــارد فى الأسر أكثر من عامين أرسل خلالها فيلب ملك فرنسا الى حليفه هنرى السادس يطلب منه عـــدم الافراج عنه ، ولكن هنرى السادس أفرج عنه أخيرا سنة ١١٩٤ بشروط قاسية(٤) • وسرعان ما تتابعت انتصارات هنرى السادس على خصومه ، فخضع أمراء الراين واستسلم هنرى الأسد وبقية حلفائه ، وبذلك أصبح هنرى السادس سيد الموقف فى ألمانيا ، مما مكنه من توجيه كل جهوده نحو ايطاليا(٥) •

وقد ساعدت هنرى السادس فى تحقيق أطماعه الايطالية المقدرة التى امتاز بها

---

(1) Hayward: op. cit. p. 191.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 464.
(٣) كان ملك انجلترا عندئذ يعتبر فصلا اقطاعيا لملك فرنسا بالنسبة للأراضى الواسعة التى كانت تحت سيادة الأول فى غرب فرنسا ، نورمنديا وآنجو ومين وتورين وبواتو وجوين وجاسكونى) •
(4) Adams: op. cit. pp. 374—376.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 306—309.

على الانحناء أمام التيارات الصغيرة والثورات المحلية حتى تمر بسلام ، هذا فضلا عن انشغال المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا بما نشب بينها من خلاف. وهنا نجد هنرى السادس يحرص على عدم الزج بنفسه فى تلك الخلافات ،وعلى استرضاء مختلف الفرق المتنازعة ، مما مكنه من الحصول على معونة بحرية من جنوا وبيزا فى حربه ضد صقلية ، كما حرم مملكة صقلية من الحصول على مساعدة حلفائها فى شمال ايطاليا . أما البابا كالستين Calestine III (ت ١١٩٨) فكانت تنقصه الجرأة واكتفى بالوسائل السياسية لعرقلة مشروعات الامبراطورية مما جعل ملك صقلية يواجه هنرى السادس وحيدا منفردا(١).

وكان تنكرد قد توفى عند وصول هنرى السادس الى ايطاليا سنة ١١٩٤ ، فحل محله ابنه وليم الثالثالذى لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنرى السادس قبل نهاية سنة ١١٩٤ من الاستيلاء على مملكة الصقليتين ، حيث ترك زوجته كونستانس تنوب عنه فى حكمها فى حين عاد هو الى ألمانيا سنة ١١٩٥ . وهكذا حرمت البابوية من أقوى حلفائها فى ايطاليا بعد أن أصبحت الأجزاء الجنوبية فى قبضة الامبراطورية(٢) . أما هنرى السادس فقد بلغ وقتئذ درجة من اتساع النفوذ لم يصل اليها امبراطور فى غرب أوربا منذ أيام شارلمان ، لا سيما بعد أن خلصه الموت من خصمه هنرى الأسد سنة ١١٩٥(٣) . ويلاحظ بصفة خاصة أن نجاح هنرى السادس فى صقلية يعتبر نقطة تحول فعالة فى تاريخ الامبراطورية وسياستها الخارجية ، لأن هذا النجاح لم يجعل الأباطرة ورثة النورمان فى أراضيهم بجنوب ايطاليا وصقلية فحسب ، بل ورثوهم أيضا فى أطماعهم الخاصة بالسيطرة على البحر المتوسط وفى عدائهم الشديد للدولة البيزنطية ، الأمر الذى جعل السياسة الخارجية للامبراطورية المقدســـــة تتحول عن مجراها الطبيعى الى مجرى آخر لايتفق ومصالحالامبراطورية(٤). وبعبارة أخرى فان ضم صقلية الى الامبراطورية سبب للاخيرة مشاكل داخلية

---

(1) Hayward: op. cit. p. 191.
(2) Eyre: op. cit. p. 167.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 469.
(4) Barraclough: op. cit. p. 197.

وخارجية لم تستطع أن تتحملها ؛ اذ استمرت صقلية مدة ستين عاما - بدأت منذ سنة ١١٩٠ - تستأثر بجهود الأباطرة الذين صرفوا أبصارهم عن شئون ألمانيا ، حتى انتهى الأمر بانهيار أسرة هوهنشتاوفن وتفكك حكومة ألمانيا(١) .
أما هنرى السادس فقد حصل سنة ١١٩٦ على موافقة أمراء ألمانيا على اختيار ابنه فردريك الثانى ليخلفه فى عرش الامبراطورية ، ثم ذهب بعد ذلك الى ايطاليا حيث توفى سنة ١١٩٧ وهو يتأهب للقيام بحملة صليبية كبيرة(٢) .

وصادف فى ذلك الوقت أن البابا كالستين الثالث لحق بالامبراطور بعد أربعة أشهر تقريبا ، فخلفه سنة ١١٩٨ البابا أنوسنت الثالث الذى امتاز بشخصية عظيمة مكنته من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادىء جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه انوسنت الثالث البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس ، وبذلك عاد الى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية مما هدد بفتح باب النزاع من جديد بين السلطتين(٣) . وربما كان من العوامل التى ساعدت أنوسنت الثالث على الظهور عدم وجود امبراطور قوى على رأس الامبراطورية الغربية ، لأنه حدث بعد وفاة هنرى السادس أن انفصل تاج صقلية عن الامبراطورية وعندئذ لم تبذل أية محاولة جديدة للاحتفاظ بوحدة عرشى صقلية وألمانيا(٤) .
ويبدو أن كونستانس - الامبراطورة الوالدة - آثرت الاحتفاظ لابنها بملك صقلية ، مبتعدة به عن ألمانيا ومشاكلها ، وفى سبيل ذلك أعلنت تبعيتها للبابوية وتعهدت بدفع مبلغ معين من المال للبابا سنويا . وهكذا استطاعت كونستانس أن تحكم نابلى وصقلية باسم ابنها فردريك الصغير فأبعدت الموظفين الألمان الذين شكا منهم الأهالى ، كما أوصت قبل وفاتها سنة ١١٩٨ بأن يخلفها البابا

---

(1) Ibid.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 512.
(3) Tout: The Empire and the Papacy: p. 314.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 44—45.

فى الوصاية على ابنها الصغير (١) • وقد قام البابا انوسنت الثالث بالوصاية على فردريك الثانى على خير وجه كما أخذ يمكن للبابوية فى أواسط ايطاليـــا وشمالها بعد طرد الحاميات الالمانية من روما ، هذا فى الوقت الذى أخذ البابا يرقب ـ بارتياح ـ حوادث الانقسام التى هـــددت ألمانيا بحـــرب اهلية(٢) •

ذلك أن فيليب دوق سوابيا ـ وعم فردريك الثانى ـ أسرع الى ألمانيا عقب وفاة أخيه هنرى السادس للاحتفاظ بعرشها للهوهنشتاوفن ، حتى انتهى الأمر باختياره ملكا على ألمانيا سنة ١١٩٨ • على أن عددا كبيرا من الأمراء أيدوا أوتو ـ الابن الثانى لهنرى الاسد ـ الذى كان يعيش فى بلاط ريتشـــارد ملك انجلترا ، وعندئذ أمده ريتشارد بالمال وأرسله الى ألمانيا ليستخلص حقوقه بوصفه ممثل الولفيين(٣) ، مما جعل ألمانيا مسرحا لحرب أهلية استمرت عشر سنوات وانتهت بانتصار فيلب سنة ١٢٠٧ ، ثم مقتله فى العام التالى • وهكذا تبسم الحظ لأوتو الرابع الذى لم يجد أمامه من ينافسه من بيت هوهنشتاوفن ، فأسرع الى الزواج من ابنة غريمه فيلب ليربط بين الجلفيين والجبللينيين • هذا الى أنه عمل على استرضاء البابوية ، فقصد ايطاليا سنة ١٢٠٩ ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك ألمانيا وليبحث مع البابا مشكلة تركة الأميرة ماتلدا(٤) • وقد انتهز أوتو الرابع فرصة مقابلته للبابا وأعلن ولاءه للبابوية كما أقسم على أن يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين ، وعلى أن يساعد البابا ضد خصومه، فكافأه البابا على ولائه بتتويجه فى أكتوبر من العام نفسه (٥) • على أن موقف أوتو من البابوية بعد أن توج امبراطورا اختلف كثيرا عن موقفه منها وهـــو يسعى لاكتساب عطفها للوصول الى العرش • ذلك أن أوتو الرابع لم يلبث أن أفزعته سياسة البابا انوسنت الثالث وأطماعه ، فاضطر ـ وهو الامبراطور

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 317.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 45.
(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 233.
(4) Barraclough: op. cit. p. 212.
(5) Hayward: op. cit. p. 193.

الجلفى – الى اتباع سياسة خصومه من آل هوهنشتاوفن تجاه البابوية(١) • وهكذا اخذت العلاقة بين البابوية والامبراطورية تتخذ شكل حرب باردة ، فبدأ أوتو الرابع يعمل على ابعاد فردريك الثانى عن عرش صقلية لادخالها تحت سلطانه ، مما افزع البابا انوسنت الثالث ، لا سيما بعد ان تمسك أوتو الرابع بحق الامبراطورية فى تركة الأميرة ماتيلدا(٢) • ولم تلبث هذه الحرب الباردة أن تحولت الى حرب ساخنة عندما شرع اوتو الرابع فى تنفيذ أطماعه عمليا ، فاحتل تسكانيا سنة ١٢١٠ ثم غزا ابوليا وأخذ يتأهب لغزو صقلية بمساعدة الأسطول البيزى(٣) • وقد ارتاع البابا من تلك الاحداث ، فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور ، واباح لرعاياه الخروج عن طاعته ، كما أعلن فردريك الثانى امبراطورا • وهكذا انقلبت الاوضاع فى أوربا فأصبح أوتو الرابع – وهو ابن هنرى الأسد الولفى – يقوم بدور الهوهنشتاوفن فى مناوءة البابوية والتمسك بسيادة الامبراطورية ، فى حين أخذ البابا يساند فردريك الثانى الجيللينى سليل الهوهنشتاوفن(٤) • وكيفما كان الأمر فقد آتت السياسة البابوية أكلها ، فاجتمع عدد من امراء ألمانيا الكارهين للامبراطور فى نورنبرج Nurnberg سنة ١٢١١ ، واعتبروا قرار البابا ضد الامبراطور مرسوما بعزله ، واختاروا فردريك الثانى ملك صقلية – وابن هنرى السادس – ملكا على ألمانيا بدلا من أوتو الرابع المحروم من الكنيسة • ومن الواضح أنه لم يكن من مصلحة البابا أن يختار الألمان فردريك الثانى ملكا عليهم حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكى الكماشة فيحيط بها النفوذ الامبراطورى من الشمال والجنوب(٥) ، ولكن الموقف الذى كان فيه البابا أنوسنت الثالث عندئذ جعله لا يفكر فى شىء سوى التخلص من أوتو

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 73.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 318.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 74.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 621.

(5) Barraclough: op. cit. p. 212.

الرابع ، فوافق على اختيار فردريك الثانى لعرش ألمانيا دون أن يدرى ما سيترتب على هذا الاختيار من نتائج قريبة (١) •

أما فردريك الثانى فلم يلبث أن غادر صقلية ـ وكان فى السادسة عشر من عمره ـ وقصد روما حيث أعلن ولاءه للبابوية ، ثم قصد ألمانيا حيث رحبت به سوابيا وبافاريا ، حتى تم تتويجه رسميا ملكا على ألمانيا بيد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢١٢ (٢) • ولم يبق امام أوتو الرابع عندئذ سوى الاعتماد على امارة سكسونيا ، فطلب المعونة من خاله حنا ملك انجلترا الذى كان مغضوبا عليه من البابوية هو الآخر • على أن التحالف بين فردريك الثانى وفيلب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية كان أقوى أثرا من التحالف بين ملك انجلترا وأوتو الرابع وغيرهما من أمراء فلاندرز وبرابانت واللورين (٣)• وسرعان ما أنزل فيلب أوغسطس هزيمة ساحقة بخصومه فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ ، وهى الموقعة التى تعتبر نقطة تحول ، لا فى تاريخ ألمانيا فحسب ، بل فى تاريخ أوربا بأسرها • أما فيما يتعلق بألمانيا فان أوتو الرابع انسحب يجر أذيال الخيبة نحو سكسونيا حيث توفى سنة ١٢١٨ فى حين استسلم أنصاره وأتباعه لفردريك الثانى بسهولة (٤) • وقد احتفل فردريك الثانى بانتصاره باعادة تتويجه فى كتدرائية آخن ، وبذلك أصبح بعد موقعة بوفان الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حكم ألمانيا والصقليتين (٥) • والواقع أن هناك عدة ظروف تجمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى وأشدها غرابة • ذلك أنه ولد من أب ألمانى وأم نصف ايطالية ، وتلقى تعليمه فى صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفا محبا للجدل والرياضيات (٦) ، يجيد عدة لغات منها اللغة العربية ، ويتذوق الشعر

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 239.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 76.
(3) Adams: op. cit. 431.
(4) Barraclough: op. cit. p. 214.
(5) Eyre: op. cit. p. 169.
(6) Kantorowicz: op. cit. pp. 293—395.

العربى وغير العربى ، هذا كله فضلا عن مهارته كسياسى ومحارب وقانونى ، حتى أطلق عليه المؤرخون « أعجوبة الدنيا » (١) • وقد شاءت الظروف أن تساعد فردريك الثانى فى أوائل عهده لأن البابا انوسنت الثالث توفى سنة ١٢١٦ فتحرر فردريك الثانى من سيطرته ، ولا سيما أن البابا الجـــــديد هنريوس الثالث (١٢١٦ ــ ١٢٢٧) كان هادىء الطبع ، ففضل توجيه جهود العالم الغربى نحو الحروب الصليبية بدلا من المنازعات العقيمة بين البابوية والامبراطورية •

الدور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

على أن جهود فردريك الثانى فى التمكين لنفسه من جهة ، واتخاذ ايطاليا وصقلية ــ لا ألمانيا ــ مسرحا أساسيا لهذه الجهود من جهة أخرى ، كان من شأنها أن تثير مخاوف البابوية (٢) • وازدادت هذه المخاوف عندما اتضح للبابوية أن فردريك الثانى غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمالها ــ أى فى لمبارديا • حقيقة ان فردريك حرص عندئذ على احترام مركز البابوية فى ايطاليا ، ولكن سيطرة الامبراطور على جنوب ايطاليا وشمالها أنذرت بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى ، مما جعل البابا ينظر الى محاولات فردريك وســــياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما ستتمخض عنه المستقبل (٣) •

وكان فردريك الثانى قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية ، كما وعده بفصل صقلية عن الامبراطورية • ولكنه عاد فأخذ يماطل فى القيام بالحملة التى وعد بها ، كما توج ابنه هنرى سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه فى حكم صقلية والامبراطورية جميعا مما ضايق البابوية وأفزعها (٤) • وفى سنة ١٢٢٠ تم تتويج فردريك الثانى امبراطورا فى روما بعد أن جدد

(1) Bryce: op. cit. pp. 203—204.
(2) Barraclough: op. cit. pp. 222—223.
(3) Idem, p. 228.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 364—365.

العهد بالقيام بالحملة الصليبية • ويبدو ان فردريك لم يكن جادا فى مشروعه الصليبى فى الوقت الذى كانت البابوية تتوق لارسال حملة صليبية على وجه السرعة لاصلاح الموقف الذى نجم عن فشل حملة حنابرين على مصر (١٢١٩ - ١٢٢١) • وأخيرا لجا البابا الى تشجيع فكرة زواج الامبراطور من الأميرة يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحه فى الذهاب الى الأراضى المقدسة واسترداد بيت المقدس من المسلمين • وفعلا تم الزواج سنة ١٢٢٥ ، ومع ذلك لم يخط فردريك الثانى خطوة جدية فى سبيل تنفيذ وعده الصليبى (١) • هذا الى أن فردريك الثانى لجأ بعد تتويجه الى فرض قوانين مشددة على رجال الدين ترمى الى الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم ، كما عقد مؤتمرا فى كريمونا سنه ١٢٢٦ أعلن فيه تمسكه بحقوقه الامبراطورية كاملة فى السيطرة على لمبارديا ، مما أفزع المدن اللمباردية ، فجددت حلفها ضد الامبراطور وسدت ممرات الألب فى وجهه • وكان صبر البابا هنريوس الثالث قد أوشك أن ينفد عندئذ ، فأخذ يتأهب لتجديد الحلف بين البابوية والمدن اللمباردية ، ولكنه توفى فى مارس سنة ١٢٢٧ مما أجل فتح باب النزاع بين الامبراطورية والبابوية (٢) •

وعلى الرغم من أن البابا الجديد جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعنا فى السن ، الا أنه امتاز بارادة حديدية لا تفل ، فلم يقبل الاعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية ، وأصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فورا (٣) • وكان أن أبحر الامبراطور فعلا من برنديزى قاصدا الأراضى المقدسة ، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضا فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧ (٤) • وهنا يجدر بنا أن نوضح مرة أخرى أن توقيع هذا القرار على الامبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثانى فى

---

(1) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 139.
(2) Hayward: op. cit. p. 200.
(3) Cam. Med. Hist, Vol. 6, p. 146.
(4) Kantorowicz: op. cit, p. 171.

تنفيذ وعده الصليبى فحسب ، بل أيضا تخوف البابوية من سياسة فردريك في ايطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص (١) • ومهما يكن من أمر فان هذا الاجراء فتح باب النزاع على مصراعيه بين البابوية والامبراطورية • وكانت ميلان مسئولة الى حد كبير عن فتح هذا الباب لأنها عارضت بشدة احياء النفوذ الامبراطورى فى لمبارديا ، فجددت الحلف اللمباردى لمدة خمس وعشرين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٢٢٦ ، كما أنها سدت ممرات الألب في وجه الجيوش الامبراطورية الوافدة من ألمانيا (٢) • أما البابا فقد أرسل رسله ومندوبيه الى كافة انحاء ايطاليا وألمانيا لابلاغ الناس القرار البابوى ضد الامبراطور وتحريضهم على الخروج عن طاعته • على أنه يبدو أن الامبراطور فردريك لم يتأثر بتلك الدعوة ، وظل ثابتا فى مركزه يرقب فشل عملاء البابا فى تحريك الثورة ضــده ، بل على العكس نجح دعاة الامبراطور فى اثارة فتنة ضد البابا في روما مما اضطر جريجورى التاسع الى الفرار منها سنة ١٢٢٨ (٣) •

وأخيرا أدرك فردريك الثانى أن مصلحته تستدعى القيام بحملته الصليبية المزعومة حتى يبدو فى ثوب المجاهد فى سبيل الغرض الصليبى ، فوصل عكا على رأس قوة صغيرة فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ • ويفهم من حوادث هــذه الحملة الصغيرة أن فردريك الثانى لم يخرج الى الشرق بقصد الحرب ، وانما كان يبغى مفاوضة المسلمين للحصول على كسب سريع • ولم تلبث هذه المفاوضة أن انقلبت الى نوع من الاستعطاف ، وهو السلاح الوحيد الذى كان يملكه فردريك الثانى عندما قدم الى الشرق فى بضع مئات من أتباعه • وتشير بعض المراجع المعاصرة الى أن فردريك كان يبكى فى بعض مراحل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود الى الغرب فاشلا ليواجه البابوية وبقية أعدائه فى ايطاليا وألمانيا (٤) • ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثانى الى السلطان الكامل الأيوبى أثناء المفاوضات يقــول

---

(1) Creighton: A Hist. of the Papacy, p. 26.
(2) Barraclough: op. cit. p. 230.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 367—368.
(4) Kantorowicz: op. cit, p. 185.

فيها « أنا مملوكك وعتيقك . وليس لى عما تأمره خروج ! وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم .. ! (١) » .

وهكذا استطاع فردريك الثانى أن يكتسب عطف السلطان الكامل ، فعقدت معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٢٩ سلم بمقتضاها الكامل بيت المقدس للامبراطور الذى استطاع أن يحقق نصرا عجزت عنه بقية الحملات الصليبية الضخمة التى وفدت الى المشرق بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقـــدس سنة ١١٨٧ . وكان أن دخل فردريك الثانى كنيسة القيامة فى بيت المقدس حيث أعلن من ذلك المكان المرموق أن قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده باطل ! ، كما توج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة (٢) . وهنا نلاحظ أن تتويج الامبراطور لنفسه فى هذه المناسبة له مغزى عميق ، اذ ربما أراد الامبراطور بذلك أن يعلن بطريقة صامتة فى تلك الكنيسة ذات الأهمية العظمى أنه لم يتلق التاج الامبراطورى من رجال الدين ، وأنه تلقاه من الله مباشرة دون وساطة أحد من رجال الكنيسة . هذا وان كانت بعض المراجع المعاصرة تفسر تتويج الامبراطور لنفسه بأن رجال الدين فى بيت المقدس امتنعوا عن تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، مطرود من رحمتها (٣) . ومهما يكن من أمر فان اقامة فردريك الثانى لم تطل فى الأراضى المقدسة ، اذ عاد بسرعة الى ايطاليا ليجد قوات البابا جريجورى التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه فى جنوب ايطاليا . بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر وفاة الامبراطور فى الشرق ليضعف مركزه فى ايطاليا وألمانيا ، واستغل هذه الفرية ليستولى على الأملاك الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من رسالة بعث بها الامبراطور الى أحد أصدقائه المسلمين فى الشرق بعد

---

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل البـاب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(2) Kantorowicz: op. cit. p. 199.

(3) Ibid.

عودته (١) . لذلك وقع خبر وصول الامبراطور فردريك الثانى الى ميناء برنديزى (يونيو ١٢٢٩) وقع الصاعقة على البابا جريجورى التاسع ، الذى يبدو أنه كان يخشى هجوما مسلحا يقوم به فردريك الثانى على روما ، فأرسل سنة ١٢٢٩ عدة رسائل الى كبار الأساقفة يأمرهم بسرعة الحضور ومع كل منهم قوة مسلحة للدفاع عن الكنيسة الرومانية ضد هجوم الامبراطور المتوقع (٢) . وأخيرا لم يجد البابا مفرا من الاعتراف بما حققه الامبراطور من مكاسب للمسيحية باسترداده بيت المقدس ، فعقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ مع الامبراطور ، وبمقتضاه رفع عنه قرار الحرمان مقابل تعهده بحماية أملاك البابا والاعتراف بحق البابوية فى السيادة على صقلية (٣) .

ومن الواضح أن صلح سان جرمانو لم يتعرض لأسباب الخلاف الحقيقية بين البابا والامبراطور ، لذلك لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة مؤقتة بين الطرفين . ومهما يكن من أمر ، فان فردريك الثانى استغل هذه الهدنة لتقوية نفوذه فى جنوب ايطاليا وصقلية . وهنا يظهر التناقض الشديد بين سياسة الامبراطور فى ايطاليا وسياسته فى ألمانيا ، اذ بينما هو يعمل على توطيد نفوذه فى ايطاليا عن طريق اضعاف الأمراء الاقطاعيين ، اذا به يعتمد على أمرائه

---

(١) أرسل الامبراطور فردريك الثانى رسالة بعد عودته الى ايطاليا الى الأمير فخر الدين ، رسول السلطان الكامل فى المفاوضات بينه وبين فردريك قبل تسليم بيت المقدس . وفى هذه الرسالة الطريفة يحكى الامبراطور لصديقه المسلم ما فعله البابا فى غيابه ، فضلا عما توضحه الرسالة من شعور عدائى متبادل بين البابوية والامبراطورية عندئذ ، فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، من قيصر العظيم امبراطور رومية فردريك ... وبعد علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا . فنشعره أن البابا باء بالغدر والخديعة . أخذ احدى قلاعنا المنيعة . واضطر الى أن زعم أننا متنا وحلف القرذنالية (الكرادلة) على ذلك ، وعلى أن رجوعنا مستحيل ، وراوضوا العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن جراية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا .. » .

أنظر المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٤ الباب ١٠٣ من التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان لأبى الفضائل الحموى .

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 296 N.I.

(3) Cam. Med. Hist, Vol. 6, p. 147.

الألمان فى امداده بالقوة اللازمة لتنفيذ سياسته الايطالية (١) • لذلك اضطر الامبراطور الى ترك الحبل على الغارب بالنسبة للامراء الألمان ، مما أدى الى تقويض نفوذ الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، لا سيما فى ذلك الوقت الذى أخذت المدن الألمانية تنمو لتتحول الى قومونات ذات نفوذ سياسى واقتصادى مستقل•
وفى تلك الأثناء كانت المدن اللمباردية ترقب بعين القلق ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا ، مما دعى الى تجديد الحلف فيما بينهما سنة ١٢٣٢ لمواجهة هذا الخطر المشترك (٢) • ولم تلبث تلك المدن أن ثارت ضد الامبراطور الذى اعتمد على معونة كبار الأمراء الاقطاعيين حتى تمكن من انزال هزيمة بقوات الحلف اللمباردى عند كورتنوفا Cortenuova قرب ميلان سنة ١٢٣٨ ، وبذلك ثأر فردريك الثانى لما حل بفردريك الأول فى لينانو سنة ١١٧٦ (٣) • ويبدو أن هذه الهزيمة أثارت شعور اليأس عند كثير من المدن التى أسرعت الى عقد الصلح مع الامبراطور ، بل ان ميلان نفسها عرضت حل الحلف اللمباردى الذى اصبح لا يضم سوى ست مدن ، ولكن فردريك أصر على أن يكون استسلام ميلان غير مشروط بقيد ، وبذلك أضاع فرصة طيبة للوصول الى تسوية سرية سريعة (٤) •

ذلك أن البابا جريجورى التاسع كان قد استعد للدخول فى نضال جديد مع الامبراطورية ، ولا سيما أن الاستياء بلغ به حدا كبيرا عندما أخذ فردريك الثانى — عقب انتصاره على المدن اللمباردية سنة ١٢٣٧ — يتصل بأهالى روما ويحرضهم على الثورة ضد البابا (٥) • وفى سنة ١٢٣٨ — ١٢٣٩ أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان — للمرة الثانية — ضد الامبراطور فردريك الثانى ، كما حرض رعاياه على الثورة ضده ، بل بلغ الأمر بالبابا أن عرض تاج الامبراطورية على أخ لملك فرنسا ، ولكن لويس التاسع لم يهتم بنداء البابا الذى

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 370.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 151.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 2. pp. 629—630.
(4) Barraclough: op. cit. p. 230.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 135.

وجهه اليه فى أكتوبر سنة ١٢٣٩ ، واختار أن يحترم اتفاقية الصداقة التى عقدتها أمه بلانش مع الامبراطورية(١) . أما جهود البابا فى اثارة المتاعب ضد الامبراطور بألمانيا فقد منيت كلها بالفشل ، مما مكن الامبراطور من مواصلة الحرب ضد البابوية فى ايطاليا ، وهو مطمئن تماما الى ناحية الجبهة الألمانية . وكان البابا يظن أنه يستطيع باكتساب القوى البحرية - جنوا وبيزا والبندقية - الى جانبه ، أن يشن هجوما على صقلية ليقضى على المركز الرئيسى لفردريك ، ولكن الهزيمة التى حلت باسطول جنوا سنة ١٢٤١ خيبت أمله(٢)، فى حين أخذت القوات الامبراطورية تهاجم الأراضى والمدن الموالية للبابا فى أواسط ايطاليا ، فاستولت على أنكونا ودوقية سبوليتو ، كما أصبح الامبراطور سيد رافنا وفاينزا Faenza ، بل أنه استولى على بعض المدن الشديدة القرب من روما مثل فوليجنو وفيتربو Viterbo بحيث أنه لم ينقذ البابا عندئذ سوى بقاء أهالى روما على ولائهم له(٣) . وأخيرا لم يجد البابا وسيلة لاحراج مركز فردريك الثانى فى أوربا كلها سوى عقد مجمع دينى فى روما يشترك فيه كبار رجال الدين بالغرب لانزال اللعنه بالامبراطور . وفعلا لبى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال ايطاليا وفرنسا وأسبانيا واجتمعوا فى ربيع سنة ١٢٤١ فى جنوا استعدادا للابحار منها الى روما . ولكن عددا كبيرا من مدن ايطاليا البحرية - وعلى رأسها بيزا - كانت موالية للامبراطور ، واستطاعت هذه القوة البحرية أن تتصيد السفن الجنوية التى تنقل الأساقفة الوافدين لحضور المجمع البابوى ، مما أوقع معظمهم فى أسر الامبراطور وأدى الى فشل مشروع البابا(٤) . ولم ينقذ هؤلاء الأساقفة من قبضة الامبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا باعلان الحرب ، وعندئذ أطلق فردريك الثانى سراحهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى توفى البابا جريجورى التاسع (أوغسطس ١٢٤١) وهو فى الثامنة والتسعين من عمره(٥) .

---

(1) Hayward : op. cit. p. 202
(2) Barraclough : op. cit. p. 231.
(3) Tout : The Emprie and the Papacy, p. 284.
(4) Kantorowicz : op. cit. pp. 544-546.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.

وقد أعقب جريجورى التاسع فى منصب البابوية كليستين الرابع ، ولكنه توفى فى العام نفسه (سنة ١٢٤١) وعندئذ تعذر انتخاب بابا جديد ، فظل كرسى البابوية شاغرا مدة سنة ونصف - بسبب دسائس فردريك الثانى - حتى اختير أنوسنت الرابع فى يونيه سنة ١٢٤٣(١) • وفى تلك الأثناء كانت المحادثات دائرة بين الفريق الامبراطورى من جهة والبابا جريجورى التاسع ثم أنوسنت الرابع من جهة أخرى للوصول الى اتفاق ينهى حالة النزاع بين الطرفين ، ولكن هذه المحادثات منيت بالفشل مرة بعد أخرى لاصطدامها بصخرة واحدة هى تمسك البابوية بالسيطرة على الموقف بين فردريك والمدن اللمباردية ، فى حين كان فردريك مستعدا للتساهل فى كافة المشاكل الكنسية المعلقة دون أن يسمح للبابا بالتدخل فى حقوقه الامبراطورية فى لمبارديا(٢) • وكان أن صمم أنوسنت الرابع على مواصلة سياسة جريجورى التاسع تجاه الامبراطورية ، مما جعل قوات الامبراطور - من المسلمين الذين استعان بهم وأسكنهم فى جنوب ايطاليا - تهجم على الأراضى البابوية • وقد اضطر البابا ازاء هذه الأخطار الى الفرار من روما سنة ١٢٤٤ الى جنوا ومنها الى فرنسا حيث عقد مجمعا دينيا فى ليون سنة ١٢٤٥ لبحث المشاكل الكبرى التى تواجه الكنيسة ، وعلى رأسها مسألة النزاع مع الامبراطورية(٣) • وقد قرر ذلك المجمع عزل فردريك من منصبه على أن يختار من يحل محله فى هذا المنصب • ويبدو أن فردريك الثانى أدرك خطر هذا القرار فأصدر نداء الى ملوك أوربا وحكامها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا من أجله واكتفوا باظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين ، على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر نفسه فى بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ورجالها(٤) • وقد أدرك أنوسنت الرابع بعد الانتصارات التى أحرزها فردريك الثانى فى ايطاليا أنه لن يستطيع كسب المعركة ضد الامبراطورية فى

---

(1) Hayward : op. cit. p. 203.
(2) Barraclough : op. cit. p. 321.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 156.
(4) Thompson. op. cit. Vol. 2. p. 630.

ايطاليا نفسها ، فأخذ يوجه جهوده منذ سنة ١٢٤٥ نحو ألمانيا لتنظيم عناصر المقاومة الداخلية ضد الامبراطور • وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساقفة ألمانيا وأمرائها قرروا سنة ١٢٤٦ اختيار أمير ثورنجيا ملكا على ألمانيا ، الا أن غالبية ألمانيا ظلت على ولائها للامبراطور فى الوقت الذى أخذ فردريك الثانى يستغل كل أداة توصله الى غرضه • وكان الصراع عنيفا — وبصفة خاصة فى الأراضى الايطالية — فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فبذل البابا جهودا قوية للحيلولة دون قيام وحدة امبراطورية متصلة تمتد من ألمانيا شمالا حتى صقلية جنوبا مما يهدد البابوية تهديدا خطيرا(١) • ويبدو أن الفريق الامبراطورى أحرز تفوقا ملحوظا بين سنتى ١٢٤٥ ، ١٢٥٠ حتى بات الامبراطور يحلم بعبور جبال الألب الى ليون حيث يقيم خصمه أنوسنت الرابع(٢) • ولكن فردريك الثانى فوجىء باشتعال نار الثورة فى بارما ١٢٤٧ ، حتى استطاع أهالى هذه المدينة احراز انتصار كبير على القوات الامبراطورية فى العام التالى • ويعتبر هذا الحادث نقطة تحول خطيرة فى تلك المرحلة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، اذ سرعان ما أخذ التيار يتحول بسرعة ضد الامبراطورية فثار أمراء أبوليا فى جنوب ايطاليا ، كما اشتدت مقاومة المدن المعادية للامبراطور فى شمالها(٣) • حقيقة ان الحظ ابتسم مرة للامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ عندما انتصرت قواته فى شمال ايطاليا ، كما جاءت الأخبار من ألمانيا بانتصار ابنه كونراد على غريمه وليم أمير هولندا الذى اختارته البابوية ملكا على ألمانيا(٤)• ولكن لم يكن لهذه الانتصارات أية ثمرة نتيجة لوفاة الامبراطور فردريك الثانى فى ديسمبر سنة ١٢٥٠ وهو فى طريقه من جنوب ايطاليا الى شمالها •

وبوفاة فردريك الثانى انتهت الصفة العالمية للامبراطورية الرومانية المقدسة،

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 232
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 390
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 161-162.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 390

لأنه كان فى الواقع آخر الأباطرة العظام الذين تمسكوا بالعقيدة الامبراطورية وأصروا على سمو الامبراطورية وطابعها العالمى(١) • واذا كنا فى حديثنا عن الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى قد تعمدنا عدم الاستطراد الى مختلف التطورات التى أخذت تسرى فى جوف الامبراطورية ، وذلك لعرض الصراع فى صورة متصلة الحلقات ، الا أن ذلك لا يعنى الاقلال من شأن هذه التطورات وأثرها • وأول ما نلاحظه أن حوادث النزاع بين الامبراطورية والبابوية صرفت الأباطرة عن ألمانيا وشئونها ، مما أدى الى ازدياد نفوذ السلطات المحلية • ونخص بالذكر فردريك الثانى الذى جعل لصقلية وايطاليا المكانة الأولى فى برنامجه ونشاطه ، مما زاد من أهمية العنصر الايطالى فى الحكومة الامبراطورية وذلك طبعا على حساب ألمانيا • ولا عجب ، فان فردريك الثانى اعتبر نفسه صقليا قبل أن يكون ألمانيا حتى أنه لم يمض فى ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذى امتد من سنة ١٢١٢ حتى سنة ١٢٥٠(٢) • على أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع لم تعرقل بأى حال التطور الحضارى الذى أسرعت ألمانيا فى طريقه وقتئذ ، فانتعشت التجارة حتى أصبحت ألمانيا مركزاً عالميا للتجارة فى غرب أوربا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التى ازدهرت فيها الآداب والقانون والنشاط التشريعى ، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين حباهم فردريك الثانى بقسط من رعايته • وفى ذلك الوقت استمر النفوذ الألمانى فى اتساعه شرقا وشمالا حتى أصبح للألمان سيطرة على أراضى البلطيق والدانمرك فضلا عن العناصر السلافية فى الشرق(٣) •

ومهما يكن من أمر ، فاننا نكرر القول بأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية بوفاة الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، وأن ظلت اسميا حتى القرن التاسع عشر • وقد حدث أن توفى كونراد الرابع ابن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 164.
(2) Barraclough : op. cit. p. 219-220.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 373.

فردريك الثانى سنة ١٢٥٤ ، وأعقبت ذلك فترة استمرت عشرين سنة ظلت ألمانيا طوالها مسرحا للمنازعات والحروب الأهلية دون امبراطور يحكمها أو يسوس شئونها مما جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور (Interregnum) فى التاريخ الألمانى • وهكذا يبدو لنا فى وضوح كيف ذهبت الملكية ضحية فكرة الامبراطورية العالمية ، اذ ضحى ملوك ألمانيا بمستقبل بلدهم السياسى القومى فى سبيل تمسكهم بسراب الامبراطورية الرومانية العالمية وجريهم وراء مشروعات فاشلة فى ايطاليا(١) • ولا شك فى أن المدن الألمانية استفادت من ذلك الوضع فائدة كبرى ، اذ أخذ كثير منها يخطو خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى(٢) • • وقد شعرت هذه المدن بحاجتها الى الترابط للمحافظة على حريتها واستقلالها مما أدى الى مولد « عصبة الراين » حوالى سنة ١٢٥٤ التى تألفت من عدة مدن أهمها ميزوورمز وبازل وستراسبورج ، كما أن التحالف الذى تم بين هامبورج وليوبك حوالى ذلك الوقت وضع أساس العصبة الهانزية Henseatic League

أما قصة النزاع بين البابوية والامبراطورية فقد انتهت على هذا الوجه السلبى بعد أن عجز الأباطرة عن اخضاع البابوية وادخالها تحت سيطرتهم • ومن السهل الوقوف على أسباب انتصار البابوية ، اذ ظل الأباطرة يستندون الى أحلام الماضى ومجد أسلافهم القدامى ، دون أن يحسبوا حسابا لروح العصور الوسطى — عصور الايمان والدين • أما البابوات فكانوا يستندون الى دعائم أقوى وأكثر تغلغلا فى نفوس الناس ، لأنهم استمدوا قوتهم من نفوذهم الروحى وما للدين من سلطان كبير على قلوب الأفراد • وحسب البابوات قوة أن ينادوا بأنهم خلفاء المسيح فى الأرض وأن بأياديهم مفاتيح الجنة والنار • فاذا كان الأباطرة يسيطرون على الدنيا فان هذه الدنيا ليست الا عرضا زائلا

---

(1) Bryce : op, cit. p. 210.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 112-113.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 637.

لا يلبث أن ينتهى بالموت ، وعندئذ تصبح الكلمة فى حياة البقاء والخلود للدين ولأهل الدين . ويكفى قول المسيح للحواريين « الحق أقول لكم كلّ مــــا تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكلّ ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء(١) » .

(١) العهد الجديد ــ انجيل متى ــ الاصحاح الثامن عشر ، ١٨ .

الباب الخامس عشر

الدولة البيزنطية والسلاجقة

(٨٠٢ - ١٠٩٦)

لم يهتم المفكرون الغربيون فى العصور الوسطى كثيرا بأمر الامبراطورية البيزنطية ، فأجحفوا بحقها فى وراثة روما وأنكروا فضلها فى حماية الحضارة الأوربية من خطر هجمات الفرس ، وغيرهم من العناصر الآسيوية والشمالية(١) . على أن هذا النكران الذى تعرضت له الامبراطورية البيزنطية من جانب الغرب لم يعرقل تطورها ، فمضت فى سبيلها حاملة وحدها عبء الامبراطورية بعد أن سقطت فى غرب أوربا سنة ٤٧٦ . وفى تلك الأثناء ظلت الامبراطورية البيزنطية تتمسك بعلاقاتها مع الغرب حينا ، وتشغلها الأخطار التى أحاطت بها عن الغرب أحيانا ، حتى كان عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) وعندئذ بدأت الامبراطورية البيزنطية تتخذ اتجاها شرقيا ثابتا ، وبعبارة أخرى انتهى العصر الرومانى على عهد هرقل وبدأ العصر البيزنطى(٢). ثم جاء الخلاف اللاأيقونى فى القرن الثامن ليزيد من اتساع الفجوة بين الشرق والغرب ، اذ وقفت البابوية من الأباطرة البيزنطيين موقفا عنيدا وأظهرتهم فى ثوب الهراطقة الخارجين عن طاعة الكنيسة ، مما أنقص هيبة هؤلاء الأباطرة فى نظر العالم الغربى وقلل من مكانتهم(٣) . وهكذا ساعدت الظروف على احياء الامبراطورية فى الغرب سنة ٨٠٠ ، وبذلك لم يعد هناك مبرر لاعتبار الامبراطورية البيزنطية وحدها وريثة روما ، بعد أن وجدت امبراطورية أخرى فى الغرب تشاركها فى هذه الصفة وتقاسمها التراث

---

(1) Bryce : op. cit. p. 317
(2) Ostrogorsky :op. cit. p. 95
(3) Eyre; op. cit. p. 84.

الروماني(١) • بل اذا كان هناك بد من اختيار احدى الامبراطوريتين الشرقية أو الغربية لتنفرد وحدها بتمثيل الامبراطورية الرومانية القديمة ، فان حق الامبراطورية الغربية فى نظر المعاصرين كان أوضح وأظهر لارتباطها بالكنيسة الغربية العالمية وبالبابوية من جهة ، ولقربها من قلب العالم الرومانى القديم من جهة أخرى •

وكان هذا هو الموقف فى العالم الرومانى عند نهاية القرن الثامن ، أى فى الوقت الذى أضحت مصائر الامبراطورية البيزنطية معلقة بأيدى الامبراطورة ايرين (٧٩٧ - ٨٠٢) • وقد دارت مفاوضات بين هذه الامبراطورة وبين شارلمان ترمى الى زواج امبراطور الغرب الجديد من امبراطورة الشرق ، كوسيلة لتحقيق وحدة الامبراطورية الرومانية ، ولكن سياسة هذه الامبراطورة الشريرة جعلت روح الاستياء والتذمر من حكمها تعم الشرق والغرب جميعا(٢) • ولم يلبث هذا الاستياء أن انقلب الى ثورة فى القصر الامبراطورى عقب وصول رسل شارلمان بقليل (اكتوبر ٨٠٢) حتى انتهى الأمر بعزل ايرين ونفيها الى جزيرة لسبوس حيث ماتت قبل أن يتم مشروع الزواج الذى تحمست له وتمنت تحقيقه(٣) • وبخلع الامبراطورة ايرين سنة ٨٠٢ سقطت الأسرة الأيسورية (٧١٧ - ٨٠٢) وبدأت فترة انتقال استمرت حتى سنة ٨٢٠ وهى السنة التى قامت فيها الأسرة المورية أو الفريجية (٨٢٠ - ٨٦٧) • واذا كانت فترات الانتقال بين الأسرات الحاكمة فى التاريخ البيزنطى امتازت عادة بالفوضى وعدم الاستقرار ، كما حدث بين سنتى ٦٩٥ ، ٧١٧ أى بين سقوط بيت هرقل وقيام البيت الأيسورى ، الا أننا لا نجد أثرا لهذه الظاهرة فى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٠٢ ، ٨٢٠ ، اذ لم تحدث فيهما اضطرابات خطيرة ، وان امتازت بالتدهور العام فى أحوال الامبراطورية(٤) •

---

(1) Vasiliev, op. cit. Tome I, pp. 352-353.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 42.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 165.
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 478-479.

وقد خلف ايرين فى الحكم الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١) ، الذى عرف بالمهارة والكفاية عندما كان وزيرا للمالية فى السنوات السابقة لاعتلائه عرش الامبراطور • وتبدو مهارة هذا الامبراطور فى الطريقة التى عالج بها المشاكل القائمة أمامه ، اذ ثبت مركزه فى الحكم وقضى بنجاح على بعض قادة الجيش المناوئين ، كما أقلع عن السياسة الدينية الخرقاء التى اتبعتها ايرين ، فضلا عما لجأ اليه من معاملة اللا أيقونيين معاملة تنطوى على التسامح الكبير • على أن سياسة التسامح هذه لم تعجب رجال الكنيسة وعلى رأسهم البطريرق ، مما جعل نقفور يشدد الرقابة عليهم ويلزمهم باتباع تعليماته ، الأمر الذى دفع بعض الحوليات فى العصور التالية الى وصفه بالقسوة والخشونة (١)• وكذلك وجه نقفور جزءا كبيرا من جهوده فى العهد السابق ، فزاد من بعض الضرائب وفرض رسوما على أراضى الاديرة والكنائس • وقد طبق نقفور النظام الاجماعى فى دفع الضرائب حتى يضمن وصول الأموال المستحقة الى الخزانة عن طريق تضامن جميع أهالى منطقة معينة فى دفع ما على المنطقة من ضرائب (٢) •

أما نظام الدفاع عن الامبراطورية ، فان نقفور لم يكتف بجمع جنوده من أبناء طبقة معينة من ذوى الدخل المعلوم ، وانما جعل كل قرية مسئولة عن امداد مجنديها بنفقات آلات الحرب التى تجعل منهم محاربين صالحين • وكذلك لجأ الى نقل بعض سكان آسيا الصغرى من رعايا الامبراطورية الى البلقان ليقيم منهم مستعمرات فى الجهات التى انتشر فيها السلاف، مما جعل لهذه المستعمرات وظيفة حربية فى الدفاع عن الامبراطورية (٣) • هذا وان ظلت العناصر السلافية فى البلقان مصدر متاعب كثيرة للامبراطورية •

واذا كان نقفور قد اهتم اهتماما كبيرا بالادارة والمالية والجيش ، فانه من الواضح أن هذه اصلاحات جاءت ضرورية لتمكين الامبراطورية البيزنطية

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome I, p. 373.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 27
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 169-170.

من مواجهة الأخطار الخارجية التى أحاطت بها في ذلك العصر • وأول هذه الأخطار جاء من جانب المسلمين فى الشرق ، بعد أن رفض نقفور دفع الجزية التى تعهدت الامبراطورة ايرين بدفعها للخليفة العباسى هارون الرشيد ، مما جعل جيوش الدولة العباسية تجدد هجماتها على أراضى الامبراطورية • ويبدو أن نقفور لم يوافق في حربه ضد المسلمين لأنه أسرع الى شراء السلم من الخليفة العباسى مقابل مبلغ كبير من المال (١) •

على أن الخطر الحقيقى الذى هدد الامبراطورية البيزنطية حينئذ لم يأت من جانب المسلمين فى الشرق بقدر ما أتى من جانب البلغار الذين أضحوا قوة خطيرة منذ أواخر القرن الثامن ، حتى أخذوا يقومون بهجمات عنيفة فى جوف تراقيا تحت قيادة ملكهم كروم Krum ، الذى عرف بالمقدرة والقسوة • ويبدو أن خطر البلغار تفاقم عندئذ الى الدرجة التى اضطرت الامبراطور نقفور الى النزول بنفسه الى ميدان القتال سنة ٨١١ (٢) • وقد حالف النصر الامبراطور البيزنطى فى أول الأمر فأنزل هزيمة بالبلغار ، واستولى على قصر ملكهم ونهبه ، ولكن لم تكد الجيوش البيزنطية تفيق من نشوة النصر حتى دهمتها قوات البلغار ليلا ، فمزقتها شر ممزق وقتل نقفور نفسه ، فى حين انسحبت فلول جيشه فى غير نظام تاركة خلفها جثة الامبراطور ليضع ملك البلغار من جمجمته وعاء يحتسى فيه نخب انتصاره ! (٣) •

أما ابن نقفور ووريثه فى منصب الامبراطورية فقد جرح فى المعركة جرحا جعله بين الحياة والموت • وهنا انتهز ميخائيل ـ زوج ابنة نقفور الوحيدة ـ الفرصة واغتصب عرش الامبراطورية (٨١١ ـ ٨١٣) • وقد اتصف ميخائيل الأول هذا بعدم المقدرة والجبن والتشكك فيمن حوله ، وهى النواحى التى

---

(1) Idem : op. 173
(2) Diehl, Marcais : Le Monde Orientale, p. 249
(3) Vasiliev : op. cit. Tome I, p. 370

ظهرت واضحة فى تصرفاته (١) • ذلك أنه تردد فى محاربة البلغار الذين اشتدت اغاراتهم على تراقيا واتسع نطاقها ، حتى اضطر ميخائيل الأول الى منازلتهم فى نهاية الأمر ، وعندئذ منى بهزيمة نكراء • وفى الميدان السياسى اتخذ ميخائيل الأول خطوة مشينة — فى نظر رعاياه — هى اعترافه بشارلمان امبراطورا شرعيا مساويا فى المرتبة للامبراطور البيزنطى (٢) • أما فى الجانب الدينى فقد أقلع عن سياسة التسامح التى اتبعها سلفة نقفور واتبع سياسة أيقونية أدت الى اضطهاد اللاأيقونيين وعزلهم من مناصب الدولة العليا فى الجيش والادارة (٣) •

ويبدو أن هذه السياسة الأيقونية من جهة ، وتقاعس ميخائيل الأول عن دفع البلغار الذين هددت هجماتهم القسطنطينية نفسها من جهة أخرى ، أغضبت رجال الجيش ، فثارت الوحدات المتجمعة فى أدريانوبل (أدرنه) ، وأعلنت عزل ميخائيل ونفيه الى أحد الاديرة سنة ٨١٣ ، فى حين أعلن أحد قادة الجيش — وهو ليو الأرمنى — نفسه امبراطورا (٤) •

والحق أن ليو الخامس — الأرمنى — كان امبراطورا قديرا (٨١٣ — ٨٢٠ م) أنزل هزيمة ساحقة بالبلغار عند مسبريا Mesembria جعلتهم يطلبون الصلح ولا يجرءون على غزو أراضى الامبراطورية مرة أخرى قبل عدة سنوات • أما فى النواحى الادارية فقد أعاد تنظيم الادارة والجيش والمالية حتى تستعيد الامبراطورية قوتها نشاطها فى الداخل والخارج • وهكذا أصبح من المحتمل أن ينجح ليو الخامس فى تأسيس أسرة قوية تتوارث حكم الامبراطورية البيزنطية بعد أن بدأ هذه البداية المشرفة فى الداخل والخارج (٥) • ولكن لم يلبث تيار النزاع اللاأيقونى أن جرف ليو فى طريقه حتى قضى عليه وعلى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 29
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 355
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 29
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 177-178
(5) Oman : The dark Ages, p. 482.

حمكه . ذلك أن ليو الأرمنى كان – كغيره من سكان الأجزاء الشرقية من الامبراطور – لاأيقونيا متشددا ، فطلب من البطريرق نقفور سنة ٨١٥ أن يرفع بعض الصور الى مستوى مرتفع لا يمكن الناس من تقبيلها أو معانقتها . ولما رفض البطريرق تنفيذ أمر الامبراطور عزله وعين بدله من شارك الامبراطور آراءه اللاأيقونية . وعلى الرغم من أن ليو الخامس كان معتدلا فى سياسته اللاأيقونية ، الا أنه أثار موجة من المعارضة والاستياء انتهت بنجاح المؤامرة التى دبرت لقتله سنة ٨٢٠ (١) .

الأسرة العمورية(٢) :

تزعم ميخائيل العمورى المؤامرة التى أودت بليـــو الخامس . ولم يلبث ميخائيل هذا أن توج امبراطورا فى كنيسة القديسة صوفيا (ديسمبر ســـنة ٨٢٠) ، باسم ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩) ولم يكن ميخائيل الثانى على شىء من المقدرة التى امتاز بها سلفه ، ولكنه عرف بالشدة والقسوة اللتين أرهب بهما خصومه ، حتى تمكن من اخماد الحركات الثورية التى قامت فى أوائل عهده فى مختلف أنحاء الامبراطورية (٣) . وترجع أهمية هـــذه الثورات الى أن مسلمى الأندلس استغلوا انشغال أســـاطيل الامبراطورية وجيوشها واجتاحوا جزيرة كريت (٨٢٣ – ٨٢٥) حيث أسسوا مدينـــة جديدة أحاطوها بخندق وعرفت بالخندق ، وهو اللفظ الذى حرف فى اللغات الأوربية الى خانداكس Chandax أو كانديا Candia ، وأصبح علما للجزيرة أو أكبر مدنها(٤) . وعندما أفاق ميخائيل الثانى من متاعبه الداخلية بذل محاولتين لاسترداد كريت من المسلمين ، ولكن جهوده باءت بالفشل ،

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 180

(٢) نسبة الى مدينة عمورية Amorium فى اقليم فريجيا بآســـيا الصغرى مسقط رأس مؤسس الأسرة .

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 33

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 367

وبذلك ظلت هذه الجزيرة بأيدى المسلمين مدة تربو عن قرن وربع (١) .
ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت كان ضربة كبرى للتجارة الامبراطورية
فى بحرايجه ، ولاسيما أن المسلمين غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧ مما مكنهم
من السيطرة على طريق الملاحة فى البحر المتوسط (٢) .

على أن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يهتم هو نفسه كثيرا بضياع كريت ،
وكأنه حمد الله على عدم تعرضه لغزوة كبرى من جانب الدولة العباسية
تهدد قلب امبراطوريته . واذا كان الأيقونيون قد ظاهروا ميخائيل الثانى عند
اعتلائه العرش الا أنه رفض أن يجعل نفسه أداة فى أيديهم ، فمانع فى
اضطهاد اللاأيقونيين واختار أن يتبع سياسة ملؤها التسامح تجاه الأيقونيين
واللاأيقونيين على حد سواء (٣) . وهذه السياسة التى تبدو عادله ومتزنة فى نظر حكم
المنصف ، لم ترض أحدا من الفريقين المتنازعين ، مما جعل ميخائيل الثانى
يموت سنة ٨٢٩ مغضوبا عليه من الجميع .

وقد خلف ميخائيل الثانى أكبر أبنائه ثيوفل Theophilus) ٨٢٩ —
٨٤٢) الذى امتاز بنشاطه وحبه للحرب وقوة عزيمته . من ذلك أنه قضى
الشطر الأكبر من حكمه فى محاربة العباسيين بعد أن ظن أنهم أمسوا بعد
وفاة الرشيد فى حالة من الضعف تمكنه من استرداد بعض مافقدته
الامبراطورية على أيام هرقل . لذلك استفز ثيوفيل الخليفة المأمون (٨١٣ —
٨٣٣) بايواء بعض الهاربين من وجه الخليفة ، مما أثار حربا بين الطرفين
استمرت أكثر من ثلاثين سنة دون أن يستطيع أحدهما انزال ضربة قاصمة
بخصمه ، وانما اتخذت الحرب شكل اغارات مفاجئة تخللتها هدنات
قصيرة (٤) . وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات المجاورة من الدولة
البيزنطية فى اقليم كابادوكيا حتى وصلت جيوشه هرقلة سنة ٨٣١ ، هذا فى

(1) Cam. Med. Hist .Vol. 4, p. 36.
(2) Diehl, Marcais : Le Monde Orientale, p. 311
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 376
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 185

الوقت الذى أغارت الأساطيل العباسية على الجزر الواقعة قرب الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى . ويبدو أن تحمس الخليفة المأمون لحرب البيزنطيين دفعه الى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات فى آسيا الصغرى فاستولى على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة Tyana العظيمة التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية (١) . على أن حسن حظ الامبراطورية شاء أن يمـــوت المأمون فى تلك المرحلة بعد أن أرسل اليه ثيوفيل رسلا يطلبون الصلح ، فانسحبت الجيوش الاسلامية الى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التى فتحتها وراء جبال طوروس (٢) . وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحا فى عصر الخليفة المعتصم ، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع الى الهجوم ، فهاجم أعالى الشام ما بين النهرين . ولم تلبث جرأة البيزنطيين فى مهاجمة البلاد الاسلامية ، واغاراتهم على مدينة زبطرة (Sozopetra, Zapetra ذات المكانة الخاصة عند المعتصم أن استثارت الخليفة ، فنزل بنفسه الى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية Amorium مسقط رأس الامبراطور وأسرته ، انتقـــاما لمدينة زبطرة . وقد أسرع ثيوفيل لانقاذ بلدته ولكن الهزيمة حلت بجيوشه، واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم الى سامرا (٣) . ومهما يكون من أمر فان وصول المسلمين الى جوف اقليم فريجيا بآسيا الصغرى لم تعقبـــه مضاعفات خطيرة على الامبراطورية ، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لزبطرة وتحقيق قسمه ، وعندئذ عادت الامبراطورية واستردت أراضيها فى آسيا الصغرى حتى جبال طوروس . ولم يلبث أن أدى انشغال كل من الخليفة المعتصم والامبراطور ثيوفيل الى عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتى وفاة الاثنين سنة ٨٤٢ (٤) .

أما أهم المسائل الداخلية التى شغلت الامبراطور ثيوفيل فكانت الحركة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 128
(2) Vasiliev : *op. cit. Tome 1*, p. *364*
(3) *Diehl, Marcais : Le Monde Oriental*, pp. 312-313
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 131

اللاأيقونية ، فأمر سنة ٨٣٢ بتدمير جميع الصور والتماثيل الدينية مهما يكن نوعها سواء كانت للمسيح أو للقديسين • وقد ساعد الامبراطور في تنفيذ سياسته الدينية البطرق حنا النحوى John Grammaticus الذى أصدر قرار الحرمان ضد جميع الأســـاقفة والديرين الذين لم يمتثلوا للقرار السابق (١) • ويبدو أن ثيوفيل تطرف فى اضطهاد عبدة الأيقونات على الرغم من أن قصره الامبراطورى اكتظ بالأيقونيين الذين لم يجرؤوا على اظهار ميولهم ، وعلى رأس هؤلاء الامبراطورة ثيودورا • وهكذا مات ثيوفيل سنة ٨٤٢ بعد أن أصلح النظام القضائى وأنعش الخزانة وشجع التجارة حتى غدت القسطنطينية عى عهده مركزا من أعظم مراكز التجارة الأوربية (٢) •

على أن سوء حظ الامبراطورية شاء أن يموت ثيوفيل وابنه ميخائيل الثالث فى الرابعة من عمره ، فتشكل مجلس وصاية على الطفل الصغير برآسة أمه الامبراطورة ثيودورا • وهنا تكررت مأساة الامبراطورة ايرين ، فتنكرت ثيودورا لسياسة زوجها ، وكشفت القناع عن ميولها الأيقونيــــة ، فعـــزلت البطريريق حنا النحوى والأساقفة اللاأيقونيين ودعت مجمعا فى القسطنطينية لاعادة الأيقونية وتسفيه اللاأيقونية (٣) • وهكذا لم يمض ثلاثون يوما على وفاة ثيوفيل حتى انقلبت سياسته رأسا على عقب ونزلت الاضطهادات تترى على اللاأيقونيين الذين أخذوا يهجرون البلاد بالجملة(٤) • وفى سنة ٨٥٦ بلغ ميخائيل الثالث الثامنة عشر من عمره ، فاستولى على مقاليد الأمـــــور ، وبدأ باقصاء أمه ومصادرة ثروتها • وقد عرف ميخائيل الثالث بسوء الخـلق والادمان على معاقرة الخمر والميسر وغيرهما من أنواع الغى والفساد ، حتى لقبه رعاياه بلقب « السكير » • وربما كان المسئول الأول عن انحــــراف الامبراطور هو خاله برداس Bardas ـ أخو ثيودورا ـ وهو الذي أشرف على تربيته حتى نشأ تلك النشأة الفاسدة • وقد ظل الخال يسيطر

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 186
(2) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 313-316
(3) Vasiliev : op. cit, Tome 1, p. 378
(4) Oman : The Dark Ages, p. 489.

على ابن اخته ويشاركه فى الحكم حتى تخلص منه الامبراطور عن طريق مؤامرة اشترك فيها باسل المقدونى ، مؤسس الأسرة المقدونية فيما بعد (١).

أما عن سياسة ميخائيل الثالث الخارجية والداخلية ، فأهم ما فيها قيامه ببعض حروب كللت بالنجاح . ففى عهده قام الروس بأول هجوم لهم على القسطنطينية سنة ٨٦٠ فى الوقت الذى كان الامبراطور يخترق آسيا الصغرى فى طريقة لحرب المسلمين . وعندما سمع الامبراطور بوصول الروس خارج أسوار القسطنطينية ، عاد مسرعا ونجح فى تخليص عاصمته من هذا الخطر الجديد . ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات بين الدولة البيزنطية من جهة ومملكة الروس الناشئة من جهة أخرى ، كما بدأت الجهود التبشيرية لتحويل الروس الى المسيحية كوسيلة لدفع خطر أولئك الجيران وادخالهم دائـرة الحضارة المسيحية (٢) . والواقع أن أهم ما يميز ذلك العصر هو جهود الكنيسة الشرقية فى نشر المسيحية بين الشعوب المجاورة كالروس والسلاف والبلغار . ذلك أن ميخائيل الثالث لم يكتف بما أعلنه ملك البلغار من ولاء وتبعية للامبراطورية البيزنطية ، وانما أجبره أيضا على اعتاق المسيحية سنة ٨٦٤ ، الأمر الذى جعل العلاقات بين البلغار والبيزنطيين تتخذ طابعا أكثر مرونة فيما بعد (٣) . وقد نشأ ميخائيل الثالث على سياسة أمه فى تأييد عبادة الصور ، حتى أنه أخرج جثث زعماء اللاأيقونيين من قبورها وليحرقها .

وكان ميخائيل الثالث قد أشرك معه ـ بعد مقتل خاله ـ أحد رفقائه وهو باسل المقدونى بعد أن أعجب بشجاعته وقوته . ولكن باسل هـذا لم يلبث أن تخلص من ميخائيل الثالث بالقتل سنة ٨٦٧ وبذلك انتهى البيت العمورى وبدأ عصر البيت المقدونى فى التاريخ البيزنطى (٤) .

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 360
(2) Ostrogorsky : op. cit. pp. 202-203
(3) Diehl, Marcais op. cit. p. 325
(4) Idem pp. 327-328

الأسرة المقدونية :

كان النفوذ الفعلي في الدولة بأيدي باسل المقدوني عندما تخلص من ميخائيل الثالث بالقتل ، فلم يجرؤ أحد على معارضته أو الوقوف في وجهه ، وبذلك قامت الأسرة الجديدة في الحكم دون نزاع أو حرب أهلية . وقد حقق أباطرة الأسرة المقدونية قسطا وافرا من السعادة والرخاء للدولة البيزنطية مدة تزيد على قرن ونصف ، اذ استقرت الأوضاع في الداخل بعد أن نجح المقدونيون في جعل الحكم وراثيا في أسرتهم ، كما استطاعت الدولة الثبات في وجه الأخطار الخارجية التي هددت كيانها في ذلك العصر (١) . والواقع أن باسل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦) كان على درجة كبيرة من المقدرة والكفاية على الرغم من الطريقة التي توصل بها الى العرش والتي تنم عن روح الغدر والخيانة . ولذلك يقترن اسم باسل المقدوني بأطول أسرة عرفها التاريخ البيزنطي ، هي الأسرة التي ظلت تحكم الامبراطورية الشرقية حتى سنة ١٠٥٦ . والظاهرة العامة التي تبدو لنا من دراسة تاريخ باسل الأول هو أنه حاول جهد استطاعته أن يمحو من أذهان رعاياه الحقيقة الخاصة بأنه كان في يوم ما نديما للامبراطور السكير ميخائيل الثالث وصفيا له ، فأثبت مثابرته على العمل واقتصاده في النفقات وعدالته في معاملة رعاياه مما أدى الى انتعاش الامبراطورية في عهده انتعاشا واضحا (٢) . وقد قدر لبعض أعمال باسل المقدوني البقاء لتخلد ذكراه ، مثل المجموعة القانونية التي أصدرها بعد مراجعة قوانين جستنيان واضافة الاكلوجا (المختار) التي أصدرها ليو الأيسوري ، وبذلك جاءت مجموعة باسل الأول مرجعا قانونيا للدولة البيزنطية حتى أواخر عهدها (٣) . أما تنظيماته المالية فقد ظلت قائمة هي الأخرى نحوا من قرنين بعده . على أن كياسة باسل الأول وبعد نظره يبدوان بوضوح في سياسته الدينية التي حاول

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 177
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 51-52
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 450

فيها أن يعالج الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية من جهة وأن ينهى الشقاق اللاأيقونى من جهة أخرى (١) .

أما حروب باسل الأول فقد صادفه فيها التوفيق بوجه عام ، وذلك اذا استثنينا ميدان صقلية . ويبدو أن الظروف التى أحاطت بأعداء الامبراطورية البيزنطية كان لها فضل كبير فى هذا التوفيق ، حتى أصبح فى استطاعة الامبراطورية أن تسترد ما كان لها من أقاليم واسعة قبل ذلك بثلاثة قرون على عهد جستنيان ، وذلك لو أتيح لباسل خليفة قوى يرثه فى حكم الامبراطورية . فايطاليا كانت مفككة تسودها الفوضى ، فى حين أمسى السلاف فى شرق أوربا يعانون الأمرين من ضغط المجريين ، بحيث لم تجد الدولة البيزنطية وقتئذ عدوا خطيرا يهدد حدودها الغربية(٢) . أما عن الحدود الشرقية فان الدولة العباسية كانت تسير فى ذلك الوقت بخطى سريعة فى طريق التفكك والانحلال حتى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمان سنوات (٨٦١ - ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم اثنان مقتولين (٣) ! لذلك لاعجب اذا أخذت الدولة البيزنطية تمتد شرقا لأول مرة منذ حركة الفتوح الاسلامية ، حتى بلغت جيوش الامبراطورية ميافارقين من جهة وحلب من جهة أخرى(٤) . كذلك استرد باسل المقدونى جزيرة قبرس لفترة قصيرة ، وأخضع الحركة الثورية التى قام بها بعض الهراطقة على الحدود الأرمينية . هذا فى الوقت الذى أحرزت أساطيل الامبراطورية بعض الانتصارات البحرية على سفن المسلمين بكريت وشمال افريقية . وقد حدث أن طلب لويس الثانى فى الغرب المعونة من باسل المقدونى ضد المسلمين فى صقلية وجنوب ايطاليا ، فأرسل الامبراطور البيزنطى سنة ٨٦٨ أسطوله الذى نجح فى تطهير الأدرياتى من المسلمين ، كما هجم البيزنطيون على بارى Bari ، ولكنهم لم يتموا عملياتهم الحربية واختاروا

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 208

(2) Oman : The Dark Ages; p. 493

(٣) أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكل (٢٤٧ هـ) ، أبو العباس أحمد المستعين بالله (٢٤٨ هـ) ، أبو عبد الله محمد المعتز بالله (٢٥٢ هـ) ، أبو اسحق محمد المهتدى بالله (٢٥٥ هـ) وقد قتل الاثنان الأخيران ؛

(4) Diehl, Marcais : op. 439.

العودة بعد أن دب الشقاق بينهم وبين لويس الثانى (١) . على أن حرص الدولة البيزنطية على الاحتفاظ بنفوذها فى ايطاليا دفع الامبراطور باسل الأول الى ارسال جيوشه اليها عقب وفاة لويس الثانى سنة ٨٧٥ ، وعندئذ صادفت الجيوش البيزنطية نجاحا كبيرا فى حربها ضد المسلمين فاستولت على بارى سنة ٨٧٥ ، وأخذ البيزنطيون ينتزعون مدن أبوليا واحدة بعد أخرى حتى استولوا على تارنتو Tarento معقل المسلمين فى جنوب ايطاليا . وعندئذ اجتاح القائد البيزنطى نقفور فوقاس(٢) اقليم كالبريا بحيث لم يترك معقلا واحدا فى أيدى المسلمين فى الجزء الجنوبى الشرقى من ايطاليا (٨٨٤ - ٨٨٧)(٣) على أن اهتمام البيزنطيين بجنوب ايطاليا جعلهم يهملون أمر صقلية ، حتى أن الانتصارات التى أحرزها البيزنطيون فى ايطاليا كانت لا تزيد بأى حال عن تلك التى حصل عليها المسلمون فى الوقت نفسه فى صقلية . ولم تلبث سيراكيوز (سراقوسة) عاصمة الجزيرة أن سقطت فى أيدى المسلمين بعد حصار قصير (٨٧٧ - ٨٧٨) ، وبذلك لم يبق للبيزنطيين فى صقلية سوى عدة قلاع صغيرة ، فضلا عن مدينة قطانيا . والواقع أن سقوط سيراكيوز فى أيدى المسلمين سنة ٨٧٨ يعتبر بمثابة النهاية العملية لنفوذ البيزنطيين فى جزيرة صقلية (٤) .

وعندما توفى باسل الأول سنة ٨٨٦ خلفه ابنه ثم حفيده فى الحكم خلال الثلاث والسبعين سنة التالية . وشاء سوء حظ الامبراطورية ان أحدا من هذين الحاكمين لم يكن على شئ من الكفاية والمقدرة التى امتاز بهما مؤسس الأسرة المقدونية . أما ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢) الذى أتى بعد أبيه باسل الأول فكان مولعا بالتنجيم ومعرفة الغيب وله تنبؤات كثيرة غامضة ، كما أولع بتصنيف

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 457

(٢) جد الامبراطور البيزنطى الذى يحمل نفس الاسم (٩٦٣ - ٩٦٩) والذى يلقب عادة بنقفور الثانى تمييزا له عن الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) .

(3) Vasiliev : op. cit. Tome I, p. 402

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 211

الكتب وجمعها حتى أطلقت عليه الأجيال التالية لقب الحكيم أو الفيلسوف (١)ـ
وله كتاب مشهور فى التنظيم العسكرى والتكتيك الحربى (Tactica)
ترجع أهميته الى أنه يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن تنظيمات الجيوش
البيزنطية وخططها فى الحرب ، فضلا عن عادات الشعوب المختلفة التى اصطدم
بها البيزنطيون وطبائعها • وعلى الرغم من ضعف شخصية ليو السادس ، الا
أن حدود الدولة البيزنطية امتدت فى عهده ، فاستردت أجزاء من بلاد ما بين
النهرين من الخلافة العباسية المتداعية ، كما استردت أبوليا فى جنوب ايطاليا
من أمراء بنفنتو المسلمين(٢) •

وعندما توفى ليو السادس سنة ٩١٢ خلفه وحيده قسطنطين السابع (٩١٢
– ٩٥٩) الذى كان عندئذ طفلا فى الخامسة من عمره • والواقع أن السلطة
الفعلية انتقلت عقب وفاة ليو السادس الى عم الطفل الصغير ، اسكندر (٩١٢
– ٩١٣) ولكن هذا العم لم يلبث أن توفى بعد أن استثار عداء البلغار بسبب
قطعه الجزية السنوية التى كان على الدولة البيزنطية أن تدفعها لهم بمقتضى
اتفاقية سنة ٨٩٦ (٣) •

ومن الواضح أن قسطنطين السابع قضى جزءا كبيرا من حكمه الطويل
قاصرا تحت الوصاية ، هذا فضلا عن ضعفه وانصرافه ــ مثل أبيه ــ الى الكتب(٤)•
وربما كان العامل الوحيد الذى سند الامبراطورية البيزنطيـــة فى ذلك
العصر هو ضعف جيرانها ، مما أتاح لها فرصة للانتعاش وتدعيم مركزها المالى •
واذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد تعرضت حينذاك لبعض أزمات مثل اغارة
المسلمين من شمال افريقية على سالونيكا سنة ٩٠٤ ، فان هذه الأحداث كانت
فردية ، مرجعها سوء توجيه سياسة الامبراطورية لا النقص فى وســـائل
الدفاع • وهكذا أصبحت القسطنطينية فى ذلك العصر ملتقى تجارة الشرق
والغرب وأكبر مركز للتجارة الأوربية قاطبة(٥) •

---

(1) Diehl : op. cit. p. 446
(2) Oman : The Dark. Ages, p. 494
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 231
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 59
(5) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 154-155

على أن الخطر الأكبر الذى واجه الامبراطورية البيزنطية فى تلك الحقبة جاء من ناحية البلغار الذين وجدوا مبررا لتجديد الهجمات على أراضى الامبراطورية فى البلقان نتيجة لسياسة اسكندر عم قسطنطين السابع ، حتى استطاع سيمون ملك البلغار انزال عدة هزائم بالامبراطورية (١) . ولم ينفرد قسطنطين بالحكم الا سنة (٩٤٥) وهو فى الأربعين من عمره ، وعندئذ أثبت أنه لم يكن خيرا من أبيه ، اذ انصرف للأدب ورسم الصور وتخطيط الكنائس ، فضلا عن الكتب التى صنفها فى مختلف العلوم والفنون كالزراعة والتاريخ والجغرافيا والسياسة وغيرها (٢) .

وفى ذلك النصف الأول من القرن العاشر ظهر جليا ضعف الدول الاسلامية وانقسامها ، بعد أن اضمحل نفوذ بنى العباس وأصبحت الكلمة العليا فى العراق وفارس لأمراء بنى بوية ، فى حين قامت الخلافة الفاطمية فى القيروان بشمال أفريقية ودولة الاخشيديين فى مصر وجنوب الشام . وهكذا لم توجد قوة تعترض الامبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية سوى قوى الحمدانيين الذين أقاموا دولتهم فى النصف الأول من القرن العاشر فى أعالى بلاد ما بين النهرين ، ثم مدوا نفوذهم الى أعالى الشام وقيليقية (٣) .

وقد استغل أباطرة الدولة البيزنطية هذا الوضع الذى أمست عليه الدولة الاسلامية للتوسع واسترداد بعض ما اغتصبه المسلمون من أراضى الدولة . فعندما توفى قسطنطين السابع خلفه ابنه الامبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣) الذى أرسل قائده نقفور فوقاس سنة ٩٦٠ لاسترداد جزيرة كريت من المسلمين ، فنجح نقفور فى مهمته ، واسترد منهم جزيرة كريت مما أعطى الامبراطور مركزا استراتيجيا وتجاريا قويا فى البحر المتوسط . وبعد ذلك أتبع نقفور انتصاره بمهاجمة الحمدانيين والاستيلاء على بعض المعاقل المهمة فى قيليقية (٤) .

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. pp. 231-232
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 154
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 276-277
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 407-408

ثم كان ان توفى رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ تاركا ولديه الصغيرين باسل الثانى (٩٦٣ - ١٠٢٥) وقسطنطين الثامن (٩٦٣ - ١٠٢٨) تحت وصاية أمهما ثيوفانو • على أن المكانة العظيمة التى أحرزها القائد نقفور فوقاس نتيجة لانتصاراته الحربية ، مكنته من أن يفرض نفسه شريكا لهذين الولدين فى حكم الامبراطورية ، وبخاصة بعد أن تزوج من أمهما ثيوفانو (١) • وقد ظل نقفور الثانى فوقاس يحكم الامبراطورية ست سنوات (٩٦٣ - ٩٦٩) باسم الولدين القاصرين ، وامتاز عهده بالاصلاح الداخلى والانتصار الخارجى• ولكن يبدو أن حاجته الى المال لتقوية الجيش دفعته الى فرض ضرائب جديدة، كما أنه الوحيد بين الأباطرة البيزنطيين الذى لجأ الى خفض العملة والتلاعب فى قيمتها لتحقيق غرضه ، فضلا عن احتكار الغلات والنبيذ والزيوت (٢) • وقد أدت سياسته المالية هذه الى صدام بينه وبين طبقة التجار من جهة والكنيسة من جهة أخرى ، ولا سيما بعد أن وضع تشريعا للاوقاف الدينية للحيلولة دون اقامة أديرة جديدة ، كما احتفظ ببعض الأسقفيات المهمة شاغرة ليستولى على ايراداتها (٣) •

أما حروب نقفور الثانى فى تلك الفترة فقد امتدت فى الاتجاهين الشرقى والغربى ، ففى الشرق أتم غزو قيليقية (٩٦٤ - ٩٦٥) ، كما أرسل أحد قواده - واسمه نقتاس - لغزو قبرس سنة ٩٦٥ • وفى سنة ٩٦٨ عاد نقفور الى تهديد أعالى الشام فاستولى على امارة حلب وأنطاكية ، وتعهدت دمشق بدفع الجزية• أما فى الغرب فان المشروع الذى وضعه نقفور الثانى لتزويج ابن الامبراطور أوتو الأول من ابنة رومانوس الثانى ، باء بالفشل ، ولم يلبث أن حدث احتكاك بين أوتو الأول ونقفور الثانى فى جنوب ايطاليا ، كذلك فشل نقتاس فى مهمة ثانية عهد اليه بها نقفور ، وهى استرداد صقلية من المسلمين(٤) •

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 467-468
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 76.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 159-160.
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 257-258.

على أن خشونة نقفور الثانى ومسلكه تجاه شريكيه الصغيرين فى الحكم ، أخافت أمهما ثيوفانو فتآمرت مع عشيقها حنا شمشقيق (John Tzimisces) (١) ضده ، ونجح المتآمرون فى قتل نقفور أثناء نومه ، وعندئذ أعلن حنا الأول شمشقيق امبراطورا (٩٦٩ - ٩٧٦)(٢) . وبدلا من أن يتزوج هـذا الامبراطور الجديد من ثيوفانو شريكته فى المؤامرة وعشيقته السابقة ، أخذ يوجس منها خيفة وخشى أن تفعل به مثلما فعلت بزوجها نقفور ، حتى دفعه خوفه وشكه الى اعتقالها فى أحد الأديرة .

وقد حذا حنا الأول حذو سلفه نقفور فوقاس فى احترام حقوق شريكيه الصغيرين ابنى رومانوس الثانى ، كما تم فى عهده (سنة ٩٧٢) زواج أختهما ثيوفانو من أوتو السكسونى الذى أصبح أوتو الثانى فيما بعد(٣) . على أن حنا الأول سرعان ما وجد فى حرب الروس شاغلا قويا ، فقد كان أولجا Olga زعيم الروس قد اعتنق المسيحية وزار القسطنطينية سنة ٩٥٧ حيث تم تعميده على عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٤) ، ولكن ابنه زياتسلاف Sviatoslav (٩٦٤ - ٩٧٢) كان محاربا قويا محالف الهنغاريين وغزا بلغاريا حتى عبر البلقان سنة ٩٧٠ وهدد أدريانوبل (أدرنة) نفسها . وقد أسرى حنا الأول لصد ذلك الخطر واشتبك مع الروس فى أكثر من موقعة حتى انتهى الأمر بانزال الهزيمة بهم سنة ٩٧٢ ، فانسحب الروس بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة(٥) . وقد تمكن حنا الأول بعد ذلك من اخضاع البلغار بعد أن أوغل فى بلادهم بحجة الدفاع عنهم ضد الروس ، بحيث أنه لم يكد ينتهى من أمر الروس حتى كان

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 471

(٢) لقبه شمشقيق أو شوموشقيق ، وهو لفظ أرمنى بمعنى قصير القامة . ولقب كذلك بلقب دمستق Domsticus وهو لفظ لاتينى لقب به قائد جيش الروم (أنظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٦٩) .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 81

(4) Vasiliev : op. cit. p. 427

(5) Diehl, Marcais : op. cit. p. 472

قد احتل كل بلغاريا الشرقية (١) • هذا الى أنه حارب المسلمين فى الشرق واسترد منهم أنطاكية بعد أن استولوا عليها مرة أخرى ، كما استولى على الرها • وأخيرا ما ت حنا الأول مسموما سنة ٩٠٦ فى الوقت الذى ينتقل من نصر الى نصر (٢) •

وكان باسل الثانى ابن رومانوس الثانى قد بلغ العشرين من عمره حينئذ ، فتولى حكم الامبراطورية حتى سنة ١٠٢٥ • وقد أظهر باسل الثانى كفاية ادارية ومقدرة حربية أثناء قيامه بأعباء الحكم ، فضغط على كبار ملاك الأراضى فى آسيا الصغرى ونجح بعد صراع طويل فى تحطيم نفوذ تلك الأرستقراطية الاقطاعية ، وبذلك خلص السلطة الامبراطورية من عقبة قوية طالما وقفت فى وجهها (٣) • ولم يلبث باسل الثانى أن أعاد المجد الحربى لأسرته المقدونية، فدخل فى حرب عنيفة ضد البلغار الذين عادوا مرة أخرى تحت زعامة ملكهم الجديد صمويل الى تهديد الامبراطورية البيزنطية • وقد اشتد خطر البلغار عندما اجتاحوا سهول تساليا ومقدونيا ودمروها ، كما غزوا الجزء الجنوبى من بلاد اليونان سنة ٩٩٦ ودمروا شبه جزيرة المورة من أدناها الى أقصاها (٤) • وعندما بدأت حروب باسل الثانى ضد البلغار سنة ٩٨١ استمرت نحوا من ثلاثين سنة ، ولكنها لم تتخذ شكلا شاملا الا منذ سنة ١٠٠٢ عندما أخذ باسل الثانى يتوسع على حساب البلغار حتى انتهى الأمر بانزال هزيمة ساحقه بهم ، كما أسر نحوا من أربعة عشر ألف بلغارى سنة ١٠١٤ (٥) • وهنا دفعت روح الانتقام الامبراطور باسل الثانى الى ارتكاب جريمة شنيعة اذ سمل أعين جميع الأسرى واكتفى بأن ترك من كل مائه أسير رجلا بعين واحدة ليتولى قيادة زملائهالعميان الى ملكهم • ويقال ان الملك البلغارى صمويل صدم عندما وقع بصره على هذا المشهد ورأى هذه الألوف المؤلفة من رجاله وقد عادوا اليه عميانا ، فأغشى عليه

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 423
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 163
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 268-169
(4) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 239-240
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 423

وسقط على الأرض من هول المنظر حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد يومين (أكتوبر سنة ١٠١٤) (١) . وعلى الرغم من أن خلفاء صمويل المباشرين استأنفوا مقاومة البيزنطيين ، الا أنه لم تحل سنة ١٠١٨ الا كان باسل الثانى قد أكمل غزو بلاد البلغار . ومن ثم أحيى انتصاره فى القسطنطينية حيث حياه أهلها بلقب سفاح البلغار (Bulgaroctonus) (٢) .

وقد حاول باسل الثانى توجيه جهوده الحربية بعد ذلك ضد أرمينيا ، ولكن محاولته فى التوسع شرقا على حساب تلك الدولة المسيحية لم تصادف ترحيبا فى عصر أخذ المسيحيون يحسون بضرورة توجيه جهودهم ضد خصومهم فى العقيدة ، لا ضد بعضهم بعضا . ولم يلبث أن أحس باسل الثانى بهذا الشعور فأخذ يستعد لارسال حملة جديدة ضد مسلمى صقلية عندما توفى فجأة وهو فى السادسة والثمانين من عمره سنة ١٠٢٥(٣) .

والواقع أن وفاة باسل الثانى تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، نظرا لما أعقب هذه الوفاة من انحلال ظاهر فى أحوال تلك الامبراطورية الخارجية والداخلية (٤) . ذلك أن باسل الثانى لم يترك ابنا يرثه ، فانفرد أخوه قسطنطين الثامن بعرش الامبراطورية (١٠٢٥ - ١٠٢٨) بعد أن كان امبراطورا اسميا منذ وفاة والده رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ . ومن الواضح أن قسطنطين الثامن لم ينفرد بالامبراطورية الا بعد أن بلغ به كبر السن درجة جعلته لا يهتم بشئون امبراطوريته أو بتعديل أسلوب حياته ، فاستمر يحيا فى قصره الحياة نفسها التى شب عليها محاطا بالغانيات والخصيان الذين ترك لهم تصريف شئون الدولة . وهكذا قضى قسطنطين

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 275
(2) Diehl, Marcais : op. cit. p. 478
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 165
(4) Ostrogorsky ; op. p. 283

الثامن بقية عمره حتى مات سنة ١٠٢٨ دون أن يترك وريثا ذكرا يحفظ اسم البيت المقدونى(١) •

ويرتبط تاريخ البيت المقدونى بعد ذلك حتى نهاية عهده بالأميرتين زوى Zoe وثيودورا ابنتى قسطنطين الثامن • ففى الفترة بين سنتى ١٠٢٨ ، ١٠٥٤ كان الحكم بأيدى أزواج الأميرة زوى وأتباعها (٢) وأول هؤلاء هو رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) الذى تزوجته زوى بينما أبوها على فراش الموت • ولكن زوى كانت على قسط كبير من الجشع وحب السيطرة بحيث لم تترك لزوجها سوى نصيب ضئيل من السلطان • وعند وفاة ذلك الزوج الأول أسرعت زوى الى الزواج من أحد رجال البلاط الذى اتخذ لنفسه لقب ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١) ، حتى مات هذا الزوج الثانى أيضا وهو فى ريعان شبابه فى حين جاوزت زوجته الستين من عمرها • وهنا ترددت زوى بين أن تتبنى طفلا ليصبح امبراطورا أو تتصيد لنفسها زوجا ثالثا • وبعد أن اختارت زوى الحل الأول وتبنت ميخائيل الخامس (١٠٤١ - ١٠٤٢) اذ بها تعدل عن رأيها وتتزوج من قسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٤)(٣) ومن الواضح أن هذا الزوج لم يقبل الزواج من الامبراطورة العجوز الا طمعا فى السلطان فاشترك معها فى الحكم ، وكان عهدهما من أحلك أيام الامبراطورية • ذلك أن هذا العهد شهد غزو النورمان لأبوليا وكالبريا والقضاء على ما تبقى من النفوذ البيزنطى فى ايطاليا• هذا الى أن الدولة البيزنطية اتبعت فى ذلك العصر سياسة اضعاف أرمينية فى الوقت الذى أخذ الأتراك السلاجقة ينفخون فى الدولة الاسلامية روحا جديدة(٤) • هذا فضلا عن ازدياد روح التذمر بين أهالى الامبراطورية بسبب قسوة الضرائب فى الداخل واتمام القطيعة نهائيا بين الكنيستين الشرقية والغربية فى الخارج •

---

(1) Diehl, Marcais : op. çit. p. 533
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 400
(3) Ibid.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 166

وكان ذلك سنة ١٠٥٤ عندما وصل الى القسطنطينية بعض المبعوثين من قبل البابوية لمفاوضة البطريرق • ويبدو أن مسلكهم تجاه بطرق القسطنطينية كان مشوبا بالتعالى والكبرياء وعدم الاحترام ، الأمر الذى جعله يرفض مباحثتهم أو الاعتراف بسيطرة البابوية على كنيسته(١) • وقد رد هؤلاء المبعوثون على ذلك بأن أصدروا ـ أمام مذبح كنيسة آيا صوفيا ـ قرار الحرمان ضد البطريرق وأتباعه ، فأجاب البطريرق بعقد مجمع دينى وقع عليهم هم الآخرون عقوبة الحرمان كما أعقب ذلك اغلاق الكنائس اللاتينية فى أراضى الامبراطورية البيزنطية وتسفيه آراء الكنيسة الغربية(٢) • وبذلك تم الانشقاق نهائيا بين الكنيستين الشرقية والغربية(٣) •

والواقع أن مسألة اتمام القطيعة بين الكنيستين غدت مسـألة زمن ليس الا ، بعد أن اتخذت كل منهما طريقا اختلف تماما عن الطريق الذى اتخذته الأخرى • وهنا نشير الى أنه من الخطأ اتهام القسطنطينية باثارة هذا الانشقاق، لأن الوقائع تثبت أن الأباطرة البيزنطيين كانوا أشد الناس تحمسا لوحـدة الكنيسة • وربما كان من الأصوب تعليل هذا الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بظهور الوحدات السياسية المستقلة فى غرب أوربا ، مما قضى على فكرة الامبراطورية العالمية من جهة ، وبانتشار المسيحية بين السلاف وارتباط العالم السلافى بكنيسة القسطنطينية ، مما جعل هذه الكنيسـة فى غنى عن الاعتراف بسيادة البابوية من جهة أخرى(٤) •

وليس هناك من شك فى أن هذا الانفصال النهائى بين الكنيستين سـنة ١٠٥٤ يمكن أن يعتبر نصرا للكنيسة الشرقية التى استقلت تماما عن البابوية وأصبح نفوذ بطرقها على درجة كبيرة من العظمـة(٥) • ولكن يجب

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 469-470.
(2) Eyre : op. cit. p. 190.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 447.
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 296.
(5) Cam. Med. Hist Vol, 4, p. 273.

أن نعترف بأن هذا الانشقاق كان خطير الأثر بالنسبة لمستقبل الامبراطورية السياسى لأنه قضى على كل أمل فى الوصول الى تفاهم سياسى بين الامبراطورية البيزنطية والعالم الغربى ، فى الوقت الذى أخذ خطر السلاجقة يقترب من الدولة البيزنطية مما جعل هذه الدولة فى حاجة ماسة الى معونة الغرب(١) .

أما زوى فقد ماتت سنة ١٠٥٠ ، ثم لحق بها قسطنطين التاسع سنة ١٠٥٤ وعندئذ تولت عرش الامبراطورية شقيقتها ثيودورا ، آخر من تبقى من البيت المقدونى . وعلى الرغم من تقدم ثيودورا فى السن ، الا أنها امتازت بصلابة الرأى كما اختلفت فى أخلاقها عن أختها بحكم المدة الطويلة التى قضتها فى أحد الأديرة والتى أكسبتها أخلاق الراهبات واستقامتهن . ومهما يكن من أمر فان ثيودورا لم تمكث فى الحكم أكثر من ثلاث سنوات (١٠٥٤ - ١٠٥٧) توفيت بعدها فانتهى بوفاتها البيت المقدونى وبدأت فترة من الاضطرابات قبل أن يقوم بيت جديد فى حكم الامبراطورية البيزنطية(٢) .

وكان من الممكن أن تجتاز الامبراطورية البيزنطية تلك الفترة بسلام كما اجتازت الفترات السابقة التى جاءت بين سقوط أسرة وقيام أخرى فى الحكم ، لولا ظهور خطر جديد فى هذه المرة ، هو خطر الأتراك السلاجقة الذين بثوا فى المشرق الاسلامى روحا جديدة جعلت المسلمين يهددون الامبراطورية البيزنطية تهديدا خطيرا مرة أخرى .

السلاجقة :

أشرنا من قبل الى أن الخلافة العباسية فقدت هيبتها فعلا عند نهاية القرن التاسع الميلادى بعد أن أكثر الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) من الاعتماد على الترك ، الأمر الذى اضطره الى هجر بغداد ونقل عاصمته الى سامرا سنة

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 448.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 167.

٨٣٦ • وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة فى أيدى الأمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية فى القرن العاشر فى يد كبير هؤلاء الأمراء الذى اتخذ لنفسه لقب « أمير الأمراء »(١) • وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى (٨١٦ - ٨٣٧) وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة • فاذا اضفنا الى ذلك ثورة الزنج فى جنوب العراق (٨٧٧ - ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق (سنة ٨٩٠) ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال(٢) • وليس أدل على انحلال هذه الخلافة وتفككها من الحركات الانفصالية التى قامت فى جسم الدولة والتى أدت ظهور وحدات سياسية مستقلة مثل الدولة السامانية (٨٧١ - ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ - ١٠٤٢) والدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٨٦) والدولة الحمدانية (٩٢٩ - ١٠٠٣) والدولة البويهية (٩٣٢ - ١٠٥٥)(٣) • هذا غير العبيد الذين أقاموا دولتهم فى شمال أفريقية على أنقاض دولة الأغالبة ، والأخشيديين الذين استقلوا بمصر وشطر من الشام • ثم كان أن استطاع الفاطميون فتح مصر سنة ٩٦٩ واتخاذها مركزا لخلافة فاطمية شيعية ، مما زاد من حدة الخلافات المذهبية والانقسامات السياسية فى المشرق الاسلامى(٤) •

وتهمنا من هذه الدول جميعا الدولة البويهية نظرا لما أصبح لآل بويه من نفوذ فعلى فى العراق فى القرن العاشر الميلادى • ويرجع أصل هؤلاء البويهيين الى بلاد الديلم ، وهى البلاد الواقعة الى الجنوب الغربى من بحرقزوين ، ومنها أخذوا يمدون سلطانهم فى القرن العاشر على بلاد فارس والعراق ، حتى دخل أحمد بن بويه بغداد سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) فرحب به الخليفة المستكفى وأضفى

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 378-381.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 376.
(3) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 385-392.
(4) Cam. Med Hist. Vol, 5, 245.

عليه وعلى غيره من بنى بويه الألقاب وأمر بنقش أسمائهم على السكة(١) • ومن ذلك الوقت يمكن القول بأن السلطة الفعلية خرجت من أيدى الخلفاء العباسيين الذين أصبحوا مجـــــرد زعماء دينيين فى الدولة لا حـــــول لهم ولا قوة(٢) •

ولعل هذا الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى اعترى وحده الدولة الاسلامية ، هو الذى مكن أباطرة الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفا اكثر عزما صلابة من جيرانهم المسلمين • وقد رأينا كيف نجح باسل الأول المقدونى (٨٦٧ — ٨٨٦) وخلفاؤه فى انتزاع أجزاء عظيمة من جسم الدولة الاسلامية فى أعالى العراق والشام ، حتى أصبحت الغلبة فى القرن العاشر لجيوش الدولة البيزنطية فى حين التزم المسلمون موقف الدفاع بقدر المستطاع (٣) • ولكن الموقف بين المسلمين والبيزنطيين أخذ يتبدل فى القرن الحادى عشر نتيجة لظهور قوة الأتراك السلاجقة ، الذين يعتبر ظهورهم فاتحة عصر جديد لا فى التاريخ الاسلامى فحسب ، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام(٤) •

أما هؤلاء السلاجقة فهم فرع من الأتراك الغز ، الذين ظلوا على بساطتهم الأولى دون أن تفسدهم حياة الترف والمدنية ، حتى كان اعتناقهم الاسلام فى وقت متأخر وتحمسهم له مصدر قوة للعالم الاسلامى ، فى وقت تفكك هذا العالم واشتدت الخلافات السياسية والمذهبية بين الدويلات التى انقسم اليها(٥)• وقد تواتر فى المراجع التاريخية أن جد السلاجقة الأول اسمه تقاق ، وهو والد سلجوق الذى دخل خدمة خان التركستان حوالى سنة ١٠٠٠ • ثم نزح سلجوق بعد ذلك ومعه قومه من سهول قرغيز الى بلاد ما وراء النهر (سيحون) حيث استقروا قرب بخارى ، وهناك اعتنق سلجوق الاسلام وتبعه

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 389.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 277.
(3) Ostrogorsky : op. cit. Ps. 252-257-263.
(4) Cam.Med. Hist. Vol, 4, p. 299.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 5, pp. 259-260.

قومه الذين نسبوا اليه(١) . وسرعان ما أخذت قوة السلاجقة تنمو نموا واضحا ، فبدءوا منذ سنة ١٠٢٩ يغيرون على حدود ايران الشمالية الشرقية حتى استولوا على خراسان ، ثم غزوا ايران قرب منتصف القرن الحـادى عشر ، ومن ثم أخذوا يتطرقون الى بلاد ما بين النهرين (٢) .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء ثلاثة من ملوك السلاجقة فى العصر السلجوقى الأول هم طغرل (ت ١٠٦٣) وألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) وملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) (٣) . وفى خلال الخمسة والخمسين عاما التى حكم فيها هؤلاء الثلاثة ، ساس أمور دولتهم وزير مشهور هو الوزير نظام الملك الذى كان عهده أزهى عصور التاريخ السلجوقى وأكثرها ازدهـارا . وكانت الخلافة العباسية فى ذلك العصر تعانى حالة خطيرة من الضعف والانهاك فلم يسع الخليفة القائم بأمر الله الا أن يعترف بطغرل الذى دخل بغداد سنة ١٠٥٥ فى موكب رسمى ، فاستقبله الخليفة وخلع عليه خلعة وأجلسه الى جواره ، فى حين قام طغرل من جانبه باخضاع الموصل وديار بكر وغيرها من الأطراف الغربية للدولة (٤) . ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة ، فى حين استمر الخليفة العباسى مجرد رمز دينى يعيش فى حماية سلاطين السلاجقة الذين مكنتهم قوتهم الحربية من فرض سيطرتهم على العالم الاسلامى فى آسيا (٤) .

وبعد وفاة طغرل سنة ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذى حكم فترة قصيرة ولكنها مليئة بالأحداث الهامة (٦) . ذلك أن السلاجقة كانوا سنيين متحمسين ، فتعصبوا لنصرة الخليفة العباسى السنى ضد الفاطميين فى مصر

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 467.
(2) Ibid.
(3) Diehl, Marcais : op. cit. p. 561.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 304-305.
(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 303.

(٦) ألب أرسلان لقب تركى معناه « الأسد الشجاع » ، وقد اتخذ ألب أرسلان اسم محمد عند اعتناقه الاسلام بدلا من اسرائيل الذى كان يعرف به ، ثم أضفى عليه الخليفة القائم العباسى لقب (عز الدين) (أنظر
(Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 306.

والشام (١) ولذلك حاربت جيوش ألب أرسلان الفاطميين واستردت منهم حلب ومكة والمدينة ، ثم زادت على ذلك اخضاع الثورات التى قامت فى فارس . على أن شهرة ألب أرسلان فى التاريخ تتبع بوجه خاص من موقفه من الدولة البيزنطية . والواقع أن السلاجقة أصبحوا عند منتصف القرن الحادى عشر عاملا أساسيا موجها للتاريخ البيزنطى نتيجة لتهديدهم لحدود الدولة فى آسيا الصغرى والقوقاز (٢) . من ذلك ما قام به ألب أرسلان من اغارة على أطراف الدولة البيزنطية فى كابادوكيا حتى استولى على قيصرية ونهبت قواته ضريح القديس باسل . وقد هب امبراطور الدولة البيزنطية عندئذ - وهو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) للدفاع عن بلاده ضد هذا الخطر المستفحل ، واستطاع أن يحصل فعلا على بعض انتصارات سهلة فى أول الأمر حتى كانت المعركة الفاصلة بين السلاجقة والبيزنطيين عند ملازكرت أو مانزكرت . ومانزكرت هذه مدينة أرمينية تقع الى الشمال من بحيرة فان Van (٣) استولى عليها ألب أرسلان سنة ١٠٧٠ فحاول الامبراطور رومانوس الرابع استردادها . ولم يكد الامبراطور ينجح فى تحقيق غرضه حتى كان السلاجقة قد أعدوا عدتهم ، فدارت معركة مانزكرت الشهيرة سنة ١٠٧١ بين ألب أرسلان الذى بلغ جيشه خمسة عشر ألف محارب ، ورومانوس الرابع الذى بلغ جيشه مائتى ألف محارب (٤) . وكان القتال عنيفا وطويلا ، لم تنجح فيه الخيالة البيزنطية المدرعة الثقيلة بحركاتها التقليدية البطيئة ، فتغلبت عليها خيالة السلاجقة الخفيفة المعروفة بسرعة الحركة ، حتى حلت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين وتمزق الجيش البيزنطى شر ممزق ، فى حين جرح الامبراطور نفسه ووقع أسيرا (٥) .

---

(1) Gibb : The Damascus Chronicle of the Grusades pp. 10-20.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 467.
(3) Idem : Tome 1, p. 469.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 306-307.
(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 304.

وتعتبر هذه الهزيمة نقطة تحول خطيرة فى التاريخ البيزنطى ، اذ ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، وعدم استطاعة الامبراطورية الثبات بعد ذلك فى وجه توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى . ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية - وبخاصة أرمينيا وكابادوكيا - كانت على جانب كبير من الأهمية ، ويكفى أنها أمدت الامبراطورية بكثير من الأسرات الحاكمة وعدد كبير من أمهر الرجال الذين ساسوا أمور الدولة ودافعوا عنها وارتبط تاريخها بهم (١) .

ومهما يكن من أمر فقد تفاوض الفريقان عقب موقعة مانزكرت من أجل « صلح دائم » ، وتم الصلح فعلا وفقا لشروط ، أهمها اطلاق سراح الامبراطور رومانوس الرابع مقابل فدية ضخمة من المال ، كما تعهدت الدولة البيزنطية بدفع جزية سنوية كبيرة لألب أرسلان ، فضلا عن اطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين (٢) وأخيرا عاد الامبراطور المنكود الحظ الى القسطنطينية ، ليكافأ على شجاعته بخلعه من العرش وحبسه بعد سمل عينيه ، فمات بعد أيام .

واذا كان ألب أرسلان قد توفى هو الآخر سنة ١٠٧٢ ، الا أن وفاته لم تقلل من خطر السلاجقة على الدولة البيزنطية ، اذ خلفه أخوه ملكشاه الذى استمر السلاجقة فى عهده يعيثون فسادا فى آسيا الصغرى وينزلون بالمدن البيزنطية أقسى ألوان العبث ، من نهب واحراق وتدمير (٣) . ويبدو أن السلاجقة استغلوا فرصة الفوضى التى غرقت فيها الدولة البيزنطية ، فى الفترة الواقعة بين موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ واعتلاء ألكسيوس كومنين عرش الامبراطورية سنة ١٠٨١ وأخذوا يتوسعون فى آسيا الصغرى دون أن يصادفوا رقيبا يقاومهم . هذا الى أن البيزنطيين أنفسهم استعانوا بهم فى خلافاتهم الداخلية ، وبذلك تغلغل السلاجقة فى آسيا الصغرى حتى بلغوا أجزائها

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 469-470.
(2) Idem : op. 469.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 307-308.

الغربية . وربما ساعد على ذلك أن السلاجقة اعتبروا أنفسهم في حل من عدم الارتباط بالاتفاقية السابقة التي عقدها ألب أرسلان مع البيزنطيين بعد وفاة السلطان الذى أبرمها (١) . وأخيرا لم يجد الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٩) وسيلة لوقف توسع السلاجقة في آسيا الصغرى سوى عمل اتفاقية سنة ١٠٧٤ مع سليمان بن قتلمش — قائد جيش ملكشاه — سلم فيها الامبراطور بحق السلاجقة فى حكم الأراضى التى فتحوها فعلا فى آسيا الصغرى(٢). والى سليمان بن قتلمش هذا — الذى ناب عن سيده فى قيادة جيوش السلاجقة ضد البيزنطيين — يرجع الفضل فى وضع أساس ما عرف بعد ذلك باسم سلطنة الروم أو سلطنة قونية ، نسبة الى هذه المدينة العظيمة التى اتخذها الأتراك مركزا لسلطانهم فى آسيا الصغرى (٣) . ومن هذا المركز الرئيسى فى جوف آسيا الصغرى أخذت هذه القوة الجديدة تنمو وتمتد حتى بلغت شاطىء البحر الأسود شمالا والبحر المتوسط جنوبا ، هذا فضلا عن استمرار توسع الأتراك السلاجقة غربا دون أن تقوى الامبراطورية على وقف تيارهم .

وقد حاول الامبراطور ميخائيل السابع الاستنجاد بالبابا جريجورى السابع ووعده بأن يرد الجميل للبابا بالعمل على ازالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وفعلا استجاب جريجورى السابع — بما عرف عنه من عقيدة دينية فائقة لهذه الدعوة ، وأرسل الى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم حقيقة موقف المسيحية فى الشرق وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك ، ولكن دعوته ذهبت مع الريح . هذا في الوقت الذى شغلت البابوية نفسها بالصراع مع الامبراطور هنرى الرابع حول التقليد العلمانى ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة (٥) .

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 470.
(2) Tout : Tout : The Empire and The Papacy p. 172.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 471.
(4) Diehl, Marcais : cit. op. p. 562.
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 471-472.

وهكذا ظل الحال حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محلــه الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ – ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت باعلان ألكسيوس كومنين امبراطورا (١١١٨).

وكان الامبراطور ألكسيوس رجلا قديرا ، فحاول اصلاح الأوضــاع الداخلية فى الامبراطورية على نطاق ضيق ، بالقدر الذى سمحت به الظروف والأوضاع القائمة (١) . وهكذا نجح ألكسيوس – بقدر المستطاع – فى علاج الفتن الداخلية والأزمة المالية والحركات الهرطقية فى الدولة (٢) . أما فى الناحية الخارجية فان ازدياد نفوذ النورمان فى جنوب ايطاليا أخذ يشكل خطرا جديدا على الامبراطورية البيزنطية / كما اتضح ذلك عندما حاصر روبرت جويسكارد سنة ١٠٨١ مدينة دورازو Durazzo مركزا للنفوذ البيزنطى فى البحر الأدرياتى . وقد أسرع ألكسيوس للدفاع عن هذه المدينة ولكن قواته لم تستطع الصمود أمام النورمان ، فانسحب البيزنطيون يجرون أذيال الخيبة (٣) . وهكذا تمكن النورمان من عبور الجبال الساحلية الى مقدونيا وتساليا ، ولم يخلص الامبراطورية البيزنطية من خطرهم ســوى اضطرار روبرت الى العودة الى ايطاليا حيث كانت وفاته سنة ١٠٨٥ .

وفى تلك الأثناء لم يكف السلاجقة عن مهاجمة أراضى الامبراطورية والتوسع على حسابها فى آسيا الصغرى ، هذا على الرغم من أن وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ وما أعقبها من نزاع بين أبنائه ساعدت على تقليل خطرهم مؤقتا . ولم يجد ألكسيوس وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاســتنجاد بالبابوية عدة مرات ، حتى انتهى به الأمر الى ارسال بعثة الى البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام (٤) . وطلب الامبراطور ان يرسل البابا اليه بعض الفرسان لمعاونة البيزنطيين وما عدا ذلك وقف تقدم الاتراك واستعادة الممتلكات البيزنطية التى استولوا عليها .

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 464.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 174.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 317.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 175.

الباب السادس عشر

الحروب الصليبية

طابعها وأهدافها :

تعتبر الحروب الصليبية من أهم الحركات الكبرى التى أثرت فى مجرى تاريخ العصور الوسطى وصبغت هذه العصور بطابعها الخاص الذى يميزها عن غيرها • وقد تباينت الآراء عند تفسير طبيعة هذه الحركة العظيمة ومحاولة معرفة البواعث الكامنة التى تقف من ورائها : فمن قائل بأنها وليدة الحماسة الدينية التى اتسمت بها عصور الايمان (١) ، ومن مناد بأن المجتمع الرومانى وجد فيها منفذا للتهرب من الاعتراف بالحقيقة الخاصة بتدهوره وخضوعه للجرمان ، فى حين رأى الجرمان فى هذه الحروب فرصة لاظهـــار ولائهم للمسيحية وارضاء نزعتهم نحو القتال والترحال • وهناك رأى ثالث يؤكد بأن الحروب الصليبية انما هى مظهر من مظاهر التوسع الاقتصادى والاستعمار فى العصور الوسطى ، كما أنها جاءت نتيجة لتطور النظام الاقطاعى فى تلك العصور •• الى غير ذلك من الآراء المتباينة •

والحقيقة أن الحروب الصليبية لم تكن وليدة أحد هذه العوامل فحسب ، وانما ، هى نتيجة لتفاعل جميع العوامل السابقة ، وغيرها (٢) • فالدارس لتاريخ الحروب الصليبية يستطيع أن يستكشف بوضوح أثـــر العـــوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى توجيه هذه الحروب والتحـــكم فى مصائرها (٣) •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 265.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 561.
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧ — ٤٣ •

وقد اعتاد الكتاب أن يهتموا بثمان حملات صليبية ، أربع اتجهت نحو الأراضى المقدسة (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) ، واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) ، وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال افريقية (الثامنة) ، ومن ثم فازت هذه الحملات بترقيم عددى فى التاريخ . لكن هذا التحديد لا يخلو فى حقيقة الأمر من تجاوز كبير ، لأن الحملات الصليبية أكثر من ثمان ، ان لم يكن من العسير حصرها . ذلك أنه لم يمر علم منذ سنة ١٠٩٦ حتى سنة ١٢٩١ الا اتجهت بعض الجموع والوفود الصليبية من الغرب الى الشرق ، وبعض هذه الجماعات فاقت فى أعدادها وفى أهمية أعمالها ما قامت به بعض الحملات الصليبية المعروفة ، ومع ذلك لم تكتسب رقما أو صفة عددية فى التاريخ ضمن الحملات المعترف بأهميتها .

واذا كان بعض المؤرخين يميل الى تحديد مدى الحروب الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٦ ، ١٢٩١ ، فان هذا التحديد الزمنى لا يشمل فى الواقع الا المرحلة الحاسمة النشيطة فى تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أنه يمكن للباحث أن يتتبع جذور الحركة الصليبية وروحها قبل القرن الحادى عشر بكثير ، كما يمكنه أن يقتفى أثر ذيولها وروحها بعد نهاية القرن الثالث عشر بكثير أيضا . فمنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية كبرى غزت العالم المسيحى وقوضت بعض أركانه ، وأهالى أوربا المسيحيون لا يألون جهدا فى صد المسلمين ومحاربتهم . وحسبنا ما فعله ليو الأيسورى فى الشرق وشارل مارتل فى الغرب لصد المسلمين عن العالم المسيحى ، هذا غير ما قام به شارلمان من حروب ضد المسلمين فى الأندلس ، وهى الحروب التى حرصت أغنية رولان على أن تظهرها فى طابع صليبى واضح ، وما قام به بابوات الغرب وحكامه فى القرنين التاسع والعاشر لصد الاغارات الاسلامية عن شواطىء أوربا (١) .

---

(1) Runciman : A History of the Crusades, Vol, I. p. 88.

والمهم فى أمر هذه الجهود التى بذلها المسيحيون فى حرب المسلمين ، هو أنها اتسمت بالطابع الدينى ، فدعا اليها رجال الدين وتعهدها البابوات برعايتهم ، مما جعل فكرة الحروب الصليبية تنشأ فى أول أمرها مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا (١) .

والواقع أن فكرة محاربة المسلمين صادفت قبولا عاما فى غرب أوربا فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر . ففى أسبانيا كان ألفونس السادس ملك قشتالة (١٠٦٥ — ١١٠٩) يواصل ضغطه على المسلمين فى سبيل الاستيلاء على طليطلة ، حتى استولى عليها فعلا سنة ١٠٨٥ بمساعدة قريبه هيو الأول دوق برجنديا (٢) . وفى صقلية كان روبرت جويسكارد وأخوه روجر يعملان لانتزاع الجزيرة من أيدى المسلمين . أما جنوا وبيزا فقد دأبت أساطيلهما على مهاجمة المسلمين فى كورسيكا وسردينيا فضلا عن الموانى الاسلامية فى شمال أفريقية(٣) .

على أن الموقف بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق اختلف اختلافا بينا عما كان عليه فى الغرب أواخر القرن الحادى عشر . فبينما أمسى المسلمون فى الغرب فى موقف لا يحسدون عليه بسبب ضغط القوى المسيحية عليهم ، اذا بهم فى الشرق يصبحون على قسط وافر من القوة ، فتمكنوا من التفوق على الدولة البيزنطية ، حتى كانت موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ وأسر الامبراطور رومانوس الرابع وما تلا ذلك من سيطرة الأتراك السلاجقة على معظم آسيا الصغرى (٤) . وقد دفع هذا الوضع البابا جريجورى السابع الى توجيه الدعوة فعلا سنة ١٠٧٤ الى حكام الغرب لارسال حملة صليبية الى الشرق(٥) ، بعد أن استفحل خطر الأتراك السلاجقة واستولوا على بيت المقدس مما أثار

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, pp. 267-268.
(2) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 552-553.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 200.
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٩٣ — ٩٤ .
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5 p. 271.

شكوى الحجاج المسيحيين من سوء معاملة الأتراك لهم (١) • وكانت وجهة نظر جريجورى السابع تتلخص فى ارسال حملة لانقاذ القسطنطينية والدولة البيزنطية بوصفها الدرع الحامى للعالم المسيحى من جهة الشرق • هـذا فضلا عما يمكن أن تحققه مثل هذه الحملة من ازالة الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية وادخال الأولى فى حظيرة الثانية (٢) • ولكن يبدو أن الظروف التى أحاطت بجريجورى السابع لم تمكنه من تنفيذ هذه الرغبة ، ويكفيه على أى حال أنه وضع أساس المشروع وترك مهمة تنفيذه لخليفته البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) (٣) •

واذا كان البابا أوربان الثانى قد أظهر حماسة كبيرة لمشروع الحـرب الصليبية ضد المسلمين ، فانه ليس من المستبعد أن يكون السبب الحقيقى لهذه الحماسة هو الرغبة فى اظهار البابوية فى صورة الهيئة المتزعمة للعـالم المسيحى الغربى ، فى الوقت الذى اشتد النزاع بينها وبين الامبراطورية حول سيادة العالم ، هذا فضلا عما فى ذلك من فرصة لبسط سيطرة البـابوية على الكنيسة الشرقية • لذلك لم يكد الامبراطور البيزنطى ألسكسيوس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨) يستنجد بالبابا أوربان الثانى ، حتى لبى البابا النداء فأعلن الحرب الدينية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ (٤) • وهنـا نلاحظ أن البابا أوربان الثانى نظر الى الحروب الصليبية نظرة اختلفت عما أرادته الامبراطورية البيزنطية • فالامبراطور ألكسيوس كومنين أراد - حين استنجد بالبابوية - أن يسعفه الغرب بقوة تمكنه من استرداد آسيا الصغرى من قبضة المسلمين • أما البابا أوربان الثانى فلم يكن يهتم بأمر آسيا الصغرى قدر اهتمامه بالأراضى المقدسة وتخليصها من سيطرة المسلمين (٥) • وهكذا بدا عدم الأنسجام والتوافق فى الأغراض بين الحروب الصليبية التى دعت لها

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 25.
(2) Idem : p. 28.
(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 306-307.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 410.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 209.

البابوية والحروب التي أرادتها الدولة البيزنطية ، لأن الأخيـــرة طلبت امدادها بجند يعملون تحت قيادتها لتحقيق أغراضها الخاصة وأهمها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، فى حين أرسل الغرب صليبين يستهدفون استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين (١) •

أسباب الحماسة الصليبية عند الغربيين :

وسرعان ما انتشر الدعاة ــ من أمثال بطرس الناسك ــ يدعون أمراء أوربا وفرسانها للمشاركة فى مشروع الحروب الدينية • وقد قوبلت هــذه الدعوة بحماسة كبيرة من جمهور المسيحيين الغربيين على اختلاف طبقاتهم وبلادهم الأمر الذى يجعلنا نتوقف قليلا للبحث عن أسباب هذه الحماسة التى قوبلت بها الدعوة للحروب الصليبية فى غرب أوربا • حقيقة ان البابوية هى صاحبة الفضل فى اثارة فكرة الحروب الصليبية عندما دعت لها مجمـــع كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ ، ولكن لماذا قابلت شعوب غرب أوربا هذه الدعوة بمثل تلك الحماسة البالغة ؟ وبعبارة أخرى ما العوامل التى جعلت أوربا العصور الوسطى تستجيب لنداء البابوية وتلبى هذا النداء فى قوة وعزيمة ؟ الواقع اننا نستطيع الوقوف على أولى هذه العوامل بالرجوع الى المثل الدينية التى سادت تلك العصور وتحكمت فى توجيهها • فالعصـــور الوسطى ــ فى الغرب والشرق ــ عرفت بتغليب الجانب الدينى حتى سميت « عصور الايمان » ، هذا فى الوقت الذى اضطرت ظروف الحياة الغالبية العظمى من أهالى أوربا الى أن يحيوا حياة دنيوية بعيدة عن الديرية وغيرها من أنواع الحياة الدينية • وقد ظل هذا الفريق يشعر بفراغ دينى كبير ، واشتد هذا الشعور فى القرن الحادى عشر نتيجة لما أثارته الحركة الكلونية من حماسة دينية واضحة ، حتى وجدوا ضالتهم أخيرا فى الحـــــروب الصليبية (٢) ، وهى الحروب التى ستتيح لهم فرصة تقبيل الصخرة التى صلب عليها المسيح والسجود أمام قبره ، بل دخول الجنة نفسها •• الى غير

---

(1) Ostorgorsky : op. cit. p. 230.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 30.

ذلك من ضروب الاغراء الكفيلة بأن تحرك مشاعر كل مسيحي مخلص في تلك العصور (١) .

وبالاضافة الى هذا العامل الديني وجد عامل اجتماعي تمثل في أن الغالبية العظمى من الطبقات الدنيا في المجتمع الأوربي كانت تحيا عندئذ حياة ملؤها البؤس والشقاء في ظل النظام الاقطاعي ، فلم يجد أفراد هذه الطبقات سببا يشجعهم على البقاء في بلادهم ، بل على العكس من ذلك وجدوا في الحروب الصليبية فرصة هيأت لهم الخلاص من القيود والفاقة التي يحيون فيها ، فضلا عما سيتاح لهم من أجر وحسن ثواب في الدنيا والآخرة (٢) . هذا في الوقت الذي وجد الأمراء والفرسان في الحروب الصليبية فرصة لاشباع روح المغامرة التي سيطرت على حياتهم الخاصة والعامة (٣) .

أما العامل السياسي فيبدو في ازدياد نفوذ البابوية في القرن الحادي عشر ، على الشرق وكنيسته (٤) . هذا الى أن البابوية في القرن الحادي عشر كانت تخشى النورمان الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب ايطاليا ، فرأت في الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن ايطاليا وتوجيه نشاطهم نحو ميدان آخر بعيد ، ومن الثابت أيضا أن كثيرا من كبار الأمراء شاركوا في الحروب الصليبية بغية تأسيس امارات لهم في الشرق ، حتى بدت هذه المطامع السياسية واضحة منذ وصول الصليبيين الى القسطنطينية سنة ١٩٠٧ في طريقهم الى الأراضي المقدسة .

فاذا أضفنا الى هذه العوامل السابقة العامل الاقتصادي أمكننا في النهاية أن نكون فكرة واضحة عن سبب الحماسة التي قوبلت بها الدعوة الى الحروب الصليبية . ذلك أن مدن ايطاليا التجارية ـ وبخاصة البندقية وجنوا وبيزا ـ

---

(1) Runciman : op. cit. Vol, 1, p. 115.
(2) Idem : p. 11,
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 30.
(4) Ibid.

قامت منذ القرن الحادى عشر بنشاط تجارى واسع ، وامتلكت الأساطيل البحرية الضخمة ، الأمر الذى جرها الى الدخول فى عداوات مسلمى صقلية وسردينيا (١) . وقد أدركت هذه المدن الايطالية أن استيلاء الصليبيين على الشام سيتيح لها منفذا يمكنها من اختراق الحصار الذى فرضه المسلمون على تجارة الشرق بسيطرتهم على نصف شواطىء البحر المتوسط ، ولذلك أسرعت المدن الايطالية الى مباركة حركة الحروب الصليبية وتقديم كل مساعدة ممكنة للصليبيين مقابل ما حصلت عليه هذه المدن من امتيازات تجارية فى الأجزاء التى سيطر عليها الصليبيون فى الشرق (٢) .

الحملة الصليبية الأولى :

وعلى الرغم من أن جهود البابا أوربان الثانى وأعوانه فى تنظيم الحملة الصليبية الأولى ، وحرصهم على ألا يشترك فيها الا الأمراء القادرون على تسليح اتباعهم والانفاق عليهم ، فان الدعاة جمعوا حـــولهم كل راغب من الفرسان المفلسين ، فضلا عن الفلاحين والأقنان والمغامرين . وقد أخذ كل واحد من هؤلاء يخيط على ردائه الخارجى صليبا من القماش ، ومن ثم أطلق عليهم اسم « الصليبيين » وعلى الحروب التى اعتزموا المشاركة فيها اسم الحروب الصليبية (٣) .

لهذا اعتاد الكتاب عند الكلام عن الحملة الصليبية الأولى أن يقسموها الى قسمين : القسم الأول يشمل حملة العامة ، والقسم الثانى يشمل حملة الأمراء. أما العامة فقد اجتمع منهم فى مايو سنة ١٠٩٦ خمسة جموع كبيرة ، تضم تشكيلة متنوعة من المعدمين وقطاع الطرق والمجرمين وغيرهم ، وأخذوا يتجهون جميعا نحو القسطنطينية فى طريقهم الى الأراضى المقدسة (٤) . وقد

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 32-33.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧ — ٤٣

(3) Stephenson : Med. Hist. p. 296.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, Tome 1, p. 6.

فشلت ثلاث جموع من هؤلاء العامة فى الوصول الى القسطنطينية وتبدد شملهم فى الطريق نتيجة اصطدامهم بالمجريين (١) . أما البقية الباقية فقد وصلت الى القسطنطينية بعد أن تناقصت أعدادهم وأصبحوا فى حال يرثى له من الانهاك والبؤس . وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها هؤلاء الصليبيون من الامبراطور الكسيوس فى أول الأمر ، الا أنهم أتوا فى الامبراطورية كثيرا من أعمال النهب والسلب حتى أنهم لم يتورعوا عن سرقة الكنائس التى صادفوها (٢) . وقد ارتاع الامبراطور من هذا المسلك فأخذ يفكر فى التخلص منهم بسرعة ، وسهل لهم العبور الى آسيا الصغرى حيث وقعوا فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة ، فأجهزوا عليهم جميعا وحولوهم الى كومة من العظام والأشلاء (٣) .

هذا عن القسم الأول من الحملة الصليبية الأولى ، وهو القسم الخاص بالعامة والمعدمين . أما القسم الثانى الخاص بالأمراء والفرسان ، فقد أخذ هؤلاء يتجمعون منذ مارس سنة ١٠٩٦ حتى تكونت منهم ثلاث مجموعات كبيرة ، الأولى تألفت من فرسان اللورين تحت زعامة جودفرى بوايون وأخيه بلدوين (٤) ، والثانية تألفت من فرسان اقليم بروفنسال تحت زعامة ريموند أمير تولوز بصحبة أدهمار المندوب البابوى(٥) . والمجموعة الثالثة تألفت من النورمان وعلى رأسهم بوهيموند وابن أخيه تنكرد (٦) . وأخيرا التقت هذه الجموع الثلاثة فى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٠٩٧ ، وكان عددهم يتراوح بين ستين ألفا ومائة ألف(٧) . وهنا أخذت تتكشف العوامل المختلفة التى تحكمت فى توجيه الحملة الصليبية الأولى ، بل كثير من الحملات التالية . فمن جانب الغرب وجد عاملان مهمان ، هما أطماع الأمراء فى تأسيس امارات لهم فى الشرق وما نشأ عن هذه الأطماع من حزازات

---

(1) Idem : p. 9.
(2) Cam. Med. Hist Vol. 1, p. 336.
(3) Runciman : op. cit. Vol, 1, pp. 127-132.
(4) Grousset : op. cit. Tome 1, pp. 11-14.
(5) Cam. Med. Hist, Vol, 5, p. 274.
(6) Grousset : op. cit. Tome 1, p. 20.
(7) Runciman : op. cit. Vol, 1, p. 169.

ومنافسات ، ثم اطماع القوى الايطالية التجارية في تحقيق مكاسبها الاقتصادية
أما من جانب الشرق فقد وجد عاملان أيضا هما سياسة الدولة البيزنطية تجاه الصليبيين من جهة وأحوال الشرق الاسلامى بعد مقتل الوزير نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ ثم وفاة ملكشاه أعظم سلاطين السلاجقة بعد ذلك العام نفسه من جهة أخرى ، مما أدى الى تفكك امبراطوريتهم الواسعة وزيادة انقسام الشرق الاسلامى بين قوى مبعثرة متنافسة (١) •

والواقع أن وصول هذه الاعداد الضخمة من الصليبيين الى أراضى الدولة البيزنطية أثار مخاوف الامبراطور الكسيوس ولا سيما أن مسلك الصليبيين تجاه اخوانهم المسيحيين الشرقيين لم يكن مشجعا على الاطمئنان (٢) •ولذلك لم يسمح الامبراطور البيزنطى بفتح أبواب القسطنطينية للصليبيين الا بعد أن تعهد له زعماء الحملة بالولاء وتسليمه كل ما يستردونه من أراضى الدولة وأملاكها المفقودة فى آسيا ما عدا الأراضى المقدسة نفسها ، وذلك كله مقابل تعهد الامبراطور بامدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقلهم الى الشاطىء الآسيوى (٣) • ولا شك فى أن الغرب اللاتينى اعتبر هذا المسلك معاديا من جانب الامبراطورية البيزنطية ، وذلك فى وقت أساء الغرب الظن بالشرق وتواترت الأخبار بسوء معاملة الدولة الشرقية للحجاج الغربيين القاصدين البلاد المقدسة عبر أراضيها (٤) • وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتزيد من شعور النفور والعداء بين الغرب اللاتينى والشرق اليونانى مما كان له أكبر الأثر فى مصير الحروب الصليبية من جهة وفى مستقبل الامبراطورية البيزنطية من جهة أخرى (٥) •

أما عن تفكك امبراطورية السلاجقة بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ فيبدو

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها •
(2) Runciman : op. cit. Vol, 1, pp. 115-116.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 43-44.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 334.
(5) Runciman : op. cit. Vol, 1, p. 170.

مرجعه الى أن سلاطين السلاجقة لم يفعلوا أكثر من احتلال المدن الرئيسية في البلاد التي فتحوها احتلالا عسكريا ، مع ترك بقية البلاد في الأراضي الواسعة فيما بين هذه المدن خالية من كل مقاومة . وخير ما يوضح تفكك امبراطورية السلاجقة عند نهاية القرن الحادى عشر أن بغداد أصبحت تحت نفوذ السلطان بركياروق (١٠٩٤ ـ ١١٠٤) فى حين صارت آسيا الصغرى تحت سيادة قليج أرسلان . سلطان قونية ، أماسورية فكان يحكمها بيت تتش (ططش) بن ألب أرسلان . وزاد من ضعف بلاد الشام عندئذ تعرضها لاغارات الفاطميين من مصر مما ضاعف العداء بين السنة والشيعة (١) .

ثم كان أن أخذ الصليبيون يعبرون البسفور ويدخلون أراضي قليج أرسلان فى مايو سنة ١٠٩٧ ، مبتدئين بمدينة نيقية فى الوقت الذى كان قليج أرسلان نفسه متغيبا عنها على الحدود الشرقية . ولكن السلاجقة لم يستسلموا فى سهولة وأنزلوا بالصليبيين خسائر فادحة جعلتهم يضطرون الى طلب المساعدة من الامبراطور البيزنطى . وأخيرا سقطت نيقية فى أيدى المسيحيين (يونيه ١٠٩٧) فتسلمها الامبراطور الكسيوس (٢) . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو ضوروليوم حيث أحرزوا نصرا كبيرا على السلاجقة فى أول يوليو ، وفر الأتراك شرقا تاركين خلفهم عددهم وأموالهم فضلا عن مخيمات السلطان والأمراء التى وقعت جميعها فى أيدى الصليبيين (٣). ولا شك فى أن موقعة ضوروليوم لا تقل أهمية فى التاريخ عن موقعة مانزكرت ، لأنه كما وضعت الموقعة الأولى حدا لنفوذ البيزنطيين فى آسيا الصغرى فكذلك دلت موقعة ضوروليوم على تفوق قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة المسيحيين الغربيين (٤) . وبعد أن قضى الصليبيون فى ضوروليوم يومين استراحوا فيهما من عناء القتال اتجهوا نحو قونية فوصلوها فى أواسط أغسطس وعندئذ وجدوا هذه المدينة التى اتخذها قليج أرسلان عاصمة لسلطته خالية الوفاض بعد أن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 314-315.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ١ ج ص ١٦٢-١٦٣

(3) Runciman : op. cit. Vol, 1, p, 186.

(4) Grousset : op. cit. Tome 1, p. 35.

هجرها الأتراك وفروا الى الجبال (١) • وفى قونية استراح الصليبيون عدة أيام أخر ثم اتجهوا نحو هرقلة حيث أنزلوا الهزيمة ببعض أمراء السلاجقة • ومن هرقلة اتجه تنكرد ـ وتبعه بلدوين ـ نحو قيليقية وأخذت جيوشهما تستولى على مدن هذا الاقليم مما يعتبر نواة لنشأة امارة أنطاكية الصليبية ، فى حين اتجه الجزء الرئيسى من الجيش الصليبى جهة الشمال الشرقى نحو قيصرية ليضم اليه قوة أرمينية المسيحية • وعندما اتجهت الجيوش الصليبية بعد ذلك صوب أنطاكية ، انضم اليها بلدوين عند مرعش ـ قرب منتصف الطريق بين قيصرية وأنطاكية ـ ولكن بلدوين لم يلبث أن افترق عن بقية الصليبيين مرة أخرى واتجه شرقا ليستولى على الرها ويؤسس بها سنة ١٠٩٨ أولى الامارات الصليبية فى الشرق (٢) •

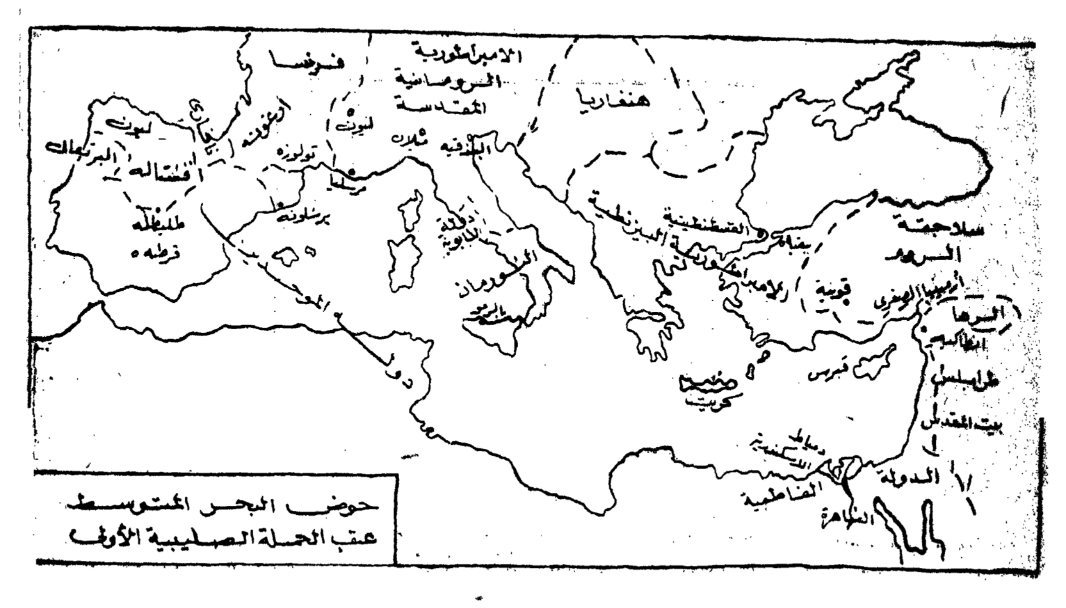
وعلى الرغم من أن بقية الجيوش الصليبية أخذت تتناقص سريعا ، نتيجة العقبات التى صادفتها من جهة ، ولسوء الأحوال المناخية من جهة أخرى ، الا أن الصليبيين اتجهوا نحو أنطاكية لحصارها • وكان حصار أنطاكية عملية شاقة وطويلة لأنها كانت من أقوى المدن المعاصرة تحصينا فضلا عن صعوبة تموين الصليبيين من القسطنطينية وفتك الحمى والأمراض بهم • ولكن الصليبيين أصروا على حصارها نظرا لأهميتها فتغلبوا على النجدات الاسلامية التى أرسلت لانقاذها ، حتى سقطت المدينة أخيرا فى أيدى الصليبيين بعد حصار سبعة أشهر ونصف (سنة ١٠٩٨) (٣) • وقد برزت أثناء الحصار شخصية بوهيموند النورمانى الذى أبلى فى القتال بلاء حسنا ، حتى اذا ما سقطت المدينة بدأ النزاع بينه وبين ريموند حول امتلاك أنطاكية فضلا عن مطالبة الامبراطور البيزنطى بحقه الشرعى فيها (٤) • وقد استمر هذا النزاع نحوا من شهر ، مما عطل زحف الصليبيين نحو بيت المقدس ، ولكنه انتهى بفوز بوهيموند الذى أسس فى أنطاكية ثانى الامارات الصليبية فى الشرق ، وهى الامارة التى اصبحت أقوى الوحدات السياسية للصليبيين فى الشام •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 285.
(2) Runciman : op. cit. Vol, 1, pp. 206-208.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 292.
(4) Grousset : op. cit, Tome 1, pp. 108-116.



الأمارات الصليبية في القرن الثاني عشر



حوض البحر المتوسط
عقب الحملة الصليبية الأولى

وقد أظهر الصليبيون بعد أن تركوا أنطاكية رغبة صادقة فى الوصول بأسرع ما يمكن الى بيت المقدس ، ولا سيما بعد أن حاصروا عرقه (قرب حمص) مدة طويلة دون أن ينجحوا فى الاستيلاء عليها ، وعندئذ أدركوا أن حصار كل بلدة تصادفهم فى طريقهم سيتطلب منهم وقتا طويلا ، زيادة على استنفاد جهودهم (١) • ولم يصادف الصليبيون صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على بيت المقدس بسبب انحلال أحوال الدولة الفاطمية وقتئذ من جهة والعداء المذهبى بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى • لذلك سقطت بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ بعد حصار شهرين ، وعندئذ ارتكبوا كثيرا من أعمال الوحشية ضد الأهالى المسلمين ، كما تشهد على ذلك وثيقة Gesta Francorum التى اشترك صاحبها فى هذه الحملة (٢) • ومهما يكن من أمر فانه يمكن القول بأن الحملة الصليبية الأولى أنهت مهمتها باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس التى قامت فيها ثالث وحدة سياسية للصليبيين بالشام •

ويبدو أن كثيرا من الصليبيين عادوا الى بلادهم بعد أوفوا بقسمهم واستردوا بيت المقدس للمسيحية • لذلك وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها أمام مشاكل بالغة الخطورة بسبب نقص الرجال ، وسيطرة المسلمين على سواحل الشام زيادة على معظم الأراضى الداخلية • وقد أدرك حكام مملكة بيت المقدس ضرورة الاستيلاء على سواحل الشام وموانيها لضمان الاتصال البحرى بأوربا • ولما كان الاستيلاء على هذه الشواطىء والموانى أمرا صعبا بغير أسطول ، فان الصليبيين طلبوا مساعدة مدن ايطاليا البحرية مثل جنوا والبندقية وبيزا ، نظير اعطائهم ثلث الغنائم التى يستولون عليها من أية مدينة تقع فى أيديهم ، وأن يكون لها أحياء تجارية حرة فى كل منها (٣) • وعن طريق هذه المساعدة تم للصليبيين الاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١ وعلى عكا سنة ١١٠٤ وعلى صور سنة ١١٢٤ أما طرابلس

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 295.
(2) Runciman : op. cit. Vol, 1, pp. 286-287.
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ — ص ٢٧٥ •

فقد سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١١٠٩ لتقوم فيها رابع الامارات اللاتينية فى الشرق (١) .

أحوال الصليبيين فى الشرق :

هكذا نجحت الحملة الصليبية الأولى ، وتمكن الصليبيون من تأسيس ثلاث امارات فى الرها وأنطاكية وطرابلس زيادة على مملكة بيت المقدس . على أنه من الواضح أن هذه الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بقيام مملكة بيت المقدس وبعض الامارات الصليبية فى الشرق ، أدت الى خلق موقف سياسى شديد التعقيد . فالدولة البيزنطية التى اطمأنت الى اضعاف الأتراك السلاجقة فى آسيا واستردت جزءا كبيرا من أراضيها الآسيوية ، بدأت تساورها المخاوف من جانب امارات أنطاكية والرها وطرابلس ، وهى الامارات التى سرعان ما وقفت موقفا عدائيا من الدولة البيزنطية (٢) . ولعل هذا الشعور هو الذى دفع الامبراطورية الشرقية الى قلب ظهر المجن — فى القرن الثانى عشر — لحلفائها الصليبيين والتقرب من أعدائها الأوائل وهم الأتراك السلاجقة ، فى حين أخذ الصليبيون يتخوفون من نوايا الامبراطورية البيزنطية ، فعقدوا معاهدات مع السلاجقة ضدها (٣) .

ولما كان العنصر الغالب على الحملة الصليبية الأولى هو العنصر الفرنسى فان الوحدات السياسية الصليبية التى تمخضت عنها هذه الحملة فى الشرق سادتها النظم الاقطاعية المعمول بها فى فرنسا ، بالاضافة الى تغلب اللهجة الفرنسية فيها ، اللهم الا فى الأحياء الايطالية المستقلة التى غلب عليها الطابع الايطالى (٤) . وقد أدت الظروف التى أحاطت بالصليبيين فى الشرق الى ظهور منظمات جديدة تجمع بين الفروسية والديرية ، أو بعبارة أخرى بين الحياتين الحربية والدينية ، مثل هيئة فرسان الاستبارية Hospitallers

(1) Grousset : op. cit. Tome 1, pp. 356-359.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 338-339.
(3) Vasiliev : op, cit. Tome 11, pp. 45-46.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 573.

وهيئة فرسان الداوية Templars (١) . وسرعان ما نمت هذه المنظمات حتى لعبت دورا هاما فى حياة الصليبيين بالشرق ، اذ ألقى على عواتقها عبء الدفاع عن الأراضى المقدسة بعد تنظيمها وتقسيمها (٢) . على أن أعضاء هذه الهيئات لم يلبثوا أن اشتغلوا بالتجارة وحاكوا الايطاليين فى الحصول على مميزات تجارية واسعة ، مما ضاعف ثروتهم وممتلكاتهم من جهة وأثار روح التنافس والبغضاء بين بعضهم وبعض من جهة أخرى (٣) . ولم تنقض سنوات طويلة حتى تغلبت المصالح التجارية على الغرض الصليبى ، فأصبح لا هم للحجاج الذين يفدون تباعا من غرب أوربا الى الأراضى المقدسة سوى مباشرة النشاط التجارى والعودة الى بلادهم محملين بالثروة والمتاجر .

ومن الواضح أن الامارات التى أقامها الصليبيون فى الشرق كانت لاتستطيع الثبات طويلا وسط المحيط الاسلامى الواسع دون أن تصل اليها من الغرب مساعدات مستمرة قوية ، ولا سيما أن كثيرا من مدن الشام المهمة مثل دمشق وحمص وحماة وحلب ظلت فى أيدى المسلمين (٤) . فالحكام الصليبيون ضعاف منقسمون لم يستطيعوا جعل حكمهم وراثيا فى كثير من الحالات ، والمصالح الدنيوية سرعان ما تغلبت على الصالح الدينى مما جعل بعض أمراء الصليبيين فى الشرق يتصلون سرا بالمسلمين أو البيزنطيين طالبين معونتهم ضد خصومهم الصليبيين . هذا الى أن التنافس التجارى بين البندقية وبيزا وجنوا فى الأراضى المقدسة أدى الى كثير من المتاعب زيادة على المشاحنات بين الداوية والاسبتارية (٥) . فاذا أضفنا الى ذلك تناقص اللاتين بالشام وتآمر الأباطرة البيزنطيين لانتزاع بعض الامارات الصليبية بالشام وبخاصة أنطاكية (٦) ، أدركنا فى النهاية حقيقة موقف الامارات الصليبية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 682-683.
(2) Runciman : op. cit. Vol, 2, pp. 156-158.
(3) Cam. Med .Hist. Vol, 5, pp. 306-315.
(4) Idem : p. 306.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 577.
(6) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 91-96. & Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 45.

بالشام فى النصف الأول من القرن الثانى عشر • والـــواقع أنه اذا كان الصليبيون قد نعموا بشىء من الاستقرار والهدوء حينئذ ، فان السبب فى ذلك لا يرجع الى قوتهم وصلاح حالهم بقدر ما يرجـــع الى تفكك القـــوى الاسلامية وافتقارها عند مطلع القرن الثانى عشر الى زعيم قوى يوحد صفوف المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى ليجعل منهم جبهة واحدة قوية تواجـــه المسلمين • الصليبيين •

قيام الجبهة الاسلامية المتحدة وأثرها :

وقد ظهر هذا الزعيم الاسلامى المنتظر فى شخص زنكى أتابك الموصل (١١١٧ - ١١٤٦) الذى ضم اليه حلب ثم انتزع الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤ (١) • ولا شك فى أن سقوط الرها فى أيدى المسلمين يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق زيادة على كونها القلعة التى تعترض الطريق بين الموصل والشام ، وبالتالى فان بقاءها فى أيدى الصليبيين كان من شأنه أن يحول دون اتحاد القوى الاسلامية فى أعالى العراق والشام • لذلك أثار استيلاء المسلمين على الرها فزع العالم المسيحى الغربى فبدأت الاستعدادات لارسال حملـــة صليبية ثانية على رأسها كونرد الثالث ملك ألمانيا ولويس الســـابع ملك فرنسا (٢) • ولكن الفشل حالف هذه الحملة الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) منذ بدايتها ، اذ اختار رجالها أن يسلكوا الطريق البرى عبر آسيا الصغرى فى طريقهم الى الأراضى المقدسة ، بدلا من الطريق البحرى المباشر (٣) • وهكذا لم يتعظ زعماء الحملة الصليبية الثانية بما حل بالحملة الأولى من كوارث فى آسيا الصغرى ، لا سيما بعد أن عقد الامبراطور مانويل كومنين البيزنطى صلحا مع مسعود سلطان قونية السلجوقى الذى كان على الصليبيين أن يجتازوا أراضيه عبر آسيا الصغرى ، بل يشير بعض المؤرخين الى أن

---

(1) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 186-187.
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢١ •
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 366-367.

مانويل نفسه حرض مسعودا على وضع العقبات فى وجه الصليبيين (١) ، مما أوقع معظمهم رجال الحملة الجديدة فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة بحيث لم يصل منهم الى الأراضى المقدسة سوى أعداد قليلة فاستقبلوا استقبالا فاترا ، فى حين عاد كونراد الثالث ولويس السابع الى بلادهما يجران أذيال الفشل (٢) .

وفى ذلك الوقت كان زنكى أتابك الموصل قد توفى سنة ١١٤٦ ، فخلفه ابنه نور الدين محمود الذى عمل جاهدا فى سبيل تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة . ومهما كانت أهمية استيلاء نور الدين محمود على دمشق سنة ١١٥٤ ، فان أهم ما شهدته تلك الفترة كان السباق بين عمورى ملك بيت المقدس ونور الدين حول الاستيلاء على مصر ، حيث كانت الخلافة الفاطمية تعانى آلام الموت البطىء (٣) . وقد انتهى هذه السباق بفوز نور الدين بمصر سنة ١١٦٩ ، وان كان قد توفى سنة ١١٧٣ تاركا لصلاح الدين مهمة اتمام رسالته فى توحيد القوى الاسلامية ومحاربة الصليبيين . ولم يلبث صلاح الدين أن أثبت صلاحيته التامة لمواجهة الموقف واتمام الرسالة على خير وجه ، فوحد مصر ومعظم الشام وأعالى العراق تحت سيادته (٤) . ثم دخل فى حرب جدية ضد الصليبيين حتى أنزل بهم هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ ، واستولى على مدينة بيت المقدس وجميع ملحقاتها من البلاد والموانى الساحلية ، ما عدا صور التى استطاعت الصمود بفضل معونة القوى البحرية الايطالية (٥) . والواقع أن موقعة حطين كانت موقعة حاسمة بكل معانى الكلمة ، ولا سيما أن الجيش الصليبى الذى مزق فيها كان يضم جميع قوى الصليبيين وزعمائهم بالشام ، مما جعل من المتعذر تجنيد جيش صليبى

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 60.
(2) Runciman : op. cit. Vol, 25 pp. 286-287.
(3) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 514-515.
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤١ وما بعدها .
(5) Cam. Med Hist. Vol. 5, p. 210.

جديد بعد أن بات زهرة فرسان الصليبيين أسرى أو قتلى ، كما وقع صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم غنيمة فى أيدى المسلمين (١) • واذا كان هناك ثمة أمل للصليبين ، فان هذا الأمل أصبح فى وصوله حملة كبرى من الغرب تعيد للصليبيين مجدهم المفقود بالأراضى المقدسة •

الحملة الصليبية الثالثة :

ولا شك فى أن سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين كان كارثة كبرى اهتز لها غرب أوربا ، مما عجل بارسال حملة صليبية جديدة • وكان أن لبى نداء البابوية لهذه الحملة الثالثة عدد كبير من ملوك أوربا وأمرائها • فاشترك فيها فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وفيلب الثانى ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا • واختار فردريك بربروسا أن يسبق زميليه، ولكنه سلك الطريق البرى المشئوم عبر آسيا الصغرى ، فانتهى الأمر بغرقه فى أحد أنهار قيليقية سنة ١١٩٠ وتشتت رجاله بحيث لم يصل الأراضى المقدسة سوى شرذمة قليلة منهم (٢) • أما ريتشارد وفيلب فقد دب بينهما الخلاف قبل أن يبحرا الى الأراضى المقدسة ، ففسخ ريتشارد خطوبته لشقيقة فيلب واستعاض عنها بخطوبة برنجاريا أميرة نافارى • (٣) ثم حدث أثناء مسير أسطول ريتشارد فى البحر المتوسط أن جنحت السفينة التى تحمل برنجاريا على شاطىء جزيرة قبرس ، فأسرها حاكم الجزيرة ، مما جعل ريتشارد يقطع رحلته ليغزو قبرس ويدخلها فى دائرة الحروب الصليبية (٤)• على أنه يلاحظ أن ريتشارد وفيلب لم يفعلا أكثر من الاستيلاء على عكا سنة ١١٩١ ثم يافا وقيسارية ، وبعد ذلك عاد فيلب الثانى ملك فرنسا الى بلاده(٥)، فى حين قام ريتشارد فى الأراضى المقدسة ببعض أعمال البطولة التى خلدت اسمه ضمن زعماء الحروب الصليبية ، وان كان قد فشل فى الاستيلاء على

---

(1) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 797-799.
(2) Runciman : op. cit. Vol, 3, p. 15.
(3) Adams : op. cit. p. 366.
(٤) أنظر كتاب (قبرس والحروب الصليبية) للمؤلف ص ٢٦ — ٢٧.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 105.

بيت المقدس . وأخيرا انتهى الأمر بعقد صلح الرملة بين صـــلاح الدين وريتشارد سنة ١١٩٢ ، وفيه تم الاتفاق على أن يقتسم الصليبيون والمسلمون اللد والرملة ، وأن تهدم عسقلان لتكون منطقة حرام بين الطرفين ، على أن يحتفظ الصليبيون بساحل الشام بين صور ويافا ، فى حين يظـــل باقى فلسطين — بما فيه بيت المقدس — فى أيدى المسلمين الذين تعهدوا بالسماح للمسيحيين بالحج والزيارة (١) .

ومع أن صلاح الدين توفى سنة ١١٩٣ الا أن ذلك لم يؤد الى تطورات هامة بالنسبة للموقف فى الأراضى المقدسة . ويبدو أن زمن تحالف القوى الأوربية العظمى من أجل الغرض الصليبى انتهى بانتهاء الحملة الصـــليبية الثالثة بعد أن أخذت تقوى الخلافات بين دول أوربا وحكامها ، مما أدى الى عدم ظهور اتفاقيات جديدة بين ملوك أوربا بقصد الاشتراك فى حـــــرب مقدسة (٢) . وليس معنى ذلك أن تيار الحروب الصليبية قد توقف ، وانما اعتراه الفتور منذ أوائل القرن الثالث عشر نتيجة لتغلب المصالح الدنيوية على الأغراض الدينية . واذا كانت جموع الحجاج والصليبيين قد استمرت فى طريقها الى الأراضى المقدسة بعد الحملة الصليبية الثالثة ، فان هذه الجموع كانت صغيرة وغير كافية لاصلاح موقف الامارات الصليبية فى الشرق .

الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر :

على أن البابوية كانت لا تستطيع السكوت عن بقاء بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، لا سيما بعد أن نجح السلطان العادل فى جمع شمل البيت الأيوبى وتحقيق سيادته العليا على مصر والشام لمواجهة الصليبيين صفا متراصا (٣). لذلك فكر البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) فى انفاذ حملة صليبية الى الشرق ، على أن تبدأ هذه الحملة أولا بمصر التى أثبتت الحوادث أنها

---

(1) Grousset : op. cit. Tome 3, pp. 116-117.
(2) Runciman : op. cit. Vol. 3, p. 76.
(3) Grousset : op. cit. Tome 3, pp. 164-166.

مركز قوة المسلمين فى الشرق الأدنى ومنبع مقاومتهم وأكبر مورد يستمدون منه الرجال والمال فى جهادهم ضد الصليبيين . وكان المفروض أن تحمل سفن البندقية جيوش الصليبيين الى مصر فى سبيل نصرة الغرض الصليبى (١) لذلك ماطل البنادقة جموع الصليبيين المحتشدين فى البندقية حتى أنفقوا ما معهم من أموال ، وعندئذ لم يجدوا الأجر الكافى المتفق على دفعه للبندقية نظير نقلهم الى مصر . وكان أن وافق البابا على عمل مشين ، هو قيام الصليبيين بغزو مدينة زارا على ساحل دالماشيا التى كان الهنغاريون قد استولوا عليها أخيرا ، واعطائها للبندقية ثمنا لنقل الصليبين الى مصر . وفعلا تمت هذه الخطوة سنة ١٢٠٢ ونهب الصليبيون زارا ، وهى المدينة المسيحية، مما يعتبر فاتحة فصل جديد فى تاريخ الحروب الصليبية أخذت فيه الحراب الصليبية تتجه ضد المسيحيين بدلا من المسلمين . وزاد الموقف سوءا أن زارا لم تكد تقع فى أيدى الصليبيين حتى دب الخلاف بينهم وبين البنادقة حول اقتسام الغنائم المسيحية ، وتحول الخلاف الى نزاع مسلح انتهى باتفاق سريع بين الطرفين (٢) . وفى الوقت الذى استعد الصليبيون للابحار نحو مصر اذا بثورة تنشب فى القسطنطينية لتؤدى الى خلع اسحق الثانى وفرار ابنه ألكسيوس الى الغرب طالبا مساعدة البابوية وجموع الصليبيين (٣) . أما الثمن الذى تعهد ألكسيوس بدفعه مقابل هذه المساعدة فكان مغريا حقا ، اذ يتلخص فى اخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية فضلا عن مساعدة الصليبيين فى حملتهم ضد مصر . ومن الطبيعى أن يصادف هذا العرض قبولا من البابوية، فى الوقت الذى وجدت فيه البندقية تحقيقا لفوائد مادية ضخمة (٤) . وهكذا تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأساسى ورسالتها الدينية ، فاستولى الصليبيون على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، ودخلوها كالجراد المنتشر، فلم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة الا نهبوها ، ولم يتركوا أثرا فنيا أو أدبيا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 415-416.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٢ .

(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 368-369.

(4) Idem.

الا أفسدوه ، حتى شبع منهم من كان جائعا واغتنى من كان فقيرا • حتى الكنائس والأديرة لم تنج من عبث الصليبين ولم تسلم من أيديهم ، وهم الذين حملوا شارة الصليب لخدمة الدين ومحاربة أعداء الدين • (١) وليس هناك شك فى أن هذه كانت أخطر ضربة نزلت بالقسطنطينية منذ تأسيسها ، حتى أن الدولة البيزنطية لم تفق من أثرها حتى سقوطها فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ •

وبعد أن انتهى الصليبيون من دور النهب والسلب ، أخذ زعماء الحملة يوزعون الأسلاب والغنائم ، فخرجت البندقية بنصيب الأسد ، اذ فازت بربع القسطنطينية مع بعض الجزائر المهمة مثل كريت وأيوبيا وغيرها من الموانى المطلة على البحر الأدرياتى (٢) • أما بقية الامبراطورية فقد وزعت وفق العقلية الاقطاعية الغربية بين الأمـــراء (٣) ، وانتخب بلدوين دى فلاندرز امبراطورا ، وبذلك قامت الامبراطورية اللاتينية فى القسـطنطينية لتستمر حتى سنة ١٢٦١ (٤) • واذا صرفنا النظر عن الدلائل المادية والسـياسية للحملة الصليبية الرابعة ، فاننا نجد — من الناحية الأدبية — أن هذه الحملة ارتكبت جرما بالغا لا يغفره التاريخ فى حق الحضارة الأوربية وفى حق الفكرة الصليبية ذاتها • هذا علاوة على أن ما فعله رجال الحملة الرابعة أثبت أن البيزنطيين كانوا على حق عندما نظروا منذ أول الأمر الى الحروب الصليبية على أنها غزوات — بربرية همجية (٥) • ونستطيع أن نقرر أن الحملة الصليبية الرابعة تعتبر نقطة تحول مهمة فى تاريخ الحروب الصليبية بصرف النظر عن نتائجها الخطيرة بالنسبة للتاريخ الأوربى بوجه عام (٦) ، اذ فترت بعدها الحماسة الصليبية واتضح جليا أن المصالح الاقتصـــادية والدنيوية تحتل المكانة الأولى فى سياسة المعاصرين •

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 111-112.
(2) Idem : p. 114.
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 376-377.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 216.
(5) Eyre : op. cit. pp. 197-198.
(6) Runciman : op. cit. Vol, 3, pp. 130-131.

ومن أغرب الحملات الصليبية التى شهدها القرن الثالث عشر بعد ذلك حملة الأطفال ، اذ اجتمع عدد ضخم ـ قدره المعاصرون بثلاثين ألفا ـ من أطفال فرنسا وألمانيا وغيرهما سنة ١٢١٢ وطلبوا الذهاب الى الأراضى المقدسة لحرب المسلمين ، بعد أن ادعى صبى يشتغل برعى الغنم ـ اسمه ستفن ـ أنه تلقى رسالة من المسيح يأمره فيها بالخروج للمشاركة فى الحروب الصليبية • وقد اعتقد كثير من رجال الدين المعاصرين أن هؤلاء الأطفال الأبرياء السذج سيأتون من الأعمال والمعجزات ما عجز عنه الكبار ، ولكن الأمر انتهى بأن اخذ تجار البندقية هذه الآلاف من الأطفال ليبيعونهم فى أسواق الرقيق فى تونس والشرق (١) •

أما الحملة الصليبية الخامسة التى وضع مشروعها البابا أنوسنت الثالث ثم البابا هنريوس الثالث (١٢١٦ ــ ١٢٢٧) من بعده ، فقد اتجهت نحو مصر « رأس الأفعى » للقضاء على قوة الملك العادل الأيوبى • وكان أن نجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩ ، ولكن أمر الحملة انتهى بالفشل بسبب الخلافات بين الصليبيين من جهة وما ارتكبوه من أخطاء فنية أثناء زحفهم من دمياط نحو القاهرة من جهة أخرى • وهكذا تم جـــلاء الصليبيين عن دمياط دون قيد أو شرط سنة ١٢٢١ (٢) •

على أن هذا الفشل الذى منيت به الحروب الصليبية بعد الحملة الثالثة ، زاد من غضب البابوية ورغبتها فى القيام بعمل حاسم ضد المسلمين • لذلك أخذ البابا يحث الامبراطور فردريك الثانى على القيام بحملة صليبية ، كما سهل له الزواج من وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة خاصة فى الذهاب الى الشرق • وبعد أن ماطل الامبراطور طويلا ، خرج على رأس جيش صغير وهو محروم من الكنيسة سنة ١٢٢٨ (٣) • وكان أن تمكن

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٤ ـ ٩٥٦ •
(2) Grousset : op. cit. Tome 3, p. 244.
(3) Runciman : op. cit. Vol, 3, p. 179.

فردريك الثانى من عمل اتفاقية سلمية مع الملك الكامل الأيوبى ، استرد بها الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم وشريطا ساحليا ضيقا ، على أن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى ويسمح لهم بالتردد عليه (١) .

ولكن الأمر لم يستقر بعد ذلك للصليبيين فى الأراضى المقدسة ، اذ اتجهت جموع الأتراك الخوارزمية غربا تحت ضغط المغول حتى استولوا على بيت المقدس - للمرة الأخيرة - سنة ١٢٤٤ ، وبذلك لم تعد هذه المدينة مرة أخرى الى قبضة الصليبيين (٢) . وفى أكتوبر من السنة نفسها ، تمكنت جيوش الصالح أيوب - تحت قيادة مملوكه بيبرس وبمساعدة الخوارزمية - من انزال هزيمة بالصليبيين عند غزة . وكانت هذه الهزيمة ساحقة وشاملة، حتى اسماها بعض المؤرخين « حطين الثانية » ، اذ أنها أدت الى تمزيق الجيش الصليبى شر ممزق ووقوع أفراده بين قتلى وأسرى . وبعد ذلك تمكنت جيوش الصالح أيوب من الاستيلاء على دمشق سنة ١٢٤٥ ثم على عسقلان سنة ١٢٤٧ (٣) .

أما أوربا فكانت عندئذ فى شغل شاغل بحوادث النزاع بين البابوية والامبراطورية من جهة ، وبالمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أخذت تزداد وضوحا فى القرن الثالث عشر من جهة أخرى . على أن هذه المشاغل لم تمنع واحدا من ملوك أوربا المتحمسين - وهو لويس التاسع ملك فرنسا - من القيام بحملة صليبية جديدة ضد مصر سنة ١٢٤٩ (٤) . ويبدو أن لويس التاسع لم يتعظ بما حدث للحملة الخامسة قبل ذلك بثلاثين سنة ، فوقع فى نفس الأخطاء التى تردت فيها تلك الحملة سنة ١٢١٩ ، مما أدى الى هزيمة الفرنسيين وأسر لويس التاسع نفسه قرب المنصورة . وهكذا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, pp. 314-315.
(2) Grousset : op. cit. Tome 3, p. 412.
(3) Idem : Tome 3, pp. 418-421.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 99.

باءت الحملة الصليبية السابعة التى قام بها لويس التاسع على مصر بالفشل ، ولم يطلق سراح القديس لويس نفسه الا سنة ١٢٥٠ بعد أن دفع فـداء كبيرا (١) •

نهاية الحروب الصليبية :

وأخيرا أدرك غرب أوربا أن الثمن الذى يدفعه فى الحروب الصليبية باهظ لا يعادل الفوائد التافهة التى حصل عليها (٢) ، فأخذ الأوربيون يوجهون نشاطهم نحو ميادين أخرى أجدى عليهم وأنفع لهم ، فى حين رأى البابوات أن يستغلوا ما تبقى من حماســة دينية عند الغربيين فى تحقيق مآربهم السياسية • وهكذا تركت الأراضى المقدسة لتصبح ميدانا للتنافس التجارى بين البنادقة والبيازنة والجنوية ، هذا عدا ما استمر بها من منازعات بين الأمراء اللاتين وبين الهيئات الدينية العسكرية (٣) •

ويبدو أن ما آل اليه أمر الصليبيين فى الأراضى المقدسة من ضعف وانحلال كان خير مشجع لسلاطين المماليك على الاجهاز عليهم • من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) من الاستيلاء على كثير من الحصون الصليبية على ساحل الشام وفى داخلها ، حتى سقطت أنطاكية فى يده سنة ١٢٦٨ (٤) • كذلك استولى بيبرس على حصن الأكراد معقـل الاسبتارية سنة ١٢٧١ كما أجبر امارة طرابلس على دفع جزية ، ثم جاء السلطان قلاون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) فاستولى على طرابلس نفسها سنة ١٢٨٩ وبذلك لم يبق للصليبيين من المعاقل المهمة بالشام سوى عكا التى لم تلبث أن سقطت هى الأخرى فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون ســنة ١٢٩١ (٥) •

---

(١) سعيد عاشور • الحركة الصليبية ج ٥ ص ١٠٧٣ ، ١٠٨٤ •
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 219.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 5, pp. 312-313.
(4) Runciman : op. cit. Vol, 3, p. 325.
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٩ — ١١٨٤ •

وهكذا دالت دولة اللاتين فى الأراضى المقدسة ، فأخذ مختلف المنظمات والهيئات الصليبية كالفرسان التيتون والداوية والاسبتارية تبحث لها عن منفذ أو مأوى جديد • أما الفرسان التيتون فاتخذوا الجهات الوثنية فى شمال أوربا ميدانا لنشاطهم (١) ، فى حين استولى الاسبتارية على رودس سنة ١٣٠٩ واحتفظوا بها حصنا من وجه الأتراك العثمانيين حتى أواخر القرن الخامس عشر • على أنه يبدو أن مثل هذه الفرص لم تتح للداوية ، لأن ثروتهم وكبرياءهم أثارت حقد المحيطين بهم فتعرضوا لاضطهاد شديد فى أوائل القرن الرابع عشر حتى اختفوا وانتهى دورهم (٢) • وبذلك انتهت قصة الحروب الصليبية التى تعتبر من أبرز صفحات تاريخ التفاعل بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى • حقيقة ان النشاط الصليبى ضد المسلمين — سواء فى مصر والشام وشمال أفريقية أو فى آسيا الصغرى أو فى أسبانيا — استمر فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ، كما دأب البابوات على اصدار الأوامر بمقاطعة التجارة مع المسلمين واستغلوا موقع جزيرة قبرس وحماسة ملوكها من آل لوزجنان فى تنفيذ بعض أركان هذه السياسة (٣) • ولكننا مع كل ذلك نستطيع أن نحكم بأن الحروب الصليبية بمعناها المحدود الضيق انتهت بنهاية القرن الثالث عشر •

وليس من العسير علينا أن نعلل فشل هذه الحروب بعد أن رأينا ما كان من سوء نظام الصليبيين ، وعدم توحيد قيادتهم وكثرة المنازعات والحروب فيما بينهم وعدم تورعهم عن السلب والنهب أثناء زحفهم ، فوق ما كانوا عليه من عدم تعاون مع الدولة البيزنطية بسبب تخوفها من نواياهم وأطماعهم (٤)•

فالصليبيون تعرضوا فى الطريق البرى الى الأراضى المقدسة للجـــوع والهلاك والموت ، فلما أعرضوا عن هذا الطريق وأرادوا اتخاذ البحر طريقا

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 333.
(2) Eyre : op. cit. pp. 473-474.
(٣) أنظر كتاب (قبرس والحروب الصليبية) للمؤلف •
(4) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 536.

لهم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم واقعين تحت رحمة المدن الايطالية البحرية، التى عرفت بضعف الوازع الدينى والتى استغلت الحروب الصليبية لتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب الاقتصادية •

وأخيرا يأتى أهم الأسباب التى أفضت الى فشل الحروب الصليبية ، وهو تطور الأوضاع فى أوربا نفسها • فالحروب الصليبية نجحت فى أول أمرها عندما كانت أوربا تربطها فكرة واحدة هى فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة العالمية • ولكن التفكك السياسى الذى أصاب وحدة الغرب نتيجة لظهور الملكيات القومية المتنافسة ، كان العامل الرئيسى فى تصدع جبهة الحروب الصليبية كما ظهر ذلك بوضوح فى الخلاف بين فيلب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا أثناء الحملة الصليبية الثالثة (١) • والغريب أن هذا الانقسام الذى أصاب أوربا فى الغرب جاء فى الوقت نفسه الذى اتحد المسلمون فى الشرق وكونوا الجبهة الاسلامية المتحدة التى امتدت من أعالى الفرات حتى مصب النيل لمواجهة الخطر الصليبى •

نتائج الحروب الصليبية وأثرها فى غرب أوربا :

ولكن اذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت فى تحقيق أهدافها الأولى ، الا أنها تركت أثرا بعيدا فى تاريخ أوربا وتطورها • ذلك أنها أدت من الناحية السياسية الى اضعاف أمراء الاقطاع لأن كثيرا منهم احتاجوا الى المال للمساهمة فى النشاط الصليبى فباعوا الحرية لكثير من أتباعهم والمدن التابعة لهم مما أدى الى تصدع النظام الاقطاعى من جهة وتحرر المدن وازدياد نفوذها ، فضلا عن ازدياد قوة الملوك من جهة أخرى (٢) • هذا الى أن الحروب الصليبية أظهرت فى وضوح - لأول مرة - روح التنافس والفوارق بين مختلف الشعوب الأوربية كالفرنسيين والانجليز والألمان كما زادت من

---

(1) Eyre : op. cit. p. 194.
(2) Thompson : op. cit. Vol, I, p. 598.

حدة الانقسام بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى (١) • أما البابوية فقد أتاحت لها الحروب الصليبية فرصة طيبة لاظهار زعامتها على العالم الأوربى وتأكيد هذه الزعامة ، ومن ثم أدت هذه الحروب الى ازدياد سلطان البابوية واتساع نفوذها (٢) •

وفى الناحية الاقتصادية أدت الحروب الصليبية الى تشجيع النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، اذ استغلت المدن الايطالية هذه الحروب فى احتكار أحياء تجارية بأكملها فى موانى الشام ومدنها واتخذتها قواعد لمباشرة نشاطها التجارى (٣) • على أن النشاط التجارى الذى أثارته الحروب الصليبية لم يقتصر على المدن الايطالية وحدها بل أسهم فيه كثير من مدن غرب أوربا الأخرى مثل مرسيليا وبرشلونة وبعض مدن الشمال • ولا شك فى أن هذه الثروة التى تدفقت على المدن الأوربية ساعدت على تقدم أساليب التجارة والمحاسبة ومسك الدفاتر والأعمال المصرفية ، وهى النواحى المرتبطة بالنشاط التجارى (٤) •

ومن الناحية الاجتماعية ساعدت الحروب الصليبية على ظهور طبقات جديدة فى المجتمع الأوربى نتيجة لتناقص الأقنان وازدياد نفوذ البورجوازية وظهور نفوذ المدن • هذا الى أن الثروة التى تدفقت على غرب أوربا كان لها أثرها فى زيادة السكان وتطور الحياة ولا سيما فى المدن حيث ظهر الاتجاه نحو الترف والتنعم ، فأخذ الأوربيون مثلا يحاكون الشرقيين فى شغفهم بالاستحمام وعنايتهم بالحمامات • كذلك يرجح أن أوربا عرفت عن طريق الحروب الصليبية حاصلات جديدة شرقية لم تسبق معرفتها (٥) •

ويميل بعض الكتاب الى المبالغة فى النتائج الثقافية للحروب الصليبية ، فيقولون أن هذه الحروب ساعدت غرب أوربا على معرفة الكثير من علوم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 330.
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٧٦ – ١٢٧٧ •
(3) Eyre : op. cit. p. 991.
(4) Cam. Med Hist. Vol, 5, pp. 327-328.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 1, pp. 598-599.

العرب فضلا عن معارف اليونان التى ترجمها العرب الى لغتهم • على أننا مع اعترافنا بأهمية الحروب الصليبية فى ميدان التبادل الفكرى ، الا أنه ينبغى أن نذكر دائما أن الصليبيين قدموا الى الأراضى المقدسة محاربين لا طلاب علم ، وأن ظروف اقامتهم فيها تطلبت اليقظة والحذر مما يستبعد معه تمتعهم بشىء من حياة الهدوء والاستقرار التى لابد منها لمباشرة النشاط العلمى (١) • واذا كانت أوربا قد أخذت الكثير من علوم العرب فى عصر الحروب الصليبية فانه من الأرجح أن تكون ميادين الاتصال فى أسبانيا وصقلية لا الأراضى المقدسة (٢) • أما الحروب الصليبية فأثرها واضح فى أنها أتاحت للغربيين فرصة للوقوف على فن بناء الحصون العربية ، وربما بعض أساليب الحياة العلمية عند المسلمين (٣) •

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٦٩ — ١٢٧٢ •
(2) Eyre : op. cit. p. 200.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 332.

الباب السابع عشر

انجلترا بعد الغزو النورمانى

أثر الفتح فى انجلترا :

تنظر الدراسات التاريخية الحديثة الى الفتح النورمانى لانجلترا سنة ١٠٦٦ على أنه أخطر من مجرد غزوة حربية قام بها فريق من المغامرين للسيطرة على بلد من البلاد وادخاله تحت حكمهم . حقا ان غالبية هؤلاء المغامرين الذين نجحوا فى فتح انجلترا وفدوا من نورمنديا ، ولكنهم جروا فى ركابهم عددا كبيرا من الناطقين بالفرنسية ، وهؤلاء شاركوا فى عملية الفتح ثم أخذوا نصيبهم من الغنائم والأراضى المفتوحة وانتشروا فى البلاد ليتركوا أثرا أعمق من مجرد الأثر الحربى . هذا الى أن النورمان أنفسهم الذين غزوا انجلترا فى القرن الحادى عشر كانوا قد أصبحوا فعلا قبل ذلك الغزو جزءا من الأمة الفرنسية الناشئة بعد أن استقروا فى نورمنديا وتأثروا بعوامل البيئة الجديدة وحضارتها ، حتى أصبح الغزو النورمانى لانجلترا فى حقيقة جوهره غزوا فرنسيا حضاريا (١) . ولا عجب فقد زود هذا الغزو انجلترا بأسرة حاكمة فرنسية ، وهيئة من النبلاء وكبار رجال الدين الفرنسيين ، وطبقة من الناطقين بالفرنسية باشرت شئون الحكم والنشاط التجارى .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن النتيجة الحقيقية للغزو النورمانى هى اخراج بريطانيا من عزلتها النسبية ، وتقوية الصلات بينها وبين القارة ، وجعلها عضوا عاملا فى تطور الحضارة الغربية ، تتأثر بكل حركة حضارية مهمة تنشأ فى

---

(1) Tout : France and England, p. 50.

الغرب وتؤثر فيها . فالغزو النورمانى هو الذى أدى الى تطور النظام الاقطاعى فى انجلترا تطورا مشابها لما كان عليه الحال فى غرب أوربا وبخاصة فى فرنسا . وبعبارة أخرى فان هذا الغزو هو الذى أدى الى تطور الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى انجلترا تطورا مشابها لتلك الأوضاع التى عرفت فى غاليا (١) .

وفى ركاب الحكام والمحاربين النورمان ، أتى رجال الكنيسة من خريجى أديرة فرنسا الشهيرة ليتركوا أثرا عميقا فى حياة الجزر البريطانية . وحسبنا أن لانفرانك وأنسلم وثيوبالد - وهم الذين تولوا رآسة أسقفية كانتربورى بالتتابع فى أوائل العصر النورمانى - كانوا جميعا ينتمون الى دير بك Bec الشهير فى نورمنديا . هذا بالاضافة الى أن حركة الاصلاح الكنسية التى ارتبطت باسم هلدبراند (جريجورى السابع) تدفقت مبادئها - الخاصة بتحرير الكنيسة ورجالها من سيطرة الدولة وبتوسيع دائرة القانون الكنسى واختصاصه - على انجلترا عن طريق فرنسا . وقد نشأ من ذلك فى انجلترا - بعد الفتح النورمانى - حركة اصلاحية كنسية واسعة ، فأخذ كبار أساقفة كانتربورى يصطدمون بالملوك من خلفاء وليم الفاتح فى سبيل الاحتفاظ بكلمة الكنيسة وسيادتها على شئونها ، وبدأت روح جديدة تدب فى الديرية الانجليزية وفق المثل التى سارت عليها الأديرة العظيمة فى فرنسا . وهكذا أصبح من اليسير أن تمتد حركة الاحياء الديرية - التى ظهرت فى أوائل القرن الثانى عشر - من فرنسا الى انجلترا على عهد هنرى الأول ، فأسست هيئتا السسترشيان والكارثوسيان - وكلاهما ولد فى برجنديا - أولى مؤسساتهما الديرية فى انجلترا بالذات (٢) .

ومع الفتح النورمانى وصل الى انجلترا طراز فنى جديد هو الطراز الرومانسكى الذى عرفه الانجليز باسم النورمانى ، والذى حل محل الطراز

---

(1) Idem : p. 53.
(2) Idem : p. 56.

الأنجلو سكسونى . وهكذا أخذت تنتشر فى أنحاء انجلترا منذ القرن الحادى عشر الكنائس والأديرة الرومانسكية والقصور الرومانسكية الضخمة لتحل محل المبانى الأنجلو سكسونية الكثيبة المعتمة . وظل هذا الطراز الرومانسكى - أو النورمانى - سائدا فى انجلترا حتى ظهر الفن القوطى قرب منتصف القرن الثانى عشر لينتقل هو الآخر من فرنسا الى انجلترا (١) .

ويطول بنا الشرح لو حاولنا تتبع أثر الغزو النورمانى لانجلترا فى مختلف الميادين كاللغة والأدب والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادى ، ولذلك نكتفى بالاشارة الى أن هذا الأثر كان عظيما . ففى الناحية اللغوية أضحت الفرنسية لغة بلاط ملوك انجلترا النورمان ، وأخذت تتغلغل تدريجيا بين ثنايا لغة البلاد ذات الطابع السكسونى ، حتى نشأ عن الامتزاج بين اللغتين - فى أواخر القرن الرابع عشر - ما أصبح يعرف باللغة الانجليزية . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الأثر الاجتماعى الذى نشأ عن الامتزاج بين الغزاة النورمان وأهالى البلاد الأصليين ، مما ظهرت آثاره فى نواحى الجنس والتقاليد والعادات .

ومهما يكن الأمر ، فمن الواضح أن أعظم نتائج الفتح النورمانى بالنسبة لانجلترا ظهرت فى الميدان السياسى . ويكفى أن هذا الفتح تمخض عن قيام أقوى دولة منظمة شهدتها أوربا فى أوائل القرن الثانى عشر . ولا غرو ، فقد استطاع النورمان أن يثيروا فى جمع البلاد التى فتحوها - سواء كانت انجلترا أو غير انجلترا - قسطا من النشاط والحيوية ترك أثرا واضحا فى تطورها التاريخى . وتبدو هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحا فى تاريخ انجلترا ذاتها ، وهو التاريخ الذى تأثر الى درجة عظيمة بالفتح النورمانى سنة ١٠٦٦ .

---

(1) Idem : pp. 57-69.

وليم الفاتح :

كان حكم وليم الفاتح لانجلترا استبداديا مطلقا بكل معانى الكلمة ، بوصفه قائد الغزاة النورمان من جهة وحامي أهالى البلاد الأصليين من جهة أخرى ، ومن ثم استطاع أن يؤكد سيطرته التامة على الفريقين(١) • والواقع أن أولى المهام التي واجهت وليم النورمانى عقب نجاحه فى غزو انجلترا كانت العمل على توطيد نفوذه وتدعيم سلطان الملكية تدعيما قويا لم تعهده البلاد من قبل • ولتحقيق ذلك أخضع الثورات والفتن التى نشبت ضده وأهمها ثـورة فى شمال انجلترا سنة ١٠٧٠ كما قام باحصاء شامل لثروة البلاد وتوزيعها ، وعدد الأفراد وممتلكاتهم ، وهو الاحصاء الشـهير المعـروف باسـم Domesday Book (٢) • وقد مكن هذا الاحصاء وليم الفاتح من الوقوف على أحوال بلاده بدرجة لم تتح لملك آخر من ملوك أوربا العصور الوسطى ، كما يعتبر مصدرا أساسيا هاما فى دراستنا التاريخية لأحوال انجلترا فى تلك العصور • وهكذا استطاع وليم الفاتح أن ينظم حكومة انجلترا تنظيما اقطاعية امتاز بالحيوية والقوة ، فأعلن نفسه المالك لجميع أراضى البلاد بحق الفتح(٣)، وصادر أراضى من قاومه من أمراء السكسون ، ووزعها على أتباعه النورمان فى هيئة منح صغيرة مع مراعاة عدم تكتل أراضى أى أمير فى منطقة واحدة(٤)• ومن هذا يبدو كيف حرص وليم الفاتح على اضعاف نفوذ كبار الأمراء كما فرض على أفصال هؤلاء الأمراء أن يقسموا يمين الولاء والتبعية للملك مباشرة • وكان لملوك انجلترا قبل الفتح النورمانى مجلس استشارى يضم بعض رجال الدين والنبلاء ، ولكن هذا المجلس كان مفككا ، فاستبدل به وليم الفـاتح مجلس الملك Curia Regis الذى تألف من كبار الأمـراء ـ وهم أفصال الملك الاقطاعيون ـ وجعل اختصاصه قضائيا زيادة على بعض الأعمال

---

(1) Orton : op. cit. 191.
(2) Adams : The Hist. of England, pp. 67-68.
(3) Stephenson : Med. Hist. p. 250.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 506.

الأخرى ، وفقما تقضى التقاليد الاقطاعية السائد فى نورمندية (١) • ولما كان هذا المجلس الكبير يجتمع عادة فى فترات متقطعة متباعدة ، فان الملك أنشأ هيئة أخرى أصغر تجتمع بصفة مستمرة منتظمة ، كما عين على رأس الجهاز القضائى موظفا دائما Justiciar

أما عن موقف وليم الفاتح فى الكنيسة فيلاحظ أنه على الرغم من المساعدة التى لقيها من البابوية الا أنه رفض أن يقسم يمين التبعية للبابا جريجورى السابع ، وأن يحكم انجلترا كاقطاع من البابوية (٢) • كذلك رفض وليم الأول نشر المراسيم البابوية أو السماح للبابا بتوقيع قرار الحرمان ضد كبار نبلائه دون استئذانه والحصول على موافقته • وهكذا مضى وليم الفاتح فى طريقه يعين الأساقفة ومقدمى الأديرة فى انجلترا ، غير عابىء بغضب البابوية واحتجاجاتها • على أنه من الانصاف أن نذكر أن وليم شمل الكنيسة فى انجلترا بعطفه وعمل على تدعيمها عندما خول المحاكم الكنسية حق الفصل فى المخالفات الدينية التى يرتكبها العلمانيون ، بعد أن كانت دور القضاء المحلية هى التى تفصل فى هذا النوع من المخالفات (٣) • كذلك عين لانفرانك — راهب ديربك - Bec الشهير — رئيسا لأسقفية كانتربورى وساعده على تنفيذ الاصلاحات الدينية التى نادى بها هلدبراند ، كما شجع الديرية وأسس مدارس جديدة يشرف عليها مدرسون من النورمان (٤) •

وليم الثانى وهنرى الأول :

أما وليم الثانى (١٠٨٧ — ١١٠٠) فقد تطرف فى معاملة الكنيسة ، مما هدد بوقوع صدام عنيف بين الطرفين ، لولا وفاة لانفرانك • على أن أنسلم —

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 258.
(2) Adams : op. cit. p. 49.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 5, pp. 515-516.
(4) Adams : op. cit.. pp. 43-46.

رئيس أساقفة كانتربورى التالى – أصر على مبدأ سمو الكنيسة حتى أنه فضل ترك البلاد بمحض اختياره على التنازل عن رأيه (١) . وهكذا وأشكت العلاقات بين الكنيسة والدولة فى انجلترا أن تنذر بصدام عنيف يساير تيار النضال الذى اشتد بين البابوية والامبراطورية فى ذلك العصر حول التقليد العلمانى . واذا كانت هذه المشكلة قد أمكن حلها بسهولة فى انجلترا ، فالفضل فى ذلك يرجع الى هنرى الأول(٢) ، الذى تولى الحكم بعد ذلك (١١٠٠ – ١١٣٥) فدعا أنسلم الى العودة الى انجلترا لمحاولة اصلاح الموقف . وقد أبى أنسلم عند عودته أن يقدم فروض التبعية للملك عن أراضى الكنيسة ، كما رفض أن يعترف بالأساقفة الذين عينهم هنرى فى مناصبهم . وأخيرا تم الاتفاق على حل صورى يتضمن اعتراف الأساقفة بالتبعية للملك فى الشئون الدنيوية ، مقابل تنازل الملك عن حق تقليد الأساقفة مهام مناصبهم الدينية(٣) .

وكان هنرى الأول اداريا ممتازا وحاكما قويا ، فأخضع ثورة قام بها البارونات فى انجلترا ، كما غزا نورمنديا وقبض على أخيه الثائر(٤) . أما انجلترا فتمتعت فى عهده بالسلام والأمن بعد أن عمل هنرى على تركيز الأداة الحكومية فى ظل ادارة مركزية قوية . ذلك أنه جعل للمجلس الملكى صفة مالية ، وأصبح المشرفون الاداريون (Sheriff) الذين يمثلون الملك فى مختلف الأقاليم ، يحضرون سنويا أمامه لتقديم حصيلة ما جمعوه من ضرائب . كذلك خصص هنرى الأول بعض أعضاء هذا المجلس للطواف فى أنحاء البلاد والاشراف على الموظفين الاداريين والعمل على توطيد سلطان الملكية (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 526.
(2) Tout : France and England p. 54.
(3) Adams : op. cit. p. 147.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 184.
(5) Adams : op. cit. p. 147.

هنري الثـاني :

وقد أعقبت وفاة هنري الأول فترة نزاع وحروب أهلية سببها الخلاف حول وراثة العرش ، حتى انتهت بقيام هنري الثاني في الحكم (١١٥٤ - ١١٨٩) • وامتاز هذا الملك الجديد بالذكاء والطموح وقوة العزيمة ، فنشر الأمن في انجلترا ومنع الأمراء من شحن حصونهم بالمقاتلين دون اذنه ، كما حطم كثيرا من هذه الحصون الاقطاعية • وقد وضع هنري الثاني نظاما اداريا يستهدف اصلاح الادارة لا في انجلترا فحسب ، بل في بقية ممتلكات انجلترا أيضا في القارة (١) ، كذلك أدخل هنري الثاني بعض الاصلاحات المالية والقضائية ، وأهمها التوسع في تحليف الأهالي عند الادلاء بشهادتهم أمام القضاء ، فكان اثنا عشر رجلا يقسمون مشتركين على التصريح بمـا يعرفونه عن الجرائم المحلية ، مما يعتبر أصلا لنظام المحلفين الذي اشتهر به القضاء الانجليزي (٢) •

على أن هنري الثاني لم يصادف توفيقا في حل المشاكل المترتبة عى ازدياد نفوذ رجال الدين • ذلك أن الكنيسة في انجلترا استغلت فرصة الحروب الأهلية التي أعقبت وفاة هنري الأول وضاعفت من نفـوذها وممتلكاتها • وساعدها على ذلك ازدهار القانون الكنسي في القرن الثاني عشر مما زاد من سلطان المحاكم الدينية ، حتى أصر رجال الدين على ألا يحاكموا الا أمام المحاكم الكنسية وحدها (٣) • لذلك اختار هنري الثاني لمنصب رئيس أسـاقفة كانتربوري صديقه ومستشاره الوفي توماس بكت ، مؤملا أن يؤدي هـذا الاختيار الى احكام سيطرته على رجال الدين • على أن بكت لم يكد يتولى ذلك المنصب حتى أظهر تمسكه الشديد بحقوق الكنيسة وسموها وسيادة القانون الكنسي • وقد استمر بكت يقاوم هنري الثاني حتى أعياه الأمر فنزح أخيرا الى فرنسا حيث أقام ست سنوات ، وجد فيها تشجيعا من ملكها لويس

---

(1) Tout : France and England, p. 68.
(2) Adams : op. cit. pp. 322-323.
(3) Stephenson : Med. Hist. p. 422.

السابع (١) • وأخيرا استرضى هنرى الثانى بكت فعاد الى انجلترا ليصدر فور وصوله قرار الحرمان ضد بعض الأساقفة الذين ناصروا الملك • وعندما علم هنرى الثانى بهذا الخبر اعتراه الغضب ودفعته ثورته الى توجيه اللوم الى فرسان بلاطه الذين لم ينتقموا له من « هذا القسيس المشاغب » • وكان أن استثارت تلك الألفاظ أربعة من فرسان الملك فهجموا على بكت وقتلوه فى كندرائية كانتربورى (٢) • وقد أثار مقتل بكت على هذه الصورة ثورة الرأى العام الذى اعتبره قديسا وشهيدا ، واضطر هنرى الثانى أن يحنى رأسه أمام الزوبعة فأقسم على أنه برىء من دم بكت ، كما وعد باحترام حقوق الكنيسة ورجالها وأن يسمح باستئناف القضايا أمام المحكمة البابوية (٣) •

أما سياسة هنرى الثانى الخارجية فلم يوفق فيها هى الأخرى • ذلك أنه أجبر الولشيين فى ويلز على الاعتراف بسلطة الملك وسيادته ، ولكن فشل فى السيطرة على نبلائه فى أيرلندا ، وهم الذين رفضوا الاتحاد فى ظل حكومة مركزية وواصلوا اعتداءاتهم على الأيرلنديين واساءة معاملتهم مما جعل الجزيرة مسرحا للفوضى والاضطرابات (٤) • وقد ازداد نفوذ هنرى الثانى ازديادا كبيرا فى القارة بعد أن زوج بناته الثلاث من دوق سكسونيا وملك قشتالة وملك صقلية على التوالى ، مما أدى الى نتائج بعيدة المدى فى السياسة الأوربية (٥) • أما فيما يتعلق بأملاكه فى فرنسا ، فان هنرى الثانى اضطر الى اخضاع الأمراء الاقطاعيين الـذين ثاروا بتحريض من لويس السابع ثم فيلب أوغسطس ملكى فرنسا • وقد لجأ هنرى الثانى الى تقسيم ملكه بين أبنائه الثلاثة على أن تكون انجلترا ونورمنديا لابنه الأكبر هنرى ، واكوتين لابنه الثانى ريتشارد ، فى حين تزوج ابنه الثـالث جيوفرى من

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 251.
(2) Adams : op. cit. p. 295.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 566.
(4) Adams : op. cit. pp. 279-299.
(5) Stephenson : Med. Hist. p. 523.

وويلة بريطاني مما أدى الى ربط هذا الاقليم الأخير بالتاج الانجليزى (١)٠ ولكن حدث سنة ١١٧٣ أن ثار أبناء هنرى الثانى وهم هنرى وريتشارد وجيوفرى ضد أبيهم ، وشاركهم فى ثورتهم كثير من أمراء انجلترا والممتلكات الانجليزية فى فرنسا ٠ ولكن هنرى الثانى أخضع أمراء انجلترا الثائرين وقبض على ملك سكتلند الذى ساندهم وأجبره على الدخول فى تبعية التاج الانجليزى ٠ أما أبناؤه فقد صالحهم حتى توفى اثنان من هؤلاء الأبناء فى حين عاد ريتشارد الى الثورة سنة ١١٨٨ بتحريض من فيلب أوغسطس ملك فرنسا (٢) ٠ ويبدو أن هذه الأحداث أثرت فى نفس هنرى الثانى فى وقت أدركه الكبر ، مما عجل بوفاته فى العام التالى (١١٨٩) (٣) ٠

ريتشارد الأول :

ثم كان أن خلف ريتشارد الأول أباه فى الحكم (١١٨٩ - ١١٩٩) وعرف هذا الملك الجديد بشجاعته وحبه لأعمال البطولة والقتال مع اتصافه بالعنف والقسوة ٠ وفى خلال السنوات العشر التى تولى فيها الحكم لم يقض فى انجلترا أكثر من سنة ، اذ تردد عليها مرتين قضى فى كل مرة بضعة أشهر لجمع الأموال (٤) ٠ ذلك أنه بعد الاحتفال بتتويجه الذى تم مصحوبا بسفك دماء اليهود القادمين لتقديم الهدايا له (٥) ، أبحر ريتشارد الى الأراضى المقدسة ليشارك فى الحملة الصليبية الثالثة ٠ على أن الخلاف لم يلبث أن استحكم بين ريتشارد وفيلب أوغسطس فى الأراضى المقدسة فعاد الأخير الى فرنسا وعاد الأول الى انجلترا ليجمع الأموال ويستعد لنزال ملك فرنسا ٠ وعندما أكمل ريتشارد استعداداته أبحر الى فرنسا حيث حارب ببطولة لانقاذ

---

(1) Orton : op. cit. p. 248.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, pp. 90-92.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 572.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 266.
(5) Coulton : Life in the Middle Ages, Vol, 2, pp. 31-33.

ممتلكات التاج الانجليزى فى فرنسا ، حتى انتهى الأمر باصابته بجرح خطير فى ليموساں ووفاته متأثرا بجراحه سنة ١١٩٩ (١) ٠

الملك حنا والعهد الأعظم :

وقد خلف ريتشارد أخوه حنا (١١٩٩ — ١٢١٩) الذى استطاع غريمه فيلب أوغسطس سلبه معظم أملاكه فى فرنسا سنة ١٢٠٤ كما سبق أن ذكرنا ٠ وعلى الرغم مما عرف به حنا من عنف وقسوة وسوء تدبير وعدم مقدرة وتهور، الا أن أخطاءه الكبرى جعلته يحتل مكانة بارزة فى التاريخ (٢) ٠ ذلك أنه حدث سنة ١٢٠٥ أن انتهز رجال الدين فى انجلترا فرصة شغور منصب رئيس أساقفة كانتربورى وتحايلوا ليتجنبوا تدخل الملك فى انتخاباتهم ، فاختاروا — سرا — رئيسا لأساقفة كانتربورى ، وأرسلوه — دون أن يعلم الملك — الى روما ليقلده البابا أنوسنت الثالث مهام منصبه رسميا (٣) ٠ وفى تلك الأثناء عين الملك حنا رجلا آخر لشغل هذا المنصب وأرسله أيضا الى روما حيث التقى مع منافسه ، فأعرض البابا عنهما جميعا وعين ستفن لانجتون رئيسا لأساقفة كانتربورى ٠ وكان أن رفض الملك قبول ستفن فى هـذا المنصب ، مما أثار سوء تفاهم بينه وبين البابوية حتى انتهى الأمر بأن أصدر البابا قرار الحرمان ضده سنة ١٢٠٨ لقسوته وقتله أحد رجال الكنيسة (٤)٠ ولم يلبث البابا أنوسنت الثالث أن أعلن عزل الملك حنا وأباح لرعاياه التحرر من طاعته والولاء له ، فرد حنا على ذلك بالاستيلاء على جميع أملاك الكنيسة فى انجلترا ٠ وقد ظل الموقف معلقا بين الملك حنا والبابوية خمس سنوات ، وكان من الممكن أن يستطيع حنا الثبات فى موقفه لو أنه محبوب من شعبه ولكن أساليبه التعسفية جعلته مكروها لا يستطيع الاعتماد على أمـرائه فى

---

(1) Adams : op. cit. Ps. 378-386.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 218-219.
(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 430-431.
(4) Adams : op. cit. p. 419.

الداخل فى الوقت الذى أخذ فيلب أوغسطس يستعد لغزو انجلترا بتحريض من البابوية وأعد لذلك أسطولا ضخما من ألف وخمسمائة سفينة (١٢١٢ — ١٢١٣) (١) وهكذا اضطر الملك حنا الى الاذعان أخيرا (سنة ١٢١٣) لرغبة البابا فقبل ستفن لانجتون رئيسا لأساقفة كانتربورى ، ورد أراضى الكنيسة المصادرة ، كما اعترف بسيادة البابوية وتعهد بتقديم مبلغ سنوى لها رمزا لهذه التبعية (٢) •

وبعد ذلك انضم حنا الى الحلف الكبير الذى ألفه الامبراطور أوتو الرابع وكونت فلاندرز ضد فيلب أوغسطس ملك فرنسا • وعندما رفض أمراء انجلترا مساعدة ملكهم فى حربه الجديدة ، أبحر هو الى فلاندرز على رأس طائفة من الجند المأجورين (٣) • ولكنه لم يلبث أن عاد الى بلاده بعد أن أنزل فيلب أوغسطس الهزيمة بجيوش الحلفاء فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤• وكان استياء البارونات الانجليز قد بلغ أشده عندئذ ، ولا سيما عندما طالب حنا بفرض ضريبة جديدة تساعده على استئناف الحرب ضد فرنسا (٤) • لذلك تكتل الأمراء وقدموا قائمة بمطالبهم الى الملك حنا الذى أخذ يماطل فى أول الأمر حتى استكشف عجزه عن اغراء رجال الكنيسة أو أهالى لندن بمساعدته • وهنا احتل البارونات لندن واضطروا الملك حنا على الموافقة على العهد الأعظم ودمغه بالخاتم الملكى فى ١٥ يونيو سنة ١٢١٥ (٥) •

والواقع أن العهد الأعظم هذا لا يعتبر وثيقة جديدة فى موضوعها تحقق الحرية للشعب ، كما يبدو لأول وهلة • وحسبنا أن العهد الأعظم لم يتعرض لذكر أهل الريف الذين ألفوا ثلاثة أرباع سكان انجلترا فى ذلك الوقت • وربما كان أقرب الى الصواب أن نعتبر العهد الأعظم وثيقة اقطاعية تتجه فى

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 162.
(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 431-432.
(3) Barraclough : op. cit. p. 213.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244-245.

جوهرها نحو تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الأمراء الاقطاعيين (١) • ذلك أنه أورد حقوق الأمراء القديمة مفصلة ، كما نص على احترام حقـــوق الكنيسة ولا سيما فيما يتعلق بانتخاب القسلوسة ، وحرم على الملك جمع اتاوات دون موافقة المجلس الكبير ، باستثناء عدة حالات مثل أسر الملك أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارسا أو زواج كبرى بناته (٢) • أما لندن وغيرها من المدن فقد ضمن لها العهد الأعظم حقوقها وامتيازاتها القديمة ، كما سمح للتجار بدخول البلاد ومباشرة نشاطهم دون أن يتعرضوا لشيء من الازعاج والمضايقات • وفي حالة استيلاء الدولة على بعض الممتلكات للصالح العام ، فان أصحابها يجب أن يعوضوا تعويضا كافيا • أما في الناحية القضائية فقد نص العهد الأعظم على عدم الاكتفاء بالشبهات والأقاويل لالصاق تهمة بشخص معين ، وانما يتحتم أن يأتي الشهود بأدلة دامغة على هذه التهمة ، كذلك نص على أن تتناسب العقوبة مع الجريمة مع ابطال بعض العقوبات الوحشية (٣) •

على أن أهم مادتين في العهد الأعظم هما المادة التاسعة والثلاثون والمادة الأربعون • أما المادة التاسعة والثلاثون فتنص على أنه لا يجوز القبض على أي شخص حر أو سجنه أو سلبه ممتلكاته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه أو ايذائه بأي وجه من الوجوه الا بعد محاكمته أمام محكمة من أنداده وفق أحكام القوانين المعمول بها (٤) • وأما المادة الأربعون فيتعهد فيها الملك بألا يبيع حقا لأحد الأفراد أو ينكره أو يماطل فيه • وربما كان أهم من هذا كله ما يفهم ضمنا من العهد الأعظم من أن الملك خاضع للقانون ، وأن القانون فوق الملك الذي لا يملك حق الخروج عليه ، فاذا حـــاول الملك الخروج على القانون وجب استعمال القوة لاخضاعه (٥) • والواقع أنه على الرغم من عدم استطاعة البارونات استخدام القانون ضد الملك ، وعلى الرغم من أن نظرية خضوع الملك للقانون كثيرا ما تنوسيت ، الا أنها ظلت دائما

(1) Idem : p. 438.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages p. 269.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 245-246.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 269.
(5) Adams : op. cit. p. 499.

تمثل ركنا مهما في الدستور البريطاني ، كما ظل العهد الأعظم يذكر ملوك انجلترا على الدوام بأن ملكيتهم « مقيدة » (١) .

على أنه لا الملك حنا ولا نبلاؤه أظهروا احتراما لشروط العهد الأعظم ، فلم يلبث بارونات الشمال أن هاجموا الأراضي الملكية ، وعندئذ شكا حنا للبابا الذي سانده ، فأصدر قرار الحرمان ضدهم . وقد ظل الملك يحارب هؤلاء البارونات الخارجين حتى توفى في العام التالي - أى سنة ١٢١٦ - بسبب افراطه في الطعام والشراب ! (٢) .

هنرى الثالث

ثم خلف حنا ابنه هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) الذى كان عند وفاة أبيه في التاسعة من عمره ، فقام عنه بأعباء الحكم مجمـــــوعة قديرة من البارونات وكبار الأساقفة . وعندما تولى هنرى الثالث السلطة الفعلية سنة ١٢٢٧ ، عادت انجلترا مرة أخرى تعانى مساوىء حكم ضعيف ، اذ أخذت البابوية تملأ المناصب الكنسية الشاغرة بأفراد ايطاليين ، كما أخذت تجبى أموالا طائلة من رجال الدين الانجليز برسم الحروب الصليبية ، مما جعل ثروة البلاد تتسرب الى خزينة البابوية حتى أثار ذلك الوضع سخط الانجليز جميعا من علمانيين ودينيين (٣) . أما الملك فكان أداة طيعة فى أيدى ندمائه وأصفيائه ، وبدا عجزه واضحا عن كبح شهواته وفى تحقيق مشروعاته الحربية الجوفاء وبخاصة ضد ملك فرنسا (٤) . وزاد الطين بلة ترحيب هنرى الثالث بالأجانب واغداقه عليهم ، فأتى الكثيرون من بروفانس وسافوى وغيرهما الى انجلترا لينعموا على حساب أهالى البلاد . هذا فى الوقت الذى أخذ هنرى الثالث ينفق كثيرا من الأموال لرشوة الألمان حتى ينتخبوا أخاه

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages ,p. 270.
(2) Adams : op. cit. pp. 441-447.
(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 478-479.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, pp. 228-288.

ريتشارد امبراطورا ، فضلا عن مساعدته للبابوية في حربها ضد مملكة صقلية بعد أن وعدته البابوية باعطاء عرش هذه المملكة لثاني أبنائه ادموند (١). وعندما اشتدت حاجة هنري الثالث الى المال ، لم يجد مفرا من الالتجاء الى البرلمان — وهو الاسم الذي بدأ يطلق على المجلس الكبير — طالبا منه المعونة (١٢٥٨) .

ولم يلبث أن اضطر هنري الثالث الى أن يحني الرأس أمام البرلمان ، فوافق على طرد جميع الأجانب الدخلاء على المملكة — وعلى رأسهم آل لوزجنان — وأن يتولى شئون الحكم جماعة من البارونات على أن يكونوا بمثابة وزراء مسئولين أمام البرلمان (٢) . وهكذا نهض البارونات بحكم البلاد فترة من الزمن تحت زعامة كبيرهم سيمون دي مونتفورت ، فعقدت معاهدة مع فرنسا لانهاء حالة الحرب بين الدولتين سنة ١٢٥٩ ، كما تم وضع حد لكثير من المفاسد (٣) .

وعندما تجددت الفتن والخلافات مرة أخري ، استطاع سيمون دي مونتفورت أن يهزم القوات التي التفت حول الملك ، حتى تم عقد البرلمان الشهير سنة ١٢٦٥ وهو الذي مثلت فيه المدن لأول مرة عن طريق اشتراك ممثلين عن كل مدينة ، مما أعطى هذا البرلمان طابعا شعبيا قويا وجعل سيمون دى مونتفورت صاحب الفضل الأول في نشأة فكرة مجلس العموم (٤) . ولكن حدث في تلك السنة نفسها أن ثار بعض البارونات المتذمرين ، وقتل سيمون دى مونتفورت عندئذ ، فأخذ نفوذ النبلاء يتناقص بعد أن نجحوا في تحطيم قوة الاستبداد . وأخيرا مات هنري الثالث سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي كان ابنه الأمير ادوارد — وهو الذي أصبح ادوارد الأول — متغيبا في حملة صليبية .

---

(1) Orton : op. cit. Ps. 320-328.
(2) Tout : The History of England, pp. 98-102.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 283.
(4) Tout : The Hist of Egland, p. 122.

ادوارد الأول :

تولى ادوارد الأول الحكم (١٢٧٢ – ١٣٠٧) وهو فى السابعة والثلاثين من عمره ، فكان رجلا ناضجا واسع التجربة ، على قسط وافر من التعليم ، يجمع بين القوة وحب العدالة والرغبة فى الاصلاح ، مما جعله يحتل مكانا بارزا فى التاريخ الانجليزى ، فضلا عن أن اصلاحاته أثرت تأثيرا عميقا فى مستقبل انجلترا (١) . وقد اعتلى ادوارد الأول العرش عقب عودته من حملة صليبية ، وكان يأمل فى القيام بحملة أخرى جديدة ، ولكن الظروف الخارجية والداخلية التى أحاطت به حالت دون امكان تنفيذ هذه الأمنية . ذلك أن ادوارد الأول عمل على تحقيق الوحدة بين مختلف اجزاء الجزر البريطانية ليجعل منها دولة واحدة مترابطة ، وكان أكبر نجاح أحرزه فى هذه الخطة هو ضم امارة ويلز بعد أن غدت خطرا كبيرا تحت حكم آخر أمـــرائها ليلين الكبير Lelwellyn (٢) . وعندما نجح ادوارد الأول فى اخضاع ويلز أصدر قانون سنة ١٢٨٤ الذى يقضى بضمها الى التاج البريطانى، وأعقب ذلك تطبيق القوانين الانجليـــزية فى ويلز تحت اشراف موظفين اداريين من الانجليز . وفى سنة ١٣٠١ أضفى ادوارد الأول على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز ، وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى انجلترا منذ ذلك الوقت (٣) .

على أن متاعب ادوارد الأول لم تقتصر على ثورة ويلز لأن الأوضاع فى سكتلند أدت أيضا الى زيادة تلك المتاعب . ذلك أن السلالة المباشرة للبيت المالك فى سكتلند انتهت سنة ١٢٩٠ بوفاة الأميرة مرجريت ، وعندئذ تدخل ادوارد الأول فى مسألة اختيار وريث للعرش وأوفد اليها بعثة لهذا الغرض. وقد اختارت هذه البعثة جنا باليول John Balliol ملكا على سكتلند ، وفعلا قدم هذا الملك الجديد فروض الولاء والتبعية لادوارد الأول ملك

---

(1) Stephenson : Med. Hist. 488.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 514-517.
(3) Tout : The Hist. of England, p. 220.
(4) Cam Med. Hist. Vol, 7, pp. 563-564.

انجلترا (٤) • ولكن عندما حاول ادوارد أن يجعل سيادته على سكتلند فعلية بالتدخل في شئونها ، عارضة باليول وأنكر حق المحاكم الانجليزية فى استئاف الأحكام التى أصدرتها المحاكم الاسكتلندية ، ثم اتخذ حنا باليول موقفا عدائيا صريحا من ملك انجلترا فحالف فيلب الرابع ملك فرنسا ضد ادوارد الأول ، ولكن الأخير غزا سكتلند غزوة موفقة وقبض على حنا باليول وأخمد الثورة وأقام حكومة موالية له(١) • على أن الاسكتلنديين لم يستسلموا بسهولة ، فانتهزوا فرصة وجود ادوارد الأول في فلاندرز سنة ١٢٩٧ وثاروا من جديد تحت زعامة وليم ولاس وهزموا جيشا انجليزيا عند جسر سترلنج (Stirling Bridge) وعندئذ عاد اليهم ادوارد الأول بعد أن عقد صلحا مع فيلب الرابع ملك فرنسا وهزمهم فى فالكرك Falkirk وأخضع سكتلند وأعدم ولاس • وقد ثارت سكتلند مرة أخرى تحت زعامة روبرت بروس Robert Bruce ولكن ادوارد الأول توفى سنة ١٣٠٧ وهو يستعد لاخماد الثورة (٢) •

أما تشريعات ادوارد الأول الداخلية فتحتل مكانة عظيمة فى تاريخ انجلترا وتطورها السياسى • ذلك أنه وجد الكنيسة تمتلك نسبة كبيرة من الأراضى فى البلاد تبلغ الثلث ، مع اعفاء هذه الأراضى من معظم الضرائب الاقطاعية • ولذلك أصدر تشريعا سنة ١٢٧٩ يحد من ازدياد أراضى الكنيسة عن طريق الهدايا والمنح ، بوضع هذه المنح تحت الادارة الملكية (٣) • كذلك أصدر تشريعا جديدا سنة ١٢٩٠ ينظم تقديم الخدمات والالتزامات الاقطاعية للسيد الاقطاعى الكبير مباشرة دون وساطة عدد من الشخصيات الاقطاعية الصغيرة• وبعبارة أخرى فان هذا التشريع حدد عدد الأفصال الذين يتوسطون بين الملك من جهة وصاحب الأرض أو الضيعة الفعلى من جهة أخرى ، كما أجاز انتقال الأرض من يد لأخرى عن طريق البيع والشراء بعد أن كان الطريق الوحيد لحيازة الأرض هو الاقطاع (٤) • أما تشريع الأوقاف فقد

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 493.
(2) Tout : The Hist. of England, Pa. 234 307.
(3) Cam Med. Hist. Vol. 7. pp. 398-400.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 274.

صمح بحبس الأراضي ووقفها ، وبذلك مكن البيوت الكبيرة القـــوية من الاحتفاظ بأملاكها وتكتيل أراضيها . ثم لاحظ ادوارد ازدياد نفوذ اليهود وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية في انجلترا منذ أن رحب بهم وليم الفاتح ومنحهم قسطا وافرا من الحماية والطمأنينة . لذلك استغل ادوارد الأول كراهية الناس لليهود نتيجة لموقفهم العنيد من المسيحية والمسيحيين ، وبدأ يضطهدهم ، ففرض عليهم زيا خاصا الغرض منه تحقيرهم ، ثم عاد فطردهم من بلاده سنة ١٢٩٠ (١) . ومنذ ذلك الوقت حتى عهد كرمويل لم يستطع اليهود دخول انجلترا .

على أن اصلاحات ادوارد الأول القضائية والادارية فاقت كل ما عداها في الأهمية . ذلك أنه حدد اختصاص مجالس القضاء الكنسية بمقتضى قانون أصدره سنة ١٢٨٥ . ولم يكد عهده ينتهي حتى تفرعت ثلاث محاكم منفصلة عن المحكمة الملكية ، أولاها خاصة بحسابات الدولة والقضايا المالية ، وثانيتها خاصة بالدعاوى العامة المدنية بين الأهالي بعضهم وبعض ، وثالثتهـــا سميت مجلس القضاء الملكي (King's Bench) وتفصل في جميع القضايا — مدنية كانت أو جنائية — التي تهم الملك (٢) .

وقد دعا ادوارد الأول البرلمان الى الانعقاد سنة ١٢٩٥ لحاجته الى المـــال بعد حروبه في ويلز من جهة ، ولمواجهة التحالف الفرنسي الاسكتلندي من جهة أخرى . وامتاز البرلمان الذي عقد في تلك السنة بأنه ضم جميـــع العناصر التي أصبح يتألف منها البرلمان الانجليزي فيما بعد ، من نبلاء وأساقفة ورؤساء أديرة ، فضلا عن اثنين من فرسان كل مقاطعة وممثلين يمثلون أهالي المدن وغيرهم ، حتى أطلق عليه في التاريخ البرلماني النموذجي Model Parliament (٣) . وفي هذا البرلمان جلس الفرسان مع النبلاء وممثلي المدن ، في حين اجتمع رجال الدين على حدة . ثم تطور الأمر بعد ذلك الى حرمان صغار رجال الدين من عضوية البرلمان فانضم الفرســـان الى

(1) Tout : The Hist. of England, p. 175.
(2) Stephension : Med. Hist. p. 490.
(3) Tout : The Hist. of England, p. 195.

البرجوازيين وممثلى المدن ليؤلفوا مجلس العموم ، فى حين انضم النبلاء الى الأساقفة ليتكون منهم مجلس اللوردات . وكان أن أخذ النبلاء يواصلون ضغطهم على الملك لتحديد سلطاته ، فطلبوا منه عند وجوده فى فلاندرز سنة ١٢٩٧ تأكيدا للعهود التى تحرم الملك من حق جمع الأموال دون موافقتهم(١)

ادوارد الثانى :

ثم تولى عرش انجلترا بعد ذلك ادوارد الثانى (١٣٠٧ — ١٣٢٧) الذى كان ضعيفا مولعا بصحبة الأراذل حتى أصبح أداة عمياء فى أيدى ندمائه . وهنا احتج أعضاء البرلمان على سوء حكومته وقبضوا على جافستور نديم الملك وقتلوه سنة ١٣١٠ (٢) . وفى ذلك الوقت كان روبرت بروس قد طرد الانجليز تقريبا من سكتلند ، مما جعل ادوارد الثانى يصالح البارونات ويتجه على رأس جيش كبير الى سكتلند لاخماد ثورتها . ولكنه منى بهزيمة كبيرة فى يونية ١٣١٤ عند بانوكبورن Bannockburn (٣) ، وفر عائدا الى بلاده ، وبذلك استردت سكتلند حريتها . ويبدو أن ادوارد الثانى لم يتعظ من هذه الأحداث ، فاستأنف حياته الفاسدة مما أوقع البلاد فى فوضى كبيرة انتهت عندما عزله البرلمان وأعدمه سرا سنة ١٣٢٧ (٤) .

ادوارد الثالث وحركة وكلف :

أما ابنه ادوارد الثالث (١٣٢٧ — ١٣٧٧) فكان فارسا ذا شخصية جذابة . وعلى الرغم من أنه يختلف عن أبيه كثيرا فى أسلوب حياته ، الا أن عهده الطويل امتاز بأهمية كبرى فى التاريخ الانجليزى سواء فى التطور السياسى

---

(1) Idem : pp. 202-204.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 414.
(3) Stephenson : Med. Hist. p. 493.
(4) Tout : The Hist. of England, pp. 299-303.

الداخلى أم الخارجى (١) • وكانت أهم الأحداث التى شهدها هذا العهد قيام حرب المائة عام ، التى ستكلم عنها بشىء من التفصيل فيما بعد ، مكتفين الآن بالاشارة الى أنه لم يتبق لادوارد الثالث من أملاكه فى القارة عند نهاية حكمه سوى موانى كاليه وبرست وباسيون وبوردو ، فضلا عما كان لهذه الحرب من نتائج داخلية خطيرة بالنسبة لانجلترا • وفى ذلك العام قامت منظمة السسترشيان بتحويل كثير من أراضى انجلترا الضحلة المهملة الى أرض زراعية خصبة ، كما اهتموا بغزل الأصواف التى أصبحت فيما بعد من أهم الصادرات الانجليزية • وكان للوباء الأسود الذى اجتاح أوربا عند منتصف القرن الرابع عشر أثره الهدام فى انجلترا فقلت الأقوات وارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا ، واضطر كثير من الأقنان الى الفرار من أراضيهم مما جعل البرلمان يصدر قانونا بتوقيع عقوبات مشددة على كل من يترك الأرض أو يطالب برفع الأجور (٢) • على أن المراسيم التى صدرت سنة ١٣٥١ وسنة ١٣٦٠ لتحديد الأجور وفرض العمل على كل رجل أو امرأة دون الستين من عمره لم تجد فى علاج الموقف بعد أن قلت الأيدى العاملة (٣) • وكان أن أدت الحرب الطويلة الى عدم انتظام التجارة بين انجلترا ، وفلاندرز التى كانت تستورد معظم الأصواف الانجليزية لنسجها ، الأمر الذى أدى الى هجرة كثير من الغزالين والنساجين من فلاندرز الى انجلترا لمباشرة صناعة المنسوجات الصوفية قرب مراكز انتاج الصوف الخام • هذا فى الوقت الذى أدى اشتداد تيار حرب المائة عام وما تطلبته من مغارم ونفقات الى ازدياد نفوذ البرلمان الذى لم يكتف سنة ١٣٧٦ بالمطالبة بمراجعة الحسابات الملكية ، وانما وجه الاتهام الى اثنين من الموظفين الملكيين وأدانهم ، ومن ثم بدأ تقليد جديد هو محاسبة الموظفين العموميين واقامة الدعوى عليهم (٤) •

وفى ذلك العصر ساءت العلاقات بين البابوية وانجلترا بسبب اقامة البابوات

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 397.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 443.
(3) Eyre : op. cit. p. 714.
(4) Tout : The Hist. of England, p. 435.

في أفينون وما أثارته هذه الاقامة من ظنون حول مساندة البابا للملكية الفرنسية في وقت اشتد العداء بين انجلترا وفرنسا ، وفي سنة ١٣٥١ م أنكر البرلمان الانجليزي شرعية تعيين البابا لكبار الدين في انجلترا ، كما أصدر تشريعاً بعد ذلك بعامين يحرم استئناف القضايا أمام محاكم أجنبية ، وبذلك حرمت البابوية من مورد مالي ضخم كانت تستمده من انجلترا (١) • أما الجزية التي تعهد الملك جنا بدفعها سنويا للبابوية فقد عارض البرلمان في دفعها ، ولما أصر البابا على حقه فيها ، أجاب البرلمان بأنه لم يقر تصرفات الملك حنا ولذلك فان البلاد لا ترتبط بهذه التصرفات (٢) •

وفي ذلك العهد ظهر حنا وكلف John Wiclif (١٣٢٤ - ١٣٨٤) ، وهو أحد المصلحين الدينيين ، فنادى بحق الدولة في مصـــــادرة ممتلكات الفاسدين من رجال الدين ، كما نادى بعدم التقيد بالبابوية وبأن الانجيل هو الدستور الوحيد الذي يجب أن يهتدي المســيحيون بهـــديه (٣) • وستعرض فيما بعد لآراء وكلف وأثرها بالتفصــــيل ، ولكن نكتفي الآن بالاشارة الى أن هذه الآراء كانت تسبق العصر الذي عاش فيه وكلف ، بحيث بدت عنيفة في نظر كثير من المعاصرين ، حتى أدت نتائجها المباشرة الى اثارة كثير من الاضطرابات في الداخل والخارج (٤) •

ريتشارد الثاني :

وبعد ذلك تولى حكم انجلترا ريتشارد الثاني (١٣٧٧ - ١٣٩٩) الذي كان في العاشرة من عمره فقام بالوصاية عليه وتصريف شئون البلاد مجلس وصاية من اثنى عشر عضوا (٥) • وكانت عصابات المستأجرين المسلحين

---

(1) Eyre : op. cit. p. 485.
(2) Tout : The Hist. of England, pp. 377-378.
(3) Cam. Med. Hist, Vol, 7, p. 500.
(4) Eyre : op. cit, p. 522.
(5) Oman : The History of England, pp. 1·3.

وأتباع كبار الأمراء قد عكروا صفو الأمن فى أواخر أيام ادوار الثالث ، كما استنفذ الفلاحون بمحاولة ارهاقهم بكثير من الالتزامات الاقطاعية القديمة ، هذا فضلا عن استياء صغار العمال فى المدن بعد أن أضرت بهم القيود النقابية وغيرها من التشريعات التى سنت من أجل صالح فئة محدودة من المواطنين الأثرياء (١) • أما الحكومة فقد دفعتها حاجتها الى الأموال الى التطرف فى جمع الضرائب مما أدى الى نشوب « الثورة العظمى » سنة ١٣٨١ • واشترك فى هذه الثورة العمال والفلاحون الذين اقتحموا لندن حيث استقبلهم الملك الصغير ووعدهم برفع المظالم التى شكوا منها (٢) •

وكان ريتشارد الثانى جسورا محبا للسيطرة ، حكم انجلترا فى ظـــروف حرجة نظرا للخسائر التى أصيبت بها فى حروبها مع فرنسا وسكتلند ، فضلا عن عدم استقرار الأوضاع بسبب المتاعب الداخلية (٣) • ولم يلبث أن حدث احتكاك بين ريتشارد الثانى والبرلمان عندما رفض الملك الاعتراف باشراف البرلمان على مصروفاته ، ولكنه رجع فاستسلم سنة ١٣٩٦ • على أن حب السيطرة والرغبة فى جمع الأموال دون رقيب جعلت الملك يخرج عن جادة الصواب فقبض على كثيرين بغير ذنب وجعل من نفسه دكتاتورا حتى انتهى الأمر بعزله وقتله سرا سنة ١٣٩٩ (٤) •

هنرى الرابع :

أما عهد هنرى الرابع (١٣٩٩ — ١٤١٣) فكان مليئا بالمتاعب • ذلك أن البرسيين Percies فى نورثمبرلاند ثاروا عليه سنة ١٤٠٠ وتضامنوا مع الولشيين ضده (٥) • ولكن هنرى الرابع هزم البرسيين (١٤٠٣ — ١٤٠٨) كما أنزل الهزيمة بالولشيين • ثم زاد من المتاعب التى لاقاها هنرى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 461-463.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 571.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 456-457.
(4) Oman : The Hist of England, pp. 148-149.
(5) Oman : op. cit. p. 393.

الرابع في أواخر عهده سوء حالته الصحية من جهة وتعجل ابنه وولى عهده الأمير هنرى في أن يحل محل أبيه على وجه السرعة من جهة أخرى (١).
ويبدو أن هذه المتاعب التى أحاطت بهنري الرابع أتاحت فرصة طيبة للبرلمان لكي يوطد نفوذه وسلطانه فتقررت حرية المناقشة داخل البرلمان ، كما أجبر الملك على الاحتفاظ بمجلس دائم من أفراد يرضى عنهم البرلمان ليكونوا بمثابة مجلس الوزراء (٢) . كذلك أصدر البرلمان قرارا سنة ١٤٠١ يعطى موظفى الحكومة سلطة مكافحة الهراطقة لا سيما أتباع وكلف الذين عرفوا باسم اللولارديين Lollards والذين نشروا دعوته على مدى واسع ولا سيما بين الطبقات الفقيرة . وقد قضى هذا القرار بأن يسلم كل من يتهم بالهرطقة للكنيسة لمحاكمته ، فاذا أدين أحرق بواسطة السلطة العلمانية (٣) .

هنري الخامس :

وقد استمر قمع تلك الحركة في عهد هنري الخامس (١٤١٣ — ١٤٢٢) الذي قبض على حنا أولد كاسل (Sir John Oldcastle) زعيم اللولارديين ، ولكنه استطاع الفرار ليدبر ثورة كبيرة ضد الملك . على أن هنرى الخامس أخمد هذه الفتنة وأعدم زعيمها ، وبذلك يمكن القول بأن أثر الحركة اللولاردية قد انتهى في انجلترا من الناحية السياسية (٤) .
ثم اختار هنرى الخامس أن يجدد الحرب مع فرنسا طمعا في الحصول على نصر سريع من جهة وأملا في أن تؤدى هذه الحرب الى توحيد رعاياه تحت رايته من جهة أخرى . لذلك انتهز فرصة الحروب والمنازعات الداخلية في فرنسا وتقدم اليها بعدة شروط ومطالب ، وهو واثق تماما من أنها لن تقبلها . وكان أن رفضت مطالبه ، فعبر المانش ليحصل على نصر في موقعة أزينكورت Azioncourt سنة ١٤١٥ ، ثم عاد بسرعة الى انجلترا ليستعد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 375.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 483-484.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 423-424.
(4) Oman : The Hist. of England, pp. 236-238-267.

لحرب أكبر (١) . وعندما أبحر الى فرنسا بعد ذلك بعامين كان مقدرا له أن يقضى بقية حكمه القصير ـ ما عدا شهرين ـ فى فرنسا ، فاستولى على باريس وغيرها من المدن بمساعدة البرجنديين . على أن هذه الانتصارات الحربيـــة التى أحرزها هنرى الخامس كانت قصيرة العمر محدودة النتائج ، فلم تتناسب فائدتها مع ما استنفدته من أعباء وما تطلبته من ضرائب فى وقت كان الشعب الانجليزى يئن من ثقل الأعباء المالية (٢) .

هنرى السادس :

وكان هنرى السادس (١٤٢٢ ـ ١٤٦١) طفلا عند وفاة أبيه الذى كان قد أوصى بوضع هذا الطفل تحت وصاية حنا دوق بدفورد وهمفرى دوق جلوستر ، على أن يظل الأول فى فرنسا لمباشرة مصالح انجلترا ويواصل الحرب ضدها ، ويبقى الثانى فى انجلترا . وقد حاول بدفورد أن يستغل مقدرته للاحتفاظ بنفوذ انجلترا فى فرنسا على الرغم من رجحان كفـــة الأخيرة فى ذلك الوقت(٣) . أما جلوستر فلم يصاحبه التوفيق فى ادارة شئون انجلترا فى وقت أحس الأهالى بثقل الأعباء التى تطلبتها الحرب وبدأ يساورهم الشك فى امكان الانتصار على دولة مثل فرنسا كانت تفوق انجلترا فى الثروة والسكان (٤) . وكان أن مات بدفورد سنة ١٣٤٥ ، وحينئذ تخلى دوق برجنديا عن تحالفه مع انجلترا ، فأخذ مركز الانجليز يتدهور تدهورا سريعا فى فرنسا حتى حلت بهم الهزيمة فى موقعة تلبوت Talbot وسقطت بوردو فى أيدى أعدائهم سنة ١٤٥٣ ، وبذلك انتهت حرب المائة عام بعد أن استنزفت من انجلترا كثيرا من الأرواح والأموال (٥) .

وعلى الرغم من طيبة هنرى السادس وتقواه الا أنه كان ضعيفا ، غير قادر

---

(1) Laviase : op. cit. Tome 4, Premiere Partie, pp. 364-370.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, pp. 434-438.
(3) Perroy : La Guerre de cent Ans, pp. 236-243.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 390-391.
(5) Tout : France and England, p. 136.

على القبض على زمام الأمور فى بلاده ، الأمر الذى مكن ريتشارد دوق يورك من المطالبة بالحكم على أساس أنه سليل ادوارد الثالث (١) • وقد أدى هذا الانشقاق الى انقسام المملكة انقساما تمخض عن قيام حرب أهلية تعرف بحرب الوردتين ، لأن فريق ريتشارد ويورك اتخذ الوردة البيضاء شعارا له ، فى حين اتخذ فريق هنرى السادس شعاره الوردة الحمراء • وكان أن قتل ريتشارد دوق يورك سنة ١٤٦٠ فتولى ابنه ادوارد الرابع الحكم فى العام التالى ، فى حين فر هنرى السادس الى سكتلند ثم عاد بعد قليل الى انجلترا حيث قبض عليه وسجن (٢) •

على أن سياسة ادوارد الرابع (١٤٦١ - ١٤٨٣) سرعان ما أدت الى قيام ثورة انتهت بطرده من البلاد • وهكذا أضحت انجلترا وأحد ملوكها فى السجن والثانى طريدا فى المنفى • وعلى الرغم من عودة هنرى السادس الى العرش لمدة قصيرة ، الا أن ادوارد الرابع استطاع أن ينتصر على خصومه ، فقتل هنرى السادس وحل محله فى العرش • وقد قبض ادوارد الرابع بعد ذلك على زمام الأمور بيد من حديد حتى حقق لانجلترا قسطا وافرا من الطمأنينة والنظام كانت فى أشد الحاجة اليهما (٣) •

ريتشارد الثالث وقيام أسرة تيودور :

عند وفاة ادوارد الرابع كان أبناؤه صغار السن ، فتولى الوصاية عليهم عمهم ريتشارد الذى لم يلبث أن انتزع العرش لنفسه متخذا لقب ريتشارد الثالث (١٤٨٣ - ١٤٨٥) • وقد دأب بعض الكتاب الذين عاصروا حلفه على تشويه سمعته فوصفوه بالقسوة والعنف ونسبوا اليه كثيرا من الجرائم والأعمال الوحشية • ولكن يبدو من دراسة أحوال المملكة عندئذ أن نسبة كبيرة من الشعب كانت تؤيد الملك فى مسلكه نحو أحوال البلاد عندئذ تطلبت

---

(1) Oman : The Hist. of England pp. 352-353.
(2) Stephenson : Med Hist. p. 536.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 496.

منه اتباع هذه السياسة (١) . أما مايقال من أنه قتل أبناء أخيه في قلعة لندن فرواية ينقصها الدليل والاثبات . والراجح أن أمهم دبرت خطـة لتهريبهم في الفترة الواقعة بين وفاة ريتشارد الثالث ودخول هنرى السابع مدينة لندن ، وأن الأخير هو الذى أعدمهم ليضمن عدم منافستهم له في العرش (٢) .

وحسبنا أن خصوم ريتشارد الثالث اعترفوا بأنه الى جانب شدته امتاز بالقدرة ، وأن البرلمان أصدر على عهده عدة قوانين عادلة ومفيدة . والواقع أن هناك عدة ملاحظات على عهد ريتشارد تستحق الاشارة والاعتبار . فالقوانين التى أصدرها البرلمان في ذلك العهد صدرت لأول مرة باللغة الانجليزية ، كما أنها صدرت مطبوعة لأول مرة . كذلك دعم ريتشارد الثالث وظيفة القنصلية ذات الأهمية البالغة للتجارة والتجار ، ونظم البريد بوساطة الرسل والسعاة .

على أن مشكلة وراثة العرش استمرت تسبب حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار حتى نجح هنرى تيودور في انزال الهزيمة بريتشارد الثالث سنة ١٤٨٥ وبذلك تسلم هنرى السابع التاج ليصبح أول ملوك أسرة تيودور (٣).

وبعد ، فانه على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية الكثيرة التى تعرضت لها انجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، الا أنها أحرزت في تلك الحقبة تقدما كبيرا في الميدان الحضارى . وكانت أهم مظاهر هذا التقدم في المجال التجارى لا سيما تجارة الصوف التى أخذ الانجليز يباشرونها بأنفسهم في ظل التنظيمات التجارية الجديدة . كذلك دخلت الطباعة انجلترا على يد كاكستون حوالى سنة ١٤٧٤ . أما الجامعات الانجليزية فقد واصلت نشاطها بفضل ما لقيته من تشجيع مستمر وبيئة صالحة . وحسبنا ما قام به الملك هنرى السادس من تأسيس كلية الملك

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 73.
(2) Oman : The Hist of England, pp. 481 -482.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 382.

King's College وكامبردج زيادة على مدرسة اتون . وفى تلك الأثناء لم تتوقف حركة بناء الكندرائيات والكنائس والأديرة وفق الطراز القوطى ذى الطابع الانجليزى الجميل . أما اللغة الانجليزية فقد أخذت فى ذلك العصر تستقيم فى طريقها وتستكمل بناءها ، فكتب بها شوسر قصص كانتربورى ، مما مهد للنهضة الأدبية العظيمة التى تزعمها شكسبير فى القرن التالى . وأخيرا فان البرلمان تمتع فى هذين القرنين ـ الرابع عشر والخامس عشر ـ بسلطة واسعة ظل الانجليز يفخرون بها فى العصور التالية .

الباب الثامن عشر

حرب المائة عام

ظل العداء يسود العلاقات بين انجلترا وفرنسا على جانبي بحر المانش منذ الفتح النورماني لانجلترا سنة ١٠٦٦ . ذلك أن ملوك انجلترا النورمان احتفظوا بأملاكهم الواسعة في غرب فرنسا ، في الوقت الذي عز عليهم - في وضعهم الجديد - أن يستمروا في حكم هذه الممتلكات باعتبارهم أتباعا أو أفصالا لملك فرنسا . أما ملوك فرنسا فقد وجدوا في تلك الممتلكات الانجليزية على حدود أراضيهم الغربية خطرا عظيما هدد وحدة بلادهم وكيانها ، وحال دون وصول الدولة الفرنسية الى حدودها الطبيعية ، وهي المحيط الأطلسي غربا وجبال البرانس جنوبا ونهر الراين وجبال الألب شرقا .

وهكذا لم يهدأ ملوك فرنسا وظلوا يعملون على طرد ملوك انجلترا من ممتلكاتهم في صلب القارة ، في حين تمسك الأخيرون بهذه الممتلكات وناضلوا في سبيل الاحتفاظ بها ، مما جعل الحرب بين الطرفين لا تكاد تهدأ الا لتشتعل نارها من جديد ، وذلك حتى منتصف القرن الخامس عشر . فحرب المائة عام اذا - وهو الاسم الذي يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين انجلترا وفرنسا (١٣٣٧ - ١٤٥٣) - ليست فصلا جديدا أو حدثا مفاجئا في تاريخ العلاقات بين البلدين في العصور الوسطى ، لأنها ليست في حقيقة أمرها الا حلقة في سلسلة النزاع الذي بدأ منذ أن امتلك أمراء نورمنديا انجلترا ، وبعبارة أخرى منذ أن أصبحت ممتلكات ملوك انجلترا النورمان موزعة على جانبي المانش .

واذا كان المؤرخون قد اصطلحوا على اطلاق اسم حرب المائة عام على هذه الفصل الأخير من فصول النزاع بين انجلترا وفرنسا ، فان لنا على هذه

الحرب عدة ملاحظات • أولها أنه اذا كان السبب الرئيسى لحرب المائة عام هو النزاع حول أملاك انجلترا فى القارة ، فقد وجدت أسباب أخرى أدت الى اثارة العداء بين انجلترا وفرنسا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى ، أهمها التنافس الاقتصادى بين الدولتين ، زيادة على تعـــارض مصالحهما السياسية فى القارة (١) • وثانيها أن هذه الحرب كانت ذات طابع لم يتغير من أولها لآخرها من ناحية أهدافها والأساليب التى استخدمت فيها • وثالثها أن تلك الحرب لم تستمر مائة عام تماما لأن هذه التسمية لا تعدو أن تكون تقريبية تنطوى على كثير من التجاوز وعدم الدقة • وأخيرا يلاحظ أن حرب المائة عام لم تتخذ شكل قتال دائم مستمر بين الفريقين المتحاربين ، وانما اتخذت شكل هجمات متباعدة زمنيا تخللتها الهدنة والصلح أكثر من مرة •

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسموا حرب المائة عام الى ثلاث مراحل ، وذلك لتسهيل دراستها وتمييزها : المرحلة الأولى تمتد بين سنتى ١٣٣٧ ، ١٣٨٠ ، وأهم حوادثها انتصار الانجليز عند كريسى Crècy واستيلاؤهم على كاليه ثم انتصارهم عند بواتيه وما كان من ثورة باريس ومعاهدة بريتانى • أما المرحلة الثانية فتمتد من سنة ١٣٨٠ حتى سنة ١٤١٥ وتمتاز بمسحة عامة من الهدوء والسلام • وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة بين سنتى ١٤١٥ ، ١٤٥٣ وفيها تجددت الحرب على يد هنرى الخـــامس ملك انجلترا وحليفه دوق برجنديا فانتصر الانجليز عند أجينكورت (أزنكورت) وغزوا شمال فرنسا • ثم عادت برجنديا الى محالفة فرنسا ، حتى انتهى الأمر بطـــرد الانجليز نهائيا من صلب القارة (٢) •

وقد سبق أن رأينا كيف أدت سياسة لويس التاسع ملك فرنسا الى عقد معاهدة باريس مع هنرى الثالث ملك انجلترا سنة ١٢٥٩ ، وبمقتضى هذه المعاهدة تنازل الأخير عن جميع حقوقه الاسمية فى نورمنديا ، وأنجو ، ومين ، وتورين ، وبواتو ، ولكنه تمسك بجوين وجاسكونى وليموسان وكويرسى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7. p. 340.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 891.

وبريجورد ، على أن يكون ملك انجلترا تابعا لملك فرنسا فى حكمه لهـذه الأجزاء الأخيرة . ومن الواضح أن هذا الحل كان غير عملى ولا يرجى له دواما ، اذ كان على ملك انجلترا ـ باعتباره دوق جاسكونى ـ أن يقاوم سياسة ملك فرنسا فى تركيز سلطانه واضعاف نفوذ كبار الأمراء ، وهى نفس السياسة التى كان ملك انجلترا يحاول تطبيقها فى بلاده . وبعبارة أخرى فان ملك انجلترا وجد نفسه بحكم هذا الوضع ملزما بتقوية نفوذ الملكية واضعاف نفوذ الأمراء فى بلاده ، فى الوقت الذى يعمل فيه على تقوية نفوذ الأمراء واضعاف الملكية فى فرنسا (١) .

وقد سبق أن ذكرنا أنه اذا كانت دوقية جاسكونى هى السبب الرئيسى لحرب المائة عام ، فان هناك أسبابا أخرى فرعية ، أهمها الصدام المستمر بين بحارة السفن الانجليزية والفرنسية فى عصر لم يفرق بين الملاحة والقرصنة ، وكذلك التعارض الشديد بين المصالح الانجليـزية والفرنسـيـة فى اقليم فلاندرز (٢) . ثم كان أن تعقد الموقف بين انجلترا وفرنسا سنة ١٣٢٨ عندما مات آخر أبناء فيلب الرابع ملك فرنسا دون أن يترك وريثا ذكرا يخلفه فى العرش ، فاستغل ادوارد الثالث الفرصة وطالب بعرش فرنسا على أساس أن أمه ابنة فيلب الرابع ، وعن هذا الطريق يبدو حقه فى عرش فرنسا . ولكن زعماء فرنسا لم يوافقوا على مبدأ أحقية البنت فى وراثة العرش ، ولذلك اختاروا فيلب فالوا ـ الذى أصبح فيليب السادس (١٣٢٨ ـ ١٣٥٠) ـ ليؤسس أسرة جديدة حلت محل أسرة كابيه فى حكم فرنسا (٣) .

وقد حدث فى ذلك العصر ـ عصر فيلب السادس فى فرنسا وادوارد الثالث (١٣٣٧ ـ ١٣٧٧) فى انجلترا ـ أن ثار أهالى فلاندرز ضد أميرهم لويس الذى كان تابعا لملك فرنسا ، فاضطر لويس الى الفرار ، مما جعل فيلب السادس يسرع لحمايته فأعاده الى بلده بعد أن أنزل بالفلمنكيين هزيمة

---

(1) Tout : France and England, pp. 114-115.
(2) Painter : A Hist. of the Middle. Ages, p. 325.
(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 516-517.

ساحقة في كاسل Cassel سنة ١٣٢٨ (١) . وفي سنة ١٣٣٦ قبض لويس أمير فلاندرز على جميع التجار الانجليز في بلاده مما جعل ادوارد الثالث ملك انجلترا يرد على ذلك باستصدار قانون من البرلمان سنة ١٣٣٧ يمنع تصدير الصوف الانجليزي الى الخارج ، وبذلك هدد صناعة الصوف — وهي الصناعة الرئيسية في مدن فلاندرز عندئذ — بالتوقف . وهكذا ثبت أنه من المتعذر التوفيق بين مصالح فرنسا السياسية ومصالح انجلترا الاقتصادية في فلاندرز (٢) .

على أن الفلمنكيين لم يلبثوا أن ثاروا تحت زعامة يعقـــوب فان آرتفلد Jacques Van Artevelde فتحررت غنت من سيطرة كونت فلاندرز وجددت علاقتها التجارية مع انجلترا سنة ١٣٣٨ (٣) . وعلى الرغم من تهديد البابوية الفلمنكيين بضرورة الامتثال للملك فرنسا ومســـاعدته ، الا أن آرتفلد نادي بأن ادوارد الثالث ملك انجلترا هو الذي يستحق لقب فرنسا بحكم كونه ابن بنت فيلب الرابع ، وبناء على ذلك عاد ادوارد الثالث الى المطالبة بعرش فرنسا من جديد ، واعترف به الفلمنكيون وأيدوه في مطلبه . ثم كان أن حشد فيلب السادس ملك فرنسا أسطولا كبيرا في ميناء سلوى (Ecluse Sluys) لوقف التبادل التجاري مع الانجليز بل مهاجمة انجلترا نفسها (٤) ولكن اسطولا انجليزيا دهم السفن الفرنسية ودمرها سنة ١٣٤٠ ، مما جعل البابا يتدخل لاعلان الهدنة بين الطرفين . أما ارتفلد لقد أخذ يعمل على تنظيم الحكومة في فلاندرز ، ولكن أضعف من أثر جهوده التنافس بين غنت وبروجز وابريز Ypres لتصبح كل منهما عاصمة . هذا عدا ثورة العمال ضد الأثرياء من زعماء النقابات مما مهد لعودة كونت فلاندرز ومقتل

---

(1) Perroy : La Guerre de Cent Ans, p. 59.
(2) Tout : The History of England, p. 332.
(3) Lavisse : Hist. de France, Tome 4, Première Partie p. 43.
(4) Perroy : op. cit, p. 64.

نورتفلد سنة ١٣٤٥ ، الأمر الذى ترتب عليه ضياع مكانة الانجليز فى فلاندرز (١) •

ثم كان أن توفى حنا الثالث دوق بريتانى سنة ١٣٤١ دون أن يترك وريثا ذكرا ، فاشتد النزاع حول من يخلفه فى هذه الدوقية المهمة العظيمة • وهنا ظهر العداء والتنافس بين انجلترا وفرنسا مرة أخرى فشايعت كل منهما أحد الفريقين المتنازعين ، اذ انضم ادوارد الثالث الى جانب حنا مونتفورت ، فى حين شايع ملك فرنسا (فيلب السادس) ومعه حنا دوق نورمنديا جوان بنتيفر (٢) • وقد أعد ادوارد الثالث حملة كبيرة نزلت على شاطىء نورمنديا فى يوليه سنة ١٣٤٦ ، ومن ثم أوغل الانجليز وأخذوا يدمرون البلاد ويحرقون القرى ويتلفون المحصولات • على أن موقف الانجليز سرعان ما ساء لا سيما بعد أن دمر الفرنسيون الجسور الواقعة على السوم والسين (٣) • وعندما أحس ادوارد الثالث باقتراب الجيش الفرنسى منه أخذ ينظم قواته عند كريسى Crésy حيث دارت موقعة حامية (أوغسطس سنة ١٣٤٦) انتهت بهزيمة الفرنسيين نتيجة لسوء تنظيمهم حتى بلغت خسائرهم فى الأرواح عشرين ألفا ، فى حين قدرت خسائر الانجليز بخمسين مقاتلا (٤) •

وهكذا تم تدمير الجيش الفرنسى تدميرا شاملا ، مما مكن الانجليز من الزحف نحو كاليه والاستيلاء عليها فى يونيه سنة ١٣٤٧ بعد حصار عدة أشهر ، وبذلك أصبح لهم ميناء كبير يستطيعون منه غزو فرنسا وحماية تجارة الصوف مع فلاندرز • وقد تدخل البابا من جديد فى تلك المرحلة لاعلان الهدنة بين الطرفين ، وحينئذ عاد ادوارد الثالث الى انجلترا (٥) •

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 519.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 47-51.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 348.
(4) Perroy : op. cit. pp. 94-96.
(5) Tout : The Hist. of England. pp. 366-368.

ثم كان أن أدى انتشار الوباء الأسود (١٣٤٨ - ١٣٤٩) الى كارثة كبرى عمت أوربا وأصابت جميع بلدانها - بما فيها انجلترا وفرنسا - بنقص فى الأرواح والأموال ، زيادة على قلة الأيدى العاملة وارتباك الأحوال الاقتصادية ، مما تعذر معه استئناف الحرب بين انجلترا وفرنسا فى تلك الظروف (١) • وهكذا مات فيلب السادس سنة ١٣٥٠ قبل أن يتمكن الانجليز من تجديد هجماتهم على بلاده • وبعد ذلك قام الأمير الأسود (The Black Prince) وهو الأمير ادوارد ابن ادوارد الثالث ملك انجلترا - بغارة عنيفة على جنوب فرنسا ، تمكن فيها من نهب اقليم اللوار بجيش صغير يبلغ سبعة آلاف ، دون أن يلقى مقاومة تذكر (١٣٥٦) (٢)• وأخيرا التقى به حنا الثانى أو الطيب ملك فرنسا (١٣٥١ - ١٣٦٤) على رأس جيش كبير ، وكان فى استطاعته اجبار الانجليز على التسليم ، ولكن سوء تنظيم الفرنسيين جعل الانجليز يحرزون نصرا عليهم عند بواتيه سنة ١٣٥٦ (٣) • وهنا وجد الانجليز أنفسهم أمام مشكلة كثرة عدد الأسرى الفرنسيين ، ومن جملة هؤلاء الأسرى حنا الثانى نفسه ملك فرنسا وولديه • ولما كان عدد الانجليز صغيرا لايساعد على توفير حراسة كافية لهؤلاء الأسرى ، فقد تخلص الانجليز من معظم أسراهم بالقتل ، ثم قفلوا بعد ذلك راجعين الى بوردو • وفى سنة ١٣٥٧ أعلنت الهدنة بين الانجليز والفرنسيين ، وحمل الانجليز الى بلادهم حنا الطيب ملك فرنسا حيث عاملوه معاملة طيبة فخصصوا له قصرا مريحا وسمحوا له بالصيد والرياضة (٤) •

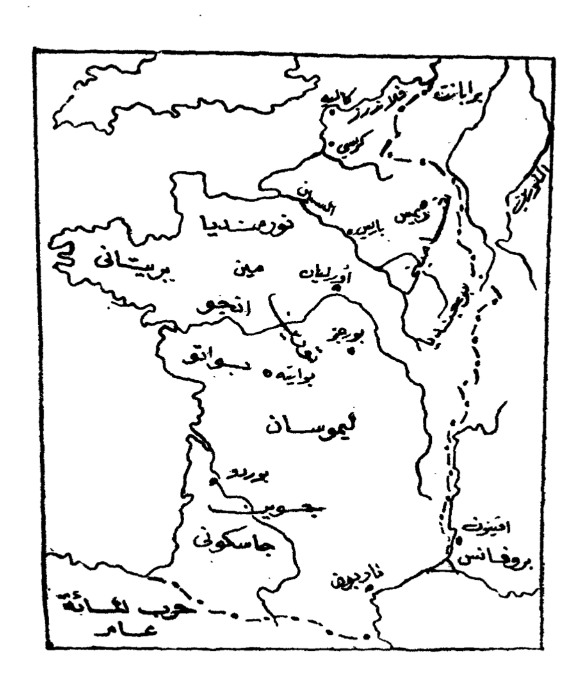
أما عن أحوال فرنسا الداخلية فى تلك الفترة ، فقد عادت البلاد مسرحا للفوضى على الرغم من جهود شارل - ولى العهد - لايجاد حالة من الاستقرار (٥) • وكان مجلس طبقات الأمة قد وافق قبل موقعة بواتيه على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 350.
(2) Tout : The Hist. of England, p. 286.
(3) Tout : France and England, p. 132.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie) pp. 107-108.
(5) Perroy : op. cit. 106-109.

اقرار الضرائب اللازمة لحرب الانجليز ، بشرط أن يشرف على توزيع هذه الضرائب وصرف الاموال المتحصلة منها • وكان زعيم مجلس طبقات الأمة عندئذ اتين مارسل الذى وضع برنامجا سنة ١٣٥٦ يرمى الى جعل باريس مدينة حرة ، كما وجه مجلس طبقات الأمة نحو الضغط على ولى العهد لطرد مستشاريه وتعيين وزراء يختارهم المجلس (١) • وعندما لجأ ولى العهد الى تأجيل انعقاد مجلس طبقات الأمة ، سلح مارسل أهالى باريس للقيام بثورة فى وجه الوصى ، وعندئذ تراجع الأخير فطرد وزراءه ودعا مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد ، واختار وزراءه الجدد من بين صفوفه وأعلن عدم أحقيته فى فرض ضرائب جديدة دون موافقة المجلس • على أن حنا ملك فرنسا الأسير — بعث من منفاه سنة ١٣٥٧ بعدم موافقته على هذه الأوضاع ، مما جعل ولى العهد يستنجد بالأقاليم الفرنسية — خارج باريس — ضد مارسل ومجلس طبقات الأمة (٢) • وهنا اقتحم مارسل ومعه جماعة من أتباعه المسلحين قصر اللوفر الملكى فى باريس ، وقتلوا اثنين من مستشارى شارل ولى العهد ، ففر شارل الى كمبين Compiegne لا سيما بعد أن أخذ أتباع مارسل يجوبون شوارع باريس ويهددون من يقف فى وجههم • وقد انتهز الفلاحون فى شامبنى (٣) فرصة تلك الحوادث وثاروا معبرين عن سوء أحوالهم بسبب اغارات الانجليز من جهة ، وثقل الالتزامات المفروضة نحو النبلاء العاجزين عن حمايتهم من جهة أخرى (٤) • وامتازت حركة الفلاحين هذه بالفوضى وسوء النظام ، مما جعل النبلاء يخمدونها فى سهولة بعد أن قتلوا وأحرقوا نحو عشرين ألفا من الثوار (٥) • ومهما يكن من أمر فان هذه الأحداث لم يكن لها من نتيجة سوى زيادة أحوال الريف

(1) Lavisse ; op. cit Tome 4, Première Partie p .115.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7 ,p. 353.
(٣) وهم الذين عرفهم المعاصرون باسم (Les Jacques) أو (La Jacquerie) نسبة الى زيهم ، حيث أن لفظ jacque يعنى الرداء القصير • أنظر • Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere partie, p. 140.
(4) Perroy : op. cit. pp. 109-110 .
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp.354-355.


برابانت
فلاندرز
كاليه
كريسي
السين
ريمس
باريس
اللورين
نورمنديا
بريتاني
مين
أورليان
انجو
بورجز
بواتو
بواتيه
ليموسان
بوردو
جوين
جاسكوني
ناربون
افنيون
بروفانس
حرب المائة
عام

الفرنسي سوءا فوق سوء ، اذ انتشر البؤس وعم الشقاء وقلت الأقوات ، مما أثر في أحوال فرنسا بوجه عام . أما شارل فقد قوى مركزه عقب انتصار النبلاء ، لا سيما بعد أن فشل مارسل في تنظيم أتباعه حتى انتهى الأمر بمقتل الأخير وعودة شارل الى باريس (١) .

ثم كان أن قام ادوارد الثالث ملك انجلترا بحملة غير مثمرة على فرنسا سنة ١٣٥٩ . وقد تراجع الفرنسيون أمامه نحو حصونهم حتى وجد الانجليز أنفسهم عاجزين عن تحقيق أغراضهم فعقدوا معاهدة بريتانى سنة ١٣٦٠ ، وبمقتضاها وافق ادوارد الثالث على أن يتنازل عن مطالبه في التاج الفرنسي مقابل اعتراف فرنسا بملكيته لجوين وجاسكونى وكاليه وبونثيو Ponthieu (٢). أما حنا ملك فرنسا الأسير فقد وافق الانجليز على اطلاق سراحه مقابل فدية ضخمة ، فعاد الى بلاده تاركا خلفه في انجلترا بعض النبلاء الفرنسيين رهينة حتى يتم سداد الفدية المتفق عليها(٣) . على أن الملك حنا سرعان ما سئم الحياة في باريس فتذرع ببعض الأسباب للعودة الى انجلترا حيث قضى بقية حياته في اللهو والصيد والمقامرة حتى توفى سنة ١٣٦٤ (٤) .

وعندما تولى حكم فرنسا شارل الخامس (١٣٦٤ - ١٣٨٠) وجد نفسه يحكم دولة ممزقة يسودها التفكك والانحلال ، فبدأ باخضاع فرق الجند المرتزقة ونجح في التخلص من عبثهم بمساعدة أحد أعوانه من النبلاء واسمه برتراندى جويسكلين ، الذى كوفىء على خدماته بتعيينه في منصب كندسطبل فرنسا (٥) . وقد اطمأن شارل الخامس الى أن جيشه أصبح في يد أمينة ، فأخذ يعمل على اصلاح أحوال البلاد حتى نظم الأسواق وأصلح

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 4, Permiere partie p. 140.
(2) Tout : The Hist. of England, pp. 396-397.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 357.
(4) Lavisse : Hist. de France Tome 4, Pemière Partie, p. 169.

(٥) كانت وظيفة كندسطبل (كونوستابل) من وظائف الدولة الكبرى عندئذ ، اذ صار صاحبها بمثابة رئيس البلاط الملكى وقائد عام الجيش ، كما كانت له صفة قضائية في الفصل في المنازعات بين الفرسان ... الخ .

الادارة القضائية ومهد الطرق وأمنها وعنى بشئون العملة (١) • ويلاحظ أن شارل الخامس قام بكل هذه الاصلاحات دون أن يتعسف فى جمع الضرائب أو يلجأ الى الطرق البالية فى ارهاق رعاياه • وهكذا تمكن شارل من استعادة الرخاء فى فرنسا فانتعشت مالية البلاد وأصبح لها جيش وأسطول كبيران ، فضلا عما كان من تحصين المدن لتقاوم الحصار (٢) •

أما بخصوص العلاقات مع انجلترا فقد اتصل شارل الخامس سرا بنبلاء جاسكونى وحرضهم على التمرد والثورة ضد السيطرة الانجليزية ، ولم يكن هؤلاء النبلاء فى حاجة الى مزيد من التحريض ، اذ بلغ بهم الاستياء أشده نتيجة لثقل الضرائب والأعباء التى فرضها الانجليز عليهم ، مما أدى الى تجدد القتال بين الانجليز والفرنسيين (٣) • وكان أن غزا الأمير الأسود اقليم ليموسان سنة ١٣٦٩ فاضطر سكان هذا الاقليم من الفرنسيين الى تدمير الزرع والضرع والانسحاب نحو الداخل للاحتماء بحصونهم • وفى العام التالى أحرز الأمير الأسود بضعة انتصارات ، وان كان ذلك لا يخفى الحقيقة الواقعة وهى أن جيشه لم يعد مؤلفا من محاربين انجليز وانما من مأجورين(٤)• أما دى جوسكلين قائد الجيش الفرنسى فقد هاجم جوين متحاشيا الاصطدام بالأمير الانجليزى فى معركة فاصلة(٥) • وسرعان ما ساء موقف الانجليز ، ولا سيما بعد أن تحالف أسطول قشتالة مع الأسطول الفرنسى • ونجح الأسطولان فى تدمير أسطول انجليزى قرب لاروشيل La Rochelle سنة ١٣٧٢ (٦) • وهكذا اضطر الأمير الأسود الى العودة الى انجلترا سنة ١٣٧٣ بعد أن ساءت حالته الصحية وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الطرفين امتدت من سنة ١٣٧٤ حتى سنة ١٣٧٧ • وعلى الرغم من هذه الهدنة فان

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 353-362.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 4, Première Partie, pp. 200-217.
(3) Perroy : op. cit. pp. 132-136.
(4) Tout : The Hist. of England, pp. 408-412.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 361.
(6) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie, p. 239.

هجمات الفرنسيين لم تتوقف فاجتاحوا معظم جاسكونى ، حتى اذا ما انتهت الهدنة بوفاة ادوارد الثالث ملك انجلترا سنة ١٣٧٧ ، عاود شارل الخامس الحرب العلنية ضد الانجليز (١) . ويبدو أن النجاح حالف الفرنسيين فى هذه المرحلة حتى أن شارل الخامس ومساعده العظيم دى جويسكلين لم يموتا سنة ١٣٨٠ الا بعد أن تقلصت أملاك الانجليز على الشاطىء الفرنسى، بحيث لم يبق لهم سوى عدة موانىء مثل كاليه وبوردو وبايون (٢) .

على أن وفاة شارل الخامس جاءت خسارة كبرى لفرنسا ، اذ كان خليفته شارل السادس قاصرا فى الثانية عشر من عمره ، مما أوقع البلاد فى حالة شديدة من الفوضى بسبب الخلاف بين الأوصياء من جهة ، والعودة الى سياسة الافراط فى فرض الضرائب من جهة أخرى (٣) . وكان أن ثار الفلمنكيون سنة ١٣٨٢ وحاولوا عقد تحالف مع الانجليز ، ولكن الفرنسيين أخضعوا ثورتهم وحطموا قوتهم ودمروا كثيرا من مدنهم (٤) .

ثم كان أن سار دوق أورليان فى ركاب السياسة الفرنسية ورفض الاعتراف بهنرى الرابع ملك انجلترا (١٣٩٩ - ١٤١٣) ، فى الوقت الذى أخـــذ دوق برجنديا يناصر ملك انجلترا حتى تمكن من الاستيلاء على باريس سنة ١٤١١ بمساعدة بعض القوات الانجليزية (٥) . وقد شجعت هذه العوامل هنرى الخامس ملك انجلترا (١٤١٣ - ١٤٢٢) على غزو فرنسا ، فانزل قواته سنة ١٤١٥ على الشاطىء الفرنسى حين حاصر هارفلير واستولى عليها ، ومنها زحف نحو كاليه . وهناك فى موقعة أزينكورت Azincourt (٢٥ أكتوبر ١٤١٥) أنزل الانجليز هزيمة ساحقة بجيش فرنسى يفوقهم عددا ، فقتلوا ما يقرب من ستة آلاف فرنسى وأسروا ثمانمائة نبيلا فى حين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 365-366.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 368.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 368.
(4) Lavisse : op. cit, Tome 4, pp. 280 & 284-286.
(5) Oman ; The Hist. of England, pp. 222-226.

لم تتعد خسائر الانجليز المائة جندى (١) • وبعد ذلك عاد هنرى الخامس الى انجلترا وحالف دوق برجنديا ليعاود غزو فرنسا من جديد بمساعدة البرجنديين • وفى تلك المرة غزا هنرى الخامس نورمنديا ، كما تمكن حلفاؤه من البرجنديين من الاستيلاء على باريس سنة ١٤١٨ (٢) • وعلى الرغم من قسوة الشروط التى فرضها هنرى الخامس على خصومه فان الأخيرين اضطروا الى قبولها ، حتى اعترف الفرنسيون فى اتفاقية تروى سنة ١٤٢٠ بادعاءات ملك انجلترا فى فرنسا (٣) • وهكذا لم يمت هنرى الخامس سنة ١٤٢٢ الا بعد أن ثبت نفوذه فى الأقاليم التى خولته اتفاقية تروى حق السيطرة عليها بحيث أصبحت نورمنديا ومين وتورين وشامبنى — بل حتى جزيرة فرنسا île de France (٤) وباريس — كلها فى أيدى الانجليز وحلفائهم البرجنديين • ولم يبق فى أيدى الفرنسيين شمالى اللوار سوى اقليم أنجو ، ومن المدن العظيمة الشأن سوى مدينة أورليان (٥)•

وقد شاءت الظروف أن يموت شارل السادس ملك فرنسا هو الآخر سنة ١٤٢٢ ، وعندئذ اختار أهل أورليان ولى العهد شارل السابع ملكا ، فى حين اختار الانجليز هنرى السادس الصغير ملكا على فرنسا (٦) • وقد بدا شارل السابع ضعيفا عاجزا أمام الانجليز الذين عاودوا هجماتهم وجددوا انتصاراتهم فى فرنسا ، حتى أخذوا يحاصرون أورليان سنة ١٤٢٨ ليشقوا طريقهم نحو ما تبقى خارج أيديهم من أقاليم فرنسا الشمالية (٧) ، وفى ذلك الوقت الذى بدأ اليأس يدب فى قلب شارل السابع ، حتى نصحه بعض

---

(1) Perroy : op. cit. pp. 208-209.
(2) Lavisse : op .cit. Tome 4, Premiere Partie, pp. 374-375.
(3) Idem : pp. 386-387.
(٤) جزيرة فرنسا اقليم فى فرنسا يشمل أجزاء من أحواض السين والمارن والسوم •
(5) Perroy : op. cit. pp. 220-221.
(6) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 232-233.
(7) Oman : The Hist. of England p. 302.

رجال بلاطه بالفرار الى أسبانيا أو سكتلند ، اذا بالقدر يسوق الى الملك - بل الى فرنسا - فتاة ريفية فى السابعة عشر من عمرها لتقوم بدور البطولة فى ذلك الفصل من فصول حرب المائة عام وتخلد اسمها ناصعا على صفحات التاريخ الفرنسى (١) •

أما هذه الفتاة فهى جان دارك Jeanne d'Arc التى يقال أنها أخذت تسمع هاتفا يناديها بانقاذ مليكها وبلادها ، مما دفعها الى الذهاب الى شينون Chinon حيث بلاط الملك (٢) • وقد استطاعت جان دارك أن تقنع شارل السابع بتزويدها برداء حربى وبعض الجنود لانقاذ أورليان (٣)• وكان أن انضم بعض المغامرين الى جان دارك وهى فى طريقها الى أورليان، حتى دخلت المدينة سالمة عن طريق النهر ومعها بعض الامدادات والمؤن • ولم يلبث ظهور جان دارك فى أورليان أن ألهب حماسة المدافعين عن المدينة، فقويت هممهم حتى خلصوا أورليان من هجمات الانجليز واضطر الأخيرون الى الانسحاب (٤) • ولم تزل جان دارك تستحث شارل السابع حتى حضر بنفسه الى ريمس حيث توج ملكا سنة ١٤٢٩ فى كتدرائيتها الكبرى ، فى حين وقفت جان دارك خلفه تبكى من شدة الفرح (٥) • على أن الحظ أخذ يفارق جان دارك بعد ذلك ، فرغبت فى العودة الى قريتها لترعى أغنامها ، ولكنها وقعت فى أسر البرجنديين فى مايو سنة ١٤٣٠ • وبعد ستة أشهر باعها دوق برجنديا مقابل عشرة آلاف فرنك ذهبى الى الانجليز الذين اتهموها بالهرطقة والشعوذة وأعدموها حرقا فى ١٠ مايو سنة ١٤٣١ وسط ميدان السوق فى مدينة روان (٦) • ولم يكن ذلك الا سنة ١٤٥٥ عندما سمحت البابوية باعادة النظر فى قضيتها ، فثبتت براءتها مما نسب اليها ،ثم أعلن البابا

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 442—443.
(2) Cam. Med. Hist Vol, 8, p. 244.
(3) Perroy : op. cit. pp. 246-248.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 247.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie, pp. 53-54.
(6) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 251.

بيوس العاشر سنة ١٩٠٩ ثم البابا بندكت الخامس عشر سنة ١٩١٩ تطويبها وتمجيدها فى السماء لتصبح فى عداد الشهداء (١) .

ولكن على الرغم من جهود جان دارك من جهة وانقسام الانجليز على أنفسهم فى بلادهم حول الاستمرار فى الحرب من جهة أخرى ، فان سيطرة الانجليز على فرنسا لم تضعف فى سرعة . وفى سنة ١٤٣٥ عرض الفرنسيون تخليهم عن نورمنديا وجوين مقابل تنحى الانجليز عن مطالبهم فى التاج الفرنسى (٢) . ولكن الانجليز رفضوا الاستجابة لهذا العرض ، وأصروا على موقفهم فى عناد على الرغم من احتجاج المندوب البابوى . ثم كان أن هيأت الظروف لشارل السابع بعض المخلصين من مستشاريه فأعفى دوق برجنديا - الذى فاق الملك فى قوته - من التبعية الاقطاعية ، وعقد معه حلفا بمقتضى اتفاقية أراس Arras سنة ١٤٣٥ وبذلك حرم الانجليز من معونة البرجنديين (٣) . ويبدو أن هذه الاتفاقية أتاحت فرصة لشارل السابع حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ويعالج المسائل المتعلقة بالادارة والجيش. وهكذا لم يلبث أن أصبح الفرنسيون على جانب من القوة التى مكنتهم من الاستيلاء على باريس سنة ١٤٣٦ والوقوف من الانجليز موقف الند للند (٤)، حتى توسط دوقات برجنديا وأورليان وبريتانى - فضلا عن البابا - لعقد هدنة بين الطرفين سنة ١٤٤٤ (٥) . واذا كانت هذه الهدنة قد عاقت تقدم الفرنسيين فيما بين سنتى ١٤٤٤ ، ١٤٤٩ فان الحرب سرعان ما استؤنفت عقب انتهائها مباشرة ، وهنا أخذ الاعياء والملل يبدوان بوضوح على الانجليز ، فتعاقبت انتصارات الفرنسيين وأخذ أعداؤهم ينسحبون دون مقاومة تذكر ، فى حين أقبل الفلاحون والمزارعون فى البلاد المستردة يرحبون بشارل السابع . وأخيرا بذل الانجليز محاولة يائسة للاحتفاظ بمدينة بوردو ، ولكن

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 358.
(2) Oman : The Hist. of England, p. 321.
(3) Perroy : La Guerre de Cent Ans, p. 260.
(4) Camb. Med. Hist. Vol. 8, p. 252.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 4, Deuxième Partie p. 85.

حتى هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت بوردو فى أيدى الفرنسيين سنة ١٤٥٣ (١) .

وهكذا انتهت حرب المائة عام ، ولم يبق للانجليز فى الأراضى الفرنسية سوى كاليه ، فى حين عادت فرنسا عند وفاة شارل السابع سنة **١٤٦١** مملكة قوية متماسكة ، بلغت فى نهاية القرن الخامس عشر درجة كبيرة من الاتساع وكثرة السكان(٢) . حقيقة ان كاليه لم تعد الى أحضان الوطن الفرنسى الا سنة **١٥٥٣** وأن ملوك انجلترا ظلوا متمسكين عدة قرون تالية بلقب « ملوك فرنسا » ، ولكن هذه المظاهر وأشباهها كانت ضربا من الشكليات التى لم تستطع أن تحجب حقيقة قيام الدولة الفرنسية الحديثة (٣) .

---

(1) Oman : The Hist. of England, pp. 359—360.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 273.
(3) Perroy : op. cit. p. 312.

الباب التاسع عشر

البابوية والحركات الدينية

أواخر العصـــور الوسطى

البابوية فى أوج عظمتها :

بلغ نفوذ البابوية الروحى والفكرى والدنيوى ذروته فى القرن الثالث عشر، عندما أصبح البابا بمثابة ملك عظيم يتمتع بسلطان زمنى فوق سلطانه الروحى ، ويهيمن على كنيسة ضخمة ذات ادارة منظمة ، لها قانونها ومحاكمها وتقاليدها. فاذا أراد البابا أمرا فارادته هى النافذة يطيعها الملوك ويحرصون على تنفيذها ، والا تعرضوا لعقوبة الحرمان والطرد من رحمة الكنيسة وما يتبع ذلك من متاعب لا قبل لهم بها داخل بلادهم وخارجها(١) •

وتبدو لنا هذه الصورة أوضح ما تكون على عهـــد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى استطاع أن يلعب دوره بمهارة فى السياسة العالمية لغرب أوربا وأن يفرض كلمته على أعظم حـكام الغـــرب - بل الشرق - المسيحيين(٢) • ولعل ما ذكرناه فى أبواب الكتاب السابقة ما يكفى للدلالة على عظم نفوذ هذا البابا وعلو كلمته ، فقد أسهم بقسط وافر فى توجيـــه سياسة الامبراطورية الرومانية المقدســـة عنـــدما ناصر أوتو ضـــد فيلب هوهنشتاوفن ، فلما وصل أوتو الرابع الى العرش وتنكر للبابوية اتجه أنوسنت الثالث بسرعة نحو فردريك الثانى واتخذه سلاحا للقضاء على خصمه(٣) • وفى فرنسا رأينا كيف أخذ أنوسنت الثالث يمد أنفه فى شئونها الداخلية على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 4-5.
(2) Eyre : op. cit. p. 202.
(3) Barraclough : op. cit. pp. 208-213.

عهد ملكها فيلب أوغسطس حتى اذا ما أراد الأخير أن يقف موقفا حازما من البابوية ، اذا بالبابا أنوسنت يوقع قرار الحرمان على بلاده سنة ١٢٠٠ م وعندئذ تأرنب الأسد واضطر الملك العظيم فيلب أوغسطس الى الاذعان واصلاح أموره مع البابوية حرصا على مكانته ومكانة دولته(١) • أما انجلترا فلم تنج هى الأخرى من سيطرة البابا أنوسنت الثالث وعناده ، وحسبنا ما أشرنا اليه من موقفه من الملك حنا حول تعيين رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧ وكيف أن البابا أصر على رفض مرشح الملك وأصدر ضده وضد بلاده قرار الحرمان (١٢٠٨ - ١٢٠٩) ، بل استحث فيلب أوغسطس على غزو انجلترا ، مما جعل الملك حنا يذعن أخيرا (سنة ١٢١٣) لرغبة البابا أنوسنت الثالث ويقبل شروطه وهو صاغر(٢) •

هذا فى الغرب ، أما فى الشرق فقد رأينا ما كان من موقف البابا أنوسنت الثالث من استيلاء رجال الحملة الصليبية الرابعة على زارا ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، مما أدى الى قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية على أنقاض الدولة البيزنطية(٣) • وهكذا يتضح لنا كيف صارت البابوية فى تلك الحقبة تتحكم فى اسقاط أباطرة واقامة آخرين ، وكيف كان يحرص ملوك أوربا على الخضوع لكلمتها ، حتى أننا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان الحاكم الفعلى للعالم المسيحى عند مستهل القرن الثالث عشر كان البابا أنوسنت الثالث(٤) •

ومن أهم مظاهر السيادة البابوية فى ذلك العصر اتساع نشاط المحكمة البابوية فى روما (Curia Romana) حتى صار الكثيرون يلجأون الى روما فى القضايا الصغيرة والكبيرة على حد سواء ، مما جعل القانون الكنسى يتخذ صفة عالمية من جهة ، كما جعل البابوية على صلة وثيقة ببقية أطراف

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, pp. 145-147.
(2) Adams : op. cit. pp. 409-423.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 97-101.
(4) Painter : A Hist. of the Middle, Ages, p. 295.

العالم المسيحى من جهة أخرى(١) • وقد توسعت البابوية فى ذلك العصر فى نظام المبعوثين أو المندوبين ، فكان البابا يرسل مندوبا ـ أو أكثر ـ الى أية جهة من جهات العالم المسيحى لحل مشكلة أو تحقيق مسألة أو ابلاغ رغبة بابوية • وعن طريق هؤلاء المبعوثين استطاع البابا أن يقف على أحـــوال الكنيسة المسيحية فى مختلف البلاد الأوربية من ناحية ، وأن يضمن تحقيق مصالحه وتنفيذ رغباته من ناحية أخرى(٢) •

على أنه من الواضح أن هذه الادارة البابوية المترامية الأطراف كانت فى حاجة الى مالية ضخمة تسد مطالبها وتفى بمظاهرها • وهنا استطاع البابا أن يحصل من الأملاك والأراضى البابوية على نفس العوائد والرسوم التى حصل عليها الملوك والأمراء فى أراضيهم ، زيادة على الأموال التى حصلت عليهـــا البابوية من الأديرة والملوك والأمراء الذين ينشـــدون حمايتها فى مختلف أنحاء أوربا(٣) • كذلك اعتادت بعض البلاد الغربية ـ وحكامها ـ أن يدفعوا ضريبة سنوية معينة للبابوية ، كما أدى ازدياد نشاط المحكمة البابوية الى اضافة مورد مهم نتيجة للرسوم القضائية التى تفرض على المتقاضين(٤) • ثم جاءت الحروب الصليبية لتهيىء للبابوية موردا جديدا ضخما ، اذ أخـــذ البابوات فى القرن الثالث عشر يفرضون ضريبة ايراد على رجـــال الكنائس لتمويل الحركة الصليبية • فاذا أضفنا الى كل ذلك صكوك الغفران التى أكثرت البابوية من بيعها لطالبى التوبة والمغفرة والرسوم التى كان يتقاضاها البابا عند تقليد رجال الدين مهام مناصبهم الجديدة ، أدركنا فى النهاية أن البابوية لم تعدم وجود مصادر عديدة أمدتها بما احتاجت اليه من أموال تفى بمظاهرها ومطالبها(٥) •

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government p. 325.
(2) Eyre : op. cit. p. 134.
(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 333.
(4) Idem, p. 329.
(5) Eyre : op. cit. pp. 206-208.

الأسر البابلى :

ولكن اذا كان النفوذ البابوى قد بلغ ذروته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الا أن البابوية سرعان ما تعرضت لهزات عنيفة زلزلت عرشها وأضعفت مركز الكنيسة وهيبتها . ومهما تعددت الأسباب التى يحاول بها المؤرخون تفسير هذه الأزمات التى أدت الى اضعاف مركز الكنيسة بوجه عام والبابوية بوجه خاص فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فان هناك سببا واحدا جديرا بأن يسترعى منا العناية والاهتمام ، ألا وهو تطور العقلية الأوربية والمجتمع الأوربى بوجه عام تطورا دنيويا (١) . فالآفاق الجديدة التى أخذت تتفتح أمام الغرب نتيجة للنشاط التجارى والتطور السياسى وتدفق العلوم الجديدة التى احتضنتها الجامعات الناشئة ، هذه التيارات جميعها جعلت الغرب الأوربى ينشغل عن الكنيسة وتعاليمها وقيودها ، ويتجه نحو حياة أكثر حرية وأوسع أفقا . وهكذا جاء وقت أخذ صالح الدولة يبدو فيه أكثر أهمية من صالح الكنيسة ، كما بدأ يسرى الشعور بأن واجب الفرد نحو دولته ووطنه ينبغى أن يسبق واجبه نحو كنيسته مما جعل السياسة العلمانية تشكل خطرا جسيما على السياسة الكنسية .

وثمة فترة فى القرن الرابع عشر ظهر فيها تدهور نفوذ البابوية واضحا ، بحيث لم يبق لها سوى القليل من سلطانها الواسع الذى كانت عليه فى القرن السابق . ونقصد بهذه الفترة الاثنتين والسبعين سنة الواقعة بين سنتى ١٣٠٥، ١٣٧٧ التى يطلق عليها فى تاريخ البابوية اسم « الأسر البابلى » (٢) ، حيث أن البابوية كانت مقيمة فى أفنيون شبه أسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية . ذلك أن العلاقات الطيبة التى ربطت ملوك فرنسا بالبابويه أثناء النزاع بينها وبين الامبراطور فردريك الثانى لم تلبث أن تغيرت عندما اعتلى عرش فرنسا فيلب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) مما أدى الى اشتباك هذا الملك الفرنسى مع البابا هنريوس الرابع (١٢٧٥ - ١٢٨٧) ثم مع البابا نيقولا الرابع

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 408.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 503.

(١٢٨٨ – ١٢٩٢) (١) ، وكان أن اجتمع الكرادلة سنة ١٢٩٤ لاختيار خليفة للبابا الأخير . ولم تكن مهمة اختيار بابا جديد عندئذ سهلة بعد أن سادت الفوضى مدينة روما وأصبح الكرادلة تحت رحمة النبلاء من أسرتى أورزينى Orsini وكولونا Colonna المتنافستين ، الأمر الذى جعل اختيار البابا مصحوبا بقتال عنيف فى شوارع روما (٢) . ومهما يكن من أمر فقد اختير البابا كلستين الخامس ولكنه لم يعمر ، فخلفه فى العام نفسه بونيفيس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣) (٣) . وكان هذا البابا الأخير طاعنا فى السن مغرورا ، فلم يتورع عن استغلال أموال منصبه فى اثراء ذوى قرباه مما أضر بسمعته وسمعة البابوية ، فضلا عن ايقاعه فى مشاكل لا حصر لها داخل روما وخارجها (٤) . وزاد الموقف سوءا أن فيلب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انجلترا كانا يستعدان عندئذ للدخول فى صراع ضد بعضهما البعض حول دوقية جاسكونى ، فشعر كلاهما بحاجته الى المال وبدأ يفرض ضرائب جديدة على رجال الكنيسة فى بلاده (٥) . وهنا أصدر البابا بونيفيس الثامن مرسوما سنة ١٢٩٦ يحرم على رجال الدين دفع أية ضريبة للملوك والأمراء دون موافقة البابا ، مما جعل فيلب الرابع يرد على ذلك بتحريم تصدير الذهب والفضة خارج مملكته ، ويتبع ذلك حرمان البابوية من مواردها التى كانت تأتيها من فرنسا (٦) .

وبعد وفاة بونيفيس الثامن خلفه البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ – ١٣٠٤) الذى عمل فى عهده القصير على اصلاح الموقف بين البابوية وفيلب الرابع . ثم كان أن اختار الكرادلة بعد ذلك رئيس أساقفة بوردو ليلى منصب البابوية باسم البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ – ١٣١٤) . ولا شك فى أن

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 128.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 4.
(3) Orton : op. cit. p. 350.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 403.
(5) Tout : The Hist. of England, p. 220.
(6) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 132.

اختيار أحد رجال الدين الفرنسيين فى ذلك الوقت ليلى منصب البابوية أمر له مغزاه وأهميته اذ يبدو أنه جاء مقترنا بتدخل فيلب الرابـــع ملك فرنسا (١) • ومهما يكن من أمر فان البابا الجديد اختار عندما بلغه انتخابه أن يبقى حيث هو فأرسل الى الكرادلة يستدعيهم لمقابلته فى ليون ، حيث تمت المراسيم الخاصة بتولية منصبه الجديد(٢) •

ومن الواضح أنه كان مفروضا أن يذهب كلمنت الخامس ليجرى المراسيم الخاصة باعتلائه منصب البابوية فى روما ، أو على الأقل يذهب بعد اجراء هذه المراسيم الى مقر كرسيه البابوى ، ولكن الجديد فى الموضوع هو أنه اختار البقاء فى أفينون على نهر الرون لتتخذ هذه المدينة مقـــرا جـــديدا للبابوية (٣) • وهكذا أصبحت البابوية ـ وهى التى قهـــرت الامبراطورية الرومانية المقدسة وآل هوهنشتاوفن ـ فرنسية ، بعد أن وليها بابا من أصل فرنسى ، أحاطت به بطانة من الكرادلة الفرنسيين ، وعاش فى بقعـــة تتكلم الفرنسية وتقع على الحدود الفرنسية (٤) • ذلك أن كلمنت الخامس أصبح يتصدر فى التاريخ قائمة من ستة بابوات فرنسيين اتخذوا أفينون مقاما لهم حتى عاد أخيرا البابا جريجورى الحادى عشر الى روما سنة ١٣٧٧ وعندئذ انتهت فترة الأسر البابلى (٥) •

ولا شك فى أن الحياة فى أفينون حينذاك كانت أسهل وأهدأ مما كانت عليه فى روما • فاذا كانت روما قد وقعت فريسة للمؤامرات والمنازعات حتى غدت البابوية فى أواخر القرن الثالث عشر تحت رحمة كبار الأمراء ، فان أفينون كانت فى مأمن من كل ذلك ولا سيما بعد أن اشتراها البابا كلمنت

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Ages ; Tome 1, p. 53.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 405.
(3) Eyre : op. cit. pp. 470-471.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 405.
(5) Stephenson : Med, Hist. p. 502.

السادس سنة ١٣٤٨ وأصبحت ملكا للبابوية (١) • وهكذا قبع بابوات أفينون في مقرهم الجديد حيث شيدوا قصرا للبابوية على ضفاف الرون أصبح آية من آيات الفن المعاصر ، كما أحاطوا مدينتهم الجديدة بسور منيع يكفل لهم الأمن والطمأنينة (٢) •

على أن هذا الأمن والسلام اللذين تمتعت بهما البابوية فى أفينون كانا لا يعادلان بأى حال الخسارة الأدبية العظمى التى لحقت بها لبعدها عن روما (٣)• فالبابوية استمدت نشأتها وأهميتها فى نظر العالم الغربى من كرسى القديس بطرس فى روما (٤) ، ولذلك كان حرمان البابا من هذه الصفة – صفة كونه خليفة القديس بطرس فى كرسيه بروما – سببا فى قطع الصلة بينه وبين المنبع الأساسى الذى استمدت منه البابوية أولويتها على بقية أسقفيات الغرب • هذا الى أنه من المبالغة أن نتصور أن البابوية تمتعت بحريتها كاملة أثناء اقامتها فى أفينون ، لأن هذه المدينة – وان لم تكن تابعة لفرنسا سياسياً – الا أنها كانت محاطة بممتلكات ملوك فرنسا من أسرة كابيه ، مما جعل بابوات أفينون يبدون فى نظر المعاصرين صنيعة لملوك فرنسا بل سجناء تحت سلطانهم ، حتى اطلق على هذه الفترة من تاريخ البابوية « الأسر البابلى »(٥)

ومن الواضح أن اقامة البابوات فى أفينون حرمتهم من الجزء الأكبر من المالية التى اعتادوا الاعتماد عليها فى روما ، ولذلك حاولت البابوية فى مقرها الجديد الحصول على موارد جديدة عن طريق فرض ضرائب على نطاق واسع (٦) • ولكن ضعف نفوذ البابوية فى هذه الفترة جعلها تتعرض لمعارضة شديدة من جانب الملوك والأمراء – ولا سيما فى انجلترا – حيث

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 272.
(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 502-503.
(3) Hearnshaw : Some Great Political Idealists p. 25.
(4) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 2.
(5) Eyre : op. cit. p. 471.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 408.

كانت النظرة الى بابوات أفينون على أنهم حلفاء الملكية الفرنسية (١) • وهكذا صدر مرسوم في انجلترا سنة ١٣٥١ ألغي حق البــــابا في ملء الوظائف الكنسية الشاغرة في انجلترا ، كما صدر مرسوم آخر بعد ذلك بسنتين حرم استئناف أي حكم أصدرته محكمة انجليزية أمام محكمة أخرى أجنبية (٢)• وبعد ذلك بنحو عشرين سنة قام جنا وكلف في انجلترا بحركة للمضادة للبابوية ونفوذها ، مما يوضح مدى الخسائر الأدبية والمــادية التى لحقت بالبابوية خلال فترة الأسر البابلى (٣) •

على أنه من الانصاف أن نشير الى أن بابوات أفينون لم يكونوا من الناحية الشخصية دون غيرهم من البابوات السابقين أو اللاحقين • ذلك أنهم حافظوا على رسالة البابوية فى نشر السلام بين المسيحيين وتكتيل قواهم ضد المسلمين وارسال البعثات التبشيرية الى الوثنيين ومقاومة الهراطقة ومذاهبهم • هذا الى أن بعضهم كانوا من رجال القانون فاهتموا بالقانون الكنسى وأضافوا اليه ، وعملوا على تحسين الادارة البابوية وتغذيتها بالمال اللازم (٤) •

الانشقاق الدينى الأكبر (١٣٧٨ ــ ١٤١٧) :

ولكن يبدو أن بابوات أفينون أحسوا من أول الأمر أن وضعهم غير طبيعى لأنه على الرغم من المزايا التى حصلوا عليها فى مقرهم الجديد ، الا أن طبيعة الوظيفة البابوية ارتبطت دائما بمدينة روما • لـذلك فكر هــؤلاء البابوات ــ الواحد بعد الآخر ــ فى العودة الى مدينة القديس بطرس • هذا في الوقت الذى أصيبت فيه روما نفسها بخسارة اقتصادية فادحة كما ازدادت فيها الفوضى نتيجة لتغيب البابوات عنها (٥) ، مما دفع أهلها الى الالحاح على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 277.
(2) Tout : The Hist. of England, p. 377.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 408.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 509.
(5) Eyre : op. cit. pp. 497-498.

البابوات بترك أفينون والعودة الى مقرهم الطبيعى • وأخيراً قام البابا جريجورى الحادى عشر (١٣٧٠ - ١٣٧٨) برحلة الى روما - قد تكون لمجرد الزيارة ولكن قدر له أن يموت فيها قبل أن يشرع فى العودة الى أفينون (١) • وهنا أدرك أهالى روما أن فرصتهم قد حانت فضغطوا على الكرادلة لانتخاب أحد أبناء روما - أو على الأقل ايطاليا - لمنصب البابوية ، حتى تم لهم ما أرادوا واختير أوربان السادس (١٣٧٨ - ١٣٨٩) فى منصب البابوية (٢) •

على أن الكرادلة الفرنسيين لم يرضوا عن تلك النتيجة ، فاجتمع ثلاثة عشر منهم فى فوندى Fondi وأعلنوا أن انتخاب البابا أوربان السادس باطل لأنه تم تحت تأثير ضغط خارجى ، واختاروا كلمنت السابع (١٣٧٨- ١٣٩٤) لمنصب البابوية على أن يقيم البابا الجديد فى أفينون • وعلى هذا الوجه بدأ الانشقاق الدينى الأكبر بوجود سلسلة من البابوات فى روما وأخرى فى أفينون (٣) •

وقد يبدو هذا الانشقاق قليل الأهمية فى نظرنا اليوم ، ولكنه بالغ الأثر بالنسبة للعصور الوسطى وتفكيرها ، فضلا عن وضع البابوية ونفوذها • ذلك أن العالم المسيحى الغربى سرعان ما انقسم الى معسكرين كبيرين ، فوقفت فرنسا وأسبانيا ونابلى وصقلية فى جانب البابا كلمنت السابع ، فى حين شايعت انجلترا ومعظم ألمانيا وهنغاريا وبولندا وأمراء شمال ايطاليا البابا أوربان السادس (٤) • هذا مع ملاحظة أن الاجماع لم يكن تاما على أحد البابوات فى أى من البلدان السابقة ، لاسيما بعد أن لجأ كل بابا الى تعيين أتباعه فى الوظائف الدينية المختلفة واستغلال كافة الوسائل - المشروعة وغير

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p. 95.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 290.
(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 186.
(4) Thompson : op. cit Vol, 2, p. 961.

المشروعة - لجمع الأموال من الأهالي لنفسه دون خصمه (١) . وليت الأمر وقف عند قيام اثنين من البابوات وحزبين من الكرادلة واثنين من رجال الدين المتنافسين حول كل منصب ديني في الغرب ، بل ان كل فريق لجأ إلى تسفيه رأي الفريق الآخر واظهاره بمظهر عدم اللياقة والصلاحية ، واستصدار قرارات الحرمان ضده مما ترك أسوأ الأثر في نفوس المعاصرين ، الـذين بدأوا يعيدون النظر في حقيقة منصب البابوية وأهمية البـابا ومصـدر سلطته (٢) . وهكذا ظهر من المفكرين في القرن الرابع عشر من نادوا بأن الكنيسة الحقة انما تتألف من جمهور المسيحيين وأن التنظيم الكنسي وعلى رأسه البابا انما هو من صنع البشر ، وأنه كما يختار الناس حاكمهم السياسي لخدمتهم فكذلك ينبغي أن يكون الغرض الأساسي من وجود رجال الكهنوت جميعا هو خدمة الجمهور المسيحي . وبعبارة أخرى فان السلطة العليا سواء في المسائل الدينية أو الدنيوية يجب أن تترك للنـاس الذين يجتمعون في مجامع عامة ليعبروا عن ارادتهم (٣) .

ومن الواضح أن ظهور هذه الآراء أمر له مغزاه وأثره في الوقت الذي عم الاستياء الناس بسبب مطالب البابوية الباهظة . وأخيرا فكر بعض الكرادلة في ايجاد حل للموقف فعقدوا مجمعا في بيزا سنة ١٤٠٩ وقرروا عزل كل من بابا روما وبابا أفينون وانتخاب بابا جديد يحل محلهما جميعا . على أن هذه المحاولة جاءت لتزيد الطين بلة اذ اختار الكرادلة في بيزا البابا اسكندر الخامس الذي لم يلبث أن توفي فخلفه البابا حنا الثالث والعشرين (١٤١٠ - ١٤٢٥) ، هذا في الوقت الذي لم يوافق بابا روما أو أفينون على التخلي عن منصبه ، وبذلك أصبح للعالم المسيحي الغربي ثلاثة بابوات (٤) .

---

(1) Eyre : op. cit. p. 510.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 2, pp. 962-963.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 293-294.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Ages, pp. 318-323.

ثم كان أن اعتلى سجسموند ملك هنغاريا عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٤١١ - ١٤٣٧) ، وهو الرجل الذى اعتقد اعتقادا راسخا فى أهمية الوظيفة الامبراطورية ومسئولياتها . وقد أحس سجسموند بضرورة العمل السريع لوضع حد للانشقاق البابوى لا سيما بعد أن أخذت حركة حنا هس - التى سنبحثها بعد قليل - تزداد خطورة وانتشارا لتجذب بوهيمية خارج حظيرة الكاثوليكية (١) . لذلك دعا سجسموند لعقد مجمع دينى عام فى كونستانس سنة ١٤١٣ واستصدر من البابا حنا الثالث والعشرين قرارا بشرعية هذا المجمع ، فوافق بابا روما - جريجورى الثانى عشر (١٤٠٦ - ١٤١٥) - على ارسال مندوبين عنه ، فى حين امتنع بابا أفينون - بندكت الثالث عشر (١٣٩٤ - ١٤٢٢) عن الاشتراك فيه (٢) .

وكان مجمع كونستانس من أعظم المجامع الدينية وأخطرها ، ليس فى العصور الوسطى فقط وانما فى التاريخ عامة ، لأن فيه التقى العالم القديم بالعالم الجديد (٣) . وليس فقط بسبب الظروف التى عقد فيها والمسائل التى عرضت عليه لمناقشتها ، بل أيضا نتيجة لتكوينه وأهمية الأعضاء المشتركين فيه . ذلك لأنه اشترك فى هذا المجمع ثلاثة بطارقة وتسعة وعشرون كاردينالا وثلاثة وثلاثون من رؤساء الأساقفة ، ومائة وخمسون أسقفا ، ومائة من مقدمى الأديرة ، فضلا عن ثلثمائة من فقهاء اللاهوت (٤) . وقد بدأ مجمع كونستانس بمناقشة الهرطقة الهسية ولذلك لم يبدأ فى بحث موضوع الانشقاق الدينى بصورة جدية الا فى أوائل سنة ١٤١٥ (٥) . على أن مناقشة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الهين ، فاستمرت مدة طويلة ، ظهر فى أثنائها كثير من التيارات المتعارضة ، وان كان الصالح العام قد تغلب دائما على روح المجمع . وهكذا أدين بابا بيزا - حنا الثالث والعشرين - وعزل عن منصبه

(1) Eyre : op. cit. p. 513.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 2.
(3) Lodge : op. cit. p. 211.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 411-412.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 301 & Vol. 8, p. 4.

البابوات أثناء الإنشقاق الأكبر

بابوات روما

أوربان السادس (١٣٧٨ – ١٣٨٩)

بونيفيس التاسع (١٣٨٩ – ١٤٠٤)

أنوسنت السابع (١٤٠٤ – ١٤٠٦)

جريجورى الثانى عشر (١٤٠٦ – ١٤١٥)

بابوات افينون

كلمنت السابع (١٣٧٨ – ١٣٩٤)

بندكت الثالث عشر (١٣٩٤ – ١٤٢٢)

بابوات مجمع بيزا

اسكندر الخامس (١٤٠٩ – ١٤١٠)

حنا الثالث والعشرون (١٤١٠ – ١٤٥١)

سنة ١٤١٥ . أما بابا روما — جريجورى الثانى عشر — فقد اختار أسلم الطرق واستقال من منصبه (١) . وبهذا لم يبق سوى بابا أفينون — بندكت الثالث عشر — الذى أظهر تمسكا بوظيفته بعد أن زال منافساه من طريقه ، ولكن مجمع كونستانس عزله هو الآخر سنة ١٤١٧ (٢) . وهنا لم يستسلم بندكت الثالث عشر فى سهولة ، وأختار أن يعتصم بقلعة حصينة حيث ظل متمسكا بحقه حتى مات سنة ١٤٢٢ ، وعندئذ خلفه كلمنت الثامن (١٤٢٣ — ١٤٢٩) (٣) . ومع ذلك لم يعترف بهما أحد من ملوك أوربا أو كبار أمرائها حتى زالت بابوية أفينون زوالا تلقائيا . أما البابا الوحيد الذى اختير ليرأس الكنيسة الغربية فكان مارتن الخامس (١٤١٧ — ١٤٣١) (٤) .

وهكذا نجح مجمع كونستانس فى علاج الانشقاق الدينى الأكبر فعادت الى البابوية وحدتها ، كما نجح هذا المجمع أيضا فى تأكيد فكرة سيادة مجمع دينى عام على البابوية . هذا زيادة على جهوده فى العمل على اصلاح الكنيسة وتدعيمها (٥) .

على أن مجمع كونستانس لم ينفض سنة ١٤١٧ الا بعد أن وضع أساس عدة مجامع أخرى لتكمل البناء الذى شرع فيه كونستانس . وكان أول هذه المجامع التى عقدت بعد انفضاض مجمع كونستانس هو مجمع بافيا — سنة ١٤٢٣ ، وثانيها مجمع بازل سنة ١٤٣١ (٦) . وبعد أن ناقش هذا المجمع الأخير بعض المسائل المتعلقة بالهرطقة الهسية ، أصـــدر البابا أيوجنيوس الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) أمرا بفضه . ولكن أعضاء المجمع رفضوا الاذعان لأمر البابا وأعلنوا استمرار انعقاد المجمع حتى أصدروا عـــدة قـــرارات اصلاحية (٧) . وبدراسة هذه القرارات يبدو واضحا أن البابوية كانت

(1) Eyre : op. cit. p. 519.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p. 342.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 9-10 & 19.
(4) Idem : Vol, 7, p. 301.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 2, p. 969.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 415.
(7) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 24-30.

هدفها الأول ، اذ نص بعضها على عدم دفع رسوم عند التعيين فى وظيفة كنسية ، فى حين نص البعض الآخر على حرمان البابا من حق تعيين الأساقفة وجعل هذا التعيين عن طريق الانتخاب(١) • وأخيرا لم يجد البابا أيوجنيوس وسيلة لفض مجمع بازل سوى الدعوة الى مجمع آخر فى فرارا سنة ١٤٣٧ • وقد عقد هذا المجمع الذى دعا له البابا فى فرارا ثم انتقل الى فلورنسا (١٤٣٨ – ١٤٣٩) حيث كانت أهم مسألة عرضت عليه هى موضوع ازالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية(٢) • ذلك أن الامبراطور البيزنطى لم يجد وسيلة يحمى بها نفسه وعاصمته من الخطر العثمانى حينذاك سوى الاتحاد مع غرب أوربا(٣) • وبعد نقاش طويل بين الجانبين ، وافق مندوبو الكنيسة الشرقية على شروط البابا ، وصدر مرسوم باتحاد الكنيستين ، وان كانت الكنيسة الشرقية نفسها لم تأخذ بهذا المرسوم بعد أن أعلن بطارقة الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس (سنة ١٤٤٣) معارضتهم لمشروع الاتحاد، ومن ثم ظل هذا المرسوم عديم الأثر(٤) •

أما عن البابوية فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر ، فقد فقدت كثيرا من مظاهر عظمتها وهيبتها الأولى ، فضلا عن ضياع ما كان لها من نفوذ سياسى وروحى تمتعت به فى أوائل القرن الثالث عشر • ذلك أن البابوات أصبحوا فى هذه الفترة جماعة من المترفين الذين لا يعنيهم من أمر الكنيسة سوى الحصول على أكبر قدر ممكن من المال لتحقيق مصالحهم الخاصة ومصالح أقاربهم وذويهم (٥) • هذا الى أن الأسر البابلى والانشقاق الأكبر أضعفا مركز البابوية بوجه خاص والكنيسة بوجه عام • وبالرغم من جهود المصلحين وصيحاتهم التى انبعثت من داخل الكنيسة وخارجها فان البابوية أصمت أذنها وأغلقت عينها وانصرفت عن كل اصلاح • وأخيرا أخذت المبادىء الهرطقية تنتشر سرا فى كثير من البلاد الغربية ، وجهروا فى بعضها،

---

(1) Eyre : op. cit. p. 526.
(2) Lodge : op. cit. p. 236.
(3) Came. Med. Hist. Vol, 8, p. 35.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 372-374.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 171-173.

لتقضى على ما تبقى من نفوذ وهيبة لرجال الدين ، وتضع الأساس لحركة الاصلاح الدينى فيما بعد(١) .

الحركات الهرطقية :

ليست الآراء الهرطقية بالأشياء الجديدة على المسيحية ، فقد شهدت الكنيسة منذ ضحى تاريخها كثيرا من الآراء المنافية لتعاليمها ، مما جعل البابوات والحكام يكافحونها فى شدة وعنف . وقد بدأ كثير من هذه الآراء بمهاجمة رجال الكنيسة وحياتهم المترفة وثرائهم الفاحش وبعدهم عن مثل المسيحية وبساطتها ، ثم لم يلبث أن تطور هذا الهجوم الى انتحال آراء جديدة لا تخلو من تطرف وخطورة . من ذلك ما رأيناه فى القرن الثانى عشر من ظهور مذهبين من مذاهب الهراطقة ، هما مذهب الألبيجنسيين (الكاتاريين) ومذهب الوالدنسيين ، حتى شنت البابوية عليهما جميعا حربا شعواء انتهت بالقضاء عليهما فى جنوب فرنسا(٢) . على أنه لم يكن من المنتظر أن تنتهى الآراء الخارجة على الكنيسة ما دامت الكنيسة نفسها منصرفة عن اصلاح أوضاعها . وهنا وجدت الرغبة فى الاصلاح والعودة الى حياة البساطة متنفسا لها فى هيئات الاخوان والرهبان (الفرير) فظهرت عدة منظمات منها فى القرن الثالث عشر أهمها منظمة الاخوان الفرانسسكان ومنظمة الاخوان الدومنيكان ، وكلها ترمى الى حياة البساطة وحماية الكنيسة من الآراء الهرطقية وتدعيم البابوية عن طريق امدادها بأتباع مخلصين متفانين فى خدمة الدين(٣) .

ثم كان أن تدهور مركز البابوية تدهورا واضحا منذ القرن الرابع عشر نتيجة للأسر البابلى والانشقاق الدينى الأكبر والمجامع الدينية التى وقفت من البابوية موقفا عنيدا ، مما ترتب عليه نمو الحركات الهرطقية وازدياد عدد

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 428.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 20.
(3) Eyre : op. cit. pp. 242-245.

أتباعها . ولم تكن كل هذه الحركات التى ظهرت على المسرح الأوربى فى القرن الرابع عشر جديدة ، وانما كان بعضها قديما ، فالوالدنسيون الذين تم انحلال حركتهم فى القرن الثانى عشر فى جنوب فرنسا قرب الحدود الأسبانية ، ظلوا أقوياء فى المناطق الواقعة شرقى الرون ، حيث كان مركزهم الرئيسى حول مدينة ليون(١) . وكذلك الكاتاريون الذين خبت حركتهم فى غرب أوربا اختفوا من ايطاليا وجنوب فرنسا لينشروا آراءهم شرقى البحر الأدرياتى ، حتى غزا العثمانيون البلقان وعندئذ فر من وجههم الكاتاريون لينتشروا فى غرب أوربا مرة أخرى(٢) . وثمة حركة أخرى شهدها غرب أوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر هى حركة السياطين Flagellants ، التى جاءت وليدة الذعر الذى أصاب الناس عند انتشار الوباء الأسود ، فاعتقدوا أن هذا الوباء مظهر لغضب الله على عباده الآثمين ، وأنه لا سبيل الى النجاة من ذلك الغضب الا بتعذيب النفس وضرب الجسد بالسياط(٣) . وقد بلغ هذا التعذيب درجة من التطرف جعلتهم يضربون أنفسهم بسياط ربطت أطرافها بقطع من الحديد ، معتقدين أن من يواظب على هذه العملية ثلاثة وثلاثين يوما ونصف يوم فانه يضمن تطهير نفسه من جميع ما علق بها من آثام(٤) . وهكذا انتشرت جماعات السياطين — رجالا ونساء — يوقعون على أنفسهم هذا الجزاء ويقتلون كل من يعارضهم من اليهود أو من رجال الكنيسة ، حتى صدر قرار بابوى بالقضاء عليهم سنة ١٣٤٩ ، وان استمرت لهم بقية حتى القرن الخامس عشر(٥) .

ومهما يكن من أمر هذه الحركات وأشباهها ، فانه لا يوجد شك فى أن أهم رجلين فى العصور الوسطى مهدا لحركة الاصلاح الدينى التى تزعمها

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 417.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 103-104.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 419.
(4) Workman : The Evolution of Monasticism, p. 216.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 106-107.

مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) فيما بعد - هما حنا وكلف وحناهس(١) .

أما حنا وكلف John Wyclif فهو انجليزى ولد سنة ١٣٢٨ فى احدى قرى يوركشير ، ثم تلقى تعليمه فى جامعة أكسفورد واكتسب شهرة واسعة فى علم اللاهوت ، جعلت الملك ادوارد الثالث يختاره سنة ١٣٧٤ عضوا فى البعثة الملكية التى أوفدها الى بروجز Bruges لمفاوضة منـــدوبى البابا جريجورى الحادى عشر فى بعض المسائل المختلف عليها بين الطرفين(٢) . وبعد عودة وكلف من تلك المهمة عكف فى أكسفورد على وضع عدة أبحاث هامة حول العلاقات بين السلطتين العلمانية والكنسية(٣) . وتحتل مســألة الملكية ركنا مهما من أبحاث وكلف ، فهو يرى أن الرب وحده هو الذى له ملك السموات والأرض ، وأن جميع الصالحين من عباده لهم حق فى ملكية الأرض ، وأن هذه الملكية حق مشاع عام بينهم لأن الملكية الفردية انما جاءت نتيجة لخطيئة آدم(٤) . وعلى ذلك لا يصح أن تتردى الكنيســة فى الخطيئة نفسها بل يجب أن تسمو عن الملكية الفردية ، كما يجب أن تتخلى عن جميع ممتلكاتها . على أنه يجوز للكنيسة أن تحتفظ ببعض أملاكها اذا استغلتها استغلالا طيبا ، وفى هذه الحالة يجب على الملك أو الأمير أن يحدد الجزء الذى تحتفظ به الكنيسة من ممتلكاتها(٥) . ويفسر وكلف الثروة الواسعة التى تمتعت بها الكنيسة ورجالها بأنها مظهر من مظاهر انصراف رجال الدين عن مهمتهم الأساسية ، لأنهم لو قاموا بواجبهم الأصلى ما صــارت لهم حاجة الى هذه الثروة . ثم يوضح كذلك أن ثروة الكنيسة عامل من عوامل افقار الدولة كما يعيب على رجال الدين عدم تفرغهم لواجباتهم واشتغالهم بالسياسة والادارة ، فى حين اعتبر الديريين فئة من المتعطلين الذين يعيشون عالا على المجتمع(٦) . ولهذا انصب جزء كبير من نقد وكلف على الهيئات

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 963.
(2) Winn : Wyclif. pp. XII-XX.
(3) Hearnshaw : Some Great Political Idealists of the Christian Era, pp. 35-36.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 497-498.
(5) Eyre . op. cit. pp. 521-522.
(6) Oman : The Hist. of England, p. 69.

الديرية المختلفة - وبخاصة منظمات الاخوان الرهبان - بسبب ممتلكاتهم الواسعة من جهة ، ولاخفاقهم فى المهمة الأساسية لرجل الدين - وهى العمل على اعلاء كلمة الله - من جهة أخرى(١) .

وقد صادفت آراء وكلف هذه هوى فى نفوس عدد من الأمراء الانجليز الطامعين فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة ، فاستدعوه الى لندن سنة ١٣٧٦ لشرح آرائه على الملأ ، مما أثار رجال الدين ، وعندما بلغت تعاليم وكلف البابا جريجورى الحادى عشر - غداة عودته من أفينون الى روما - أنكرها ، وأرسل الى ادوارد الثالث يطلب منه مكافحة هذه التعاليم وحبس وكلف . واذا كان ادوارد الثالث قد توفى قبل وصول الأوامر البابوية ، الا أن الموقف انتهى بطرد وكلف وشيعته من أكسفورد ، فاعتزل بقية حياته فى احدى القرى حتى مات فى هدوء سنة ١٣٨٣(٢) .

ولوكلف آراء كثيرة فى اللاهوت تقوم على أساس تعاليم القديس أوغسطين ، من ذلك أنه اعتقد فى مبدأ القدر ، ورأى أن البعض قدر له الخلاص والرحمة ، والبعض الآخر قدر له الهلاك واللعنة الأبدية ، « وقد يكون البابا من الفريق الأخير ! » (٣) . كذلك رأى وكلف أن أسلوب المسيحية فى الحياة يجب أن يستقى من الانجيل نفسه لا من تعاليم الكنيسة ، وأن الصلة بين الانسان وخالقه يجب أن تكون مباشرة دون وساطة أحد من رجال الدين أيا كان مركزه فى الكنيسة(٤) . لهذا أدرك وكلف أن الانجيل يجب أن يكون فى متناول كل مسيحى ، فقام جماعة من أعوانه بترجمة الانجيل الى الانجليزية تحت اشرافه ، مما كان له أثر كبير فى حركة الاصلاح الدينى فيما بعد(٥) . ومن الواضح أن هذه الآراء فى مجموعها هرطقية - أى خارجة على آراء

---

(1) Winn : Wyclif, pp. XXVI — XXVII
(2) Oman : The Hist. of England, p. 80.
(3) Hearnshaw : Some Great Political Idealists, pp. 43-44.
(4) Winn : op. cit. p. 6.
(5) Idem : pp. 6-7.

الكنيسة وتعاليمها — لأنها فى جانبها السياسى تحرم الكنيسة من أمـــلاكها وموارده المالية ، وفى جانبها اللاهوتى تهدم السلطة الروحية للكنيسة(١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذت آراء وكلف تنتشر بسرعـــة فى انجلترا أثنـــاء حياته على أيدى بعض رجال أكسفورد وبعض صغار القساوسة . ذلك أن هذه الآراء صادفت قبولا كبيرا فى نفوس ثلاث فئات ، أولاها رجال العلم من المفكرين الأحرار ، ثم الفقراء من أهل الريف ، وأخيرا الأمراء الطامعين فى الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة . وقد أطلق على أتباع وكلف اسم اللولارديين Lollards الذين أخذوا يزدادون ، حتى اضـــطر البرلمان الانجليزى الى اصدار قانون فى عهد هنرى الرابع (سنة ١٤١٠) يقضى بتسليم كل من يتهم باللولاردية الى الكنيسة لمحاكمته ، فاذا أدين أحرق حيا بوساطة السلطة الزمنية(٢) . وبعد ذلك جاء هنرى الخامس فتطرف فى مطاردتهم والقضاء عليهم ، حتى اختفت اللولاردية فى الظاهر . وعـــلى الرغم من ذلك فقد ظل بعض النبلاء يجهرون باعتناقهم اللولاردية نظرا لما فيها من تحقيق لمطامعهم فى أراضى الكنيسة(٣) . وكان زعيم اللولارديين حينئذ لورد كوبهام — حنا أولد كاسل — الذى أثار عدة ثورات فى أوائل عهد هنرى الخامس ، ولكنها باءت بالفشل حتى انتهى الأمر باعـــدامه سنة ١٤١٧ . وباعدام أولد كاسل انتهى النشاط السياسى للحركة اللولاردية(٤) .

* * *

على أنه اذا كان قد تم القضاء فى سرعة على آراء حنا وكلف وأتباعـــه فى انجلترا ، الا أن هذه الآراء سرعان ما انتشرت خارج البلاد حتى تمخضت عن انفجار عنيف فى بوهيميا . ذلك أن الامبراطور شارل الرابع (١٣٤٧ —

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 423.
(2) Oman : The Hist. of England, p. 171.
(3) Idem, p. 233.
(4) Idem. p. 267.

١٣٧٨) ترك عرش ألمانيا وبوهيميا من بعده لابنه ونسيسلاس Wenceslas (١٣٧٨ - ١٤٠٠) ، فى حين زوج ابنته - الأميرة آن - لريتشارد الثانى ملك انجلترا • وقد صحبت هذه المصاهرة بين البيتين المالكين فى بوهيميا وألمانيا من جهة ، وانجلترا من جهة أخرى ، هجرة كثير من أهالى بوهيمية صحبة أميرتهم الى انجلترا حيث التحق بعضهم بالجامعات وتأثروا بالآراء التى سادتها ، ومن جملتها تعاليم وكلف(١) • وعن هذا الطريق انتقلت آراء وكلف السياسية الى بوهيميا فى أواخر القرن الرابع عشر ، بل لم تلبث تعاليمه فى اللاهوت أن انتقلت هى الأخرى عند مستهل القرن الخامس عشر على يد جيروم البراغى ، أحد أساتذة براغ المتحمسين لتعاليم وكلف(٢) •

وفى ذلك الوقت كانت جامعة براغ التى تأسست سنة ١٣٤٨ قد أصبحت مركزا عالميا للدراسات المختلفة (٣) • وسرعان ما وجد جيروم البراغى أنصارا أشداء لتعاليم وكلف بين رجال هذه الجامعة ، وخاصة من التشك ، الأمر الذى أفزع الكنيسة فأصدرت أمرا سنة ١٤٠٣ باعدام هذه التعاليم واعتبار أصحابها من الهراطقة(٤) • وكان على رأس الأساتذة التشك الذين عارضوا هذا الاجراء جناهس (John Huss).

أما جناهس هذا فقد ولد سنة ١٣٧٠ وحصل على اجازة الليسانس فى اللاهوت سنة ١٣٩٤ ثم على الماجستير فى الآداب بعد قليل ، وبذلك جمع فى دراسته بين تعاليم الانجيل وتعاليم أرسطو(٥) • وقد عرف هس بفصاحته وتحمسه للاصلاح الدينى ، وقوته فى مهاجمة نواحى الضعف فى الكنيسة ومفاسد حياة رجال الدين ، فاتخذ الوعظ والارشاد وسيلة قوية لشن هجومه على هذه المفاسد حتى أصبح له أنصار عديدون فى مختلف الطبقات • ولكن

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 546.
(2) Lodge : op. cit. p. 208.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7. pp. 167-168.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 425.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome I, p. 303.

يلاحظ أنه اذا كان هس قد تأثر بآراء وكلف حتى اعتبر تلميذا له ، الا أنه لم يعتنق كل هذه الآراء ، اذ أعلن سنة ١٤١١ أنه لا يتفق مع وكلف في بعض المبادىء الرئيسية(١) . والحق أن هس كان داعيا ومصلحا دينيا أكثر منه لاهوتيا أو عالما ، فأخذ عن وكلف بعض الآراء التى احتاج اليها فى سياسته ، ولم يهتم بالباقى . وهكذا استمر هس يواصل هجماته العنيفة ضد الأوضاع السائدة فى الكنيسة ، الأمر الذى أفزع رئيس أساقفة براغ فأصدر أمرا بمنع أساتذة الجامعة من الوعظ والارشاد ، ووضع براغ نفسها تحت الحرمان(٢) .

على أن موقف هس لم يتأزم بشكل واضح الا منذ سنة ١٤١٢ عندما اختلف البابا حنا الثالث والعشرين مع لادسلاس Ladislas ملك نابلى ، فأعلن البابا حملة صليبية ضد الملك . وهنا لجأت البابوية - كعادتها طوال الحركة الصليبية - الى توزيع صكوك الغفران على كل من يسهم فى تلك الحملة أو يتبرع لها بالمال ، فى الوقت الذى كان المصلحون - وعلى رأسهم هس - يهاجمون هذه البدعة وينادون بأن صكوك الغفران ليست من الدين فى شىء(٣). وقد ذهب هس فى هجومه على صكوك الغفران الى حد القول بأن الأوامر البابوية تعتبر ملغاة لا قيمة لها اذا كانت تتعارض مع تعاليم المسيح (٤) . ولكن هذا الهجوم كان أقوى من أن تتحمله عقلية المعاصرين ، فأعلنت جامعة براغ مرة أخرى اعدام آراء وكلف ولا سيما تلك الآراء التى اعتمد عليها هس فى معارضة فكرة صكوك الغفران (٥) . أما البابا فقد وقع الحرمان على هس ، فى حين اضطر الملك ونسسلاس الى مسايرة التيار فطرد هس وأعوانه من الجامعة ، بل من مدينة براغ كلها (٦) .

---

(1) Eyre : op. cit. p. 522.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 47.
(3) Lodge : op. cit. p. 211.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 55.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 459.
(6) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 56.

وهكذا اضطر هس الى الانسحاب - فى أواخر سنة ١٤١٢ - الى جهة ريفية فى بوهيميا حيث استمر فى الدعوة لتعاليمه . كما عكف على كتابة بعض المؤلفات التى يبدو فيها تأثره العميق بآراء وكلف وان كان أكثر تحفظا من وكلف فى كثير من النواحى (١) .

ثم كان أن اجتمع مجمع كونستانس - كما سبق أن رأينا - لينظر فى عدة مسائل مهمة ، أهمها مسألة وضع حد للهرطقة الهسية . لذلك وجهت الدعوة الى هس لحضور المجمع ، فحذره أصدقاؤه من الذهاب ، ولكنه وجد فى هذا المجمع فرصة طيبة لشرح آرائه أمام جمهور كبير من المسيحيين ، فرحل الى كونستانس بعد أن حصل على موثق من الملك سجسموند بعدم الاعتداء على حياته (٢) . وعندما وصل هس الى كونستانس فى نوفمبر سنة ١٤١٤ ألقى القبض عليه فى الحال وزج به فى السجن، على الرغم من محاولات سجسموند للافراج عنه (٣) . ثم طلب من هس أن يحدد موقفه من خمس وأربعين مسألة مستقاة من آراء وكلف ، واثنتين وأربعين مسألة من آرائه هو ، وعندئذ أعلن هس أنه يتفق مع وكلف فى بعض آرائه ويختلف معه فى البعض الآخر . أما آراؤه هو فقد أصر عليها ولم يشأ أن يتنكر لها (٤). وأخيرا صدر القرار بادانة هس ، فأعدم حرقا سنة ١٤١٥ ، كما أعدم أيضا - بعد عام - جيروم البراغى الذى أتى الى كونستانس لمساندته (٥) .

على أن كثيرا من أهالى بوهيميا - على اختلاف طبقاتهم - نظروا الى هس لا على أنه مصلح دينى فحسب ، بل على أنه من أئمة القومية التشيكية (٦). لذلك حدث فى مايو سنة ١٤١٥ عندما كان هس سجينا ينتظر محاكمته ، أن

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Ages, Tome 1, p. 338.
(2) Lodge : op. cit. p. 211.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 58.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 346-347.
(5) Eyre : op. cit. p. 556.
(6) Pirenne : La Fin du Moyen Ages Tome, 1, p. 333.

اجتمع جمهور كبير من نبلاء بوهيميا وكتبوا الى مجمع كونستانس طالبين العفو عنه • ولكن المجمع لم ينظر الى هذا الطلب بعين الاعتبار وأمر باحراق هس ، الأمر الذى أثار الشعور العام فى بوهيميا فاجتمع خمسمائة من نبلائها وأقسموا على عدم تنفيذ أى قرار من قرارات مجمع كونستانس (١) • وفى سنة ١٤١٩ استولت جموع الهسيين على براغ وذبحوا أعضاء مجلس المدينة، فاتجه اليهم سجسموند - الذى خلف أخاه ونسسلاس الرابع فى حكم بوهيميا - ولكنه هزم هزيمة ساحقة (٢) • وقد قاد سجسموند عدة حملات صليبية ضد الهسيين ولكنه هزم فى كل مرة على أيدى فلاحى بوهيميا (١٤٢٠ - ١٤٢٢) (٣) •

على أن الهسيين سرعان ما انقسموا شيعا بعد وفاة رائدهم ، مما أوجد عدة فرق هرطقية • ومع اختلاف هذه الفرق بعضها مع بعض فى الآراء الا أنها اتحدت جميعها فى وجه الخطر خارجى حتى تمكنت من التغلب على الجيوش العديدة التى أرسلت ضدها (٤) • ولم يهدأ الموقف فى بوهيميا الا حوالى سنة ١٤٣٤ عندما صفى النبلاء الهسيون والكاثوليك ما بينهم من خلافات ، وارتضوا أن يكون سجسموند ملكا على بوهيميا بشرط الاعتراف بعقائد الهسيين المعتدلين (١٤٣٦) (٥) • ومع ذلك فقد ظلت الأوضاع السياسية معقدة فى بوهيميا بقية القرن الخامس عشر ، حتى اعتلى عرشها أكثر من ملك يدين بالعقائد الهسية • وهكذا ظلت بوهيميا معقلا للهرطقة والهراطقة الى ما بعد الحركة المضادة للاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر (٦) •

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 327.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 69-79.
(3) Lodge : op. cit. p. 224.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 356-357.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 82-83.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 428.

الباب العشرون

أسبانيا بين المسلمين والمسيحيين

اسبانيا بعد الفتح الاسلامى :

رأينا كيف فتح المسلمون أسبانيا عى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) فنجحوا فى القضاء على دولة القوط الغربيين وحاولوا التوغل فى جنوب غاليا حتى أوقفهم شارل مارتل عند حدهم بعد أن هزمهم فى موقعة تور أو بواتييه سنة ٧٣٢ (١) • وهنا نلاحظ أن البربر هم الذين تحملوا العبء الأكبر فى فتح أسبانيا لأن معظم الكتائب التى أسهمت فى هذا الفتح كانت منهم ، ثم لم يلبث أن استمر البربر فى تدفقهم بعد ذلك من شمال أفريقية الى تلك البلاد الجديدة ، حتى أوشكت الأندلس أن تصبح امتدادا لبلاد المغرب (٢) • ويبدو أن البربر فى شمال أفريقيا والأندلس أخذوا يشعرون بقوتهم منذ وقت مبكر ، حتى أشعلوا الثورة سنة ٧٢٩ فى وجه الخلافة الأموية بالشام دون أن يتمكن الأمويون من اخماد ثورتهم الا فى صعوبة •

ثم كان أن دالت دولة الأمويين ، وقام العباسيون فى الخلافة ليثأروا من أبناء البيت الأموى ويقتلوا مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق سنة ٧٥٠ • ولكن أحد أبناء البيت الأموى ـ وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ـ استطاع الفرار الى مصر ومنها الى المغرب فالأندلس ، فوصلها سنة ٧٥٠ حيث التف حوله جند الشام من أتباع الأمويين ومواليهم الذين سبق ارسالهم الى الأندلس لاخماد ثورة البربر • وكان ذلك سنة ٧٥٦ عندما استولى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 309.

(2) Diehl, Marcais : Le Monde Orientale, p. 396.

عبد الرحمن - الذى لقب بالداخل - على قرطبة بعد مقاومة شديدة من أمير الأندلس حينذاك - وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وبذلك أصبح عبد الرحمن الداخل أول أمراء بنى أمية بالأندلس (١) .

وقد واجهت الأمير عبد الرحمن الأول متاعب عديدة فى دولته الجديدة ، أهمها من ناحية البربر الذين لم يستسلموا أو يخضعوا له فى سهولة ، بل قاموا بثورة جامحة فى الجهات الشمالية من الدولة . كذلك صادف عبد الرحمن الأول مقاومة شديدة من جانب زعماء العرب اليمانية فى الأندلس ، حتى يقال ان الشيخ سليمان العربى أرسل ثلاثة من رجاله الى شارلمان سنة ٧٧٧ طالبين منه الزحف على الأندلس لطرد الأمير عبد الرحمن الداخل(٢). أما مدن أسبانيا فقد ظلت أمدا طويلا مراكز للفتن والاضطرابات . وعلى رأس هذه المدن طليطلة التى كانت عاصمة القوط الغربيين من قبل والتى ظل جزء كبير من أهلها على الديانة المسيحية ، وهؤلاء لم يستسلموا لحكم المسلمين فى سهولة . هذا الى أن عبد الرحمن الداخل لم يكد يستقر فى قرطبة حتى تبعه العلاء بن مغيث من أفريقية سنة ٧٦٣ ليرفع العلم العباسى الأسود فى الأندلس بعد أن عينه الخليفة المنصور العباسى واليا عليه (٣) .

ولكن عبد الرحمن الداخل كان واسع الحيلة قوى العزيمة ، لا يتورع عن اتخاذ أى السبل ما دامت توصله الى هدفه ، فأنزل الهزيمة بالعباسيين بعد أن خدع قائدهم (٤) ، ثم تتابعت انتصاراته بعد ذلك فقضى عشر سنوات فى اخضاع ثورة البربر ، كما شتت شمل اليمانية وقتل منهم ثلاثين ألفا (٥).

---

(1) Dozy : Spanish Islam, pp. 187-192.
(2) Watts : Spain, p. 32.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٥٧ - ٥٨ .
(4) Dozy : op. cit. p. 199.
(٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٦٠ .

فى حين لم يصادف شارلمان توفيقا فى حملته على أسبانيا سنة ٧٧٨ (١) . أما أهل أسبانيا الأصليين من المسيحيين فقد أخذ كثيرون منهم يقبلون على الاسلام ويعتنقونه فى حماسة واضحة ، حتى غدوا أكثر تعصبا لدينهم الجديد من المسلمين الغزاة . وهكذا أخذ عبد الرحمن الداخل يجنى ثمار جهوده ، فغدت قرطبة عاصمة الدولة الأموية بالأندلس ، وان بقى الأمير عبد الرحمن الداخل وحيدا مكروها فيها لأن سياسته وأخلاقه صرفت الناس عنه .

ثم خلف عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٨ ابنه هشام الأول الراضى ، الذى كان رجلا فاضلا محبا للخير ، فأكرم الفقهاء ورجال الدين وزاد من نفوذهم حتى أضحوا خطرا عليه وعلى دولته . وقد ظهر على رأس أولئك الفقهاء حينئذ رجل عظيم المواهب هو يحيى بن يحيى الليثى الذى رأى فى تقوى هشام فرصة لرفع فقهاء قرطبة الى درجة عالية من النفوذ والحرمة ، كل ذلك وهشام لا يرى خطرا فى هذه الفئة من رجال الدين حتى توفى سنة ٧٩٦ (٢) . على أن خطر الفقهاء ظهر فى صورة واضحة على عهد خليفته الأمير الحكم الأول المنتصر الذى كان مستهترا بعيدا عن التمسك بأحكام الدين ، مما أثار الفقهاء ضده فاستغلوا نفوذهم الواسع فى القيام بثورة عاتية ، هجموا فيها على قصر الأمير الحكم بقرطبة بحيث لم يستطع النجاة الا فى صعوبة (٣) .

وعندما مات الحكم الأول سنة ٨٢٢ خلفه ابنه عبد الرحمن الثانى أو الأوسط الذى أمعن فى اللهو والعبث حتى أوشكت قرطبة فى عهده أن تتحول الى بغداد ثانية (٤) . ولعل هذا الوضع الذى انحدر اليه أمرا قرطبة كان من أقوى العوامل التى شجعت المسيحيين بالأندلس على الثورة فى أواخر

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 413.
(2) Idem : p. 414.
(3) Dozy : op. cit. pp. 250-252.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٧١ .

القرن التاسع • ثم أعقبت ثورة المسيحيين عدة ثورات قام بها البربر وغيرهم، فى الوقت الذى تعاقب على كرسى الحكم عدة أمراء لا يرجى من ورائهم نفع • وفى ذلك الوقت أخذ الفيكنج ــ الذين عرفهم عرب الأندلس باسم المجوس ــ يغيرون على أسبانيا فنزلوا على شاطئ غاليسيا قــرب منتصف القرن التاسع وأغاروا على لشبونة وقادس وأشبيلية (١) •

وهكذا يمكن القول بأن أحوال الأندلس لم تستقر وتنتظم الا فى عهد عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ــ ٩٦١) • ذلك أن عبد الرحمن الثالث استغل الظروف المواتية من جهة وكفايته الشخصية من جهة أخرى فى اخضاع المدن والمنشقين عليه والخارجين عن نفوذه ، فأخضع ابن حفصون وجماعته ، ودانت له أشبيلية التى اعتصم بها بعض زعماء القبائل العربية • أما طليطلة فقد اضطرت أخيرا الى التسليم سنة ٩٣٠ بعد حصار طويل (٤) • ولعل هذا التوفيق الكبير الذى صادفه عبد الرحمن الثالث كان العامل الأساسى الذى شجعه على اتخاذ لقب خليفة ، فتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر • والمعروف أن حكام الأندلس من بنى أمية ظلوا حتى ذلك الوقت يلقبون بالأمراء ، ولم يتخذ أحدهم ــ قبل عبد الرحمن الناصر ــ لقب الخلافة ، على الرغم من عدم اعترافهم بخلافة العباسيين • ولكن يبدو أن تواتر الأخبار بضعف نفوذ الخلافة العباسية فى بغداد حينئذ شجع عبد الرحمن الناصر على اتخاذ هذه الخطوة • وهكذا قامت خلافة اسلامية ثالثة فى الأندلس ، الى جانب الخلافة العباسية فى المشرق والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية (٣) •

ولا شك فى أن اتخاذ عبد الرحمن الناصر لقب الخلافة أكسبه مكانــة كبيرة ونفوذا واسعا فى الداخل والخارج • ففى الداخل هدأت الأحوال وبطلت الثورات وخضع المتمردون ، وعلى الحدود بدأ التنافس شديدا بين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 416.
(2) Dozy : op. cit, p. 397.
(3) Diehl, Marcais : op. cit. p. 400.

الخلافة الأموية فى الأندلس والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية جـــول السيادة على الشطر الغربى من البحر المتوسط ، كما أرسل عبد الرحمن الناصر بعض الحملات الحربية ضد نافارى وليون فى شمال أسبانيا فصادفت توفيقا (١) • أما فى الخارج فقد بلغ من شهرة عبد الرحمن الناصر أن الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع أرسل بعثة الى قرطبة لتوطيد العلاقة مع الخليفة الأموى (٢) •

ومهما يكن من أمر فان الخليفة عبد الرحمن الناصر يعتبر آخر عظماء بنى أمية بالأندلس • وقد خلفه فى الحكم ابنه الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله (٩٦١ - ٩٧٦) الذى استأنف سياسة أبيه ، مع تركيز الجـــزء الأكبر من نشاطه فى جمع الكتب وتجليدها وحفظها (٣) • وعندما توفى الحـــكم المستنصر سنة ٩٧٦ خلفه ابنه هشام المؤيد الذى كان عندئذ طفلا فى العاشرة من عمره ، فقام بالوصاية عليه أحد اليمانية ، ويدعى ابن أبى عامر • وكان رئيس الحكومة عندئذ هو المصحفى الحاجب ، فأعان ابن أبى عامر على الترقى فى مناصب الحكم حتى أزدادت مكانة الأخير وبخاصة بعد أن تمكن من كسر شوكة الصقالبة وتشتيتهم • ولكن لم يلبث ابن أبى عامر أن غدر بالمصحفى وسجنه وأماته مسموما ، ليحل محله ويصبح « الحـــاجب » أى صاحب الكلمة العليا فى قرطبة ، وذلك بفضل مواهبه الشخصية من جهة ، وصداقته الوطيدة مع صبح - أم الخليفة الناصر - من جهة أخرى (٤) • وسرعان ما أظهر الحاجب الجديد كفاية كبيرة فى رعاية شئون الدولة ، فصد هجمات الدويلات المسيحية فى شمال أسبانيا كما نظم الجيش وأدخل فيه كثيرا من البربر (٥) • وبعد أن أنزل ابن أبى عامر الهزيمة بقوات التحالف الثلاثى الذى ألفه ملوك ليون وقشتالة ونافارى ، اتخذ لنفسه لقبا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, pp. 419-420.
(2) Diehl, Marcais : op. cit. p. 400.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٣٧ •
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 424.
(5) Dozy : op. cit. pp. 492-495.

مشابها لألقاب الخلفاء ، فلقب نفسه المنصور بالله • ولم يلبث المنصور بالله أن قام بهجوم أوصله الى قلب قطالونية ، كما استولى على برشلونة وأحرقها سنة ٩٨٥ (١) • كذلك استولى سنة ٩٩٧ على كومبوستلا Compostella ودمر كنيسة سانت جـــاك Saint Jacques (القديس يعقوب) وهى المركز الدينى العظيم فى أسبانيا الذى اعتاد أن يتردد عليه الحجاج من مختلف أنحاء أوربا ، ثم حمل الأسرى المسيحيين أبواب الكنيسة وأجراسها على رؤوسهم حتى وصلوا الى قرطبة (٢) •

وهكذا استطاع المنصور بالله بن أبى عامر أن يحقق من الانتصارات على المسيحيين ما عجز عنه الخلفاء • ويبدو أن شعوره بقوته ومكانته جعله يأنف من لقب « الحاجب » فاتخذ لنفسه لقبا جديدا سنة ٩٩٦ هو لقب « الملك الكريم » (٣) • وعندما مات المنصور سنة ١٠٠٢ كان نفوذه قد غلب على نفوذ الخليفة ، فصارت المراسيم والسكة تصدر جميعا باسمه ، كما دعى له على المنابر بحيث لم يبق للخليفة الأموى سوى ظل من النفوذ الدينى • وقد خلف المنصور ابنه المظفر ليقوم بوظيفته ، ثم خلف هذا الأخير عبد الرحمن ، وهو ابن ثان للمنصور من أم مسيحية (أميرة نافارية) • ويبدو أن هذه الصفة التى لصقت بالأمير الأخير جعلته مكروها من المسلمين ، ولا سيما أن أهل الأندلس لم يكن من رأيهم أن يستأثر وزير بالحكم ـ مهما يكن صالحا ـ وأن الخليفة أو السلطان أو الملك يجب أن يباشر شئون الحكم بنفسه (٤)• لذلك انتهى الأمر بقتل عبد الرحمن سنة ١٠٠٩ ، وبذلك تخلصت الخلافة الأموية بالأندلس من تلك السلسلة من الأمراء الذين سيطروا عليها •

وهنا نلاحظ أنه على الرغم من نجاح المنصور ، الا أن سياسته عادت بأوخم العواقب على الحياة الاقتصادية فى أسبانيا الاسلامية • ذلك أن تقويته للجيش

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 425.
(2) Diehl, Marcais : op. cit. p. 401.
(3) Dozy : op. cit. p. 511.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٥٣ •

واعتماده على عناصر البربر والصقالبة سرعان ما أدت الى سلسلة من الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية في جوف الدولة . وفي تلك المدة تعاقب على عرش الخلافة عدة خلفاء ولكنهم جميعا كانوا أشبه شيء بالدمى فى أيدى القرطبيين أو الصقالبة أو البربر ، وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١٠٢٧ ، عندما تولى منصب الخلافة هشام الثالث الملقب بالمعتد ، وفى بعض المراجع بالمعتمد (١) . وتعتبر الثورة التى أحاطت بهذا الخليفة الأخير سنة ١٠٣١ نهاية للخلافة الأموية بالأندلس اذ تفككت دولة المسلمين فى أسبانيا بعد ذلك ، وانقسمت الى عدد من الوحدات والامارات بحيث لم تقم لهم وحدة سياسية تربطهم وتجعل منهم دولة واحدة . وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبى للدولة الاسلامية بالأندلس هو عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

* * *

وكان النفوذ الاسلامى فى الأندلس يشمل فى ذلك العصر ثلاثة أرباع شبه الجزيرة ، فكان يحد دولة المسلمين من جهة الشمال الغربى نهر دورو ومن خلفه مملكتا ليون وقشتالة ، والى الشرق منهما مملكة نافارى (نواره). أما فى الشمال الشرقى فكان يوجد بين جبال البرانس ونهر ابرو مملكة أرغونة وقطالونية ، بحيث كانت برشلونة على حدود الأراضى المسيحية . وقد أقام المسلمون فى الأندلس نظام الثغور على الحدود بينهم وبين المسيحيين، وهى شبيهة من حيث وظيفتها بالماركيات التى أقامها شارلمان على حدود دولته وتولى حكمها قادة يتمتعون بسلطات استثنائية (٢) .

على أن نقطة الضعف الأساسية فى دولة المسلمين بالأندلس هى أن هذه الدولة ضمت عناصر متباينة من ناحية الجنس والأصل ، وظل أفراد كل عنصر متكتلين متعصبين لجنسهم (٣) . ومع أن العرب لم يكونوا أكثر هذه

---

(1) Dozy : op. cit. p. 585.
(2) Diehl, Marcais : p. 402.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 428.

العناصر عددا وأشدهم بطشا الا أنهم كانوا أعلاها منزلة ودرجة ، فاستولوا منذ البداية على خير الضياع والأراضي الزراعية التي فلحها لهم أهالي البلاد الأصليون ، في حين سكن معظمهم المدن (١) • أما البربر المهاجرون من شمال أفريقية فكانوا يكونون جالية كبيرة في الأندلس • وقد استمر المغرب بمثابة المخزن الكبير الذي يمون دولة المسلمين في الأندلس بالجند والمقاتلين كلما اشتد ضغط المسيحيين عليهم ، حتى ازدادت أعداد البربر وأصبحت كثرتهم عاملا من عوامل ضعف الدولة الأموية بالأندلس • وقد ظل هؤلاء البربر يحيون في وطنهم الجديد حياتهم الخاصة التي اعتادوها في بلادهم الأولى ، مع بقاء النزعة الانفصالية الاستقلالية متغلبة عليهم • ذلك أنهم عاشوا وفق النظام القبلي • واستقلوا في أول الأمر ببعض الولايات الغربية في أسبانيا مثل استرامادور Estramadura ولامانش La Mansha أو بعض جهات المناطق الجبلية في ليون وغاليسيا واستوريا Asturia (أشتوريش) ، حيث احترفوا محاربة المسيحيين في الجهات المحيطة بهم • واشتهر من هؤلاء البربر في الأندلس أسرة ذي النون التي تألفت من موسى وأولاده الثلاثة يحيى وفتح ومطارف ، وجميعهم عرفوا بالشر والقسوة واحتراف السلب حتى عم ضررهم أنحاء البلاد(٢) • على أن المهم في أمر هؤلاء البربر هو أنهم نظروا الى العرب في الأندلس نظرة الحقد والكراهية نفسها التي كان ينظر بها بني جلدتهم في شمال أفريقية الى العرب ، اذ اعتبروا موسى بن نصير وأعوانه من العرب متطفلين تمتعوا بثمار الجهود التي بذلها طارق بن زياد ورجاله الاثنا عشر ألفا من البربر في فتح أفريقية ودحر القوط(٣) •

أما فئة الصقالبة فكانت تشمل عددا كبيرا من جموع الأسرى والرقيق الذين يرجع أصلهم الى مختلف العناصر الأوربية • فالصقالبة في تاريخ الأندلس لا يقصد بهم جماعات من عنصر السلاف فحسب ، بل أيضا من أهالي

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 403.

(٢) لين بول : العرب في اسبانيا ص ٩٣ ـ ٩٤ •

(3) Dozy : op. cit. p. 139.

غاليسيا والفرنجة واللمبارديين وكالبريا وغيرها • وكان المسلمون يحصلون على هؤلاء الصقالبة اما عن طريق أسرهم فى الحروب أو خطفهم من شواطئ البلاد التى يغيرون عليها ثم يستخدمونهم جنودا فى الجيش أو خدما فى قصر الخليفة • ولم تلبث أن ازدادت أعداد الصقالبة فى الأندلس حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا فى قرطبة عند نهاية عهد عبد الرحمن الناصر (١) • ولعل مصدر الخطر فى هذه الفئة هو أن الخلفاء استغلوها أداة للحد من نفوذ الارستقراطية العربية فى أسبانيا مما جعلها بدورها خطرا على كيان الدولة (٢) •

وفيما عدا ذلك فقد وجد بدولة الأندلس الاسلامية عدد كبير من أهالى البلاد الأصليين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية مع تأثرهم بلغة العرب وعلومهم وعاداتهم ، حتى اطلق عليهم اسم المستعربين (٣)• وقد تمتع هؤلاء المستعربون بقسط كبير من التسامح فى ظل حكم المسلمين ، فباشروا طقوسهم فى كنائسهم ومارسوا حياتهم العادية فى المدن والأرياف دون أدنى تدخل من جانب حكام البلاد ، بل انهم استقلوا بولاية الغرب (الجرف Algarve) فى جنوب غرب شبه الجزيرة ، وملكوا عددا كبيرا من المدن المستقلة بالأندلس• ولعل هذا العطف الذى لمسوه من المسلمين هو الذى أدى بنسبة كبيرة من المستعربين الى اعتناق الاسلام ، فى حين اعترف الذين ظلوا على مسيحيتهم بأنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الفرنج أو القوط (٤) • واشتغل معظم هؤلاء المستعربين بفلاحة الأرض فى الأرياف وبالصناعة فى المدن وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة ، كما أسهموا بقسط وافر فى الحياة العلمية التى تمثل جانبا واضحا من الحضارة الاسلامية الزاهرة فى الأندلس (٥) •

---

(1) Idem p. 430.
(2) Diehl : Marcais op. cit. p. 404.
(3) Cam. Med. *Hist. Vol, 3,* p. 438.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٤١ — ٤٢ •
(5) Diehl, Marcais : op. cit. p. 404.

أما اليهود فكانوا أول فريق من سكان أسبانيا رحب بالفتح العربى ، بعد ما لقوه من عسف واضطهاد فى عهد القوط الغربيين (١) • وسرعان ما وجد يهود أسبانيا فى الحكم العربى نوعا من التسامح والحرية لم ينعموا بها منذ أمد بعيد ، فانصرفوا الى مباشرة نشاطهم الاقتصادى والعلمى فى سـكينة واطمئنان (٢) •

والواقع أن الرقى الحضارى الذى بلغته أسبانيا فى ظل الحكم الاسلامى يعتبر ابرز ناحية فى تاريخها طوال العصور الوسطى • فبالفتح الاسلامى انتهى عصر الفوضى والاضطرابات والتدهور الذى أصاب شبه الجزيرة فى عهد القوط الغربيين ، وأخذ المسلمون ينشرون فى البلاد جوا من الاستقرار والتسامح وينصرفون الى الانتاج واستثمار موارد البلاد فى صورة لم تعرفها البلاد من قبل • ولم تلبث أن تحولت مروج أسبانيا فى ظل الحكم العربى الى حقول زراعية مثمرة انتشرت فيها أشجار التين والزيتون والنخيل ، فى حين أدخلت زراعة قصب السكر والأرز فى الأجزاء الشرقية ، والقطن والكتان فى الاقليم المحيط بأشبيلية ، والتوت وصناعة الحرير فى الجنوب حول غرناطة (٣) • هذا زيادة على المراعى الواسعة التى ربيت فيها قطعان الماشية للاستفادة من أصوافها وألبانها ولحومها • وقد صحب هذا النشاط الزراعى فى الأندلس اهتماما كبيرا بالرى ووسائله ، اذ أدخل العرب فى أسبانيا نظامهم فى الرى الذى لم يصل الأسبان الى مثله من قبل ولا من بعد (٤) ، حتى أن كثيرا من المصطلحات المستخدمة فى الزراعة والرى فى أسبانيا الحديثة ما زالت حتى اليوم تحمل أسماء عربية أو ذات أصل عربى (٥) • أما المدن فقد أصبحت مراكز لنشاط تجارى وصناعى واسع ، اذ كان يتم فيها تصـنيع وبيع وشراء الجزء الأكبر من المحاصيل الزراعية • وكانت أهم الصناعات

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 429.
(2) Dozy : op. cit. pp. 227-228 & 232.
(3) Diehl, Marcais : op. cit. p. 407.
(٤) لين بول : العرب فى اسبانيا ص ١٢٢ •
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 432.

صناعة المعادن والخزف والزجاج والمنسوجات القطنية والكتانية والحديدية ، فضلا عن التطريز . وقد اشتهرت قرطبة بصناعة الخزف الفخار كما اشتهرت بالجلود التي نسبت اليها ، في حين عرفت طليطلة بالسيوف والأسلحة (١) .

والواقع أن قرطبة بلغت درجة كبيرة من الازدهار في العصر الاسلامى بعد أن أصبحت مركزا تجاريا وصناعيا وعلميا عظيما ، بالاضافة الى أهميتها السياسية والدينية بوصفها عاصمة الخلافة الأموية بالأندلس . ذلك أن المسلمين أدركوا أهمية موقعها ومميزاتها التى تفوق تلك التى تمتعت بها طليطلة - عاصمة القوط الغربيين - فاتخذوها حاضرة لهم ، وأقاموا فيها القصور والمساجد والأسواق ذات الفن العربى الرفيع ، والتى مازال بعضها باقيا حتى اليوم يشهد على عظمة حضارة العرب فى الأندلس . وقد أجمع المؤرخون على أنه لم توجد مدينة أخرى معاصرة فى أوربا - خلاف القسطنطينية - بلغت ما بلغته قرطبة فى العصر الاسلامى من تقدم الحضارة ورخاء الحياة (٢) . ذلك أن عدد سكانها أصبح يتراوح بين مليون ونصف مليون ، وبلغ عدد منازلها مائتى ألف ومساجدها ثلاثة آلاف وحماماتها العامة ثلاثمائة ، حتى طارت شهرتها بعيدا الى جوف ألمانيا فذكرتها الراهبة الألمانية هورسويثا Horswitha فى شعرها وأطلقت عليها اسم « جوهرة الدنيا » (٣). ويكفى قرطبة فخرا فى العصر الاسلامى أن أهلها كانوا يستطيعون السير فى طرقاتها بعد غروب الشمس فى ضوء المصابيح العامة ، فى حين ظلت لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد بها مصباح عام واحد يضىء ظلمة شوارعها(٤). وسرعان ما غدت قرطبة مركزا للشعراء والأدباء والعلماء ، وبخاصة منذ عهد الحكم المستنصر الذى أرسل فى شراء أمهات الكتب من القاهرة وبغداد

---

(1) Draper : A Hist. of the Intellectual Development Vol, 2, p. 29.

(٢) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٢٠ .

(3) Dozy : op. cit. p. 446.

(4) Draper : op. cit. Vol, 2, p. 29.

ودمشق والاسكندرية ، فاذا تعذر شراؤها أرسل من يقوم بنسخها واحضارها الى قرطبة ، حتى أصبحت مكتبة قصر الخليفة تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد . وقد صحب هذا النشاط العلمى ازدياد عدد المدارس ، وعلى رأسها يأتى مسجد قرطبة الجامع الذى انشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٤ وأتمه ابنه هشام سنة ٧٩٣ ، ثم أصبح بمثابة جامعة علمية ضخمة من الطراز الأول تدرس فيها جميع أنواع المعرفة من علوم دينية كالفقه والحديث والشريعة الى الأدب شعرا ونثرا الى علوم بحتة كالطب والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة . وهكذا قصد قرطبة طلاب العلم من مختلف الجهات حتى أخذت تنازع بغداد مكانتها كأعظم مركز للنشاط الفكرى فى العالم الاسلامى (١) . وقد اشتهر من علماء الفقه واللغة فى جامعة قرطبة أبو علي القالى وأبو بكر بن معاوية القرشى وابن القوطية (٢) ومن علماء الطب والجراحة أبو الطيب خلف وابن زهر ، ومن علماء النبات ابن البيطار ومن الفلاسفة ابن رشد .. وغير هؤلاء كثيرون (٣) .

على أنه ينبغى أن ندرك أن التعليم فى الأندلس لم يقتصر على قرطبة وجامعتها ، بل انتشر التعليم الأول فى جميع أنحاء الأندلس فى ظل الحكم الاسلامى حتى كاد ينمحى الجهل بين الناس ، وأصبح كل فرد يعرف القراءة والكتابة فى الوقت الذى ظل الجهل فاشيا فى جميع بلاد غرب أوربا المسيحية ، حتى بين أرقى الطبقات وذوى المناصب السامية ، بحيث لم يعرف القراءة والكتابة سوى قلة معظمها من رجال الدين (٤) . ومع ذلك فقد ظن الخليفة الحكم المستنصر أن التعليم فى بلاده أقل مما يجب أن يكون عليه ، فأنشأ فى قرطبة سبعا وعشرين كتابا لتعليم أبناء الفقراء بالمجان على حسابه الخاص (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, pp. 434-435.
(2) Dozy : op. cit. p. 455.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(4) Dozy : op. cit. p. 45?.
(5) Ibid.

التوسع المسيحي في الأندلس :

ولكن فتح المسلمين لأسبانيا واستقرارهم فيها على حساب الشعوب المسيحية كان أمرا لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوربا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى بلاد غرب أوربا التي وصلتها المسيحية ، وأصبحت تحتل مكانة ظاهرة في العالم المسيحي الغربي بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون اليها من مختلف أنحاء غرب أوربا . لذلك ظلت القوى المسيحية في غرب أوربا تعمل منذ وقت مبكر على استرداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحي ، وحسبنا ما كان من أمر شارلمان وحروبه الأسبانية التي خلدها الأدب في أنشودة رولان الشهيرة . ولكن يبدو أن استقرار المسلمين في الأندلس وازدياد قوتهم من جهة ، واضطراب أحوال أوربا بعد شارلمان من جهة أخرى حال دون قيام العالم المسيحي الغربي بجهد جدي شامل ضد المسلمين في الأندلس في القرنين التاسع والعاشر ، بحيث لم يتعد الأمر بعض الاشتباكات بين المسلمين في الأندلس والممالك المسيحية في شمال أسبانيا (١) .

ثم كان أن أخذت عوامل الضعف تسرى حثيثا في جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادي عشر ، حتى أن وفاة الملك المنصور سنة ١٠٠٢ تعتبر نهاية المرحلة التي وصلت فيها تلك الخلافة أقصى درجات عظمتها وقوتها ، بحيث لم تنته سنة ١٠٣١ الا كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت فعلا (٢) . وهنا نلاحظ أمرين مهمين : الأول هو انحلال النفوذ السياسي للمسلمين في الأندلس في أوائل القرن الحادي عشر لا يعني بأي حال تدهور نفوذهم الحضاري بالسرعة نفسها ، بل أن حضارة العرب الفكرية لم تبلغ ذروتها في الأندلس الا في النصف الأخير من القرن الثاني عشر على عصر فيلسوف الأندلس الذائع الصيت ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨) (٣) ، وهو

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 427.
(2) Dozy : op. cit. pp. 589-592.
(3) Eyre : op. cit, pp. 295-296.

العصر الذى اشتد فيه أيضا اقبال الأوربيين على ترجمة علوم المسلمين ونقلها من أسبانيا الى مختلف أنحاء الغرب الأوربى (١) • أما الأمر الثانى فهو أنه فى الوقت الذى أخذ الانحلال السياسى يدب فى جسم الدولة الاسلامية بالأندلس ، دخل غرب أوربا مرحلة جديدة من مراحل تاريخه ، هى مرحلة اليقظة والافاقة التى بدأت منذ القرن الحادى عشر ، بعد أن انكشفت غمة العصور المظلمة وزالت معظم الأخطار العديدة التى ظلت تهدد الغرب الأوربى طوال الشطر الأول من العصور الوسطى ، وبدأت تتفتح أمام الغرب آفاق جديدة بدت واضحة فى النشاط الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى والتنظيم السياسى (٢) • وبعبارة أخرى فان الغرب الأوربى أخذ ينهض من سباته فى الوقت نفسه الذى بدأت دولة المسلمين فى أسبانيا تتعرض للانحلال والتفكك ، مما أتاح الفرصة أمام المسيحية الغربية لاسترداد هذا الجزء الضائع من صميم الوطن الغربى •

وقد ظهر اتجاه يرمى الى حث نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين بالأندلس منذ أوائل القرن الحادى عشر ، عندما تبنى هذا الاتجاه أحد الرهبان الكلونيين • وفى ذلك الوقت كانت الكنيسة تسعى جاهدة لوقف الحروب بين الأمراء واقرار السلام ، فلم تجد وسيلة خيرا من أن توجههم نحو حرب المسلمين ، فى حين رأى رهبان الأديرة الكلونية فى ذلك فرصة طيبة لنشر نظامهم الديرى فى أسبانيا وتدعيمه ماديا ومعنويا • وكان أن صادفت هذه الدعوة قبولا فى نفوس كثير من الأمراء المغامرين ، فنزح بعضهم الى أسبانيا سنة ١٠١٨ ومعهم أتباعهم لحرب المسلمين • وفى سنة ١٠٣٣ توجهت الى أسبانيا جماعة أخرى بقيادة بعض أمراء برجنديا • ثم تكرر تدفق هذه الجموع الصليبية على أسبانيا سنة ١٠٦٣ وسنة ١٠٧٣ حتى كانت سنة ١٠٨٥ ، وهى السنة التى شهدت وصول قوة ضخمة الى أسبانيا بزعامة بعض الأمراء البرجنديين وكونت تولوز (٣) •

---

(1) Barker : The European Inheritance; Vol. 1, p. 377.
(2) Eyre : op. cit. pp. 128-129.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 193.

ومن الواضح أن المسلمين فى الأندلس لم يستطيعوا مطلقا فى وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه الجزيرة ، وانما ظلت بعض الجهات - وبخاصة فى الشمال - خارجة عن النفوذ الاسلامى ، فقامت بها دويلات مسيحية مستقلة . وفى الوقت الذى سقطت الخلافة الأموية فى قرطبة كانت هناك أربع دويلات مسيحية فى شمال أسبانيا ، هى مملكة ليون ومملكة نافارى (نواره) وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة (١). وكانت الزعامة فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر بين هذه الدويلات المسيحية فى أسبانيا لمملكة نافارى ، التى أخذ ملكها سانشو (شانجة) ٩٧٠ - ١٠٣٥ Sancho ، يوجه جهوده ضد جيرانه المسيحيين بدلا من المسلمين حتى اتخذ لقب امبراطور ، واستطاع قبل وفاته أن يسيطر على جميع أسبانيا المسيحية ما عدا المارك الأسبانى (٢) . وقد تقاسم أبناؤه هذه المملكة بعد وفاته فأخذ فردناند الأول مملكة قشتالة ، وأخذ أخوه راميرو Ramiro المنطقة الجبلية التى اتسعت بعد ذلك وأصبحت نواة لمملكة أرغونة ، كما امتدت فى عهد ملكها ألفونس الأول تجاه وادى نهر ابرو على حساب أمراء سرقسطة (٣) . ولم يلبث فردناند الأول ملك قشتالة أن ضم اليه مملكة ليون القديمة وأخذ يتوسع بسرعة فى حوض نهر دورو حتى أسس قبل وفاته - سنة ١٠٦٥ - امارتين تابعتين له هما كونتية أوبورتو Oporto وكونتية مونديجو Mondego (٤) . على أن التوسع المسيحى فى أسبانيا لم يبلغ درجة خطيرة تسترعى الانتباه الا فى عهد ألفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ - ١١٠٩) الذى أوغل فى وادى نهر تاجة وأخذ يتأهب للاستيلاء على طليطلة . ويبدو أن ألفونس السادس تخوف فى أول الأمر من الاشتباك فى حرب علنية مع أمير طليطلة ، ولكنه تشجع عندما وجد حليفا قويا فى شخص أمير أشبيلية المسلم (٥) . وهكذا شغل الأميران المسلمان بالحرب فيما بينهما وتركا

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 466.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 428.
(3) Chapman : A Hist. of Spain p. 58.
(4) Tout : The Empire and the Papacy p. 367.
(5) Cam Med. Hist, Vol, 6, p. 367.

الجو خاليا لألفونس السادس حتى يستولى على أطراف نهر تاجه ويصبح سيد مدريد ، عاصمة أسبانيا الحديثة . وقد استمر ألفونس فى توسعه حتى سقطت طليطلة نفسها فى يده سنة ١٠٨٥ ، وبذلك خسر المسلمون معقلا من أعظم معاقلهم فى الأندلس (١) . وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، على الرغم من أن ألفونس السادس لا يستطيع أن يفخر بأنه استولى عليها بفضل شجاعته وقوة سلاحه ، اذ سقطت المدينة فى الواقع نتيجة لمساومة سياسية بين القشتاليين وحاكمها المسلم (٢) .

وهنا نسجل ظاهرة بدت واضحة فى حروب ألفونس السادس ومحالفاته حتى ذلك الوقت ، وهى أن تلك الحروب والمحالفات غلب عليها طابع التوسع السياسى ، وبعبارة أخرى لم تتحكم فيها أو تسيطر عليها روح التعصب الدينى فى تلك المرحلة الأولى (٣) ، بل ان أشهر جنود ألفونس السادس ـ وهو السيد القمبياطور (٤) ـ الذى يميل القصص الى تصويره فى صورة الصليبى المدافع عن المسيحية ، لم يكن فى الواقع الا مغامرا شجاعا عديم المبدأ ، لم يتردد فى بيع خدماته للمسيحيين والمسلمين سواء .

ومهما يكن من أمر فان سقوط طليطلة فى أيدى المسيحيين أثار شعور المسلمين الذين هزتهم الصدمة وانتابتهم بسببها المخاوف ، وأخذوا يفكرون

---

(1) Chapman : op. p. 72.
(2) Watts : Spain. p. 66.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 467.

(٤) اسمه الأصلى لذريق (Rodrigo) ولد فى برغش قرب حاضرة قشتالة فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ودخل فى خدمة الفونس السادس وأبلى بلاء حسنا فى حرب المسلمين . ولكن حساد لذريق أوغروا صدر الفونس ضده فطرده . وعندئذ لم يتردد فى الدخول فى خدمة المسلمين ، وظل على ذلك يتقلب بين الجانبين أكثر من مرة . وقد أسماه المسلمون السيد ، أما القمبياطور فمعناه البطل المبارز . وأهم المعارك الحربية التى اشترك فيها معركة بلنسية سنة ١٠٧١ ، كما حاصر بلنسية واستولى عليها سنة ١٠٩٤ ونكل بأهلها المسلمين تنكيلا قاسيا . وأخيرا كانت وفاته سنة ١٠٩٩ .
انظر : (Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 400-401.

فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من جهة واسترداد ما فقدوه من أراض وبلاد من جهة أخرى • ولم يتردد ملوك الطوائف فى هذا الموقف من الاستعانة بالمرابطين فى شمال أفريقية ، وهم أقرب قوة اسلامية يمكنها أن تنتشل مسلمى أسبانيا من الهوة التى انحدروا اليها (١) • واذا كان يوسف بن تاشفين ملك المرابطين قد تردد أول الأمر فى قبول الدعوة ، الا أنه عاد فعبر مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس عدد ضخم من رجاله البربر الأشداء الذين اجتاحوا الأندلس (٢) • وكان ألفونس الســادس يحاصر سرقسطة عندما بلغه خبر وصول المرابطين ، فترك الحصار واتجه جنوبا لمواجهة هذا الخطر الجديد ، فى حين أمده ملك أرغونة ونافارى بامدادات قوية لتدعيم الجبهة المسيحية (٣) • وعندما التقى الفــريقان فى موقعة الزلاقة (أكتوبر سنة ١٠٨٦) نزلت الهزيمة ساحقة بالقشتاليين ففر ألفونس السادس فى شرذمة قليلة من جنده تاركا خلفه بضعة آلاف من القتلى والأسرى (٤) •

ولم تلبث أن أتيحت الفرصة من جديد لألفونس السادس ، وذلك بعد عودة يوسف بن تاشفين الى شمال افريقية من جهة ، وتجدد الخلاف بين المسلمين فى الأندلس من جهة أخرى • ذلك أن ملوك الطوائف – مع ضعفهم – عز عليهم أن يخضعوا للملك من ملوك البربر ، فى حين سخر الأندلسيون من جهل المرابطين وضعف مستواهم الحضارى • ويبدو أن يوسف بن تاشفين أدرك حقيقة أمر ملوك الطوائف بعد أن وجد علاقاتهم بعضهم مع بعض من جهة ومعه من جهة أخرى تقوم على أساس من الخيانة والغدر وعدم الثقة • لذلك انتهز ابن تاشفين فرصة استنجاد ملك أشبيلية به ضد هجمات المسيحيين سنة ١٠٩٠ ليشن حربا على ملوك الطوائف المسلمين فضلا عن القشـــتاليين المسيحيين (٥) • ولم يلبث المرابطون أن استولوا على الأندلس الاســـلامية

---

(1) Dozy : op. cit. pp. 694-695.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 398-399.
(3) Watts : op. cit. p. 67.
(4) Chapman : op. cit. pp. 70-71 & Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 393.
(5) Watts : op. cit. pp. 68-69.

بأجمعها ـ ما عدا بلنسية وطليطلة ـ عند نهاية القرن الحادى عشر • ثم سقطت بلنسية فى أيديهم سنة ١١٠٢ عقب وفاة السيد القمبياطور الذى استمر يدافع عنها حتى وفاته سنة ١٠٩٩ ، وبذلك لم يبق خارج سلطة المرابطين سوى طليطلة (١) • وفى تلك الأثناء كان ألفونس السادس قد انتهز فرصة انشغال ابن تاشفين فى القضاء على نفوذ ملوك الطوائف واستولى على لشبونة بعد أن اجتاح وادى نهر تاجه من طليطلة حتى البحر • ولكن لم يكد يوسف بن تاشفين يفرغ من أمر الأندلسيين حتى عاد الى ألفونس فطرده من لشبونة وبقية الجهات التى استولى عليها فى الفترة الأخيرة ، وبذلك لم يستطع ألفونس الثبات والمقاومة الا فى طليطلة • وأخيرا توفى يوسف بن تاشفين سنة ١١٠٦ فى حين لحق به ألفونس السادس (١١٠٨ ـ ١١٠٩) (٢) •

ويبدو أن وفاة يوسف بن تاشفين لم تؤثر كثيرا فى الموقف بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، اذ لم يستطع المسيحيون استغلال هذه الفرصة بسبب الخلافات الحادة بين قشتالة وليون • على أن المرابطين أنفسهم سرعان ما اعتراهم الوهن نتيجة لانحلال أخلاقهم فى بيئتهم الجديدة المترفة ، ففقدوا فى الأندلس صفات البربر الأولى وصبرهم على المشاق والقتال (٣) ، وجرفهم تيار الرذيلة فى طريقه حتى أصبحوا وليست لهم صناعة الا معاقرة الخمر ومصاحبة النساء وقطع الطرق ونهب المدن ، بل حرقها كما فعلوا سنة ١١٣٣ بقرطبة وأشبيلية وقرمونة (٤) • وعلى الرغم من اشتداد الصراع بين الدولة المسيحية فى أسبانيا عندئذ ـ أى بعد وفاة ألفونس السادس ـ فان المرابطين لم يستطيعوا انتهاز الفرصة لتحقيق مكاسب جديدة بسبب ما وصلوا اليه من ضعف (٥) •

---

(١) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٦٢ ـ ١٦٣ •
(2) Tout : The Empire and the Papacy : p. 469.
(3) Cam. Med. Hist., Vol, 6, p. 405.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٦٥ ـ ١٦٦ •
(5) Dozy : op. cit. p. 724.

ولم تلبث أن عصفت الأحوال بشمال أفريقية عندما ثارت قبائل أطلس (١١٢١ - ١١٢٥) لتقضى على دولة المرابطين وتقيم محلها دولة الموحدين(١)، وبعد أن تمت للموحدين السيادة على شمال أفريقية فكروا فى ضم الأندلس بوصفهم ورثة المرابطين فى ملكهم ، فعبروا الى اسبانيا سنة ١١٤٦ واستولوا على أشبيلية ومالقة ثم على قرطبة بعد أربع سنوات ، حتى دانت لعبد المؤمن - قائد الموحدين - معظم بلاد الأندلس الاسلامية (٢) • على أن الموحدين لم يتخذوا الأندلس قاعدة لحكمهم ، وانما اكتفوا بارسال نواب ينوبون عنهم فى حكم البلاد فى حين بقى ملوك الموحدين بشمال أفريقية ليرسلوا الجند بين حين وآخر كلما اشتد خطر المسيحيين على أملاكهم فى أسبانيا (٣) •

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون قد وجدوا بطلا جـديدا فى شخص ألفونس الأول ملك أرغونة، الملقب بالمحارب (The Warrior, The Battler) والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه المملكة (١١٠٤ - ١١٣٤) • وبعد أن استطاع ألفونس الأول أن يسترد لأرغونة عاصمتها الطبيعية - سرقسطة - سنة ١١١٨ (٤) ، أخذ يشن غاراته فى جوف بلاد الأندلس الاسلامية • وكان يعود من تلك الغارات مصطحبا معه كثيرا من المستعربين - وهم المسيحيون الذين خضعوا لحكم المسلمين وتأثروا بهم - ليعيشوا وسط اخوانهم المسيحيين فى الشمال • وأخيرا توفى ألفونس الأول أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤ ، بعد أن أصبحت أرغونة ثانية ممالك أسبانيا المسيحية بعد قشتالة (٥) • ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها ، اذ استطاع ريموند برنجار الرابع كونت برشلونة أن يغزو طرطوشة (Tortosa) سنة ١١٤٨ (٦) • أما فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة فقد اتحدت كونتية أبورتو مع غيرها من الكونتيات القريبة

---

(1) Idem : p. 725.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 6. p. 407.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٨٤ •
(4) Watts : op. cit. p. 105.
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.
(٦) عند مصب نهر ابرو على الجانب الشرقى لأسبانيا •

المجاورة لتكون منها جميعا كونتية البرتغال سنة ١٠٥٩ (١) . وكان أشهر حكام هذه الكونتية الأخيرة ألفونس الأول (Alffonso Henriquez) المؤسس الحقيقي لعظمة البرتغال ، والذى أوغل سنة ١١٣٩ داخل الأراضى الاسلامية خلف نهر تاجة وأحرز عدة انتصارات مكنته من اتخـــاذ لقب « ملك البرتغال » فى العام التالى (٢) . وقد استعان ألفونس الأول هذا سنة ١١٤٧ بأسطول صليبى يحمل جماعة من الانجليز والفلمنكيين والألمان الى الأراضى المقدسة للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية ، وبمساعدة هـــذا الأسطول تمكن من طرد المسلمين من لشبونة التى أصبحت من ذلك الحين عاصمة المملكة البرتغالية الناشئة (٣) .

وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية على المشرق والأراضى المقدسة، بل شمل أيضا المغرب وأسبانيا (٤) ، فأخذ الصليبيون الوافدون من انجلترا وألمانيا يساهمون فى فتح لشبونة ، كما اشترك الصليبيون الفرنســيون فى مساعدة ريموند برنجار كونت برشلونة وبروفانس . هذا فى حين مـــد فرسان الداوية والاسبتارية نشاطهم الى وادى نهر أبرو بأسبانيا فضلا عن الشام. ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لها مركزا سنة ١١٤٩ فى أسبانيا ، حيث كونوا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من جهة ولحرب المسلمين من جهة أخرى . ثم تكاثرت بعد ذلك فى أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية مثل هيئة القديس جوليان التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ ، والتى اتخذت بعد ذلك — سنة ١٢١٨ — اسم منظمة القنطرة ، بعد أن استولى المسيحيون على هذه البلدة الواقعة على نهر تاجه ونقلوا اليهـــا نشاطهم (٥) . ولم تتردد البابوية فى تشجيع هذه المنظمات التى قامت فى أسبانيا بنفس الدور الذى قامت به الاسبتارية والداوية والتيتون فى الأراضى

---

(1) Stephenson : Portugal, pp. 18-19.
(2) Chapman : op. cit. p. 76.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 248.
(5) Tout : The Empire and the Papacy. p. 471.

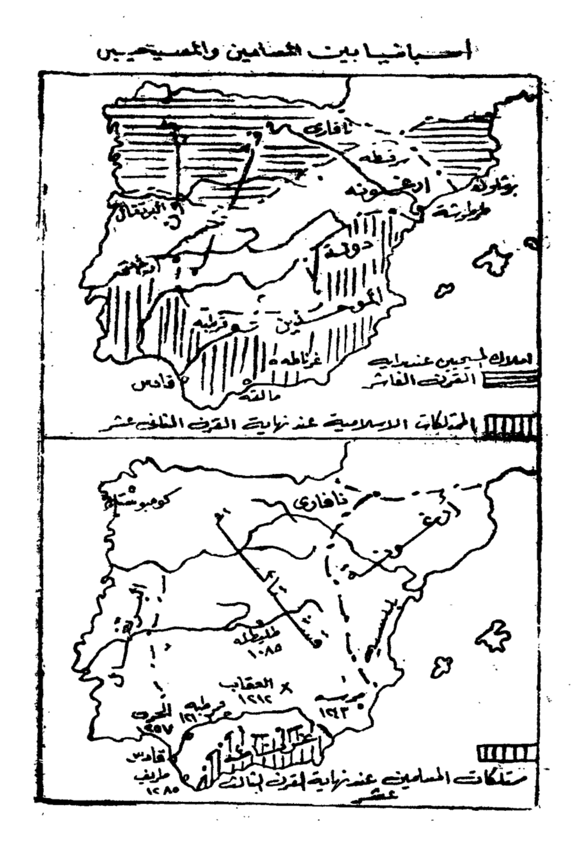
المقدسة ، بل ان البابا اسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث لهما الفضل فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا ، وهى منظمة سنتياجو Santiago (سنتياغو) • وبفضل تكاثر هذه الهيئات وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين فى حرب الأندلسيين ، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليجعلها حربا صليبية مقدسة لا تقل أهمية فى نظر الغربيين المعاصرين عن الحروب الصليبية الدائرة فى المشرق (١) • وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا لم يعد فيه هذا الصراع مجرد حروب محلية متفرقة بين زعماء الفريقين ، وانما أصبح صراعا عاما شاملا بين حضارتين متباينتين ، وديانتين مختلفتين ، ظلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون (٢) •

•

وفى تلك الحرب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة منذ البداية ، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة فى موقعة الأرك (Alarcos) سنة ١١٩٥ (٥٩١هـ) ، وهى الموقعة التى انتهت بمقتل آلاف من المسيحيين وحصول الموحدين على أعداد من الأسرى وكميات من الغنائم لاحصر لها (٣)• ويبدو أن هذه الضربة كان لها أثرها فى وقف تقدم المسيحيين ، هذا فضلا عن أثر الحروب المستمرة بين ليون وقشتالة ونوارة (نافارى) وأرغونة (أراغون) فى أواخر القرن الثانى عشر • والواقع أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى سبق أن أشرنا الى عظمة البابوية فى عهده ، كان صاحب الفضل فى اثارة الحماسة الصليبية فى أسبانيا وتشجيع جماعات عديدة من أهالى البلاد الغربية على عبور جبال البرانس (البرت) للمشاركة فى

---

(1) Chapman : op. cit. pp. 94-96.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 409.


اسبانيا بين المسلمين والمسيحيين
نافاري
برشلونة
البرتغال
قرطبة
غرناطة
قادس
مالقة
الموحدين
املاك المسيحيين عند نهاية القرن العاشر
الممتلكات الاسلامية عند نهاية القرن الثاني عشر
كومبوستلا
نافاري
طليطلة
١٠٨٥
العقاب
١٢١٢
قرطبة
١٢٣٦
١٢٤٣
قادس
طريف
١٢٨٥
ممتلكات المسلمين عند نهاية القرن الثالث عشر

الحرب المقدسة ضد المسلمين (١) • وفى ذلك الوقت كان ألفونس التاسع (١١٥٨ — ١٢١٤) ملك قشتالة يسعى فى أواخر عهـــده لتحقيق بعض الانتصارات الكفيلة بمحو الهزيمة التى حلت به فى موقعة الأرك • وعندما أعلن البابا الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس اجتمع فى أسبانيا عدد كبير من فرسان أوربا تحت زعامة رئيس أساقفة باريون (٢) • ويبدو أن هؤلاء الصليبين الذين اجتمعوا فى طليطلة لم يجدوا أول الأمر ما يفعلونه لاشباع حماستهم الصليبية سوى ذبح يهود المدينة فى صورة وحشية (٣) • وكانت سياسة البابا أنوسنت الثالث عندئذ ترمى الى حشد القوى المسيحية ضـــد المسلمين ، فأخذ يحث ملك أرغونة وملك نافارى (نواره) على مشـــاركة ألفونس التاسع ملك قشتالة فى حربه المقبلة ضد المسلمين ، وبذلك لم يتخلف عن هذه الحرب سوى ملك ليـــون • وأخيـــرا دارت موقعة العقـــاب (Les Navas de Tolosa) الشـــهيرة ســـنة ١٢١٢ (٦٠٩ هـ) بين الحلفاء المسيحيين وجيش الموحدين (٤) • وفى هذه الموقعة حلت الهزيمة بالموحدين ، فلم تقم لهم قائمة بالأندلس بعد ذلك ، وأخذت المدن الاسلامية تتساقط فى أيدى المسيحيين واحدة بعد أخرى ، بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة (٥) •

ذلك أن جيمس الأول (جايم) ملك أرغـــونة (١٢١٣ — ١٢٧٦) وفردناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ — ١٢٥٢) أكملا العمل الذى بدأه ألفونس التاسع ، فاستولى الأول على بلنسية سنة ١٢٣٨ وبذلك وصلت مملكة أرغونة الى حدودها التى ظلت عليها حتى زوالها كوحدة سياسية مستقلة ، فى القرن الخامس عشر (٦) • أما الثانى ، وهو فردناند الثالث ملك قشتالة

(1) Orton : op. cit. p. 261.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 195.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 472.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 410.
(٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٨٤ •
(6) Chapman : op. cit. pp. 81-82.

– الملقب بالقديس – فقد استطاع ان يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠ ، وبعد ذلك فتح قرطبة – مقر خلفاء بنى أمية بالأندلس فى سالف الزمان – سنة ١٢٣٦ وحول مسجد قرطبة الجامع الى كندرائية (١) • وفى سنة ١٢٤٤ استولى فردناند الثالث على أشبيلية ، كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠ وبذلك وصل الى شاطىء الأطلنطى ، فى حين استولى خليفته الفونس العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦ بمساعدة جيمس (جايم) الأول ملك أرغونة (٢) • هذا فى الوقت الذى وصلت البرتغال سنة ١٢٦٢ الى حدودها الحديثة بعد أن انتزعت اقليم الجرف (الغرب) من المسلمين • وهكذا لم يبق للعرب فى اسبانيا سوى مقاطعة غرناطة – بين جبال نيفادا وساحل البحر – وفى هذه الرقعة الضيقة قدر لهم أن يعيشوا فترة أخرى بلغت نحو قرنين ونصف من الزمان (٣) •

التطورات السياسية فى أيبريا أواخر العصور الوسطى :

يبدو لنا من العرض السابق للصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس أن منتصف القرن الثالث عشر يمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ أسبانيا (٤) • ذلك أن طرد العرب من معظم بلادهم فى الأندلس ، واقتصار نفوذهم على منطقة غرناطة الحصينة فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة، أوجد أمام ملوك أسبانيا وأمرائها المسيحيين مشكلة جديدة ، هى مشكلة سد الفراغ الواسع الذى تركه العرب خلفهم ، وتنظيم هذه الأسلاب والبلاد الفسيحة تنظيما يتفق مع أطماع كل منهم من جهة ، وأغراض الكنيسة من جهة أخرى (٥) • وهنا نلاحظ أن المسيحيين أخذوا ينتشرون تدريجيا من شمال شبه الجزيرة الى الجهات الوسطى والجنوبية منها • وشارك فى هذه الهجرة الى أراضى أسبانيا المستردة من المسلمين بعض أهالى بلاد غرب

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 478.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 415.
(٣) لين بول : العرب فى اسبانيا ص ١٨٥ •
(4) Lodge : The Close of the the Middle Ages, p. 468.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 567-568.

أوربا ، وبخاصة جنوب فرنسا التى نزحت منها أعداد كبيرة لتستوطن أسبانيا . أما الهيئات الدينية العسكرية التى أبلت بلاء حسنا فى حرب المسلمين فقد فازت هى الأخرى بنصيب الأسد من الغنيمة والأراضى (١) .

ولعل أبرز ما يميز الحياة العامة فى أسبانيا المسيحية بعد طرد العرب الى معقلهم فى أقصى الجنوب ، أن الروح الدينية طغت على تصرفات العامة والخاصة من الأفراد ، بل على كل مظاهر الحياة فى البلاد . ذلك أن الأمر لم يقف عند حد التعصب الدينى الذى دفع المسيحين الى احراق آثار العرب العلمية والفنية ، وهدم بعض المنشآت العامة النافعة التى أفادت منها البلاد ، بل ظهر أثر النفوذ الدينى أيضا فى السلطة العظيمة والثروة الواسعة التى صارت لرجال الكنيسة فى البلاد (٢) ، حتى لجأ ملوك أسبانيا الى الحصول على اعتراف بمكانتهم من البابوية حتى يطمئنوا الى سلامة كيانهم فى بلادهم بفضل التأييد الدينى .

ويلاحظ عند دراسة الخطوط العريضة للتاريخ الأسبانى أن هذا التاريخ اتخذ طابعا جديدا بعد استرداد شبه الجزيرة - أو معظمها - من المسلمين . ذلك أن التطور الداخلى فى ممالك أسبانيا الرئيسية الثلاث - وهى قشتالة وأرغونة والبرتغال - أخذ يسير فى الاتجاه نفسه الذى سلكته بقية الممالك الأوربية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى . ولتفسير ذلك يصح أن نلقى نظرة عاجلة على كل مملكة من هذه الممالك الأسبانية الثلاث فى تلك الفترة .

مملكة قشتالة :

أما قشتالة فقد أضحت منذ اتحادها مع ليون سنة ١٢٣٠ أعظم ممالك أسبانيا وأكبرها . ومن الواضح أن نشأة قشتالة ارتبطت فى التاريخ بالحرب

---

(1) Tout : The Empire and The Papacy, p. 474.
(2) Chapman : op. cit. pp. 164-165.
(3) Lodge : op. cit. p. 469.

الدينية التى نشبت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، مما أثر أثرا واضحا فى دستورها ونظمها . فالملوك وصلوا الى مكانتهم كقادة حربيين لا كزعماء سياسيين ، ومن ثم ظلت هذه الصفة غالبة عليهم ، والنبلاء والمدن تمتعوا بقسط وافر من الاستقلال الذاتى حتى يتسنى لهم مواجهة أى خطر مفاجىء من جانب أعدائهم المسلمين ، ورجال الكنيسة حظوا بنفوذ واسع نظرا لأنهم كانوا مسئولين عن الهام الشعور الدينى لمواصلة الحرب ضد أعداء الدين (١). وكان لقشتالة مجلس وطنى (Cortes) يتألف من ثلاث طبقات ، هى طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء وطبقة أهالى المدن . على أن العامل الأساسى الذى حد من نفوذ الملكية لم يكن هذا المجلس الوطنى بقدر ما كان قوة كبار النبلاء الذين أصبحوا أشبه بأمراء مستقلين فى ضياعهم ، يعتمدون على أتباعهم فى مواصلة الحروب التى قد تنشب فيما بينهم ، أو بينهم وبين الملك . أما المدن فى قشتالة فقد ألفت نفسها فى حاجة الى تأليف أحلاف عسكرية Hermandad للمحافظة على حقوقها من جهة ولمقاومة خطر كبار النبلاء من جهة أخرى(٢) . ولعله من حسن حظ الملكية فى قشتالة أن يؤدى التنافس وتعارض المصالح بين مختلف الفئات والطبقات الى عدم اتحادها لتكون جبهة موحدة ضد الملك(٣) .

وكان أبرز ملوك قشتالة فى القرن الثالث عشر هو ألفونس العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) الذى يميل بعض المؤرخين الى اعتباره من أعظم ملوك أوربا المعاصرين قاطبة ، حتى وضعوه على قدم المساواة مع لويس التاسع وفردريك الثانى وادوارد الأول(٤) . وقد اكتسب ألفونس العاشر فى التاريخ لقب « الحكيم » (The Wise) وذلك لسعة اطلاعه وحسن تذوقه للأدب والشعر والتاريخ ، زيادة على مهارته فى التشريع(٥) . واذا كان قد تم فى عهد

(1) Chapman : op. cit. p. 85.
(2) Idem : p. 92.
(3) Lodge : op. cit. p. 470.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 475.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 569.

الاستيلاء على مرسية بمساعدة أرغونة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ الا أنه سرعان ما ترك حرب المسلمين ووجه جهوده نحو الفوز بلقب الامبراطورية أثناء فترة الشغور المعروفة في التاريخ الألماني (١) • أما الفترة الأخيرة من حكمه والتي امتدت الى عصر خليفته شانجة الرابع (سـانشو Sancho) ١٢٨٤ ـ ١٢٩٥ ، ثم فردناند الرابع (١٢٩٥ ـ ١٣١٢) فأهم ما كان فيها النزاع بين الأبناء حول الاستئثار بعرش قشتالة ، فضلا عن الحرب بين كبار النبلاء (٢) •

ولعل هذه الفوضى التي أمست فيها قشتالة جاءت عاملا مشجعا للمسلمين على محاولة استرداد نفوذهم المفقود في الاندلس • وكانت الدولة التي قنع المسلمون باقامتها في غرناطة هي دولة بني نصر ، التي عرف مؤسسها ابن الأحمر (٣) بقوة المراس • وهكذا اقتصر نفوذ العرب على منطقة غرناطة فانصرفوا ـ كعادتهم ـ الى النشاط الحضاري ومباشرة الشـئون العلمية والزراعية • ومازال قصر الحمراء (٤) ، بهندسته الرائعة وزخارفه الفائقة يشهد على عظمة حضارة العرب ، حتى في تلك الحقبة الأخيرة من تاريخهم في الأندلس • على أن ضعف قشتالة في أوائل القرن الرابع عشر لم يلبث أن حرك آمال المسلمين في استعادة مجدهم المفقود ، فعبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير حيث انضم اليه أمير غرناطة وبدأ المسلمون يحاصرون طريف (Tarifa) (٥) • وهنا أحست قشتالة بالخطر ، فأسرع ملكها ألفونس الحادي عشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠) الى تهدئة الموقف الداخلي في بلاده من جهة ، ومع ملك البرتغال الذي ثار عندما طلق ألفونس ابنته ليتزوج غيرها من جهة أخرى (٦) • وفي سنة ١٣٤٠ تقدم ألفونس الحادي عشر لحرب المسلمين فنجح في انزال الهزيمة بهم واستولى على بعض

(1) Barraclough : op. cit. p. 244.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 166.
(٣) محمد بن يوسف بن نصر وعرف بابن الأحمر لشقرة فيه •
(٤) سمي كذلك تبعا للون التربة التي شيد عليها •
(5) Lodge : op. cit. p. 471.
(6) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 474.

معاقلهم ، فى حين انسحب أمير فاس يجر أذيال الفشل الى أفريقية (١) .
وكان ألفونس الحادى عشر يطمع فى الاستيلاء على جبل طارق ليحول دون
وصول امدادات فى المستقبل من مسلمى أفريقية الى اخوانهم فى غرناطة .
وفعلا أخذ يستعد لحصارها عندما دهم الوباء الأسود البلاد سنة ١٣٥٠ ، مما
اضطره الى ترك الحصار ليموت بعد قليل (٢) .

وبعد وفاة ألفونس الحادى عشر خلفه فى حكم قشتالة ابنه بطرس الأول
الملقب بالقاسى (١٣٥٠ — ١٤٦٩) . واذا صرفنا النظر عن تصرفاته الشخصية
التى أكسبته هذا اللقب فى التاريخ ، فاننا نجد أهم الأعمال التى شغلت حكمه
كانت اخضاع ثورة قام بها النبلاء فى بلاده سنة ١٣٥٦ ، وعندئذ انتقم منهم
بطرس الأول أشد انتقام . ولكن يبدو أن عامة أهالى الدولة لم يكن لهم
نصيب من قسوة بطرس الأول ، وأنه اختص النبلاء واليهود وحدهم بهذه
القسوة (٣) . كذلك أدى النزاع حول وراثة عرش قشتالة فى عهد بطرس
الأول الى تدخل فرنسا وانجلترا (١٣٦٢ — ١٣٦٩) أثناء تلك المرحلة من
مراحل حرب المائة عام فى شئون قشتالة ، حتى انتهى الأمر بهزيمة بطرس
الأول وحلفائه الانجليز وانتصار غريمه هنرى وحلفائه الفرنسيين ، ومن ثم
اعتلى الأخير عرش قشتالة باسم هنرى الثانى (١٣٦٩ — ١٣٧٩) (٤) .

ولكن لم يكد هنرى الثانى يعتلى عرش قشتالة حتى وجد نفسه أمام منافسين
أقوياء أهمهم فردناند ملك البرتغال الذى ادعى أحقيته فى عرش قشتالة
بحكم كون جدته ابنة شانجة (سانشو) الرابع ملك قشـــتالة (١٢٨٤ —
١٢٩٥) (٥) .

---

(1) Watts : op. cit. pp. 182-183.
(2) Chapman : op. cit. p. 117.
(3) Lodge : op. cit. p. 472.
(4) Tout : The Hist. of England. pp. 403 — 405 & Lavisse : Hist. de France, Tome 4, Premiere Partie,. 177-181.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 573-579.

ولكن هنرى الثانى صمد أمام أعـدائه العـديدين - أرغونة ونافارى والبرتغال وانجلترا - حتى تمكن بمساعدة الفرنسيين من مهاجمة لشبونة واجبار ملك البرتغال على عقد الصلح (١) . وبعد ذلك استطاع هنرى الثانى أن يرد الجميل لفرنسا بمساعدتها أثناء حرب المائة عام ، فأرسل الأسطول القشتالى لقطع المواصلات البحرية بين انجلترا وجاسكونى (٢) .

ومع أن الحرب تجددت بعد وفاة هنرى الثانى بين قشتالة والبرتغال عندما تعرض ابنه وخليفته حنا الأول (١٣٧٩ - ١٣٩٠) لغزو البلاد البرتغالية سنة ١٣٨٥ ، الا أن الأزمة انتهت بالصلح بعد قليل . وبعد وفاة حنا الأول خلفه ابنه هنرى الثالث (١٣٩٠ - ١٤٠٦) ، الذى كان من أقدر ملوك قشتالة ، فنشر الأمن والنظام فى بلاده ووقف من النبلاء موقفا حازما (٣) . ولم يعش هنرى الثالث طويلا بسبب سوء صحته فمات سنة ١٤٠٦ تاركا ابنه حنا الثانى فى الثانية من عمره (٤) . وقد ظل حنا الثانى شطرا كبيرا من حكمه تحت الوصاية ، ومع ذلك فان أحوال قشتالة انتظمت فى تلك الفترة بفضل الوصاية الرشيدة التى قامت بها أمه على خير وجه . ولكن عندما بلغ حنا الثانى سن الرشد وباشر مهام الملك بنفسه ، ظهر سوء تصرفه وعدم كفايته ، فامتاز عهده بالثورات والمؤامرات التى تركت أثرا خطيرا فى أحوال قشتالة (٥) . ثم خلف حنا الثانى ابنه هنرى الرابع (١٤٥٤ - ١٤٧٤) الذى ورث أباه فى ضعفه وعدم مقدرته حتى لقبه رعاياه « بالضعيف » . وقد أدت سياسته فى الحكم الى مولد ثورة خطيرة سنة ١٤٦٥ ، وعندئذ عرض الثائرون تاج قشتالة على أخيه - غير الشقيق - ألفونس ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن توفى سنة ١٤٦٨ (٦) . وعندما اتجه الثائرون بعد ذلك الى أخته ايزابلا

---

(1) Chapman : op. cit. pp. 120-121.
(2) Tout : The Hist. of England, p. 415.
(3) Lodge : op. cit. p. 474.
(4) Cam. Med. Hist Vol, 7, p. 581 & Vol, 8, p. 479.
(5) Chapman : op. cit, p. 122.
(6) Lodge : op. cit., p. 477.

— شقيقة ألفونس — رفضت أن تقحم نفسها في ثورة ضد العرش ، واكتفت بأن أخذت على هنرى الرابع موثقا بأن تكون لها ولاية العهد (١) ، وبذلك هدأت الفتنة واستطاعت ايزابلا أن تتزوج في العام التالى من فرديناند وريث عرش أرغونة • وقد حاول هنرى الرابع أن ينقض العهد ويحرم أخته غير الشقيقة من ولاية العهد ، ولكنه توفى سنة ١٤٧٤ قبل أن يحقق غرضه • وهكذا استطاعت ايزابلا أن تجتاز جميع الصعاب التى واجهتها ، وأن تعتلى عرش قشتالة لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ قشتالة ، بل في تاريخ شبه جزيرة أيبريا (٢) •

مملكة ارغونة :

أما المملكة الثانية في أسبانيا المسيحية فكانت مملكة أرغونة التى تألفت من ضم ثلاثة أقاليم هى أرغونة وقطالونية وبلنسية • ويبدو أن الاتحاد بين هذه الأجزاء الثلاثة لم يكن متينا بسبب تمسك كل منها بقوانينه ونظمه وعدم رغبته في التخلى عنها في سبيل وحدة المملكة • أما سلطة الملكية في أرغونة فكانت اكثر تحديدا وأضيق أفقا منها في قشتالة ، في حين تمتع كبار النبلاء (Ricos Hombres) بنفوذ واسع جعل منهم شبه أنداد للملك (٣) • ولعل هذه الامتيازات هى التى جعلت هؤلاء النبلاء يتكاتفون ويتحدون للمحافظة عليها ، بعكس ما كان عليه نبلاء قشتالة من تفرق الكلمة وانعدام الوحدة ، حتى عبر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله « ان تفريق نبلاء أرغونة أمر لا يقل صعوبة عن توحيد نبلاء قشتالة (٤) » • وكان لأرغونة هى الأخرى مجلس وطنى (Cortes) مثلت فيه المدن منذ سنة ١١٣٣ أى قبل أن تمثل في قشتالة بأكثر من ثلاثين سنة ، وقبل أن تمثل بانتظام في انجلترا بأكثر من قرن • ولم يكن هذا المجلس عاما لكل المملكة ، وانما كان لكل اقليم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 480.
(2) Chapman : op. cit. p. 124.
(3) Watts : op. cit. p. 157.
(4) Lodge : op. cit. p. 478.

من أقاليم المملكة الثلاثة مجلس يتمتع داخل نطاق الاقليم بسلطة عليا فى النواحى القضائية والتشريعية والمالية (١) . وعندما ينعقد هذا المجلس بصفته القضائية كان يرأسه كبير القضاة (Justiciar) الذى لم يتمتع بنفوذ سياسى فى أول الأمر ، ولكنه أصبح بمرور الزمن الحكم الأول فى جميع الخلافات التى تنشأ بين الملك ورعاياه . وهكذا أصبحت لهذه الوظيفة مكانة كبرى فى أرغونة على أساس أن صاحبها حامى الحريات والتقاليد الدستورية والمدافع عنها ضد الطغيان والاستبداد (٢) .

ويلقب جيمس (جايم) الأول ملك أرغونة (١٢١٣ – ١٢٧٦) بالفاتح لأنه استولى على جزر البليار ثم على بلنسية من المسلمين . وكذلك يرجع اليه الفضل فى الاستيلاء على مرسية ، وان كان قد سلمها بعد ذلك لملك قشتالة (سنة ١٢٦٦) . وكانت أهم نتيجة لهذه الجهود التى بذلها جيمس الأول ، أن أحس خلفاؤه بنوع من الاطمئنان فى الداخل جعلهم يتفرغون لمشكلة صقلية وايطاليا .

ذلك أن بطرس الثالث Pedro III ملك أرغونة (١٢٧٦ – ١٢٨٥) كان قد تزوج من الأميرة كونستانس ابنة مانفرد ملك صقلية ووريثته ، وبذلك أصبح من حقه أن يرث الهوهنشتاوفن فى نابلى وصقلية . وكانت البابوية قد خرجت عندئذ ظافرة من نزاعها الطويل الذى استمر عدة قرون مع أباطرة الدولة الرومانية المقدسة من أسرة هوهنشتاوفن ، وبالتالى اعتبرت البابوية نفسها قيمة أو وصية على أراضى هؤلاء الأباطرة فى جنوب ايطاليا وصقلية (٣) . ولما كان ما نفرد ملك صقلية أحد أعضاء البيت الامبراطورى المهزوم ، فانه رفض أن يعترف بمطالب البابوية ، مما جعل البابا يعرض مملكة صقلية على أحد الأمراء الفرنسيين – وهو شارل الأنجوى Charles of Anjou ليحكمها تابعا للبابا (٤) . وقد قبل شارل

---

(1) Watts : op. cit. pp. 152-155.
(2) Lodge : op. cit. pp. 478-479.
(3) Lodge : op. cit. pp. 479-480.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 582-583.

هذا عرض البابوية وغزا صقلية ليقتل مانفرد ويحكم الجزيرة حكما تعسفيا جائرا ، الأمر الذى أثار ثورة جامحة فى صقلية سنة ١٢٨٢ ٠ وهنا أسرع الصقليون الى دعوة بطرس الثالث ملك أرغونة لمساعدتهم ، فوجد بطرس الفرصة سانحة للمطالبة بحقوق زوجته فى تاج الجزيرة ، وغزا صقلية فى نفس العام ٠ ولم تمض مدة طويلة حتى كان بطرس الثالث سيد الجزيرة ، كما تمكن – عن طريق أمير أسطوله روجر دى لوريا Roger de Lauria أن يبسط سيطرته على جزء من الشاطىء الايطالى (١) ٠

على أن بطرس الثالث لم يهنأ بصقلية طويلا ، لأن موقفه أثار البابوية وهى فى أوج سلطانها فى القرن الثالث عشر ، فلم يلبث البـــابا مارتن الرابع (١٢٨١ – ١٢٨٥) أن أصدر قرار الحرمان ضده ونادى بعزله من مملكة أرغونة واعطاء عرشه لشارل فالوا ثانى أبناء ملك فرنسا (١٢٨٣) (٢) ٠ بل ان البابا ذهب الى حد اعلان حملة صليبية ضد بطرس الثـــالث ملك أرغونة ، وفعلا تأهبت الجيوش الفرنسية للغزو واجتاحت جزءا كبيرا من قطالونية ٠ وعندما أظلم الموقف أمام بطرس الثالث ملك أرغونة ، لاح بصيص من النور اذا احرز قائده البحرى روجر دى لوريا نصرا كبيرا على الأعداء ، فى حين انتشر وباء فتاك بين الجنود الفرنسيين الغزاة ٠ وفى نفس العام (سنة ١٢٨٥) توفى بطرس الثالث ، ولكن بعد أن عرض اعادة صقلية الى البابوية ليخلص من هذه المشاكل (٣) ٠

وبعد ذلك خلفه ابنه الفونس الثالث فى عرش أرغونة (١٢٨٥ – ١٢٩١) الذى لم يشأ أن يتخلى عن صقلية واختار لها أن تكون مملكة منفصلة تحت حكم أخيه جيمس (Jaime) وبذلك تجدد النزاع بين أرغونة من جهة وفرنسا والبابوية من جهة أخرى ٠ ويبدو أن الفونس الثالث اعتمد فى موقفه من البابوية وفرنسا على مساعدة ادوارد الأول ملك انجلترا الذى وضع

(1) Chapman : op. cit. p. 172.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 114.
(3) Lavisse : op. Tome 3, Deuxieme Partie; pp. 116-117.

مشروعا لزواج ابنته من ألفونس (١) • على أن ألفونس الثالث لم يكن على شيء من مقدرة أبيه وكفايته ، فلم يلبث أن تراجع أمام البابوية ونزل عند مطالبها سنة ١٢٩١ (٢) •

وربما كان السبب فى موقف ألفونس الثالث الضعيف من البابوية هو أنه كان مشغولا فى الداخل فى صراع مع نبلاء اقليمى أرغونة وبلنسية الذين اتحدوا للحصول على مزيد من الامتيازات من الملك • وأخيرا اضطر ملك أرغونة الى النزول على رغبة الأمراء فمنحهم مطالبهم سنة ١٢٨٧ (٣) • وقد حاول خليفته وأخيه جيمس الثانى (Jaime II (١٢٩١ - ١٣٢٧) ، أن يقلل من أثر هذه الامتيازات الجديدة التى منحها ألفونس الثالث للنبلاء• ولكن أهمية عهد جيمس الثانى تبدو فى سياسته الخارجية أكثر منها فى الأحوال الداخلية لمملكة أرغونة (٤) • ذلك أنه أظهر تمسكا بصقلية فى أول الأمر - بعد أن كان حاكما عليها قبل أن يعتلى العرش ، وأرسل اليها ابنه فردريك (Fradrique) لينوب عنه فى حكمها • ولكنه عاد فعدل عن رأيه وعقد اتفاقية مع البابا بونيفيس الثامن سنة ١٢٩٥ تشبه تلك التى سبق أن عقدها الفونس الثالث ، فتنازل للبابا عن صقلية ، على أن يسمح له بغزو سردينيا وكورسيكا ليحكمها نائبا عن البابا (٥) • ولم يرض الصقليون عن هذه الاتفاقية التى لم يمثلوا فيها فثاروا حتى تم الاتفاق أخيرا سنة ١٣٠٢ بعد حرب طويلة ، على أن يتزوج فردريك من ابنة الأمير الأنجوى الذى رشحته البابوية لحكم صقلية ، وأن يرث فردريك حماه فى حكم الجزيرة(٦)• وفى أواخر عهد جيمس الثانى نجح أكبر أبنائه فى غزو سردينيا سنة ١٣٢٤ ، كما حدث فى ذلك الوقت أن استطاع أهل قطالونية من الجند المرتزقة أن يبسطوا سيطرتهم على دوقية أثينا ويلعبوا دورا هاما فى تاريخ هذا الجزء الشرقى من البحر المتوسط (٧) •

---

(1) Watts : op. cit. p. 191.
(2) Chapman : op. cit. p. 127.
(3) Lodge : op. cit. p. 481.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 586.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1. p. 172.
(6) Chapman : op. cit. p. 128.
(7) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 284-290.

أما ألفونس الرابع الذى تولى حكم أرغونة بعد ذلك (١٣٢٧ - ١٣٣٦) فليس لعهده أهمية سوى الحروب التى دارت حينئذ مع بيزا وجنوا حول امتلاك سردينيا • وبعد ذلك خلفه فى حكم أرغونة بطرس الرابع (١٣٣٦ - ١٣٨٧) الذى كرس كل جهوده نحو تحرير الملكية من بعض القيود التى رزحت تحتها ، حتى أصبح حكمه سلسلة متصلة الحلقات من النضال بينه وبين كبار النبلاء (١) • وقد بدأ اصطدامه بالنبلاء عندما حاول احلال ابنته كونستانس محل أخيه جيمس فى ولاية عهد المملكة ، لأن بطرس الرابع لم يرزق بولد ذكر يخلفه فى الحكم (٢) • وعلى الرغم من أنه لا يوجد تقليد أو قانون فى أرغونة يمنع الاناث من ولاية الحكم ، الا أن الشعور العام اتجه دائما نحو تولية الذكور حتى لو كانوا أبعد قرابة من الاناث (٣) • وقد استغل نبلاء أرغونة ومدنها هذه الفرصة لممارسة الحقوق التى حصلوا عليها سنة ١٢٨٧ بطريقة عملية ، فقاوموا رغبة الملك واضطروه الى الاذعان لمطالبهم سنة ١٣٤٧ • على أن بطرس الرابع لم يكن بالرجل الذى يستسلم للهزيمة ، فعاود النزاع مع النبلاء فى العام نفسه ووقفت الى جانبه مدن اقليم قطالونية ونبلاؤه ، وهم الذين أدركوا أن مصالحهم التوســـعية فى البحر المتوسط تتطلب حاكما قويا ، فى حين عارض الملك نبلاء اقليمى بلنســـية وأرغونة ومدنهما (٤) •

ومهما يكن من أمر فقد انتهت الأزمة بانتصار بطرس الرابع على خصومه فى موقعة ابيلا Epila سنة ١٣٤٨ ، فأنزل بهم أشد انواع التنكيل ، وبذلك خسرت الأرستقراطية الاقطاعية كثيرا من نفوذها فى أرغونة • أما فى الناحية الخارجية فقد قام بطرس الرابع سنة ١٣٤٣ بغزو جزر البليار وضمها تحت نفوذه بعد أن كان قد استقل بها منذ سنة ١٢٧٤ أحد أبناء جيمس

---

(1) Watts : op. cit. p. 193.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 591.
(3) Lodge : op. cit. p. 184.
(4) Chapman : op. cit. p. 130.

الأول الفاتح ، ثم سلالته من بعده ، وتلقبوا بلقب ملوك ميورقة (١) • كذلك استولى بطرس الرابع على ممتلكات ملوك ميورقة فى جنوب فرنسا ، كما ذهب بنفسه الى سردينيا لاخماد ثورة فى الجزيرة وتنظيم أمورها (٢) ، فى الوقت الذى أخذ يعمل على تشجيع العلاقات التجارية بين بلاده والجهات الشرقية من البحر المتوسط • وفى سنة ١٣٨١ قبل بطرس الرابع عرضا من دوقية القطلان فى أثينا لتصبح هذه الدوقية تحت سيادته •

أما مشكلة وراثة العرش فقد انتهت عندما رزق بطرس الرابع بولدين هما حنا الأولّ (١٣٨٧ - ١٣٩٥) ومارتن الأول (١٣٩٥ - ١٤١٠) اللذان خلفا أباهما فى عرش أرغونة على التوالى (٣) • وأهم ما يميز عصر هذين الملكين هو اعادة الاتحاد بين أرغونة وصقلية • ذلك أننا رأينا كيف أعطى جيمس الثانى حكم الجزيرة لأخيه فردريك بمقتضى الاتفاقية التى عقدت بين جميع الأطراف المعنية سنة ١٣٠٢ • وقد أدى هذا الارتباط العائلىّ بين صقلية وأرغونة الى الربط بين البلدين ، وذلك عندما ورث مارتن الصغير - ملك صقلية - حقّ أبيه فى عرش أرغونة سنة ١٤٠٩ (٤) • على أن وفاة مارتن الصغير ثم مارتن الأول الكبير ملك أرغونة سنة ١٤١٠ ، جعلّ المشكلة أشد تعقيدا ، اذ تنازعت التركة عدة أطراف حتى انتهى النزاع سنة ١٤١٢ باختيار فردنانّد الوصى علىّ عرش قشتالة ليصبح فردناند الأول ملك أرغونة (١٤١٢ - ١٤١٦) (٥) •

ولم يعش فردناند الأولّ طويلا ليظهر فى أرغونة شيئا من كفايته الادارية التى ظهرت أثناء قيامه بالوصاية على عرش قشتالة ، فخلفه ابنه الأكبر ألفونس الخامس (١٤١٦ - ١٤٥٨) الذى كان أشد ارتباطا بتاريخ صقلية

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, pp. 174-175.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 589-590.
(3) Lodge : op. cit. p. 482.
(4) Watts : op. cit. pp. 229-230.
(5) Chapman : op. cit. p. 132.

وايطاليا منه بتاريخ أسبانيا ، ذلك أنه ورث عن أبيه صقلية وسردينيا فضلا عن أرغونة ، ومن ثم أخذ يتطلع الى ضم الجزء الجنوبى من ايطاليا - أى نابلى ، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض الأخير اشتبك ألفونس الخامس فى صراع ضد البيت الأنجوى الذى نافسه السيطرة على نابلى ، حتى انتهى الأمر بانتصار ألفونس الخامس الذى ظل يحكم نابلى حتى وفاته سنة ١٤٥٨ (١) .

ولم يترك الفونس الخامس ولدا شرعيا يرثه فانتقل حكم أرغونة وصقلية وسردينيا بعد وفاته الى أخيه حنا الثانى (١٤٥٨ - ١٤٧٩) فى حين انتقلت نابلى الى فردناند الأول (Ferdinand I) ، وهو ابن غير شرعى لألفونس الخامس (٢) . وقد نجح حنا الثانى فى تدعيم العلاقات الودية مع مملكة نافارى (نواره) وهى المملكة الصغيرة التى امتدت أراضيها على جانبى البرانس والتى ظلت مدة طويلة أكثر ارتباطا بفرنسا منها بأسبانيا . وكان حنا الثانى قد تزوج - قبل ارتقائه عرش أرغونة - من الأميرة بلانش ابنة شارل الثانى صاحب نافارى ووريثته (١٣٨٧ - ١٤٢٥) (٣) ، وأنجبت هذه الرابطة الزوجية شارل فيانا الذى أصبح من المنتظر أن يرث أمه فى نافارى وأبيه فى أرغونة . ولكن حدث عقب وفاة بلانش سنة ١٤٤٢ أن تزوج حنا الثانى من جوانا ابنة أمير أسطول قشتالة التى أثرت فى زوجها ليحرم ابنه حقوقه المشروعة فى نافارى . وهكذا قامت حرب بين شارل فيانا من جهة وأبيه حنا الثانى وزوجة أبيه جوانا من جهة أخرى ، انتهت سنة ١٤٥٢ بوقوع الابن أسيرا فى يد أبيه (٤) . وعلى الرغم من أن حنا الثانى أطلق سراح ابنه بعد قليل ، الا أن مركز الأخير ضعف وساء ولا سيما بعد أن أنجب الأب ابنا آخر - وهو فردناند الكاثوليكى - من زوجته الثانية جوانا . ولكن سلوك الأب أثار الشعور العام ضده ، فقامت ثورة فى قطالونية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8. pp. 149, 484.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p, 96.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 485,
(4) Lodge : op. cit. p. 485.

أطفأها حنا الثانى بتعيين ابنه شارل فيانا حاكما عليها ، حتى تخلص منه بالسم بعد قليل • وسرعان ما أدى هذا العمل الى تجدد الثورة مما دفع حنا الثانى الى الاستعانة بلويس الحادى عشر ملك فرنسا ، مقابل اعطائه مقـــاطعتى روسيلون Roussillon وكردان Cerdagne على الجانب الشرقى شمالى البرانس (١) • وهكذا ظل حنا الثانى يقاوم حتى أخضع ثورة قطالونية سنة ١٤٧٢ ، ثم توفى هو سنة ١٤٧٩ ليخلفه ابنـــه فردناند الكاثوليكى فى العام نفسه فى أرغونة وصقلية وسردينيا (٢) •

عصر فردناند وايزابلا :

ويعتبر فردناند الكاثوليكى ملك أرغونة (١٤٧٩ – ١٥١٦) من أعظم الملوك المعاصرين ، لا لأنه تزوج من ايزابلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ – ١٥٠٤) وبذلك تم الربط بين أقوى مملكتين فى أسبانيا فحسب ، بل أيضا للتطورات العظمى – الداخلية والخارجية – التى طرأت على أسبانيا فى تلك الفترة(٣)• ذلك أن هذا العصر يعتبر نقطة تحول مهمة فى انتقال أسبانيا من العصور الوسطى نحو العصور الحديثة ، لأن توحيد قشتالة وأرغونة انما يعنى فى الواقع مولد أسبانيا فى التاريخ الحديث • هذا الى أنه استطاع القضـاء على الاتجاهات الانفصالية التى طالما حالت دون توحيد البلاد وتقوية نفوذ الملكية ، وبذلك أخذت الحياة العامة تتطور فى أسبانيا لتجعل منها دولة من دول أوربا العظمى (٤) • والواقع أن الكلام عن حكم فردناند وايزابلا بالتفصيل لا يدخل معظمه ضمن موضوع هذا الكتاب لأنه يرتبط بأسبانيا العصـــور الحديثة أكثر منه بأسبانيا العصور الوسطى ، ولذلك نكتفى بالاشـــارة الى المعالم الرئيسية لذلك العهد الانتقالى •

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie. pp. 391-392.
(2) Watts : op. cit. p. 276.
(3) Cam Med. Hist. Vol, 8, p. 487.
(4) Chapman : op. cit. p. 202.

ذلك أن ايزابلا استغلت الطبقة البورجوازية فى الضرب على أيدى كبار النبلاء القشتاليين ووضع حد للفوضى التى بلغت ذروتها فى عهد أخيها هنرى الرابع ـ ملك قشتالة السابق (١) ، ولذلك استصدرت من المجلس الوطنى تشريعا سنة ١٤٧٦ بانشاء هيئة « الأخوة المقدسة Santa Hermandad » لتقوم بعمل الشرطة على نطاق واسع ، كما كونت جيشا صغيرا من ألفى فارس لتنفيذ أوامر الموظفين المحليين وتعليماتهم (٢) . كذلك حرمت كبار النبلاء من الأراضى والمعاشات السخية التى حصلوا عليها فى السنوات الأخيرة، وهدمت قلاعهم التى طالما استغلت كمراكز للنهب والسلب . وفى الوقت نفسه أظهرت ايزابلا روح الملكية المستنيرة فعملت على تنظيم القوانين العديدة التى صدرت منذ عهد ألفونس العاشر (٣) ، كما اهتمت بحماية المصالح المادية لشعبها وشجعت التجارة والصناعة عن طريق اعادة توزيع الضرائب توزيعا عادلا ، واصلاح العملة ، وازالة العوائق التى تعترض طريق التجارة بين قشتالة وأرغونة . وهكذا يقال أن الدخل الملكى تضاعف ثلاثين مرة فى المدة الواقعة بين ارتقاء ايزابلا العرش سنة ١٤٧٤ ، ووفاتها سنة ١٥٠٤ دون اثقال كاهل الشعب بأية أعباء جديدة (٤) .

على أنه اذا كان الحكام العظام فى التاريخ لا يخلون عادة من نقائص وعيوب ، فان عيب ايزابلا كان تعصبها الدينى الشديد وبخاصة ضد الهراطقة. ولا يوجد هناك شك فى أن ايزابلا مسئولة الى حد بعيد عن دخول محاكم التفتيش فى أسبانيا منذ سنة ١٤٨٣ (٥) ، فبدأت هذه المحاكم فى قشتالة ثم امتدت الى أرغونة حيث صادفت معارضة شديدة من الأهالى المحبين للحرية ، ولكنها ظلت فى عملها بفضل ارادة فردناند الخامس القوية (٦) . وسرعان

---

(1) Lodge : op. cit. p. 488.
(2) Watts : op. cit. p. 284.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, pp. 88-89.
(4) Lodge : op. cit. p. 489.
(5) Watts : op. cit. pp. 238-239.
(6) Chapman : op. cit. pp. 213-214.

ما ظهر أثر هذه السياسة ـ سياسة التعصب الدينى فى خطوتين : الأولى طرد اليهود والثانية طرد العرب من أسبانيا •

أما اليهود فقد صدر مرسوم سنة ١٤٩٢ بطردهم من أسبانيا ، الأمر الذى ترتب عليه تشريد أكثر من مائة وخمسين ألف يهودى ، فى حين اعتنق خمسون ألف يهودى المسيحية • وقد ذهب يهود اسبانيا المهاجرون الى البرتغال وشمال أفريقية وايطاليا وفرنسا ، حيث صادفوا مقابلة أسوأ مما كانوا يتوقعون حتى اختار بعضهم العودة الى أسبانيا واعتناق المسيحية • وقد يكون هذا الاجراء جائرا من جانب ايزابلا ، ولكن يبدو أن أثره لم يكن سيئا على الاقتصاد الأسبانى بالدرجة التى يصورها بعض المؤرخين ، بل لعله مما يثير الدهشة أن طرد اليهود من أسبانيا أعقبته فترة من الازدهار والرخاء الاقتصادى لامثيل لها فى التاريخ الأسبانى (١) •

وأما العرب فقد وجدوا فى ضعف قشتالة طوال القرنين الأخيرين خير ضمان لبقائهم فى غرناطة ، فظلوا قابعين فى ذلك الركن الجنوبى من شبه الجزيرة يسالمون جيرانهم المسيحيين ويدفعون لهم الجزية اتقاء لخطرهم(٢)• ولكن الموقف أخذ يتبدل عقب توحيد قشتالة وأرغونة ، وما نشأ من ذلك التوحد من قيام قوة مسيحية شامخة على حدود غرناطة • ويبدو أن مسلمى غرناطة غرهم الهدوء النسبى الذى ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين ، فانقسموا على أنفسهم وبددوا جهودهم فى محاربة بعضهم بعضا ، دون أن يدروا بالقوة الجديدة التى نشأت على مقربة منهم • وفى الوقت الذى اشتد الصراع بين أبى عبد الله الزغيبى من جهة وأبيه أبى الحسن وعمه الزغل من جهة أخرى ، حتى ارتمى ابو عبد الله الزغيبى بين أحضان المسيحيين وقصد قرطبة حيث تحالف مع فردناند الخامس وايزابلا ، فى ذلك الوقت كان الملكان الكاثوليكيان يعدان العدة للهجوم على المسلمين فى غرناطة (٣) •

---

(1) Chapman : op. cit. pp.213-214.
(2) Watts : op. cit. 291.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٢٠١ ـ ٢٠٢

وكان أن بدأ الهجوم المسيحى على غرناطة سنة ١٤٨١ ، فأخذت المدن والقلاع الاسلامية تتساقط واحدة بعد الأخرى • ولم يتحرج أبو عبد الله الزغيبى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الأندلس ، من محالفة الأعداء والعمل على احباط الجهود الجبارة التى بذلها عمه الزغل فى مقاومة الغزو المسيحى (١) • وكان استخدام البارود والأسلحة النارية قد أخذ ينتشر حينئذ فى أوربا ، فاستخدم المسيحيون هذا السلاح الجديد فى الاستيلاء على حصن لوره وغيره من الحصون سنة ١٤٨٤ ، ثم على لوشة سنة ١٤٨٦ بعد معركة اشترك فيها متطوعون من مختلف جنسيات أوربا كالسويسريين والانجليز والألمان (٢) • أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل قوة مراس قائدها حامد الزغبى ، حتى لجأ المسيحيون الى بث الألغام تحت أسوارها • وحضرت ايزابلا بنفسها لتبث الشجاعة فى قلوب رجالها ، حتى نفدت الأقوات فى المدينة فاستسلمت للغزاة (٣) • وفى سنة ١٤٨٨ جدد فرديناند الخامس هجماته على المسلمين فهاجم بسطة (Baza) التى استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت خلالها كثيرا من الخسائر بالمهاجمين حتى سقطت أخيرا سنة ١٤٨٩ (٤) • وبسقوط بسطة أدرك الزغل أنه لا فائدة من المقاومة وأن دولة المسلمين بالأندلس قد دالت ، فعبر البحر الى فاس حيث أساء اليه سلطانها وعذبه تعذيبا وحشيا ثم سمل عينيه وتركه يهيم فى الأرض بائسا طريدا (٥) •

وهكذا لم يبق للمسلمين فى الأندلس سوى غرناطة التى تشفى أميرها أبو عبد الله الزغيبى فى عمه وعدوه القديم أبى عبد الله الزغل ، غير دار بأن الدوائر لن تلبث أن تدور عليه فى القريب العاجل • وكان الزغيبى أضعف من أن يواجه جيوش فردناند وايزابلا ـ حليفيه القديمين ـ ولكن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 489.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 91.
(3) Watts : op. cit. pp. 296-297.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 489.
(٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٢٠٩

أهل غرناطة بزعامة الفارس موسى بن أبى الغسان صمموا على المقاومة ، حتى اضطرت غرناطة الى القاء السلاح أخيرا قرب نهاية سنة ١٤٩١ بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط بحر من المسيحيين ، وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة الموعودة من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين (١) .

على أن سقوط دولة العرب سياسيا فى الأندلس لا يعنى خاتمة هـذه القصة المثيرة . فعلى الرغم من أن شروط تسليم غرناطة نصت على عـدم الانتقام من المسلمين أو الاساءة اليهم ، الا أن هذه الشروط كان من الصعب تنفيذها فى عصر طفح بروح التعصب الدينى ، وفى بلد عرف حكامه بالتطرف فى هذا التعصب (٢) . وهكذا أعقبت سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشى الذى حل بمن بقى فى البلاد من المسلمين (٣) . ولم تنته هـذه الموجة الا فى القرن السابع عشر بعد أن عذب منهم من عذب ، وشرد من شرد ، وقتل من قتل ، حتى لقد ثبت أن جملة من نفوا من مسلمى الأندلس فى المدة الواقعة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر بلغت ثلاثة ملايين نسمة (٤) . وبذلك « حرمت اسبانيا من جهود عنصر مسالم منتج ، فى وقت كانت أحوج ما تكون الى جهوده الانشائية » (٥) .

البرتغال وحركة الكشوف الجغرافية :

واذا كنا قد رأينا نشأة اسبانيا الحديثة فى ضوء تطور أرغونة وقشتالة واتحادهما فى نهاية الأمر ، فان هناك مملكة أخرى قدر لها أن تظل حتى اليوم تقتسم مع أسبانيا شبه جزيرة أيبريا ، وأن تتفق معها فى المظاهر العامة لنشأتها فى العصور الوسطى . وقد سبق أن أشرنا الى نشأة البرتغال وأوضحنا

---

(١) نفس المرجـع ص ٢١٣ .
(2) Chapman : op. cit. p. 205.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 490.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٢٢٢ .
(5) Lodge : op. cit. p. 490.

أنها هي الأخرى شقت سبيلها ـ مثل بقية دول أسبانيا المسيحية ـ وسط طريق النضال ضد المسلمين • ولم تلبث الظروف الجغرافية أن شجعت على تقوية النزعة الانفصالية ، وساعدت على تكوين شخصية مستقلة لهذه الدولـــة الجديدة ، وان كان أهلها لا يختلفون من الناحية العنصرية أو اللغوية عن بقية أهل أسبانيا المسيحيين (١) •

على أن هذه الشخصية المستقلة لم تكتمل للبرتغال الا بعد صراع طويل انقسمت فصوله الى قسمين : أما القسم الأول فكان ضد المسلمين وانتهى بالانتصارات التى أحرزها الفونس الأول (١١١٢ – ١١٨٥) وهو الذى نبذ لقب كونت واتخذ لقب ملك (٢) • وبعد الجهود التى بذلها ألفونس الاول فى تأسيس دولة البرتغال استطاعت دولته فى عهـــد ملكها ألفونس الثالث (١٢٤٨ ـ ١٢٧٩) أن تسيطر على ولاية الجرف (الغرب) ، فضلا عن جهود هذا الملك فى بناء المدن وتشجيع التجارة والصناعة والزراعة (٣)• وأما القسم الثانى من صراع البرتغال فكان ضد مملكة قشتالة التى حاولت التهام دول البرتغال الناشئة ، ولكن محاولتها باءت فى نهاية الأمر بالفشل بفضل مقاومة البرتغاليين وجهود حنا الأول ملك البرتغـــال (١٣٨٣ – ١٤٣٣) (٤) •

ولعهد حنا الأول هذا أهمية كبيرة فى التاريخ ، لا بسبب جهوده فى تدعيم دولته فى الداخل والخارج فحسب ، بل أيضا لأن البرتغال بدأت فى هذا العهد تهتم بكشف سواحل أفريقية الغربية ، وهى الحركة التى سرعان ماعادت على البرتغال بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة • وكان ثالث أبناء حنا الأول ـ وهو المشهور باسم الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) ـ مؤمنا بامكان الطواف حول أفريقية وبأنه من الممكن الوصول الى الهند عن هذا الطريق ،

(1) Stephens : Portugal; p. 2.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 508.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 475.
(4) Lodge : op. cit, pp. 49:-491.

وبالتالى الحصول على الأرباح الطائلة التى تستأثر بها مدن ايطاليا البحرية لاحتكارها التجارة مع الشرق (١) • ومن المعروف أن الدافع الأساسى لهنرى الملاح فى جهوده الاستكشافية لم يكن اقتصاديا بحتا ، وانما كان دينيا أيضا على أساس أنها تتيح فرصة لتحطيم سيطرة المسلمين على طرق التجارة مع الشرق • وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن هنرى الملاح كان رئيسا لهيئة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت الداوية فى أملاكها ، وبالتالى كان يهمه العمل على كسب أراضى وميادين جديدة للمسيحية (٢) •

حقيقة ان آمال هنرى الملاح لم تتحقق فى حياته ، ولكن يكفى أنها ساعدت بعد مماته فى تحقيق الوصول بحرا الى الهند • ويكفيه أنه أمضى أربعين عاما فى اعداد الحملات الاستكشافية وارسالها الى شواطىء افريقية الغربية ، حتى تم كشف بعض الجزر المهمة فى المحيط الأطلسى مثل جزيرة ماديرا Madeira (سنة ١٤٢٠) وجزر كانارى وجزر آزور (١٤٣١ - ١٤٤٤) ، هذا زيادة على بعض المراكز على شاطىء أفريقية مثل الرأس الأبيض (سنة ١٤٤١) والرأس الأخضر (١٤٤٦) (٣) •

وقد أثرت وفاة الأمير هنرى الملاح سنة ١٤٦٠ فى حركة الكشف الجغرافى (٤) ، ولكنها لم توقف هذه الحركة بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين أن افريقية تهيىء لهم موردا غنيا بالرقيق فى وقت وجد البرتغاليون فى تجارة الرقيق بالذات مصدرا هاما للثروة ، حتى ان هنرى الملاح يعتبر مؤسس هذه التجارة فى أوربا (٥) • وهكذا ازدادت الرحلات البحرية الى شواطىء أفريقية وكلما كثرت الخبرة ، ازدادت الرحلات طولا ولا سيما بعد أن أخذت الرغبة تشتد فى العثور على طريق آخر جديد الى الهند نتيجة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 10.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 582
(3) Cam.Med Hist. Vol, 1, pp. 14-16.
(4) Eyre : p. 569.
(5) Stephens : op. cit. pp. 148-149.

لاتساع نفوذ العثمانيين وسيطرتهم على طريق أعالى الفرات والقسطنطينية من جهة ، ولتحكم المماليك فى طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى ، لذلك أخذت مخاوف أوربا تشتد كلما تقدم الوقت بالقرن الخامس عشر ، وبات الأوربيون فى خطر من منع المحصولات الشرقية عنهم فى وقت اشتدت حاجتهم الى هذه المحصولات (١) . وكان أن اشتد التنافس بين مختلف دول أوربا وعناصرها حول استكشاف طريق بحرى مباشر يربط أوربا بالهند حتى حازت البرتغال أخيرا قصب السباق . ذلك أن بارثلميو دياز استطاع الوصول سنة ١٤٨٦ الى خليج ألجوا Algoa على الشاطىء الجنوبى الشرقى لافريقية بعد أن دار حول الرأس التى أسماها « الرأس العاصف Cabo Termentoso » والتى أصر مليكه حنا الثانى على تسميتها رأس الرجاء الصالح (٢) . وبعد هذه الخطوة باثنتى عشرة سنة تمكن فاسكودى جاما سنه ١٤٩٨ من اتمام الرحلة من لشبونة الى كلكتا بمساعدة بعض الملاحين العرب الذين أرشدوه الى الطريق . ثم عاد الى لشبونة فى سبتمبر سنة ١٤٩٩ ، وبذلك حققت أوربا غرضها ووصلت الى الهند عن طريق البحر (٣) .

ثم كان أن تنازلت البرتغال لقشتالة سنة ١٤٧٩ عن جزر كنارى مقابل احتفاظها بحقها فى جميع الاستكشافات على شواطىء افريقية فى الماضى والمستقبل . وهكذا اتجهت البرتغال فى حركتها الاستكشافية جنوبا على امتداد الساحل الافريقى ، فى حين اتجهت اسبانيا غربا فى المحيط الأطلسى . وهنا فكر كريستوفر كولمبس - وهو أحد الجنوية الذين دخلوا خدمة قشتالة - فى الوصول الى آسيا والهند عن طريق الاتجاه غربا فى المحيط الأطلسى ، حتى وصل سنة ١٤٩٢ الى أرض أصر على تسميتها الهند الغربية دون أن يعلم أنها جزء من العالم الجديد (٥) .

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 154.
(2) Stephens : op. cit. p. 156 & Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 512.
(3) Eyre : op. cit. p. 569.
(4) Cam. Med. Hist Vol. 1, pp. 22-23.

ولعل هذين الاستكشافين ـ استكشاف أمريكا واستكشاف الطريق البحرى الى الهند ـ هما أعظم ما تمخض عنه القرن الخلمس عشر من أحداث • ذلك أنهما أثارا فى وجه العالم القديم مشاكل جديدة ، وفتحا أمامه آفاقا جديدة ، أدت جميعها الى نقله من طور الى آخر ، أو على وجه التحديد من طور العصور الوسطى الى طور العصور الحديثة • على أن هذه الاستكشافات الجغرافية لم تكن العامل الوحيد فى هذا التطور ، وانما كانت فى الواقع تمثل جانبا واحدا مهما من جوانب حركة كبرى شاملة نعرفها فى التاريخ باسم حركة النهضة •

الباب الحادى والعشرون

المانيا وغرب أوربا أواخر العصور الوسطى

يتصف تاريخ ألمانيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالاختلاط والتعقيد ، بعد أن اختفت اماراتها الكبرى التى قامت على أساس قبلى عنصرى ، وظهر على المسرح عدد كبير من صغار الأمراء الذين اشتبكوا بعضهم مع بعض فى منازعات لا حصر لها بدافع من الأغراض الشخصية البحتة . هذا فى الوقت الذى أخذت المدن تتحرر من سيطرة أمراء الاقطاع لتعزز نفوذها وامتيازاتها فى ضوء مصالحها الخاصة . أما الامبراطور فقد أصبح نفوذه اسميا ، ولا هم له الا استغلال جلال وظيفته من أجل تحقيق مصالح شخصية خاصة لأفراد البيت الامبراطورى (١) .

والواقع أن الارتباط الذى تم منذ سنة ٩٦٢ بين وظيفتى الملكية الألمانية والامبراطورية الرومانية عاد بأوخم العواقب على كل منهما ، لأن وظيفة الامبراطورية العالمية أضحت سطحية وغير واقعية ، فى حين أدت مظاهر الامبراطورية ومطالبها الى انصراف الأباطرة عن شئون ألمانيا نفسها الى غيرها من الشئون الخارجية وخاصة ايطاليا ، مما أضعف نفوذ الملكية الألمانية وعاد عليها بأوخم العواقب (٢) . وحسبنا ما أدت اليه السياسة الامبراطورية من صدام بين البابوية وحكام ألمانيا ، وهو الصدام الذى زعزع الأباطرة وبدد جهودهم وأموالهم ، بل أدى الى تغيبهم عن ألمانيا نفسها وقضاء معظم سنوات حكمهم فى حروب لا طائل من ورائها فى ايطاليا ، حتى ألفى أمراء ألمانيا أنفسهم وقد تحرروا من كل أثر لسيطرة الأباطرة ورقابتهم ، فانصرفوا الى

---

(1) Thompson : Vol, 2, p. 920.
(2) Lodge : op. cit. p. 1.

توطيد نفوذهم وسلطانهم الاقطاعى على حساب الامبراطورية المتداعية (١) • وثمة عامل آخر أسهم فى اضعاف الامبراطورية الألمانية ، هو أنهـا ظلت انتخابية بوجه عام فى تقاليدها وفكرتها ، وبذلك حرمت الملكية الألمانية من مميزات التقليد الوراثى الذى استغله ملوك انجلترا وفرنسا المعاصرون فى التمكين لأنفسهم وتدعيم سلطتهم المركزية (٢) • حقيقة أن الحياة دبت فى الملكية الألمانية من جديد عقب انتهاء فترة الشغور (١٢٥٠ - ١٢٧٢) ، ولكن بقاء هذه الملكية لا وراثية حرمها من أية فرصة جديدة لفرض نفوذ السلطة المركزية على الأمراء المحليين • وهكذا ظلت ألمانيا بعد سنة ١٢٧٢ عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة ، مع بقاء امبراطور أو ملك على رأس الدولة يتمتع بسلطة اسمية ، حتى سميت الفترة بين سنتى ١٢٧٢ ، ١٥١٩ فى التاريخ الألمانى باسم « عصر الأمراء » (٣) • هذا فى الوقت الذى أخذت جاراتها ـ انجلترا وفرنسا ـ تمران بدور حاسم من أدوار التنظيم القومى المركزى تحت زعامة سلطة ملكية قوية • واذا كانت ألمانيا قد استطاعت البقاء على قيد الحياة فى ذلك الدور من أدوار تاريخها ـ على الرغم من تفككها ـ فان الفضل الأكبر فى ذلك يرجع قبل كل شىء الى انشغال انجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام (٤) •

من هذا يتضح أنه من العسير معالجة تاريخ ألمـانيا فى تلك الحقبة على أساس تسلسل الحوادث التاريخية أو على أساس تسلسل الحـكام ، لأنه لا توجد حادثة واحدة أو سلسلة متكاملة من الحوادث التاريخية يتبلور حولها التاريخ الألمانى فى هذا الجزء الأخير من العصور الوسطى ، كما أنه لا توجد أسرة حاكمة بعينها يدور حولها التاريخ الألمـانى فى ذلك العصر(٥) • ولعله من الأصلح علاج تاريخ ألمـانيا فى ذلك العصر على أساس دراسة المشاكل والأحداث الكبرى المتفرقة مثل قيام بيت هابسبورج فى الحكم ، ولودويج

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 158-162.
(2) Lodge : op. cit. p. 2.
(3) Barraclough : op. cit. p. 249.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 286-287.
(5) Thompson : op. cit, Vol, 2, p. 951.

الرابع والبابوية ، وشارل الرابع والمرسوم الذهبى ، والدور الذى قامت به العصبة الهانزية فى تاريخ ألمانيا ، على أن تتعرض بعد ذلك لنشأة أهم الدول الغربية فى أواخر العصور الوسطى وخاصة تلك التى تفرعت عن الامبراطورية - مثل سويسرا والأراضى المنخفضة •

قيام اسرة هابسبورج فى الحكم :

يبدو لنا من عرضنا لتاريخ ألمانيا فى الأبواب السابقة أن الملكية الألمانية بدأت تتدهور فعلا منذ القرن الحادى عشر ، على الرغم من الجهود الاحيائية التى قام بها الأباطرة العظام من أسرة هوهنشتاوفن ، مثل فردريك بربروسا وهنرى السادس وفردريك الثانى (١) • وبسقوط أسرة هوهنشتاوفن سقطت الامبراطورية والملكية الألمانية الى الدرك الأسفل ، فسادت الفوضى والمنازعات ألمانيا أثناء فترة الشغور (١٢٥٠ - ١٢٧٢) ، وادعى أحقيته فى العرش كل من ريتشارد الكورنوولى (Richard of Cornwall) الانجليزى وملك قشتالة ألفونس العاشر ، دون أن يحاول أحدهما حكم البلاد فعليا (٢) • وكان أن استغل الأمراء الاقطاعيون هذه الفرصة لتقوية نفوذهم والامعان فى منازعاتهم ، مما ظهر أثره واضحا فى العصر الذى أعقب فترة الشغور (٣)•

ذلك أن وفاة ريتشارد الكورنوولى سنة ١٢٧٢ جعلت أنصاره يفكرون فى اختيار خليفة له يرث حقه فى عرش ألمانيا • وفى ذلك الوقت أخذ البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦) يعمل حسابا لاتساع نفوذ البيت الأنجوى فى ايطاليا ، كما ساورته المخاوف من أن يؤدى انحلال ألمانيا الى توسع فرنسا فى الجهات الواقعة شمال جبال الألب ، ومن ثم أصبحت للبابوية مصلحة واضحة فى بعث الملكية الألمانية(٤) • وكان أن تم انتخاب رودلف - كونت هابسبورج - ملكا ، فتم تتويجه فى أكتوبر سنة ١٢٧٣ فى

(1) Lodge : op. cit. p. 6.
(2) Barraclough : op. cit. pp. 244-245.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 130.
(4) Eyre : op. cit, pp. 452-453.

آخن ، وبذلك انتهت فترة الشغور وقامت أسرة هابسبورج - لأول مرة - فى حكم ألمانيا .»

ومن الثابت أن آل هابسبورج ينسبون الى قلعة هابس (Habs-burg) أى قلعة الصقر ، وهى قلعة فى سويسرا الألمانية التى كانت فى العصور الوسطى جزءا من سوابيا الجنوبية(١) • ومع أن شجرة بيت هابسبورج تمتد جذورها الى القرن العاشر ، الا أن أهميتهم لم تتضح الا منذ أن منحهم الامبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) ولاية الألزاس وكونتية زيورخ • ولم يلبث أن اتسع نفوذ آل هابسبورج فضموا الى ممتلكاتهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بعض الضياع والأديرة المجاورة فى سويسرا ، مما رفع شأنهم وساعد على اختيار رودلف ملكا على ألمانيا سنة ١٢٧٣(٢) •

ولكن رودلف لم يكن فى مركز يحسد عليه عندما اختير وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ليعتلى عرش ألمانيا فى أصعب عصر من عصور تاريخها الوسيط(٣) • ذلك أنه وجد نفسه أمام مشاكل خارجية وداخلية شائكة ، منها تحديد موقفه من الفونس ملك قشتالة الذى أبى الا أن يحتفظ بلقب الامبراطورية ، وكذلك تحديد موقفه من البابوية وحقوق الامبراطورية السابقة فى ايطاليا • هذا علاوة على ضرورة اخضاع أوتوكار الثانى Ottokar II ملك بوهيميا الذى خرج على رودلف(٤) •

وهنا وجد رودلف أن المشكلة الأخيرة أهم المشاكل التى تتطلب منه موقفا حازما ، لأنها تمس سلطانه داخل ألمانيا نفسها • وفى هذا تفسير لسياسة رودلف الحكيمة وبعد نظره ، اذ يظهر أنه أدرك عبث اقتفاء أثر الهوهنشتاوفن فى أطماعهم وأحلامهم ، والجرى وراء مشروعاتهم الايطالية التى عادت على

(1) Baring-Gould : Germany. p. 148.
(2) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 921-923.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 78.
(4) Lodge : op. cit. p. 8,

ألمانيا بالخسران المبين ، وأنه أجدى عليه وعلى بلاده أن يجعل أفقه مقصورا على ألمانيا وحدها(١) . لذلك سعى رودلف نحو اكتساب البابوية وتأييدها ، فتم الاتفاق بين الطرفين بعد مقابلة شخصية بين رودلف والبابا جريجورى العاشر فى لوزان ١٢٧٥ ، وبمقتضى هذا الاتفاق تنازل رودلف للبابوية عن كل حقوق الامبراطورية وأملاكها فى ايطاليا ، كما اعترف بمملكة الانجويين فى نابلى وصقلية . وهكذا طلق رودلف سياسة فردريك الثانى الى حيث لا رجعة ليضمن تمتع ألمانيا وحدها بجهود ملوكها(٢) .

وبعد ذلك أصبح فى وسع رودلف أن يتجه - وهو آمن - نحو المشكلة الكبرى التى واجهته عند اعتلائه العرش ، وهى مشكلة عصيان أوتوكار الثانى ملك بوهيميا . ذلك أن أوتوكار هذا طالب سنة ١٢٧٢ بأن يكون له صوت فى انتخاب ملك ألمانيا الجديد ، ولكن أحدا لم يسمع طلبه أو يحقق رجاءه ، مما جعله يرفض الاعتراف بالملك الذى وقع عليه الاختيار وهو رودلف . وكان رودلف قد أصبح فى مركز قوى بعد أن اكتسب رضاء البابوية من جهة والأمراء الألمان من جهة أخرى ، فاستدعى أوتوكار الى مجلس عقد سنة ١٢٧٤ وآخر عقد سنة ١٢٧٥ ليبرر احتلاله لأقاليم أوستريا (النمسا) وستيريا Styria وكارنثيا وكارنيولا Carniola ، ولكنه رفض الحضور(٣) . وأخيرا خرج رودلف على رأس جيش امبراطورى سنة ١٢٧٦ الى النمسا حيث التف حوله الأمراء الألمان ليقوموا بحركة قومية ضد حكم السلاف . وعندما سلمت فينا لرودلف ، أدرك أوتوكار عدم جدوى المقاومة فعقد الصلح مع الملك فى نوفمبر من العام نفسه ، على أن تبقى له بوهيميا ومورافيا ويتخلى عما عدا ذلك من الأقاليم الألمانية . ولتأكيد هذا الصلح رؤى أن يزوج أوتوكار ابنته لابن رودلف ، مقابل زواج ابن أوتوكار من احدى بنات رودلف العديدات(٤) . وعلى الرغم من ذلك فانه يبدو أن القلوب لم تصف

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 483.
(2) Eyre : op. cit. p. 453.
(3) Lodge : op. cit. p. 9.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 79.

فتجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى سنة ١٢٧٨ . وفي تلك المرة خسر رودلف جزءا كبيرا من مساعدة أعوانه ، اذ كان حليفه البابا جريجوري العاشر قد توفى سنة ١٢٧٦ ، وتخلى عنه كثير من كبار الأساقفة والنبلاء . ومع ذلك فقد استطاع الانتصار على خصمه فى النهاية فى موقعة مارخفيلد Marchfeld - قرب فينا - حيث سقط أوتوكار قتيلا فى المعركة سنة ١٢٧٨(١) . وهكذا ضم رودلف دوقية أوستريا الى أملاكه الخاصة ، زيادة على ستيريا وكارنثيا ، حتى أصبحت هذه الأجزاء منذ ذلك الوقت مصدر نفوذ آل هابسبورج(٢) . وهنا نلاحظ أن هذا النصر الذى أحرزه رودلف لم يتم الا بمعونة فردريك هوهنزلرن وأسقف بازل ولادسلاوس الرابع ملك هنغاريا ، بالاضافة الى موقف نبلاء اوستريا وستيريا (٣) . ومهما يكن من أمر فقد أخذت الدلائل تشير الى استقرار الأمور بالنسبة لبيت هابسبورج فقام رودلف بتوزيع الأراضى الامبراطورية فى النمسا (أوستريا) وستريا وكارنيولا بين ولديه ألبرت ورودلف ليمكن لنفسه ولبيته ، كما زوج ابنه البكر من وريثة دوقية أوستريا (النمسا) وابنه الثانى من وريثة بوهيميا(٤) .

والواقع أن قيام بيت هابسبورج فى النمسا كان حدثا عظيما فى التاريخ الألمانى ، كما يعتبر - بالنسبة لحوادث المستقبل - أهم ما تمخض عنه حكم رودلف . وقد مات رودلف هابسبورج سنة ١٢٩١ فى الثالثة والسبعين من عمره ، بعد أن قام بعدة محاولات غير مجدية لتقوية السلطة المركزية ونشر السلام فى ألمانيا عن طريق الحد من الحروب المحلية الخاصة (٥) . وعند وفاة رودلف تقدم ابنه ألبرت فى منصبه ، ولكنه فشل فى الانتخابات بسبب تخوف الأمراء من سطوته بعد أن اتسعت أملاكه فى سوابيا عن الجهات الشرقية . وهكذا تم انتخاب أحد النبلاء « المتواضعين » وهو أدولف كونت ناسو Nassau

(1) Orton, op. cit. p. 330.
(2) Baring-Gould : op. cit. p. 150.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7. p. 79.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 397.
(5) Cam. Med, Hist, Vol, 7, p. 80.

سنة ١٢٩٢ ، بعد أن بذل الوعود للأمراء وكبار الأساقفة(١) . ولكن لم يكد أدولف يتوج في آخن حتى ظهرت أطماعه ، فقاد حملة ضد ألبرت وأجبره على تقديم فروض التبعية وتسليم الشعار الملكي الذي احتفظ به بعد وفاة أبيه ، كما عمل في نفس الوقت على محالفة المدن وصغار النبلاء لاستغلال هذه القوة في الضرب على أيدي كبار الأمراء .

ولم تقف أطماع أدولف عند هذا الحد ، بل امتدت لتمس المصالح الفرنسية . وهنا نلاحظ أن ملوك ألمانيا الذين انتخبهم الأمراء نكاية في أسرة هابسبورج كانوا جميعا من المعارضين لفرنسا كما يبدو ذلك في حالة أدولف، وهنري لكسمبورج (١٣٠٨ - ١٣١٤)،ولويس البافاري(١٣١٤ - ١٣٤٧)(٢). وكان محك النزاع بين ألمانيا وفرنسا حينئذ مملكة آرل أو برجنديا التي آلت الى كونراد الثاني ملك ألمانيا سنة ١٠٣٢ ، كما مر بنا . ولكن ضعف الملكية الألمانية بعد ذلك جعل نفوذها اسميا في مملكة آرل ، التي سرعان ما انقسمت الى عدة أقاليم شبه مستقلة أهمها كونتيات برجنديا وسافوى ودوفنيه Dauphiné وليونيه Lyonais وبروفانس(٣) . واذا كانت هذه الأقاليم قد ظلت من الناحية النظرية البحتة تابعة للامبراطورية الألمانية ، الا أنها من الناحية العملية سرعان ما تعرضت لمطامع فرنسا التوسعية ، ولا سيما في عهد ملكها فيلب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) ، هذا في الوقت الذي أراد أدولف ملك ألمانيا أن يجعل من نفسه بطلا لوحدة الامبراطورية الألمانية . لذلك استغل أدولف فرصة حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وعقد سنة ١٢٩٤ معاهدة مع ادوارد الأول ملك انجلترا ، تعهد فيها الطرفان بمواصلة الحرب ضد فرنسا حتى تتخلى عن الأراضي التي تحاول اغتصابها من ألمانيا وانجلترا جميعا(٤) . على أن هذه الحرب التي أعقبت التحالف بين انجلترا وألمانيا

(1) Barraclough : op. cit. p. 303.
(2) Idem, p. 296.
(3) Lodge : op. cit. p. 12.
(4) Tout : The Hist. of England, pp. 192-193.

لم يكن لها ثمرة سوى اظهار تفكك ألمانيا وضعفها ، اذ لم يهتم أمراء ألمانيا بالمساهمة فيها قدر اهتمامهم بمصالحهم الخاصة وتأكيد استقلالهم في مناطقهم . هذا في الوقت الذى انتهز فيلب الرابع ملك فرنسا الفرصة لتحريك عوامل الانشقاق والتفكك ضد أدولف داخل ألمانيا (١) . وأخيرا تدخل البابا بونيفيس الثامن لاقرار الصلح بين الطرفين سنة ١٢٩٨ ، وان كان هذا الصلح لم يشبع شيئا من رغبات ألمانيا ومطالبها فى آرل .

ثم كان أن أدت سياسة أدولف الخاصة بالتحالف مع المدن وصغار النبلاء الى اثارة مخاوف كبار الأمراء والناخبين . وهنا لجأ كبار الأمراء الى ألبرت هابسبورج فى النمسا ـ الذى سبق أن رفضوا اختياره للعرش عقب وفاة أبيه ـ ليعاونهم فى القضاء على أدولف (٢) . وكان نفوذ ألبرت قد ازداد فى ذلك الوقت بعد أن تحالف مع ونزل الثانى Wenzel II ملك بوهيميا ، كما اتصل بملك فرنسا ضد عدوهما المشترك . ولم يلبث أن عقد رئيس أساقفة مينز مؤتمرا من الأمراء وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام ألبرت ليتولى الحكم ويعيد سيادة أسرة هابسبورج(٣) .

وكان ألبرت الأول ملك ألمانيا (١٢٩٨ ـ ١٣٠٨) حاكما كفئا ، امتاز بالمهارة والمقدرة الحربية ، وقام بكثير من الأعمال فى حكمه القصير البالغ عشر سنوات ، وربما قام بأعمال أعظم أثرا لولا مقتله المفاجيء الذى وضع حدا لحكمه . واذا كان قد اتصف فى التاريخ بالقسوة والفظاظة ، فان ذلك مرده الى حزمه ومظهره الصارم ، فضلا عن أنه فقد احدى عينيه مما أكسبه صورة بشعة تبعث على الرهبة والخوف(٤) . وقد رفض البابا بونيفيس الثامن الاعتراف بألبرت الأول ملكا على ألمانيا ، فلجأ الأخير الى عقد معاهدة مع فيلب الرابع

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, pp. 312-313.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 88—89.
(3) Barraclough : op. cit. pp. 304-305.
(4) Lodge : op. cit. p. 14.

ملك فرنسا ـ الذى كان فى نزاع هو الآخر مع البابوية ـ وبذلك تخلى ألبرت عن مطامع سلفه أدولف فى برجنديا(١) • ولم يلبث أن ازداد حسن التفاهم بين ألبرت وفيلب عندما تقابل العاهلان فى نهاية عام ١٢٩٩ واتفقا على زواج الأميرة الفرنسية بلانش من رودلف أكبر أبناء ألبرت(٢) • أما فى سياسته الداخلية فقد لجأ ألبرت الى مناصرة المدن ضد الأمراء ، حتى أنه أصـــدر مرسوما بالغاء جميع الضرائب والمكوس التى استحدثت فى منطقة الراين بعد وفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ • وهنا أحس كبار أساقفة الراين وأمراؤه بالخسارة التى لحقت بهم ، فكونوا حلفا ضد الملك ألبرت بعد عامين من اختياره للحكم • ولكن ألبرت لم يكن ضعيفا ، فاعتمد على مساعدة المدن من جهـة والفرنسيين من جهة أخرى • وقام بتوجيه ضربته بين سنتى ١٣٠٠ ، ١٣٠٢ ضد المتمردين ، وبخاصة رؤساء أساقفة مينز وكولونيا وترير وناخب بلاتينات الراين(٣) ، حتى أجبرهم على الغاء المكوس والاعتراف بحق المدن فى منح امتيازاتها وحقوقها للجماعات المقيمة خارج أسوارها •

ثم كان أن شغل ألبرت نفسه فى الفترة الباقية من حكمه ـ أى بعـــد سنة ١٣٠٢ ـ بالمشاكل المتعلقة بوراثة العرش فى هنغاريا وبوهيميا ، حتى انتهى الأمر بمقتله على يد ابن أخيه حنا سنة ١٣٠٨ (٤) • ومن الواضح أن مقتل ألبرت المفاجىء كان خطير الأثر بالنسبة لمســـتقبل ألمانيا من جهة وأسرة هابسبورج من جهة أخرى • ذلك أنه من الثابت أن ألبرت كان سيستطيع ـ لو أتيحت له مهلة أطول فى العمر ـ أن يمكن لأسرته فى ألمـانيا بصورة تحول دون ظهـــور أسرة لكسمبورج ووصـــولها الى الحـــكم (٥) • ولكن مقتل ألبرت قبل أن يستكمل تنفيذ مشروعاته ، أدى الى اختيار هنرى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 88.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, pp. 312-314.
(3) Barraclough : op. cit. p. 306.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 92.
(5) Lodge : op. cit. p. 19.

السابع أمير لكسمبورج ملكا على ألمانيا فى أكتوبر سنة ١٣٠٨ ، وبذلك ظهر على مسرح التاريخ بيت جديد منافس لبيت هابسبورج الذى لم يجد أفراده بدا من الاعتراف بحكم الملك الجديد بشرط اقرارهم على ما تحت أيديهم من ضياع وممتلكات(١) .

على أن هنرى السابع (١٣٠٨ - ١٣١٤) اعتبر نفسه غريبا عن ألمانيا منذ أول الأمر ، فارتكب حماقة كبرى باتجاهه نحو ايطاليا ، حتى أصبح حكمه أكثر ارتباطا بتاريخ ايطاليا منه بتاريخ ألمانيا(٢) ، ذلك أن ضعفه جعله يتملق كبار الأمراء عن طريق الغاء الامتيازات التى منحها سلفه ألبرت للمدن(٣) ، وذلك قبل قيامه برحلته الى ايطاليا حيث توج فى روما سنة ١٣١٢ . وفى تلك الأثناء قامت ثورة بوهيميا انتهت بعرض تاجها على حنا بن هنرى السابع بشرط أن يتزوج من الياصابات (اليزابيث) ابنة ونزل الثانى Wenzel II ملك بوهيميا الأسبق . أما هنرى السابع ملك ألمانيا فقد مات فى ايطاليا سنة ١٣١٤ قبل أن يتمكن من العودة الى بلاده ، وبذلك ترك مصالح الملكية الألمانية نهبة بين كبار الأمراء من جهة وأطماع فيلب الرابع ملك فرنسا الذى استولى على ليون سنة ١٣١٠ من جهة أخرى(٤) .

لودويج (لويس) الرابع والبابوية :

أدت وفاة هنرى السابع ١٣١٤ الى دور من أدوار الفوضى والنزاع حول ولاية الحكم . ذلك أن عدم وجود سلطة مركزية قوية تسيطر على أهواء الأمراء من جهة ، وعدم وجود تقاليد مرعية وقواعد ثابتة لاختيار الملك من جهة أخرى ، أدت جميعا الى ما امتاز به التاريخ الألمانى فى ذلك الشطر الأخير من العصور

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 93.
(2) Orton : op. cit. p. 331.
(3) Barraclough : op. cit. p. 307.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 316.

الوسطى من قلق وعدم استقرار(١) • ويبدو هذا القلق أشد ما يكون وضوحا عندما اختار فريق من أمراء ألمانيا فردريك بن ألبرت الأول وريث الهابسبورج ملكا ، حتى توج فردريك فعلا في بون Bonn سنة ١٣١٤ ، في حين اختار فريق آخر لودويج - أولويس - دوق بافاريا وتوجوه هو الآخر في آخن في العام نفسه • ومن الواضح أن مثل هذه الأزمة كانت لا يمكن أن تحل الا بالحرب وقوة السلاح ، حتى انجلى الموقف أخيرا سنة ١٣٢١ - أي بعد حرب سبع سنوات - بانتصار لودويج البافاري(٢) •

وكانت أبرز ناحية في حكم لودويج الرابع (١٣١٤ - ١٣٤٧) هي اشتباكه في نزاع مع البابوية • ذلك أن البابوية استغلت فرصة الحرب الأهلية في ألمانيا لتقوية الجلفيين في ايطاليا ، وهي واثقة من أن الجبللينين لن يستطيعوا في تلك الظروف الحصول على مساعدة من ألمانيا • وهكذا لم يكد البابا كلمنت الخامس يسمع بوفاة هنري السابع ملك ألمانيا حتى طفق يتدخل في الشئون الادارية ، فعين روبرت ملك نابلي في وظيفة النائب الامبراطوري بايطاليا • ثم جاء البابا حنا الثاني والعشرين سنة ١٣١٦ ليستأنف سياسة كلمنت الخامس ويؤكد حقوق البابوية • وقد انتهز هذا البابا الأخير فرصة الخلاف بين لودويج الرابع وفردريك هابسبورج ليظهر سيادة البابوية ، فرفض الاعتراف بالخصمين المتنازعين جميعا ، وعين روبرت الأنجوي نائبا امبراطوريا سنة ١٣١٧(٣) • وعندما انتهى النزاع في ألمانيا بانتصار لودويج البافاري طلب البابا منه عرض قضيته على المحكمة البابوية في روما Roman Curia سنة ١٣٢٣(٤) • ولما رفض لودويج الرابع ذلك أعلن البابا عزله ، بل أصدر قرار الحرمان ضده • وهكذا بدأ نزاع جديد بين الامبراطورية والبابوية استمر في عهد البابا بندكت الثاني عشر (١٣٣٤ -

---

(1) Lodge : op. cit. p. 98.
(2) Baring-Gould, op. cit. pp. 155-157.
(3) Eyre : op. cit. p. 477.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 75.

١٣٤٢) وكلمنت السادس (١٣٤٢ — ١٣٥٢) ولم ينته الا بعد وفاة لودويج الرابع سنة ١٣٤٧(١) ٠

وقد يبدو هذا النزاع احياء أو امتدادا للنزاع القديم بين البابوية والامبراطورية ، ولكننا لو أمعنا النظر اليه لوجدناه يختلف في معالمه وجوهره عن النزاع الأساسي السابق ٠ فبابوات أفينون في القرن الرابع عشر لم يكونوا على شيء من قوة النفوذ وسعة السلطان التي كانت لأسلافهم من شاكلة جريجوري السابع وأنوسنت الثالث ٠ هذا بالاضافة الى لودويج الرابع نفسه لم يكن على شيء من القوة التي كانت لفردريك بربروسا أو فردريك الثاني(٢)٠ حقيقة اننا نجد أحيانا في أسلوب البابوية في القرن الرابع عشر شبها واضحا لما كان عليه هذا الأسلوب في القرن الثاني عشر ، فيسرع البابا الى عزل الملك واصدار قرار الحرمان ضده ، ولكن هذه القرارات البابوية لم يصبح لها الأثر عينه الذي كان لها أيام مجد البابوية وسطوتها ، ولم تعد تعبر الا عن مظاهر جوفاء صادرة عن بابوية ضعيفة(٣) ٠

واذا كانت الخلافات الدينية والحركات الهرطقية داخل الكنيسة الغربية قد أضعف مركز البابوية في نزاعها مع لودويج الرابع (٤) ، فان ثمة عاملا قويا ساند ملك ألمانيا ومكنه من الصمود والمقاومة ٠ ففي جميع أدوار النزاع السابق القديم بين البابوية والامبراطورية كان البابوات لا يعدمون وجود حلفاء لهم داخل ألمانيا نفسها من خصوم الامبراطور ٠ أما في تلك المرة — على عهد لودويج الرابع — فقد وجد ملك ألمانيا نفسه — لأول مرة في تاريخ بلاده مسنودا بشعور قوى متدفق من قلوب رعاياه ، يشبه ذلك الشعور الذي ساند فيلب الرابع ملك فرنسا في نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن(٥) ٠ ولعل مصدر

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 310.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 119-121.
(4) Eyre : op. cit. p. 432.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie pp. 149-151.

هذا الارتباط الذى بدا وثيقا بين ملك ألمانيا وأمرائها وشعبها هو وقوع البابوية فى الأسر البابلى وبقاؤها فى أفينون تحت رقابة الملكية الفرنسية . وهكذا اجتمع الناخبون فى ألمانيا سنة ١٣٣٨ فى رنز Rense على الراين ، وقرروا أن السلطة الامبراطورية مستمدة من الله مباشرة ، وأن الأمير الذى يختار ملكا أو امبراطورا بواسطة الناخبين يصبح حاكما شرعيا دون حاجة الى أية وساطة أو اجراءات دينية أخرى(١) . وثمة أهمية أخرى لهذا المؤتمر فى التاريخ الدستورى لألمانيا ، لأنه أول اجتماع يتعاون فيه الناخبون لحل مشكلة من مشاكل الدولة لا ترتبط باختيار حاكم جديد . وبعد ذلك عقد اجتماع آخر فى فرانكفورت لتأييد قرارات مؤتمر رنز من جهة واصدار عدة قرارات أخرى تستهدف تقوية السلطة المركزية واقرار الأمن والسلام فى البلاد من جهة أخرى(٢) .

على أنه مع توافر جميع هذه العوامل المساندة للامبراطور الا أن الموقف بينه وبين البابوية انتهى بانتصارها وخضوع لودويج الرابع . ويرجع السبب فى ذلك الى أن لودويج لم يقدر الأمور حق قدرها ، واستمع الى نصيحة مستشاريه من الفرانسيسكان ليقوم بحملة على ايطاليا سنة ١٣٢٧(٣) . وقد استطاع لودويج أن يثبت نفوذه فى شمال ايطاليا ووسطها فى حين فر أتباع البابا نحو الجنوب ، فدخل روما فى يناير سنة ١٣٢٨ حيث توج امبراطورا بواسطة اثنين من الأساقفة . أما البابا حنا الثانى والعشرين (١٣١٦ - ١٣٣٤) فقد أصدر من مقره فى أفينون قرار الحرمان ضد الامبراطور وأعوانه ، فرد الأخيرون على البابا باتهامه بالهرطقة واعلان عدم شرعية انتخابه . ثم اختار الامبراطور أحد الأخوان الفرانسيسكان - من أعوانه - ليتولى منصب البابوية تحت اسم نيقولا الخامس(٤) .

---

(1) Barracluogh ; op. cit. p. 312.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 131-132.
(3) Lodge : op. cit. p. 104.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1., p. 76.

وهكذا يبدو أن لودويج أقحم نفسه فى صراع دون أن يمتلك الأدوات المادية أو المعنوية التى تساعده على الاستمرار فيه • وسرعان ما بدا عجزه واضحا أمام أهالى ايطاليا من جهة وروبرت ملك نابولى من جهة أخرى • فتراجع الى ألمانيا سنة ١٣٣٠ تاركا البابا الامبراطورى نيقولا الخامس ليستقيل من منصبه ويلعن خضوعه لغريمه حنا الثانى والعشرين(١) • وقد أتيحت بعد ذلك فرصة أمام لودويج الرابع لاصلاح مركزه معتمدا على الشعور القومى فى ألمانيا من جهة وعلى محالفة ادوارد الثالث ملك انجلترا من جهة أخرى ، مما يمكنه من الثبات فى وجه البابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤ - ١٣٤٢) وفيلب السادس ملك فرنسا جميعا • ولكن لودويج الرابع اختار أن يتراجع ، فنبذ فجأة تحالفه مع انجلترا سنة ١٣٤٠ ليعقد صلحا مع فيلب السادس مؤملا أن يستغل الأخير نفوذه لاصلاح الموقف مع البابوية(٢) • ويبدو أن هـــذا المسلك من جانب الامبراطور أثار الشعور ضده فى ألمـانيا ، ومع ذلك فقد ظل محتفظا بمركزه حتى وفاته سنة ١٣٤٧ بفضل التنافس بين آل هابسبورج وآل لكسمبرج من جهة ، وانشغال فيلب السادس ملك فرنسا بحرب انجلترا من جهة أخرى • وربما كانت أخطر ضربة وجهتها البابوية نحو لودويج الرابع قبل وفاته ببضعة أشهر هى أنها هيأت الجو لاختيار شارل لكسمبرج - حفيد هنرى السابع - ملكا على ألمانيا (١٣٤٧ - ١٣٧٨)(٣) •

شارل الرابع ، الوباء الأسود والمرسوم الذهبى :

وقد اجتاح أوربا فى ذلك العصر (١٣٤٨ - ١٣٤٩) وباء خطيـــر عرف باسم الوباء الأسود Black Death • والمعروف أن هذا الوباء زحف من آسيا على امتداد الطرق التجارية المؤدية الى البحر الأسود ومن ثم تطرق الى شرق أوربا فغربها ، فضلا عن بلاد الشرق الأدنى(٤) • وليس هذا مجـــال الكلام عن أعراض هذا الوباء وخطورته وشدة فتكه بالبلاد التى انتشر فيها ،

(1) Eyre : op. cit. p. 433.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 132-133.
(3) Barraclough : op. cit. pp. 313-314.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 520.

لقد أفاضت المراجع والحوليات المعاصرة فى وصف هذه النواحى (١) ، وانما الذى يهمنا هو النتائج الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التى ترتبت عليه • ذلك أن أوربا فقدت بسبب هذا الوباء نسبة ضخمة من سكانها تتراوح بين الثلث والنصف ، مما أثر فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية تأثيرا خطيرا ، بعد أن قلت الأيدى العاملة وتعطلت الأشغال وارتفعت الأسعار(٢) ، وتوقفت التجارة ، واختل كثير من المقاييس الاقتصادية والاجتماعية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى (٣) • ولم يسع الناس وسط هذه المحنة سوى الهروع نحو الكنائس والأديرة متضرعين سائلين كشف هذه الغمة ، طالبين رحمة الكنيسة وحمايتها • وسرعان ما انتشرت شائعة بين الناس مؤداها أن اليهود هم الذين تسببوا فى نشر هذا الوباء بتسميمهم الآبار ، وعندئذ لم يجد الناس وسيلة لتصريف همهم المكبوت سوى اضطهاد اليهود حتى قتلوا منهم عـــدة آلاف فى مختلف أنحاء أوربا(٤) • ثم نادى فريق آخر من الناس بأن هذا البلاء ليس الا نتيجة لغضب الله على عباده • وأن المخرج الوحيد من الأزمة هو التوبة بتعذيب النفس ، ومن ثم ظهرت طائفة السياطين **Flagellants** التى سبقت الاشارة اليها • والمهم هو ما نلاحظه من أن أثر الوباء الأسود لم ينته

---

(١) وخير وصف أمامى بالعربية لأعراض هذا الوباء وآثاره فى البلاد التى انتشر فيها ، قول المقريزى « ••• وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف الى خمسة عشر ألف الى عشرين ألف نفس فى كل يوم ••• وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر • وكان الموت بالطاعون يبصــق الانسان دما ثم يصيح ويموت ، وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعا • ولم يكن هذا الوباء كما عهد فى اقليم دون اقليم بل عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، جميع أجناس بنىآدم وغيرهم، حتى حيتانالبحر وطيرالسماءووحش البر • وأول ما بدأ الوباء ، كان يخرج خلف أذن الانسان بثرة فيخر صريعا • فاشتد الهول من كثرة الموت حتى أنه كان أكثر من يعيش بعد نفث الدم نحو خمسين ساعة • وصارت الأموات على الأرض لا يوجد من يدفنها • وعم الوباء جميع تلك الأراضى ، ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع ، وزهد أرباب الأموال فى أموالهم ».

(المقريزى : السلوك ، حوادث سنة ٧٤٩ هـ) •

(2) Cam.Med. Hist. Vol. 7. pp. 463-733.

(3) Orton : op. cit. p. 379.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 658-661.

بزواله عند منتصف القرن الرابع عشر ، وانما استمرت نتائجه ـ ممثلة فى قلة الأيدى العاملة وارتفاع الأجور والأسعار ـ تؤثر فى أحوال أوربا حتى نهاية ذلك القرن ، بحيث أن الثورة العظمى فى انجلترا سنة ١٣٨١ انما تعتبر فى الواقع نتيجة مباشرة لهذا الوباء(١) .

وفيما عدا انتشار الوباء الأسود ، فان أهم حدث فى عهد شارل الرابع كان اصدار المرسوم الذهبى Golden Bull سنة ١٣٥٦ ، وهو المرسوم الذى سمى بهذا الاسم لأن الخاتم الذى ختم به حفظ بعد ذلك فى صندوق من الذهب . ذلك أن شارل الرابع وجد أن المنازعات التى تقوم فى الامبراطورية حول عملية اختيار كل امبراطور جديد تسبب كثيرا من الفوضى والمتاعب ، فوضع هذا المرسوم الهام لتنظيم عملية انتخاب الأباطرة ـ ملوك ألمانيا ـ وتحديد قواعدها(٢) . وبمقتضى المرسوم الذهبى تحدد عدد الناخبين ـ الذين لهم حق انتخاب الامبراطور ـ بسبع ، هم رؤساء أساقفة مينز وكولونيا وتريف ، وملك بوهيميا ودوق بافاريا ودوق سكسونيا وأمير براندبرج (٣) . كذلك نص المرسوم على أن يجرى الانتخاب فى فرانكفورت ، على أن يتم تتويج الامبراطور فى اكس لاشابل (آخن) . وكل بيت من بيوت الناخبين له صوت واحد يعبر عن رأيه ، على أن تنتقل جميع أراضى الأمير وامتيازاته الى ابنه الأكبر بالوراثة دون أن ينازعه بقية الأبناء أو الورثة ، حفظا لكيان الامارات الكبرى من الانقسام منعا لتفتيت الدولة (٤) .

وهكذا يبدو لنا أن المرسوم الذهبى كان بمثابة اطار اقطاعى ، يحدد الحياة السياسية لألمانيا فى أواخر العصور الوسطى ، ويجعل من الأمراء القوة الفعالة فى هذه الحياة(٥) . ذلك أن المواد الواضحة التى نص عليها هذا المرسوم ظلت معمولا بها حتى انقضى آخر طيف للامبراطورية المقدسة سنة ١٨٠٦ . ولكن من الواضح أن المرسوم الذهبى أغفل أية اشارة الى البابوية وحقها فى

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 571.
(2) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 926-929.
(3) Eyre : op. cit. p. 553.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 144-145.
(5) Barraclough : op. cit. p. 381.

التصديق على نتيجة انتخاب الامبراطور أو الاعتراض على هـذه النتيجة . وبعبارة أخرى فان المرسوم الذهبى حقق الرغبة العامة التى ظهرت فى مؤتمر رنز من قبل واعتبر انتخاب الامبراطور مسألة داخلية خاصة بالأمة الألمانية ، فلا حق للبابوية أو غيرها فى التدخل فيها . لذلك أسرع البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢) الى اعلان استيائه من هذا المرسوم(١) ، ولكن شارل الرابع وقف من البابوية موقفا صلبا جعل البابا يتراجع عن معارضته للمرسوم الذهبى ، وبذلك انقطعت آخر الخيوط التى كانت تقيد الامبراطورية بكلمة البابوية (٢) ..

واذا كان المرسوم الذهبى يعتبر فى حد ذاته محاولة فعالة فى وقف تفتيت الامارات الكبرى ، الا أن شارل الرابع نفسه لجأ قبل وفاته الى تقسيم أملاك أسرته بين أبنائه ، فجعل بوهيميا وسيلزيا لأكبر أبنائه ونسلاس ، وبراندبرج لابنه الثانى سجسموند ، فى حين أنشأ دوقية جديدة فى لوسيتز Lausitz لثالث أبنائه حنا(٣) . هذا بالاضافة الى بقية أملاك أسرة لكسمبرج التى ظلت بأيدى اخوة شارل الرابع وأقاربه . وهكذا أدى هذا التفتيت فى الأملاك الى اضعاف بيت لكسمبرج بحيث لم يصل مرة أخرى الى درجـة الزعامة فى الامبراطورية(٤) .

ألمـانيا فى القرن الخامس عشر :

حدث عند وفاة شارل الرابع سنة ١٣٧٨ أن خلفه ابنه ونسلاس بعد أن مهد أبوه لذلك فى حياته ، حتى تم انتخابه وتتويجه فى آخر سنة ١٣٧٦ . على أن ونسلاس لم يستمر مدة طويلة فى الحكم اذ عزل سنة ١٤٠٠ نتيجة لعبثه وافراطه فى الشراب(٥) . وقد أعقبت ذلك فترة من النزاع حول شغل منصب الامبراطورية استمرت عشر سنوات وانتهت بتولية سجسموند ثانى أبناء شارل الرابع ، وذلك بفضل مساعدة فردريك هوهنزولرن صـاحب نورمبرج الذى كافأه سجسموند على مساعدته بتوسيع سلطانه(٦) . وهكذا أخذ

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 148.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 82.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 150.
(4) Lodge : op. cit. p. 123.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 119-120.
(6) Barraclough : op. cit. p. 358.

يظهر اسم آل هوهنزلرن الذين اشتقوا لقبهم من قلعة زولرن في سوابيا ، والذين عرفوا بمقدرتهم على تنظيم ممتلكاتهم وتوسيعها • وقد حاول سجسموند (١٤١١ - ١٤٣٧) أن يشن عدة حروب على التمانيين بوصفه ملكاً على هنغاريا ، ولكنه لم يوفق فيها • على أنه كان مخلصا فى العمل على اصلاح الكنيسة وازالة الانشقاق الدينى فى غرب أوربا ، حتى كان له دور ملحوظ فى مجمع كونستانس سنة ١٤١٤ كما مر بنا(١) •

ولم يعقب سجسموند ذرية من الذكور ترثه فى الحكم ، فخلفه ألبرت الثانى هابسبورج ليبقى فى منصب الامبراطورية سنة واحدة توفى بعدها (١٤٣٨ - ١٤٣٩) ، فخلفه ابنه فردريك الثالث (١٤٣٩ - ١٤٩٣)(٢) • ومن الواضح أن المدة الطويلة التى قضاها فردريك الثالث فى الحكم مكنته من تدعيم نفوذه وسلطان بيته ، بحيث ظل بيت هابسبورج يحتكر المنصب الامبراطورى بعد ذلك حتى سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة فى أوائل القرن التاسع عشر(٣) •

على أنه يلاحظ أن الفوضى ظلت ضاربة أطنابها فى ألمانيا على الرغم من وحدة اللغة والتقاليد • حقيقة انه كان هناك بلاط امبراطورى ، ولكنه استمر عديم النفوذ والسلطان • وهكذا وجد بألمانيا فى أواخر العصور الوسطى أكثر من ثلثمائة امارة منفصلة ، لا هم لأمرائها سوى اشعال الحروب والمنازعات المحلية فيما بينهم ، والاغارة على المناطق المجاورة وسلب المسافرين ، حتى أطلق على أمراء ألمانيا فى ذلك العصر اسم « الفرسان اللصوص Robber Knights »(٤)• أما المدن الكبرى فقد اتجهت وفق ما تمليه مصالحها والزود عن حقوقها(٥)• ومن الواضح أن هذه العوامل اجتمعت لتجعل من المتعذر اقرار الأمن والنظام فى البلاد الألمانية ، لأن كبار الأساقفة من جهة ، والمدن من جهة ثانية ، وكبار الأمراء من جهة ثالثة أجمعوا جميعا على التمسك بنفوذهم وعدم التخلى عن

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 524-525.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 186.
(3) Thompson : Vol, 2, pp. 935-936.
(4) Baring-Gould : op. cit. pp. 136-140.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 153.

سلطانهم من أجل قيام سلطة مركزية قوية • هذا فى الوقت الذى تمسك صغار الفرسان بحياة القتال والسلب والنهب مفضلين اياها على حياة السكينة والفقر (١) • وهكذا أمسى تاريخ ألمانيا فى ذلك الجزء الأخير من العصور الوسطى عبارة عن سلسلة من المنازعات والحروب بين الأمراء ، وهى حروب كان محورها الأساسى البحث عن المال والحصول عليه لسد مطالب التنظيمات الجديدة التى دخلت حكومات هؤلاء الأمراء فى القرن الخامس عشر(٢) •

العصبة الهانزية :

على أن التجار الذين لم تتح لهم فرصة لتقوية نفوذهم فى ميدان السياسة انصرفوا الى ميدان آخر أكثر نفعا وأوفر ربحا ، فتركوا الملوك والأباطرة يكافحون الأمراء ورجال الكنيسة وينازعونهم السلطان ، وانصرفوا هم نحو تدعيم نشاطهم الاقتصادى الذى أكسبهم قوة خطيرة فى نهاية الأمر(٣) • وقد أسهمت مختلف المدن الألمانية وبخاصة فى الشمال فى هذا النشاط التجارى منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فانصرف تجار مدن الشمال الغربى ـ وعلى رأسها كولونيا ـ نحو الغرب واتخذوا من بروجز Bruges بفلاندرز ولندن بانجلترا مراكز أساسية لعمليات التبادل التجارى ، فى حين اتجه تجار مدن الشمال الشرقى ـ وعلى رأسها هامبورج وليوبك ـ شرقا وأسسوا مراكز تجارية لعملياتهم فى نوفجرود بروسيا وبرجن بالنرويج ووتن Witten بالسويد وويزبى Wisby بجزيرة جوتلاند بالبحر البلطى(٤) • وكانت هذه المراكز أشبه بالنقابات ، ومن أمثلتها الواضحة أن بعض التجار الألمان الذين ينتمون الى مدينة كولونيا أسسوا فى لندن حوالى القرن الثانى عشر نقابة شهيرة هى التى عرفت فى القرن الخامس عشر باسم

---

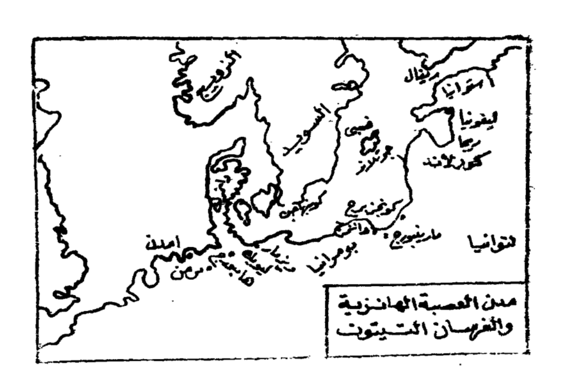
(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 140-148.
(2) Barraclough : op. cit. pp. 343-344.
(3) Orton : op. cit. p. 427.
(4) Idem : pp. 427-428.

« نقابة تجار القبان Merchants of the Steel Yards » وعندئذ ضمت اليها نقابات التجار المشابهة فى بقية المدن الانجليزية مثل يورك وبريستول ، لتحتكر التجارة الألمانية فى انجلترا(١) .

على أن التجار الألمان سرعان ما ألفوا أنفسهم فى حاجة الى الاتحاد لحماية مصالحهم التجارية وسط مظاهر الفوضى السياسية التى عمت ألمانيا فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ، فأخذوا ينتظمون – على خلاف المدن التى ينتمون اليها – فى هيئة اتحادات تجارية كبيرة(٢) . ويبدو أن المدن الواقعة فى حوض الراين كانت أسرع من غيرها الى الاتحاد ، وذلك بحكم تعرضها أكثر من غيرها للنهابة من الأمراء الذين لا تزال بعض قلاعهم الباقية فى هذا الجزء من أوربا تشهد على شدة بأسهم وعظم خطرهم(٣) . وهكذا تم التحالف سنة ١٢٣٠ بين مدينتى ليوبك وهامبورج ، ثم انضمت الى هذا التحالف بعد قليل بعض المدن المجاورة مثل ويزمار وروستوك ، حتى أخذ التحالف ينمو تدريجيا بعد أن وجد كثير من المدن الشمالية أن صالحها العام يتطلب الانضمام الى هذه العصبة التى تزعمتها ليوبك . وأخيرا ارتبطت هذه المدن كلها بالاتحادات الخارجية التابعة لها ، مما أدى الى نشأة ما يعرف باسم العصبة الهانزية (حوالى ١٣٥٠ – ١٣٧٠)(٤) . وهى العصبة التى أصبح لها أربع مراكز كبرى فى نوفجرود ولندن وبروجز وبرجن(٥) .

وعلى الرغم مما ظهر أحيانا بين مدن هذه العصبة من خلافات ، الا أنها أثبتت جدارتها ومقدرتها على حماية مصالحها والوقوف فى وجه التيارات المعادية ، لا سيما قراصنة الدول السكندناوية ، التى كانت لا تزال تحتفظ ببقية من روح الفيكنج القديمة . وقد دخل والدمار الرابع ملك الدانمرك

(1) Eyre : op. cit. p. 726.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 220.
(3) Zimmern : The Hansa Towns. p. 45.
(٤) نسبة الى لفظ (Hansa) بمعنى اتحاد أو مجموعة من الرجال وبخاصة اذا كانوا من التجار أو المحاربين .
(5) Barraclough : op. cit. p. 266



مدن العصبة الهانزية والفرسان التيتون

(١٣٤٠ - ١٣٧٥) في صراع عنيف ضد العصبة الهانزية وتمكن فعلا من انتزاع ويزبي منها(١) ، ولكنه أدرك بعد ذلك أنه يناطح قوة جبارة يصعب التغلب عليها ، فلم تحل سنة ١٣٧٠ الا وكانت العصبة الهانزية قد استردت جميع امتيازاتها بل وأصبح لها صوت مسموع في اختيار الملوك في ذلك الركن الشمالي الغربي من أوربا(٢) •

وهكذا نمت العصبة الهانزية حتى أصبحت تتحكم في عدد كبير من السفن والأساطيل ، كما صارت لها السيطرة على تجارة شمال أوربا ، وبخاصة البلطي الذي كان مركز قوتها ومحور نشاطها(٣) • واذا كان تجارها في لندن وبروجز قد خضعوا لقوانين البلاد التي أقاموا فيها ، الا أن العصبة مارست في روسيا والدول السكندناوية نفوذا سياسيا زيادة على نفوذها الاقتصادي • هذا الى أن انتشار التجارة الألمانية على امتداد الشاطيء الشرقي للبحر البلطي ، وتأسيس مدن ألمانية جديدة في تلك الجهات أدى الى اتساع النفوذ السياسي للعصبة الهانزية ، فضلا عما في ذلك من مظهر لحركة التوسع الألماني في تلك الجهات (٤) • أما الأهداف الأساسية للعصبة الهانزية فكانت تتلخص في حماية تجارتها من الأعداء من جهة والمنافسين من جهة أخرى ، بالاضافة الى التوسع في الحصول على مزيد من الامتيازات • ولتحقيق هذه الأهداف أنشأت العصبة الهانزية قوة بحرية ضخمة ، حتى أصبح كبار ملوك أوربا يخشون بأسها وينشدون محالفتها (٥) ، مما مكنها لا من رعاية مصالحها فحسب ، بل من النهوض بمستوى الحضارة في شمال أوربا أيضا عن طريق رصف الطرق وتأمينها وشق القنوات والترع • هذا غير ما نالها من الرقي بنظم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 221.

(2) Zimmern : op. cit. pp. 53-65.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 226.

(4) Barraclough : op. cit. p. 266.

(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 239.

التجارة والمعاملات المالية عن طريق التوسع فى استخدام الحوالات والأوراق المالية ، والعناية بتشييد الكنائس الفخمة وتشجيع العلوم والآداب(١) .

ولكن لم تلبث أن تعرضت العصبة الهانزية فى القرن الخامس عشر للضعف ثم الانهيار وذلك نتيجة لأسباب عديدة متباينة ، منها ما يرجع الى روح الأنانية والكبرياء التى سيطرت عليها ومنها ما يربط بعوامل أخرى خارجية لا يد لها فيها . من ذلك أن العصبة الهانزية رفضت قبول تجار المدن الأخرى فى الوقت الذى كانت هذه المدن تسمح للتجار الهانزيين بالتردد عليها ، مما أدى الى اثارة العداوة بين الطرفين حتى انتهى الأمر الى الصراع المسلح(٢) . هذا الى أن الدول الخارجية التى كانت للعصبة الهانزية مراكز وامتيازات اقتصادية أو سياسية فيها ، أخذت فى القرن الخامس عشر تدخل دورا جديدا من الاستقرار والتنظيم السياسى ، فانحل النظام الاقطاعى وظهرت الملكيات القوية ، وتبع ذلك زوال المبررات التى من أجلها قامت العصبة الهانزية ، وأهمها تأمين الطرق وتحقيق العدالة(٣) . وهنا تمسكت العصبة الهانزية بامتيازاتها القديمة ورفضت أن تتمشى مع روح العصر وتتخلى عنها مما أوقعها فى صراع آخر . أما العوامل الخارجية عن ارادة العصبة فأهمها أنها كانت تستمد جزءا كبيرا من أرباحها من مصايد سمك الرنجة Herring فى البحر البلطى(٤) ، حتى أدت أسباب طبيعية مجهولة الى هجرة هذا النوع من السمك من البحر البلطى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر (حوالى سنة ١٠٢٥) ، الأمر الذى سبب للعصبة الهانزية خسارة فادحة(٥) . هذا كله بالاضافة الى استكشاف الطريق البحرى الى الهند من جهة وأمريكا من جهة أخرى ، أحدث انقلابا خطيرا وثورة عنيفة فى اتجاهات التجارة الأوروبية ،

---

(1) Zimmern : op. cit. pp. 107-111.
(2) Cam. Med. Hist. Vol., 7, pp. 241-247.
(3) Zimmern : op. cit. p. 212.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 212.
(5) Zimmern : op. cit. p. 49.

فأصبحت هذه التجارة تتجه نحو الغرب والجنوب دون أن تستطيع العصبة الهانزية مسايرة هذه التطورات الجديدة(١) •

نشأة سويسرا :

كانت البلاد المعروفة اليوم باسم سويسرا مقسمة فى العصور الوسطى بين مملكة برجنديا ودوقية سوابيا ، حتى أضحت فى القرن الثانى عشر تحت سيطرة أمراء زايرنجن Zearingen (١٠٥٠ - ١٢١٨)(٢) • وعندما تفككت أملاك هؤلاء الأخيرين سنة ١٢١٨ استولى آل هابسبورج على معظم المقاطعات المتحدثة الألمانية ، واستولى امبراطور ألمانيا على جزء آخر يشمل منطقة أورى الجبلية uri الجبلية ومدينة برن ، فى حين احتل بطرس الثانى صاحب سافوى الجزء الذى تسوده اللغة اللاتينية Vaud (٣) • وقد دفع حرص الامبراطور فردريك الثانى على الاحتفاظ بالطريق الموصل بين ألمانيا وايطاليا الى منح مقاطعتى أورى وسويز - وهما المقاطعتان اللتان تتحكمان فى ممر سانت جوتارد - شيئا من الامتيازات والحرية ، الأمر الذى ضايق آل هابسبورج باعتبارهم أصحاب السيطرة على هذه الجهات(٤) •

ثم كان أن اعتلى آل هابسبورج عرش الامبراطورية سنة ١٢٧٣ ، وعندئذ بدأت المقاطعات السويسرية توجس خيفة ورأت أن تترابط وتتكاتف لمقاومة أية محاولة للانتقاص من حقوقها وامتيازاتها •

ولتحقيق هذا الغرض تم عقد « الحلف الدائم » سنة ١٢٩١ بين مقاطعات أورى uri وسويز Schwyz (٥) وانتروالدن Unterwaldenn ، فأعلنت هذه المقاطعات استقلالها وخروجها عن سلطان بيت هابسبورج ، ثم انضمت

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 247.
(2) Hug, Stead : Swizerland. pp. 65-100.
(3) Orton : op. cit. p. 418.
(4) Cam. Med. Hist, Vol, 7, pp. 186-187.
(٥) وهى التى اشتق منها اسم سويسرا •

إليها بعد قليل الولايات الأخرى بقصد مقاومة الأمير ألبرت هابسبورج الذى أصبح فيما بعد امبراطورا (١٢٩٨ - ١٣٠٨)(١) .

ويبدو أن موقف هذه الولايات المناوىء من بيت هابسبورج هو الذى جعل خصوم هذا البيت يعطفون عليها ويشجعونها ، من ذلك أنه عندما تولى هنرى لكسمبرج عرش الامبراطورية (١٣٠٨ - ١٣١٤) ، فانه زاد من الامتيازات التى تمتعت بها هذه الولايات السويسرية ، واعترف بأن الولايات الثلاث المتحالفة السابقة تكون وحدة سياسية ، وذلك من باب النكاية فى بيت هابسبورج(٢). وهكذا يمكن القول بأن هذا التحالف السويسرى الصغير يعتبر نواة لنشأة دولة جديدة احتلت مكانها على المسرح الأوربى(٣) .

على أن آل هابسبورج اختاروا ألا يعترفوا فى سهولة بهذا الوضع ، لاسيما بعد أن أخذت الولايات السويسرية المتحدة تغير على أراضيهم وأملاكهم وعندما هب الهابسبورجيين لتأديب هذه الولايات السويسرية حلت بهم الهزيمة سنة ١٣٥١ فى موقعة مورجارتن Morgarten (٤) ولم تلبث بقية المدن السويسرية أن أخذت تتطلع للتحرر من نير آل هابسبورج ، لا سيما بعد أن إغتنت هذه المدن من وراء اشتغالها بالتجارة ، شأنها شأن كثير من مدن أوربا فى تلك الحقبة . وهكذا انضمت الى الحلف لوسرن Lucerne سنة ١٣٣١ وزيورخ سنة ١٣٥١ وجلاروس Glarus زوج Zug سنة ١٣٥٢ وبرن سنة ١٣٥٣ ، حتى أصبح الحلف السويسرى يتألف من ثمان ولايات ضمت عددا كبيرا من المدن المهمة(٥) . وفى سنة ١٣٦١ أصدر شارل الرابع مرسوما امبراطوريا إعترف فيه بالحلف السويسرى ، فى حين ظل بيت هابسبورج ينكر الاعتراف بهذا الحلف حتى أنزل الحلفاء هزيمتين بالهابسبورجيين الأولى عند سمباخ Sempach سنة ١٣٨٦ والثانية عند نايفلز Naifels سنة ١٣٨٨ ،

(1) Eyre : op. cit. p. 418.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 937.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 189.
(4) Hug, Stead : op. cit. pp. 131-137.
(5) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 938.

وعندئذ اضطر آل هابسبورج الى الاعتراف بالحلف السويسرى ، وبأن هذا الحلف يتبع الامبراطور تبعية مباشرة(١) •

ولم يلبث السويسريون أن انتقلوامن مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم فأخذوا يوسعون أملاكهم وأراضيهم ، حتى انتهزوا فرصة النزاع بين لويس الحادى عشر وشارل صاحب برجنديا وانتزعوا نصيب لويس فى سويسرا ، كما هزموا شارل سنة ١٤٧٦ ثم سنة ١٤٧٧ • وهكذا سلك السويسريون طريقا مستقلا عن الامبراطورية منذ أواخر القرن الخامس عشر (سنة ١٤٩٥) (٢) بحيث لم يبق أمامهم سوى آخر الخيوط التى تربطهم بالامبراطورية واعلان استقلالهم عنها • وعندما أخذ الامبراطور مكسمليان الأول (١٤٨٦ - ١٥١٩) يسعى لضم شمل الامبراطورية ، حاول فرض كلمته على الحلف السويسرى سنة ١٤٩٥ ، ولكن السويسريون أبوا بعناد الموافقة على مشاريع الامبراطور مما أدى الى حرب بين الطرفين استمرت ستة أشهر ، وانتهت بصلح بازل سنة ١٤٩٩ ، دون أن ينجح الامبراطور فى تحقيق غرضه (٣) • وهكذا تم الاعتراف باستقلال الحلف السويسري ضمنيا ، وظهرت دولة جديدة لتضرب للعالم مثلا رائعا فى مزايا سياسة الحياد •

نشأة دولة الأراضى المنخفضة :

أما دولة الأراضى المنخفضة فقد تفرعت هى الأخرى فى أواخر العصور الوسطى عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولكنها اختلفت عن سويسرا فى أنها اشتملت على جزء من فرنسا مما جعلها تتجه نحوها وتنزع اليها • أما النواة التى نشأت منها دولة الأراضى المنخفضة فتبدو فى البقعة التى كان يسكنها الفرنجة الساليون فى أوائل العصور الوسطى ، ومن ثم وجدت رابطة عنصرية قوية تربطها بفرنسا ، هذا على الرغم من الحقيقة الثابتة وهى أن الأراضى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 296.
(2) Barraclough : op. cit. p. 360.
(3) Hug, Stead : op. cit. pp. 232-236.

المنخفضة تمثل داخلها لغة الفلمنكيين ذات الأصل الألماني ، جنبا الى جنب مع لغة الوالون ذات الأصل اللاتيني(١) .

ومهما يكن من أمر فقد انقسمت الأراضي المنخفضة عند تقسيم امبراطورية شارلمان الى جزئين ، فأصبح اقليم فلاندرز المرتبط ببحر الشمال والمانش اقطاعا فرنسيا ، في حين انضم الجزء الشرقي من حوض الشلد — تحت اسم اللورين الأدنى — الى ألمانيا ليخضع لمؤثرات ألمانية قوية(٢) . وكان أن ظهرت الأراضي المنخفضة في القرن الرابع عشر وقد سادها نظام سياسي واجتماعي وطيد الأركان ، كما كانت أبرز صناعة فيها غزل الصوف الذي أصبح العماد الرئيسي لتجارة فلاندرز . هذا الى أن مدن ذلك الاقليم مرت هي الأخرى بدور التحرر ، فكانت قومونات شأنها شأن كثير من المدن في جنوب أوربا وشمالها (٣) . واذا كان النبلاء قد اضطروا في أول الأمر الى الخضوع لأرستقراطية التجار الأثرياء ، الا أن هذه الطبقة الأرستقراطية لم تلبث أن خضعت بدورها في القرن الرابع عشر لنقابات أصحاب الحروب التي أسهمت بقسط وافر في كثير من الحركات الشعبية . وسرعان ما أدت هذه العوامل الى نوع من الفوضى وعدم الاستقرار مما جعل النبلاء والتجار والعمال يتحدون جميعا لمواجهة هذه الحركات التي هددت مصالحهم المشتركة .

وهكذا سارت أحوال الأراضي المنخفضة ، حتى أمدتها الظروف الطيبة بأسرة حاكمة استطاعت أن تقيم في البلاد ملكية عادلة متزنة . أما مؤسس هذه الأسرة فكان أحد أمراء البيت البرجندي ، ولوك فيليب الجسور (١٣٤٢ — ١٤٠٤) الذي خلفه ابنه حنا الشجاع (١٤٠٤ — ١٤١٩) في برجنديا وفلاندرز في حين خلفه ابنه الأصغر في دوقية برابانت (٤) . وقد ظل الوضع على ذلك

---

(1) Orton : op. cit. p. 420.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 832.
(3) Idem : dp. 334-335.
(4) Lodge : op. cit. pp. 320-322.

حتى جاء فيلب الطيب (١٤١٩ — ١٤٦٧) ابن حنا الشجاع فوحد برابانت وفلاندرز تحت حكمه سنة ١٤٢٠ ، وبذلك نشأت دولة الأراضي المنخفضة كوحدة سياسية ذات شخصية مستقلة في التاريخ • ولم تقتصر هذه الدولة على الاقليمين السابقين فحسب ، بل تعدتهما الى ضم هينولت Hainault واقليم هولاند شمالى الراين سنة ١٤٣٣ ، كماضمت لكسمبرج سنة ١٤٥١ ، وبذلك لم يبق خارجا عن نطاقها سوى أسقفية لييج(١) •

ولا شك في أن توحيد هذه الأقاليم المتقاربة أعطاها طابع الدولة وأعطى أهلها طابع الأمة • وقد أخذ حكام هذه الدولة من أمراء البيت البرجندي يدعمون سلطتهم الملكية في الوقت الذى سمحوا لرعاياهم من أهالى الأراضي المنخفضة بقسط وافر من الحرية(٢) • وهكذا اتجهت الأراضي المنخفضة نحو الابتعاد سريعا عن كل من فرنسا والامبراطورية لتكسب حضارتها طابعا محليا قويا • حقيقة ان هذه الحضارة التي شكلت تاريخ الأراضي المنخفضة كانت فرنسية في أصلها وعناصرها ، ولكنها أخذت تشرب عناصر جديدة ألمانية وبرجوازية لتكسب شخصية مستقلة قائمة بذاتها في الميدان الحضارى(٣) •

ولم تلبث الأراضي المنخفضة أن احتلت عند مستهل العصور الحديثة مكانة مرموقة بين دول أوربا في ميادين الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري والفني • هذا فضلا عن النشاط الفكرى ، حتى غدا أبناؤها يغذون أوربا بكثير من ثمرات جهودهم وانتاجهم •

الدولة السكندناوية :

وأخيرا نرى أنه لابد — لاستكمال الصورة التي كان عليها غرب أوربا في أواخر العصور الوسطى — من الاشارة الى الدول السكندناوية ، وان كانت

---

(1) Rogers : Holland, pp. 22-26.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 356.
(3) Orton : op. cit. p. 421.

هذه الدول لم تفرع - مثل سويسرا والأراضى المنخفضة - عن الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وقد سبق أن أشرنا كيف استطاع كانوت ملك الدانمرك اقامة دولة سكندناوية كبرى ضمت النرويج وانجلترا بالاضافة الى الدانمرك نفسها . على أن كانوت سرعان ما وجد هذه الامبراطورية أوسع من أن يستطيع حكمها بسهولة ففصل حكومة النرويج وأعطاها لابنه سوين **Sweyn** فى حياته(١) ، ثم لم تلبث بقية الامبراطورية أن تفتت عقب وفاته سنة ١٠٣٥ ، فاستقلت النرويج وانفصلت انجلترا بعد الغزو النورمانى ، وبدأت الظواهر تشير الى أن غزوات الفيكنج وهجراتهم قد انتهى وأدبر .

وتحتل الكنيسة الغربية جزءا هاما فى تاريخ الممالك السكندناوية منذ القرن الحادى عشر ، اذ ظلت الكنيسة بمثابة الرباط القوى الذى ربط هذه الأطراف الشمالية بالغرب الأوربى . وكان نفوذ الكنيسة الغربية قد أخذ يتطرق فى أول الأمر الى الأراضى الشمالية عن طريق ألمانيا ، اذ كانت هذه الجهات تتبع كرسى رئيس أساقفة هامبورج(٢) . ولكن مشكلة النزاع بين البابوية والامبراطورية ، وهى المشكلة التى لعبت فيها الكنيسة الألمانية دورا مهما سبق بيانه ، أتاحت فرصة لقيام كنيسة قومية فى سكندناوة فتأسست أسقفية دانمركية فى لوند سنة ١١٠٥ ، وأخرى نرويجية فى دورنهايم سنة ١١٥٢ ، وثالثة سويدية فى أوبسالا سنة ١١٦٤ . ولم تلبث الكنيسة فى البلاد الشمالية أن أزدادت قوة وثروة بفضل تشجيع الملوك الوطنيين ، مقتفية أثر الكنيسة الغربية فى نظمها وتشكيلها ، بما فى ذلك اعتمادها على الديرية ومؤسساتها من جهة وخضوعها للبابوية من جهة أخرى(٣) .

---

(1) Boyesen : A Hist of Norway, p. 225.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 411.
(3) Eyre : op. cit. p. 170.

وسرعان ما أدى هذا التطور فى النرويج الى مظهر جديد من مظاهر الصراع الكبير بين الكنيسة والدولة ، بعد ان حصل الأساقفة سنة ١١٦٤ على حقوق واسعة جعلتهم أصحاب الرأى الأول فى اختيار كل ملك جديد ، وذلك مقابل ما يقدمونه من مساعدات فى الحروب التى لم تنقطع من أجل الفوز بالعرش(١) • ولكن هذا الوضع كان أثقل من أن يحتمله الشماليون ، ولذلك تزعم سويرى Sverri ملك النرويج (١١٨٢ - ١٢٠٢) حركة واسعة النطاق تستهدف مقاومة الأساقفة والبابوية جميعا (٢) • وقد نجح هذا الملك فى تحدى البابا أنوسنت الثالث حتى وفاته ، مما اضطر الكنيسة الى عمل اتفاقية سنة ١٤٢٧ مع هاكون الخامس (١٢١٧ - ١٢٦٣) • ومع أن الكنيسة حصلت بمقتضى هذا الاتفاق على قدر من الحرية يعادل ما كانت تتمتع به فى ألمانيا ، الا أنه نجح فى وضع حد لتدخل الكنيسة فى شئون الدولة وضمن للأخيرة استقلالها عن نفوذ الكنيسة(٣) •

وفى الوقت الذى ظل عامة الناس من الأحرار محتفظين بكيانهم القديم فى النرويج ، حتى أنهم ساعدوا ملوكهم فى صراعهم ضد الكنيسة ، اذ بالفلاحين فى السويد يسيرون تدريجيا فى طريق الضعف والانحلال(٤) • ذلك أن اتساع رقعة الأراضى الزراعية ، وسهولة الاتصال والربط فيما بينها من شأنه أن يؤدى الى انتشار النظام الاقطاعى واتساع نطاق الرق والاستعباد ، وما شابهها من النظم التى وصلت الى البلاد الشمالية عن طريق ألمانيا(٥) • وقد أتاحت الأحداث التى تعرضت لها السويد فى القرن الثانى عشر فرصة لاشتداد التنافس بين الأسر الكبيرة للاستئثار بالعرش ، الأمر الذى مكن النبلاء وكبار رجال الدين من الحصول على نفوذ واسع هدد كيان السلطة المركزية(٦) • ومع ذلك فقد أظهر شعب السويد فى تلك الحقبة نشاطا مكنه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 373.
(2) Boyesen : op. cit. p. 357, f.
(3) Orton, op. cit. p. 426. & Boyesen : op. cit. pp. 428 — 429.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 533.
(5) Stephenson : Med Hist. p. 411.
(6) Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 369-370

من غزو فنلاند واستعمارها استعمارا جزئيا (١) .

أما فى مملكة الدانمرك فقد ساء موقف الفلاحين أيضا نتيجة لانتشار النظام الاقطاعى وما ارتبط به من ازدياد نفوذ النبلاء من جهة واستعباد الفلاحين من جهة أخرى(٢) . كذلك تكرر ما حدث فى السويد من ازدياد نفوذ النبلاء وكبار الأساقفة ، ولو أن البيت المالك تمكن فترة من الوقت من السيطرة على زمام الموقف والاتجاه بالشعب الدانمركى نحو التوسع . وكان توسع الدانيين تلك المرة فى الجانب الشرقى من البحر البلطى . حيث تقطن قبائل وثنية غدت فريسة سهلة لجيرانها من المغامرين(٣) . وهكذا اتجه السويديون لغزو عناصر الفن فى الشمال ، فى حين تمكن الدانيون تحت زعامة والدمار الأول (١١٥٧-١١٨٢) وكانوت السادس(١١٨٢ - ١٢٠٢) ثم والدمار الثانى (١٢٠٢- ١٢٤١) من غزو العناصر السلافية والاستونياويين Esthonians (٤) شرقا . ولم تلبث الدانمرك أن سيطرت على ولاية هولشتين وذلك عندما تزعزعت سيادة ألمانيا على هذا الاقليم عقب وفاة الامبراطور هنرى السادس سنة ١١٩٧ . ولكن أمراء ألمانيا المجاورين اتحدوا للقضاء على سيطرة والدمار الثانى على الجهات المجاورة لهم بين سنتى ١٢٢٢ - ١٢٢٧ ، وبذلك لم يبق من فتوحات الدانيين سوى استونيا وروجن Rugen (٥) .

وبعد ذلك أخذت رفاهية الدانمرك وقوة ملكيتها فى التناقص السريع . ذلك أن الأساقفة والنبلاء حرصوا على اكتساب سلطات جديدة عند تولية كل ملك جديد ، هذا بالاضافة الى كثرة المنازعات بين أعضاء البيت المالك . وهكذا بلغت مملكة الدانمرك درجة من الضعف مكنت جيرارد Gerhard

---

(1) Orton : op. cit. p. 426.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 533.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 378.
(4) Boyesen : op. cit. Pa. 135-196.
(5) Orton : op. cit. p. 427.

العظيم أمير هولشتين الألمانى من غزوها فى سهولة فى القـرن الخامس عشر(١) •

* * *

أما أهم المحاولات التى بذلت لاصلاح هذا الوضع السيىء الذى انحدرت اليه الدول السكندناوية ، فتتمثل فى اتحاد كالمـار Kalmar وفى الجهود التى بذلها بعض الملوك الذين يرجعون الى أصل ألمـاني(٢) •

وقد جاء اتحاد كالمـار نتيجة لانقراض البيوت الحـاكمة فى الممالك السكندناوية ، فعند وفاة والدمار الرابع ملك الدانمارك سنة ١٣٧٥ كانت بنته مرجريت زوجة لهاكون السادس ملك النرويج الذى كان هو نفسه الوارث الشرعى لعرش السويد ، وان كان قد أبعد عن هذا العرش نتيجة لعزل والده واختيار ألبرت الألمانى بدله (١٣٦٣ - ١٣٨٩)(٣) • على أن مرجريت كانت على درجة كافية من المهارة مكنتها من تنصيب ولدها الصغير أولاف ملكا على الدانمرك ، وبذلك أصبحت بعد وفاة زوجها هاكون السادس سنة ١٣٨٠ وصية على عرشى الدانمـرك والنرويج جميعـا(٤) • ولكن أولاف توفى سنة ١٣٨٧ فخلفته أمه فى العرش ، وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت الأحوال فى السويد بسبب الخلاف بين النبلاء السـويديين وملكهم الألمـانى • ولم يتردد النبلاء عندئذ فى دعوة مرجريت للتدخل ومساعدتهم ضد الملك المغتصب، باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى عرش السـويد ، فتدخلت مرجريت وانتصرت ، وبذلك أتيحت فرصة ذهبية لتوحيد الممالك السكندناوية الثلاث • وبمقتضى اتحاد كالمار سنة ١٣٩٧ رضيت النرويج والسويد والدانمرك بأن يحكمها جميعا ملك واحد على الدوام(٥) •

---

(1) Lodge : op. cit. p. 444.
(2) Cam. Med. Hist, Vol. 8. p. 545.
(3) Orton : op. cit. p. 430.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 402.
(5) Boyesen : op. cit. pp. 469-470.

على أن الفوارق الطبيعية والحزازات المتبادلة بين الدول الثلاث ، فضلا عن الانقسامات والمنازعات الداخلية ، جعلت من الصعب استمرار اتحاد كالمار ، بالرغم من أنه استمر في صورة اسمية ما يقرب من قرن(١) . ذلك أن مرجريت نفسها لم تلبث أن أغضبت السويديين برغبتها الملحة في استرداد شلزويج للدانمارك مرة أخرى ، ولا سيما بعد أن فشلت الحرب التي شنتها مرجريت ثم خليفتها ارك Eric (١٤١٢ - ١٤٣٩) ضد هولشتين والعصبة الهانزية(٢) . هذا علاوة على أن سياسة ارك أثارت سخطا عاما نظرا لمحاولاته في مضاعفة نفوذه من جهة وزيادة الضرائب من جهة أخرى . وهكذا تجمعت عدة عوامل لتدفع السويد نحو الانفصال واختيار حاكم عليها من أبنائها سنة ١٤٢٥(٣) . كما أعلنت الدانمرك عزل ارك سنة ١٤٣٩ واختارت بدله كرستوفر البافاري (١٤٣٩ - ١٤٤٨)(٤) . وبعد كروستوفر هذا اختار الدانمركيون كرستيان الأول (١٤٥٠ - ١٤٨١) أمير أولدنبرج ووريث شلزويج - هولشتين(٥) . وقد دأب كرستيان الأول على تحسين مركزه في النرويج ، كما ورث شلزويج - هولشتين سنة ١٤٦٠ . أما السويد فقد استمرت على موقفها المنيد من الاتحاد ، فاختارت أحد أبنائها وهو شارل الثامن ملكا عليها ، ولكن كرستيان الأول استطاع التخلص من هذا المنافس ليضمن بقاء الاتحاد الاسمي الذي يحقق له نفوذا صوريا في السويد(٦) . ومع ذلك لم يرض السويديون بالهزيمة فثاروا ثورة جامحة وأجبروا كرستيان على تنصيب أحد أبناء السويد نائبا عنه على أن تكون بيده السلطة الفعلية في البلاد(٧) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 545
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 403-404.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 547-548.
(4) Lodge : op. cit. p. 445.
(5) Boyesen : op. cit. p. 478.
(6) Orton : op. cit. p. 431.
(7) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 407-408.

ومن هذا يبدو أن اتحاد كللـار أضحى فى الواقع مقصورا على الدانمرك وشلزويج هولشتين والنرويج(١) • وليس لهذه الفترة من أهمية فى البلاد سوى أن الملك كرستوفر ثم كرستيان الأول دأبا على تشجيع التجار الوافدين من انجلترا والأراضى المنخفضة ، مما أدى الى تحرير سكندناوة من الاحتكار الاقتصـادى للعصبة الهانزية(٢) •

(1) Lodge, op. cit. pp. 447-448.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8. pp. 550-551

الباب الثانى والعشرون

شرق اوربا

يرجع السلاف – أو الصقالبة – فى أصلهم الى الجنس الآرى Aryens أو الهند أوربى Indo-Europèene (١) . والمعروف أنهم اسـتمروا يتوسعون حتى القرن العاشر توسعا مطردا فى أوربا نحو الغرب والجنوب ، وان ظل مستواهم الحضارى فى هذه الفترة ضعيفا نوعا ما ، بحيث لم يكن فى استطاعتهم التقدم عندما يصطدمون بحضارات أخرى أكثر رقيا . وكل ما كان يحدث لهم فى هذه الأحوال هو أن يتحولوا الى أقنان أو أتباع للعناصر الأرقى التى يحتكون بها ، وذلك بحكم ما هو معروف عنهم من جنوح للمسالمة وعدم السلاف ، فتحولوا تدريجيا الى شعب محارب وأسسوا دولا تزعمها بعض القادة الأجانب ، كما تشربوا بعض الحضارات المجاورة واعتنقوا المسيحية(٢).

وبمقتضى الزمن ازدادت حركة السلاف اتساعا وازداد تباعد قبائلهم ، ولم قدرة من الناحية السياسية . ولكن لم يلبث أن طرأ تغيير ملحوظ على طبيعة يلبثوا أن انقسموا الى ثلاثة أقسـام كبرى : أولها السلاف الجنوبيـون أو اليوجوسلاف فى الجنوب والوسط ويشملون البلغـار(٣) . والصرب والكروات والسلوفيين Slovènes وثانيها السلاف الغربيون فى بولنـدا وبعض ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا ، وتسمى عناصرهم التى تسـكن هذه الجهات البولنديين والتشك (أو البوهيميين) والسلوفاك Slovaques

---

(1) Morfill : Russia, p. 4.
(2) Orton : op. cit. p. 300.
(٣) أجمع الباحثون على اعتبار البلغار ضمن المجموعة السلافية على الرغم من اختلافهم عن السلاف فى الأصل ، حيث أن البلغار تأثروا الى حد كبير بنظم السلاف وأساليبهم فى الحياة وعاداتهم .

وثالثها السلاف الشرقيون أو الروس وينقسمون الى الروس الكبـار فى الوسط والشمال الروس الصغار فى الجنوب والروس البيض فى الغرب(١) • ومن الواضح أن كل قسم من هذه الأقسام الكبرى الثلاثة وقع تحت مؤثرات وظروف خاصة ، مما جعل منهم ثلاثة عناصر متباينة يحسن أن نتكلم عن كل منها على حدة •

السلاف الجنوبيون والهنغاريون :

أما السلاف الجنوبيون فقد تداخل تاريخهم فى تاريخ الدولة البيزنطية • وقبل أن نعرض لتاريخ هذا الفريق من الشعوب السلافية يصح أن نشير الى البلغار ، وهم قوم أسيويون قريبون من الهون ، اندمجوا مع بعض القبائل السلافية فى البلقان وتأثروا بحضارة السلاف ولغتهم • وعلى الرغم من أن البلغار يرجعون الى أصل غير سلافى ، الا أن تشربهم عادات السلاف ولغتهم وحضارتهم جعلتهم يتقاربون من العناصر السلافية المحيطة بهم • وقد اسـتقر هؤلاء البلغار على الدانوب حيث كونوا امبراطوريتهم الأولى بين سنتى ٨٩٣ ، ١٠١٨ • وبلغت هذه الامبراطورية ذروة مجدها وقوتها على عهد قيصر البلغار سيمون (٨٩٣ - ٩٢٧) الذى استغل حكمه الطويل فى القيام بحركة توسعية فى البلقان على حساب الدولة البيزنطية من جهة والشعوب الأخرى المجاورة من جهة أخرى(٢) • على أن عظمة الامبراطورية البلغارية فى عهد سيمون لم تقتصر على التوسع الحربى ، اذ شهد هذا العهد عصرا ذهبيا للأدب البلغارى بفضـل تشجيع سيمون ورعايته ، ولا عجب ، فقد تلقى سـيمون تعليمه - قبل أن يلى عرش البلغار - فى القسطنطينية حيث تذوق طعم الحضارة ، فعاد الى بلاده ليشرف على ترجمـة الانجيل وكتـابات القديسين الى لغـة قومه (٣)• واذا كانت امبراطورية البلغار قد سـقطت وخضعت لسـيطرة الامبراطورية البيزنطية (١٠١٨ - ١١٨٦) بعد أن نجح الامبراطور البيزنطى باسل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥) « سفاح البلغار » فى القضاء سنة ١١٨• على

---

(1) Morfill : Russia. pp. 4-7.
(2) Miller : The Balkans, pp. 135-137.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 327.

مقاومتهم والانتقام منهم أفظع انتقام(١) ، الا أن دولة البلغار سرعان ما رفعت رأسها وأقامت ما يعرف باسم امبراطورية البلغار الثانيـة (١١٨٦ - ١٣٩٨) وهى الامبراطـورية التى ظلت قائمـة حتى الغـزو العثمانى للأراضى البلغارية(٢) .

والى الغرب من البلغـار - فى الرقعة ما بين بلغـراد وشاطىء البحـر الأدرياتى - استقر الصرب الذين أقاموا مملكة على شىء من الأهمية ، بلغت ذروتها على عهد قيصر الصرب المعروف ستفن دوشـان Stephen Dusan (١٣٣١ - ١٣٥٥) الذى قام بفتوح واسعة فى البلقـان حتى أصبح يحلم بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها(٣) ، لا سيما بعد أن توج نفسه امبراطورا سنة ١٣٤٦(٤) . أما فى الداخل فقد وضع مجموعة من القوانين صـدرت سنة ١٣٤٩ وتعطينا فكرة واضحة عن نظم المجتمع الغربى ، هـذا كله بالاضافة الى جهود دوشان فى حماية التجار وتشجيع الآداب والعلوم(٥) .

وهنا نلاحظ على هذه العناصر السلافية السابقة فى الجانب الشرقى من البلقان وجود عامل مشترك ربط بينها جميعا ، هو أنها اتبعت الكنيسة الشرقية حتى بدت - فى وقت ما - الوريثة الطبيعية للامبراطورية البيزنطية . هذا على العكس من أقاربهم الكروات الذين امتدت مواطنهم على طول الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى والذين اتجهوا وجهة غـربية ، فاعتنقوا مذهب الكنيسة الرومانية الى أن سقطوا تحت سيطرة الهنغاريين سنة ١١٠٢ (٦) .

أما الهنغاريون فهم - شعب أسيوى خشن - ظهروا فى شرق أوربا فى القرن التاسع ليعيدوا الى الأذهان ذكرى أتيلا وحروبه المدمرة فى أوربا ،

---

(1) Vasiliev : Tome 1, p. 423.
(2) Miller : op. cit. pp. 187-194.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 216
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 542.
(5) Miller : op. cit. pp. 272-282.
(6) Orton : op. cit. p. 301,

ذلك أنهم امتازوا بالخشونة المفرطة والقسوة البالغة حتى ليقال انهم كانوا يأكلون لحم الحيوان نيئا ويشربون دماء أعدائهم(١) • ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا تدريجيا عن طبيعتهم الرعوية الخشنة نتيجة لاختلاطهم بشعوب أكثر رقيا ، وذلك بعد أن استقروا حوالى سنة ٨٦٠ بين نهرى الدون والدنيبر حتى استقروا فى أواخر القرن التاسع فى المنطقة التى تطابق حدود هنغاريا الحالية تقريبا(٢) • وعندئذ اعتنق الهنغاريون المسيحية فى القرن العاشر واستغلوا قدرتهم على التنظيم فى محاكاة الحضارة الاقطاعية تحت زعامة ملكهم ستفن (٩٩٧ - ١٠٣٨) وملكهم لادسلاس (١٠٧٧ - ١٠٩٥) (٣) • ولعل أهم أثر تركه الهنغاريون فى تاريخ أوربا فى ذلك العصر هو اغارتهم التى بدأت تشتد على ألمانيا فى أوائل القرن العاشر(٤) •

السلاف الغربيون :

أما السلاف الغربيون فأهم شعوبهم المرافيون والبوهيميون أو التشك ، الذين امتازوا جميعا بمقدرتهم على التكتل والترابط ، حتى أسس المورافيون فى النصف الثانى من القرن التاسع مملكة قوية امتدت فى عهد ملكهم راستسلاس Rastislas (٨٤٥ - ٨٧٠) من اقليم بانونيا وبوهيميا غربا حتى غاليسيا الشرقية والدانوب شرقا • ولم تلبث المسيحية أن انتشرت فى هذه الأنحاء على أيدى مبشرى الدولة البيزنطية وعلى رأسهم القديسين كيرلس وميثوديوس المعروفين باسم « رسل السلاف »(٥) وان كان معظم السلاف الغربيين قد دخلوا فى فلك الكنيسة الغربية • ثم كان أن سقطت مملكة المورافيين سنة ٩٠٥ أمام الغزو الهنغارى ، وبذلك انقطعت عنها المؤثرات

---

(1) Miller : op. cit.p p. 30-31.
(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 17.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp 213-216.
(4) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 18-20.
(5) Idem : p. 16,

الشرقية في حين أدى جوارها لألمانيا الى تقبلها لمذهب الكنيسة اللاتينية(١) •

وعندما تضاءلت أهمية المورفيين عقب سقوط دولتهم تحت ضغط الهنغاريين (٩٠٥ - ٩٠٦)(٢) ، حل محلهم على خريطة أوربا البوهيميون أو التشك الذين أقاموا دولتهم في القرن العاشر • وأهم ما يميز تاريخ أهل هذه الدولة هو أنها تعرضت لجذب تيارين متعارضين أحدهما يجذبهم نحو الحضـــارة الألمانية الخلابة ، والثانى يدفعهم نحو مقاومة السيطرة الألمـانية(٣) • ويبدو أن التيار الأول كان أقوى أثرا حتى أصبح أمراء بوهيميا وملوكها أكثر تأثرا بالطابع الألمانى فى بلاطهم وحياتهم • هذا الى أن أساقفة بوهيميا الألمـــان ربطوها بالدولة الألمانية ، فضلا عما كان من استعمار المواطنين الألمـــان لما يقرب من ثلث بوهيميا • ومع ذلك فان الأقـــوياء من ملوك بوهيميا فى القرن الثالث عشر - مثل أوتوكار الثانى (١٢٥٣ - ١٢٧٨) اختـــاروا أن يوجهوا سياستهم الخارجية نحو التوسع على حساب الأراضى الألمانية(٤) •

وهناك فريق آخر من السلاف الغربيين هم الونديون • والمعـــروف أن الجرمان أطلقوا لفظ « الونديين » أول الأمر على العناصر السلافية جميعا دون تحديد ، وكان المقصود بهذا اللفظ « الدخـــلاء أو الأجانب »(٥) • ولكن اصطلاح الونديين أخذ يتحدد بعد ذلك ليقتصر على قبائل الســـلاف التى انتشرت بين جبـال الكربات والبحر البلطى • وقد أثبت الونديون عـــدم مقدرتهم على الاتحاد كما أظهروا نفورا من الحضارة الألمـانية والمسيحية على حد سواء • ويبدو أن الفرنجة عانوا فى أول أمرهم كثيرا من المتاعب بسبب اغارات هؤلاء الونديين ، حتى اضطر الملك كلوثر الأول أن يفرض ضريبة على السكسون سنة ٦٣١ قدرها خمسمائة بقرة برسم الدفاع عن البلاد ضد

---

(1) Orton : op. cit. p. 301.
(2) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 19-20.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 422.
(4) Orton : op. cit. p. 302.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 1, ps. 200-213.

الونديين(١) • ومهما يكن من أمر ، فان المملكة التى أقامها الونديون فى القرن السابع كانت قصيرة العمر سريعة الزوال اذ لم تلبث القبائل الونديه أن اعتراها التفكك والتباعد حتى أضحى مصيرها منذ القرن العاشر فصاعدا مرهونا بتوسع الألمان(٢) • ومع ذلك استمر الونديون الوثنيون يهـددون الحدود الشرقية لألمانيا وذلك باغاراتهم المدمرة التى لم تسلم منها المزارع والأديرة والكنائس ، كما حدث فعلا سنة ٩٨٣ ، وسنة ١٠١٨ ، وسنة ١٠٦٦ • ثم كان أن ظهر القديس برنارد قبل منتصف القرن الثانى عشر ليدعـو فى ألمـانيا لحملة صليبية جديدة ، وعندئذ رد عليه السكسون ــ أعداء الونديين الألداء(٣) ــ بأنه من الأولى أن تتجه هذه الحملة الصليبية ضـد الونديين الوثنيين وهكذا كانت الحملة الصليبية المعروفة بالوندية (Wendish Crusade) سنة ١١٤٧ ، وهى التى قضت على الوثنية فى هذه البلاد السلافية ونشرت النفوذ الألمـانى شرقا ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الثالث عشر الا كانت جميع الأراضى فيما بين نهرى الالب والأودر سادها الطابع الألمـانى(٤) •

والى الشرق من هؤلاء ــ أى بين نهرى الأودر والفســتولا ــ أسس البولنديون مملكة ذات طابع سلافى أنقى من الطابع الذى كانت عليه مملكة بوهيميا • وقد اعتنق هؤلاء البولنديون المسيحية الغربية فى القرن العاشر تحت تأثير الألمان ، وان استطاع ملكهم بولسلاس الأول Boleslas I (٩٩٢ - ١٠٢٥) الاحتفاظ لمملكته بطابع مستقل عن جيرانها فى النواحى الدينيـة والدنيوية(٥) • وعلى الرغم من افتقار البولنديين الى موهبة النظام ، الا أن مملكتهم هذه احتفظت بكيانها قرنا كاملا ، حتى أفل نجمها أمام ضغط الأباطرة الألمـان من أسرة هوهنشتاوفن • ولم تلبث أن تفككت هذه المملكة البولندية ،

---

(1) Idem, p. 200.
(2) Orton : op. cit. p. 302.
(3) Barraclough : op. cit.p p. 252-253.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 513-514
(5) Morfill : Poland, pp. 26-28.

فسادتها الحروب الأهلية بين الأمراء ، كما انشقت بوميرانيا وسيلزيا لتصبحا ضمن نطاق الامبراطورية الرومانية المقدسة(١) • وهكذا غدت تجارة بولندا في القرن الثالث عشر في أيدى التجار الألمان ، بعد أن فقدت شواطئها على البحر البلطى وأصبحت في شبه عزلة تسودها المنازعات والحروب(٢) • وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت بولندا أن تنهض تدريجيا بعد أن أفاقت من الغزو المغولى لأوربا فى القرن الثالث عشر ، وسنعود اليها بعد الكلام عن هـذا الغـزو •

السلاف الشرقيون :

وبينما اعتنق السلاف الغربيون المسيحية فى قالبها الغربى أو اللاتينى ، وبالتالى أصبحوا يمثلون مراكز أمامية للحضارة الغربية ، اذ بالسلاف الشرقيين أو الروس يرتبطون بالكنيسة اليونانية أو الأرثوذكسية ويظلون شـديدى الارتباط بالعالم البيزنطى(٣) • وقد سـبق أن أشرنا الى ما كان من توغـل السويديين فى القرن التاسع ـ أى عند بداية عصر غزوات الفيكنج ـ فى الطريق التجارى الممتد من البحـر البلطى الى القسطنطينية ، حيث اختلطوا بالأهالى الأصليين من السلاف الشرقيين ، وأسسوا حوالى سنة ٨٦٠ دولة روسية مركزهانوفجرود Novgorod ـ أى المدينة الجديدة ـ وكييف ، على أيدى زعيمهم روريك(٤) • ولم تلبث أن انتعشت أحوال الروس تحت حـكم سلالة روريك ، فامتدت مملكتهم بين نوفجرود وكييف وخضع لهم الخـزر شمالى البحر الأسود(٥) • ومن الطبيعى أن تتوثق العـلاقات بين الروس والامبراطورية البيزنطية ، نظرا لأن الطريق التجارى بين البحـر البلطى والقسطنطينية يمر بأراضيهم • ولكن هذه الصـلات بين الروس والدولة

---

(1) c Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 462-463.
(2) Morfill : Poland, pp. 36-37.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 207.
(4) Morfill : Russia, p. 19.
(5) Rambaud : Hist. du la Russie, pp. 44-55.

البيزنطية لم تكن سليمة على طول الخط اذ حدث أن حاولوا الاغارة على القسطنطينية ثلاث مرات فى سنوات ٨٦٠ ، ٩٠٧ ، ٩٤١ ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق أطماعهم فيها(١) • ولم يلبث فلاديمير الأول أمير كيف (٩٧٨ - ١٠١٥) أن اعتنق الديانة المسيحية فى قالبها الشرقى سنة ٩٩٠ وجعلها ديانة رسمية لدولته ، مما عجل بقيام كنيسة روسية تابعة للكنيسة البيزنطية(٢)• ولكن على الرغم من قرب الروس من الحضارة البيزنطية ومحاكاتهم لها الا أنهم ظلوا مفتقرين الى وسائل التنظيم الكافية لتحقيق الترابط والوحدة بين أملاكهم الواسعة • وكان فلاديمير الثانى مونوماخ (١١١٣ - ١١٢٥) آخر واحد من أمراء كيف حكم جميع قبائل الروس ، ثم أعقبته حالة من الفوضى والانقسام سادت جميع أنحاء البلاد(٣) • أما كييف فقد بدأت تفقد أهميتها بعد فلاديمير الثانى لتحل محلها فى الأهمية مدينة سوزدال **Suzdal** فى الشمال الشرقى من روسيا(٤) • ثم كان أن انقسم الروس الى مجموعتين كبيرتين : الروس الصغار فى الجنوب والروس الكبار فى الشمال ، واستطاع الفريق الأخير أن يتوسع شمالا ويكتسب أراضى جديدة ، حتى جاءت غزوات المغول فأوقفت تطور الروس الى حين(٥) •

والواقع أن هناك حركتين كبيرتين بدأتا فى القرن الثالث عشر ، وكان لهما أثر بعيد فى تطور تاريخ أوربا ، وبخاصة بولندا وروسيا • أما هاتان الحركتان فهما غزوات المغول من جهة ، وتوسع الفرسان التيتون فى شمال أوربا من جهة أخرى الأمر الذى يتطلب الكلام عنهما أولا قبل استئناف دراسة تاريخ بولندا وروسيا فى المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى •

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1. ps. 360-424.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 60.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 607-608.
(4) Morfill : Russia, p. 36 & Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 609.
(5) Orton : op. cit. p. 303.

المغـول وأوروبا :

أما المغول فقد ظلوا حتى القرن الثانى عشر لا يحتلون سوى مكانة ضئيلة في التاريخ العام باعتبارهم قوم رعاة رحل يقطنون فى المنطقة التى أخذت عنهم اسم منغوليا ، بعيدا عن التيارات الحضارية الكبرى فى العالم • ولكن شاءت الظروف ان يتولى حكم كبرى قبائلهم سنة ١١٧٥ فتى - هو الذى عرف فيما بعد باسم جنكيزخان (الخان الأعظم) - خلد اسمه فى قائمة كبار الغزاة وأعاظم المحاربين الذين شهدهم التاريخ (١) • ومهما تكن أسباب الغزوات الواسعة التى قام بها المغول تحت قيادة جنكيزخان ، وسواء كانت هذه الأسباب ترجع فى جوهرها الى عوامل طبيعية مثل زيادة السكان ونقص الأقوات وضعف المرعى ، أو غير ذلك من العوامل ، فالمهم هو أن جنكيزخان قضى ثلاثين عاما فى قتال عنيف حتى جعل من نفسه سيدا مطلقا على جميع قبائل المغول ، فضلا عن قبائل الأتراك فى منـــــاطق الاستبس الشمالية ، الأمر الذى مكنه من استئناف الغزو - خارج نطاق المغول - على مقياس أوسع • وكان أن غزا جنكيزخان امبراطورية الصين فيما بين سنتى ١٢١٠ ، ١٢١٦ (٢) ثم اتجه غربا فأخضع جرخانات Gur-khans تركستان الشرقية • وفى سنة ١٢٢٠ جاء دور أتراك خوارزم الذين كانوا قد فرغوا عندئذ من فتح فارس بأكملها ، فخضعوا جميعا لقوة جنكيزخان وان ظلوا يبدون بعض المقاومة حتى سنة ١٢٣١ (٣) • ومن الخطأ أن نرجع انتصارات جنكيزخان الى كثرة رجاله فحسب ، دون أن نعمل حسابا لمهارة المغول فى الفروسية واستخدام الخيل فى الحرب ، فضلا عن براعتهم فى التكتيك الحربى واستعمال العدد الحربية بطريقة لم تعرفها بقية الجيوش التى اصطدم بها المغول فى ذلك العصر (٤) •

والمعروف أن حريم جنكيزخان تألف من خمسمائة امرأة وعدد لا حصر

---

(1) Gibbon : The Hist. of the Decline and Fall, of the Roman Empire, Vol, 7, p. 2.
(2) Idem : pp 6-7.
(3) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 1004-1005.
(4) Orton : op. cit. pp. 384-305.

له من الأبناء ، ولكن اختص من جميع هؤلاء أربعة قاموا بالمهام الرئيسية في دولة أبيهم ، ثم خلفوه في اقتسام امبراطوريته الواسعة بعد وفاته سنة ١٢٢٧ (١) • ويهمنا من هؤلاء الأبناء (أقطاى) الذى خلف أباه في زعامة امبراطورية المغول وتولى منصب الخان الاعظم باجماع الاراء ، (وطولى) الذى كان نصيبه الجزء الغربى من امبراطورية المغول شمالى بحر قزوين ، وهى القبائل المغولية التى سميت بالقفجاق أو القبيله الذهبية نسبة الى اللون الذهبى الذى امتازت به مخيماتهم • ولكن طولى توفى السنة نفسها قبل أبيه ، فقسمت أملاكه بين أبنائه الاربعة عشر ، وظهر من هؤلاء الأبناء الابن الثانى باطو الذى نادت به قبائل القسم الغربى من المملكة - غربى نهـــر الفولجا - خانا عليهم • ولم يلبث أن قام باطو بغزوات واسعة النطاق فى روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا ، مما ترك أثرا كبيرا فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (٢) • ففى تلك الفترة بين سنتى ١٢٣٧ ، ١٢٤٠ اجتاح المغول كل الامارات الروسية ، وأخضعوها وألزموها بدفع الجزية (٣) ، بعد أن أحرقوا عدة مدن مهمة مثل مدينة موسكو التى نسمع عنها للمرة الأولى فى التاريخ خلال هذه الأحداث (٤) • وفى سنه ١٢٤١ اتجهت جيش المغول نحو بولندا وهنغاريا ، فانقسم الجيش المغولى الى قسمين ، أحدهما قضى على مقاومة البولنديين وأنزل بهم الهزيمة فى ليجنتز Liegnitz ثم اخترق مورافيا ليلحق بالقسم الرئيسى الذى كان تحت قيادة باطو نفسه والذى حطم قوة الهنغاريين عند موهى Mohi واحتل كل بلادهم (٥)• هذا فى الوقت الذى قامت بعض جموع المغول بتدمير الصرب والبلغار ، بحيث لم ينقذ أوربا من المغول عندئذ الا وفاة أقطاى - خان المغول الأعظم - مما استدعى عودة باطو شرقا الى مركز المغول فى جوف آسيا للاشتراك فى

---

(1) Gibbon : op. cit, Vol, 7, p. 10.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 652.
(3) Rambaud : Hist. de la Russie, pp. 129-131.
(4) Morfill : Russia. p. 39.
(5) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 1006.

انتخاب زعيم جديد (١) • وهكذا تم انقاذ بقية غرب أوربا نتيجة لانشغال المغول بأوضاعهم الداخلية وعدم تمكنهم من معاودة الهجوم على أوربا • أما بخصوص البلاد الأوربية الى دمرها المغول ، فقد استطاعت بولندا وهنغاريا الافاقة بسرعة نسبية من الضربة التى نزلت بهما ، فى حين ظلت روسيا - بحكم موقعها المتطرف شرقا - ما يقرب من قرنين تحت وطأة القبيلة الذهبية، فى عزلة شبه تامة عن التاريخ الأوربى (٢) •

أما ايلخانات فارس فقد أغار زعيمهم هولاكو (١٢٥٦ - ١٢٦٥) على العراق ، وأسقط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٢٥٨ ، ثم تقدم للاغارة على أطراف الدولة المملوكية فى الشام ، لولا ان نجح سلاطين المماليك فى ايقاف المغول عند حدهم بعد أن أنزل بهم السلطان قطز الهزيمة فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ (٣) • وفى الوقت نفسه بسط هولاكو سيطرته على سلاجقة الروم الذين أصبحوا مجرد نواب عن ايلخانات فارس فى حكم آسيا الصغرى ، وبذلك تكون امبراطورية المغول قد بلغت أقصى اتساعها عند نهاية القرن الثالث عشر (٤) • على أن دولة مغول فارس لم تلبث أن تفتت بعد قليل وانقسمت بين عدة زعماء ، حتى اعتنق هذا الفرع من المغول الاسلام أسوة بأقربائهم مغول القبيلة الذهبية ، وان كانت هذه الخطوة لم تتم الا بعد أن أفسدوا البلاد التى نزلوا فيها فسادا صعب اصلاحه •

الفرسان التيتون :

حدث عندما غرق الامبراطور فردريك بربروسا فى أحد أنهار آســـيا الصغرى وهو فى طريقه للمساهمة فى الحملة الصليبية الثالثة ، أن تشتت

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 637-638.
(2) Cam. Med. Hist Vol, 6, p. 458.
(3) Idem, Vol. 4, p. 643.
(4) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 1005-1007.

جنوده ، ولم يصل منهم الى الأراضى المقدسة سوى عدد صغير ليشتركوا فى حصار عكا سنة ١١٨٩ • (١) على ان المرض سرعان ما فشا بين هولاء الجند بسبب صعوبة الأحوال الجوية التى لم يعتادوها ، وحينذاك لم يجدوا حولهم من يعنى بهم فى مرضهم ، الأمر الذى دفع بعض التجار الـوافدين من ليوبك وبرمن اى التعاون لرعاية هؤلاء المرضى من جند الالمان (٢) • وهكذا نشأت هيئة جديدة هى هيئة انفرسان التيتون الذين اسنقوا معظم مبادئهم من الهيئات الاخرى التى سبق قيامها بالأراضى المقدسة مثل الاسبتارية وفرسان القديس حنا • ولم يلبث أن أصدر البابا كلمنت الثالث مرسوما سنه ١١٩١ بالاعتراف بهيئة الفرسان التيتون ، التى اتخذت مركزها الرئيسى فى عكا بعد ان استولى عليها الصليبيون (٣) •

وقد ظلت هذه الهيئة الجديدة محتفظة بطابعها الألمانى فى الأراضى المقدسة، فكان اعضاؤها ألمان المولد واللغة ، كما أن ازدياد نشاطها ادى الى تضاعف ثروتها وممتلكاتها التى جاد بها الخيرون فى غرب أوربا فضلا عن الشام • على أن الروح الصليبية سرعان ما خبت حماستها فى قلوب الأوربيين فى القرن الثالث عشر فأخذ يقل عدد الحجاج والصليبيين القاصدين من غرب أوربا الى الأراضى المقدسة ، كما أخذت الامارات الصليبية بالشام تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى سلاطين المماليك (٤) • وعندئذ صار لزاما على الهيئات الصليبية المتعددة بالشام أن تبحث لها عن ميادين أخرى تستنفد فيها امكانياتها المادية وحماستها الدينية (٥) • وهنا وجد الفرسان التيتون ميدانا صـالحا لنشاطهم فى شمال أوربا حيث كانت تنتشر فى البقعة الـواقعة بين وادى الفستولا وخليج فنلاند مجموعة من الشعوب السلافية ــ البروسـيون واللتوانيون والاستونياويون واللفونياويون ــ الذين ظلوا جميعا يعيشـون

---

(١) سعيد عاشور • الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٥٠ وما بعدها •
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 332.
(3) Lodge : op. cit. p. 452
(4) Painter ; A Hist. of the Middle Ages, pp. 216—217
(5) Stephen ; Med. Hist. p. 485.

غيشنهم البدائية الأولى ، معتمدين على القنص والرعى ، محتفظين بتقاليدهم البدائية وديانتهم الوثنية (١) •

وقد حاول القديس أدالبرت أسقف براغ نشر المسيحية بين البروسيين فى القرن العاشر ، ولكنه لقى مصرعه على أيديهم ، ومنذ ذلك الوقت لم تبذل آية محاولة جدية لتنصير تلك الشعوب على الرغم من وجود أسقفية اسمية على الشاطىء الشرقى للبحر البلطى (٢) • ولكن ذلك الوضع كان لا يمكن أن يستمر بعد أن انتشرت المسيحية فى جميع ارجاء أوربا ، لذلك بدأت محاولة جديدة فى القرن الثالث عشر لتحويل ذلك القسم من السلاف الشرقيين الى المسيحية ، وذلك عندما أسس أسقف ريغا حوالى سنة ١٢٠٠ « منظمة السيف » ليجبر أهالى ليفونيا على اعتناق المسيحية (٣) • وبعد ذلك بقليل بدأ كرستيان ــ وهو أحد الرهبان السسترشيان من مــــدينة أولفا Oliva ــ يبشر بالديانة المسيحية بين البروسيين حتى منحه البابا لقب « أسقف بروسيا » ، كما ساعده فى مهمته أحد الأمراء البولنديين وهو كونراد دوق ماسوفيا (٤) • ولكن هذه المهمة كانت أخطر مما توقع الأسقف والدوق ، اذ ثار البروسيون وغزوا ماسوفيا نفسها ، مما جعل أميرها كونراد يبعث رسله سنة ١٢٢٦ الى مقدم الفرسان التيتون ــ بايطاليا عندئذ ــ طالبا منه حماية أراضيه من البروسيين مقابل اعطائه منطقة كولم Kulm ــ على الحدود بين ماسوفيا وبروسيا (٥) •

وكان أن رحب هرمان فون سالزا Hermann Von Salza مقدم هيئة الفرسان التيتون بهذا العرض بعد أن وجد فيه فرصة لتأسيس دولة مسيحية بشمال أوربا تغنى منظمته عن الشام ومتاعبها (٦) • ولكن هرمان

---

(1) Lodge : op. cit. p. 453.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 249.
(3) Barraclough : op. cit. p. 267.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, 253—267
(5) Lodge : op. cit. p. 454.
(6) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 634.

شرق أوربا
في
القرن الثالث عشر

فرسان السيف
ريجا
ميمل
ليتوانيا
كونجسبرج
دانزج
بروسيا
كولم
بومرانيا
براندنبورج
بولندا
روسيا
براغ
كراكاو
بوهيميا
مورافيا
غاليسيا
جران
بودابست
ستريا
كارنثيا
هنغاريا
كرواتيا
البوسنة
الصرب
بلغاريا

كان حريصا فى أول الأمر على ألا يعمل لحساب أحد وأن يضمن استقلال الفرسان التيتون فى مقرهم الجديد ، فحصل من الامبراطور فردريك الثانى على شهادة رسمية باستيلاء المنظمة على منطقة كولم ، زيادة على بقية الأراضى التى تفتحها المنظمة فى المستقبل ، على أن يتمتع الفرسان التيتون فى هذه الأجزاء بسلطة تامة فى النواحى الاقتصادية وبخاصة سك العملة وفرض الضرائب (١) . وكذلك عقد مقدم الفرسان التيتون اتفاقيات متشابهة مع دوق ماسوفيا والأسقف كرستيان . أما البابا جريجورى التاسع فقد أقر - هو الآخر - هذا الوضع من جانبه ١٢٣٤ ، فوافق على استقلال الفرسان التيتون بكل ما يفتحونه من بلاد الوثنيين مقابل دفع ضريبة اسمية للبابوية (٢) .

وهكذا أخذ الفرسان التيتون ينزحون الى بروسيا منذ سنة ١٢٣١ ، وبدءوا يغزون الأراضى الوثنية المجاورة بنجاح كبير ، لأنهم بالرغم من قلة أعدادهم نسبيا امتازوا بقوة أسلحتهم ودرايتهم بشئون الحرب (٣) . على أن غزو بروسيا لم يتم دون متاعب جمة ، اذ ثار اللتوانيون ضد « منظمة السيف » سنة ١٢٣٦ وأنزلوا بهم هزيمة كبرى (٤) ، كما قامت ثورة بين البروسيين السلاف ضد الفرسان التيتون سنة ١٢٨١ واستمرت هذه الثورة حتى أضحى الفرسان التيتون فى عشر السنوات التالية فى خطر من ضياع الأراضى التى أجهدوا أنفسهم فى فتحها ، ولكنهم مع ذلك ثابروا حتى أخضعوا البلاد تماما سنة ١٢٨٠ . وربما ساعد الفرسان التيتون فى مهمتهم الطريقة التى اتبعوها، وهى اقامة قلعة فى كل منطقة يفتحونها حتى تكون مركزا لنفوذهم ولحفظ الأمن والنظام ، بالاضافة الى اتخاذها قاعدة للعمليات الحربية التالية (٥) . ومن الواضح أن كثيرا من البروسيين لاقوا حتفهم فى ذلك الصراع المرير ، فى حين آثر غيرهم الهجرة شرقا لينعموا بالاستقلال فى لتوانيا مما جعل

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 129.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 952.
(3) Cam. Med. Hist.; Vol 7. p. 254
(4) Barraclough : op. cit. 267.
(5) Thompson : op. cit, Vol, 2, p. 952

الفرسان التيتون أمام مشكلة تعمير تلك الأراضى ، فشجعوا الفلاحين والتجار الألمان على الهجرة الى بروسيا والاستقرار فيها ، حتى أصبحت بروسيا غنيمة لألمانيا من جهة وكسبا للكنيسة من جهة أخرى (١) . أما من بقى من العناصر السلافية فى بروسيا فلم يكن أمامه سوى اعتناق ديانة الغزاة الألمان ولغتهم ، بل حرم على الاهالى التحدث بلغة غير الألمانية ، ووضعت رقابة شديدة لقطع كل صلة تربط بروسيا بالماضى مما جعل منها اقليما ألمانيا بحتا (٢) .

ثم كان أن أفاق البولنديون لتصدمهم الحقيقة المرة ، وهى أن استقلال الفرسان التيتون باقليم بروسيا معناه قيام دولة ألمانيا تفصل بينهم وبين البحر البلطى . وهنا تغلبت العصبية العنصرية على الشعور الدينى ، فأدرك كونراد أمير ماسوفيا قصر نظره ، وأسرع ـ بالاشتراك مع البولنديين ـ الى ارسال المعونة الى السلاف الوثنيين فى بروسيا ، وان كانت هذه المعونة لم تصل الا بعد فوات الأوان (٣) . أما البابوية فلم تكف فى تلك المرحلة عن الدعوة لهذه الحروب الصليبية ضد الوثنيين فى شمال أوربا ، وأصدرت ـ كعادتها ـ صكوك الغفران لكل من يشارك فى حرب البروسيين ، حتى دخل كثير من المسيحيين تحت لواء الفرسان التيتون . كذلك أسهم أوتوكار الثانى Ottokar ملك بوهيميا (١٢٥٣ ـ ١٢٧٨) ـ وأقوى الأمراء الألمان فى عصره ـ فى مساعدتهم حتى أسست مدينة كونجزبرج Konigsberg سنة ١٢٥٥ تشريفا لملك بوهيميا (٤) .

وفى سنة ١٢٩١ سقطت عكا ـ آخر البقايا الكبرى للصليبيين بالشام ـ فى أيدى المسلمين ، وحينئذ ركز الفرسان التيتون كل نشاطهم فى الشمال ، حيث نطاق العمل أوسع ومجال الاستقلال أعظم ، بعيدا عن سيطرة البابوية وتدخلها . لذلك نقل مقدم الفرسان التيتون مقره من البندقية الى مارنبورج Marienburg سنة ١٣٠٩ ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المدينة

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 487.
(2) Barraclough: op. cit. p. 268
(3) Lodge : op. cit. p. 455.
(4) Cam, Med, Hist, Vol, 6, Ps, 438—457.

حاضرة الفرسان التيتون ومقر قيادتهم (١) . على أن قطع الصلة بين الفرسان التيتون من جهة والأراضى المقدسة وجنوب أوربا من جهة أخرى كانت له نتائج بعيدة المدى ، اذ أدى الى اضعاف صلة هؤلاء الفرسان بالبابوية وتقوية الروابط التى تربطهم بألمانيا والامبراطورية (٢) . ومن هنا أسرع الامبراطور هنرى السابع الى عرض حمايته على الفرسان التيتون بعد أن أكد اعترافه لهم بكافة حقوقهم وامتيازاتهم . وهكذا أصبحت حركة التيتون التوسعية فى شمال أوربا تعمل من أجل صالح ألمانيا والالمان بعد أن كانت تسير باسم الكنيسة والبابوية (٣) . وقد استمرت هذه الحركة بنشاط فى القرن الرابع عشر فاستغل الفرسان التيتون فرصة النزاع بين بولندا وبراندبرج ليستولوا على اقليم بومرليا Pomerelia بما فيه مدينة دانزج الخطيرة الأهمية سنة ١٣١١ (٤) . ولكن اذا كان الاستيلاء على هذا الاقليم المسيحى قد قوى مركز هيئة الفرسان التيتون على الجانب الغربى أو الألمانى لنهر الفستولا ، الا أنه فى الوقت نفسه فتح بابا واسعا للشقاق والخلاف الذى أثر تأثيرا واضحا فى مستقبل تلك الهيئة . ذلك أنه أظهر أغراض الفرسان التيتون وأهدافهم فى صورة دنيوية لا دينية ، وأدى الى صراع طويل مع بولندا التى كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع ، هذا زيادة على فتح باب النزاع بين الفرسان التيتون والبابوية (٥) .

أما عن الحرب بين بولندا وهيئة الفرسان التيتون فى القرن الرابع عشر ، فقد وقفت البابوية فيها الى جانب بولندا بعد أن كانت فى القرن الثالث عشر تبارك جهود التيتون وتدفعهم دفعا الى الأمام (٦) . وقد انتهى الدور الأول من مراحل الحرب بانتصار الفرسان التيتون ، فعقد معهم كازمير العظيم (Casimir) ملك بولندا صلح كاليش Kalish سنة ١٣٤٣ ، وبمقتضاه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 333
(2) Lodge : op. cit. p. 457
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 263
(4) Pirenne; La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 201
(5) Lodge : op. cit. p. 458
(6) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 457—459

تنازلت بولندا عن اقليم بومرليا وغيره من الأجزاء المتنازع عليها قرب وادى الفستولا (١) • ولم تلبث الدانمرك هى الأخرى أن تنازلت لهم سنه ١٣٤٦ عن مطالبها فى اقليم استونيا ، وبذلك أصبح الفرسان التيتون يسيطرون على كل الاجزاء السلافية فى الجنوب الشرقى لحوض البحر البلطى • واذا كان اللتوانيون وحدهم هم الذين أصروا فى عناد على الاحتفاظ بوثنيتهم واستقلالهم، فان الفرسان التيتون شنوا عليهم حربا مثمرة فيما بين سنتى ١٣٥١ ، ١٣٨٢ ، وهى الفترة التى بلغت فيها هيئة الفرسان التيتون ذروة قوتها ونفوذها (٢) •

على أنه حدث عند وفاة لويس العظيم ملك هنغاريا وبولندا سنة ١٣٨٢ أن أدى تعصب نبلاء بولندا لعنصرهم السلافى الى رفض الاتحاد مع هنغاريا فى ظل حكم ملوك أجانب ، فعرضوا تاج بولندا على جاجلو Jagello أمير لتوانيا بشرط أن يعتنق المسيحية ويتزوج من ابنة الملك الراحل لويس العظيم • وهنا رحب جاجلو بهذه الصفقة التى تتيح له عروسا وعرشا دون عناء ، فتم تعميده ، وتـــوج باسم لادســـلاس الثـــانى Ladislas سنة ١٣٨٦ ، وبذلك بدأت الوحدة بين بولندا ولتوانيا • وقد بلغت بولندا فى عهد هذه الأسرة اللتوانية أقصى درجات القوة مما عاد بالخسارة على الفرسان التيتون • ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندا كان معناه اتحاد أكبر خصمين للفرسان التيتون (٣) ، هذا فضلا عن أن اعتناق اللتوانيين للديانة المسيحية حرم هؤلاء الفرسان من سند قوى كانوا يعتمدون عليه بدعوى نشر المسيحية ومحاربة الوثنيين (٤) • وهكذا لم يعد هناك مبرر لبقاء الفرسان التيتون فى بروسيا ولا داعى لحروبهم بعد أن أصبحت بروسيا نفسها محاطة من جميع النواحى بشعوب ودول مسيحية ، الأمر الذى ترتب عليه انقطاع

---

(1) Morfill : Poland. p. 46.
(2) Lodge: op. cit. p. 458
(3) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 211-212
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 553

وفود المسيحيين والصليبيين بعد أن ظلوا أمدا طويلا يتدفقون من مختلف أنحاء أوربا للعمل تحت قيادة الفرسان التيتون باسم الصليب (١) .

والواقع أن القرن الخامس عشر شاهد تطورا خطيرا فى ميزان القوى بين الألمان من جهة والعناصر السلافية والسكندناوية من جهة أخرى . فبعد مضى ثلاثمائة سنة ذاقت طوالها العناصر السلافية الأمرين من عسف الألمان وضغطهم ، حتى جاءت فى النهاية العصبة الهانزية من جهة وهيئة الفرسان التيتون من جهة أخرى ليجعلوا من البحر البلطى بحيرة ألمانية ، اذا بالأوضاع تتغير فى القرن الخامس عشر فتتعرض العصبة الهانزية لخطر يهددها من جانب اتحاد كالمار ، فى حين تعرض الفرسان التيتون لخطر من جانب اتحاد بولندا ولتوانيا (٢) . وكان أن بدأ النزول بين قوات بولندا ولتوانيا من جهة وقوات هيئة الفرسان التيتون من جهة أخرى سنة ١٤٠٩ ، وفى موقعة تاننبرج Tannenberg فى العام التالى ، انتصر الفريق الأول انتصارا حاسما ، وسقط مقدم التيتون قتيلا فى الميدان ، مما جعل بروسيا تبدو فريسة سهلة أمام الغزاة المنتصرين (٣) . على أن المقاومة التى أبدتها قلعة مارينبورج Marienburg – حاضرة الفرسان التيتون ومعقلهم – جعلت تقدم البولنديين يبدو صعبا ، ومن ثم انتهى الموقف بعقد صلح ثورن Thorn الأول سنة ١٤١١ ، وبذلك أتيحت فرصة لمنظمة التيتون لكى تعيش نصف قرن آخر من الزمان .

ويبدو أن الهزيمة التى لحقت بالتيتون فى تاننبرج جاءت مصحوبة بانحلال داخلى فى نظامهم وانقسام فى حكومتهم . هذا فى الوقت الذى أثارت سياسة الفرسان التيتون الاقتصادية غضب تجار العصبة الهانزية بسبب تطرفهم فى فرض ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الموقف الحربى (٤) . وقد حاول

---

(1) Pirenne: La Fin du Moyen Age Tome 1, p. 412.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 265
(3) *Morfill ; Poland*, p. 52.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 953

الفرسان التيتون اصلاح وضعهم ولكنهم لجأوا فى تحقيق ذلك الى الشـدة والتطرف فى معاملة رعاياهم مما أضاع الثقة بين الحكام والمحكومين وأدى الى قيام حرب أهلية داخلية فى بروسيا سنة ١٤٥٣ • وكان أن استنجد الثوار داخل بروسيا ببولندا ، فأعلن كازمير الرابع ملك بولندا ضم بروسيا الى بلاده وخرج بنفسه على رأس جيشه لمساعدة الثائرين • ويضيق بنا المقام عن تتبع هذا الدور من أدوار الحرب بين بولندا والفرسان التيتون ، ولكن يكفى القول بأنها كانت مريرة استمرت اثنى عشر عاما ، قاوم فيها التيتون دفاعا عن كيانهم مقاومة باسلة على الرغم من الهزائم المتلاحقة التى نزلت تترى عليهم • حتى أضطروا أخيرا — سنة ١٤٦٦ — الى الاعتراف بالأمر الواقع فعقدوا صلح تورن الثانى مع بولندا (١) • وبمقتضى هذا الصلح استولت بولندا على كل بروسيا الغربية بما فيها اقليم بومرليا ودانزج وثورن والبنج Elbing وكولم حتى عاد وادى الفستولا مرة أخرى الى أيدى السلاف • أما بروسيا الشرقية فقد بقيت فى أيدى منظمة الفرسان التيتون بشرط أن يعترفوا فى حكمهم بالتبعية لبولندا وحدها دون عداها (٢) • وهكذا بدأ فصل الختام فى تاريخ دولة الفرسان التيتون بشمال أوربا ، حتى انتهى ذلك الفصل سنة ١٥٢٥ عندما أصبحت بروسيا الشرقية دوقية تابعة لبولندا (٣) •

بولندا بعد الغزو المغولى :

الواقع أن بولندا تأتى — عند دراستها — بين هذا الباب والباب السابق لأنها بحكم موقعها وتاريخها تحتل مكانا وسطا بين شرق أوربا وغربها وان كان البولنديين أنفسهم يرجعون فى أصلهم الى العنصر السلافى الذى جعلهم فى طابعهم العام أقرب الى شرق أوربا منهم الى غربها •

وعلى الرغم من أن بولندا لم تخضع لمغول القبيلة الذهبية خضـوعا تاما

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 266.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 534.
(3) Thompson: Vol. 2, p. 953

مستمرا الا أنها أضحت بعد الغزو المغولى فى حال يرثى لها من الـدمار والخراب • وكان طريق النقاهة من الغزو يبدو أول الأمر شاقا عسيرا ، اذ غدت البلاد مقسمة الى عدد كبير من الامارات المستقلة • كل منها أشبه بدويلة صغيرة تسودها فوضى النزاع بين النبلاء (١) • وقد استمر هؤلاء منقسمين الى مرتبتين ، الأشراف فى المرتبة الأولى ثم الأعيان فى المرتبة الثانية، وبعد ذلك يأتى الأقنان من عامة الفلاحين (٢) • أما فى الناحية الخارجية فان موقف بولندا كان لا يقل صعوبة وحرجا ، فالفرسان التيتون أقاموا حاجزا بينها وبين البحر البلطى ، فى حين أخذ الألمان الذين استقروا فى سيلزيا يحولونها الى أرض ألمانية ، كما أخذوا يكونون فى بولندا طبقـة متوسطة تسيطر على المدن والتجار مع كونهم أجانب على البلاد (٣) • ثم زاد الطين بلة قيام أحد أبناء بوهيميا وهو ونسسلاس Wenceslaus (١٢٩٥ ـ ١٣٠٥) فى عرش بولندا سنة ١٣٠٠ ، فاستفاد الرعايا الألمان وحدهم من هذه الخطوة ، كما أن تبعية سيلزيا لهذا الملك البوهيمى ساعدت على تقوية صبغتها بالطابع الألمانى (٤) •

على أن كراهية البولنديين للألمان سرعان ما أثارت فيهم الشعور القومى ، فثار لادسلاس لوكيتيك (الأول) Ladislaus Loketick (١٣٢٠ ـ ١٣٣٣) أمير كوجافيا فى حوض الفستولا الأدنى ، وجمع معظم الامارات البولندية تحت زعامته ، كما عقد أول مجلس نيابى قومى سـنة ١٣٣١ • وقد اصدر هذا الملك عدة تشريعات ناجحة ضد الرعايا الألمان فى بولندا ليجعل السيادة فى المدن البولندية للعنصر السلافى ، ومع ذلك فانه لم يوفق فى استرداد سيلزيا التى تمسكت بها بوهيميا كما عجز عن استعادة بومرليا من الفرسان التيتون فعقد معهم صلحا سنة ١٣٣١ (٥) •

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 200.
(2) Orton: op. cit. p. 497
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tom 1, p. 201
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 83—84
(5) Morfill : Poland p. 38

ثم خلف لادسلاس الأول ابنه كازمير الثالث أو العظيم (١٣٣٣ — ١٣٧٠) الذى رأى صعوبة فى استعادة الأقاليم التى فقدتها بولندا ، فأقر بوهيميا على تملك سيلزيا ، كما أقر الفرسان التيتون فى تملكهم لبومرليا(١). ولكنه أراد أن يعوض هذه الخسارة بالاتجاه شرقا ليكون قوة غير ألمانيا ، وفعلا نجح سنة ١٣٤٠ فى ضم مملكة الروس الحمر الى غاليسيا على الرغم من جهود هنغاريا ولتوانيا لمنع هذه الخطوة (٢) . هذا بالاضافة الى عنايته بالتخلص من بقايا النظم القبلية العتيقة ، فنظم الجهاز الادارى وركزه وعنى بالجيش والخدمة العسكرية كما اهتم بتشجيع التجارة والصناعة . وفى ذلك العهد انضمت كراكاو ودانزج الى العصبة الهانزية ، كما بدأ نجم وارسو فى الصعود لتخلف كاراكاو التى كانت عاصمة البلاد منذ سنة ١٣١٢ (٣) . أما الروح العلمية التى سادت القرن الرابع عشر فقد وجدت مركزا قوميا لها فى جامعة كراكاو . وهكذا قدر لبولندا أن تحقق قسطا وافرا من الوحدة والتقدم تحت قيادة الملك كازمير (٤) .

ويبدو أن تخوف كازمير من نشوب حرب أهلية من بعده بسبب وراثة العرش جعله يختار ابن أخته لويس ملك هنغاريا (١٣٧٠ — ١٣٨٢) وريثا له (٥) ، وبذلك أصيب النظام الملكى فى بولندا بضربة قاسية لأن لويس اضطر الى اصدار منحه كاسا Kassa سنة ١٣٧٤ التى حررت النبلاء من معظم التزاماتهم نحو الملك (٦) . وهكذا آلت السلطة فى بولندا — بعد وفاة لويس — الى أشرافها الذين أصروا على اختيار ابنته الثانية هدويج ملكة عليهم بعد أن أجبروها على الزواج من جاجلو Jagello أمير لتوانيا ، وبذلك فصلوا بولندا عن هنغاريا وبوهيميا (٧) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 260—261
(2) Orton : op. cit. p. 498.
(3) Morfill ; Poland. pp. 38—40
(4) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 954, Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 562.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome 1, pp. 210 — 211.
(6) Morfill : Poland. p. 47
(7) Lodge. op. cit. pp. 190—191

أما لتوانيا هذه - التى قدر لها نتيجة لهذه الزوجية - أن ترتبط ببولندا ، فكان أهلها يكونون شعبا قائما بذاته يعيش فى شبه عزلة ، محتفظا بوثنيته دون أن يتأثر كثيرا بما يحيط به من تيارات حضارية (١) • وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت باللتوانيين على أيدى الفرسان التيتون ، الا أنهم أظهروا مقدرة سياسية واضحة ، حتى قام بعض أمرائهم بغزو روسيا • وهم هؤلاء الأمراء مندوج Mindovg (١٢٤٠ - ١٢٦٣) ثم جدمين Gédimine (١٣١٥ - ١٣٤٠) الذى وصل فى تقدمه داخل روسيا حتى كييف ، ثم أولجرد Olgerd (١٣٤٥ - ١٣٧٧) الذى سيطر على حوض الدنيبر بأكمله وثبت نفوذه على شاطىء البحر الأسود (٢) • وبعد هؤلاء جاء جاجلو (١٣٧٧ - ١٤٣٤) الذى أعرض عن الاتجاه السابق واتجه نحو بولندا والحضارة الغربية ، حتى كان زواجه من هدويج البولندية بعد اعتناقه المسيحية ، الأمر الذى أدى بشعبه الى أن يتبع المذهب الكاثوليكى الغربى ، مما وضع فاصلا واسعا بينه وبين رعاياه الروس الأرثوذكس (٣) •

ويعتبر اعتلاء هذا الأمير اللتوانى عرش بولندا ، وما ترتب على ذلك من اتحاد بولندا ولتوانيا فى ظل ملكية واحدة ، أمرا على جانب عظيم من الأهمية ، نظرا لما ترتب عليه بالنسبة لتوسع الألمان فى شمال أوربا (٤) • وقد اتخذ جاجلو عند تعميده اسم لادسلاس الثانى ملك بولندا (١٣٨٦ - ١٤٣٤) • وكان من الطبيعى ألا يتخذ أى أجراء لمقاومة أرستقراطية الأشراف التى نصبته ملكا ، (٥) وفى الوقت نفسه أخذ يطبق النظم البولندية على لتوانيا ، كما منح الأسر الكبيرة الامتيازات نفسها التى كانت تتمتع بها مثيلاتها فى بولندا • ولكن يبدو أن هذه الأسر الجديدة التى قامت فى عرش بولندا آمنت من أول الأمر بأن رسالتها الأولى تنحصر فى ازالة الآثار المترتبة على

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 559.
(2) Rombaud : Hist. de la Russie, pp. 147—150
(3) Cam. Med. Hist. 7, Ps. 227—259
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tom I, p. 409
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 568.

التوسع الألماني شمالا في الفترة السابقة (١) • ولم تلبث أن أثمرت هذه السياسة فانتصر البولنديون على الفرسان التيتون في موقعة تاننبرج سنة ١٤١٠، مما جعل بولندا تتطلع لزعامة شرق أوربا (٢) ، لولا أن شاء سوء الطالع أن يقتل ملكها لادسلاس الثالث (١٤٣٤ – ١٤٤٤) في موقعة فارنا ضد العثمانيين (سنة ١٤٤٤) (٣) • وقد لمع في هذه الفترة اسم اسقف كراكاو زبجنيو أولزنيكي Zbigniew Olesnicki حتى جاء وقت اصبح هو المتحكم في سياسة الدولة البولندية • وتبدو سياسته واضحة في القضاء على الهرطقة الهسية في بولندا من جهة ، وفي التأثير على ملكية لادسلاس للقيام بحملته الصليبية ضد العثمانيين من جهة أخرى (٤) • ومهما يكن من أمر ، فان مقتل لادسلاس الثالث في هذه الحملة ، جعل خليفته كازمير الرابع (١٤٤٥ – ١٤٩٢) يبدأ البناء من جديد • وكان أهم ما فعله هذا الملك هو القضاء على قوة هيئة الفرسان التيتون ، وهو الأمر الذي تم بمقتضى صلح ثورن الثاني سنة ١٤٦٦ ، والذي ترتب عليه ضم بروسيا الغربية لبولندا • وهكذا شقت بولندا طريقها نحو البحر البلطي وامتلكت ميناء دانزج ولم تعد تحت رحمة الألمان وضغطهم(٥) •

على أن هذا النجاح في الميدان الخارجي قللت من أثره الظروف الداخلية في مملكة بولندا الواسعة ذلك أن كازمير الرابع صمم منذ اعتلائه العرش على سلب أرستقراطية الأشراف سلطانها ونفوذها، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض بعد نضال عنيف ، ولكن الفئة التي جنت ثمار هذا النصر كانت طبقة الأعيان الذين يلون الأشراف في المرتبة(٦) • وهكذا غدا ممثلوا الأعيان هم المسيطرون على المجلس الوطني ، حتى أوشكت بولندا عند نهاية العصور الوسطى ومستهل

(1) Lodge : op. cit. p. 183
(2) Morfill : Poland p. 52.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 577.
(4) Morfill : Poland, pp. 54—55.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, pp. 115 — 116.
(6) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 557—578.

الحديثة أن تصبح جمهورية من النبلاء فى صورة ملكية انتخابية مقيدة(١) .

روسيا والغزو المغولى :

فاذا تركنا بولندا ، فاننا نلمس أثر الحضارة الغربية يتناقص فى الشعوب السلافية كلما أوغلنا شرقا . فحينما اتبعت بولندا الكنيسة الغربية وغلب عليها طابع الاقطاع الذى ساد غرب أوربا ، اذا بمعظم لتوانيا أرثوذكسية المذهب وإن كانت أرستقراطيتها ذات نزعة اقطاعية غربية ، هذا فى حين ارتبطت البلاد الروسية ارتباطا تاما بالشرق وحضارته حتى غدت الوريثة الطبيعية للدولة البيزنطية(٢) .

وعلى الرغم مما صحب الغزو المغولى لروسيا من ذبح آلاف الأهالى وتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم ، الا أن هذا الغزو لم يغير الطابع العام للبلاد . ذلك أن خانات القبيلة الذهبية لم يحاولوا تغيير النظم السائدة فى البلاد (٣) وهكذا ظلت روسيا مقسمة الى عدة ولايات أو امارات أهمها كييف وروتنيا Ruthénie ونوفجرود الكبرى فى الشمال(٤) ، وكان يحكم هذه الولايات أمراء من الروس على أن يختار خان المغول أحدهم ليكون أميرا أعظم . والواقع أننا نستطيع أن نحدد العلاقة بين الروس وسادتهم المغول فى ذلك العصر بعدة روابط أساسية : أولها أنه كان على الأمراء الروس أن يترددوا بين حين وآخر على مقر القبيلة الذهبية ، اما لتقديم ولائهم وخضوعهم ، واما لحل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض . ويبدو أن الأمر لم يقتصر على ذهاب الأمراء الروس الى مقر القبيلة الذهبية وانما كانوا يضطرون أحيانا الى الذهاب حيث خان المغول الأعظم فى جوف القارة الآسيوية ، وهناك كان يلتقى الأمراء الروس برسل الخليفة العباسى والبابا وملك فرنسا وغيرهم من حكام الشرق

(1) Morfill : Poland, p. 56.
(2) Orton : op. cit. pp. 500—551.
(3) Pirenne: La Fin du Moyen Age, p. 216.
(4) Idem : pp. 218—219.

والغرب(١) . وثانى هذه الروابط أنه كان على الروس - شأنهم شأن بقية الشعوب الخاضعة للمغول - دفع ضريبة الرأس ، دون تمييز بين الأثرياء والفقراء فى دفع هذه الضريبة ، ولم يشترط أن تدفع هذه الضريبة نقدا وانما كانت تدفع عينا فى بعض الأحيان ، ومن يعجز عن دفعها يفقد حريتـــه ويستعبد(٢). أما الرباط الثالث فانه كان على الروس دفع ضريبة الدم (L'impot du sang) ويقصد بها تقديم الرجال المطلوبين للعمل فى جيوش سادتهم المغول . وكان الأمراء الروس يختارون صفوة شبابهم فى القرن الثالث عشر لتقديمهم الى المغول ، حتى أننا نسمع عن كثير من الروس الذين حاربوا فى صفوف المغول ضد شعوب القوقاز سنة ١٢٧٦ (٣) . ورابع هذه الروابط أن أى أمير روسى لا يمكن أن يتولى الحـكم فى امارته الا بموافقـة الخان وتسليمه أمر اعتماد أو تقليد منه(٤) . وأخيرا فقد كان محرما على أية امارة روسية أن تشن حربا على جارتها الا بترخيص من الخان ، ومن ذلك ما نسمعه عن أن نوفجرود طلب ترخيصا من المغول سنة ١٢٦٩ بمحاربة ريفل(٥) .

وقد ظهر من أمراء روسيا فى القرن الثالث عشر اسكندر نفسكى أمـير نوفجرود الذى استطاع أن يدافع عن امارته ، فأنزل هزيمة بالسويديين عند نهر نيفا سنة ١٢٤٠ ، وبمنظمة السيف الألمانية قرب بحـيرة بيبوس سنة ١٢٤٣ . ثم كان أن استطاع أحد أبناء اسكندر هذا الى الوصول الى امارة موسكو التى نبتت منها الامبراطورية الروسية(٦) .

والواقع أن أمراء موسكو أظهروا على الدوام مقدرة وكفاية تفوق ما كان عليه بقية أمراء روسيا ، كما أنهم لم يتقيدوا بالتقاليد الأرستقراطية العتيقة.

---

(1) Rambaud : Hist. de la Russie, pp. 147—150.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 621
(3) Rambaud : op. cit. pp. 141—142.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 621.
(5) Rambaud : op. cit. p. 142.
(6) Morfill: Russia, p. 42.

التي سادت مختلف أنحاء روسيا والتي انطوت على كثير من مظاهر الفوضى وعدم النظام • وقد ساعدت الظروف أمراء موسكو على توطيد سلطانهم المطلق بصورة ليس لها مثيل في أي مكان آخر من روسيا(١) • ذلك أن هذه الامارة أحاطت بها مجموعة قوية من الجيران ، كما تعرضت للكثير من بطش المغول ، مما جعل أهاليها يعتمدون على أميرهم اعتمادا تاما في حمايتهم وتحقيق سلامتهم • ولم يلبث مغول القبيلة الذهبية أن أدركوا أهمية امارة موسكو لهم ، فأضفوا على صاحبها لقب « الأمير الأعظم » ، كما عهدوا الى أميرها ايفان الأول (١٣٢٨ - ١٣٤١) بمهمة جمع الجزية المفروضة على بقية الامارات الروسية المجاورة(٢) • وهكذا ازدادت أهمية أمير موسكو وتضاعفت ثروته وظهر في مظهر حامي الشعب الروسي ، والوسيط بينه وبين سادته المغول ، كما أتيحت له فرصة الاستعانة بقوى المغول للتغلب على منافسيه وجيرانه • هذا في الوقت الذى أصبحت موسكو المركز الروحي لروسيا ، بعد أن انتقل اليها - من كييف - رئيس أساقفة روسيا (٣) • ولم يلبث الرهبان الروس أن انصرفوا الى استصلاح الأراضي وفلاحتها وتأسيس المستعمرات فيها ، وهي المستعمرات التي أخذ أهلها ينظرون الى موسكو على أنها حاضرتهم ومركزهم الروحي •

ثم كان أن أخذت قوة القبيلة الذهبية تتفكك بسرعة ، وعندئذ بدأ ديمترى دونسكوى Dimitri Donskoi أمير موسكو (١٣٦٣ - ١٣٨٩) يعتقد أن الوقت مناسب لمقاومة المغول والتخلص من سيادتهم • ولكن اذا كان الروس قد تمكنوا من احراز انتصارين على المغول حوالى سنة ١٣٨٠ مما أثار فيهم روح الحماسة القومية(٤) ، الا أن خان المغول طقطمش لم يلبث أن وحد

---

(1) Orton : op. cit. pp. 501—502.
(2) Rambaud : op, cit. pp. 163—167 & Cam. Med. Hist. Vol. 7; p, 625
(3) Morfill : Russia. p, 49 & Cam. Med. Vol. 7, p. 626
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 627

القبيلة الذهبية بمساعدة تيمورلنك ، وعندئذ تغلب على الروس وأحرق موسكو ، واضطر الروس الى اعادة دفع الجزية وهم صاغرون(١) • ولم يلبث الخلاف أن دب بين طقطمش وتيمورلنك ، مما جعل الأخير يقضى على قوة الأول سنة ١٣٩٥ وبالتالى قضى على قوة القبيلة الذهبية • وعلى الرغم من أن أمير موسكو الأعظم رأى أن يحتاط ولا يتسرع فى تحديد موقفه من المغول تلك المرة ، الا أن أملاكه أخذت فى الاتساع والنمو المستمر كما أخذت روسيا تظهر تعصبا لطابعها الشرقى وتمسكها بمذهبها الأرثوذكسى(٢) •

وأخيرا قدر لايفان الثالث أو العظيم (١٤٦٢ - ١٥٠٥) أن يتوج عمل أسلافه أمراء موسكو باخضاع بقية الامارات الروسية لنفوذه • وكان أن أخضع نوفجرود سنة ١٤٧٩ وحول هذه الجمهورية التجارية الغنية الى مدينة اقليمية • وعندما حقدت الدولة البولندية اللتوانية على روسيا وتحالفت مع مغول القبيلة الذهبية المنحلة ضد الروس ، استطاع ايفان الثالث لأن يحطم ذلك الحلف فتحالف مع مغول القرم للقضاء على القبيلة الذهبية(٣) •

ومع أن روسيا نجحت أخيرا فى التحرر من سيطرة المغول الا أن خضوعها لهم تلك السنوات الطويلة ترك أثرا واضحا فى تاريخها ومستقبلها • ونستطيع أن نجمل الأثر الذى تركه حكم المغول لروسيا فى ثلاثة نواحى هامة : أولها أن الحكم المغولى عمل على فصل روسيا عن غرب أوربا وجعلها تعتمد سياسيا على آسيا مما كان له أبعد الأثر فى تاريخها الحديث • وثانيها أن سيطرة المغول على روسيا شجعت على تثبيت روح الحكم الاستبدادى فى البلاد الروسية ، التى أضحى أمراؤها مسئولين أمام خان المغول وممثلين له فى سلطانه المطلق ، ومن ثم لم ينشأ هؤلاء الأمراء - ومن بعدهم القياصرة - أن يتخلوا عن سلطتهم الاستبدادية بعد زوال حكم المغول(٤) • أما الأثر الثالث الذى تركه حكم

---

(1) Rambaud : op. cit. pp. 174—175.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7 p. 629
(3) Morfill : Russia, pp. 57—58
(4) Rambaud : op. cit. p. 145.

المغول لروسيا فهو أنه أدى الى ازدياد نفوذ الكنيسة وثروتها • ذلك أن المغول – على الرغم من قسوتهم ووحشيتهم – كانوا متسامحين الى حد كبير فى النواحى الدينية فتركوا للشعوب التى خضعت لهم حرية العبادة ، ولم يحاولوا التدخل فى شئون الكنيسة الروسية ، وانما أباحوا لها حرية التصرف ومباشرة حقوقها القضائية وغير القضائية على أوسع مدى • ومن ذلك أن أوزبك خان ثبت سنة ١٣١٣ لبطرس رئيس أساقفة موسكو جميع الامتيازات التى تتمتع بها الكنيسة وضمن له حماية ممتلكاتها • وهكذا ظلت الكنيسة الروسية مرفوعة الرأس تباشر حقوقها فى حرية تامة وتجمع الأموال والأراضى مما يجود به الخيرون من أبناء البلاد ، فى الوقت الذى خضع أمراء روسيا لسادتهم المغول وتضاءل نفوذهم السياسى لذلك(١) •

ومهما يكن من أمر ، فقد تحررت روسيا أخيرا من حكم المغول لتصبح قوة عظيمة تحت حكم ملكية مطلقة ، فى الوقت الذى أخذ الروس يتوسعون ويمدون حدود بلادهم فى الاتجاهين الشرقى والشمالى • هذا الى أن موسكو أضحت بسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، المركز الحقيقى للكنيسة الأرثوذكسية بل أصبحت روما الثالثة (٢)، كما تزوج ايفان الثالث من أميرة يونانية ليصبح وريث الأباطرة البيزنطيين(٣) • على أن هذه الدولة الروسية ظلت أمدا طويلا متباعدة عن الغرب ، محتفظة بطابعها الشرقى ، حتى أخذت أخيرا تلعب دورا رئيسيا فى تاريخ أوربا – بل العالم الحديث •

---

(1) Idem. pp. 145—146
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 631
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 266—267

الباب الثالث والعشرون

نهاية الدولة البيزنطية

أسرة كومنين :

استطاعت الأسرة الكومينتية – بعد أن ثبت دعائمهـــا ألكسيوس الأول كومنين – أن تحتفظ بعرش الامبراطورية البيزنطية أكثر من قرن من الزمان (١٠٨١ – ١١٨٥) • ونستطيع من الالمام بأبواب الكتاب السابقة أن نقف على العوامل الرئيسية التى تحكمت فى السياسة الخارجيـــة للامبراطورية الشرقية فى تلك الفترة ، اذ كان على أباطرة هذه الأسرة تحديد موقفهم من الأتراك السلاجقة من جهة ومن الصليبين المارين بأراضى الدولة نحو الأراضى المقدسة من جهة ثانية ، ثم من الامارات الصليبية التى قامت فعلا فى بلاد الشام من جهة ثالثة • هذا بالاضافة الى ملوك النورمان بجنوب ايطاليا وصقلية ، وهم الذين أرادوا أن يتخذوا هذا المقر الجديد نقطة ارتكاز يقفزون منها على أراضى الدولة البيزنطية فى البلقان(١) •

ومن الواضح أن هذه القوى السابقة كانت جميعها معادية للامبراطـورية الشرقية ، ولا يستثنى من ذلك الصليبيون الذين رأت فيهم الامبراطورية خطرا فاق خطر السلاجقة والنورمان جميعا ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تجد نفسها منذ أواخر القرن الحادى عشر وسط محيط متلاطم من الأعداء الطامعين فيها وفى أراضيها • واذا كان الامبراطور ألكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ – ١١١٨) قد استطاع – بفضل مهارته السياسية وقوته – أن يسير بسفينـــة الامبراطورية وسط هذه الأمواج المتلاطمة الى بر الأمان ، وأن يعيد بنـــاء الامبراطورية على قواعد جديدة ، فانه لم يستطع الوصول الى هذه النتيجة دون

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4. pp. 322—325.

ثمن مرتفع ، فضلا عن أن النجاح الذى حصل عليه كان سطحيا ومؤقتا(١) ، ذلك أن الصليبين الغربيين الذين وفدوا الى الشرق نتيجة لتوسلات ألكسيوس وأسلافه من الأباطرة ، والذين مكنوه من استرداد جزء كبير من بلاده المفقودة فى آسيا الصغرى ، استقروا بالأراضى الشامية ليثيروا خطرا مستمرا فى وجه الامبراطورية البيزنطة نتيجة لتفوقهم الحربى وأطماعهم السياسية من جهة ، والعداء المذهبى بينهم وبين البيزنطين الأرثوذكس من جهة أخرى(٢) •

وهنا يبدو أن خطر الصليبين على الدولة البيزنطية لم يكن حربيا فحسب بل انهم أنزلوا بهذه الدولة ضررا اقتصاديا أشد وأنكى من الضرر الحربى • ذلك أنه اذا كانت الحركة الصليبية قد بدت فى مظهرها الخارجى دينيـــة حربية ، الا أنها تضمنت فى باطنها نشاطا سياسيا واقتصاديا واسعا • وحسبنا ما فطنته مدن ايطاليا التجارية — وعلى رأسها بيزا والبندقية وجنوا — من استغلال الحروب الصليبية للسيطرة على التجارة بين الشرق والغرب ، والحصول من وراء ذلك على أرباح واسعة ومغانم عظيمة (٣) • وهكذا أخذت عكا وغيرها من موانى الصليبين بالشام تنافس القسطنطينية فى مكانتها الاقتصادية كما حـــل التجار الايطاليون محل البيزنطين فى الهيمنة على تجارة الشرق ، مما عاد بخسارة بالغة على الامبراطورية البيزنطية هددت مواردها الأساسية • وقد حاول الامبراطور ألكسيوس علاج هذا الوضـــع ، ولكن علاجه أدى الى كارثة محققة ، لأنه لجأ الى منح البنادقة اعفاءات من الضرائب فى موانى الامبراطورية ليعيد الحياة الى هذه الموانى ، كما منحهم حيا تجاريا خاصا فى القسطنطينية تمتعوا فيه باستقلال تام فى شئونهم القضائية والدينية(٤) • ولم تلبث بيزا هى الأخرى أن حصلت على مثل هذه الامتيازات سنة ١١١١ ولكن على نطـاق ضيق ، الأمر الذى جعل التجار الايطاليون يباشرون تجارتهم فى الدولة

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 319
(2) Grousset : op. cit. Tom 1, pp. 418—419
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٤ ، ٤٨٨ •
(4) Vasiliev ; op. cit. Tome 2, p. 10

البيزنطية فى حرية وعلى نطاق واسع ، مما عاد بعواقب وخيمة على بالاقتصاد الوطنى(١) . هذا فضلا عن أن استقرار هؤلاء الايطاليـــون فى القسطنطينية لمباشرة نشاطهم التجارى ، مهد الطريق لسيطرتهم على مقاليد الحـــكم فى الامبراطورية نفسها ، لأنه من المبادىء المعروفة منذ أقدم العصور أن التغلغل الاقتصـــادى كثيرا ما يكون مقدمة للاســـتعمار السياسى . حقيقة أن قيام عدد من أباطرة أسرة كومنين الكفاة فى الحكم قد أجل وقوع هذه الكارثة ، ولكن عندما أتيحت الفرصة لحدوث انشقاق بين المطالبين بالعرش ، استطاع البنادقة أن ينفذوا الى الحكم وأن يحققوا مطامعهم السياسية ، بالضبط كما فعلت شركات الهند الانجليزية والفرنسية فى العصور الحديثة(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا التطور جاء بطيئا وتدريجيا فى الامبراطورية البيزنطية بفضل عناصر الحيوية الكامنة فى هذه الامبراطورية ، ممـــا مكن ألكسيوس الأول كومنين من قضاء بقية حكمه فى تثبيت دعائم أسرته وفى حماية الدولة من الأخطار الخارجية التى أحاطت بها(٣) . وعند وفاة ألكسيوس خلفه ابنه حنا الثانى كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣) الذى يعتبر من أمهر الأباطرة الذين اعتلوا عرش الامبراطورية(٤) . وقد امتاز حنا الثانى بمجمـــوعة من الصفات الكريمة التى أكسبته لقب « الطيب » والتى جعلته محبـــوبا من رعاياه ، فقضى حكمه دون أن يتعرض لمتاعب أو ثورات داخلية ـ اللهم من ناحية أخته Anna وأخيه اسحق . لذلك قضى حنا الثانى معظم سنوات حكمه فى تدعيم حدود دولته ودفع خطر جيرانها ، فحارب العناصر السلافية والهنغارية الرابضة على الحدود الغربية فى البلقان ، كمـــا حارب الأتراك السلاجقة والأرمن فى آسيا الصغرى . وقد استغل الامبراطور البيزنطى حنا الثانى سيطرته التامة على قليقية ليجبر ريموند أمير أنطاكية على الاعتراف له بالتبعية(٥) . كذلك حاول حنا الثانى اصلاح الأحوال الاقتصادية والمـــالية

---

(1) Ostrogorsky: *op. cit.* p. 325.
(2) Tout : The Empire and the Papacy p. 338.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 350
(4) Ostrogorsky: op. cit. p. 334
(5) Grousset : op. cit. Tome 2, p. 94

فى امبراطوريته ، ولجأ فى سبيل تحقيق ذلك الى العمل على التخلص من سيطرة البنادقة الاقتصادية ، ولكن هذه المحاولة جرته الى حرب معهم • وهنا ظهر عجز الامبراطور أمام جبابرة البحر والتجارة فاضطر الى مصالحتهم واعادتهم الى سابق الامتيازات التى تمتعوا بها بمقتضى اتفاقية سنة ١٠٨٢ ، هذا فى الوقت الذى تمتعت بقية مدن ايطاليا التجارية ـ مثل بيزا وجنوا ـ بمميزات اقتصادية ، وان كانت دون تلك التى حصلت عليها البندقية(١) •

ثم خلف حنا الثانى ابنه مانويل الأول كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠) الذى شابه معاصريه من حكام الغرب وأمرائه فى ولعه بحياة القوة والفروسية • وفى عهد مانويل الأول هذا مرت الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) بأراضى الامبراطورية ، ونجت الامبراطورية من هذه الأزمة بسلام ، ليتفرغ الامبراطور بعدها لعدة حروب استهدفت تحقيق مجد شخصى لاصلاح الأمبراطورية العام(٢) • وكان النجاح هو الطابع العام الذى امتازت به هذه الحروب ، فمد الامبراطور مانويل نفوذه على دول الدانوب حتى الحدود الألمانية ، وقضى على محاولات روجر ملك صقلية وابنه وليم فى غزو أراضى الامبراطورية ، كما شن حربا طويلة على البندقية • وعندما عجز الامبراطور أمام البندقية استعان بجنوا وبيزا فعقد حلفا مع الأولى سنة ١١٦٩ ومع الثانية سنة ١١٧٠ ، وزاد امتيازاتهما فى دولته ليخفف من غلواء البندقية ، الأمر الذى أساء بصورة واضحة الى العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والبدقية(٣) •

ثم مات مانويل كومنين بعد أن أدت حروبه الى اضعاف مالية الدولة وزيادة موقفها سوءا ، فخلفه ابنه ألكسيوس الثانى (١١٨٠ - ١١٨٣) الذى كان طفلا فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع تحت وصاية أمه مقاومة المؤامرات التى حاكها أعضاء البيت الحاكم حتى انتهى الأمر بعزله وقيام أندرونيق كومنين.

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2. pp. 50—51
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp 372—378
(3) Ostrogorsky: op. cit. p. 345

في الحكم (١١٨٣ — ١١٨٥) • وكان هذا الامبراطور الجديد قويا شجاعا في شيء من القسوة وميل الى سفك الدماء ، فامتاز عهده بكثرة الثورات في أنحاء الامبراطورية وولاياتها • وهكذا استقلت قبرص تحت حكم اسحق كومنين الذى نادى بنفسه امبراطورا في الجزيرة ، كما غزا النورمان مقدونيا واستولوا على سالونيكا سنة ١١٨٥ (١) • وكان لاستيلاء النورمان على سالونيكا — وهى ثانى مدن الامبراطورية بعد القسطنطينية — رد فعل قوى فى العاصمة ، فثار الأهالى واتهموا الامبراطور بالتقاعس والاهمال فى الدفاع عنها ، حتى انتهى الأمر بعزل الامبراطور أندرونيق الأول واحلال اسحق أنجيلوس محله سنة ١١٨٥ ، وبذلك انتهى بيت كومنين وبدأت أسرة جديدة فى حكم الامبراطورية البيزنطية(٢) •

اسرة أنجيلوس :

كان اسحق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ — ١١٩٥) ضعيفا جبانا ، ولا يرجع نجاحه فى الوصول الى عرش الامبراطورية الى كفايته ومقدرته بقدر ما يرجع الى كراهية جميع الطبقات لسلفة أندرونيق كومنين • لذلك شهد عهد اسحق الثانى تدهورا مستمرا فى أوضاع الامبراطورية فى حين شغل الامبراطور نفسه ببناء الكنائس والقصور وجمع المخلفات الدينية والأيقونات ، وأخطر ما فى ذلك هو أن حاجته الى المال دفعته الى الوظائف الكبرى لمن يدفع فيها مبالغ أكبر ، الأمر الذى أدى الى فساد الادارة الامبراطورية من جهة ، والى انزال المظالم بأهالى الولايات من جهة أخرى ، لأن هؤلاء الموظفين كانوا يحاولون عادة استعادة ما دفعوه للامبراطور من الأهالى المحكومين(٣) •

أما فى الخارج فقد حالف الفشل جيوش الامبراطورية ، اذ ثار البلغار بسبب قسوة الضرائب ، ونفضوا أيديهم من ولائهم للامبراطورية بعد أن

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 82
(2) Idem. p. 83
(3) Tout : The Empire and the Papacy; p. 341

ظلوا خاضعين لها مائتى سنة منذ أيام باسل الثانى(١) • ولم يكن عجز اسحق الثانى عن اخضاع بلغاريا هو كل ما أصاب الامبراطورية من فشل فى سياستها الخارجية عندئذ ، اذ وصلت الحملة الصليبية الثالثة الى الشرق سنة ١١٩٨ ولجأ أحد زعمائها ـ وهو فردريك بربروسا ـ الى عدم رعاية شعور الدولة البيزنطية ومصالحها ، فاتصل بأعدائها من العرب والبلغار بل السلاجقة ، وتحالف معهم جميعا لتسهيل مهمته فى طريقه الى الأراضى المقدسة • وقد أساء مسلك الصليبيين هذا الى الشعور العام بالقسطنطينية وأثار قلق الدولة البيزنطية ، مما دفع الامبراطور البيزنطى الى الارتماء بين أحضان صلاح الدين(٢) • وفى ذلك الوقت استولى زعيم آخر من زعماء الحملة الثالثة ـ وهو ريتشارد قلب الأسد ـ على جزيرة قبرس وفصلها نهائيا عن جسم الامبراطورية (٣) • وهنا ظهر صدى هذه الأحداث فى موقف الامبراطور اسحق الثانى ، اذ أدى اتفاقه مع صلاح الدين من جهة ، واضطراره الى شراء مسالمة السلاجقة من جهة أخرى الى تدبير مؤامرة لخلعه وقيام أخيه ألكسيوس محله فى الحكم •

على أن ألكسيوس الثالث أنجيلوس (١١٩٥ - ١٢٠٣) لم يكن خيرا من أخيه ، فبلغت الفوضى فى تلك الفترة التى شهدت تجمع جيوش الحملة الصليبية الرابعة فى البندقية فى انتظار السفن التى تحملها الى الشرق • ثم كان أن تلاحقت الحوادث الى تمخضت عن استيلاء الصليبيين على زارا سنة ١٢٠٢ ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ كما سبق أن شرحنا ، فسقطت الامبراطورية البيزنطية وقامت على حطامها امبراطورية لاتينية (١٢٠٤ - ١٢٦١) •

وهكذا قدر للقوتين اللتين كانتا تتنازعان مجد الامبراطورية الرومانية القديمة أن تسقطا جميعا فى القرن الثالث عشر ، لأن سقوط بيت هوهنشتاوفن وبداية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 518—519

(2) Ostrogorsky : op. cit. pp. 360—361

(3) Grousset : op. cit. Tome 3, pp. 47—49

فترة الشعور تعتبر نهاية فعلية للامبراطورية الغربية ، في حين جاء سقوط القسطنطينية في أيدى الصليبيين ضربة لم تستطع الامبراطورية الشرقية أن ترفع رأسها من بعدها (١) .

الامبراطورية اللاتينية في الشرق البيزنطى :

دخل الصليبيون الغربيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ليفعلوا فيها الشيء الكثير من ضروب السلب والنهب والتخريب ، مما ترك لطخة سوداء في تاريخ الحروب الصليبية . ويبدو أن هذا التحول في طريق الحملة الصليبية الرابعة واتجاهها لم يزعج البابا العظيم أنوسنت الثالث ، لأنه رأى فيه فرصة لعلى الكنيسة الشرقية تحت لواء البابوية (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان الغزاة الصليبيين الذين نجحوا في الاستيلاء على القسطنطينية ، أخذوا يفكرون في تقسيم الغنيمة في جو مشبع بروح التباغض والتحاسد بين البنادقة من جهة وبقية الصليبيين الغربيين من جهة أخرى . وهنا استقر الرأى على اختيار امبراطور وبطرق جديدين للقسطنطينية من بين الصليبيين أنفسهم . ومن الواضح أن التنافس كان شديدا بين زعماء الصليبيين حول الفوز بمنصب الامبراطورية ، حتى انتهى الأمر - بعد خلاف شديد - الى اختيار بلدوين - كونت فلاندرز - امبراطورا ، فتوج في كنيسة سانت صوفيا في مايو سنة ١٢٠٤ . أما منصب البطرقية فقد اختير له أحد البنادقة - وهو توماس موروسينى - الذى كان أول رجل لاتينى يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية (٣) .

على أن اختيار امبراطور للدولة ورأس للكنيسة كان أسهل بكثير من مهمة تقسيم الغنائم من أشلاء الامبراطورية الساقطة . وهنا لجأ الغزاة الغربيون

---

(1) Lodge : op. cit. p. 494
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 347.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 375

الى اقامة دولة اقطاعية على حطام النظام البيزنطى ، فأصبح للامبراطور بلدوين الرآسة العليا على بقية الزعماء الصليبيين ، على أن تشمل أملاكه القسطنطينية نفسها — ما عدا الحى البندقى — والجزء الأكبر من تراقيا بما فيه أدرنة ، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجه — وهى جزر ساموثريس وكوس ولسبوس وساموس وخيوس ، فى حين ثبت بونيفيس دى مونتفرات نفوذه فى مقدونيا وتساليا (١) . أما البنادقة فقد فازوا بنصيب الأسد من هذه الغنيمة . اذ أضافا الى حصتهم فى القسطنطينية معظم الجزائر القريبة من الشواطىء بما فيها جزيرة أيوبيا ، هذا زيادة على بعض المواضع الساحلية فى شبه جزيرة المورة وجزء كبير شمالى خليج كورنثة . كذلك ضم البنادقة الى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس مونتفرات . أما بقية الأمراء الصليبيين فقد نالوا اقطاعات كبيرة متفرقة ، كما ظل الباب مفتوحا أمامهم للتوسع على حساب جيرانهم (٢) .

وهكذا غدت الامبراطورية اللاتينية التى قامت فى الشرق البيزنطى تمثل دولة اقطاعية كبيرة ، تعرضت لجميع مساوىء النظام الاقطاعى ، ولا سيما فيما يتعلق بالمنازعات بين الأمراء والأحقاد المستمرة بين الأفصال وأمرائهم (٣) . واذا كانت الامبراطورية اللاتينية قد نجحت الى حد ما فى مقاومة هذه المساوىء فان هناك اخطارا أخرى كان من الصعب عليها مواجهتها والتغلب عليها . من ذلك أن زعماء الحملة الصليبية استأثروا وحدهم بالغنيمة مما ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل . هذا بالاضافة الى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصر والأجناس التى تألفت منها الحملة الصليبية الرابعة ، كما ظهر ذلك فى المنازعات بين الألمان والبرجنديين ، وبين اللمبادريين ، والفلمنكيين ، وبين جميع هؤلاء والبنادقة (٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 421—422.
(2) Vasiliev : op. cit, Tome 2, pp. 113—114.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 340.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 423

أما فيما يتعلق بالموقف بين هذه الجموع الغربية اللاتينية من جهة والبيزنطيين الشرقيين من جهة أخرى ، فلم تبذل أية محاولة للتقريب بين الطرفين ، ومن ثم ظل التباعد سائدا • ويبدو أن الغزاة الغربيين كانوا على درجة من الجمود والكبرياء بحيث لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها ، فى حين احتقر البيزنطيون أولئك « البرابرة » الغربيين الذين ادعوا لأنفسهم الحق فى وراثة روما وحضارتها • وحتى اذا لم تكف الفوارق العنصرية والحضارية لتحقيق التباعد بين الطرفين • فان الخلاف الكنسى المذهبى كان كفيلا وحده بتحقيق هذا الانشقاق (١) • واذا كان البابا أووسنت الثالث قد ارتاح للنتائج التى تمخضت عنها الحملة الصليبية الرابعة ، وظن أن فى ذلك تحقيقا للوحدة بين الكنيستين فى ظل البابوية ، فان حقيقة الموقف كانت أبعد من أن تساعد على تحقيق هذه الأمنية (٢) • ذلك أن استيلاء الغربيين على القسطنطينية واسقاطهم الامبراطورية البيزنطية ، ومسلكهم المشين تجاه أهلها ، زاد من حدة نفور البيزنطيين من الغرب وأهله وكنيسته ، وجعل الشعور القومى فى الشرق اليونانى يتبلور بدرجة لم تعهد من قبل • وهكذا لم يستلسم البيزنطيون ، وانما أقاموا ملكيات وامارات تتصف بالطابع القومى ، بعد أن فر كثيرون الى جبال ألبانيا وأبيروس حيث خضعوا لسيطرة أحد أفراد بيت أنجيلوس (٣) • وفى الوقت الذى قامت دويلات يونانية صغيرة متناثرة فى تراقيا والمورة ، لم يستطع الصليبيون أنفسهم التوغل داخل آسيا الصغرى وفرض سيادتهم على ذلك الشطر المهم من الدولة البيزنطية • وقد مكن ذلك بعض أفراد بيت كومنين من أن يستقلوا فى طرابيزون ويتخذوا لأنفسهم لقب أباطرة ، هذا فى حين استطاع أحد أفراد الجيش البيزنطى ــ واسمه تيودور لاسكاريس ــ أن يعلن نفسه امبراطورا فى نيقية ، ويبسط سلطانه على الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى (٤) • أما البلغار فى البلقان فقد أعلنوا استقلالهم ومدوا حدود دولتهم

(1) Ibid.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 377.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 424—425
(4) Vasiliev : op cit. Tome 2, p. 175

على حساب أراضي الصليبيين . وبعبارة أخرى فان الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وجدت نفسها أمام منافسين خطيرين ، بحيث أنها لم تستطع الحياة أكثر من نصف قرن الا بفضل الموقع الحربي الفريد الذي امتازت به القسطنطينية من جهة وسيطرة البنادقة على مياه البحار من جهة أخرى .

والواقع أن الامبراطورية اللاتينية التي قامت في القسطنطينية سنة ١٢٠٤ كان عليها منذ البداية أن تصارع عوامل الانقسام في الداخل وأخطار الغزاة في الخارج (١) . ذلك أن بونيفيس ملك سالونيكا تزوج من أرملة اسحق انجيلوس ورفض الخضوع لامبراطور القسطنطينية ، كما أعلن نفسه حامية البيزنطيين ، مما أثار الحرب بين الفلمنكيين في القسطنطينية واللمبارديين في سالونيكا . وفي هذه المرحلة من مراحل النزاع أغار البلغاريون على دولة الصرب اللاتينية فغزوا تراقيا سنة ١٢٠٥ وأنزلوا الهزيمة بالصليبيين في موقعة أدرنة حتى انتهى الأمر بقتل الامبراطور بلدوين نفسه بعد أن وقع في الأسر (٢) .

وقد تولى عرش الامبراطورية اللاتينية بعد مقتل بلدوين أخوه هنرى (١٢٠٦ — ١٢١٦) الذي امتاز بالشجاعة وحسن السياسة ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع أن يغزوا آسيا الصغرى أو يهزم البلغار أو حتى ينجح في استرضاء رعاياه البيزنطيين . واذا كان الامبراطور قد نجح في عقد معاهدة مع تيودور لاسكاريس ، فان هذه المعاهدة لم تمكنه من السيطرة الا على الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى (٣) . وفي ذلك الوقت هلك بونيفيس مونتفرات سنة ١٢٠٧ على أيدي البلغار ، فاستغل حاكم أبيروس البيزنطي الفرصة لضم أملاكه ، مما جعل أمراء مملكة سالونيكا اللاتينية يستنجدون بالامبراطور هنري في القسطنطينية . وعندئذ انتهز هنري

(1) Ostrogorsky : op. cit. Tom. 2, p. 376.
(2) Vasiliev ; op. cit. p. Tome 2, p. 179.
(3) Idem : p. 180.

الفرصة ليجعل الوصى على مملكة سالونيكا يعترف له بالتبعية ، كما دان بالتبعية للامبراطور اللاتينى أمراء البنادقة فى جزر الأرخبيل ، بل ان حاكم أبيروس اعترف له أيضا بالسيادة (١) •

وعندما توفى الامبراطور هنرى سنة ١٢١٦ خلفه بطرس كونت أوكسير (Auxerre) وحفيد لويس السادس ملك فرنسا • وكان هذا الأمير فى الغرب عندما بلغه خبر اختياره امبراطورا (١٢١٦ - ١٢١٩) ، فأسرع الى القسطنطينية لتولى منصبه الجديد ، ولكنه اختار أن ينزل فى دورازو ويسلك طريق مقدونيا وتراقيا الجبلى ، فهلك فى الطريق ، وخلفه ابنـــه الصغير روبرت (١٢١٩ - ١٢٢٨) تحت وصاية أمة يولاند (٢) • وقد شهد هذا العهد تدهور الامبراطورية اللاتينية تدهورا سريعا ، اذ استولى تيودور أنجيلوس على مملكة سالونيكا اللاتينية ، وبذلك أصبح يحكم الرقعة الواقعة بين البحر الأدرياتى وبحر ايجه دون منـــــافس ، كما اتخذ لقب امبراطور مثلما فعل حكام نيقية وطرابيزون (٣) • كذلك اختار امبراطور نيقية فى ذلك الوقت أن يجدد الحرب ضد امبراطورية القسطنطينية اللاتينية التى اقتصرت على العاصمة وضواحيها فقط ، مما جعل الامبراطور روبرت يفكر فى القيام برحلة الى الغرب لطلب المعونة • وعند موت الامبراطور أثناء هذه الرحلة سنة ١٢٢٨ ، خلفه أخوه الصغير بلدوين الثانى (١٢٢٨ - ١٢٦١) الذى كان حينئذ فى الحادية عشرة من عمره ، فاختير حنا برين - ملك بيت المقدس السابق - وصيا عليه • ولكن يبدو أن ازدياد خطـــر البلغار على الامبراطورية اللاتينية فى تلك الآونة كان الدافع الأساسى لاختيار حنا برين على الرغم من كبر سنه - امبراطورا • وقد نجح حنا برين (١٢٢٩ - ١٢٣٧) فى مقاومة الأخطار العديدة التى أحاطت بالقسطنطينية فى تلك الفترة (٤) • ولكن لم تلبث هذه الأخطار أن اشتدت بحيث لم ينقذ

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy; p. 352.
(2) Ostrogorski : cit. pp. 384—385.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 193—194.
(4) Ostrogorsky ; op. cit. pp. 283—389.

الامبراطورية سوى التنافس بين بيت أنجيلوس فى سالونيكا وبيت دوقاس الذى آل اليه عرش امبراطورية نيقية بعد وفاة تيودور لاسكازيس ، حتى انتهى الأمر بنجاح حنا الثالث دوقاس فى غزو سالونيكا سنة ١٢٤٦ (١) • وهكذا ألفت الامبراطورية اللاتينية نفسها أمام قوة بيزنطية موحدة أحاطت بالقسطنطينية من الجانبين الأسيوى والأوربى •

وكان حنا الثالث دوقاس (١٢٢٢ - ١٢٥٤) اداريا ممتازا ومحـــاربا شجاعا ، فحاول الاستيلاء على القسطنطينية لاحياء الامبراطورية البيزنطية ، كما استولى على بعض الجزر المهمة مثل خيوس ولسبوس وساموس ، ولكن تفوق البنادقة فى البحر حال دائما دون تحقيق هذه الغاية (٢) • أما بلدوين الثانى فقد قضى طوال حكمه يستجدى معونة الغرب دون مجيب ، حتى اشتدت حاجته الى المال ، فرهن ابنه عند صيارفة الغرب وباع أثمن ما فى القسطنطينية من مخلفات دينية ، الى القديس لويس التاسع ملك فرنسا (٣) • وكان أن توفى حنا الثالث دوقاس سنة ١٢٥٤ ، فخلفه حفيده الصغير تحت وصاية ميخائيل باليولوجس الذى لم يلبث أن استأثر بالامبراطورية لنفسه (١٢٥٩ - ١٢٨٢) • وقد أظهر ميخائيل الثامن هذا مقدرة حربية كبيرة وشجاعة فائقة ، فاستغل تغيب الأسطول البندقى عن القسطنطينية وهاجم المدينة واستولى عليها سنة ١٢٦١ ، حين لاذ بلدوين الثانى وأتباعه بالفرار • وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية اللاتينية ، وعادت الامبراطورية البيزنطية الى عاصمتها القديمة (٤) •

وأما البندقية فقد هلعت لسقوط الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، واشتد هلعها عندما منح الامبراطور ميخائيل الثامن منافستها جنوا جميع الامتيازات التى تمتع بها البنادقة فى القسطنطينية (٥) • لذلك قامت البندقية

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy ; 353.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 196—197.
(3) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 429.
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 399—400.
(5) Vasiliev op. cit. Tome 2, p. 270

تنادي بحملة صليبية ضد ميخائيل الثامن ، وساندها فى هذه الدعوة البابا أوربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤) ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق بعد أن انتهى عصر الحماسة الصليبية وأصبحت البقايا الصليبية فى الشام نفسها تعانى الامرين من ضغط سلاطين المماليك ، دون أن تصادف من الغرب معـــونة تذكر • ومع ذلك فقد استمر البنادقة يسيطرون على جزر الأرخبيل وغيرها من الجهات الساحلية ونجحوا فى الدفاع عن هذه الجزر ضد البيزنطيين ثم العثمانيين •

الامبراطورية البيزنطية والعثمانيون :

من الواضح أن ما نسميه احياء للامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦١ لا يعدو أن يكون فى حقيقة الأمر استردادا للقسطنطينية على يد أحد حكام نيقية البيزنطيين (١) • ذلك أن الامبراطورية البيزنطية فى عهد ميخائيل الثامن وخلفائه كانت محددة المساحة ، لا تتعدى القسطنطينية نفسها وبعض المناطق القريبة • فمن جهتى الشمال والغرب كانت تحدها مملكتا البلغار والصرب، فى حين كانت شبه جزيرة المورة مقسمة الى دويلات صغيرة بين بعض الأمراء اللاتين والبنادقة الذين سيطروا أيضا على جزر كورفو وكريت ونجروبونت، وغيرها من جزر بحر ايجة (٢) • واذا كان الأباطرة البيزنطيون من أسرة باليولوجس قد نجحوا فى الاحتفاظ بالجزء الأكبر من الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، مع بعض المدن المهمة على شاطىء البحر الأسود ، فان بقية شبه الجزيرة ظل بأيدى سلاطين قونية الأتراك ، باستثناء شريط ضيق من الأرض عند الركن الجنوبى الشرقى للبحر الأسود حيث قامت امبراطـــورية طرابيزون ، فى الوقت الذى كان البيزنطيون أضعف من أن يقوموا بمحاولة جدية لاسترداد هذه الأجزاء المفقودة (٣) • واذا كانت الامبـــراطورية البيزنطية قد استطاعت الحياة نحوا من قرنين بعد بعثها ســـنة ١٢٦١ حتى

---

(1) Lodge : op. cit. p. 494.
(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 425.
(3) Gibbons: The Foundation of The Ottoman Empire p. 13.

سقوطها فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فان الفضل فى ذلك لا يرجع الى قوتها أو الى كفاية حكامها وبطولة شعبها بقدر ما يرجع الى الملابسات التى صرفت أعداءها عنها طوال هذه الفترة ، زيادة على حصانة القسطنطينية نفسها ومتانة موقعها (١) • وليس فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة ما يستحق العناية أو يسترعى اهتمام الباحث سوى ظاهرة واحدة ، هى أن ضعف الامبراطورية فى عصرها الأخير ساعد على نمـــو دولة الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى نموا سريعا •

أما عن هؤلاء الأتراك العثمانيين فهم قبيلة تركمانية من الغزاة كانوا يعيشون عند بداية القرن الثالث عشر فى خراسان ، ولكنهم اضطروا الى تركها والاتجاه غربا حوالى سنة ١٢٢٠ تحت ضغط المغول ، فاخترقوا أذربيجان وأرمينيا ووصلوا آسيا الصغرى فى الوقت الذى كان علاء الدين الأول (١٢١٩ — ١٢٣٥) يحكم سلطنة الروم (قونية) (٢) • ونسمع عن هؤلاء العثمانيين لأول مرة عندما انبرى زعيمهم أرطغرل لمساعدة سلطنة قونية ضد مهاجميها من المغول ، هذا وان كان من غير الثابت فى التاريخ اذا كان العثمانيون قد استقروا فى آسيا الصغرى على أساس التبعية لسلطنة قونيـــة أو مستقلين عنها (٣) • ومهما يكن من أمر فقد ساعد أرطغرل علاء الدين ، ورد السلطان السلجوقى على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى • وعندما انهارت سلطنة قونية بوفاة سلطانها علاء الدين الثالث سنة ١٣٠٧ ، كان عثمان (١٢٩٩ — ١٣٢٦) ابن ارطغرل أحد زعماء القبائل التركية الكثيرة التى استقلت فى آسيا الصغرى • وقد أخذ العثمانيون منذ ذلك الوقت يتوسعون فى سرعة تسترعى الانتباه ، فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم كما دفن فيها عثمان نفسه مؤسس الأسرة التى نسبت اليه ، مما جعل لهذه المدينة مكانة خاصة عند العثمانيين (٤) •

---

(1) Lodge :op. cit. p.p.495-496.
(2) Pirenne : La Fin déu Moyen Age, Tome, 1, p.195
(3) Gibbons : op. cit. p. 17.
(4) Ostrogorsky, op. cit. p. 447

ثم خلف عثمان ابنه أورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩) الذى هاجم نيقية ، وهى المدينة التى كانت بمثابة العاصمة الثانية للامبراطورية البيزنطية . وقد أسرع الامبراطور البيزنطى أندرونيق الثالث باليولوجس (١٣٢٨ - ١٣٤١) الى الدفاع عن نيقية ، ولكن الهزيمة حلت به سنة ١٣٢٩ فاستولى العثمانيون على المدينة فى العام التالى . وهكذا استغل أورخان ضعف الامبراطورية البيزنطية وأخذ يتوسع توسعا سريعا فى آسيا الصغرى بحيث لم يبق للامبراطورية سوى شريط ساحلى ضيق على البسفور . وهنا نلاحظ أن توسع العثمانيين فى آسيا الصغرى لم يكن على حساب الدولة البيزنطية وحدها ، وانما كان أيضا على حساب بقية الامارات التركية الصغرى التى قامت على أنقاض سلطنة قونية (١) . وثمة أهمية أخرى لعهد أورخان هى انشاء جيش جديد (انكشارية) من أبناء المسيحيين فى البلاد المفتوحة ، بعد أن يحولهم الى الاسلام ويربيهم تربية فكرية وجسمانية خاصة . وبفضل قوات الانكشارية تمكن العثمانيون فيما بعد من احراز أعظم انتصاراتهم فى أوربا وآسيا وافريقية (٢) .

وزاد الموقف سوءا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية أن وفاة أندرونيق الثالث سنة ١٣٤١ أعقبتها حرب أهلية داخلية ، لم يتردد خلالها المتنازعون من الاستعانة بالعثمانيين ، مما أعطى الأتراك سلاحا خطيرا من جهة كما مكن ستفن دوشان (١٣٣٣ - ١٣٥٥) ملك الصرب من انتهاز الفرصة والاستيلاء على ألبانيا وأبيدوس وتساليا ، فضلا عن اتخاذ لقب امبراطور من جهة أخرى (٣) . وزاد من عوامل الفوضى فى الامبراطورية البيزنطية احتدام التنافس بين جنوا والبندقية فى أنحاء الامبراطورية وأراضيها حتى انتهى الأمر بهزيمة البندقية سنة ١٣٥٣ (٤) .

وفي سنة ١٣٥٤ كان حنا الخامس باليولوجس قد تخلص من منافسه

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome I, p. 196.
(2) Gibbon : The Decline and Fall. Vol. 7, 26—27.
(3) Miller: The Balkans, pp. 274—278.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 666.

وأصبح لا ينازعه منازع فى حكم الامبراطورية البيزنطية (١٣٤١ – ١٣٩١) على أن هذه السنة لها أهمية أخرى فى التاريخ اذ استولت فيها جيوش السلطان أورخان العثمانى على عاليبولى وحصنتها لتكون أول مركز ثابت للعثمانيين في أوربا ٠ (١) وعندما توفى أورخان سنة ١٣٥٩ ، أخذ خليفته السلطان مراد الأول يبتلع مدينة بعد أخرى فى الجانب الأوربى حتى استولى على أدرنة سنة ١٣٦١ وأصبحت أعظم مركز للعثمانيين حتى استيلائهم على القسطنطينية فى القرن التالى (٢) ٠ على أن وصول العثمانيين الى الحدود الشمالية للامبراطورية البيزنطية فى البلقان ، جرهم الى الاشتباك فى حروب ضد بلغاريا والبوسنة والصرب ، وهنا أيضا صادف العثمانيون توفيقا كبيرا حتى نجحوا فى اخضاع أجزاء واسعة من هذه البلاد وأجبروا أهلها على دفع الجزية (٣) ٠

وفى تلك الأثناء لم يجد الامبراطور حنا الخامس وسيلة لحماية ما تبقى من دولته سوى الاستنجاد بالغرب الأوربى ٠ ومن أجل هذا الغرض سافر حنا الخامس الى روما سنة ١٣٦٩ حيث قابل البابا أوربان الخامس ليعلن اعتناقه للمذهب الكاثوليكى ، كما كتب له اعترافا بقبول وجهة نظر الكنيسة الرومانية فى جميع نواحى الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٤) ٠ ومن البديهى أن مثل هذه الاتفاقات كانت عديمة الجدوى لأن الامبراطور كان لا يستطيع تغيير عقيدة رعاياه من جهة ، كما أن البابوية كانت عند منتصف القرن الرابع عشر أضعف من أن تحيى الحماسة الصليبية بعد موتها من جهة أخرى (٥) ٠ وعندما يئس الامبراطور حنا الخامس من مساعدة الغرب لم يجد أمامه سبيلا سوى الدخول فى تبعية السلطان العثمانى على أن يدفع له جزية سنوية ، كما سمح له باحتلال سالونيكا (٦) ٠

---

(1) Gibbons : op. cit. pp. 101—103.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 308
(3) Miller : The Balkans, pp. 284—286
(4) Vasiliev : op. cit, Tome 2. pp. 369—370.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome I. p. 197
(6) Ostrorsky : op. cit. p. 482

أما الممالك السلافية فى شمال القسطنطينية وغربيها فقد أظهرت عنادا فى مقاومة العثمانيين أكثر مما فعل البيزنطيون أنفسهم ، حتى كونت فيما بينها حلفا دفاعيا سنة ١٣٨٧ تحت زعامة ملك البوسنة (١) . وقد نجح هذا الحلف فى أول الأمر فى وقف تقدم العثمانيين ، ولكن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بقوى الحلف فى كوسوفا Kossova سنة ١٣٨٩ ، وخر ملك الصرب نفسه قتيلا فى المعركة ، فى حين قتل مراد هو الآخر بيد أحد نبلاء الصرب بعد الموقعة . (٢) وسرعان ما اتضح أن مقتل مراد الأول لم يؤثر فى الموقف بأى حال من الأحوال ، لان ابنه بايزيد الأول خلفه فى الحكم فأجبر الصرب على دفع الجزية ، كما أخضع ولاشيا وبلغاريا ، وبذلك امتدت الأملاك العثمانية حتى الدانوب . وعندما حاول الأوربيون عمل حلف جديد من بعض الأمراء الفرنسيين وملك هنغاريا ضد العثمانيين ، أنزل بهم بايزيد الأول هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ (٣).

وفى تلك الأثناء توفى الامبراطور البيزنطى حنا الخامس سنة ١٣٩١ ، فخلفه ابنه مانويل الثانى الذى اضطر هو الآخر الى الاعتراف بالتبعية للعثمانيين (٤) . على أن انضمام مانويل الثانى الى الحلف الأوربى السابق ، جعل السلطان بايزيد لا يثق فيه كثيرا ، فصمم بعد انتصاره على قوى الحلف فى نيقوبوليس على تأديب الامبراطور وغيره من الأمراء الذين ساعدوه . لذلك استغل بايزيد فرصة بعض الخلافات الداخلية فى القسطنطينية سنة ١٣٩٧ وأخضع أبيروس وتساليا ، مما جعل مانويل يصفى مشاكله الداخلية فى ذلك الوقت ويقوم بجولة فى غرب أوربا سنة ١٣٩٩ ، فـزار ايطاليا وفرنسا وانجلترا طالبا المعونة ضد العثمانيين المسلمين (٥) . وقد قام بايزيد أثناء غياب الامبراطور بحصار القسطنطينية ، وكان من الممكن أن ينجح فى فتحها عندئذ لو لم يقطع عليه تيمورلنك مشروعه (٦) . ذلك أن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 672.
(2) Lodge : op. cit. p 503
pp. 435—467
(4) Gibbons : op. cit. pp. 198—199
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 320—322
(6) Gibbon : op. cit. Vol. 7, pp. 43—44

تيمولنك اجتاح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى على رأس جموع غفيرة من المغول ، الأمر الذي اضطر بايزيد الى ترك حصار القسطنطينية والعودة مسرعا الى آسيا الصغرى ، حيث أنزل به تيمورلنك هزيمة ساحقة في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ ، ومات بايزيد في الأسر في العام التالي (١) .

ومن الواضح أن هزيمة أنقرة جاءت ضربة قاسية نزلت بالدولة العثمانية الفتية ، فتمكن الامبراطور مانويل الثاني من العودة الى العاصمة واسترداد سالونيكا وبعض أجزاء تساليا وأبيروس ، كما استطاعت القسطنطينية أن تعيش خمسين سنة أخرى بعد أن أوشكت على السقوط في أيدي العثمانيين . أما أمراء السلاجقة في آسيا الصغرى فقد تحرروا من السيطرة العثمانية وعادوا الى استقلالهم السابق ، هذا في الوقت الذي اشتد الصراع بين أبناء بايزيد الأربعة حول وراثة منصب السلطنة (٢) . على أن الظروف سرعان ما ساعدت الدولة العثمانية على استعادة مكانتها ، اذ اضطر تيمورلنك - بحكم الأحداث الدائرة في جوف الدولة المغولية - الى العودة شرقا نحو جوف آسيا سنة ١٤٠٥ ، كما نجح السلطان محمد الأول العثماني في توحيد أملاك أبيه سنة ١٤١٣ (٣) ، وعندئذ لم يسع الامبراطور البيزنطي وغيره من الأتبـــاع الأوربيين سوى تقديم فروض الولاء مرة أخرى للسلطان العثماني (٤) .

وعندما توفي محمد الأول خلفه ابنه السلطان مراد الثاني سنة ١٤٢١ ، وعندئذ تشجع الامبراطور مانويل الثاني باليولوجس وأخذ يساعد أحد أبناء بايزيد ضد السلطان الجديد . ولكن مراد الثاني نجح في القضاء على هذا المنافس ، ومن ثم بدأ يفرض حصارا جديدا على القسطنطينية سنة ١٤٢٢ لمعاقبة الامبراطور على مسلكه (٥) . وعلى الرغم من المتاعب التي تعرض لها السلطان أثناء ذلك الحصار فانه استطاع أن يواصل ســياسة الضغط على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 682—684.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome 1, pp. 493 — 494.
(3) Gibbons : op. cit. p. 262
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 495.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 494.

القسطنطينية حتى اضطر الامبراطور مانويل الى زيادة الجزية التى يدفعها للعثمانيين ، فضلا عن اعطائهم عدة مدن فى تراقيا • ومع ذلك فانه يمكن القول بأن حصار القسطنطينية سنة ١٤٢٢ يعتبر بداية للحلقة الأخيرة فى سلسلة الصراع الذى انتهى بسقوط الامبراطورية البيزنطية (١) •

ثم كان أن خلف مانويل الثانى ابنه حنا السادس فى حكم الامبراطورية البيزنطية سنة ١٤٢٥ • ولعل أهم حدث فى عهد هذا الامبراطور الجديد هو تلك المحاولة التى بذلت (١٤٣٨ — ١٤٣٩) فى فرارا ثم فى فلورنسا لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية (٢) • وقد وقع الامبراطور فعلا على اتفاقية التوحيد ، ولكن مقاومة البيزنطيين جعلتها تبقى حبرا على ورق مما زاد موقف الامبراطور البيزنطى سوءا لأنه وجد نفسه لا يستطيع الاعتماد على ولاء رعاياه أو مساعدة الغرب (٣) • ومع ذلك فقد شاءت الظروف أن تتمتع الامبراطورية بقسط من السلام فى عهد هذا الإمبراطور ، اذا انصرفت معظم جهود العثمانيين عندئذ ضد الصرب والبلغار ، وذلك اذا استثنينا استيلاء مراد الثانى على سالونيكا سنة ١٤٣٠ •

ذلك أن الصرب وولاشا والبوسنة حاولت أن تتخلص من تبعيتها للدولة العثمانية ، واستعانت فى ذلك بسجسموند ملك هنغاريا ، مما جعل السلطان مراد الثانى يشن حربا طويلة ناجحة ضد قوى هذا الحلف • وقد استطاعت القوات المجرية والسلافية الثبات فى أول الأمر أمام الجيوش العثمانية (٤) ، بل أحرزت هذه العناصر بعض النجاح عندما انتصرت على العثمانيين سنة ١٤٤٢ — ١٤٤٣ ، مما جعل الغرب الأوربى يهلل لهذا النجاح كما بارك البابا ايوجنيوس الرابع تلك الجهود (٥) • ولكن لم يلبث السلطان مراد الثانى أن

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 497
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 621—622
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 370—372
(4) Miller ; The Balkans : pp. 293—294
(5) Lodge: op. cit. pp. 507—508.

أنزل هزيمة كبرى بالجيش الهنغارى الذى عبر الدانوب الى بلغاريا ، وذلك عند فارنا Varna سنة ١٤٤٤ • ومن الواضح أن هذه الحرب التى اعتبرها بعض الأوربيون حربا صليبية وناب عن البابا فيها أحد الكرادلة ، لم تكن سوى حلقة فى سلسلة الصراع بين العثمانيين والهنغاريين فى القرن الخامس عشر (١) • أما السلطان مراد الثانى فقد قضى السنوات الأخيرة من حكمه فى اخماد بعض الثورات فى آسيا الصغرى وألبانيا حتى توفى سنة ١٤٥١ ، وعندئذ اعتلى عرش السلطنة ابنه محمد الثانى أو الفاتح الـذى احتفظ لنفسه فى التاريخ بشرف فتح القسطنطينية •

وقد أحس الامبراطور البيزنطى حينذاك ـ وهو قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ ـ ١٤٥٣) ـ بخطر الاستعدادات التى يبذلها العثمانيون للاستيلاء على مدينته ، فحاول أن يستجدى معونة الغرب ولكن دون جدوى • ذلك أن فرنسا وانجلترا أنهكهما عندئذ الصراع الطويل الذى انتهى بضياع ممتلكات انجلترا فى القارة ، فى حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لا تستطيع الوقوف على قدميها الا فى صعوبة ، مما ترك الامبراطور البيزنطى وحيدا دون معونة تذكر سوى مساعدة يسيرة من البنادقة والجنوية وغيرهما من ذوى المصالح التجارية فى الشرق • ولكن حتى هذه المعونة التافهة لم تحل دون تحقيق المصير المحتوم فسقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ (٢) •

وهكذا زالت الدولة البيزنطية ، وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان فى القسطنطينية ، وهى المدينة التى بدأت أولى صفحات تاريخها بقسطنطين الأول أو العظيم ، واختتمت آخر صفحاتها فى العصور الوسطى بقسطنطين الحادى عشر (٣) • ومن الواضح أن أوربا المسيحية اهتزت كلها لسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين المسلمين ، وهى المدينة التى ظلت

(1) Atiya : op. cit. p. 467
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 695
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 507—508

بمثابة الدرع الواقى أو الحصن الشرقى الذى طالما حمى أوربا من الأخطار الأسيوية فى العصور الوسطى . ولكن الغرب الذى عجز عن مساعدة القسطنطينية فى محنتها قبل سقوطها ، لم يستطيع أن يفعل لها شيئا بعد أن استولى عليها العثمانيون (١) . وسرعان ما تداعت بقية أجزاء العالم البيزنطى فسقطت أثينا فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٦ ، وفر حاكم المورة من وجههم سنة ١٤٦٠ ، كما استولوا على امبراطورية طرابيزون سنة ١٤٦١ بل قام السلطان محمد الثانى بغزو الصرب سنة ١٤٥٩ وولاشيا والبوسنة سنة ١٤٦٣ ، فى الوقت الذى أخذ الأسطول العثمانى يستولى على جزر بحر ايجة واحدة بعد أخرى (٢) . وعلى الرغم من أن البندقية حاولت وقف ذلك الخطر ، اما عن طريق القوة أو عن طريق الاتفاق مع العثمانيين ، الا أن هذه الجهود لم تحل دون استيلاء العثمانيين على نجروبونت (الجبل الأسود) وغزو ألبانيا . ولا شك فى أن سقوط القسطنطينية وما أعقبه من توسع العثمانيين سريعا فى شرق أوربا ووسطها كان من العوامل الأساسية التى أسهمت فى تغيير الصورة التى كانت عليها أوربا فى العصور الوسطى .

* * *

والحمد لله رب العالمين

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 350.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 508

جدول (١)

قوائم البابوات والحكام

أولا – البابوات

ملحوظة : كتبت أسماء البابوات غير الشرعيين أو المضادين للبابوات الشرعيين (Anti - Popes) بالخط الأسود ووضعت بين أقواس

٣١٤ _ ٣٣٥ سلفستر الأول
٣٣٦ مارك
٣٣٧ _ ٣٥٢ جوليوس الأول
٣٥٢ _ ٣٦٦ لبريوس
٣٥٥ _ ٣٥٦ **(فيلكس الثانى)**
٣٦٦ _ ٣٨٤ داماسوس الأول
٣٦٦ _ ٣٦٧ **(أورسكيتوس)**
٣٨٤ _ ٣٩٩ سيركيوس
٣٩٩ _ ٤٠١ أنسطسيوس الأول
٤٠٢ _ ٤١٧ أنوسنت الأول
٤١٧ _ ٤١٨ زوسيموس
٤١٨ _ ٤٢٢ بونيفيس الأول
٤١٨ _ ٤١٩ **(أبولاليوس)**
٤٢٢ _ ٤٣٢ كلستين الأول
٤٣٢ _ ٤٤٠ سكستوس الثالث
٤٤٠ _ ٤٦١ ليو الأول العظيم
٤٦١ _ ٤٦٨ هيلارى
٤٦٨ _ ٤٨٣ سمبلكيوس
٤٨٣ _ ٤٩٢ فيلكس الثالث
٤٩٢ _ ٤٩٦ جلاسيوس الأول
٤٩٦ _ ٤٩٨ أنسطسيوس الثانى
٤٩٨ _ ٥١٤ سماخوس
٤٩٨ _ ٥٠٥ **(لاور نتيوس)**

٥١٤ _ ٥٢٣ هورميسداس
٥٢٣ _ ٥٢٦ حنا الأول
٥٢٦ _ ٥٣٠ فيلكس الرابع
٥٣٠ _ ٥٣٢ بونيفيس الثانى
٥٣٠ _ **(ديوسكورس)**
٥٣٢ _ ٥٣٥ حنا الثانى
٥٣٥ _ ٥٣٦ أجابيتوس الأول
٥٣٦ _ ٥٣٨ سلفريوس
٥٣٨ _ ٥٥٥ فجليوس
٥٥٥ _ ٥٦١ بلاجيوس الأول
٥٦١ _ ٥٧٤ حنا الثالث
٥٧٥ _ ٥٧٩ بندكت الأول
٥٧٩ _ ٥٩٠ بلاجيوس الثانى
٥٩٠ _ ٦٠٤ جريجورى الأول العظيم
٦٠٤ _ ٦٠٦ سبنيان
٦٠٧ بونيفيس الثالث
٦٠٨ _ ٦١٥ بونيفيس الرابع
٦١٥ _ ٦١٨ ديوسدديت الأول
٦١٩ _ ٦٢٥ بونيفيس الخامس
٦٢٥ _ ٦٣٨ هنريوس الأول
٦٤٠ سفرينوس
٦٤٠ _ ٦٤٢ حنا الرابع
٦٤٢ _ ٦٤٩ ثيودور الأول

٦٤٩ ـ ٦٥٥ مارتن الأول
٦٥٥ ـ ٦٥٧ ايوجنيوس الأول
٦٥٧ ـ ٦٧٢ فيتاليان
٦٧٢ ـ ٦٧٦ ديوسدديت الثانى
٦٧٦ ـ ٦٧٨ دونس
٦٧٨ ـ ٦٨١ أجاثون
٦٨٢ ـ ٦٨٣ ليو الثانى
٦٨٤ ـ ٦٨٥ بندكت الثانى
٦٨٥ ـ ٦٨٦ حنا الخامس
٦٨٦ ـ ٦٨٧ كونون
٦٨٦ ـ ٦٨٧ (ثيودور)
٦٨٧ ـ ٧٠١ سرجيوس الأول
٦٨٧ ـ ٦٨٨ (باسكال)
٧٠١ ـ ٧٠٥ حنا السادس
٧٠٥ ـ ٧٠٧ حنا السابع
٧٠٨ سيسنيوس
٧٠٨ ـ ٧١٥ قنسطنطين
٧١٥ ـ ٧٣١ جريجورى الثانى
٧٣١ ـ ٧٤١ جريجورى الثالث
٧٤١ ـ ٧٥٢ زكريا
٧٥٢ ستفن الثاني
٧٥٢ ـ ٧٥٧ ستفن الثالث (الثاني)
٧٥٧ ـ ٧٦٧ بولس الأول
٧٦٧ ـ ٧٦٨ (قنسطنطين الثاني)
٧٦٨ ـ ٧٧٢ ستفن الرابع (الثالث)
٧٧٢ ـ ٧٩٥ أدريان الأول
٧٩٥ ـ ٨١٦ ليو الثالث
٨١٦ ـ ٨٦٧ ستفن الخامس(الرابع)
٨١٧ ـ ٨٢٤ باسكال الأول
٨٢٤ ـ ٨٢٧ أيوجنيوس الثانى
٨٢٧ فالنتين
٨٢٨ ـ ٨٤٤ جريجورى الرابع
٨٤٤ ـ ٨٤٧ سرجيوس الثانى
٨٤٧ ـ ٨٥٥ ليو الرابع
٨٥٥ ـ ٨٥٨ بندكت الثالث
٨٥٥ (انسطسيوس)
٨٥٨ ـ ٨٦٧ نيقولا الأول
٨٦٧ ـ ٨٧٢ أدريان الثانى
٨٧٢ ـ ٨٨٢ حنا الثامن
٨٨٢ ـ ٨٨٤ مارينوس الأول
٨٨٤ ـ ٨٨٥ أدريان الثالث
٨٨٥ ـ ٨٩١ ستفن السادس (الخامس)
٨٩١ ـ ٨٩٦ فورموزس
٨٩٦ يونيفيس السادس
٨٩٦ ـ ٨٩٧ ستفن السابع (السادس)
٨٩٧ رومانوس
٨٩٧ ثيودور الثاني
٨٩٨ ـ ٩٠٠ حنا التاسع
٩٠٠ ـ ٩٠٣ بندكت الرابع
٩٠٣ ليو الخامس
٩٠٣ (كرستوفر)
٩٠٤ ـ ٩١١ سرجيوس الثالث
٩١١ ـ ٩١٣ أنسطسيوس الثالث
٩١٣ ـ ٩١٤ لاندو
٩١٤ ـ ٩٢٨ حنا العاشر
٩٢٨ ليو السادس
٩٢٩ ـ ٩٣١ ستفن الثامن (السابع)
٩٣١ ـ ٩٣٥ حنا الحادي عشر
٩٣٦ ـ ٩٣٩ ليو السابع
٩٣٩ ـ ٩٤٢ ستفن التاسع (الثامن)
٩٤٢ ـ ٩٤٦ مارينوس الثانى
٩٤٦ ـ ٩٥٥ أجابيتوس الثاني
٩٥٥ ـ ٩٦٤ حنا الثاني عشر
٩٦٣ ـ ٩٦٥ ليو الثامن
٩٦٤ ـ ٩٦٦ بندكت الخامس

٩٦٥ — ٩٧٢ حنا الثالث عشر
٩٧٣ — ٩٧٤ بندكت السادس
٩٧٤،٩٨٤ — ٩٨٥ **(بونيفس السابع)**
٩٧٤ — ٩٨٣ بندكت السابع
٩٨٢ — ٩٨٤ حنا الرابع عشر
٩٨٥ — ٩٩٦ حنا الخامس عشر
٩٩٦ — ٩٩٩ جريجوري الخامس
٩٩٧ — ٩٩٨ **(حنا السادس عشر)**
٩٩٩ — ١٠٠٣ سلفستر الثاني
١٠٠٣ حنا السابع عشر
١٠٠٤ — ١٠٠٩ الثامن عشر
١٠٠٩ — ١٠١٢ سرجيوس الرابع
١٠١٢ — ١٠٢٤ بندكت الثامن
١٠١٢ **(جريجوري)**
١٠٢٤ — ١٠٣٢ حنا التاسع عشر
١٠٣٢ — ١٠٤٤ بندكت التاسع
١٠٤٥ سلفستر الثالث
١٠٤٥ بندكت التاسع
١٠٤٥ — ١٠٤٦ جريجوري السادس
١٠٤٦ — ١٠٤٧ كلمنت الثاني
١٠٤٧ — ١٠٤٨ بندكت التاسع
١٠٤٨ داماسوس الثاني
١٠٤٨ — ١٠٥٤ ليو التاسع
١٠٥٤ — ١٠٥٧ فكتور الثاني
١٠٥٧ — ١٠٥٨ استفن العاشر
١٠٥٨ — ١٠٥٩ **(بندكت العاشر)**
١٠٥٧ — ١٠٦١ نيقولا الثاني
١٠٦١ — ١٠٧٣ إسكندر الثاني
١٠٦١ — ١٠٧٣ **(هنريوس الثاني)**
١٠٧٣ — ١٠٨٥ جريجوري السابع
١٠٨٠ — ١١٠٠ **(كلمنت الثالث)**
١٠٨٧ فكتور الثالث
١٠٨٨ — ١٠٩٩ أوربان الثاني

١٠٩٩ — ١١١٨ باسكال الثاني
١١٠٠ **(تيودوريك)**
١١٠٢ **(ألبرت)**
١١٠٥ — ١١١١ **(سلفستر الرابع)**
١١١٨ — ١١١٩ جلاسيوس الثاني
١١١٨ — ١١٢١ **(جريجوري الثامن)**
١١١٩ — ١١٢٤ كالكستس
١١٢٤ — ١١٣٠ هنريوس الثاني
١١٢٤ **(كلستين الثاني)**
١١٣٠ — ١١٤٣ أنوسنت الثاني
١١٣٠ — ١١٣٨ **(أناكليتوس الثاني)**
١١٣٨ **(فكتور الرابع)**
١١٤٣ — ١١٤٤ كلستين الثاني
١١٤٤ — ١١٤٥ لوكيوس الثاني
١١٤٥ — ١١٥٣ أيوجنيوس الثالث
١١٥٣ — ١١٥٤ أنسطسيوس الرابع
١١٥٤ — ١١٥٩ أدريان الرابع
١١٥٩ — ١١٨١ اسكندر الثالث
١١٥٩ — ١١٦٤ **(فكتور الرابع)**
١١٦٤ — ١١٦٨ **(باسكال الثالث)**
١١٦٨ — ١١٧٨ **(كالكستس الثالث)**
١١٧٩ — ١١٨٠ **(أنوسنت الثالث)**
١١٨١ — ١١٨٥ لوكيوس الثالث
١١٨٥ — ١١٨٧ أوربان الثالث
١١٨٧ جريجوري الثامن
١١٨٧ — ١١٩١ كلمنت الثالث
١١٩١ — ١١٩٨ كلستين الثالث
١١٩٨ — ١٢١٦ أنوسنت الثالث
١٢١٦ — ١٢٢٧ هنريوس الثالث
١٢٢٧ — ١٢٤١ جريجوري التاسع
١٢٤١ كلستين الرابع
١٢٤٣ — ١٢٥٤ أنوسنت الرابع
١٢٥٤ — ١٢٦١ اسكندر الرابع

١٢٦١ ـ ١٢٦٤ أوربان الرابع
١٢٦٥ ـ ١٢٦٨ كلمنت الرابع
١٢٧١ ـ ١٢٧٦ جريجورى العاشر
١٢٧٦ أنوسنت الخامس
١٢٧٦ أدريان الخامس
١٢٧٦ ـ ١٢٧٧ حنا الواحدوالعشرون
١٢٧٧ ـ ١٢٨٠ نيقولا الثالث
١٢٨١ ـ ١٢٨٥ مارتن الرابع
١٢٨٥ ـ ١٢٨٧ هنريوس الرابع
١٢٨٨ ـ ١٢٩٢ نقولا الرابع
١٢٩٤ كلستين الخامس
١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ يونيفيس الثامن
١٣٠٣ ـ ١٣٠٤ بندكت الحادى عشر
١٣٠٥ ـ ١٣١٤ كلمنت الخامس
١٣١٦ ـ ١٣٣٤ حنا الثانى والعشرون
١٣٢٨ ـ ١٣٣٠ (نيقولا الخامس)
١٣٣٤ ـ ١٣٤٢ بندكت الثانى عشر
١٣٤٢ ـ ١٣٥٢ كلمنت السادس
١٣٥٢ ـ ١٣٦٢ أنوسنت السادس
١٣٦٢ ـ ١٣٧٠ أوربان الخامس
١٣٧٠ ـ ١٣٧٨ جريجورى الحادى عشر

الانشقاق الدينى الأكبر

(ا) بابوات روما

١٣٧٨ ـ ١٣٨٩ أوربان السادس
١٣٨٩ ـ ١٤٠٤ يونيفيس التاسع
١٤٠٤ ـ ١٤٠٦ أنوسنت السابع
١٤٠٦ ـ ١٤١٥ جريجورى الثانى عشر

(ب) بابوات أفينون

١٣٧٨ ـ ١٣٩٤ كلمنت السابع
١٣٩٤ ـ ١٤٢٢ بندكت الثالث عشر

(جـ) بابوات مجمع بيزا

١٤٠٩ ـ ١٤١٠ اسكندر الخامس
١٤١٠ ـ ١٤١٥ حنا الثالث والعشرون

* * *

١٤١٧ ـ ١٤٣١ مارتن الخامس
١٤٣١ ـ ١٤٤٧ أيوجنيوس الرابع
١٤٤٧ ـ ١٤٥٥ نيقولا الخامس
١٤٥٥ ـ ١٤٥٨ كالكستس الثالث
١٤٥٨ ـ ١٤٦٤ بيوس الثانى
١٤٦٤ ـ ١٤٧١ بولس الثانى
١٤٧١ ـ ١٤٨٤ سكستوس الرابع
١٤٨٤ ـ ١٤٩٢ أنوسنت الثامن
١٤٩٢ ـ ١٥٠٣ اسكندر السادس

ثانيا ـ الأباطرة والحكام

١ ـ اباطرة الدولة البيزنطية

٣٩٥	أركاديوس
٤٠٨	ثيودوسيوس الثانى
٤٥٠	ماركيان
٤٥٧	ليو الأول
٤٧٤	زينون
٤٩١	أنسطسيوس الأول
٥١٨	جستين الأول
٥٢٧	جستنيان الأول
٥٦٥	جستين الثانى
٥٧٤	طبريوس الثانى
٥٨٢	موريس
٦٠٢	فوقاس
٦١٠	هرقل
٦٤١	قنسطنطين الثانى
٦٤٢	قنسطانز الثانى
٦٦٨	قنسطنطين الثالث
٦٨٥	جستنيان الثانى
٦٩٥	ليونتيوس
٦٩٨	طبريوس الثالث
٧٠٥	جستنيان الثانى (مرة أخرى)
٧١١	فيلب
٧١٣	أنسطيوس الثانى
٧١٦	ثيودوسيوس الثالث
٧١٧	ليو الثالث الأيسورى
٧٤١	قنسطنطين الخامس
٧٧٥	ليو الرابع
٧٨٠	قنسطنطين السادس
٧٩٧	ايرين
٨٠٢	نقفور الأول
٨١١	ستوراكيوس
٨١١	ميخائيل الأول
٨١٣	ليو الخامس الارمنى
٨٢٠	ميخائيل الثانى
٨٢٩	ثيوفيلوس
٨٤٢	ميخائيل الثالث
٨٦٧	باسل الأول المقدونى
٨٨٦	ليو السادس
٩١٢	اسكندر
٩١٣	(حتى ٩٥٩) قنسطنطين السابع
٩١٩	(حتى٩٤٤) رومانوس الأول
٩٥٩	رومانوس الثانى
٩٦٣	نقفور الثانى فوقاس
٩٦٩	حنا الأول شمشقيق
٩٧٦	باسل الثانى
١٠٢٥	قنسطنطين الثامن
١٠٢٨	(حتى ١٠٥٠) زوى
١٠٢٨	رومانوس الثالث
١٠٣٤	ميخائيل الرابع
١٠٤١	ميخائيل الخامس
١٠٤٢	قنسطنطين التاسع
١٠٥٤	ثيودورا

١٠٥٦ ميخائيل السادس
١٠٥٧ اسحق الأول كومنين
١٠٥٩ قنسطنطين العاشر
١٠٦٧ رومانوس الرابع
١٠٧١ ميخائيل السابع
١٠٧٩ نقفور الثالث
١٠٨١ ألكسيوس الأول كومنين
١١١٨ حنا الثانى
١١٤٣ مانويل الأول
١١٨٠ الكسيوس الثانى
١١٨٣ أندرونيق الأول
١١٨٥ اسحق الثانى انجيلوس
١١٩٥ ألكسيوس الثالث
١٢٠٣ اسحق الثانى (مرة أخرى) ، ألكسيوس الرابع
١٢٠٤ ألكسيوس الخامس (الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية فى أيدى الغربيين)

* * *

أباطرة نيقية

١٢٠٤ تيودور الأول لأسكاريس
١٢٢٢ حنا الثالث
١٢٥٤ تيودور الثانى
١٢٥٨ حنا الرابع

* * *

عودة الأباطرة البيزنطيين الى القسطنطينية

١٢٥٩ ميخائيل الثامن
١٢٨٢ أندرونيق الثانى
١٣٢٨ أندرونيق الثالث
١٣٤١ (حتى ١٣٧٦) حنا الخامس
١٣٤١ (حتى ١٣٥٥) حنا السادس
١٣٧٦ أندرونيق الرابع
١٣٧٩ (حتى ١٣٩١) حنا الخامس مرة أخرى
١٣٩٠ حنا السابع
١٣٩١ مانويل الثانى
١٤٢٥ حنا الثامن
١٤٤٨ قنسطنطين الحادى عشر
١٤٥٣ الفتح العثمانى - سقوط الامبراطورية

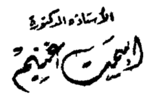
اباطرة القسطنطينية الغربيون (اللاتين)

١٢٠٤ بلدوين الأول
١٢٠٦ هنرى الأول
١٢١٧ بطرس
١٢١٧ بولاند
١٢٢١ روبرت
١٢٢٨ بلدوين الثانى
١٢٢٩ حنا برين

٢ ـ أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وملوكها

٨٠٠ (حتى ٨١٤) شارلمان
٨١٣ (حتى ٨٤٠) لويس التقى
٨١٧ (حتى ٨٥٥) لوثر الأول
٨٥٠ لويس الثانى
٨٧٥ (حتى ٨٧٧) شارل الأصلع
٨٨١ (حتى ٨٨٧) شارل الثالث السمين
٨٩١ ـ ٨٩٤ جويدو
٨٩٢ ـ ٨٩٨ لامبرت
٨٩٦ ـ ٩٩٩ أرنولف
٩٠١ ـ ٩٢٨ لويس الثالث
٩١٥ ـ ٩٢٤ برنجار الأول
٩٦٢ ـ ٩٧٣ أوتو العظيم (الأول)
٩٧٣ ـ ٩٨٣ أوتو الثانى
٩٨٣ ـ ١٠٠٢ أوتو الثالث
١٢٠٠ ـ ١٠٢٤ هنرى الثانى
١٠٢٤ ـ ١٠٣٩ كونراد الثانى
١٠٣٩ ـ ١٠٥٦ هنرى الثالث
١٠٥٦ ـ ١١٠٥ هنرى الرابع
١١٠٥ ـ ١١٢٥ هنرى الخامس
١١٢٥ ـ ١١٣٨ لوثر الثانى
١١٣٨ ـ ١١٥٢ كونراد الثالث
١١٥٢ ـ ١١٩٠ فردريك الثانى بربروسا

١١٩٠ ـ ١١٩٧ هنرى السادس
١١٩٧ ـ ١٢٠٨ فيلب الثانى
١١٩٧ ـ ١٢١٨ أوتو الرابع
١٢١٢ ـ ١٢٥٠ فردريك الثانى
١٢٣٧ ـ ١٢٥٤ كونراد الرابع
١٢٤٧ ـ ١٢٥٦ وليم الهولندى
٠ ٠ ٠ (فترة الشغور)
١٢٧٣ ـ ١٢٩١ رودلف الأول هابسبورج
١٢٩١ ـ ١٢٩٨ أدولف ناسو
١٢٩٨ ـ ١٣٠٨ ألبرت الأول
١٣٠٨ ـ ١٣١٤ هنرى السابع لكسمبرج
١٣١٤ ـ ١٣٤٧ لويس الرابع البافارى
١٣٤٧ ـ ١٣٧٨ شارل الرابع
١٣٧٨ ـ ١٤٠٠ ونسسلاس
١٤٠٠ ـ ١٤١٠ روبرت
١٤١١ ـ ١٤٣٧ سجسموند الهنغارى
١٤٣٨ ـ ١٤٣٩ ألبرت الثانى
١٤٣٩ ـ ١٤٩٣ فردريك الثالث
١٤٨٦ ـ ١٥١٩ مكسمنيان الأول



٣- ملوك فرنسا

٨٤٠ - ٨٧٧ شارل الأصلع
٨٧٧ - ٨٧٩ لويس المتأتىء
٨٧٩ - ٨٨٢ لويس الثالث
٨٧٩ - ٨٨٤ كارلومان
٨٨٤ - ٨٨٧ شارل السمين
٨٨٨ - ٨٨٩ أودو
٨٩٣ - ٩٢٣ شارل الثالث البسيط
٩٢٢ - ٩٢٣ روبرت الأول
٩٢٣ - ٩٣٦ راؤول البرجندى
٩٣٦ - ٩٥٤ لويس الرابع
٩٥٤ - ٩٨٦ لوثر
٩٨٦ - ٩٨٧ لويس الخامس
٩٨٧ - ٩٩٦ هيو الأول كابيه
٩٩٦ - ١٠٣١ روبرت الثانى
١٠٣١ - ١٠٦٠ هنرى الأول
١٠٦٠ - ١١٠٨ فيلب الأول
١١٠٨ - ١١٣٧ لويس السادس (السمين)
١١٣٧ - ١١٨٠ لويس السابع
١١٨٠ - ١٢٢٣ فيلب أوغسطس
١٢٢٣ - ١٢٢٦ لويس الثامن
١٢٢٦ - ١٢٧٠ لويس التاسع (القديس)
١٢٧٠ - ١٢٨٥ فيلب الثالث
١٢٨٥ - ١٣١٤ فيلب الرابع
١٣١٤ - ١٣١٦ لويس العاشر
١٣١٦ حنا الأول
١٣١٦ - ١٣٢٢ فيلب الخامس (الطويل)
١٣٢٢ - ١٣٢٨ شارل الرابع
١٣٢٨ - ١٣٥٠ فيلب السادس فالوا
١٣٥١ - ١٣٦٤ حنا الثانى (الطيب)
١٣٦٤ - ١٣٨٠ شارل الخامس
١٣٨٠ - ١٤٢٢ شارل السادس
١٤٢٢ - ١٤٦١ شارل السابع
١٤٦١ - ١٤٨٣ لويس الحادى عشر
١٤٨٣ - ١٤٩٨ شارل الثامن

٤ - ملوك ألمانيا

٨٤٠ - ٨٧٦ لويس الثانى (الألمانى)
٨٧٦ - ٨٨٠ كارلومان
٨٧٦ - ٨٨٢ لويس الصغير
٨٧٦ - ٨٨٧ شارل السمين
٨٨٧ - ٨٩٩ ارنولف
٨٨٩ - ٩١١ لويس الثالث (الطفل)
٩١١ - ٩١٨ كونراد الأول
٩١٩ - ٩٣٦ هنرى الأول الصياد
٩٣٦ - ٩٧٣ أوتو الأول العظيم

(أنظر قائمة أباطرة الدولة الرومانية المقدسة) .

٥ ـ ملوك انجلترا بعد الفتح النورمانى

١٠٦٦ ـ ١٠٨٧ وليم الأول (الفاتح)
١٠٨٧ ـ ١١٠٠ وليم الثانى
١١٠٠ ـ ١١٣٥ هنرى الأول
١١٣٥ ـ ١١٥٤ ستفن
١١٥٤ ـ ١١٨٩ هنرى الثانى
١١٨٩ ـ ١١٩٩ ريتشارد الأول
١١٩٩ ـ ١٢١٦ حنا
١٢١٦ ـ ١٢٧٢ هنرى الثالث
١٢٧٢ ـ ١٣٠٧ ادوارد الأول
١٣٠٧ ـ ١٣٢٧ ادوارد الثانى
١٣٢٧ ـ ١٣٧٧ ادوارد الثالث
١٣٧٧ ـ ١٣٩٩ ريتشارد الثانى
١٣٩٩ ـ ١٤١٣ هنرى الرابع
١٤١٣ ـ ١٤٢٢ هنرى الخامس
١٤٢٢ ـ ١٤٦١ هنرى السادس
١٤٦١ ـ ١٤٨٣ ادوارد الرابع
١٤٨٣ ـ ١٤٨٥ ريتشارد الثالث
١٤٨٥ ـ ١٥٠٩ هنرى السابع (تيودور)

٦ ـ اللمبارديون فى ايطاليا

٥٦٨ ـ ٥٧٢ ألبوين
٥٧٢ ـ ٥٧٣ كليفو
٥٨٤ ـ ٥٩٠ أوثارى
٥٩٠ ـ ٦١٦ أجيلولف
٦١٦ ـ ٦٢٦ أدالولد
٦٢٦ ـ ٦٣٦ أريولد
٦٣٦ ـ ٦٥٢ روثارى
٦٥٢ ـ ٦٥٣ رودولد
٦٥٣ ـ ٦٦٢ أربرت الأول
٦٦٢ جودبرت
٦٦٢ ـ ٦٧١ جريمولد
٦٧١ ـ ٦٨٨ برثاى (بركتاريت)
٦٨٨ ـ ٧٠٠ جونبرت
٧٠٠ ـ ٧٠١ ليوتبرت
٧٠١ ـ ٧١١ أربرت الثانى
٧١٢ انسبراند
٧١٢ ـ ٧٤٣ ليتوبراند
٧٤٣ ـ ٧٤٤ هلد براند
٧٤٤ ـ ٧٤٩ راتشيس
٧٤٩ ـ ٧٥٦ استولف
٧٥٦ ـ ٧٧٤ دسدريوس

٧ ـ ملوك القوط الشرقيين فى ايطاليا

٤٩٣ ـ ٥٢٦ ثيودريك العظيم
٥٢٦ ـ ٥٣٤ أثالريك
٥٣٤ ـ ٥٣٦ ثيودهات
٥٣٦ ـ ٥٤٠ وتيجيز
٥٤٠ ـ ٥٤١ هلدباد
٥٤١ اراريك
٥٤١ ـ ٥٥٢ توتيلا
٥٥٢ ـ ٥٥٣ تيا

٨ ـ ملوك القوط الغربيين فى اسبانيا

٤٦٦ ـ ٤٨٣ ايورك
٤٨٣ ـ ٥٠٦ ألرك الثانى
٥٠٦ ـ ٥٢٢ أمالرك وثيودريك
٥٢٢ ـ ٥٣١ أمالرك (بمفرده)
٥٣١ ـ ٥٤٨ ثيوديس
٥٤٨ ـ ٥٤٩ ثيوديجزل
٥٤٩ ـ ٥٥٤ أجيلا
٥٥٤ ـ ٥٦٧ أثاناجلد
٥٦٧ ـ ٥٧٢ ليوفا الأول
٥٧٠ ـ ٨٨٦ ليو فيجلد
٥٨٦ ـ ٦٠١ ركارد الأول
٦٠١ ـ ٦٠٣ ليوفا الثانى
٦٠٣ ـ ٦١٠ وتريخ
٦١٠ ـ ٦١٢ جوندمار
٦١٢ ـ ٦٢٠ سيسيبوت
٦٢٠ ـ ٦٢١ ركارد الثانى
٦٢٠ ـ ٦٣١ سونتيلا
٦٣١ ـ ٦٣٦ سيسيناند
٦٣٦ ـ ٦٤٠ خنزيلا
٦٤٠ ـ ٦٤١ تولجا
٦٤١ ـ ٦٥٢ خندازونث
٦٥٢ ـ ٦٧٢ ركونث
٦٧٢ ـ ٦٨٠ واميا
٦٨٠ ـ ٦٨٧ ارويج
٦٨٧ ـ ٧٠١ اجيكا
٧٠١ ـ ٧١٠ ونزا
٧١٠ ـ ٧١١ رودريك

٩ ـ الوندال فى افريقية

٤٣٩ ـ ٤٧٧ جزريك
٤٧٧ ـ ٤٨٤ هونريك
٤٨٤ ـ ٤٩٦ جونثاموند
٤٩٦ ـ ٥٢٣ ثراسماموند
٥٢٣ ـ ٥٣١ هلدريك
٥٣١ ـ ٥٣٤ جليمر

١٠ ـ الأمويون فى الأندلس

٧٥٥ عبد الرحمن الأول (الداخل)
٧٨٨ هشام الأول (الراضى)
٧٩٦ الحكم الأول (المنتصر)
٨٢٢ عبد الرحمن الثانى (الأوسط)
٨٥٢ محمد الأول
٨٦٦ المنذر بن محمد
٨٨٨ عبد الله بن محمد
٩١٢ عبد الرحمن الثالث (الناصر)
٩٦١ الحكم الثانى (المستنصر)
٩٧٦ هشام الثانى (المؤيد)
١٠٠٨ محمد الثانى (المهدى)
١٠٠٩ سليمان (المستعين)
١٠٠٩ محمد الثانى (للمرة الثانية)
١٠٠٩ هشام الثانى (للمرة الثانية)

١٠١٢-١٠١٦ سليمان (للمرة الثانية)
١٠١٦ على الناصر بن حمود
١٠١٧ عبد الرحمن الرابع (المرتضى)
١٠١٧ القاسم المأمون بن حمود
١٠٢١ يحيى المعتلى بن على بن حمود
١٠٢٢ القاسم (للمرة الثانية)
١٠٢٣ عبد الرحمن الخامس (المستظهر)
١٠٢٣ محمد الثالث (المستكفى)
١٠٢٥ يحيى بن على (للمرة الثانية)
١٠٢٧-١٠٣١ هشام الثالث (المعتد)

١١ - ملوك أرغونة

١١٠٤ - ١١٣٤ ألفونس الأول (المحارب)
١١٣٤ - ١١٣٧ راميرو
١١٣٧ - ١١٧٣ بترونيلا
١١٣٧ - ١١٦٢ ريموند برنجار
١١٦٢ - ١١٩٦ ألفونس الثانى
١١٩٦ - ١٢١٣ بطرس الثانى
١٢١٣ - ١٢٧٦ (جيمس الأول الفاتح)
١٢٧٦ - ١٢٨٥ (بطرس الثالث العظيم)
١٢٨٥ - ١٢٩١ ألفونس الثالث
١٢٩١ - ١٣٢٧ جيمس الثانى
١٣٢٧ - ١٣٣٦ ألفونس الرابع
١٣٣٦ - ١٣٨٧ بطرس الرابع
١٣٨٧ - ١٣٩٥ حنا الأول
١٣٩٥ - ١٤١٠ مارتن
١٤١٢ - ١٤١٦ فردناند الأول
١٤١٦ - ١٤٥٨ ألفونس الخامس
١٤٥٨ - ١٤٧٩ حنا الثانى
١٤٧٩ - ١٥١٦ فردناند الثانى (الكاثوليكى)

١٢- ملوك قشتاله

١٠٣٣ - ١٠٦٥ فردناند الأول (العظيم)
١٠٦٥ - ١٠٧٢ سانشو (شانجة) الثانى
١٠٦٥ - ١١٠٩ ألفونس السادس
١١٠٩ - ١١٢٦ أوراكا
١١٠٩ - ١١٢٦ ألفونس السابع (الأرغونى)
١١٢٦ - ١١٥٧ ألفونس الثامن
١١٥٧ - ١١٥٨ سانشو (شانجة) الثالث
١١٥٨ - ١٢١٤ ألفونس التاسع
١٢١٤ - ١٢١٧ هنرى الأول
١٢١٧ - ١٢٥٢ فردناند الثالث (القديس)
١٢٥٢ - ١٢٨٤ ألفونس العاشر الحكيم
١٢٨٤ - ١٢٩٥ سانشو (شانجة) (الرابع)
١٢٩٥ - ١٣١٢ فردناند الرابع
١٣١٢ - ١٣٥٠ ألفونس الحادى عشر
١٣٥٠ - ١٣٦٩ بطرس (القاسى)
١٣٦٩ - ١٣٧٩ هنرى الثانى
١٣٧٩ - ١٣٩٠ حنا الأول
١٣٩٠ - ١٤٠٦ هنرى الثالث
١٤٠٦ - ١٤٥٤ حنا الثانى
١٤٥٤ - ١٤٧٤ هنرى الرابع
١٤٧٤ - ١٥٠٤ ايزابلا (الكاثوليكية)
١٤٧٤ - ١٥٠٤ فردناند الخامس الكاثوليكى

١٣ - مملكة بيت المقدس الصليبية

١٠٩٩ - ١١٠٠ جودفرى
١١٠٠ - ١١١٨ بلدوين الأول
١١١٨ - ١١٣٠ بتروين الثانى
١١٣٠ - ١١٤٣ فولك الأنجوى
١١٤٣ - ١١٦٣ بلدوين الثالث
١١٦٣ - ١١٧٤ عمورى الأول
١١٧٣ - ١١٨٥ بلدوين الرابع
١١٨٥ - ١١٨٦ بلدوين الخامس
١١٨٦ - ١١٩٤ جاى لوزجنان

١١٩١ ١١٩٢ (كونراد مونترات)
١١٩٢ - ١١٩٧ (هنرى شامبنى)
١١٩٧ - ١٢٠٥ عمورى الثانى لوزجنان
١٢٠٥ - ١٢٠٦ عمورى الثالث
١٢١٠ - ١٢٢٥ حنا برين
١٢٢٥ - ١٢٢٨ يولاند برين
١٢٢٨ - ١٢٥٠ فردريك الثانى
١٢٦٨ - ١٢٨٤ هيولوزجنان
(ملك قبرس)

١٤ - حكام جنوب ايطاليا وصقلية

(أ) دوقات أبوليا

١٠٥٩ روبرت جويسكارد
١٠٨٥ - ١١١١ روجر الأول
١١١١ - ١١٢٧ وليم
١١٢٧ - ١١٢٩ روجر الثانى (العظيم)

(ب) كونتات صقلية

١٠٦١ - ١١٠١ روجر الأول
١١٠١ - ١١١٣ سيمون
١١١٣ - ١١٢٩ روجر الثانى (العظيم)

(جـ) ملوك صقلية

١١٢٩ - ١١٥٤ روجر الثانى (العظيم)
١١٥٦ - ١١٦٦ وليم الأول
١١٦٦ - ١١٨٤ وليم الثانى
١١٨٤ - ١١٩٤ تنكرد
١١٩٤ وليم الثالث

١١٩٤ - ١١٩٧ هنرى السادس
(الامبراطور)
١١٩٧ - ١٢٥٠ فردريك الثانى
(الامبراطور)
١٢٥٠ - ١٢٥٤ كونراد الأول
١٢٥٤ - ١٢٥٨ كونراد الثانى
١٢٥٨ - ١٢٦٦ مانفرد
١٢٦٦ - ١٢٨٥ شارل الأول
(الأنجوى)

(د) ملوك نابلى

١٢٦٦ - ١٢٨٥ شارل الأول
١٢٨٥ - ١٣٠٧ شارل الثانى
(الأعرج)
١٣٠٧ - ١٣٤٣ روبرت
١٣٤٣ - ١٣٨٢ جوانا الاولى
١٣٨٢ - ١٣٨٦ شارل الثالث
١٣٨٦ - ١٤١٤ لادسلاوس
١٤١٤ - ١٤٣٥ جوانا الثانية

(هـ) ملوك صقلية من بيت ارغونة

١٤٠٩ ـ ١٤١٢ مارتن الثانى
١٤١٣ ـ ١٤١٦ فردناند الأول
١٤١٦ ـ ١٤٥٨ ألفونس (الخامس)
١٤٥٨ ـ ١٤٧٩ حنا (الثانى)
١٤٧٩ ـ ١٥١٦ فردناند الثانى (الكاثوليكى)

١٥ ـ السلاطين العثمانيون

١٢٩٩ ـ ١٣٢٦ عثمان
١٣٢٦ ـ ١٣٦٠ أورخان
١٣٦٠ ـ ١٣٨٩ مراد الأول
١٣٨٩ ـ ١٤٠٣ بايزيد الأول
١٤١٣ ـ ١٤٢١ محمد الأول
١٤٢١ ـ ١٤٥١ مراد الثانى
١٤٥١ ـ ١٤٨١ محمدالثانى(الفاتح)
١٤٨١ ـ ١٥١٢ بايزيد الثانى
١٥١٢ ـ ١٥٢٠ سليم الأول

١٦ ـ ملوك بوهيميا

١٢٥٣ ـ ١٢٧٨ أوتوكار الثانى
١٣٧٨ ـ ١٤١٩ ونسسلاوس الرابع
١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ ونسسلاوس الثالث
١٣٠٦ ـ ١٣٠٧ رودلف الأول هابسبورج
١٣٠٧ ـ ١٣١٠ هنرى الكارنثياوى
١٣١٠ ـ ١٣٤٦ حنا لكسمبرج
١٣٤٦ ـ ١٣٧٨ شارل (الامبراطور)
١٢٧٨ ـ ١٣٠٥ ونسسلاوس الثانى
١٤١٩ ـ ١٤٣٧ سجسموند
١٤٣٧ ـ ١٤٣٩ ألبرت النمساوى
١٤٣٩ ـ ١٤٥٧ لادسلاوس
١٤٥٧ ـ ١٤٧١ جورج
١٤٧١ ـ ١٥١٦ لادسلاس
١٥١٦ ـ ١٥٢٦ لويس

١٧ ـ ملوك هنغاريا

٩٩٧ ـ ١٠٣٨ القديس ستفن (الأول)
. . . .
١٠٧٧ ـ ١٠٩٥ القديس لادسلاوس (الأول)
. . . .
١٢٠٥ ـ ١٢٣٥ أندرو الثانى
. . . .
١٣١٠ ـ ١٣٤٢ شارل الأول روبرت
١٣٤٢ ـ ١٣٨٢ لويس الأول العظيم
١٣٨٢ ـ ١٣٨٥ مارى
١٣٨٥ ـ ١٣٨٦ شارل الثانى
١٣٨٧ ـ ١٤٣٧ سجسموند
١٤٣٧ ـ ١٤٣٩ ألبرت النمساوى
١٤٤٠ ـ ١٤٤٤ لادسلاوس الأول البولندى
١٤٤٥ ـ ١٤٥٧ لادسلاوس الخامس
١٤٥٨ ـ ١٤٩٠ ماتياس كوفينيوس
١٤٩٠ ـ ١٥١٦ لادسلاوس الثانى
١٥١٦ ـ ١٥٢٦ لويس الثانى

١٨ - ملوك بولندا

٩٩٢ - ١٠٢٥ بولسلاس الأول

. . . .

١٢٩٥ - ١٣٠٥ ونسلاوس الأول (البوهيمى)

١٣٠٥ - ١٣٠٦ ونسلاوس الثانى

. . . .

١٣٢٠ - ١٣٣٣ لادسلاوس الأول

١٣٣٣ - ١٣٧٠ كازمير الثالث (العظيم)

١٣٧٠ - ١٣٨٢ لويس العظيم (الهنغارى)

١٣٨٢ - ١٣٨٦ هدويج

١٣٨٦ - ١٤٣٤ لادسلاوس الثانى

١٤٣٤ - ١٤٤٤ لادسلاوس الثالث

١٤٤٥ - ١٤٩٢ كازمير الرابع

جدول (٢)

تسنين أهم الحوادث التاريخية

٣١ق.م - ١٤ م		أوغسطس - تنظيم الامبراطورية الرومانية .
١٤	- ٣٧	الامبراطور طيبريوس - القيام بثلاث حملات ضد الجرجان.
٩٨	- ١١٧	الامبراطور تراجان - غزو داشيا وأعالى بلاد النهرين .
١١٧	- ١٣٨	الامبراطور هادريان - ثورة اليهود فى فلسطين .
١٦٦	- ١٨٠	محاربة الماركونى والقواضى من قبائل الجرمان عند الدانوب .
١٨٠	- ١٩٢	الامبراطور كومودس - أول امبراطور رومانى يدفع الجزية للجرمان .
٢١١	- ٢١٧	الامبراطور كاراكلا - منح الجنسية الرومانية لجميع أهالى الولايات الأحرار .
٢١٤		القيام بحرب فاشلة ضد القوط - دفع الجزية لهم - ظهور اسم الألمانى .
٢٢٢	- ٢٣٥	الامبراطور اسكندر سفروس - ازدياد ضغط الجرمان على حدود الامبراطورية .
٢٢٦		تأسيس دولة بنى ساسان فى فارس .
٢٣١		الحرب بين الامبراطورية الرومانية والدولة الفارسية .
٢٥٠		أول اضطهاد رسمى للمسيحيين .
٢٥١		هزيمة القوط فى تراقيا - مقتل الامبراطور دكيوس (٢٤٩ - ٢٥١)
٢٥٩		الفرس يجتاحون الشام - ازدياد خطر القوط والألمانى .
٢٦٣		الفرنجة يغزون غاليا .
٢٧٠	- ٢٧٥	أورليان يتخلى عن داشيا للقوط .
٢٧٥		تاكيتوس ينزل الهزيمة باللان فى آسيا الصغرى .

٢٧٥	ازدياد أعداد الجنود المرتزقة من الجـــرمان فى الجيش الرومانى •
٢٨٤ ـ ٣٠٥	دقلديانوس ـ اعادة تنظيم الحكومة على أسس شرقية ـ القيام بحرب ناجحة ضد الفرس ـ دفع خطر الجرمان عن غاليا •
٣٠٣	آخر وأعظم موجة اضطهاد يتعرض لها المسيحيون •
٣٠٥	الحرب الأهلية فى الامبراطورية ـ ظهور قسطنطين •
٣١٢	انتصار قسطنطين فى موقعة جسر ملويان •
٣١٣	مرسوم ميلان ، الاعتراف بالمسيحية •
٣٢٥	مجمع نيقية المسكونى الأول •
٣٣٠	نقل عاصمة الامبراطورية الى القسطنطينية •
٣٣٧ ـ ٣٦١	تقسيم الامبراطورية بين أبناء قسطنطين الثلاثة •
٣٦١ ـ ٣٦٣	جوليان يتنصر للوثنية ـ مقتله أثناء محاربة الفرس •
٣٧٥	غزو الهون لأوربا ـ القوط الغربيون ينفذون الى مواشيا وتراقيا •
٣٧٨	موقعة أدريانوبل (أدرنة) ـ رجوح كفة الجرمان فى الامبراطورية الرومانية •
٣٧٩ ـ ٣٩٥	الامبراطور ثيودسيوس العظيم ـ مسالمة القوط ـ اصلاح الادارة •
٣٩٢	اضطهاد الوثنية ـ المسيحية تصبح الديانة الرســـمية فى الامبراطورية •
٣٩٥	تقسيم الامبراطورية الرومانية الى شرقية (أركاديوس) وغربية (هونريوس) ـ ظهور ألرك أول ملوك القوط الغربيين ـ القوط يجتاحون مقدونيا واليونان •
٤٠١ ـ ٤٠٦	محاولات الجرمان للنفوذ الى ايطاليا ـ جهود ستليكو فى دفعهم •
٤٠٦	غزو الوندال والسويفى لغاليا •

٤٠٨	مقتل ستليكو ـ ألرك ينجح فى غزو ايطاليا .
٤١٠ ـ ٤١٥	استقرار القوط الغربيين فى جنوب غاليا حول تولوز .
٤٢٩ ـ ٤٣٩	غزو الوندال لافريقية .
٤٣١	مجمع افسوس .
٤٤٣	أتيلا يغزو مقدونيا وتراقيا .
٤٤٣	البرجنديون يقيمون مملكتهم فى أعالى الرون والساؤون .
٤٥١	أتيلا يغزو غاليا ــ موقعة شالون .
	مجمع خلقدونيا .
٤٥٢	أتيلا يغزو ايطاليا .
٤٥٣	وفاة أتيلا ــ تفكك امبراطورية الهون .
٤٥٥	الوندال يغيرون على روما وينهبونها .
٤٧٦	سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب على يد أوداكر .
٤٨١	كلوفس ملك الفرنجة الساليين (البحريين) .
٤٨٩ ـ ٤٩٣	ثيودريك ملك القوط الشرقيين يقيم مملكته فى ايطاليا .
٤٩٦	كلوفس يهزم الألمانى ويعتنق المسيحية فى مذهبها الغربى .
٥٠٧	كلوفس يهزم القوط الغربيين فى فوليه ـ انسحاب القوط كلية الى أسبانيا .
٥٢٧ ـ ٥٦٥	جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية ـ صدور مجموعته القانونية ـ استرداد شمال افريقيا وايطاليا وجزء من أسبانيا للامبراطورية ـ ازدياد خطر الفرس .
٥٣١ ـ ٥٧٩	كسرى الأول أنوشروان يحكم دولة الفرس .
٥٥٠ ـ ٥٥١	ظهور خطر الآفار والبلغار فى حوض الدانوب الأدنى .
٥٦٨	غزو اللمبارديين لايطاليا .
٥٧٠	مولد محمد عليه الصلاة والسلام .
٥٧٢	تجدد الحرب بين الروم والفرس .
٥٩٠ ـ ٦٠٤	البابا جريجورى الأول العظيم .

٥٩٦ بعثة القديس أوغسطين التبشيرية الى انجلترا .

٦٠٣ – ٦٢٠ غزو الفرس للشام وفلسطين – استيلاؤهم على بيت المقدس سنة ٦١٤ .

٦١٠ – ٦٤١ هرقل امبراطور الدولة البيزنطية – استرداد الشام وفلسطين من الفرس .

٦١٦ الفرس يغزون مصر .

٦٢٢ هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة .

٦٢٦ هجوم الفرس والآفار على القسطنطينية .

٦٣٢ غزو العرب لبلاد الشام – استيلاؤهم على دمشق سنة ٦٣٤ .

٦٢٨ – ٦٤٠ فتح العرب لمصر .

٦٤١ موقعة نهاوند – غزو العرب لفارس .

٩٤٧ – ٧٠٩ المسلمون يحتلون شمال افريقية .

٦٤٨ استيلاء المسلمين على قبرص .

٦٥٣ استيلاء المسلمين على رودس .

٦٥٤ – ٦٥٨ هجمات المسلمين على القسطنطينية .

٦٦١ – ٧٥٠ الخلافة الأموية في دمشق .

٦٦٧ أول حصار عظيم يفرضه المسلمون على القسطنطينية .

٦٧٢ – ٦٧٣ هجوم عظيم آخر يقوم به المسلمون على القسطنطينية .

٦٧٢ – ٦٨٠ تفكك القوط الغربيين في أسبانيا .

٧١١ المسلمون يفتحون أسبانيا .

٧١٧ أعظم هجوم يقوم به المسلمون على القسطنطينية .

ليو الأيسوري يعتلي عرش الامبراطورية البيزنطية .

بداية الحركة اللاأيقونية .

٧١٨ – ٧٥٥ جهود القديس بونيفيس التبشيرية في ألمانيا – تأسيس دير فولدا .

٧٢٣ استيلاء المسلمين على سردينيا .

٧٣٢		شارل مارتل ينزل هزيمة بالمسلمين فى جنوب غاليـــــا (تورأوبواتيه) •
٧٥٠		قيام الخلافة العباسية فى بغداد •
٧٥٢	— ٧٥٣	ببين القصير — ابن شارل مارتل — يعزل آخـــر الملوك الميروفنجيين ويؤسس الأسرة الكارولنجية •
٧٥٦		فرار عبد الرحمن الداخل الى أسبانيا وتأسيس الدولـــة الأموية بالأندلس •
		اعطاء رافنا للبابوية وتدعيم النفوذ العلمانى للبابوية •
٧٧١		شارل العظيم يستأثر بحكم دولة الفرنجة •
٧٨٦	— ٨٠٩	عهد هارون الرشيد — وصول الخلافة العباسية الى ذروتها •
٨٠٠		تتويج شارلمان امبراطورا فى روما •
٨١٤		وفاة شارلمان — اعتلاء لويس التقى عرش الامبراطورية •
٨٢٣		الغزو الاسلامى لجزيرة كريت •
٨٤٣		اتفاق فردون — تقسيم امبراطورية شارلمان •
٨٤٥		أول هجوم للفيكنج على باريس •
٨٥٩		السويديون فى أوكرانيا •
٨٦٢		السويديون يؤسسون نوفجرود •
٨٦٥		أول هجوم يقوم به الروس على القسطنطينية •
		المسلمون يغيرون على الأجزاء الجنوبية من ايطاليا •
٨٧٧		سقوط سيراكيوز (سراقوسة) عاصمة صقلية فى أيـــدى المسلمين •
٨٨٠		تأسيس مدينة كييف •
٨٨٦	— ٨٨٧	الهجوم الكبير الذى قام به الفيكنج على باريس •
٨٨٨		عزل شارل السمين •
٨٩١		موقعة ديل •
٨٩٣	— ٩٢٧	سيمون يؤسس امبراطورية البلغار الأولى •

٨٦٦ المجريون فى هنغاريا .

٩٠٤ المسلمون يغيرون على سالونيكا .

٩٠٧ الهجوم الروسى الثانى على القسطنطينية .

٩٠٩ قيام الخلافة الفاطمية فى شمال افريقية .

٩١٠ تأسيس دير كلونى .

٩١١ انتهاء البيت الكارولنجى فى ألمانيا .

٩١٢ اتفاقية سانت كلير — تأسيس دوقية نورمنديا .

٩١٢ — ٩٦٠ الخليفة عبد الرحمن الناصر فى الأندلس — وصول الخلافة الأموية بالأندلس فى ذروتها .

٩١٩ هنرى الصياد دوق سكسونيا يصبح ملكا على ألمانيا .

٩٣٣ هنرى الصياد ينزل هزيمة بالمجريين عند مرسبورج .

٩٣٦ أوتو الأول العظيم يعتلى عرش ألمانا .

٩٤١ ثالث هجوم للروس على القسطنطينية .

٩٥٥ هزيمة المجريين عند أوجسبورج (ليخفيلد) .

٩٦٢ أوتو الأول يتوج امبراطورا رومانيا مقدسا .

٩٦٢ — ٩٧٥ انتصارات نقفور وحنا شمشقيق على المسلمين .

٩٨٧ هيوكابيه يعتلى عرش فرنسا — انتهاء الأسرة الكارولنجية .

٩٨٨ فلاديمير أمير كييف يعتنق المسيحية فى مذهبها الشرقى .

١٠٠١ — ١٠٢٦ المسلمون يغزون الهند .

١٠١٦ بداية الغزو النورمانى لجنوب ايطاليا .

١٠١٨ السلاف يثيرون قلاقل فى ألمانيا .

١٠٣١ سقوط دولة بنى أمية بالأندلس .

١٠٣٧ اتحادليون وقشتالة فى أسبانيا .

١٠٣٨ الأتراك السلاجقة يغزون فارس .

١٠٤٣ رابع هجوم للروس على القسطنطينية .

١٠٤٦ مجمع سوترى .

١٠٥٣ النورمان فى ايطاليا يعلنون بيعتهم للبابوية .

١٠٥٨ طغرل بك يصبح سيد الموقف فى بغداد .

١٠٥٩ مجمع روما يقرر اعطاء الكرادلة وحدهم حق اختيار البابا .

١٠٦٠ - ١٠٩٠ النورمان يغزون صقلية .

١٠٦٦ الفتح النورمانى لانجلترا .

١٠٧١ موقعة مانزكرت ، هزيمة البيزنطيين أمام السلاجقة .

١٠٧٢ - ١١٠٩ حركة التوسع المسيحية الكبرى فى أسبانيا تحت زعامة ألفونس السادس ملك قشتالة - سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ .

١٠٧٣ جريجورى السابع يتولى منصب البابوية .

١٠٧٤ - ١٠٨٥ توسع الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى - استيلاؤهم على دمشق سنة ١٠٧٥ وأنطاكية سنة ١٠٨٥ .

١٠٧٥ بداية النزاع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى .

١٠٧٧ الامبراطور هنرى الرابع يمتثل للبابوية فى كانوسا .

١٠٨٤ النورمان تحت زعامة روبرت جويسكارد ينهبون روما .

١٠٨٥ وفاة جريجورى السابع فى سالرنو .

١٠٨٦ - ١٠٩٢ المرابطون يغزون أسبانيا من شمال افريقية .

١٠٩٠ اتمام الغزو النورمانى لجزيرة صقلية .

١٠٩٢ وفاة ملكشاه وانقسام امبراطورية السلاجقة .

١٠٩٥ مجمع كلير مونت .

١٠٩٧ - ١٠٩٩ الحملة الصليبية الأولى - موقعة ضورليوم - قيام امارة الرها

١٠٩٨ استيلاء الصليبين على أنطاكية .
تأسيس هيئة السترشيان .

١٠٩٩ استيلاء الصليبين على بيت المقدس - تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية .

١١٠٩ الصليبيون يستولون على طرابلس ليقيموا فيها امارة صليبية .

١١١١	الاحتكاك بين هنرى الخامس والبابا باشكال الثانى .
١١١٥	وفاة ماتيلدا أميرة تسكانيا ـ واستيلاء هنرى الخامس فى العام التالى على تسكانيا .
١١١٨	تأسيس هيئة الفرسان الداوية .
١١٢٢	اتفاقية ورموز بين البابوية والامبراطورية .
١١٢٤	استيلاء الصليبيين على صور .
١١٤٦ ـ ١١٤٧	الحملة الصليبية الثانية .
	ثورة أرنولد البريشى فى روما .
١١٤٦ ـ ١١٥٦	الموحدون يقضون على قوة المرابطين فى أسبانيا .
١١٥٢ ـ ١١٩٠	الامبراطور فردريك الأول بربروسا .
١١٥٤	هنرى الثانى يعتلى عرش انجلترا .
	نور الدين محمود يستولى على دمشق فى سبيل اقامة الجبهة الاسلامية المتحدة .
	فردريك الأول يقوم بحملته الأولى على ايطاليا .
١١٥٥	مؤتمر رونساجليا ـ الامبراطور فردريك الأول يعقد هذا المؤتمر فى لمباوديا لتقرير حقوق الامبراطور على المدن اللمباودية .
١١٥٧	مجمع بتاسون ـ تجدد الصراع بين البابوية والامبراطورية
١١٥٨	فردريك الأول يقوم بحملته الثانية على ايطاليا ـ محاصرة ميلان .
١١٥٩	فشل هنرى الثانى ملك انجلترا فى الاستيلاء على تولوز .
١١٦٢	فردريك الأول يدمر ميلان .
١١٦٧	تكوين الحلف اللمباردى .
١١٦٩	قوات نور الدين محمود تغزو مصر .
١١٧٦	قوات الحلف اللمباردى تنزل هزيمة ساحقة بالامبراطور فردريك الأول عند ليجنانو .

تأسيس هيئة الكارثوميان

سلطنة قونية تنزل هزيمة ساحقة بالجيوش البيزنطية .

١١٧٧ الهدنة بين فردريك الأول والمدن اللمباردية .

١١٧٨ استفحال خطر الهرطقة الألبيجنسية فى جنوب فرنسا .

١١٨٠ - ١٢٢٣ فيلب أوغسطس ملك فرنسا .

١١٨١ سقوط هنرى الأسد وتقسيم دوقية سكسونيا .

١١٨٣ اتفاقية كونستانس - الاعتراف بحرية المدن اللمباردية .

١١٨٥ النورمان يستولون على سالونيكا .

١١٨٦ ثورة بلغاريا - قيام الامبراطورية البلغارية الثانية .

زواج هنرى السادس من كونستانس وريثة صقلية .

١١٨٧ استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس بعد حطين .

١١٨٩ - ١١٩٢ الحملة الصليبية الثالثة - هلاك فردريك بربروسا - حصار عكا .

١١٩٠ تأسيس هيئة الفرسان التيتون .

١١٩٣ وفاة صلاح الدين .

أسر ريتشارد قلب الأسد فى أوستريا (النمسا) .

١١٩٥ موقعة الأرك فى أسبانيا - المسلمون ينزلون الهزيمة بالفونس التاسع .

١١٩٨ - ١٢١٦ البابا أنوسنت الثالث .

١٢٠٠ براءة الاعتراف بجامعة باريس .

١٢٠٣ - ١٢٠٤ الحملة الصليبية الرابعة - قيام امبراطورية لاتينية فى القسطنطينية .

١٢٠٤ فيلب أوغسطس يغزو نورمنديا وآنجو ومين وتورين .

١٢٠٥ البلغار ينزلون الهزيمة بامبراطور القسطنطينية بلدوين الأول .

١٢٠٨ بداية الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين فى جنوب فرنسا .

١٢٠٩ تأسيس هيئة الفرانسسكان .

١٢١٢ حملة الأطفال الصليبية •

موقعة العقاب ، هزيمة ساحقة تحل بالمسلمين فى أسبانيا •

١٢١٤ موقعة بوفان •

١٢١٥ العهد الأعظم •

المغول بزعامة جنكيزخان يغزون الصين ويستولون على بكين

١٢١٧ تأسيس هيئة الدومنيكان •

١٢١٩ الحملة الصليبية الخامسة تستولى على دمياط •

١٢٢١ المغول يغزون فارس •

١٢٢٤ تأسيس جامعة نابلى •

١٢٢٦ اعادة تشكيل الحلف اللمباردى ضد فردريك الثانى •

١٢٢٦ - ١٢٧٠ لويس التاسع ملك فرنسا •

١٢٢٧ وفاة جنكيز خان •

١٢٢٨ - ١٢٢٩ الحملة الصليبية السادسة - فردريك الثانى يسترد بيت المقدس • عن طريق اتفاقية مع السلطان الكامل •

الفرسان التيتون فى بروسيا •

١٢٣٠ اتحاد ليون وقشتالة فى أسبانيا •

١٢٣١ فردريك الثانى يعطى براءة الحرية لبعض المقاطعات السويسرية •

١٢٣٦ غزو المغول لروسيا •

١٢٣٧ فردريك الثانى ينتصر على مدن الحلف اللمباردى عند

١٢٣٨ غزو استونيا •

١٢٣٩ هرمان فون سالزا يصبح مقدم الفرسان التيتون •

قيام دولة غرناطة الاسلامية بجنوب الأندلس •

١٢٤٠ فردريك الثانى يتوسع فى منح براءة الحرية لبعض المقاطعات السويسرية •

البابا يدعو لحملة صليبية ضد فردريك الثانى •

١٢٤١ المغول يغزون بولندا وسيلزيا •

١٢٤٤ المسلمون (الخوارزمية) يستردون بيت المقدس من الصليبيين .

١٢٤٥ مجمع ليون .

١٢٤٨ - ١٢٤٩ الحملة الصليبية السابعة تحت زعامة لويس التاسع ملك فرنسا .

ظهور محاكم التفتيش فى أسبانيا .

١٢٥٠ موقعة المنصورة - هزيمة لويس التاسع وأسره .

قيام دولة المماليك فى مصر والشام .

وفاة فردريك الثانى .

١٢٥٠ - ١٢٧٣ فترة الشغور فى التاريخ الألماني .

١٢٥٣ أوتوكار الثانى ملك بوهيميا يستولى على أوستريا .

١٢٥٧ تأسيس مجمع (كلية) السوربون .

١٢٥٨ سقوط بغداد فى أيدى المغول .

١٢٦٠ موقعة عين جالوت - هزيمة المغول وارتدادهم عن الشام ومصر .

مانفرد - ملك الصقليتين - يجتاح تسكانيا .

١٢٦١ سقوط الامبراطورية اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية .

١٢٦٨ قيام المملكة الأنجوية فى نابلى وصقلية .

١٢٧٠ وفاة لويس التاسع فى تونس .

١٢٧٢ - ١٣٠٧ ادوارد الأول ملك انجلترا .

١٢٧٣ - ١٢٩١ رودلف هابسبورج .

١٢٧٨ موقعة مارخفيلد - تدعيم نفوذ أسرة هابسبورج فى النمسا .

١٢٨٣ الفرسان التيتون يتمون فتح بروسيا .

١٢٩١ السلطان الأشرف خليل المماليكى يستولى على عكا آخر المعاقل الصليبية الكبرى بالشام .

تأليف الحلف السويسرى من بعض المقاطعات الكبرى ضد آل هابسبورج .

١٢٩٣ – ١٢٩٨ الحرب بين ادوارد الأول ملك انجلترا وفيلب الرابع ملك فرنسا .

١٢٩٤ سلطنة قونية تفتت بعد مقتل سلطانها مسعود الثانى على أيدى المغول .

١٣٠١ بداية النزاع بين البابا بونيفيس الثامن وفيلب الرابع ملك فرنسا .

١٣٠٢ موقعة كورتراى – الفلمنكيون يهزمون الجيوش الفرنسية . أول مجلس لطبقات الأمة فى فرنسا .

١٣٠٧ – ١٣١٤ القضاء على هيئة الفرسان الداوية .

١٣٠٨ – ١٣١٣ هنرى السابع لكسمبرج يصبح امبراطورا .

١٣٠٩ انتقال البابوية الى أفنيون – بداية فترة الأسر البابلى .

١٣١٠ فرسان القديس حنا يغزون جزيرة رودس .

١٣١٢ فيلب الرابع يضم ليون الى فرنسا .

١٣١٥ موقعة مورجارتن – انتصار سويسرا على ليوبولد النمساوى .

١٣٢٠ هزيمة الفلاحين فى فرنسا .

١٣٢٦ العثمانيون يستولون على بروسه .

١٣٢٨ انتهاء أسرة كابيه فى فرنسا – قيام فيلب السادس فالوا فى الحكم .

١٣٣٠ استيلاء العثمانيين على نيقية .

١٣٣١ ستفن دوشان يعلن نفسه امبراطورا على الصرب .

١٣٣٣ كازمير العظيم يصبح ملكا على بولندا .

١٣٣٧ ادوارد الثالث يطالب بالتاج الفرنسى .

١٣٣٩ ادوارد الثالث ينزل على رأس قواته فى فلاندرز .

١٣٤٠	موقعة سلوى — انتصار بحرى لادوارد الثالث •
١٣٤١	العثمانيون يعبرون الى الشاطىء الأوربى •
١٣٤٢ — ١٣٨٢	لويس العظيم فى هنغاريا ـ اتحاد هنغاريا وبولندا عن طريق زواج ابنة لويس من لادسلاس الثانى ملك بولندا •
١٣٤٤	استكشاف جزر ماديرا •
١٣٤٥	استكشاف جزر كانارى •
١٣٤٦	موقعة كريسى •
	الفرسان التيتون يغزون استونيا •
١٣٤٧	الانجليز يستولون على كاليه (حتى سنة ١٥٥٨) •
١٣٤٨	تأسيس جامعة براغ •
١٣٤٩	الوباء الأسود •
١٣٥٢	ملك دنقلة يعتنق الاسلام — انتشار الاسلام بسرعة على امتداد ساحل غانة •
١٣٥٥	تجدد الحرب بين انجلترا وفرنسا •
١٣٥٦	موقعة بواتييه •
	المرسوم الذهبى الذى أصدره شارل الرابع •
	وكلف يواصل نقده للكنيسة •
١٣٥٧	استيلاء العثمانيين على غاليبولى •
١٣٥٨	ثورات داخلية فى فرنسا •
١٣٦١	فرنسا تستولى على برجنديا •
	العثمانيون يغزون أراضى (رومانيا) الحديثة — تأسيس فرقة الانكشارية •
١٣٦٤ ـ ١٣٨٠	شارل الخامس فى فرنسا •
١٣٦٤	جامعة كراكاو •
١٣٦٥	استيلاء العثمانيين على أدرنة •
	البرتغاليون يستكشفون ساحل غانة •

١٣٦٨ جامعة جنيف .
١٣٦٩ - ١٣٨٠ تجدد الحرب بين انجلترا وفرنسا .
١٣٧٠ - ١٤٠٥ تيمورلنك يغزو فارس وأعالى الشام .
١٣٧١ انتصار العثمانيين عند المارتزا .
١٣٧٨ بداية الانشقاق الدينى الأكبر .
١٣٨٠ انتصار الروس على المغول .
١٣٨١ ثورة الفلاحين فى انجلترا .
١٣٨٢ انتصار الفرنسيين على الفلمنكيين عند روزبك .
وفاة لويس العظيم ملك هنغاريا - اتحاد هنغاريا وبولندا .
١٣٨٤ وفاة وكلف .
١٣٨٦ تيمورلنك يغزو فارس .
السويسريون ينزلون الهزيمة بالهابسبورجيين عند سمباخ .
١٣٨٩ موقعة كاسوفا ، العثمانيون ينزلون هزيمة كبرى بالصرب والبلغار والهنغاريين .
١٣٩٠ العثمانيون يحاصرون القسطنطينية لأول مرة .
١٣٩٣ سقوط امبراطورية البلغار الثانية .
١٣٩٤ الهدنة بين انجلترا وفرنسا .
١٣٩٥ تيمورلنك يغزو روسيا .
١٣٩٦ موقعة نيقوبوليس ، العثمانيون ينزلون هزيمة ساحقة بالقوى الأوربية .
١٣٩٧ اتحاد كالمار بين الدانمرك والسويد والنرويج .
١٣٩٨ - ١٣٩٩ تيمورلنك يغزو الهند ويستولى على دلهى .
١٤٠٢ تيمورلنك ينزل هزيمة كبرى بالسلطان بايزيد العثمانى فى موقعة أنقرة .
١٤٠٥ وفاة تيمورلنك .
١٤٠٩ مجمع بيزا يعزل البابوات المتنازعين .

١٤١٠	موقعة تانبرج ـ البولنديون ينزلون هزيمة كبرى بالفرسان التيتون .
١٤١٣	افتتاح مجمع كونستانس الدينى .
١٤١٥	احراق حنا هس بتهمة الهرطقة .
	عزل البابوات المتنازعين .
	موقعة أجينكورت (أزينكورت) .
١٤١٨	استيلاء الانجليز على باريس .
	هنرى الملاح يقوم بأولى رحلاته .
١٤١٩	ثورة الهسيين فى بوهيميا (حتى سنة ١٤٣٦) .
١٤٢٠	معاهدة تروى فى فرنسا .
١٤٢٣	مجمع سينا .
١٤٢٤	مجمع سينا ينتقل الى بازل .
	استيلاء العثمانين على سالونيكا .
١٤٢٩	الانجليز يحاصرون أورليان ـ ظهور جان دارك .
١٤٣١	محاكمة جان دارك واعدامها .
١٤٣٦	الفرنسيون يستردون باريس .
١٤٣٨	مجمع سينا قرارا لمعارضة مجمع بازل .
١٤٤٢	ألفونس ملك أرغونة يستولى على نابلى ـ توحيد نابلى وصقلية تحت حكم أرغونة والقضاء على سيطرة البيت الأنجوى .
١٤٤٤	العثمانيون يحرزون انتصارا كبيرا عند فارنا .
	البرتغاليون يشرعون فى مباشرة تجارة الرقيق .
	شارل السابع ملك فرنسا يشن حربا على سويسرا ويحاصر زيورخ .
١٤٤٨	الفرنسيون يستردون أنجو ومين .

١٤٤٩ الفرنسيون يغزون نورمنديا •

١٤٥١ الفرنسيون يستردون جاسكونى •

١٤٥٢ – ١٤٥٥ اختراع الطباعة •

١٤٥٣ هزيمة الانجليز عند شاتيلون وضياغ معظم ممتلكاتهم فى فرنسا ما عدا كاليه – نهاية حرب المائة عام •

— سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين •

١٤٥٥ بداية حرب الوردتين في انجلترا •

١٤٥٨ – ١٥٠٤ العثمانيون يجتاحون ولاشيا •

١٤٥٩ العثمانيون يغزون الصرب •

تأسيس جامعة بازل •

١٤٦٠ استيلاء العثمانيين على طرابيزون •

١٤٦٣ استيلاء العثمانيين على البوسنة •

١٤٦٦ خضوع الفرسان التيتون فى بروسيا لبولندا – صلح تورن الثانى – ضم بروسيا الغربية الى بولندا •

١٤٧٥ السويسريون يغزون برجنديا •

جامعة بوردو :

١٤٨٠ نهاية نفوذ القبيلة الذهبية (المغول) فى روسيا •

١٤٨١ ضم بروفانس الى فرنسا •

العثمانيون يحاصرون رودس •

١٤٨٣ تحالف الولايات الايطالية ضد البندقية •

مولد روفائيل ومارتن لوثر •

١٤٨٥ هنرى السابع تيودور يعتلى عرش انجلترا •

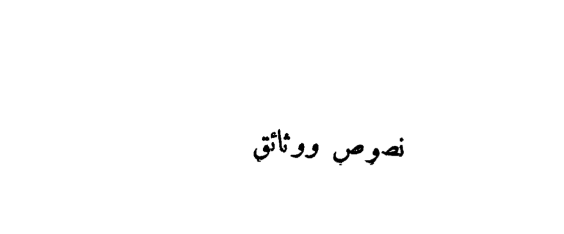
١٤٨٦ بارتلميودياز يستكشف رأس الرجاء الصالح •

١٤٩١ ــ ١٤٩٢ سقوط دولة غرناطة الاسلامية فى أسبانيا .
كولمبس يقوم بأولى رحلاته لاستكشاف أمريكا .

١٤٩٤ الفرنسيون يغزون ايطاليا ويحتلون نابلى لمدة قصيرة .
سافونا رولا فى فلورنسا .

١٤٩٨ فاسكو دى جاما يصل الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح .

نصوص ووثائق



١ - الشعوب الجرمانية كما وصفها تاكيتوس

تاكيتوس مؤرخ رومانى عاش فى النصف الأخير من القرن الأول وأوائل القرن الثانى للميلاد (٥٥ - ١٢٠ م) تولى عدة مناصب فكان برايكتور سنة ٨٨ وقنصلا سنة ٩٧ وبروقنصل فى ولاية آسيا سنة ١١٢ • كتب عدة كتابات وكتب تاريخية ، منها كتابة عن الجرمان ، الذى يعتبر من أهم المراجع التى نقتبس منها معلوماتنا عن الشعوب الجرمانية فى القرون الأولى من أدوار تاريخها • وفيما يلى بعض ما كتبه تاكيتوس عن الجرمان :

* * *

اعتاد الجرمان فى أوقات السلم أن يقضوا بعض وقتهم فى الصيد ، ولكن الغالب هو أنهم كانوا يركنون الى الكسل مستسلمين للنوم أو اللهو ، حتى أكثرهم شجاعة وأقواهم بأسا اعتادوا أن يقضوا وقت السلم فى خمول ، تاركين شئون البيت والأرض للنساء والمسنين من الرجال ، وغيرهم من فئات غير المحاربين • أما السادة منهم فيتسكعون اشباعا لنزعة عدم الثبات والاستقرار ، وهى نزعة طبيعية فيهم تجعلهم دائما يكرهون السلم ويحبون الحركة والغزو • وقد جرت العادة فى دول الجرمان أن يكرموا زعماءهم باهدائهم أنصبة متباينة من الماشية أو القمح ، وهذه الهدايا كانت تكفى لأن يعيش عليها الزعماء فى وقت السلم دون حاجة الى العمل • على أن معظم الهدايا الثمينة كانت تقدم الى أولئك الزعماء من القبائل المجاورة - حكومات وأفراد - ، ومن هذه الهدايا الخيول والدروع المعدنية الفاخرة والحراب والسهام والسلاسل المضفرة وغيرها • وقد استطعنا نحن الرومان - أن نجعلهم الآن يقبلون النقود ويرتضونها مثلما يرتضون الهدايا السابقة •

ومن الحقائق المعروفة جيدا أن الجرمان لا يعيشون فى مدن مسورة ، وانهم يسكنون منازل غير متلاصقة ، متباعدة عن بعضها البعض مبعثرة فى المروج أو

الغابات حسبما يحلو لهم وهم لا يعيشون مثلنا ـ نحن الرومان ـ فى قرى ذات بيوت متقاربة أو متلاصقة ، وانما تحيط بكل بيت من بيوتهم مساحة كبيرة من الفضاء . وربما كان سر هذه الظاهرة هو تخوفهم من أن تلتهم النار بيوتهم جميعا فى حالة تلاصقها ، أو ربما يرجع السر الى ضعف مهارتهم فى شئون التخطيط والبناء . هذا الى أنهم لا يعرفون استخدام الحجر المصقول أو الآجر ، بل يستخدمون فى بناء بيوتهم الأخشاب بطريقة تدل على الخشونة وعدم العناية بحسن المظهر . ثم انهم يلطخون أجزاء من بيوتهم بالطمى ويحرصون على أن يتم ذلك بوضوح وعناية بحيث يبدو الطمى كنوع من الطلاء البراق فى شكل خطوط ملونة . هذا الى أنهم دأبوا على حفر كهوف ومغارات تحت سطح الأرض ويغطون فتحاتها بأكوام كبيرة من السباخ والسماد ، ليستخدموها مأوى فى الشتاء أو مخازن يخفون فيها حاصلاتهم الزراعية ، بحيث أنه اذا اجتاح عدو بلادهم فانه ينهب الأشياء الظاهرة ولا تصل يده الى المخبوءات فى تلك الكهوف .

واعتاد الجرمان على اختلاف طبقاتهم أن يرتدوا عباءة لا يستر أجسامهم غيرها ويكتفون بها وبالجلوس قرب النار للتدفئة طوال اليوم . وربما امتاز الأغنياء بارتداء سروال داخلى فضفاضا مثل الذى يرتديه السارماشيون أو البارثيون وانما ضيقا محكما على الساقين . كذلك يرتدون جلود الحيوانات المفترسة ، دون أن يعنى أفراد القبائل القريبين من حدودنا بتفصيلها واحكامها، فى حين يبذل أفراد القبائل البعيدة عنا جهدا كبيرا فى احكام تفصيل ملابسهم المصنوعة من جلود الحيوانات نظرا لأنهم يعتمدون عليها اعتمادا شبه تام لعدم وصول أنواع أخرى من الملابس اليهم . لذلك هم يعنون باختيار الحيوانات التى ينزعون جلودها ويرقعونها بقطع من جلود الحيوانات البحرية التى يلقى بها المحيط الكبير اليهم . ولا تختلف ملابس النساء فى أسلوبها عن ملابس الرجال ، اللهم سوى أن النساء يرتدين عادة ملابس كتانية يزركشنها باطار أحمر اللون ، ويرتدين من الداخل قمصان بدون أكمام ، مع ترك الجزء العلوى من الصدر مكشوفا .

ومع ذلك فان رباط الزوجية عند الجرمان يمتاز بانه رباط وثيق ، حتى أننا لا نجد ناحية جديرة بالاطراء في عادات الجرمان أكثر من هذه الناحية . ذلك أن الجرماني يقنع دون بقية طوائف البرابرة بزوجة واحدة ، باستثناء عدد قليل جدا ممن ينحدرون من أصل نبيل ، وهؤلاء بحكم أصلهم تلقوا عروضا عديدة للزواج فصار للواحد منهم أكثر من زوجة . والزوجة عند الجرمان لا تقدم لزوجها هدية زواج وانما الزوج هو الذي يقدم هدية الزواج لزوجته ، ويتم ذلك في حضور الوالدين والأقارب والأهل الذين يقومون بفحص تلك الهدايا وتقييمها . وهذه الهدايا لا تناسب عادة وطبيعة المرأة ، كما أنها ليست من النوع الذي يمكن أن تتحلى به العروس ، وانما تتألف من زوج من الثيران وحصان مطهم ودرع وحربة وسيف وفي مقابل هذه الهدايا يمكن للعريس أن يتسلم عروسه من أهلها وتقوم هي بدورها بتقديم بعض الهدايا من الأسلحة لزوجها .

ويعتبر الجرمان هذا الحفل بطقوسه الغامضة من أقدس روابطهم التي تباركها الآلهة . وفي ذلك الحفل الخاص بالزواج تذكر الزوجة بأنها شريكة لزوجها في أفراحه وأتراحه ، وأنها يجب أن تشاركه في تحمل المخاطر التي يتعرض لها ، حتى لا تظن أنها بعيدة عن دائرة الحرب والأخطار والمتاعب ، وهذا هو المقصود من هدية زوج الثيران التي ترمز الي السلم وفلاحة الأرض من ناحية والفرس المطهم والأسلحة التي ترمز الى متاعب الحرب من ناحية أخرى . وعلى أساس هذه المفاهيم تعيش الزوجة مع زوجها وتموت الى جانبه ، فهي منذ لحظة زواجها تسلمت أمانة عليها أن تسلمها بدورها كاملة غير منقوصة لأولادها وأحفادها .

وفي ظل اطار منيع من العفة والشرف يعيش الجرمان بعيدين عن حياة الخلاعة واغراء المظاهر . ولا يعرف الزوج أو الزوجة عند الجرمان تبادل الخطابات السرية الغرامية . وحالات جرائم الزنا قليلة ونادرة جدا عند

الجرمان ، واذا حدثت فان العقوبة توقع فورا دون ابطاء فى نفس المكان الذى حدثت فيه الجريمة وبعد أخذ رأى الزوج الذى خانته زوجته • فيجمع أهل الزوجة ويحضر الزوج ليلقى أمامهم بزوجته الزانية وقد قص شعرها ونزعت عنها ملابسها ، وأمام الجمع الحاشد يلهب الزوج ظهر زوجته الخائنة بالسوط ، ويستمر الزوج يطارد زوجته الخائنة والسوط بيده فى طول القرية وعرضها • والزوجة التى تقع فى جرم الخيانة لا يمكن للمجتمع أن يغفر لها جرمها ، فتظل بعد ذلك دون زوج مهما يبلغ جمالهـــا وثراؤها وشبابها • ففى بلاد الجرمان لا يبتسم أحد للرذيلة ، ولا يطلقون اســـم « متاع الدنيا » على الغواية والضلال(١) •

وهذا المجتمع الجرمانى يعيش فى أحوال أفضل بكثير من التى نعيش — نحن معشر الرومان — فيها • ذلك أنه لا تتزوج عندهم الا المرأة العذراء ، فاذا تزوجت المرأة مرة فانها الأولى والأخيرة بالنسبة لها ، وبزوجهـــا ارتبطت حياتها وآمالها الى النهاية • فالمرأة لها زوج واحد ، مثلما لها جسد واحدة وحياة واحدة ، فلا تفكير فى أطماع أخرى ولا أحلام فى آمال جديدة ، وانما هى تحب زوجها وتتفانى فى الاخلاص له لأنه يمثل حالة الزوجيـــة ورباطها الأبدى المقدس •

وهكذا نجد العادات والتقاليد الحميدة فى المجتمع الجرمانى أجدى بكثير من القوانين المفروضة فى البلاد الأخرى •

---

(١) نلاحظ ما هناك فى كلام تاكيتوس من مقارنة غير صريحة بين نقاوة المجتمع الجرمانى الذى كان لا يزال عندئذ على بساطته ، وبين ما صـــار اليه المجتمع الرومانى بعد أن أخذت تتسرب اليه عوامل الفساد تدريجيا •

٢ - مرسوم ميلان سنة ٣١٣

الذى أصدره قسطنطين وليكنيوس(١)

سبق أن قررنا أنه لا ينبغى منع حرية العبادة ، وانما تترك لكل فـرد - حسبما يوجهه فكره وقلبه - حرية العبادة وفق الأسلوب الذى يروقه بمعنى أن المسيحيين وغيرهم من أهل الطوائف الأخرى مسموح لهم بمباشرة العقائد والأديان التى يختارونها • ولكن يبدو أن هذا القرار الذى سبق أن أصدرناه لم يراع تنفيذه بدقة نظرا لكثرة الحالات وتباين الأوضاع ، مما يستدعى اصدار هذا المرسوم •

عندما وصلنا نحن قسطنطين أوغسطس وليكنيوس أوغسطس الى ميلان محاطين بالرعاية والعناية ، أخذنا نبحث كافة المسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا • ومن بين هذه المسائل التى تهم كثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العبادة • لذلك قررنا اصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار ومباشرة العقيدة التى يرتضونها ، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون فى كنف سلطاننا • وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أى فرد كائنا من كان ، من اختيار المسيحية ديانة له ، ولكل فرد الحرية فى اختيار الديانة التى تناسبه ، وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة التى تعودناها منه •

وقد رأينا أنه من المناسب أن نرسل أمرا امبراطوريا بقرارنا هذا ، وذلك لمحو الآثار التى ترتبت على خطاباتنا وقراراتنا السابقة بخصوص المسيحيين ويصبح من الآن كل واحد من أولئك المسيحيين المغلوبين على أمرهم حرا

---

(١) ليكنيوس هذا هو زوج أخت قسطنطين وشريكه فى حكم الامبراطورية، دفعه الطمع الى دخول حرب أهلية ضد قسطنطين انتهت سنة ٣٢٣ بهزيمته •

فى مباشرة عقيدته دون أى عائق • وأول ما نحب أن نؤكده فى هذا المرسوم هو أن تعلموا أننا منحنا لأولئك المسيحيين سلطة مطلقة غير محدودة فى اختيار نوع العقيدة التى يرتضونها • وقد فعلنا هذا لكيلا نبدو فى صورة الراغبين فى الحط من قيمة أية عقيدة أو أية عبادة بأى حال من الأحوال •

وزيادة على ذلك فانه فيما يتعلق بالمسيحيين بوجه خاص فاننا عقدنا العزم على أن تعاد اليهم أماكنهم السابقة التى اعتادوا أن يجتمعوا فيها والتى سبق أن صودرت ، واذا ثبت أن بعضها اشتراه أفراد من الخزانة العامة فانها تسترد منهم دون اعطاء تعويض ما وتعاد الى أصحابها المسيحيين • فاذا تصادف وكانت بعض هذه الأماكن أهديت الى الغير ، فانها تسترد منهم فورا لتعاد الى أصحابها المسيحيين • فاذا اعترض بعض أولئك الذين كانوا قد حصلوا على تلك الأماكن عن طريق الشراء أو الاهداء وطالبوا بشىء من عطفنا ، فعليهم أن يتقدموا بالتماسات الى الوالى ، ولكن بعد أن يسلموا ما بحوزتهم من ممتلكات الى أصحابها المسيحيين دون أى ابطاء •

ولما كان أولئك المسيحيون لا يمتلكون فقط تلك الأماكن والمبانى الخاصة بأفراد منهم ، وانما كانت الهيئة الخاصة بالمسيحيين (الكنيسة) تمتلك ممتلكات كثيرة سبق أن صودرت ، فاننا نأمر بمقتضى هذا المرسوم أن تسترد الهيئة الخاصة بالمسيحيين كل ما صودر من ممتلكاتها ويستطيع الأفراد الذين استحوذوا على هذه الممتلكات أن يعتمدوا على كرمنا فى تعويضهم ولكن عليهم أن يسلموا ما معهم دون طلب تعويض ما من المسيحيين أنفسهم •

ولا شك فى أننا بقراراتنا هذه انما نبذل قصارى جهدنا لا من أجل المسيحيين وهيئتهم الخاصة بهم فحسب ، بل أيضا من أجل السلام العام • وبهذه الطريقة سنظل نحظى بالعناية الالهية التى طالما لمسناها فى كثير من الشئون •

وهذا المرسوم الذى صدر من فيض كرمنا يجب أن يذاع على الجميع ، ويجب أن يحاط الجميع به علما وينشر فى كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به •

٣ — نظام القديس بندكت الديرى

أدى فساد تنظيم الحياة الديرية فى غرب أوربا الى انتشار كثير من المفاسد فى الأديرة • ومن أشهر المصلحين الديريين الذين عملوا على اصلاح الحياة الديرية القديس بندكت الذى وضع قانونا ديريا ساد الحياة الديرية فى غرب أوربا مدى عدة قرون وترك أثرا بالغ الاهمية لا فى حياة آلاف الرهبان الذين ضمتهم الأديرة البندكتية فحسب ، بل ايضا فى تطور الحضارة الاوربية فى العصور الوسطى • وفيما يلى بعض فقرات من قانون القديس بندكت (حوالى سنة ٥٣٠ م) :

* * *

المادة ٢ : الصفات الواجب توافرها فى مقدم الدير :

يجب على الفرد الجدير بأن يكون مقدما على دير من الأديرة أن يذكر دائما مدى أهمية مركزه • وخطورة مهمته وسمو وظيفته ، لأنه يمثل المسيح فى الدير ، ويستمد اسمه من قول الرسول « اذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف ، بل أخذتم روح التبنى الذى به نصرخ يا آبا الأب » (١) • كذلك يجب على مقدم الدير ألا يأمر أمرا أو يلقن شيئا منافيا لتعاليم الرب ، وانما يجب أن تكون جميع أوامره وتعاليمه متمشية مع قواعد العدل الألهى ••• وعلى مقدم الدير أن يتبع أسلوبين فى تعليم المريدين والتلاميذ داخل الدير : فيلقن تعاليم الرب شفويا للمريد النابه الذى لديه الاستعداد للتعلم ، أما المريد الضعيف أو العنيد فيكون تعليمه عن طريق العمل والقدوة • ولا ينبغى أن يكون هناك تفاوت فى تقدير الأشخاص داخل الدير ، فلا يختص مقدم الدير بمحبته راهبا دون راهب آخر الا أن يبذ الراهب المحبوب أقرانه فى العمل الطيب والطاعة • ولا يصح داخل الدير أن يميز الراهب الحر

---

(١) رسالة بولس الرسول الى أهل رومية (٨ ، ١٥) والمقصود هنا أن مقدم الدير واسمه *Abbot* اشتق اسمه كلمة آبا - Abba التى وردت فى النص •

الأصل على الراهب الذى أصله غير حر ، الا اذا كان هناك سبب آخر وجيه يستدعى التفرقة ، لأن الجميع - أحرارا وعبيدا - سواء فى محبة المسيح . وعلى مقدم الدير أن يتبع دائما قول الرسول « وبخ ، انتهر ، عظ بكل أناة وتعليم » (١) . بمعنى أنه يجب على مقدم الدير أن يكيف أسلوبه حسب الظروف ، فيستخدم التهديد تارة والمديح والاطراء تارة أخرى ، وحينا يظهر فى صورة الرئيس الحازم وحينا آخر يبدو فى صورة الأب الحنون ... حسبما تقضى الظروف ..

وقبل كل شيء يجب على مقدم الدير ألا يظهر تهالكا على متاع الدنيا الفانى وزينتها الزائلة ، مما يجعله ينسى رعاية الأرواح الموكول اليه رعايتها . وعليه أن يذكر دائما أنه مسئول عن تقديم بيان بصلاح الأرواح المعهودة اليه .

المادة ٣ : استشارة الاخوان داخل الدير :

اذا حدث شيء هام داخل الدير وجب على مقدم الدير أن يعقد اجتماعا يضم جميع رهبان الدير ليستشيرهم فى الأمر . وبعد أن يستمع المقدم الى آراء الاخوان يتخذ فى الموضوع ما يراه صالحا .

المادة ٤ : أساليب العمل الصالح :

للعمل الصالح أساليب ووسائل عديدة أولها محبة الرب بكل ما أوتيه الانسان من قلب وروح وقوة . وأن يحب الراهب لزميله ما يحب لنفسه . وأن لا يلجأ الانسان الى ارتكاب جرائم القتل أو الزنا أو السرقة ، وألا يطمع ولا يشهد زورا ، وأن يحترم جميع الناس ، ولا يؤذى من لم يؤذيه . وأن يقتدى الفرد بالمسيح فى نكران الذات وصيانة الجسد ومحاربة الشهوات والاعراض عن متاع الدنيا والصبر على الصيام . وأن يطعم الفقير ويكسو العريان ويعود المريض ويدفن الميت ، ويساعد المكروب ويواسى الحزين . وأن يبتعد ما أمكن عن مغريات الدنيا ، ولا يحب شيئا أكثر من محبته المسيح ، ولا يستسلم للغضب،

---

(١) رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس (٤ ، ٢) .

ولا يحمل حقدا لأحد ، ولا يخدع ولا يغش ، ولا يتظاهر بالود ويحمل فى قلبه الكراهية ، ولا يتردد فى طريق الاحسان والمعروف . ويجب عليه ألا يقسم لكيلا يحنث فى قسمه ، وأن يقول الصدق من صميم قلبه ، وألا يقابل الشر بالشر ، ولا يأذى الغير ، وانما يقابل الأذى ويتحمله فى صبر وهدوء . وعليه أن يحب أعداءه ولا يقابل اللعنة بمثلها ، وأن يصبر على الأذى فى سبيل الشرف والواجب . ويجب عليه ألا يكون متكبرا أو سكيرا أو نهما فى الأكل ، أو مستسلما للنوم والكسل ، أو كثير الشكوى أو نماما . وعليه أن يضع ثقته فى الله فاذا رأى فى نفسه شيئا طيبا عزاه الى الرب واذا رأى شيئا غير طيب عزاه الى نفسه . وعليه أن يخشى يوم الحساب ويعمل حسابا لعذاب النار ...

المادة ٥ : الطاعة :

والطاعة دون تردد هى أول درجات التواضع ، وأولى الصفات التى يتحلى بها اتباع المسيح المخلصون . لذلك يجب على أى راهب يتلقى أمرا من رئيسه أن يطيعه فورا كما لو كان الأمر صادرا من الرب نفسه .

المادة ٦ : الهدوء :

ودعنا نتصرف كما يقول الرسول « قلت أتحفظ لسبيلى من الخطأ بلسانى إحفظ لفمى كمامة فيما الشرير مقابلى . صمت صمتا سكت عن الخير فتحرك وجعى » (١) ومعنى هذا أنه اذا كان من الصواب عدم الكلام حتى فى الخير ، فما بالنا وعدم الكلام فى الشر خوفا من الوقوع فى الاثم ... لذلك نحن نمنع منعا باتا المزاح والكلام فيما لا يعنى ، ويحرم على الراهب حتى مجرد أن يفتح فمه للتفوه بمثل تلك الألفاظ .

المادة ٧ : التواضع :

جاء فى الكتاب المقدس « فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع »(٢)

(١) سفر المزامير ٣٩ ، ١ ـ ٢ .
(٢) انجيل متى ٢٣ ، ١٢ .

وعلى هذا يجب على الاخوة والرهبان اذا أرادوا أن يرتفعوا الى أسمى درجات التشريف فى السماء أن يذكروا أن هذا التشريف لا يتحقق الا بالتواضع فى الدنيا • واذا أردنا أن نرقى الى السماء فيلكن ذلك بواسطة سلم من أعمالنا مثل ذلك السلم الذى رآه يعقوب فى منامه وعليه ملائكة يصعدون وملائكة ينزلون (١) •

المادة ٢١ : نواب مقدم الدير :

واذا كان الدير يضم عددا كبيرا من الرهبان ، فان للمقدم أن يختار بعض الأعضاء المعروفين بالتقوى وحسن الخلق ليكونوا نوابا له ورؤساء على الشعب التى ينقسم اليها أفراد الدير •

المادة ٢٢ : طريقة نوم الرهبان •

يجب أن ينام الرهبان فى أسرة منفصلة وفق النظام الذى يضعه لهم مقدم الدير ، بحيث تضاء شمعة فى قاعة النوم منذ المساء حتى طلوع الفجر • وعلى الرهبان أن يكونوا دائما أبدا مستعدين ، فيتركون فراشهم مباشرة عند سماع اشارة الاستيقاظ ، ويسرعون لاقامة الصلاة مع احتفاظهم بوقارهم واتزانهم• ويجب ألا تتجمع أسرة صغار السن من الرهبان فى مكان واحد وانمـــا توزع بين أسرة الكبار •

المادة ٣٩ : مقدار الطعام •

يكفى أن يتناول الراهب يوميا طبقين من الطعام المطهى اما فى الساعة السادسة أو التاسعة • وقد سمحنا بطبقين لاختلاف الأذواق حتى أن أيا لا يحبه صنفا من الطعام يمكنه أن يشبع جوعه بالطبق الآخر • فاذا أمكن للدير الحصول على بعض الفاكهة أو الخضروات الطازجة ، فعندئذ يكون ذلك بمثابة الطبق الثالث الذى يقدم للرهبان • ويكفى كل راهب رطل واحد من الخبز يوميا سواء كان يتناول وجبة واحدة أو وجبتين •• أما فى حالة

---

(١) « ورأى (يعقوب) حلما ، واذا سلم منصوبة على الأرض ورأسهـا تمس السماء • وهو ذا ملائكة اللـه صاعدة ونازلة عليهـا » (سفر التكوين ، الاصحاح الثامن والعشرون ، ١٢) •

الرهبان الذين يعهد اليهم بالنهوض بأعمال شاقة ، فان لمقدم الدير الحرية فى اعطائهم قدرا أكبر من الطعام ، بشرط ألا يسمح للرهبان أبدا باشباع شهواتهم عن طريق الاسراف فى الطعام أو الشراب .

المادة ٤٠ : مقدار الشراب :

ونرى أنه يكفى الراهب يوميا أن يتناول نصف كيل من النبيذ ، باستثناء حالات المرض فانه يمكن زيادة هذه الكمية . فاذا تطلبت حالة الجو أو طبيعة العمل الذى يقوم به الرهبان أو حرارة الصيف أو أية عوامل أخرى زيادة هذه الكمية فان الحرية متروكة لمقدم الدير ليتصرف كما يرى ، مع ملاحظة دائما عدم الاسراف حتى لا يثمل الرهبان .

المادة ٤٨ : العمل اليومى للرهبان :

يشكل الكسل أكبر أعداء الروح ، لذلك يجب أن يشغل الرهبان أنفسهم دائما اما بالعمل اليدوى أو بالقراءة الدينية .. فاذا كانت ظروف المنطقة التى فيها الدير ، أو اذا كانت احتياجات الدير نفسه تتطلب من الرهبان مزيدا من العمل والجهد ـ كما يحدث عادة فى وقت الحصاد ـ فانه يجب على الرهبان ألا يتذمروا ، لأن الرهبان الحقيقيين يتعيشون من عرق جبينهم كما كان يفعل الرسل والآباء والأوائل . وفى أثناء الصوم الكبير يجب أن يخصص الرهبان الوقت من شروق الشمس حتى الساعة الثالثة للقراءة الدينية ، وبعد ذلك ينصرف كل منهم لأداء العمل المنوط به حتى الساعة العاشرة . وعند بداية الصوم الكبير ، يصرف لكل راهب كتاب من مكتبة الدير ، وعليه أن يتم قراءة هذا الكتاب بأكمله خلال أيام الصوم . ويعد الى واحد أو اثنين من كبار الرهبان بالمرور خلال الدير أثناء الساعات المخصصة للقراءة للتأكد من أن أحد الرهبان لا يقرأ وبذلك لا يتسبب فى اضاعة وقته فحسب ، بل يزعج ويضايق زملاءه .

المادة ٥٤ : تحريم استلام رسائل أو شىء آخر من خارج الدير .

لا يجوز لأى راهب أن يتلقى رسالة أو هدية أو أى شىء آخر سواء من أسرته أو أى فرد آخر خارج الدير ، كما أنه يحرم على الرهبان ارسال شىء خارج الدير ، الا باذن من المقدم .

٤ - البابا جريجورى الثالث

يطلب معونة الفرنجة ضد اللمباردیین سنة ٧٣٩

وجدت البابوية نفسها وحيدة دون قوة تسندها عندما هاجمها اللمبارديون فى القرن الثامن . وكانت البابوية عندئذ فى عداء مع الامبراطورية البيزنطية ومن ثم لم تنتظر أن يساعدها امبراطور القسطنطينية ضد اللمبارديين . وهكذا تلفتت البابوية حولها بحثا عن معين فلم تجد سوى الفرنجة . ولكن شارل مارتل ربطته روابط صداقة باللمبارديين ، ولذلك أبى أن يقدم المعونة المطلوبة للبابوية واختار لنفسه عدم التدخل فى شئون ايطاليا .

وفيما يلى نص الرسالة التى بعث بها البابا جريجورى الثالث الى شارل مارتل طالبا مساعدته ضد اللمبارديين : -

* * *

من البابا جريجورى الى ابنه العظيم شارل

رأينا أنه من الضرورى - ونحن فى غمرة الأسى والألم أن نكتب اليك مرة أخرى ، لاعتقادنا فى اخلاصك للقديس بطرس أمير الرسل والحواريين، وأنك بدافع الاخلاص والاجلال له ستستجيب لأوامرنا فى الدفاع عن كنيسة الله وشعبه المختار .

والواقع أننا الآن لا نستطيع أن نتحمل مزيدا من العنف والأذى على أيدى اللمبارديين ، بعد أن سلبوا القديس بطرس كل ممتلكاته ، حتى التى منحتها أنت وآباؤك له . هؤلاء اللمبارديون يكرهوننا ويتمدون علينا لا لشىء سوى أننا نحتمى بك ونطلب معونتك ، ولنفس هذا السبب أيضا تعرضوا لكنيسة

القديس بطرس بالنهب والتخريب (١) . وسيحكى مبعوثنا اليك كثيرا من الهموم والآلام والمتاعب التى تعرض لها من جراء ذلك .

وتأكد ياولدى أنك ستحظى بعطف القديس بطرس — الآن وفى الحياة الأخرى بين يدى الله — اذا أنت قدمت معونة عاجلة لنا ولكنيسته ، وأن جميع الشعوب ستدين لك بالمحبة والتقدير والولاء اعترافا منها بجهودك فى الدفاع عنا وعن القديس بطرس وشعبه المختار ، لأنك بهذا العمل ستضمن ذكرى أبدية فى الدنيا وخلودا دائما فى الآخرة .

---

(١) لاحظ كيف يحاول البابا استثارة مارتل ضد اللمبارديين عن طريق اختلاف اسباب وهمية للايقاع بين الطرفين .

٥ - شارلمان

كما وصفه اينهارت (٧٧٠ - ٨٤٢)

ولد اينهارت حوالى ٧٧٠ وتلقى تعليمه فى مدرسة دير فولدا . وهناك فى الدير أظهر كفاية كبيرة جعلت مقدم الدير يرشحه لتولى احدى الوظائف فى بلاط شارلمان حوالى سنة ٧٩١ . وهناك فى بلاط شارلمان حقق اينهارت لنفسه مكانة كبيرة لأنه لم يكن مجرد رجل نظرى استوعب فى عقله بعض المعلومات التى جمعها من مكتبة الدير ، ولكنه حصل خلال فترة اقامته بالدير على خبرة عملية وهندسية واسعة . وقد كتب عدة كتابات على جانب كبير من القيمة والأهمية ، على رأسها كتابه « حياة شارلمان » الذى ضمنه كثيرا من الحقائق الفريدة ، بحكم اتصاله المباشر بشارلمان من ناحية واقامته على مقربة من القصر من ناحية أخرى . وفيما يلى بعض فقرات من هذا الكتاب :

* * *

يتضمن شارلمان فى حديثه بالفصاحة وسرعة البديهة ، فضلا عن أنه يستطيع أن يعبر عما يريد بمنتهى الوضوح . هذا الى أنه لم يكتف بلغته القومية - وهى لغة الفرنجة - وانما اختار أن يتحمل مشقة تعلم لغات أجنبية ، فأجاد اللغة اللاتينية الى درجة أنه يتحدث بها بنفس الطلاقة التى يتحدث بها لغته القومية . أما اليونانية ، فهو يفهمها أكثر مما يجيد نطقها . وقد بلغ من طلاقة لسانه أنه يبدو فى بعض الأحيان ثرثارا .

وقد أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالفنون الحرة (١) ، وأظهر كثيرا من

---

(١) يقصد بالفنون الحرة النحو والبلاغة ، والنطق - وكانت تسمى المجموعة الثلاثية ، والحساب والهندسة والفلك والموسيقى - وكانت تسمى المجموعة الرباعية . (أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٢٥) .

الاحترام والتقدير لمن يقومون بتدريسها . وكان يتلقى دروس النحو على يد رجل متقدم فى السن اسمه بطرس الشماس البيزى ، فى حين كان يتلقى بقية العلوم على يد ألكوين ، وهو شماس أيضا ينحدر من أصل سكسونى ، وفد من بريطانيا ، ويعتبر أعظم علماء عصره .

واعتاد شارلمان أن يقضى كثيرا من وقته مع ألكوين يدرس على يديه البلاغة والبيان والجدل والمنطق ، وخاصة الفلك . كذلك تعلم شارلمان علم الحساب وأخذ يستعمله فى حساب حركات النجوم . كذلك حاول أن يتعلم الكتابة ولهذا الغرض اعتاد أن يضع تحت وسادته ألواح الكتابة والقراطيس والأقلام ليتدرب على الكتابة فى أوقات فراغه . ولكن يبدو أنه لم يحاول تعلم الكتابة الا فى سن متأخر ، ولذلك لم يحرز تقدما كبيرا فيها .

وكان شارلمان على جانب كبير من التقوى والاخلاص للديانة المسيحية ، التى شب عليها منذ طفولته . ويبدو هذا الشعور فى الكنيسة العظيمة الفائقة الحسن والجمال التى شيدها فى اكس لاشابل ، والتى زينها بالذهب والفضة وأكثر فيها من الشمعدانات والبوابات الكبيرة والصغيرة المصبوبة من النحاس الخالص . أما الرخام اللازم لتلك الكنيسة فقد جلبه من روما ورافنا ، لأنه كان من المتعذر عليه أن يحضر أعمدة الرخام المطلوبة لها من أى مكان آخر . واعتاد شارلمان طيلة حياته أن يواظب على أداء الصلاة بتلك الكنيسة فى الصباح والمساء والليل ، فضلا عن أوقات القداس . وقد عنى شارلمان عناية بالغة بأن تتم الصلوات فى الكنيسة على خير وجه وصورة ، وكان دائما يحذر حراس الكنيسة وخدمها من السماح ببقاء أية قاذورات داخل المبنى . وزود شارلمان تلك الكنيسة بمقدار ضخم من الأوانى الذهبية والفضية ، ووضع فيها عددا كبيرا من ملابس رجال الدين الفاخرة ، بحيث أن جميع رجال الدين حتى أقلهم درجة وهم حراس الأبواب - كانوا يرتدون الملابس الفاخرة التى أعدها لهم شارلمان فى أوقات الصلاة . هذا الى أن شارلمان عدل طريقة التلاوة والترتيل

بعد أن تعمق في دراسة هاتين الناحيتين ، وان كان هو نفسه لا يرتل بمفرده جهارا ، وانما يكون ترتيله بصوت منخفض وسط حشد المصلين .

وأظهر شارلمان حرصا شديدا على مســاعدة الفقراء عن طريق المعونات الاختيارية التى يسميها البيزنطيون « صدقات » . وبلغ من رغبة شارلمان فى مساعدة الفقراء أنه كان لايقدم معونته لهم داخل بلاده ومملكته فقط ، وانما اعتاد أن يرسل الأموال عبر البحر الى الشام ومصر وشمال أفريقية وبيت المقدس واسكندرية وقرطاجة لمساعدة فقراء المسيحيين الذين سمع بسوء أحوالهم فى تلك البلاد . ولهذا السبب بالذات حرص شارلمان على أن ينمى علاقات الصداقة بينه وبين ملوك تلك البلاد فيما وراء البحر حتى يضمن حسن معاملة أولئك الملوك لرعاياهم من المسيحيين .

واذا كان شارلمان يحب جميع الأماكن المقدسة ويحترمها ، فان محبته لمقام القديس بطرس فى روما فاقت الوصف ، الأمر الذى جعله يصب الذهب والفضة والأحجار الكريمة صبا فى خزائن القديس بطرس بروما . واعتاد شـــارلمان أن يرسل هدايا لا تعد ولا تحصى الى البابوية ، ودأب طوال حكمه على النضال بكل قواه لتحقيق رغبة محببة الى قلبه هى اعادة مجد روما ونفوذها القديم اليها ورعاية كنيسة القديس بطرس لاعن طريق حمايتها فحسب ، بل أيضا عن طريق تزيينها واثرائها لتصبح بفضل أمواله التى أنفقها عليها فى مستوى أسمى من غيرها من كافة الكنائس . ولكن على الرغم من مدى اجلاله وتقديره لروما فانه طوال حكمه البالغ سبعا وأربعين سنة لم يتردد عليها سوى أربع مرات ليجدد أيمان الولاء ويؤدى الصلوات والدعوات .

على أن هذه لم تكن الأهداف الوحيدة من وراء آخر زياراته لروما . ذلك أن أهل روما كانوا قد ثاروا على البابا ليو وسملوا عينيه وقطعوا لسانه ، فاضطر الى الإستنجاد بالملك (شارلمان) طالبا حمايته ، وكان أن قصد شارلمان روما ليعيد

هيبة الكنيسة بعد أن جرحت جرحا بليغا ، ولتحقيق ذلك قضى شارلمان الشتاء بأكمله فى روما ، وحضر الى المناسبة التى حصل شارلمان فيها على لقب امبراطور وأوغسطس ، وهو اللقب الذى كرهه كرها شديدا حتى أنه أكد عدم دخوله كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم لو كان يعلم نية البابا فى اضفاء هذا اللقب عليه • ولكنه عندما حصل على هذا اللقب من البابوية تحمل فى هدوء العداء والحقد والسخط وغيرها من المشاعر التى أضمرها له الأباطرة الرومان (١) • ولكن شارلمان استطاع بشهامته وسمو نفسه أن يتغلب على حقدهم وشعورهم الخبيث ، فأخذ يرسل اليهم السفارات والبعثات الواحدة تلو الأخرى ، ويدعوهم باخوته •

وبعد أن حصل شارلمان على اللقب الامبراطورى ، لاحظ وجود كثير من الثغرات والعيوب فى النظام القضائى لرعاياه ، لأن الفرنجة كانوا يخضعون لنظامين قضائيين مختلفين عن بعضهما فى بعض النواحى اختلافا كبيرا • لذلك عزم شارلمان على استكمال الجوانب الناقصة فى قوانين الفرنجة ، والتوفيق بينها بازالة المتناقضات فيها ، وتعديل أى خطأ فيها أو فى تفسيرها • على أنه لم يستطع أن يكمل مشروعه ، فاكتفى باصدار بعض المراسيم التى لم تتم • هذا الى أنه أصدر أوامره بجمع جميع القوانين الخاصة بالشعوب التابعة والتى خضعت لحكمه ، وذلك لتدوينها •

كذلك قام شارلمان بتدوين الأغانى القديمة الخاصة بشعوب البرابرة ، التى تغنوا فيها بأعمال ملوكهم وحروبهم ، وحفظها للذكرى والتاريخ • هذا فضلا عن أنه بدأ وضع قواعد النحو الخاصة بلغة الفرنجة •

---

(١) المقصود بالأباطرة الرومان هنا أباطرة الدولة البيزنطية الذين عز عليهم احياء الامبراطورية فى الغرب على يد شارلمان ، مما أوجد امبراطورية أخرى جديدة منافسة للامبراطورية الشرقية أو البيزنطية •

٦ — مرسوم البابا نيقولا الثانى

لتحديد طريقة انتخـاب البابوات

دأب هنرى الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة على التدخل فى شئون البابوية وعزل البابوات أو تعيينهم حسبما يحلو له . ولكن قيام حركة الاصلاح الكلونية أدى الى ازدياد الرغبة فى صيانة مركز البابوية ووضع الضمانات الكفيلة باستقلالها وسلامتها . وكان أن عقد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ — ١٠٦١) مجمعا فى روما سنة ١٠٥٩ أصدر المرسوم التالى لتحديد طريقـة اختيار البابا فى حالة شغور الكرسى البابوى :

* * *

بسم الاله الرب ، مخلصنا يسوع المسيح ، عقد هذا الاجتماع بقصر اللاتزن المعروف باسم كنيسة قسطنطين فى روما فى شهر ابريل سنة ١٠٥٩ ، برآسة البابا الرسولى المبارك نيقولا وبحضور جمع من رؤساء الأساقفة الأجـلاء والأساقفة ومقدمى الأديرة والمشيخين والشمامسة ...

تعلمون أيها الأخوة الأعزاء — وهذا أمر لا يخفى حتى على أصغركم درجة — كيف أنه حدث بعد وفاة سلفنا الطيب الذكر البابا ستفن (العاشر) أن تعرض هذا الكرسى الرسولى — الذى أشغله اليـوم بارادة الله — لكثير من المتاعب والآثام ، وكيف أنه قاسى من هجمات أرباب المال من السيمونيين ، حتى أخذ هذا العمود الكبير الذى يمثل ارادة الله يترنح ليقع ، وأوشكت سـفينة القديس بطرس أن تغرق بفعل الأمواج المتلاطمة . ولهذا اتخذنا القرارات الآتية — باذن الله — لمنع أى خلل فى المستقبل والحيلولة دون انتشـار تلك المساوىء مما يهدد مكانة الكنيسة وسلطانها :

أولا : اذا توفى البابا يجتمع كرادلة روما وضواحيها السبع لانتخاب خليفة للبابا المتوفى ، وبعد ذلك يجتمعون ببقية الكرادلة والأساقفة لاقرار الانتخاب ثم يعرض الأمر بعد ذلك على بقية القساوسة وعامة الناس للتعبير عن رأيهم .

ثانيا : وحتى لا نسمح بانتشار الفساد ، رأينا أن كبار الكرادلة المعروفين بالتقوى والورع هم الذين يقومون وحدهم باختيار البابا الجديد ، فى حين يقر بقية رجال الدين ذلك الاختيار . ولا شك فى أن هذا النظام يمثـل الوضع القانونى الصحيح الذى نادى به واتبعه آباء الكنيسة السابقون ، وفى ذلك يقول القديس ليو (البابا ليـو الأول ٤٤٠ - ٤٦١) « لا يمكن أن نسمح بترسيم أسقف ما لم ينتخبه القساوسة ويقر انتخابهم عامة الناس من رعايا الأسقفية ثم يرسمه بقية الأساقفة فى الاقليم بموافقة رئيس الأساقفة » . ولكن لما كان الكرسى البابوى فى روما أسمى من جميع الكراسى الأسـقفية الأخرى فى أنحاء الأرض ، وبالتالى لا يوجد رئيس فوق البابا ، فاننا جعلنا لكبار الكرادلة فى روما سلطة رئيس الأساقفة ، بمعنى أنهم هم الذين يقومون بانتخاب البابا ويرسمونه ويتوجونه .

ثالثا : يختار البابا الجديد من بين رجال كنيسة روما ما دام يوجد فيهـا الشخص الصالح لتولى ذلك المنصب ، فاذا لم يوجد جاز اختيار البابا من كنيسة أخرى غير كنيسة روما .

رابعا : يراعى عند عملية اختيار بابا جديد احترام الحقوق التى سبق أن منحناها لولدنا المحبوب الامبراطور هنرى وخلفائه .

خامسا : اذا حدث ما عكر صفو الجو فى مدينة روما بحيث انتشر الفساد وتعذر اجراء انتخاب حر لاختيار بابا جديد ، فانه يجوز للكرادلة ورجـال الكنيسة وبعض العلمانيين الانتقال الى أى مكان آخر يرونه مناسبا لاجـراء عملية الانتخاب .

سادسا : فاذا حدثت فتنة أو اضطرابات بعد الانتخابات بحيث تعذر على البابا الجديد المنتخب أن يتوج على كرسي البابوية ، كما هو متبع ، فان البابا المنتخب له الحق - على الرغم من ذلك - في مباشرة جميع سلطاته بوصفه رئيسا للكنيسة الرومانية ، كما يكون له الحق في التصرف في جميع دخلها ، مثلما فعل البابا جريجوري قبل ترسيمه .

ولكن اذا حدث واختير أحد الأفراد أو رسم أو توج نتيجة لشغب أو ثورة، وبغير الطريق الشرعي السابق ذكره ، فانه يجب طرده من كنيسة الله ، هو وأعوانه ومستشاريه ويظل ملعونا لعنة دائمة بوصفه عدو الله وكنيسته . ويتعرض لنفس العقوبة كل من يعترف به بابا أو ينحاز اليه أو يستمع اليه أو يساعده بأية طريقة من الطرق .

وفي الوقت نفسه تحل اللعنة الأبدية ويعاقب بالحرمان من الكنيسة كل من يعارض مرسومنا هذا أو يعرقل تنفيذه أو يسبب ضررا للكنيسة الرومانية . أن مثل هذا الشخص يدخل في عداد الأشرار الذين لن تقوم لهم قائمة يوم الحساب ، وينبغي أن يحس دائما بثقل غضب الاله الأب والابن والروح القدس ، وأن يقاسي في هذه الحياة الدنيا - والحياة الأخرى أيضا - من غضب القديسين بطرس وبولس لأنه آذى كنيستهما . ولينطبق عليه ما جاء في الكتاب المقدس « لتصر دارهم خرابا وفي خيامهم لا يكن ساكن (١) » .

وأشهد أنني - أنا نيقولا أسقف الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة - وقعت هذا المرسوم الذي أصدرته بنفسي ، كما سبق ذكره ...

---

(١) سفر المزامير (٦٩ : ٢٥) .

٧ - قرار مجمع روما سنة ١٠٧٤

لتحريم السيمونية وزواج رجال الدين

عقد البابا جريجورى السابع مجمعا دينيا سنة ١٠٧٤ حرم شراء وبيع الوظائف الكنسية وأنزل اللعنة بكل من يتاجر فى وظيفة من وظائف الكنيسة كما حرم على رجال الكنيسة الزواج ومنع الناس من الاستماع الى رجال الدين المتزوجين . وفيما يلى نص هذا القرار :

* * *

يعتبر مفصولا من عمله ولا يجوز له أن يجرى طقوسا دينية كل من توصل الى أية وظيفة أو منصب فى الكنيسة عن طريق السيمونية . وكذلك كل من حصل على أسقفية عن طريق دفع المال يحرم من رآسة تلك الكنيسة . ومن الآن فصاعدا يحرم بيع وشراء جميع الوظائف والمناصب الكنسية .

أما رجال الكنيسة المتزوجون ، فيحرم عليهم أن يلقوا قداسا أو موعظة أو ينهضوا بأى عمل دينى . فاذا عصوا هذا الأمر فانه يحرم على الناس الاستماع اليهم ، حتى يشعروا بأنهم باؤوا بغضب من الله وسخط من الناس لأنهم لم يحترموا كرامة وظائفهم .

٨ - قرار الامبراطور هنرى الرابع
بعزل البابا جريجورى السابع
٢٤ يناير ١٠٧٦

من هنرى - الذى لم يصبح ملكا عن طريق الاغتصاب وانما عن طريق رسامة الهية مقدسة - الى هلدبراند الذى ليس بابا وانما دعى من أدعياء الرهبان •

هذه هى التحية التى تستحقها لأنك لم تتول منصبا فى الكنيسة دون أن تجعل منه مصدرا للاضطراب ، ولعنة على المسيحيين ، بدلا من أن يكون بركة وسندا لهم •

وسوف نكتفى بالحالات الواضحة - وهى قليل من كثير - فنقول انك لم تجرؤ على المساس بمسيحى الرب ورؤساء الأساقفة والأساقفة والقساوسة فحسب ، ولكنك احتقرتهم وسببتهم كما لو كانوا أتباعا جهلاء غير جديرين بمعرفة ما يفعله سيدهم • وقد فعلت هذا لتكتسب محبة الدهماء من الناس ، فأعلنت أن الأساقفة لا يعرفون شيئا وأنك تعرف كل شيء ، ولكن اذا كنت قد أوتيت فعلا ذلك القدر من الذكاء فانك تعمل على استغلاله فى الهدم وليس فى البناء • ولهذا نعتقد أن القديس جريجورى - الذى انتحلت اسمه - انما كان يعنيك عندما قال ان « قلب الأسقف يتضخم ويكبر بكثرة الرعايا ، فيظن نفسه أقوى من جميع الناس » • وقد تحملنا كل هذا منك بسبب اجلالنا للوظيفة البابوية ولكنك أخطأت فاعتقدت أن تواضعنا خوف منك ، وتجاسرت على مهاجمة نفوذنا الملكى والامبراطورى الذى تلقيناه من الله مباشرة • بل لقد هددت بحرماننا من نفوذنا الامبراطورى كما لو كنا قد تسلمنا ذلك السلطان منك وليس من الله ، وكما لو كانت الامبراطورية والمملكة تحت تصرفك وملك ارادتك لا تصرف ارادة الله • ان سيدنا يسوع المسيح دعانا لتولى حكم الامبراطورية ولكنه لم يدعك مطلقا لحكم الكنيسة •

أما الطريق الذى سلكته أنت لتحقيق مكاسبك ، الكنسية فهو كما يلى : كانت عن طريق الخداع حصلت على المال وعن طريق المـــــال حصلت على

الأتباع ، وعن طريق الأتباع حققت قوة السيف ، وعن طريق قوة السيف حققت وصولك وبقاءك فى الكرسى البابوى ، وهو المفروض فيه أن يكون كرسى السلام ولكنك من كرسى السلام طردت السلام !!

ذلك أنك حرضت الرعايا على التمرد ضد أساقفتهم وهم حكامهم الشرعيون ، وذلك بعد أن علمتهم كيف يحتقرون أساقفتهم . وأعطيت العلمانيين سلطانا فوق قساوستهم مما جعل العلمانيين يسيئون الى القساوسة ويعزلونهم بينما عين الأساقفة أولئك القساوسة فى مناصبهم ليرعوا الناس ويعلمونهم . ثم انك هاجمتنى ، وأنا الرجل المتواضع الذى باركه الله ليحكم ، ووفقا لتعاليم الآباء لا يمتلك أحد سوى الله سلطة محاكمتى ، ولا يمكن أن أعزل من منصبى الا لجريمة الخيانة والكفر . ذلك أن الآباء المقدسين لم يجرؤوا على اصدار حكم العزل على الامبراطور جوليان المرتد وتركوه ليحاسبه الله . والقديس بطرس نفسه قال « خافوا الله ، اكرموا الملك » (١) .

ولكنك يا من لا تخشى الرب لم تكرمنى ، أنا الذى عينه الرب . والقديس بولس الذى أنزل اللعنة حتى بملاك من السماء ما دام يأتى بتعاليم غير التعاليم الصحيحة ، لم يستثن مثلك ليسمح لك بتلقين تعاليم خاطئة . ذلك أن القديس بولس يقول « ولكن ان بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما (٢) » .

اترك اذا ذلك الكرسى الرسولى الذى توصلت اليه عن طريق العنف لأنك ملعون من القديس بولس بسبب مبادئك الكاذبة ونحن وأساقفتنا ندينك بسبب حكمك الملىء بالشرور . وليحل محلك فى كرسى القديس بطرس رجل آخر ، رجل لا يستغل الدين ستارا للعنف وانما يقوم بتلقين تعاليم بطرس ، أمير الرسل . اننى — أنا هنرى الملك بفضل الله — ومعى جميع الأساقفة ، أقولها لك « انزل ، اترك منصبك ، ملعونا الى الأبد » . . .

---

(١) رسالة بطرس الأولى (٢ ، ١٧) .
(٢) رسالة بولس الى أهل غلاطية (١ ، ٨) .

٩ — الارادة البابوية (حوالى سنة ١٠٩٠ م)

كان المظنون حتى وقت قريب أن البابا جريجورى السابع هو الذى كتب أو أملى ما يعرف باسم الأوامر البابوية أو الارادة البابوية وهى مجموعة آراء ونظريات قصد بها اظهار سمو البابوية وعظم مكانتها وسلطانها • ولكن ثبت أخيرا أن ما تحتويه هذه الوثيقة من مواد لم يكتبها البابا جريجورى السابع بنفسه وانما نسبت اليه • ومهما يكن من أمر فهى تعبر تعبيرا صادقا عن آراء ذلك البابا ، بل انها مستمدة من مبادئه وأقواله • وفيما يلى بعض فقرات مختارة من تلك الوثيقة المعروفة باسم الارادة البابوية :

* * *

١ — الرب وحده هو الذى أسس الكنيسة الرومانية •

٢ — سلطة البابا وحده هى التى تسمى بحق « سلطة عالمية » •

٣ — البابا وحده له الحق فى تعيين الأساقفة أو عزلهم •

٤ — يتولى مندوب البابا — حتى ولو كانت مرتبته الكنسية — صغيرة — رآسة الأساقفة فى أى مجمع ، وله سلطة اصدار الأحكام بعزلهم •

٥ — للبابا الحق فى اصدار أحكام غيابية بعزل الأساقفة •

٦ — لا ينبغى لشخص أن يعاشر أو يجاور فى سكن واحد فردا أصدر البابا ضده قرار الحرمان •

٧ — للبابا وحده الحق فى اصدار قوانين جديدة وفقا لما تمليه الظروف وتطلبه الضرورة ، وله كذلك الحق فى انشاء أسقفيات جديدة ، وفى انشاء دير ، واصدار قوانين كنسية ، وله الحق فى تفتيت أسقفية كبيرة وتقسيمها الى أكثر من واحدة ، وبالعكس له الحق فى توحيد عدة أسقفيات صغيرة فقيرة ليجعل منها أسقفية غنية كبيرة •

٨ — للبابا وحده الحق فى استعمال الشعار الامبراطورى •

٩ — جميع الأمراء والحكام العلمانيين عليهم أن يقبلوا قدم البابا وحده •

١٠ — لا يذكر فى الكنائس الا اسم البابا وحده •

١١ — أن لقب البابوية خاص بالبابا وحده •

١٢ - البابا له السلطة فى عزل الأباطرة .

١٣ - للبابا الحق - فى حالة الضرورة - فى نقل الأساقفة من كرسى أسقفى الى آخر .

١٤ - للبابا الحق فى ترسيم أى فرد فى أى قسم من أقسام الكنيسة ليجعل منه أسقفا .

١٥ - أى شخص يرسمه البابا أسقفا له الحق فى السيطرة على كنيسة أخرى دون أن يباشر عمله كقسيس فيها ، ولا يجوز لهذا الفرد أن يرقية أسقف آخر الى درجة أعلى .

١٦ - لا يجوز الدعوة لعقد مجمع دينى عام دون اذن من البابا .

١٧ - لا تصبح قرارات أى مجمع دينى قانونية دون تصديق البابا عليها .

١٨ - القرارات التى يصدرها البابا لا يمكن لأى فرد الغاءها ، فى حين يستطيع البابا الغاء القرارات التى يصدرها أى فرد آخر .

١٩ - لا يستطيع أى انسان أن يحاكم البابا .

٢٠ - لا يجوز الاعتداء على أى فرد يحتمى بالكرسى البابوى .

٢١ - جميع القضايا الهامة الخاصة بأية كنيسة تحول للكنيسة الرومانية ليفصل فيها البابا .

٢٢ - الكنيسة الرومانية لم تخطىء مطلقا ولن تخطىء أبدا وذلك وفقا لما تثبته الأسفار المقدسة .

٢٣ - بعد أن يرسم البابا ترسيما قانونيا تصبح له صفة مقدسة بوصفه خليفة القديس بطرس فى كنيسته .

٢٤ - للبابا أن يأذن لرعايا بأن يوجهوا الاتهامات لحكامهم .

٢٥ - للبابا الحق فى عزل الأساقفة واعادتهم الى مناصبهم دون دعوة مجمع دينى لاقرار ذلك .

٢٦ - لا يمكن اعتبار فرد ما كاثوليكيا ان لم يتفق فى آرائه ومبادئه مع الكنيسة الرومانية .

٢٧ - للبابا السلطة فى أن يجعل رعايا الحكام الفاسدين يتحللون من ولائهم لأولئك الحكام .

١٠ ـ البابا أنوسنت الثالث يأمر بعقاب الهراطقة

انتشرت الحركات الهرطقية فى جهات عديدة من أوربا وبخاصة فى جنوب فرنسا . وفيما يلى رسالة أرسلها البابا أنوسنت الثالث سنة ١١٩٨ الى أحد رؤساء أساقفة جاسكونى يأمره بمقاومة الهراطقة ومحاربتهم حرصا على وحدة الكنيسة الغربية :

* * *

تتعرض سفينة القديس بطرس الصغيرة لكثير من العواصف التى تتقاذفها فى عرض البحر . ولكن ما يثير حزننا وأسفنا حقا هو أن يظهر اليوم بين صفوف الكنيسة أفراد ينادون بآراء شيطانية هدامة منافية لتعاليم الكنيسة والدين ، ويحاولون بهذه الآراء تسميم أرواح البسطاء من الناس وافساد نفوسهم .

ذلك أن أولئك الأفراد يحولون بما ينشرونه من بدع وخرافات دون فهم معانى الأسفار المقدسة على حقيقتها فضلا عن أنهم بعملهم هذا يحطمون وحدة الكنيسة الكاثوليكية .

ولما كان قد بلغنا منك ومن كثيرين أن هذه الآراء الهدامة تزداد نموا فى جاسكونى وفى الأقاليم المجاورة ، فاننا نطلب منك ومن الأساقفة التابعين لك مقاومتها بكل ما أوتيتم من قوة ، حيث أنه يخشى من تسميم آراء وعقول المخلصين نتيجة لانتشارها .

وعلى هذا الأساس ، فاننا نأمرك بمقتضى رسالتنا الرسولية هذه أن تعمل على تدمير هذه الحركات الهرطقية بكل ما تستطيع من وسائل وأن تطرد من دائرة نفوذك الدينى كل من يعتنقها . ولك أن تستغل سلطاتك الكنسية بكل عنف وصرامة ضدهم وضد كل من تشكك فى انتمائه اليهم . ولكى يجدوا ملاذا من أحكامك ، بل انه ـ اذا استدعى الأمر ـ لك أن تطلب من الأمراء وعامة الناس اخضاعهم بالسيف .

١٩ - بعثة القديس أوغسطين التبشيرية

الى انجلترا

عرف البابا جريجورى الأول أو العظيم بنشاطه التبشيرى الواسع لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية • وكانت البعثة التى أرسلها البابا برآسة القديس أوغسطين الى انجلترا سنة ٥٩٦ تقريبا من أهم الأحداث فى تاريخ انجلترا وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، لأن هذه البعثة نجحت فى تحويل انجلترا الى داخل حظيرة الكنيسة الرومانية •

وقد كتب لنا هذا الوصف لبعثة القديس أوغسطين الى انجلترا القديس بدى (٦٧٣ ــ ٧٣٥) أحد المؤرخين الديريين وكان مقدما على دير جارو فى الشطر الأخير من حياته •

* * *

قرر البابا جريجورى أن يرسل الفقير الى الله أوغسطين ومعه مجموعة من الرهبان الورعين الى انجلترا للتبشير بكلمة الله •

وهكذا وصل أوغسطين الى بريطانيا ومعه مجموعة من خدام الله • وفى ذلك الوقت كان اثلبرت ملكا على كنت • وهو ملك قوى استطاع أن يمد حدود مملكته حتى نهر همبر ، وهو النهر الذى يفصل بين الانجليز فى الشمال والجنوب • وعلى الشاطىء الشرقى لمملكة كنت توجد جزيرة صغيرة تسع لنحو ستمائة أسرة ، وتعرف باسم جزيرة ثانت • وكان أن أرسى هناك أوغسطين ومعه أتباعه البالغ عددهم أربعين ، فضلا عن بعض الفرنجة الذين أشار البابا باصطحابهم ليقوموا بدور المترجمين •

وما كاد أوغسطين ورفاقه يصلون الى الشاطىء حتى أرسلوا رسالة الى اثلبرت يذكرون فيها أنهم قادمون من روما يحملون رسالة طيبة سامية تضمن لمن

يطيعهم سعادة أبدية في السماء ومملكة لا حدود لها في السماء الى جوار الله الحي القيوم . وكان أن رد عليهم الملك اثلبرت يأمرهم بالبقاء حيث هم ، على أن يزودوا بالطعام حتى يقرر أمرا بشأنهم .

ذلك أن الملك اثلبرت كانت له دراية سابقة بالمسيحية وكانت زوجته برتا - وهي من البيت المالك في دولة الفرنجة - مسيحية . وقد وافقت أسرتها على زواجها من اثلبرت بشرط أن تبقى على ولائها لديانتها ، ولضمان ذلك أرسلوا صحبتها أسقفا اسمه ليودهارد .

ومهما يكن من أمر ، فقد حضر الملك اثلبرت الى جزيرة ثانت بعد أيام ، ليستدعي أوغسطين ورفاقه لمقابلته . وكان أن أمرهم الملك بالجلوس بين يديه ، حيث أخذ يستمع - ومعه رفاقه - الى مواعظهم وأحاديثهم التبشيرية . وعند فراغهم من حديثهم ، قال لهم الملك :

« ان كلامك جميل حقا ، وكذلك وعـــودكم . ولكن لما كانت آراؤكم جديدة لم يسبق تجربتها ، فانني لا أستطيع قبولها وترك المبادىء التي أعتنقها - أنا وجميع أبناء البلاد - أمدا طويلا . ولكن لما كنتم أغرابا ، ووفدتم علينا من بلاد بعيدة ، ولما كنت أرى أنكم تودون مشاركتنا تلك الحياة التي تعتقدون في صلاحها وصدقها ، فانني لن أعارضكم أو أقف في سبيلكم . بل على العكس سأشملكم بفيض كرمي وأمدكم بما يلزمكم من ضروريات الحياة . ولكم الحرية أيضا في مباشرة الوعظ والتبشير وتحويل كل من تستطيعون تحويله الى دينكم » .

ثم أنعم عليهم الملك اثلبرت بمأوى يكون مقرا لهم في المدينة الرئيسية داخل مملكه ، وهي كانتربوري .

١٢ ـ موقعة مانزكرت (٢٦ أوغسطس ١٠٧١)

كان رومانوس الرابع ـ امبراطور الدولة البيزنطية (١٠٦٧ - ١٠٧١) رجلا مخلصا نشيطا شجاعا ، بذل جهودا كبيرة فى اصلاح الأوضاع الداخلية فى دولته وفى تنظيم الجيش البيزنطى وفى الدفاع عن أراضى الامبراطورية فى آسيا الصغرى ، وهى الأراضى التى تعرضت فى القـــرن الحادى عشر لهجمات السلاجقة • ولكن شاءت الظروف أن يصاب الامبراطور رومانوس بكارثة حربية عند اصطدامه بالسلاجقة تحت قيادة ألب أرسلان فى موقعة مانزكرت أو ملازكرد فى شرق آسيا الصغرى ـ شمالى بحيرة فان ـ سنة ١٠٧١ • وفى تلك الموقعة تحطم جيش الامبراطور ، ووقع رومانوس الرابع نفسه أسيرا فى قبضة السلاجقة الذين لم يطلقوا سراحه الا بعد شروط قاسية •

وفى الوثيقة التالية يصف لنا ميخائيل بسلوس،، وهو كاتب بيزنطى معاصر شهير ، تولى مناصب كبيرة فى بلاط القسطنطينية ، الكارثة التى حلت بالامبراطور وجيشه فى مانزكرت :

خرج الامبراطور رومانوس الرابع للقيام بحملته الثالثة والأخيرة ضـــد البرابرة (السلاجقة) الذين اشتد عداؤهم عندئذ للامبراطورية ، فغـــادر العاصمة تصحبه فرق مساعدة كثيرة من الحلفاء وغيرهم ، أكثر مما كان فى المرات السابقة •

وكان أن أسرع الامبراطور الى قيصرية بطريقته المعهودة التى تنطوى على عدم الاصغاء الى النصيحة والاستخفاف بأمر الناصحين وعند وصوله الى قيصرية أحجم عن التقدم وأخذ يتلمس المعاذير للعودة الى القسطنطينية • وكان المفروض عندما خشى عاقبة التراجع أن يحاول الوصول الى اتفاق مع السلاجقة ليضع حدا لاغاراتهم السنوية على أراضى الامبراطورية • ولكنه بدلا من ذلك انساق وراء الغرور وتقدم لمهاجمة العدو دون أن يعمل حسابا لحماية مؤخرة جيشه •

ولما رأى الأعداء اندفاعه ، رسموا خطة لخديعته والايقاع به في شرك • وكان أن تقدم الأعداء تجاهه ، ثم تظاهروا بالهزيمة والتراجع ، وأجروا هـذه المناورة عدة مرات تمكنوا خلالها من أسر بعض قادة جيشنا •

وفي تلك الأثناء أخذ القلق ينتابني ، على الرغم من أن سلطان السلاجقة نفسه لم يكن على رأس جيش الأعداء ، وانما أحرز معظم تلك الانتصارات قادة جيشه • أما الامبراطور رومانوس الرابع فقد رفض أن يستجيب للنصح • وكان في قرارة نفسه لا يجنح للسلم ، وانما ظن أنه يستطيع أن يقضي على جيش العدو في سهولة ودون الالتحام منه في معركة • وشاء سوء حظه وعدم درايته بفن الحرب أن يوزع قوته ، فلم يحمل العبء سوى أقل من نصف القوة في حين أحاطت بعض الفرق بشخصه أو تبعثرت في الأماكن القريبة •

وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أمتدح مسلك رومانوس الرابـع في الأدوار التالية ، الا أنه لا يمكنني أن أذمه أو ألومه • فالحق يقال أنه تحمل بنفسه مرارة الصدمة وخطورتها • ويفسر سلوك رومانوس الرابع تفسيرين ، وان كانت وجهة نظري تشير الى رأي وسط بين هذين الرأيين • فاذا فسرنا سلوك رومانوس الرابع في ضوء أنه بطل يواجه الأخطار في شجاعة ويقاتل للتغلب عليها ، فانه يجب علينا امتداحه في هذه الحالة • أما اذا تذكرنا أن قواعد الحرب تحتم على القائد ألا يلقي بنفسه في الصفوف الأمامية وأن يظل بعيدا عن خط المعركة يوجه جنوده ويلاحظ سير المعركة ، فانه يجب في هذه الحالة أن نلوم رومانوس الرابع لأنه عرض نفسه للخطر دون ادراك لما يترتب على ذلك • أما أنا فأميل شخصيا الى امتداح سلوك رومانوس أكثر من لومه •

ومهما يكن من أمر ، فان رومانوس الرابع ارتدى عدة الحرب كاملة مثلما يفعل أي جندي عادي ، واستل سيفه لمنازلة الأعداء • وقد بلغني من أكثر من مصدر أنه استطاع أن يقتل كثيرا من الأعداء كما حمل كثيرين على الفرار •

ولكن حدث بعد ذلك أن أدرك أعداؤه حقيقة شخصيته ، فأحاطوا به من جميع الجهات وكان ذلك مما أدى الى جرحه وسقوطه عن فرسه . وكان أن قبضوا عليه وسيق امبراطور الرومان أسيرا ، فى حين تبعثر جيشه . ولم يستطع الفرار من جيش الامبراطور سوى النذر اليسير ، فى حين انتهى أمر غالبية الجيش الى الأسر أو القتل . وبعد المعركة بأيام قليلة وصل أحد أولئك الذين استطاعوا الفرار يحمل الى العاصمة أنباء تلك الكارثة ، ثم تبعه ثان وثالث . وعندئذ تأكد الخبر . وقد ذكر بعضهم أن الامبراطور رومانوس قتل فى حين قال البعض الآخر أنه أسير وأنهم رأوه بأعينهم يقاد مكبلا بالأغلال الى معسكر العدو . وبناء على هذه الأخبار عقد مجلس فى القسطنطينية وبحث الامبراطورة الخطوة التالية الواجب اتخاذها ، فاستقر رأى المجلس على أنه بصرف النظر عن كون الامبراطور قتيلا أو أسيرا ، فان الامبراطورة اندوكيا عليها أن تنهض — هى وابنها — بشئون الحكم فى الامبراطورية .

أما قائد جيش السلاجقة ، فبدلا من أن يركن الى الغرور ويبالغ فى الطرب والسرور لوقوع الامبراطور الرومانى أسيرا فى قبضته غلب عليه التواضع واحتفل بانتصاره احتفالا يفوق كل ما كان متوقعا من ناحية الاعتدال . ولم يلبث قائد الأعداء أن واسى الامبراطور الأسير ، ودعاه الى مشاركته الطعام ، وعامله كضيف جدير بالتكريم ، وخصص له هيئة تتولى حراسته ، وفك أغلال بعض رفاقه ممن عينهم بالذات . وأخيرا فان قائد السلاجقة حرر رومانوس نفسه ، وبعد أن عقد معه معاهدة صداقة وأخذ منه أيمانا بالولاء له ، أطلق سراحه وسمح له بالعودة الى بلاده محاطا بكل ما يطمع فيه أى انسان من رعاية وحراسة .

١٣ - العهد الأعظم

العهد الأعظم هو العهد الذى أصدره الملك حنا سنة ١٢١٥ لمنح الشعب الانجليزى مزيدا من الحقوق والحريات • وقد بالغ كثيرون فى أهمية العهد الأعظم ، حتى لقد قال ستوبز ان التطور الدستورى لانجلترا متوقف تماما على ذلك العهد • ولكن الآراء الحديثة تتجه الى عدم اعتبار العهد الأعظم وثيقة جديدة فى موضوعها ، واذا كان هناك فارق بينه وبين العهود الأخرى التى منحها الملوك النورمان لشعب انجلترا فان هذا الفارق ليس فى النوع وانما فى مقدار الحريات التى نص عليها • وفيما يلى أهم فقرات العهد الأعظم : -

* * *

من حنا الذى هو بفضل الله ملك انجلترا ولورد ايرلندا ودوق نورمنديا واكوتين وكونت أنجو •• الى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة والأمراء والبارونات والنواب والخبراء وغيرهم من رعاياه جميعا •• نحييكم ونصدر مرسومنا الآتى بارادة الله والسلامة وأرواحنا وأرواح أسلافنا وحلفائنا ومن أجل الله وتشريف الكنيسة المقدسة وتحسين أحوال مملكتنا ، وبعد استشارة الآباء الأماجد ستفن رئيس أساقفة كانتربورى •• وهنرى رئيس أساقفة دبلن وغيرهم من رعايانا المخلصين : -

١ - أولا - وقبل أى شىء آخر - نؤكد فى عهدنا هذا حرية الكنيسة الانجليزية وعدم المساس بحقوقها أو التدخل فى شئونها •

٢ - اذا توفى ايرل أو بارون أو أى فرد آخر وكان فى حوزته اقطاع أخذه منا مقابل خدمة عسكرية ، وكان له عند وفاته وريث بالغ ، فان من حق هذا الوريث أن يرثه فى اقطاعه مقابل دفع ضريبة الحلوان المستحقة عليه •

٣ ـ ولكن اذا كان الوريث السابق دون سن البلوغ وتحت الوصاية فانه يتسلم تركته ـ عند بلوغه ـ دون دفع ضريبة ما .

٤ ـ فى الحالة السابقة يحرص الوصى على أراضى وممتلكات وحقوق الوريث القاصر دون المساس بها ، ولا يأخذ عن مهمته أجرا سوى بالقدر المعقول ..

٥ ـ يحافظ الوصى على ما فوق أرض الوريث القاصر من بيوت وبساتين وطواحين .. وغيرها ويسلم للوريث عند بلوغه كل ما له من متعلقات .

٦ ـ لوريث الاقطاع أن يتزوج دون معارضة ، وكل ما هنالك هو أنه قبل عقد القران يجب عليه أن يعلن زواجه لأقاربه الذين تربطهم به رابطة الدم .

٧ ـ الأرمل التى يموت زوجها تأخذ فورا صداقها وميراثها دون أى مقابل ودون أية صعوبة . ولها أن تظل فى منزل زوجها الراحل أربعين يوما يتم خلالها تسليمها حقوقها وهدية زواجها .

٨ ـ لا ترغم أرمل على الزواج اذا اختارت حياة العزوبة ، فاذا كان الاقطاع ممنوحا منا فاننا نضمن لها عدم الزواج دون موافقتنا ، أما اذا كان الاقطاع ممنوحا من سيد آخر فاننا نضمن لها عدم الزواج دون موافقة السيد الذى منح الاقطاع .

٩ ـ لن نستولى ـ نحن أو موظفونا ـ على ايراد فرد مدين طالما أن منقولات ذلك الفرد تكفى لسداد الدين ، ولا يجوز الحجز على الضامن طالما أن المدين لديه ما يكفى للوفاء بالدين ؛ فاذا عجز المدين عن الوفاء بالدين ، فانه يجوز فى هذه الحالة مطالبة الضامن .

١٠ - اذا اقترض فرد مبلغا - كبيرا أو صغيرا - من المرابين اليهود ، ومات قبل سداد الدين ، فان الدين لا تستحق عنه فائدة ما طالما كان وريث المدين قاصرا ..

١١ - واذا توفى شخص وفى ذمته دين للمرابين اليهود ، فان زوجة المتوفى لا تلتزم بسداد الدين وتأخذ صداقها من تركة المتوفى قبل سداد الدين .

١٢ - لا تفرض ضرائب جديدة فى مملكتنا الا بموافقة المجلس العام للمملكة الا بقصد فدائنا من الأسر أو تدشين أكبر أبنائنا فارسا أو بمناسبة زواج كبرى بناتنا . وفى هذه الحالات فقط تجمع ضرائب معقولة معتدلة ، ومثل هذا يطبق على ما يختص بضرائب مدينة لندن .

١٣ - تتمتع مدينة لندن بجميع حرياتها واعفاءاتها الجمركية القديمة سواء من ناحيتى البر والبحر . وكذلك الحال بالنسبة لبقية المدن والموانى .

١٤ - ويعقد المجلس العام للمملكة بقصد جمع ضريبة لغرض من الأغراض السابقة ، تتعهد بارسال خطابات مختومة بخاتمنا الى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة والايرلات وكبار البارونات لدعوتهم فى يوم معين ومكان محدد ، بحيث تتم الدعوة قبل موعد الاجتماع بأربعين يوم على الأقل .. ويحدد فى خطابات الدعوة الغرض من الاجتماع ..

١٥ - لن يسمح منذ الآن فصاعدا لأى فرد بأن يجمع ضريبة من أتباعه الأحرار ، الا بقصد فدائه من الأسر أو بمناسبة تدشين أكبر أبنائه فارسا أو زواج كبرى بناته .. وفى هذه الحالات تكون الضريبة المطلوبة عادلة ومعقولة .

١٦ - لا يجبر فارس على تأدية قدر من الخدمات الاقطاعية أكثر . الأصول المقررة .

١٧ ـ لا ترتبط المحاكم العامة بالمحكمة الملكية ، وانما تعقـد فى أماكن أخرى محددة •

١٨ ـ نقوم نحن ـ أو كبير قضاتنا فى حالة غيابنا خارج المملكة ـ بارسال اثنين من القضاة الى كل مديرية أو مقاطعة أربع مرات سنويا ، وهنـاك يعقدون ـ بالاشتراك مع أربعة فرسان يختارهم أهل المقاطعة من أبنائها ـ محكمة استئناف بالمقاطعة ، وفى نفس اليوم والمكان اللذين تعقد فيهما محكمة المقاطعة الابتدائية •

٢٠ ـ اذا أذنب رجل حر فانه يعاقب بالغرامة عقوبة تتناسب مع ذنبه ، بشرط عدم المساس ببيته أو بتجارته اذا كان تاجرا • وفى جميع الحالات لا توقع الغرامات السابقة الا بعد سماع شهادة شهود مجاورين يعتد بقسمهم•

٢١ ـ أما النبلاء والبارونات فلا توقع عليهم عقوبات بالغـرامة الا عن طريق محاكم من أقرانهم •

٢٣ ـ لا تجبر مدينة ولا يجبر رجل على العمل عن طريق السخرة فى بناء جسر فوق نهر ••

٢٧ ـ اذا توفى رجل حر دون وصية فان منقولاته توزع بين أقاربه وأهله أو أصدقائه وفقا لما تراه الكنيسة ، باستثناء أى شخص يكون دائنا للمتوفى فانه يأخذ دينه أولا •

٢٨ ـ لا يجوز لموظف عمومى من رجال الضبط والأمن وغير ذلك • أن يستولى على غلال أو منقولات أى فرد دون مقابل أو ثمن أو على غير رغبة المالك •

٣٠ ـ لا يجوز لموظف أو حاكم من موظفينا أن يستولى على حصان أو عربة من أى فرد حر لاستعمالها فى التنقل دون رغبة صاحبها •

٣٩ - لا يجوز القبض على رجل حر أو سجنه أو طرده من القانون أو نفيه أو انزال أى أذى به أو استدعائه الا بعد محاكمة قانونية من أنداده أو طبقا لقانون البلاد .

٤٠ - نتعهد بألا نبيع حقا من الحقوق المتعلقة بالعدالة أو نحرم أحدا منها أو نماطل فيها .

٤١ - جميع التجار لهم الحرية التامة فى دخول انجلترا والخروج منها والتجول بين أنحائها فى أمن وسلام ، وذلك بقصد البيع والشراء ، مع اعفائهم من جميع الضرائب الغير قانونية ..

٤٥ - نتعهد بألا نعين فى وظائف قضاة أو حكام أو رجال شرطة وأمن أو نواب الا من له معرفة ودراية بالقانون مع تنبيههم الى مراعاة القانون دائما .

٥٢ - اذا جرد شخص من ممتلكاته أو أبعد عن أرضه أو حصنه دون محاكمة قانونية أمام أقرانه ، فاننا سنأمر فورا باعادة أملاكه اليه ..

٦٣ - ستكون الكنيسة حرة تماما ، وسيتمتع رعايانا بجميع الحقـــوق السابقة المنصوص عليها .. وقد أقسمنا على ذلك كما أقسم البارونات ..

١٤ - قرار الحرمان ضد فردريك الثانى

سنة ١٢٣٩

حدث أثناء النزاع بين الامبراطور فردريك الثانى والمدن اللمباردية أن استطاع الامبراطور انزال الهزيمة بقوات الحلف اللمباردى قرب ميلان سنة ١٢٣٧ . وقد فزعت البابوية نتيجة لما يترتب على ذلك من ازدياد نفـــوذ الامبراطور فى شمال ايطاليا ، مما يهدد البابوية ومصالحها تهديدا خطيرا . لذلك أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الامبراطور سنة ١٢٣٩ ، وفيما يلى نص القرار :

* * *

١ - باسم الأب والابن والروح القدس ، والرسولين المباركين بطرس وبولس ، وبما خولناه نحن من سلطة ونفوذ ، نصدر قرار الحرمان واللعنة على فردريك الذى يدعى امبراطورا ، لأنه أشعل الفتنة فى روما ضد كنيستها بقصد طرد البابا وأخوته الكرادلة من كرسى الرسول بطرس ، وبذلك أضر بمكانة الكرسى الرسولى وهيبته ، وأساء الى حرية الكنيسة ، وأخل باليمين التى أقسمها للكنيسة .

٢ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه أمر أتباعه بمنع أخينا الموقر أسقف برنست - مندوبنا الشرعى - من السفر فى مهمته الى الألبيجنسيين(١)، وهى المهمة التى أوفدناه فيها من أجل صالح الكنيسة الكاثوليكية وبقائها .

٣ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون شغل الأسقفيات الشاغرة ، وبذلك يعرض حرية الكنيسة للخطر ويدمر العقيدة الخالصة ، لأنه فى غياب الراعى لا يوجد من يوجه الناس لذكر الله أو العناية بأرواحهم .

٤ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأن رجال الكنيسة فى مملكته

---

(١) - فريق من الهراطقة فى جنوب فرنسا .

يتعرضون للحبس والتجريد والذبح ، كما تتعــرض كنائس الله للنهب والتدنيس والانتهاك .

٥ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه لم يسمح باعادة بناء كنيسة سورانا .

٦ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه قبض على ابن أخ ملك تونس ولم يسمح له بالحضور الى روما لينصر فى كنيستها .

٧ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه سجن بطرس ساراكينو ، وهو نبيل رومانى أرسله ملك انجلترا مبعوثا الينا .

٨ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه استولى على أراضى كنائس فرارا وبيجوجنا وبوندينوم ، وأراضى أسقفيات فرارا وبوندينوم ولوكا فضلا عن أراضى سردينيا ، وذلك خلافا لليمين التى أقسمها للكنيسة .

٩ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه احتل وأتلف أراضى بعض الأمراء فى مملكته ، وكانت هذه الأراضى قد آلت الى الكنيسة .

١٠ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنــــه نهب كنائس مونريال وكفالو ، وقطانيا ، وسكويلاس ، وأديرة ميليتو ، وسانتا ايوفميا ، وتراماجيور، وسان جيوفانى فى لاماى .

١١ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه نهب كثيرا من الأسقفيات والكنائس والأديرة فى مملكته وجردها من كل ما كان فيها من متاع وذلك بعد عمل محاكمات شكلية غير عادلة .

١٢ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه لم يعد الى الداوية والاسبتارية الممتلكات التى نهبهم اياها ، بعد أن تعهد بذلك فى اتفاقية الصلح (صلح سان جرمانو ١٢٣٠) .

١٣ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه جمع ضرائب وأموال من الكنائس والأديرة فى مملكته مخالفة بذلك اتفاقية الصلح •

١٤ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه فرض على رهبان ومقدمي أديرة السسترشيان - وغيرها من المنظمات الديرية - ضرائب شهرية يستغل حصيلتها فى بناء قلاع وحصون جديدة •

١٥ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه عامل بعض أتبـــاع البابا وأنصاره كما لو كانوا ملعونين مشلوحين من الكنيسة ، فصادر ممتلكاتهم ونفاهم وحبس زوجاتهم وأولادهم ، مخالفا بذلك شروط اتفاقية الصلح •

١٦ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون استرداد الأرض المقدسة وأرض الامبراطورية الرومانية •

* * *

بناء على هذا كله ، وتنفيذا لهذا القرار ، نأمر جميع رعاياه من التحلل من يمين الولاء الذى أقسموه له ونمنعهم من طاعته طالما هو تحت عقوبة الحرمان • كما أن نحذره وننصحه ليقلع عن ايذاء الأمراء والنبلاء والفقراء والأرامل واليتامى فى مملكته •

ونحن نوقع ضده قرار الحرمان واللعنة بسبب كل ذنب من الذنـــوب السابقة التى عددناها • أما بخصوص اتهامه بالهرطقة - وهى التهمة المنسوبة الى فردريك - فسنتخذ اجراء بشأنها فى المكان المناسب والزمان المناسب •

---

١٥ - براءة بابوية بانشاء جامعة فى افينون

سنة ١٣٠٣

ظل من المعتقد أمدا طويلا فى العصور الوسطى أنه من حق البابوية وحدها انشاء جامعة . وفيما يلى براءة أصدرها البابا بونيفيس الثامن قبل الأسر البابلى بسنتين لانشاء جامعة فى أفينون . وترجع أهمية هذه البراءة الى ما تحويه من معلومات طريفة عن نظم الامتحانات فى الحياة الجامعية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، وبخاصة منح درجة الأستاذية .

* * *

هناك عدة أسباب تجمعت لتضفى على مدينة أفينون مجدا وسموا ومكانة تهيئها لأن تصبح مقرا لجامعة . ولما كنا نعتقد أن الصالح العام يتطلب جذب رجال العلم الى هذه المدينة حتى تثمر جهودهم فى المستقبل ، فاننا نسمح بمقتضى هذه البراءة بانشاء جامعة فى أفينون ، يقوم فيها الأساتذة بالتدريس ، ويتمتع طلاب العلم بحرية تامة فى اختيار الكليات والمحاضرات التى يرغبون فيهـــا .

وعندما يصل الطلاب الدارسون الى مستوى عال من المعرفة ، ويطلبـــون الترخيص لهم بالتدريس ، فاننا نرى أن يؤدوا امتحانا فى القـــانون الدينى والقانون المدنى والطب والفنون الحرة ، ومن يجتاز الامتحان المذكور يكرم بمنحه لقب الأستاذية فى الكلية التى تخصص فيها من الكليات السابقة . وكل من يتأهل للحصول على هذه الدرجة عليه أن يتقدم لأسقف أفينون الذى يقوم بدعوة أساتذة الكلية المختصة ويؤدى الطالب الامتحان دون دفع أية رسوم ، لاكتشاف مقدرته فى العلم والفصاحة والالقاء وغيرها من فروع المعرفـــة المطلوب توافرها فيمن يرشح لدرجة أستاذ أو دكتور . وبعد أن يقوم أساتذة الكلية بامتحان الطالب ، يسألهم الأسقف عن مستواه وعما اذا كان يستحق الحصول على الدرجة المطلوبة ، وعندئذ يدلى الأساتذة برأيهم ، ويظل هذا

الرأى سريا لا يجوز للأسقف أن يبوح به ، حتى لا يعرف الطالب من أجازه ومن امتنع عن اجازته من الأساتذة • وأخيرا يقوم الأسـقف بالترخيص بالتدريس لمن يراه صالحا ولا يرخص لغير الصالحين ، دون أن يخشى لومة لائم • فاذا كانت أسقفية أفينون شاغرة ، فان نائب الأسقف أو وكيل الأسقفية يقوم بما هو مطلوب من الأسقف القيام به •

وكل من يمتحن ويجتاز الامتحان فى أفينون ويتسلم اجـازة التدريس يتمتع بحقه كاملا فى التدريس فى أى مكان آخر فى فرع التخصص الذى أجيز فيه دون أن يطالب بتأدية امتحان آخر فى الجهة التى يرغب فى التدريس فيهـا •

وحتى يتسنى عقد هذه الامتحانات على الوجه الأكمل ، فاننا نأمر بأن يؤدى الأساتذة الذين يرغبون فى التدريس فى جامعة أفينون ، قسما عاما - وذلك قبل قيامهم بالعمل • يتعهدون فيه بالحضور بأنفسهم اذا دعوا الى هـذه الامتحانات ، وأن يصدروا حكمهم على الطلبة المتقدمين للامتحان فى صراحة وأمانة تامة حتى يجيز الأسقف الصالحين ولا يجيز غيرهم • وكل من يرفض من الأساتذة أداء ذلك القسم لا يسمح له بالتدريس فى الجامعة أو حضور امتحاناتها أو المشاركة فى مزايا الجامعة •

وحتى يتمكن الأساتذة والطلاب من الانصراف فى هدوء وطمأنينة لأداء واجباتهم ، والتقدم بمستوى الدراسات التى يخصصون أنفسهم من أجلها ، فاننا نقر منح الأساتذة والطلاب جميع الحقوق والامتيازات والحـريات والاعفاءات التى يتمتع بها نظراؤهم فى الجامعات الأخرى •

١٦ – المرسوم الذهبى الذى أصدره

شارل الرابع سنة ١٣٥٦

كان المرسوم الذهبى بمثابة دستور حاول فيه شارل الرابع بيان الحقوق والأوضاع الفعلية للأمراء • ولعله أدرك أن ألمانيا عندئذ لم تعد ملكية بقدر ما كانت تحالفا أو اتحادا بين الأمراء • وفيما يلى أهم الفقرات التى وردت فى هذا المرسوم :

* * *

الباب الثانى

طريقة انتخاب ملك الرومان (الامبراطور)

١ – يقام قداس فى اليوم التالى لوصول الناخبين • ثم يؤدى رئيس أسافقة مينز هذا القسم ليردده بعده بقية الناخبين •

٢ – « أقسم – أنا رئيس أسافقة مينز – على الكتاب المقدس أمامى ، وبحق ايمانى بالله وولائى للامبراطورية الرومانية ، أن أدلى بصوتى فى هـــذا الانتخاب بمعونة الله وبما يمليه ضميرى ، لاختيار ملك الرومان وامبراطور المستقبل ، الذى أعتقد فى كونه الشخص الصالح لحكم الشعب المسيحى • وأتعهد بأن أدلى بصوتى حرا غير متأثر بأى حكم أو ثمن أو رشوة أو وعد أو أى عامل آخر من هذا النوع مهما يكن اسمه • وعلى هذا الأساس أستمد العون من الله ومن جميع القديسين » •

٣ – وبعد أن يقسم الناخبون هذا القسم ، يتقدمون للادلاء بأصواتهم ، بشرط ألا يبارحوا فرانكفورت الا بعد أن يتم انتخاب ملك الرومان وامبراطور المستقبل الذى يصبح حاكما على العالم وعلى الشعب المسيحى • فاذا لم يتوصلوا الى اتفاق بشأن اختيار الملك فى مدى ثلاثين يوما من قسمهم الســابق فانهم لا يتناولون غذاء سوى الخبز والماء بحيث لا يبارحون المدينة دون انتخاب الملك المطلوب •

٤ — يكون هذا الانتخاب شرعيا ونهائيا كما لو كان جميع الأمراء قد أجمعوا على اختيار الشخص المنتخب • فان عاق طارىء أحد الأمراء — أو ممثله — ووصل الى مكان الانتخاب متأخرا ولكن قبل أن تتم عملية الانتخاب ، فانه يسمح له بمباشرة حقه فورا فى المرحلة التى وصل فيها •

وبمجرد اختيار الملك ، يقوم وفقا للتقاليد القديمة السائدة بتأكيد جميع الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها الأمراء الناخبون — دينيون وعلمانيون — ، ويكون هذا التأكد بمقتضى كتاب مختوم ، على أن يجدد هذا التأكيد مرة أخرى بعد أن يتوج الملك امبراطورا • ذلك أن من واجبه أن يقوم بذلك تلطفا وعن طيب خاطر وألا يحول بين الأمراء وبين التمتع بحقوقهم وامتيازاتهم •

٥ — فى حالة ما اذا ناب ثلاثة من الناخبين عن ناخب رابع غائب فان صوته فى هذه الحالة يصبح شرعيا ونافذا ، وذلك لحسم عملية الانتخاب •

الباب الرابع

مواضع مقاعد الأمراء الناخبين

١ — عند عقد مجلس الشورى الامبراطورى أو أى اجتماع آخر يجتمع فيه ملك الرومان بالأمراء الناخبين ، يكون ترتيب مقاعد الأمراء على الوجه التالى : على يمين الامبراطور يجلس أولا رئيس أساقفة مينز أو كولونيا تبعا للاقليم الذى يعقد فيه الاجتماع ، ثم يليه ملك بوهيميا لأنه أمير متوج ، ثم كونت بلاتين الراين • وعلى يسار الامبراطور يجلس رئيس أساقفة مينز أو كولونيا ثم دوق سكسونيا ثم أمير براندنبرج •

٢ — عندما يكون المنصب الامبراطورى شاغرا ، فان رئيس أساقفة مينز يباشر سلطته القديمة فى دعوة بقية الناخبين لاجراء عملية الانتخاب ومن حقه أيضا عند اجتماع الناخبين أن يجمع أصواتهم ، فيأخذ صوت كل منهم على انفراد وفق الترتيب الموضح •

الباب التاسع

مناجم الذهب والفضة وغيرهما من المعادن

وقد رسمنا بمقتضى هذا المرسوم أن يتمتع ملك بوهيميا وبقية الأمـــراء الناخبين - دينيين وعلمانيين - بحق امتلاك واستغلال ما يكون فى أراضيهم وما يكتشف فيها مستقبلا من مناجم للذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وغيرها من المعادن ، فضلا عن الملح . هذا الى أن لهم الحق فى فرض الضرائب على اليهود ، وفى جمع الضرائب المقررة فعلا ، وفى التمتع ببقية الحقوق التى تمتع بها أسلافهم أو المعترف بها اليوم .

الفصل العاشر

النقود

ونقر أيضا أن يتمتع ملوك بوهيميا فى المستقبل بحق سك النقود الذهبية والفضية فى جميع أنحاء مملكتهم ، وهو الحق الذى تمتع به ملوك بوهيميـــا السابقين من قبل .

٢ - كذلك نقر بأن يتمتع ملوك بوهيميا فى المستقبل بحق شراء وبيـع الأراضى والقلاع وغيرها من الممتلكات أو الحصول عليها كهدايا من الأمراء

٣ - ونقر أيضا - بمقتضى هذا المرسوم - أن يمتد هذا الحق ليتمتع به بقية الأمراء الناخبين - دينين وعلمانيين - ومن بعدهم ورثتهم الشرعيون ، بنفس الشروط .

١٧ - قيام حلف الراين (١٢٥٤)

لما كانت التجارة - وهى الهدف الاول للمدن - لا يمكن أن تنتعش الا فى جو يسوده الأمن والسلام ، فقد اتفقت مدن وادى الراين على إنشاء حلف فيما بينها بقصد حماية تجارتها ، وذلك بعد أن ترك الامبراطور فردريك الثانى ألمانيا وشأنها ووجه جهوده ونشاطه فى ميدان ايطاليا - صقلية وفيما يلى ، نص وثيقة قيام حلف الراين :

* * *

باسم الثالوث المقدس ، اجتمع قضاة ومعاونو بلديات وجميع مواطنى مدن مينز ، وكولونيا ، وورمز ، وسبير ، وستراسبورج ، وبازل، وغيرها من المدن التى ارتبطت برباط حلف سلام مقدس ، فى ظل ولائها للمسيح الذى نادى بالسلام والخلاص وتقرر ما يلى :

أولا : لوحظ أنه منذ أمد بعيد يتعرض عـــدد كبير من مواطنينا للأذى والضرر والهلاك بسبب ما يتعرضون له من عنف وعدوان فى الطرق ، الأمر الذى يعود بالخسارة والضرر لا عليهم فحسب بل أيضا على غيرهم من الأبرياء دون ذنب جنوه . ولذلك نعتقد أن الوقت قد حان لتقرير وسيلة تضع حدا لذلك العنف وتعيد السلام الى أراضينا جميعا بطريقة سليمة عادلة .

ثانيا : لهذا نعلن على الملأ ، أننا اتفقنا - بمعونة السيد المسيح على القواعـد الآتية لاقرار السلام والعدالة . فأقسمنا جميعا بالتبادل على اقرار السلام فيما بيننا لمدة عشر سنوات تبدأ من يوم ١٣ يوليو ١٢٥٤ . وشاركنا فى هذا القسم رؤساء أساقفة مينز وكولونيا وترير ، وأســـاقفة ورمز وستراســـــبورج ومينز وبازل ، فضلا عن كثير من كونتات ونبلاء البلاد التى شاركتنا فى هذا القسم . ووافقوا جميعا على الغاء الضرائب غير العادلة التى كنا نفرضها على التجار المارين بالطرق البرية والنهرية ، بحيث يتوقف جمع هذه الضرائب بعد ذلك .

ثالثا : ينفذ هذا العهد بحيث لا تستفيد منه القوى الكبيرة فحسب ، وانما تتمتع بالحماية أيضا القوى الصغيرة فضلا عن الكبيرة ، الى جانب رجـــال الكنيسة والرهبان ، والأهالى الملمانيين واليهود ، بحيث يعيشون جميعا فى ظل سلام مقدس • فاذا أخل أحدهم بشروط هذا الاتفاق فاننا جميعا نقف ضده بكل قوانا حتى نضطره الى الرجوع عن موقفه وتقديم ترضية مناسبة •

رابعا : أما بخصوص المنازعات والخلافات القائمة اليوم بين بعض أعضـــاء هذا الحلف ، أو التى ربما تنشأ بينهم فى المستقبل ، فانها تحل على الوجــه الآتى : ـ تختار كل مدينة أو كل حاكم أربعة من الرجـــال الموثوق فيهم ، وتخولهم سلطة كاملة لحل الخلافات القائمة بطريقة سلمية أو قانونية •

١٨ - شروط السلم التى أقره حلف الراين سنة ١٢٥٤

باسم الاله الأب ، اجتمعت فى ٦ أكتوبر سنة ١٢٥٤ مدن حوض الراين المتحالفة من أجل حفظ السلام . وقد عقدنا هذا الاجتماع فى مدينة ورمز وناقشنا بعناية كل ما يمت بصلة للسلم العام . وكان أن دفعنـا ولاؤنا لله وللكنيسة المقدسة للامبراطورية المقدسـة التى يحكمها الآن مولانا وليم (الهولندى) كما دفعنا الصالح العام للجميع - أغنياء وفقراء سواء - الى وضع القوانين التالية ، التى روعى فيها صالح الجميع : الفقراء والعظماء ، الكنسيين والرهبان والعلمانيين واليهود . وفى سبيل تنفيذ هذه المبادىء من أجل الصالح العام لن نضن بأرواحنا أو ممتلكاتنا ، ويشترك معنا فى ذلك الأمراء والحكام الذين شاركونا فى القسم :

١ - نقرر أننا لن نشن حملات حربية الا ما تفرضه الضرورة القصوى وذلك بقرار من مجالس المدن . وتتعهد بأن نتبادل المساعدة ونساعد بعضنا بعضا بكل قوة من أجل ازالة المتاعب التى نعانيها .

٢ - يتعهد كل عضو من أعضاء الحلف - سواء كان مدينة أو حاكما ، مسيحيا أو يهوديا - بعدم تقديم طعام أو سلاح أو معونة من أى نوع الى من يعارضنا أو يهدد سلامنا ، كائنا من كان .

٣ - كذلك لا يجوز لأية مدينة من مدن الحلف أن تقدم قرضا لمن يعتدى على الحلف ويهدد أمنه .

٤ - لا يجوز لمواطن فى أية مدينة تنتمى الى هذا الحلف أن ينضم الى المعتدى عليه أو يقدم مشورة أو معونة . فاذا فعل أحدهم ذلك وجب طرده من المدينة التى ينتمى اليها وعقابه عقوبة شديدة فى ممتلكاته بحيث يصبح عبرة لغيره .

٥ - اذا لجأ فارس أثناء مساعدته لسيده الاقطاعى الذى يحاربنا الى مهاجمتنا أو التحرش بنا فى أى مكان خارج مدن سيده المسورة ، فانـه يعتبر منتهكا للسلم ، ولذا فاننا سنوقع عليه عقوبة صارمة فى نفسه وممتلكاته ، أيا كـان شخصه . فاذا ألقى القبض عليه فى أية مدينة سيعتبر أسيرا ويسجن الى أن يقدم ترضية مناسبة .

ونحن نرغب أيضا في حماية الفلاحين ، وسنقدم لهم الحماية ضد أي عدوان اذا عاونونا فى حفظ هذا السلم • ولكن اذا حاربونا ، واستطعنا الظفر بهم فى أية مدينة ، فاننا سنعاقبهم بوصفهم مجرمين آثمين •

٦ ـ نرى أن تحطم المدن جميع القوارب النهرية ما عدا تلك التى تعمل فى المنطقة المتاخمة لها مباشرة ، وذلك حتى لا يجد أعداء الحلف وسيلة لعبور نهر الراين وتهديد المدن الأعضاء •

٧ ـ نقرر تعهدنا بتقديم كل معونة أو مساعدة ممكنة لحماية أي أمير أو فارس يساعدنا فى اقرار السلم ، أما من يأبى أن يقسم ويتعهد بالمحافظة معنا على السلم ، فانه يستبعد تماما من القواعد العامة لهذا السلم •

٨ ـ اذا احتفظنا فى مدتنا بشخص كرهينة ، فاننا نتعهد بحمايته من أى عدوان ، وترك الحرية له فى دخول المدينة أو الخروج منها وفقما يشاء •

٩ ـ ولكن اذا حاول مثل هذا الشخص الهرب حانثا بأيمانه ، فان المدينة تنذره ثلاث مرات ، فاذا لم يعد فان صاحب الرهن له أن يقيم عليه دعوى أمام القضاة لاعادته •

١٠ ـ وقبل أى اعتبار آخر ، فاننا نحب أن نؤكد رغبتنا فى أن نعيش فى سلم مشترك مع الأمراء وجميع الأهالى فى اقليم الراين ، ونرغب فى أن يتمتع الجميع بحقوقهم كاملة •

١١ ـ يحرم على أى مواطن أن يسب الحكام والأمراء ـ حتى لو كانوا معادين لنا ـ والا تعرض للعقوبة ، لأننا مع كوننا نرغب فى ردعهم ومعاقبتهم على أعمال التهديد والعدوان التى يرتكبونها فى حقنا ، الا أننا نرغب دائما فى تحذيرهم أولا قبل أن نشن حربا عليهم •

١٢ ـ نقرر أن جميع الاتصالات الخاصة بهذا الموضوع يكون مركزها مدينة مينز بين مدن حوض الراين الأدنى ، ومدينة ورمز بين مدن أعلى الراين • ومن هاتين المدينتين تتم جميع اتصالاتنا ومراسلاتنا • وأية مدينة من مدن الحلف يلحق بها أذى أو ضرر عليها أن ترسل رسلها على نفقتها الخاصة الى احدى هاتين المدينتين للتبليغ عما تعرضت له •

١٣ ـ نعد جميع الأمراء والحكام والمدن بأنه فى حالة عقد مؤتمر فى أى

مكان ، فاننا نتعهد بارسال أربع ممثلين مزودين بكافة السلطات من مدنهم لبحث الأمور المعلقة . وعلى هؤلاء المندوبين اخبار مدنهم بكل ما يتخــــذ في ذلك الاجتماع من قرارات وكل من يصحب هؤلاء المندوبين الى مكان الاجتمــاع يتمتع بحصانة ولا يجوز الاعتداء عليه أو تنفيذ حكم عليه قسرا .

١٤ ـ لا يجوز لمدينة أن تقبل كمواطنين أهالى غير مقيمين فيها من أولئك الناس الذين اعتادوا أن يعيشوا خارج أسوار المدن عيشة غير مستقرة ...

١٥ ـ ونؤكد أنه اذا خرق عضو من أعضاء الحلف شروط السلم ، فاننا سنتضامن ضده جميعا كما لو أنه ليس عضوا في الحلف ، وذلك حتى نضطره الى التوبة وتقديم الترضية الكافية .

١٦ ـ ونعد بأن يخبر بعضنا عن طريق المراسلات بحقيقة أعدائنا ومن يتربصون بنا الدوائر ، حتى يمكن عقد اجتماعات في الوقت المناسب تقرر فيها ما يتخذ لحماية أنفسنا منهم .

١٧ ـ نقرر أنه لا يجوز لأحد أن يقتحم ديرا للرهبان أو الراهبات مهما تكن الهيئة أو المنظمة التى ينتمون اليها أو يفرض نفسه ضيفا عليهم أو يطلب منهم طعاما أو أية مساعدة رغم ارادتهم . فاذا فعل أحد ذلك ، اعتبر خارقا لهذا السلم .

١٨ ـ تتعهد كل مدينة من مدن هذا الحلف بالعمل على اغراء المــدن المجاورة لها لكى تقسم باحترام هذا السلم ، فاذا رفضت ذلك فانها تصبح خارجة عن دائرة هذا السلم ، بمعنى أن أيا من يعتدى عليها في الأرواح أو الممتلكات لا يعتبر خارقا لهذا السلم .

١٩ ـ على جميع أعضاء هذا الحلف ـ من المدن والحكام وغيرهم ـ أن يسلحوا أنفسهم ويستعدوا للقتال استعدادا طيبا ، بحيث يمكن الاعتماد عليهم في ساعة الخطر .

٢٠ ـ كل مدينة من المدن الواقعة بين نهر الموزل وبازل عليها أن تعد مائة قارب مسلح ، والمدن الواقعة وراء الموزل تعد خمسمائة قارب مزودة بالرماة المسلحين ، فضلا عن أنه يجب على كل مدينة أن تجهز نفسها بأقصى ما تستطيع تجهيزه من أسلحة للفرسان والجنود المشاة .

١٩ - مراسيم العصبة الهانزية ١٣٦٠ - ١٢٦٤

١ - تتعهد كل مدينة من المدن المشتركة فى هذه العصبة بأن تُبذل كل ما فى وسعها لتطهير البحر من القراصنة ، حتى يستطيع التجار أن يأمنوا على نقل بضائعهم عن طريق البحر .

٢ - أىّ فرد يطرد من مدينة من مدن العصبة بسبب جريمة اقترفهـا لا يصح أن تقبله وتأويه مدينة أخرى .

٣ - اذا خطف القراصنة أو اللصوص أحد المواطنين ، فلا يجوز فداؤه وانما يرسل حزامه وسيفه اليه ليكون ذلك نذيرا لمن اختطفوه .

٤ - واذا افتداه أى تاجر من الأسر ، فان هذا التاجر يتعرض لمصادرة جميع ممتلكاته فى كافة المدن التى تتبع هذه المنظمة والتى تتبع قانون ليوبك .

٥ - أى فرد يدان فى مدينة بالسرقة ويطرد من حماية القانون ، فان جزاءه يكون كذلك فى كافة مدن العصبة .

٦ - اذا حاصر أحد الأمراء مدينة ، فلا يجوز أن يساعد أحد ذلك الأمير فى عمله الا اذا كان الأمير سيده الاقطاعى .

٧ - اذا نشبت حرب فى البلاد ، فلا يجوز لمدينة أن تنزل الأذى برعايا وتجار المدن الأخرى النازلين فيها - سواء فى أشخاصهم أو بضائعهم - وانما تقوم بحمايتهم .

٨ - اذا تزوج رجل امرأة فى مدينة ، ثم أتت امرأة من مدينة أخرى وأثبتت أن الرجل زوجها ، فانه يجب قطع رقبة الرجل هذه الحالة .

٩ - اذا زوج الرجل ابنته أو ابنة أخيه لرجل من مدينة أخرى ، ثم ادعى فرد أن المرأة زوجته الشرعية ، دون أن يستطيع اثبات صحة دعواه ، تقطع رقبة المدعى .

الفهـارس

١ - الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٢ - الأماكن والبقاع

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

مراجع الجزء الأول

اكتفى المؤلف فى القائمة الآتية بأسماء المراجع التى أمكنه الرجوع اليها عند وضع هذا الجزء والتى تردد ذكرها فعلا فى حواشيه .

أرنولد (ت . و) : الدعوة الى الاسلام .
ترجمه الى العربية الأساتذة : الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوى . (القاهرة ١٩٤٧) .

- برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) .
ترجمه الى العربية الدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٥٦) .

- برنارد لويس : العرب فى التاريخ .
تعريب الأستاذين نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد (بيروت ١٩٥٤) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية (جزءان - القاهرة ١٩٦٣) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد أنيس : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (القاهرة ١٩٥٦) .

- لين بول (ستانلى) . العرب فى أسبانيا .
نقله الى العربية المرحوم الأستاذ على الجارم (القاهرة ١٩٤٤) .

— Adams (G.B.) :
The History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066—1216) London : 1905.
— Atiya (A.S.) :
The Crusade in the Later Middle Age. London; 1938.
— Baring-Gould (S.) :
Germany. London ; 1886.
— Barker (B.) Clark (G.) Vaucher (P.) :
The European Inheritance (3 Vols.) Oxford; 1945.

— Barraclough (G.) :
The Origins of Modern Germany, Oxford; 1947.

— Baynes (N.H.) :
Constantine the Great and the Christian Church. London: 1929.

— Bloch (G.) :
L'Empire Romain. Paris; 1931.

— Boyesen (H.H.) :
A History of Norway. London : 1900.

— Bradley (H.) :
The Goths London; Fifth Edition.

— Bryce (J.) :
The Holy Roman Empire, London; 1907.

— Bury (J.B.) :
History of the Later Roman Empire (2 Vols) London, 1923.

— Cary (M.) :
A History of Rome down to the Reign of Constantine. Lodon, 1954.

— Chapman (C.E.) :
A History of Spain. New York; 1931.

— Chapot (V.) :
Le Monde Romain. Paris 1927.

— Coulton (G.G.) :
The Medieval Scene. Cambridge; 1931.

— Coulton (G.G.) :
Life in the Middle Ages. Cambridge; 1928.

— Davis (H.W.C.) :
Charlemagne. London; 1929.

— Dawson (C.) :
The Making of Europe. London; 1935.

— Deanesly (M.) :
A History of Early Medieval Europe. London; 1956.

— Diehl (C.) :
History of The Byzantine Empire, Princeton, 1925.

— *Diehl (C.), Marcais (G.) :*
Le Mond Oriental de 395 a 1081, (Hist. du Moyen Age Tome 3) Paris; 1936.

— Dill (S.) :
Roman Society From Nero to Marcus Aurelius. London; 1925.

— Dill (S.) :
Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. London. 1926.

— Dozy (R.) Stokes (F.G.) :
Spanish Islam, London, 1931.

— Duchesne (L.) :
Histoire Ancience de L'Eglise (3 Vols.) Paris, 1923.

— Dudden (F.H.) :
Gregory the Great; His Place in Hist. and Thought; (2 Vols.) London, 1905.

— Eginhard, The Life of Charlemagne.
(Trans By A.J. Grant) London, 1926.

— Eyre (E.) :
European Civilization (Vol, 3. The Middle Ages) London 1935.

— Fichenau (H.) :
The Carolingian Empire. Oxford, 1957.

— Fliche (A.) :
L'Europe Occidentale de 888 a 1125 (Hist. du Moyen Age. Tome 2) Paris, 1930.

— Fliche (A.) :
La Chretienté Médiévale. Paris, 1929.

— Gibb (H.A.R.) :
The Damascus Chronicle of the Crusades. London, 1932.

— Gibbon (E.) :
The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (7 Vols.) Oxford, 1929.

— Gibbons (H.A.) :
The Foundation of the Ottoman Empire. Oxford, 1916.

— Glover. (T.R.) :
The Conflict of Religions in the Early Roman Empire London, 1910.

— Crousset (R.) :
Histoire des Croisades et du Royaume France de Jérusalem (3 Vols.) Paris, 1936.

— Guizot (M.) :
Histoire de La Civilisation en France. Paris, 1868.

— Halphen (L.) :
Etudes Critiques sur L'Histoire de Charlemagne. Paris. 1921.

— Hardy (E.G.) :
Studies in Roman History (2 Vols.) London 1910.

— Haskins (C.H.) :
The Normans in European History. Cambridge, 1915.

— Haskins (C.H.) :
The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge 1928.

— Hayward (F.) :
A History of the Popes. London, 1931.

— Hearnshaw (F.J.C.) :
Some Great Political Idealists of the Christian Era. London 1937.

— Hodgkin (T.) :
The History of England from the Earliest Times to the Norman Conquest. London, 1920.

— Hodgkin (T.) :
Italy and Her Invaders (4 Vols.) Oxford, 1896.

— Hubert (H.) :
Les Germains. Paris, 1952.

— Hug. (L.) Stead (R.) :
Switzerland. London, 1898.

— Kantorowicz (E.) :
Frederick the Second. London, 1931.

— Karsten (T.E.) :
Les Anciens Germains. Paris, 1931.

— Katz (S.) :
The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1955.

— Kleinclausz (A.) :
Charlemagne. Paris, 1934.

— Lavisse (E.) :
Histoire France de Paris, 1911.

المشاركة والالتزام :

— Lodge (R.) :
The Close of the Middle Ages. London, 1922.

— Lot (F.) :
Les Invasions Germaniques. Paris, 1935.

— Lot (F.) :
The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages. London, 1931.

— Lot (F.) :
Les Invasions Barbares (2 Vols.) Paris. 1942.

— Lot (F.) : Pfister (C.) Ganshof (F.) :
Les Destineen de l'Empire on Occident 395-888. (Findu Moyen Age). Tome I. Paris, 1 1928.

— Mawer (A.) :
The Vikings. Cambridge, 1930.

— Miller (W.) :
The Balkans. London, 1908.

— Morfill (W.R.) :
Russia, London, 1908.

— Morfill (W. R.) :
Poland. London, 1863.

— Moss (H.S.) :
The Birth of the Middle Age. Oxford, 1947.

— Oman (C.) :
The Dark Ages, London, 1908.

— Oman (E.) :
The History of England (1377-1485) London, 1920.

— Orton (C.W.P.) :
Outlines of Medieval History. Cambridge, 1924.

— Ostrogorsky (C.) :
History of the Byzantine State. Oxford, 1956.

— Painter (S.) :
A History of the Middle Ages, New York, 1954.

— Perroy (E.) :
La Guerre de Cent Ans. Paris, 1954.

— Pirenne (H.) :
Mohammed and Gharlemagne, London, 1924.

— Pirrenne (H.) : Renaudet (H.) Perroy (E.), Handelsman (M.) Halphen (L.) :
La Fin du Moyen Age (2 vols.), Paris, 1931.

— Peole (R.L.) :
Illustrations of the Hisotry of Medieval Thought and Learning, London, 1002.

— Rambaud (A.) :
Histoire de la Russie Depuis les Origines insqu'a l'année 1877, Paris, 1878.

— Rogers (J.E.T.) :
Holland, London, 1885.

— Rostovzeff (M.) :
A History of the Ancient World (2 vols.) Oxford, 1928.

— Runciman (S.) :
A History of the Crusade (3 vols.) Cambridge, 1951.

— Stephons (H.M.) :
Portugal. Londéon, 1891.

— Stephenson (C.) :
Mediaeval History. New York, 1943.

— Stevenson (W.B.) :
The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

— Tacitus : Germania (Trans. by G.F. Stout).

— Taylor (O.H.) :
The Mediaeval Mind (2 vols.) London, 1938.

— The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne (Trans. by A.J. Grant) London, 1926.

— Thompson (J.W.) :
The Middle Ages (2 Vols.) London, 1931.

— Tout (T.F.) :
The History of England (1219-1377) London, 1920.

— Tout (T.F.) :
France and England; Their Relations in the Middle Ages and Now. Mandhester, 1922.

— Tout (T.F.) :
The Empire and the Papacy, London, 1924.

— Ullmanu (W.) :
The Growth of Papal Government in the Middle Ages. London, 1955.

— Ullmanu (W.) :
Medieval Papalism, London, 1948.

— Vasiliev (A.A.) :
Histoire de l'Empire Byzantine (2 Vols.) Paris, 1932.

— Wallace-Hadrill (J.M.) :
The Barbarian West, London, 1952.

— Watts (H.E.) :
Spain, London, 1893.

— Winn (H.E.) Workman (H.B.) :
Widif, Oxford. 1929.

— Workman (H.B.) :
The Evolution of the Monastic Ideal, London, 1957.

— Zimmerman (H.) :
The Hansa Towns, London, 1389.

— The Cambridge Medieval History (8 Vols.) Cambridge, 1963.

— The Cambridge Ancient History (Vol. 10).

فهرس الخرائط

موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الايداع ١٧٧٥ / ١٩٧٢

الثمن ١٧٥ قرشا

